المسيرة القرآنية في اليمن

الجزء الثالث

المسيرة القرآنية في اليمن

الجزء الثالث

الأستاذ يحيى قاسم أبو عواضة

© جميع حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

ISBN 978–614–440–142–2

[٢٠١٩م – ١٤٤٠هـ]

مؤسسة محمديون للثقافة والنشر

تصميم:

زينب ن ترمس

إخراج فني:

ماجد مصطفى

طباعة

DBOUK

0096113 336218

info@dboukart.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرس

الفصل الأوّل: في رحاب الرسول محمّد صلى الله عليه وآله وسلم ١١

توطئة ١٣

مقدّمة ١٥

أوّلًا- أهداف رسل الله ورسالاته ١٩

ثانيًا- العالم قبل بعثة النبيّ محمّد صلى الله عليه وآله وسلم ٢٥

ثالثًا- من بعثة النبيّ محمّد صلى الله عليه وآله وسلم إلى هجرته من مكّة ٣٣

رابعًا- مرحلة تأسيس المجتمع الجديد في المدينة ٨١

خامسًا- مرحلة الصراع المسلّح ٨٥

خاتمة ١٨١

الفصل الثاني: في رحاب فاطمة الزهراء عليها السلام ١٩١

توطئة ١٩٣

مقدّمة ١٩٥

أوّلًا- الزهراء عليها السلام قبل التكوين حتّى الولادة ٢٠١

ثانيًا- الزهراء في رحاب أبيها محمّد صلى الله عليه وآله وسلم ٢٠٧

ثالثًا- فاطمة عليها السلام في بيت علي عليه السلام ٢١٩
رابعًا- مقام الزهراء عليها السلام ٢٢٩
خامسًا- فاطمة عليها السلام بعد أبيها محمّد صلى الله عليه وآله وسلم ٢٣٧
سادسًا- الزهراء عليها السلام القدوة ٢٤٧
خاتمة ٢٦٧

الفصل الثالث: في رحاب الإمام علي عليه السلام ٢٧١

توطئة ٢٧٣
مقدّمة ٢٧٥
أوّلًا- الولادة والنشأة والمميّزات ٢٧٧
ثانيًا- مكانته العظيمة عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ٣١١
ثالثًا- الدور المحوري للإمام علي عليه السلام ٣٤٣
رابعًا- بعض وصاياه وحكمه وأقواله ٣٦٩
خامسًا- استشهاده عليه السلام ٣٨٩
سادسًا- الدروس والعبر من حياته عليه السلام ٤٠٥
خاتمة ٤٣٧

الفصل الرابع: في رحاب حديث الولاية ٤٤٩

توطئة ٤٥١
مقدّمة ٤٥٣
أوّلا - حادثة الغدير وأهميّتها ٤٥٧
ثانيًا- توثيق المناسبة ٤٦٩

ثالثًا- البعد الثقافي العقائدي لحديث الولاية ٤٨١
رابعًا- البعد السياسي لحديث الولاية ٤٩٩
خاتمة ٥٣٩
الفصل الخامس: في رحاب كربلاء ٥٤٥
توطئة ٥٤٧
مقدّمة ٥٤٩
أوّلًا- حالة الأمّة قبل الثورة ٥٥٣
ثانيًا- أحداث الثورة ٥٦٩
ثالثًا- أحداث ما بعد الثورة ٦١١
رابعًا- دلالات الثورة ٦٢٥
خاتمة ٦٥٧
الفصل السادس: في رحاب الإمام الشهيد زيد بن علي عليه السلام ٦٦٣
توطئة ٦٦٥
مقدّمة ٦٦٧
أوّلًا- خلفيّات ثورة زيد بن علي عليه السلام ٦٦٩
ثانيًا- ثورة زيد بن علي بن الحسين عليهم السلام ٦٧٧
ثالثًا- دروس وعبر ٦٩٩
خاتمة ٧١١
الفصل السابع: في رحاب الإمام يحيى الهادي عليه السلام ٧٢٣

توطئة ٧٢٥

أوّلًا- ولادته ونشأته ٧٢٧

ثانيًا- صفاته عليه السلام ٧٢٩

ثالثًا- جهاد الإمام يحيى عليه السلام ٧٤٥

رابعًا- كلامه وأقوال العلماء فيه ٧٥٧

خاتمة ٧٦٥

الفصل الأوّل: في رحاب الرسول محمّد صلى الله عليه وآله وسلم

توطئة

إنّنا أحوج ما نكون في هذه المرحلة للعودة الصادقة إلى الرسول ورسالته، وإلى إحياء شخصيّة الرسول الأكرم ﷺ في وجدان الأمّة وفي مشاعرها حتّى يكون للرسول حضور بهديه ونوره وأخلاقه وروحيّته العالية؛ حضورٌ في القلوب، وحضورٌ في النفوس، عزمًا وإرادة، حضوره كقدوة وقائدٍ وأسوة، نتأثّر به في سلوكنا وأعمالنا ومواقفنا وقراراتنا، ونهتدي به بالهدى الذي أتى به من عند الله في واقع حياتنا.

في مرحلة عاصفة لأمّتنا، يسعى أعداؤها الألدّاء ليفصلوها ويبعدوها عن منابع عزّها ومجدها، وأن يكون انتماؤها إلى الإسلام ونبيّه وقرآنه شكلًا لا مضمون له، وزيفًا لا حقيقة له، وأن يكونوا هم من يتحكّمون بالأمّة في واقعها السياسي والثقافي والاجتماعي والاقتصادي، وبطغيانهم وفسادهم وإجرامهم وحقدهم وعداوتهم يؤثّرون في واقع الأمّة ليس فيما يصلحها، وليس بما هو خير لها، بل يؤثّرون في واقع الأمّة بما يزيدها فرقة وشتاتًا، وذلّةً وهوانًا، وجهلًا وتخلّفًا، وانحطاطًا ودناءة، وضعفًا وعجزًا، وشقاءً وعناءً، ويستمرّون في نهب ثرواتها وسرقة خيراتها، والاستفادة من جغرافيّتها؛ فهم أعداء لا يهمّهم مصلحة هذه الأمّة.

ولقد عمل السيّد حسين ‹رضوان الله عليه› ومن بعده السيّد عبد الملك (حفظه الله) على إحياء الرسالة المحمّدية في واقع الأمّة، وتقديم شخصيّة الرسول، القائد والمعلّم والمربّي والهادي للأمّة، كقدوة لهذه الأمّة

التي اجتمع لها الضلال والشقاء بسبب بُعدها عن مصادر عزّتها وقوّتها وفي مقدّمة تلك المصادر النبيّ الأكرم ﷺ.

وقد حرصنا أن نقدّم الإسلام المحمّدي الأصيل بالوجه الحسن؛ هذا الإسلام الذي شُنّت عليه وعلى النبيّ وعلى المؤمنين حرب بكلّ أشكالها؛ حرب عسكريّة، إعلاميّة، ثقافيّة وتضليليّة، كلّ المؤامرات والأنشطة العدائيّة للقضاء عليه منذ مرحلته الأولى، منذ بدايته، وكيف أنّها كلّها فشلت، وسقطت وتهافتت كلّ مكائد الأعداء وانتهت.

وبالتالي، نتمسّك به ونثق بنصر الله لنا؛ لأنّ هذا دين عظيم، مشروع عظيم، مدعوم من الله تسقط أمامه كلّ المؤامرات وكلّ المكايدات وكلّ وسائل الأعداء في مواجهته إن واجهوه إعلاميًّا أو أمنيًّا أو عسكريًّا سيفشلون. المطلوب فقط هو الاستجابة والالتزام والتمسّك بالله.

وقد جمعت هذه المادّة ممّا قدّماه حول شخصيّة هذا النبيّ العظيم، ورسالته العظيمة، ومزجته بالنصّ التاريخي معتمدًا في نقل النص التاريخي على كتاب السيرة للدكتور الشهيد المرتضى بن زيد المحطوري رحمة الله عليه.

والله الموفق

بتاريخ ١ ربيع الأول ١٤٣٩هـ

مقدّمة

يقول السيّد عبد الملك (رضوان الله عليه): «منذ أن خلق الله الإنسان ومنذ بداية مشواره في الحياة، منذ آدم (أبو البشر) وهدى الله ووحيه ونوره يواكب مسيرة الحياة البشريّة، ينير لها الطريق، ويرشدها إلى الخير، ويبقيها على ارتباط في شؤون حياتها مع الله الخالق الملك، وحجّة لله على عباده، ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾[١]؛ لأنّ الإنسان في حياته هذه مسؤول عن أعماله وعن أقواله وعن مواقفه وعن قراراته، ومسؤوليّته عظيمة وجسيمة، وعظم الجزاء يدلّ على عظم المسؤوليّة، ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[٢].

وعلى مدى تاريخ البشريّة في أممها الغابرة: أرسل الله رسله لهداية البشر، وتزكيتهم، ورسم طريق الحقّ والخير، وإقامة العدل، وإزالة الظلم والمنكر، ودفع الفساد، وقيادة البشريّة إلى سعادتها في الدنيا والآخرة»[٣].

وحال الرسول محمّد صلى الله عليه وآله وسلم حال جميع الأنبياء والرسل مع فارق تفوّق قابليّته عليهم وأنّه النبيّ الخاتم، فكيف يمكن لنا أن نتعرّف على شخصيّة الرسول محمّد صلى الله عليه وآله وسلم؟

---

(١) سورة **النساء**، الآية ١٦٥.

(٢) سورة **الزلزلة**، الآيتان ٧ و٨.

(٣) محاضرة السيّد عبد الملك في ٢٠١٦/١٢/١١.

أجاب السيّد حسين ‹رضوان الله عليه› عن هذا السؤال بقوله:

«يعتبر القرآن أهمّ مصدر لمعرفة أنبياء الله ولمعرفة رسول الله ﷺ؛ لأنّك تفترض في البداية أنّ رسول الله ﷺ كان رجلًا قرآنيًّا يتحرّك بالقرآن.

فهمك للنبيّ ﷺ مرتبط بفهمك للقرآن. وعندما تفهم القرآن تفهم بذلك كيف كانت حركته ومواقفه تجسيدًا حقيقيًّا لمبادئ وتوجيهات القرآن الكريم وكيف أنّ سيرته لا تنفصل عمّا يريده الله ونبّه عليه في كتابه؛ فحركته حركة قرآنيّة تربويّة خالصة.

عندما يقرأ أحدٌ السير الأخرى التي قدمت الأحداث التاريخيّة نجد أنّها لا تقدّم الشخصيّة كما هي ولن تعرف شخصيّة النبيّ من خلالها، أو ستكون معرفة محدودة جدًّا. لكن ارجع إلى القرآن الكريم ستفهم لماذا ركّز النبيّ على أن تكون حركته بهذا الشكل المحدّد؟ لماذا استخدم هذا الأسلوب؟

القرآن لا يعرّفك فقط بمجرّد حركات الرسول بل بمشاعره ﷺ، يشرح لك يعرفك حتى مشاعره وتفكيره، فتفهم كيف كانت نظرته للمجتمع الذي هو فيه، كيف كان وهو على فراش الموت كيف كان في نظرته، أنّه مات متألّمًا فعلًا؛ أنّ هذه الأمّة لم تستجب ولم تلتزم بالشكل المطلوب، بل إنّها لم تفهم القضيّة التي أرادها النبيّ بالشكل المطلوب.

تفهم حينها أنّ حركة النبيّ في ذلك العصر، أعماله لم تكن فقط مرتبطة بعصره، بل كانت تلك الأعمال بمثابة هداية للناس إلى آخر أيّام الدنيا، يكشف أشياء ويؤكد على أشياء ويرسّخ أشياء، كان يعلم أنّه نبيّ للعالمين جميعًا، فكان يلحظ في حركته امتدادًا رسالته».

ويقول: في الدرس السادس عشر من دروس شهر رمضان:

«في كتب التاريخ لا يمكن أن تتعرّف وتفهم شخصيّة الرسول ﷺ، فهي ليست سوى عرض تاريخيّ لأحداث معيّنة كُتب فيها بعض الأرقام، لكنّ تحليل شخصيّته قضيّة ثانية؛ التحليل لمنطلقاته في عمله، في تكتيكاته

العسكريّة، في اختياره للقادة، في اختياره للموقع، وأشياء من هذه لا تتناولها معظم السير فعلًا، وهي قضيّة مهمّة. أي ليس المطلوب فقط من كتب السيرة والتاريخ أن نعرف متى وقعت الغزوة الفلانيّة وكم كان عدد المسلمين وكم كان عدد الكافرين وانتهى الموضوع، المطلوب أن نعرف كيف كان ذلك بطريقة تحليليّة، كيف كان تفكير النبيّ ﷺ وتخطيطه، كيف كانت مشاعره، كيف كان تقييمه، كيف كان الوضع بشكل عام: وضع المسلمين والآخرين الكافرين، وضع العالم في ذلك الزمن بشكل عامّ حتّى يكون التاريخ له أثر في النفوس، ويعطي دروسًا مهمّة وعبر.

معرفة الرسول ﷺ قضيّة مهمّة - كما أسلفنا - في أن يعرف الناس فعلًا أنّه نعمة عظيمة من الله يقول تعالى: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾[١]، وفي الوقت نفسه يستوحي الناس من سيرته، يستلهمون من حركته كيف يتحرّكون وكيف يعملون. في الوقت نفسه لا يمكن اعتبار أنّ الأشياء كانت مجرّد معجزات خارقة في الحركة كلّها. الله سبحانه وتعالى على كلّ شيء قدير، ولكنّه حكيم فتسير الأشياء وفق ترتيبات دقيقة. رسوله حكيم لم تكن أعماله عشوائيّة، بل تسير وفق ترتيبات دقيقة وخطط محكمة ورؤى صحيحة ومعرفة حقيقيّة؛ لأنّ الفارق فيما إذا كنّا نتصوّر أنّ كلّ ما كان يحصل هو عبارة عن معجزات خارقة، فيقول الناس بعد ذلك: إذًا محمّد ﷺ قد التحق بالله وليس لدينا شخص تأتي على يديه معجزات خارقة، فلا نستطيع أن نفعل شيئًا»[٢].

عندما تعرف بأنّ تلك الحركة كانت تقوم على خطط محكمة، ورؤية حكيمة، وترتيبات مسدّدة وأنّها ممّا هدى الله رسوله ﷺ إليه من خلال القرآن الكريم؛ ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾[٣] فستكون هذه الأشياء

---

(١) سورة **آل عمران**، الآية ١٦٤.

(٢) من محاضرات الشهيد القائد الدرس السادس عشر من دروس شهر رمضان ١٤٢٤هـ.

(٣) سورة **هود**، الآية ١.

وغيرها قابلة للاستمرار على النهج نفسه، قابلة أن يسير جيل آخر بعد رسول الله ﷺ وفق هدى الله، وفق ما يؤتيهم الله من حكمة، أو ما يأخذون من كتاب الله من حكمة، وما يوفّقهم الله إليه من حكمة في عملهم، ولو لم يكن رسول الله ﷺ موجودًا بينهم، لكنّه موجود بماذا؟ بآثاره، إذا حاولنا أن نعرفه هو وليس فقط أن نعرف أنّه قائد المعركة الفلانيّة بتاريخ كذا وعدد كذا... إلى آخره، لا، تعرفه هو لتعرف كيف كان دقيقًا في عمله، وكيف كان حكيمًا في تعامله مع الأحداث، وتعامله مع الناس، وكيف كانت نظرته إلى الناس بشكل عامّ بما فيهم الأعداء.

لأنّ الذي يحصل اليوم - فعلًا - أنّه أبعد الأنبياء عن قائمة أن يستلهم الناس من عمله ما يفيدهم في حركتهم لإعلاء كلمة الله، والجهاد في سبيله، ترافق مع ذلك عدّة أشياء منها: روايات يتجلّى من خلالها رسول الله ﷺ وكأنّه إنسان بسيط أو غبي وليس ذلك فقط إنّما لا يفهم شيئًا كما يحكون في معركة (بدر)؛ روايات فيما يتعلّق بميدان الجهاد وحتّى فيما يتعلّق بحياته الخاصّة، وأشياء كثيرة قدّموه فإذا بفلان يوجّهه ليحجب نساءه، وفلان يقول: لا، من الأحسن أن نكون هناك على النهر حتّى نكون قريبين من الماء حال المواجهة مع العدوّ ونسبقهم إلى الماء! وأشياء من هذا القبيل فيبدو شخصًا بسيطًا لا يعرف شيئًا!

لا، كان الرسول ﷺ شخصًا مهمًّا جدًّا حكيمًا وقديرًا ذكيًّا، قائدًا على أعلى مستوى للقيادة فعلًا، حتّى إنّ الغربيّين عندما حلّلوا شخصيّته ومواقفه اعتبروه أعظم قائد في التاريخ.

أوّلًا- أهداف رسل الله ورسالاته

ومن أبرز الأهداف لرسل الله ولرسالاته:

١- تحرير الإنسان من العبوديّة لغير الله

هذا العالم كله مملكة الله بسمائه وأرضه وإنسه وجنّه وكلّ مخلوقاته. الله ملكه، الله إلهه، الله ربّه، الله ربّ الناس، الله ملك الناس، الله إله الناس، هو من يجب أن يذعن له الناس، أن يطيعوه، أن يخافوه، أن يرجوه، أن يتفانوا في طاعته والتسليم له، والإنسان بقدر ما يبتعد عن هذا الجانب يذلّ نفسه ويعبِّدُها للطاغوت ويخسر الكثير.

إنّ الغاية الأولى من رسالة الله ورسله إلى عباده هي تعبيد الناس لله وربطهم في كلّ شؤونهم، وأمور حياتهم بالله جلّ شأنه، برحمته، بحكمته، بملكه. هذه غاية مهمّة للرسل والأنبياء؛ تعبيد الناس لله وفي الوقت نفسه يترتّب على هذا تحرير الناس من عبوديّتهم للطاغوت؛ لأنّ الإنسان كلّما ابتعد عن عبوديّته لله فإنّه يمعن في تعبيد نفسه للطاغوت، وليس حرًّا من جعل نفسه عبدًا للطاغوت، إنّ الله جلّ شأنه يقول في القرآن الكريم: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾[1].

(١) سورة **النحل**، الآية ٣٦.

هكذا تتحقّق عبودية الله بشكلها صحيح؛ عبوديّة شاملة في كلّ شؤون الحياة ومجالاتها الحياة. هذه العبوديّة لا تتحقّق إلّا باجتناب الطاغوت؛ لأنّ الطاغوت سواء كان رئيسًا أو ملكًا أو قائدًا أو تحت أيّ عنوان أو يحمل أيّ مسمّى يصدّ الناس عن عبادة الله ويعبّدهم نفسه ويفرض عليهم إرادة نفسه فيما يخالف الله وفيما يضرّ بالناس؛ ولذلك يقول الله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾[١].

٢- إصلاح الإنسان وتربيته وتأهيله

وغاية أخرى من الرسالة الإلهيّة هي إصلاح الإنسان وتربيته والارتقاء به وتكريمه وهدايته؛ ولذلك يذكّرنا الله بعظيم النعمة علينا - نحن العرب - حينما يقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[٢].

ولأنّ أمّتنا في هذا العصر فقدت تفاعلها مع رسالة الله ودينه ونبيّه فقد خسرت العدل، وغرقت في الظلم، وفقدت تزكية النفوس وكان البديل هو الانحطاط والسوء، وفقدت الحكمة وكان البديل هو الغباء والتخبّط في المواقف والعشوائيّة في العمل واللغو في الكلام.

وعندما نعرف أنّ الغاية والهدف هو هذا العدل والخير والسعادة والتزكية والسموّ بالإنسان والوصول به إلى خير الدنيا والآخرة، ونجاته من الشرّ في الدنيا والآخرة، نعرف أنّ الرسالة والدين والرسل من مظاهر رحمة الله بعباده؛ ولذلك يقول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[٣].

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ٢٥٦.

(٢) سورة **الجمعة**، الآيات ٢-٤.

(٣) سورة **الأنبياء**، الآية ١٠٧.

ومن رحمة الله جلّ وعلا أن يجعل لعباده من يربّيهم التربية العظيمة فتزكو نفوسهم، وتطهر قلوبهم، وتُقَوَّم سلوكهم، وتُسَدّد أقوالهم، فيكون الإنسان على مستوى عظيم يليق بما أراد الله له أن يكون عليه، إنسان ذو قيم، ذو مُثُل، يتحلّى بالجميل من الصفات والكريم من الأخلاق، فيكون الإنسان عظيمًا بعيدًا عن الدنس والهوان، فهذا من مظاهر رحمة الله جلَّ وعلا.

٣- تأهيل الإنسان ليكون بمستوى تحمّل المسؤوليّة

من أهمّ الغايات في الدين، وفي رسالات الله سبحانه وتعالى هي تحمّل الإنسان للمسؤوليّة، ومعرفة أنّ له دورًا مهمًّا في الحياة. وأتباع الرسالة الإلهيّة، ومن ينتمون للإسلام، من يدَّعون الإيمان عليهم مسؤوليّة حمَّلهم الله إيّاها وهي مسؤوليّة عظيمة مشرّفة يحظون من خلالها بأن يكون الله معهم وأن ينصرهم وأن يعزّهم وأن يمكّنهم في أرضه، وإذا تخلّوا عنها يكون نصيبهم الخذلان والضعف والعجز والوهن وتتسلّط عليهم الأمم؛ ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى مخاطبًا أمّة الرسالة، أمّة محمّد، وأتباعه، والمنتمين إلى دينه ﷺ: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ﴾[1].

هكذا أراد الله لأمّة الرسالة أن تكون أمّة مسؤولة: آمرةً لكن تأمر بالمعروف وتحقّقه وتسعى لإقامته واقعًا في الحياة، أمّة ناهية تنهى عن المنكر وتزيله وتطهّر ساحتها الداخليّة ومجتمعها منه، ثمّ تنهى الأمم الأخرى عنه، وتصلح في عباد الله وفي أرضه تعالى، ولن يحمّل الله أمّة الرسالة هذه المسؤولية ويتخلّى عنهم. لا، بل ويكون معهم، وهو وليّهم، وناصرهم، ومن يمكّن لهم، ومن يقذف الرعب في قلوب أعدائهم.

---

(١) سورة **آل عمران**، الآية ١١٠.

٤- إقامة القسط في الحياة

من الغايات المهمّة أيضًا لرسالة الله إلى عباده عبر كلّ الرسل والأنبياء وحتّى خاتمهم النبيّ محمّد ﷺ: إقامةُ القسط والعدل في الحياة.

إنّ من القيم الرساليّة العظيمة: العدل الذي هو أساس لاستقرار الحياة، وهو ركيزة أساسيّة في رسالات الله؛ ولذلك سعى الأنبياء العظام على مرّ التاريخ لإقامته في الأرض، وتبعهم في ذلك ورثتهم الحقيقيّون وأتباعهم الصادقون عبر الأجيال، وإقامته مسؤوليّة أساسيّة على الناس قال الله تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾[١].

هذا هو من أهمّ الأهداف التي هدفت إليها رسالة الله ومن أهمّ الغايات هو هذا الجانب: إقامة القسط والعدل في الحياة حتّى يزول الظلم وتتمّ حينها إزالة سيطرة الظالمين واستحكامهم على حياة الناس.

هذا الجانب للأسف هو كمسؤوليّة فرّط الناس فيها؛ لأنّ رسالة الله تبقى مسؤوليّة على أهلها، على أتباعها ليقيموها، ليتحرّكوا على ضوئها، ليقوموا بمسؤوليّات عظيمة أُسنِدت إليهم فيها مع ذلك يكون الله معهم وينالون الشرف العظيم.

وقد كانت تجربة كثير من الأمم تجربة فاشلة، أودت بها إلى الهلاك والخسارة الرهيبة، وكان من أهمّ الأسباب: ارتباط تلك الأمم بطواغيتها ومجرميها، وإعراضها عن الأنبياء وعن رسالة الله جلّ وعلا، مثل: قوم نوح، وعاد، وثمود، والفراعنة، وغيرهم من الأمم.

ففي كلّ مراحلِ التاريخ تعاملتِ الأممُ تجاهَ رسالةِ الله بطريقةٍ خاطئة كَذَّبَتْ وتَعَنَّتَتْ وسَخِرَتْ واستهزأت وأساءَتْ أيّما إساءَةٍ إلى رسل الله وأنبيائِه، قال الله تعالى: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ

(١) سورة **الحديد**، الآية ٢٥.

يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ﴾[٢]. وهكذا كانت أغلبيّةُ البشر تقابلُ رسالةَ الله بالتكذيبِ والرفضِ والتّعنُّتِ، وكان من أكبر الأسباب هو اتِّبَاعُ الأهواءِ والرغباتِ والشهوات، وتأثيرُ المخاوف من قوى الطاغوت، واتباعُ المترفين المستكبرين قال الله تعالى: ﴿وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ﴾[٣] وكان في طليعةِ المكذِّبين والمحاربين لرسالة الله: الملأُ وهم المتحكِّمون المُتسلِّطون من موقعِ الحكمِ والثروة، واقتدارِ السُّلطةِ والمال، والهيمنةِ بالظلم والطغيان قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾[٤]، وفي قوم نوح ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾[٥]، وفي عاد قوم هود ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾[٦]، وفي ثمودَ قوم صالح كذلك، وقومِ شعيب وغيرِهم، قوى الهيمنة المتسلّطةُ ترى في رسالةِ الله بما فيها من الحَقِّ والعدلِ والخيرِ خطرًا على مصالحها، وإنهاءً لِهَيْمَنَتِهَا الظالمةِ المتجبّرةِ والمستأثرة؛ فتتحرّك ضدَّها، ويتحرّك الكثير من الضعفاء معها. بعضُهم بتأثير الأطماع، وبعضُهم بتأثير المخاوف، وبعضُهم بتأثيرِ الدِّعايةِ والتضليل، وبعضُهم بتأثيرِ العصبيّةِ، وكلُّها تحتَ دائرةٍ واحدة هي الأهواء، وما أعظمَ خسارةَ الضعفاءِ الذين يتّبعون المستكبرين! وما أعظم حسرتَهم يومَ القيامة! حيثُ يتجلّى خُسرانُهم الفادح؛ ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعٗا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ

---

(١) سورة **يس**، الآية ٣٠.

(٢) سورة **غافر**، الآية ٥.

(٣) سورة **القمر**، الآية ٣.

(٤) سورة **سبأ**، الآية ٣٤.

(٥) سورة **الأعراف**، الآية ٦٠.

(٦) سورة **الأعراف**، الآية ٦٦.

مِن شَيۡءٖۚ قَالُواْ لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ﴾[1].

إنّ عجلةُ الحياة تسير دون توقّف، ونكبات البشريّةِ وويلاتُها ومعاناتُها استمرّت كذلك نتيجةَ هذا البعد عن الهدى وعن رسالة الله ورسله وتعاليم أنبيائه، جلبتِ البشريّةُ في معظم مراحلِ التاريخ على نفسِها الشقاء، هلكت أُممٌ تِلْوَ أُمم، وضُرِبَتْ بسخط الله بأشكالٍ وألوانٍ من العذاب، الطوفانُ، والصيحةُ، والـزلازلُ، والخسفُ، وَنَـزْعُ البركات، والتسليطُ للبعض على البعض، والفتن، وغيرُ ذلك. قال الله تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾[2]. قليلون كانوا الذين آمنوا واستجابوا، واتّبعوا رسالةَ الله، والتزموا بتعاليم أنبيائه، ودانُوا بدين الله الحقّ، ونَهَوْا عن المنكر قال الله تعالى: ﴿فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّنۡ أَنجَيۡنَا مِنۡهُمۡۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ﴾[3].

(١) سورة **إبراهيم**، الآية ٢١.

(٢) سورة **العنكبوت**، الآية ٤٠.

(٣) سورة **هود**، الآية ١١٦.

ثانيًا- العالم قبل بعثة النبيّ محمّد ﷺ

في مراحل التاريخِ الأخيرةِ، بعث الله موسى إلى بني إسرائيل الذين آمنوا به. ورسالة موسى تحمل مضامين القرآن الكريم نفسها إلّا أنّ حالةُ الانحراف والتحريفِ غلبت عليهم، واضْطَهَدُوا أنبياءَهم والصّالحين منهم، حتّى بعث الله عيسى بن مريم، عليهما السلام، وكثير منهم كذبوه، وأساؤوا إليه وتآمروا عليه، ولم ينفع فيهم ما أَيّدَهُ الله به من المعجزات، وتَعَرّضَتْ شريعةُ عيسى، عليه السلام، للتحريف أيضًا.

تعاظمت الانحرافاتُ والخرافاتُ في واقع البشريّةِ حتّى طُمِسَت معالم الحقّ، وامتلأت الدنيا ظلمًا، وَسَادَها الشِّرْكُ والجهل، وانْتَشَرَتِ الرذائل وارتُكِبَتِ المآثم، وأَطْبَقَتْ على الأرض ظلماتُ الجهلِ والضلالِ والمفاسدِ والتظالم.

كان الوضع على مستوى العالم عمومًا وعلى مستوى العرب خصوصًا وضعًا مشينًا؛ حالة ضلال رهيبة، وحالة ضياع، حالة فرقة، حالة هوان، اختلاف، تناحر، وتشتّت.

قبل مبعث الرسول ﷺ كان العالَم كلّه في شتّى أنحاء الأرض يعيش جاهليّة جهلاء، تعاظم فيها الضلال واشتدّ العمى وطغت الحيرة والتيه واستحكمت فيها هيمنة القوى المستكبرة بقوّتها وجبروتها، تُضلّ وتَظلم وتضاءلت في الأرض دائرة النور وأطبق عليها ظلام الجهل بالحقّ والحقيقة وظلام الخرافة وظلام الباطل والفساد، وامتلأت ظلمًا وجورًا وعدوانًا. وفقدت

البشريّة الوعي بهدف وجودها المقدّس ومسؤوليّتها في الحياة، وأصبح الإنسان تائهًا لا يعي دوره ولا يحمل من اهتمام إلّا أن يأكل ليعيش، وأن يعيش ليأكل كالأنعام السائمة، وتمكّن المجرمون والمستكبرون المتسلّطون الجائرون أن يجعلوا من الخرافة عقيدة ومن الانحراف والفساد سلوكًا، ومن الجهالات والأباطيل عادات وتقاليد، وحرّموا حلال الله وأحلّوا حرامه، وأشركوا به، وتحوّلت كلّ تلك الخرافات والمفاسد والجهالات إلى معتقدات يقدّسونها ويدينون بها ويتشبّثون بها أشدّ تشبّث، وعادات يتعصّبون لها تطبّعت عليها أجيال، يموت عليها جيل ويحيا عليها جيل آخر.

وطغت على حياة الناس واستحكمت وتمكّنت حتّى أصبحت مسلَّمات وثوابت مع كلّ ما ترتّب عليها ونشأ من خلالها من نتائج سيّئة في واقع الحياة من عناء وشقاء وقهر وظلم، وشتات وفرقة، وتناحر ونزاع وبؤس وضعة.

ومعالم رسالة الله تعالى في الأنبياء والرسل السابقين انمحت في منتسبيها فأضاع اليهود معالم رسالة الله تعالى إلى موسى وأنبياء بني إسرائيل، وأضاعت النصارى ميراث عيسى من الهدى والأخلاق، ولم يتبقَ للجميع إلّا طقوس وشكليّات مفرّغة من كلّ معنى، وفاقدة لأيّ تأثير، وأصبحوا جزءًا من الواقع لا صالحين ولا مصلحين، بل منحرفين ومحرّفين، ضالّين ومضلّين، فاسدين ومفسدين، وحوّلوا كتب الله إلى قراطيس يبدونها ويخفون كثيرًا منها، وحوّلوها إلى عبارات مكتوبة معطّلة عن التنفيذ، وموقفة عن الاهتداء بها والعمل بما فيها، وحرفوها سعيًا منهم إلى تحويلها إلى وسائل للتضليل بها والافتراء على الله الكذب باسمها، فضلّوا وأضلّوا كثيرًا وضلّوا عن سواء السبيل.

أمّا العرب فقد وصلت بهم حالة الضلال والجهل إلى أن انتشرت في الجزيرة العربيّة حالة الشرك بأصنام أخرى سواء أصنام من الحجر أو أصنام من البشر، وغفلة كبيرة عن الله - جلّ وعلا -.

من حالات الجهل والتخلّف التي وصل إليها العرب آنذاك أن جعلوا من أحجار- ينحتونها هم بأيديهم وأحيانًا أخشاب وما شابه ذلك - آلهة يتضرّعون إليها، يقدّمون لها النذور، يطلبون منها النصر، يستشفعون بها، يطلبون منها الغوث، ودفع الضرّ، وكان هذا غاية في الجهل والتخلّف! كيف يجعلون ممّا يصنعونه هم بأيديهم آلهة تُعبد وتُرجى؟! فهذا هو بسبب مدى البعد عن الله والغفلة الكبيرة - جلّ وعلا -.

أمّا في شؤون حياتهم وفي تدبير أمورهم كان يتحكّم بهم حفنة من الطواغيت، يعني: كان هناك عبوديّة للجهتين: أصنام حجريّة لها شكل معيّن من العبادة هو التضرّع بطلب الخير ودفع الشرّ والضرّ.

نوع آخر من العبوديّة فيما يتعلّق بشؤون الحياة كان هذا منوطًا بحفنة من الطواغيت: بشرٌ مضلّين مفسدين ظالمين مجرمين يلتفّ حولهم المجتمع ليتحكّموا به وبشؤونه وبتدبير أموره وبالتنفيذ في كلّ قضاياه، يشرّعون له ما شاؤوا، يمنعونه ممّا شاؤوا، يفرضون عليه ما يريدون حسب أهوائهم وأمزجتهم.

وهذا كان له أثر سلبي مُدَمِّر في واقع الحياة؛ فتحوّلت الأمّة إلى ساحة للفسق، ساحة للفجور، ساحة للظلم، وساحة للفقر الشديد حيث أصبحت ثروات الأمّة بيد تلك الحفنة من الطواغيت يستعبدون الناس ويذلّونهم ويقهرونهم فكان هذا أيضًا نوعًا من أنواع العبوديّة للطواغيت ولأصنام البشر التي تتحكّم بالناس في حياتهم وفي شؤونهم وفي تدبير أمورهم.

وأمّا هذه الحالة التي وصل فيها مستوى التخلّف إلى أن تنعدم الرحمة، وتنعدم الإنسانيّة، ينعدم الضمير. وصل الحال إلى أن يقوم الرجل بقتل ابنه الصغير خشية الفقر والإملاق، إلى أن تُوأد البنات خشية العار، إلى أن يتغذّوا بالميتة كالحيوانات تمامًا، كما الكلاب، كما النسور كما غيرها.

عندما يفقد الناس دين الله ويبتعدون عنه؛ يحصل تخلّف وانحطاط لدى المجتمعات البشريّة فتصير في مصاف الحيوانات كالأنعام بل هم أضلّ.

لا يجتمعون على كلمة، مفرّقون، قبائل متناحرة متقاتلة، يقتتلون على أتفه الأمور، أحيانًا على سباق بين بعيرين أو بين فرسين تحصل حروب كبيرة جدًّا وتهدر فيها الدماء والمقدّرات لدى الأمّة، كانت الأمّة تعيش حالة من الضياع في واقع حياتها، ليس لها هدف، ليس لها ما يجمع كلمتها ويوحّد صفّها ويلمّ شعثها ويبنيها أمّة عزيزة قويّة لها قضيّة عظيمة.

من هنا نشأت الأسباب التي كانت بمثابة سبب لمحاولة هدم البيت الحرام إلّا أنّ الحقيقة هي أنّه في ذروة استحكام قبضة الطاغوت، وسيطرة المستكبرين تحرّك أصحاب الفيل بهدف القضاء على ما يعتبرونه تهديدًا مستقبليًّا. فالآثار والأخبار والمؤشّرات قد عرفوا منها أنّ مبعث النور والخلاص آتٍ بقدوم خاتم الأنبياء من مكّة البيت الحرام في ذلك العامّ، فتحرّكوا بجيشهم، يريدون السيطرة المباشرة، ووأد المشروع الإلهي في مهده، والقضاء على الرسالة الإلهيّة، تمامًا كما فعل فرعون في سعيه للحيلولة دون المشيئة الإلهيّة في أمر موسى، عليه السلام، ففشل وخاب، ويسعون أيضًا إلى هدم الكعبة بيت الله الحرام المقدّس ومعلم الشعائر الدينيّة والرمز المتبقّي في اجتماع كلمة العرب آنذاك على تقديسه، مع اختلافهم في كلّ أمورهم الأخرى، وفي مقدّمة جيشهم اصطحبوا فيلًا ليرعبوا به العرب ويخيفونهم بهذا الكائن غير المألوف لديهم والحيوان الكبير الذي رأى فيه الكثير أنّه أمر لا يقاوم.

ومع قداسة البيت الحرام لدى العرب التي توارثوها من عهد نبي الله إبراهيم الخليل وابنه نبي الله إسماعيل، عليهما الصلاة والسلام، وارتباطهم بشعائر الحجّ إلّا أنّهم نتيجة للفرقة والاختلاف والشتات الذي كانوا فيه، والمفاهيم الظلاميّة التي سيطرت على تفكيرهم ورؤيتهم للأمور والخلل الذي كانوا يعانون منه في كلّ واقعهم وفقدانهم الأمل في الله تعالى لم يتحرّكوا بجديّة في مواجهة أصحاب الفيل، وغلبت عليهم الهزيمة واليأس وهربوا من المواجهة وقالوا في الأخير: (للبيت ربّ يحميه) فحمى الله بيته الحرام

وأنفذ مشيئته بقدوم المولود المبارك محمّد ﷺ ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[١].

أمّا أصحاب الفيل فأهلكهم، وأمّا كيدهم ومكرهم فبطل وضلّ وانتهى ولم يتحقّق لهم ما أرادوا، فمشيئة الله تعالى ورحمته بعباده أتت بالخلاص وبالفرج بعد أن بلغ الضلال ذروته، واستحكمت سيطرة الطاغوت والاستكبار في كلّ أقطار الدنيا، وملأت بظلامها قلوب البشريّة فأعمت بصائرهم، وبظلمها الذي سيطر على واقعهم فأشقت حياتهم. قال الله تعالى ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ٥﴾[٢] صدق الله العظيم.

ولهذه المرحلة الختاميّة، أتى من الله نورُه الأعظم برسولِه الخاتَم ورسالتِه الخَاتِمَة وكتابِه المجيد الخالد، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾[٣] إنّه مولدُ ومبعثُ ومجيءُ محمّدِ بنِ عبد الله بنِ عبد المطلب بن هاشم في مكّة البيتِ الحرام.

بعد أربعين يومًا من عذاب أصحاب الفيل الذين جاؤوا لهدم الكعبة (أوّل بيت لعبادة الله وضع في الأرض) وفي يوم من أيّام مكّة المكرمة، في الثاني عشر من ربيع الأوّل وُلد السراج المنير، البشير النذير، وُلد المبعوث رحمة للعالمين، وُلد محمّد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم من ولد إسماعيل عليه السلام، وُلد شاهدًا بتوحيد الله، وُلد ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، وُلد استجابةً لدعوة نبي الله إبراهيم الخليل عليه السلام ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ

---

(١) سورة **يوسف**، الآية ٢١.

(٢) سورة **الفيل**، الآيات ١-٥.

(٣) سورة **النساء**، الآية ١٧٤.

فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[١].

لقد كان مولد رسول الله ﷺ في عام الفيل تلك الحادثة العجيبة، وكان للحادثة بنفسها علاقة بإرهاصات القدوم المبارك لخاتم الأنبياء.

الكون كلّه في فرح وسعادة وابتهاج بهذا المولود الجديد الذي تشعّ من وجهه الرحمة الإلهيّة، والهيبة الربانيّة؛ إنّه حبيب الله اصطفاه على الناس أجمعين من خير أسرة، يعيش مع أمّه آمنة بنت وهب القرشيّة، ترضعه وترعاه في بيت سيّد قريش جدّه عبد المطلب، تلاعبه وتناغيه وتحنو عليه، وهو يعتمد على يديه وركبتيه يحبو إليها ليرضع حتّى ينام في حجرها.

وتمرّ الأيّام والأعوام، وبينما محمّد مع أمّه في طريق العودة من يثرب بعد زيارة قبر أبيه عبد الله الذي مات في المدينة ومحمّد لا يزال جنينًا في بطن أمّه التي تحدّثه عن شجاعة أبيه وكرمه وصفاته الحميدة؛ ها هي آمنة تمرض مرضًا شديدًا، وتنتقل إلى جوار ربّها، وتدفن وقد تركت طفلها وعمره ستّ سنوات.

فيكمل محمّد الطريق مع الركب المسافر إلى مكّة حزينًا لفراق أمّه، ويحنو عبد المطلب بقلب الأبّ الحنون ليخفّف أحزان محمّد ويرعاه ويهتمّ به، وها هو يجلس في صدر المجلس بجواره وزعماء قريش من حوله، فمحمّد يفهم الحديث ويميز الطيّب من الخبيث، ولكن عبد المطلب يغادر الدنيا بعد أن يحثّ ابنه أبا طالب شقيق عبد الله على الاهتمام بمحمّد الذي لا يزال في الثامنة، فكان أبو طالب أكثر اهتمامًا بمحمّد، فلمّا صار في الثانية عشرة اصطحبه إلى الشام ليتعلّم فنون التجارة.

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ١٢٩.

وكلّما مرّت الأعوام يزداد محمّد تميّزًا ورجاحة في العقل فكان يتأمّل في الكون الفسيح فلم يعبد الأصنام ولم يفعل المنكرات، واشتهر في قومه بالصادق الأمين والأخلاق الفاضلة؛ فاختارته خديجة بنت خويلد للتجارة في مالها ثمّ للزواج منها؛ خديجة ذات المال والجمال والجاه والعقل، والتي رفضت زعماء قريش واختارت محمّدًا.

ولأنّ محمّدًا بحاجة - في علم الله - إلى من يشدّ أزره في قابل الأيّام ويواصل مسيرة الهداية من بعده؛ فقد اختارت عناية الله ابن عمّه عليًّا ليكون رفيق دربه وتلميذه الوفيّ المخلص.

ولأنّ هذا الإنسان يحتاج إلى إعداد خاصّ فقد تمّ تأهيله في مدرسة خاصّة على يد أمهر الأساتذة وأكملهم فكان الإسلام مدرسة علي وكان رسول الله محمّد ﷺ مُعَلِّمَهُ ومربّيه.

هكذا أراد الله أن ينضمَّ علي إلى أسرة رسول الله؛ فيكون تحت رعايته، ويعيش في حجره، يتنسّم عطر النبوّة، ويشمّ عطر الرسالة، ويتبعه في كلّ أفعاله وأعماله وخصائصه ومميّزاته، حتّى أضحى ظلّ النبيّ الذي لا يفارقه، وربيبه الذي لا ينفكّ عنه. ورثه في جميع خصاله النفسيّة والدينيّة.

هكذا عُرف محمّد بين قومه بالصادق الأمين. إنّه ابن سادة قريش: هاشم، وعبد المطلب، وأبي طالب، إنّه الحكيم الذي أصلح بين قبائل قريش حين كادت تقتتل عند إعادة بناء الكعبة الشريفة عندما وصل البناء إلى الحجر الأسود واختلفت قبائل مكّة على من يضع الحجر الأسود في موضعه. كان يقف حينها الجبابرة الأشرار أكابر قريش من بني أميّة ينشرون الفساد ويسعون إلى إثارة الحروب والفتن. لقد وقف محمّد ﷺ بحكمته العالية بعد أن تراضوا به حكمًا وقال: «هذا ردائي ضعوا الحجر فوقه وليمسك كلّ كبير قبيلة بطرف من الثوب ولترفعوه جميعًا» فأعجب أهل مكّة بهذا الصلح الذي حافظ على أرواحهم ودمائهم وجنّبهم الحرب فيما بينهم.

ثالثًا- من بعثة النبيّ محمّد ﷺ إلى هجرته من مكّة

كان محمّد ﷺ كلّما ازداد رفعة وشرفًا ومكانة في قومه كان يزداد تواضعًا لهم وعطفًا عليهم ورحمة بهم، حتّى إذا بلغ الأربعين من العمر حين كان في غار حراء كعادته لعبادة الله على دين إبراهيم عليه السلام يتأمّل في خلق السموات والأرض، ويتألّم لحلول الجاهليّة محلّ الدين الحنيف دين إبراهيم الخليل جاءه الروح الأمين جبريل عليه السلام ملك الوحي إلى رسل الله عليهم السلام مبلّغًا له برسالةٍ من ربّ العالمين التي بدأت بسورة **الفاتحة**: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾(١).

وهكذا بعث الله نبيّه محمّدًا ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين بالرسالة الخاتِمة. بعثه بالإسلام - دينًا عظيمًا - هذا الدين القويم هو إرث الأنبياء، هو خلاصة رسالتهم، والقرآن الكريم يمثّل الوثيقة الإلهيّة التي تضمّنت محتوى كتب الله السابقة، بعث الله نبيّه محمّدًا على فترة من الرسل في ظلّ جاهليّة جهلاء أطبقت ظلماتها على الأرض فعمَّ في هذه الدنيا الجهل والظلم والشرّ والفساد والطغيان، وتنصّلت البشريّة عن تعاليم الله التي أتت في السابق عن

---

(١) سورة **الفاتحة**، الآيات ١-٧.

طريق أنبيائه ورسله وكتبه، وأصبح واقع البشريّة واقعًا سيّئًا جدًّا انحطّ الإنسان فيه عن إنسانيّته كثيرًا.

فكان محمّد ﷺ رحمة للعالمين، بعثه الله بالنور والهدى ليعيد للإنسانيّة إنسانيّتها، ليعيد لها كرامتها واعتبارها، ليأخذ بهذا الإنسان ويضيئ له الطريق ليؤدّي دوره في هذه الحياة كخليفة لله في أرضه بما ينبغي أن يكون عليه هذا الإنسان سموًّا وكرامةً وقيمًا وأخلاقًا ومبادئ؛ ليعمر هذه الحياة وهو يحمل تلك القيم والمبادئ، فيكون وجودهُ في هذه الحياة يحقّق له ما أراده الله له من الخير والسعادة في الدنيا والآخرة.

فالنبيّ ﷺ بُعث في محيطٍ وبيئةٍ - شأنها شأن بقيّة العالم - غارقة في الكفر والشرك والظلم والفساد ومفاسد الجاهليّة بكلّ أشكالها وعاداتها السيّئة في مكّة بالرغم من قداسة مكّة، بالرغم من وجود بيت الله الحرام فيها، لكن مع كلّ ذلك كان المجتمع في مكّة شأنه إلى حدٍّ كبير شأن سائر المجتمعات البشريّة في بقيّة أنحاء المعمورة آنذاك، لديه كلّ الأمراض، كلّ المثالب، كلّ المساوئ، والكلّ في كلّ بقاع الأرض كانوا في حاجةٍ ملحّةٍ وماسّة إلى رحمة الله سبحانه وتعالى وهدايته ونوره.

مع هذه الظلمات، مع هذا الضلال وهذا الضياع وهذا الجهل جاءت رحمة الله وإرادته لاستنقاذ هذه الأمّة، ولتغيير واقعها، ولإصلاحها لتتحمّل مسؤوليّة عظيمة يكون لها أثر كبير بتغيّر واقع حياتها، ويكون على ذلك فلاحها وعزّتها وسعادتها في الدنيا والآخرة.

فمثّلت الرسالة الإلهيّة على يد خاتم الأنبياء محمّد ﷺ رحمة وخيرًا وشرفًا للعرب جميعًا، للعالمين أجمع، وعندما تحرّك النبيّ ﷺ برسالة الله سبحانه وتعالى صادعًا لأمر الله؛ يحمل للبشر جميعًا ما تحمله الأنبياء من الخير، ومن إرادة الهداية والحرص على هداية الناس، وإرادة الخير لهم، والعناية والاهتمام البالغ بأمرهم وسعادتهم، والسعي الدؤوب إلى تغيير واقعهم نحو الأفضل، وإعادتهم إلى الصراط المستقيم والمنهج القويم.

وفي ظلّ وضع عالمي سَاقِطٍ تحت هيمنةِ الوثنيّة والشرك، والخرافةِ والجهلِ والضلالِ المبين، بكلّ ما تعنيه مفردة الضلال ككلمةٍ شاملةٍ، ووصفٍ يتّسعُ لكلِّ مفرداتِ التعبيرِ عن الحالة القائمةِ آنذاك من شركٍ وكفر وفساد وظلم وانعدامٍ للهدف، وضياع بكلّ ما تعنيه الكلمة؛ صَدَعَ بالحقّ مبلّغًا لرسالةِ الله، جامعًا بين الرحمة العظيمة للناس والحرصِ على إنقاذهم، ﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾[١] وما أعظم هذا الوصف فيما يفيده من الهداية والنور الذي كان عليه رسول الله منيرًا به للعالمين. وبين الثقة بالله والتوكّل عليه لمواجهة التحدّيات والأخطارِ والصعوباتِ الهائلة، وبقوّةِ الإيمان وبنورِ الهداية الإلهية ثبت مستبصرًا على بيّنةٍ من ربّه في مواجهةِ قُوى الطغيان والضلال التي تحرّكت لمواجهته بكلِّ همجيّتِها وإجرامِها ووحشيّتِها وإمكاناتِها الهائلة: مشركي العرب، واليهود، والرومِ الذين كانوا قوّةً عالميّة لكنّها كلُّها باءت بالفشل، وشقّ الإسلام طريقه والنورُ بَدّدَ الظلماتِ المتراكمة الكثيفةَ وصولًا إلى النصر والفتح المبين ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾[٢].

وما أعظم النور الذي تحرّك به لإخراج الناس من الظلمات! إنّه القرآن الكريم، قال الله تعالى: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾[٣].

لقد كان خروج الناس من الظلمات من خِلالِ خَلاصِهم من تلك الخرافاتِ، والجهالات، والعقائدِ الباطلةِ، والأفكارِ المسمّمةِ، والمفاهيمِ المغلوطةِ، والتصوّراتِ الزائفة الظلاميّة إلى نور القرآن بثقافته العظيمة المحقّة، ومفاهيمِهِ الصحيحة، وتعليماتِهِ التي تُصْلِحُ الإنسانَ وتصلح الحياة، ورؤيتِهِ الواسعة الشاملة الهادية البنّاءة.

---

(١) سورة **الأحزاب**، الآيتان ٤٥ و٤٦.

(٢) سورة **التوبة**، الآية ٣٣.

(٣) سورة **إبراهيم**، الآية ١.

أتى الرسول محمّد ﷺ في إطار المشروع الإلهي؛ رسل الله ‹صلوات الله عليهم› أرسلهم الله رحمة وحجّة على الناس، وفي الوقت نفسه أتى الرسول محمّد ﷺ في هذا الإطار أن لا يهمل العباد، ألا يتركهم في حيرة من أمرهم، في اضطراب، في تردد، في ضلال، في شقاء وهوان.

علّمه الله أن يقول: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾(١)، هو ضمن سلسلة من الأنبياء والرسل، فمنذ وجود الإنسان الأوّل آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ وُجِد هدى الله، وُجِد وحي الله، وُجِدت تعاليم الله، أتى هذا الإنسان إلى الأرض وأتت معه تعاليم الله التي إن اتبعها يسلم من الضلال والشقاء، وإن أعرض عنها يشقى ويعاني ويخسر ويعرّض نفسه لعذاب الله وبأسه وسطوته.

والله يصطفي من عباده رسلًا كما قال جلّ وعلا: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾(٢) يخلقه ويؤهّله، ويجعل منه رجلا مخصّصًا لهذه المسؤوليّة، كما قال عن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾(٣) يجعله فيما هو عليه من نفسيّة عظيمة بحيث يكون جديرًا بهذه المسؤوليّة؛ فيبلّغ رسالات الله على أكمل مستوى بلاغًا مبينًا، ثمّ يكون هو في الواقع العملي، وفي التطبيق القدوة العظيمة لتطبيق دين الله، وأداء التعاليم في واقع العمل والحياة، وفي واقع الالتزام.

وكذا الرسول محمّد ﷺ اصطفاه الله رجلًا عظيمًا جديرًا بالمسؤوليّة الكبيرة؛ مسؤوليّة أن يكون رسولًا يبلّغ رسالات الله، وقدوة في تطبيق تعاليمه تعالى والقيام بها في مهمّة واضحة ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾(٤) هو مظهر من مظاهر رحمة الله، ومن رحمة الله أن يقدّم لعباده التعاليم التي إن اتبعوها عاشوا حياة عزيزة كريمة، بعيدًا عن الهوان والشقاء.

---

(١) سورة **الأحقاف**، الآية ٩.

(٢) سورة **الحجّ**، الآية ٧٥.

(٣) سورة **طه**، الآية ٤١.

(٤) سورة **الأنبياء**، الآية ١٠٧.

جاءت الرسالة الإلهيّة شاملة لمكارم الأخلاق وتزكية الإنسان ليكون عنصر خير في الحياة، وليقوم بمسؤوليّته في الأرض على أساس تلك الأخلاق والقيم. والرسالة الإلهيّة هي مشروع تنويري لإخراج الناس من الظلمات إلى النور من خلال الرسول والقرآن؛ لأنّ الله جلّ شأنه رحمة منه بعباده وتكريمًا لهم يستنقذهم من ظلمات الجهل، والضلال والخداع، والباطل بنوره الذي يكشف الحقائق ويبدّد كلّ الظلمات؛ قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾[1].

ولذلك فمن أعظم مظاهر رحمة الله وتكريمه لعباده أن جعل لهم من نوره ما يكشف تضليل وأباطيل وخداع الظلاميّين المضلّين المخادعين، فكما جعل الشمس سراجًا وهّاجًا منيرًا كونيًّا تستفيد منه البشريّة من نورها ودفئها وترى ما غطّاه الظلام كما قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا﴾[2]. جعل الرسالة والرسول نورًا للقلوب وكاشفًا لظلمات الضلال، منيرًا للهدى والحقّ والحقيقة كما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾[3]. وبالقرآن الكريم تحرّك الرسول ﷺ لإخراج الناس من الظلمات بتصحيح العقائد الباطلة والمفاهيم المغلوطة الظلاميّة إلى رحابة وضياء النور والهدى والحقّ كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ

---

(١) سورة **النور**، الآية ٣٥.

(٢) سورة **نوح**، الآية ١٦.

(٣) سورة **الأحزاب**، الآيتان ٤٥ و٤٦.

لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾(١)، ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾(٢).

لقد ختم الله رسالته بعد سلسلة طويلة من الرسل برسوله الخاتم محمّد صلى الله عليه وآله وسلم، رسولًا ونبيًّا إلى العالمين، في المرحلة الأخيرة والحقبة المتبقّية لحياة البشريّة، واقتراب الساعة، وقد اصطفاه الله ومنحه المؤهّلات العظيمة ليكون بمستوى مسؤوليّته العالميّة: زكاءً عظيمًا، وخُلقًا عاليًا، فكان أعظم وأنجح قائد عرفه التاريخ، رسولًا حكيمًا بما منحه الله من الحكمة، ورحيمًا وحريصًا على هداية الناس وسعادتهم، قال الله تعالى: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾(٣).

رسول يحمل الرحمة لهذه الأمّة، ويعزّ عليه أن يلحق بها أيّ ضرر، كلّ سعيه، كلّ جهده، كلّ اهتمامه فيما يفيد هذه الأمّة، ويدفع عنها الشرّ، إرشاداته كذلك على هذا النحو. يحمل الرحمة، وبالرحمة يتحرّك في أمّته، مرشدًا وهاديًا ومربّيًا، يحمل الحرص الكبير والتألّم على واقع البشر، يحرص على أن يهتدوا وأن يؤمنوا وأن يفلحوا، ويحرص على نجاتهم؛ ولذلك قال الله عنه: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾(٤).

لم يكن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم متجبرًا على أمّته، بل يعاملها على أساس الخير والرحمة، وعلى أساس الحرص على ما فيه صلاحها وسعادتها، ويتحرّك على أساس هذه القيم، وبهذه الروح كرحمة من الله ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ

(١) سورة **الحديد**، الآية ٩.
(٢) سورة **إبراهيم**، الآية ١.
(٣) سورة **التوبة**، الآية ١٢٨.
(٤) سورة **الشعراء**، الآية ٣.

﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾(١)، وفي الوقت نفسه يتحرّك في مواجهة الأشرار، وفي مواجهة الطاغوت، وفي مواجهة الظالمين والمفسدين، يتحرّك بعزيمة عظيمة وبعزّة قال عنها الله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾(٢).

فمحمّدٌ ذلك الرجل العظيم الرحيم الكريم كان عزيزًا يأبى أن يخضع لباطل، أو أن يُذَلّ، ويأبى لأمّته ذلك، وقد ربّى أمّته على أساس العزّة ومفاهيم العزّة، ألَّا يكون لديها القابليّة للإذلال والقهر والاستعباد؛ فتحرّك تحت راية الله. لم يتحرّك في حروبه لا ظالمًا ولا متجبرًّا ولا مستكبرًا ولا طاغيًا، حمل راية الله، وتحرّك على أساس العدل، ولأجل الحقّ، وبالحقّ قاتل، وواجه الطاغوت عند العرب وعند اليهود وعند النصارى، وخاض المعارك تلو المعارك، وحرَّك فرق الجيش الإسلامي في السرايا والغزوات والحروب حتّى رست راية الحقّ، وتحقّق العدل، وعمَّ الخير، وانتشر نور الله؛ فأصبح واقع أمّتنا العربيّة واقعًا عظيمًا، أمّة استبدلت من الذلّ عزًّا، وكرامة وأصبحت أمّة لها قضيّة عظيمة، ومشروع عظيم يربطها بالله ويكسبها رضوانه، ويوصلها إلى جنّته تعالى.

هكذا كانت حركة الرسول ﷺ وهكذا كان وهو في موقع قيادة الأمّة، لا متجبّرًا ولا ظالمًا ولا طاغيًا، وتحرّك كعبدٍ لله.

عندما كان قائدًا للأمّة، ومصحوبًا بالنصر الإلهي، ومسدّدًا من عند الله لم يكن همّه أن يستعبد الناس، ولا أن يفرض عليهم إرادة شخصيّة، أو أن يفرض عليهم هوىً من نفسه، كان يقول كما علّمه الله: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ﴾(٣) وتلقّى تعليمات الله ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ

---

(١) سورة **آل عمران**، الآية ١٥٩.

(٢) سورة **المنافقون**، الآية ٨.

(٣) سورة **الأحقاف**، الآية ٩.

﴿وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾[١]، وتقبّلها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ٢ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾[٢]، هذه بعض الجوانب من أخلاقه وصفاته، وإلّا فالحديث عنه حديث يرتبط بكلّ هذا الدين؛ لأنّ هذا الدين يربطنا به في كلّ مجال من مجالات الحياة.

وبتلك المؤهّلات التي أوصلته إلى منتهى الكمال البشري نهض قائمًا بمسؤوليّته العالميّة التي يترتّب عليها سعادة البشريّة ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[٣]وبالحقّ ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ﴾[٤] يهدي إلى الصراط المستقيم ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[٥].

لقد كان في كماله وأخلاقه بحجم الرسالة وبحجم المهمّة المكلّف بها في مستوى المسؤوليّة، وفي مستوى مواجهة كلّ التحدّيات عظيمًا وعلى خلق عظيم، قال الله عنه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾[٦] في أوجز وأوسع وأدقّ وأشمل وأعظم تعريف بالنبيّ الخاتم، اشتمل على كلّ مكارم الأخلاق وحميد الصفات بأعظم وأكمل ما يمكن أن يصل إليه البشر، وبما لم يصل إليه من البشر سواه.

في عبوديّته لله، حظي باختصاص في مستوى تعبيد نفسه لله فكان أن تكرّر الثناء عليه في القرآن بذلك: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ

---

(١) سورة **هود**، الآية ١١٢.
(٢) سورة **الأحزاب**، الآيات ١-٣.
(٣) سورة **الأنبياء**، الآية ١٠٧.
(٤) سورة **البقرة**، الآية ١١٩.
(٥) سورة **الشورى**، الآية ٥٢.
(٦) سورة **القلم**، الآية ٤.

عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ﴾(١)، ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾(٢).

عظيم في صبره لحمل الرسالة، ومواجهة العالم من حوله، ومواجهة التحدّيات الهائلة والتصلّب وتعنّت الجاهليّة الجهلاء. عظيم في صدقه، وهو أصدق البشريّة، عظيم في طهارته وهو أطهر الخلق، عظيم في أمانته حتّى سُمِّي بالأمين، عظيم في شجاعته وهو الذي لم يرعْه أن تضافرت كلّ قوى الشرك والكفر والطغيان على مواجهته بكلّ قواها وإمكاناتها، عظيم في رحمته للناس، وحرصه الكبير على هدايتهم فتميّز في ذلك وفاق كلّ الأنبياء، حتّى قال الله له مواسيًا: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾(٣)؛ إنّه محمّد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(٤) بهذه الصفات المهمّة التي يتضح من خلالها عظم اهتمامه بأمر الناس وحرصه الصادق الكبير على سعادتهم ودفع كلّ الشرّ والسوء عنهم، وتحقيق الخير والسعادة لهم، بكلّ رأفة ورحمة، عظيم هو، وعظمته وسمّوه بعظمة تلك المبادئ والقِيَم والأخلاق وهي ذاتها التي لم تعد البشريّة تعطيها قيمة وأهميّة كما ينبغي، بينما الرسول يقول: «إنّما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

وقد عظمت منّة الله به على العرب قبل غيرهم من الأمم قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ

(١) سورة **الكهف**، الآية ١.
(٢) سورة **الأنفال**، الآية ٤١.
(٣) سورة **الشعراء**، الآية ٣.
(٤) سورة **التوبة**، الآية ١٢٨.

﴿وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ﴾[١] يعني: الأجيال اللاحقة التي لم تكن قد وُجدت، ومنها جيلنا وعصرنا، ﴿وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٣ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾[٢].

فضل الله ورحمته أتت إلى هذه الأمّة، إلى الأميّين العرب لتغيّر واقع حياتهم، لترفعهم من ساحة الفسق والفجور والخمر والزنا والقتل والتناحر وأكل الميتة ووأد البنات وقتل الأطفال إلى أمّة طاهرة لا يوجد فيها مجال لا للفسق ولا للفجور، أمّة مقدّسة، أمّة نظيفة، أمّة صالحة، أمّة زكيّة النفوس والسلوك وطاهرة القلوب، وأمّة يصلح واقعها؛ لأنّ هذا الدين هو: دينٌ من تمسّك به يعتزّ ويرتفع ويكون موصولًا بالله.

وقد بذل ﷺ كلّ جهده في تغيير الواقع السيّئ الذي كان يعيشه العرب الأميّون والعالم آنذاك، وهو واقع طغى عليه الجهل والخرافة والشرك والكفر والفساد والرذيلة والنهب والسرقة والتفرّق، يعبدون الأصنام ويأكلون الميتة ويشربون الخمر، ويئدون البنات، ويمتهنون النساء، ويرتكبون الفواحش، ويأكل القويّ منهم الضعيف في جاهليّة جهلاء وضلال مبين وضياع للحياة، لا هدف ولا مبادئ، على شفا حفرة من النار.

إنّ دين الله هو صلة ما بين الله وعباده، وعلى أساسه يمنح الناس عزًّا وخيرًا وفلاحًا وخيرًا كثيرًا في واقع حياتهم ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[٣] من السماء والأرض.

عندما أتى رسول الله محمّد ﷺ بُعث في عالم حاله هكذا: عالم مليئ بالضلال، بالفسق، بالفجور، بالتخلّف، بالطغيان، بالضياع، أمّة ومجتمعات

---

(١) سورة **الجمعة**، الآية ٢، ٣.

(٢) سورة **الجمعة**، الآيتان ٣ و٤.

(٣) سورة **الأعراف**، الآية ٩٦.

ليس لها اهتمام بأيّ شيء مهمّ، ضائعة تمامًا، متفرّقة متناحرة ليس لها دين ولا دنيا، ليس لها حاضر، وليس لها مستقبل، ضائعة تمامًا، فكانت رحمة الله بهذا الرجل العظيم، برسالته العظيمة: دين الله العظيم والقرآن المجيد.

حينما بعث الله فينا - نحن الأميّين، نحن العرب - ومنّا محمّدًا ﷺ رسولًا له مهمّة كلّفه الله بها، منوطة بنا، هي لنا، رسول لنا لخدمتنا، يعمل من أجلنا، كلّ ما يقدّمه لنا ومن أجلنا ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ آيات الله التي تمنحنا الوعي، وتمنحنا البصيرة، فلا يستطيع أحد أن يضلّنا، ولا يستطيع أحد أن يخدعنا، ولا يتمكّن أحد من إفسادنا طالما تحلّينا بذلك الوعي وتلك البصيرة ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ ونحن محتاجون إلى الزكاء. الإنسان يحتاج إلى زكاء نفسه كي يكون من الأبرار، وعنصرًا صالحًا في الدنيا، يقوم بدور عظيم يترتّب عليه فلاحه وخيره وفوزه في الدنيا والآخرة.

﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ وأيضًا معلّمًا، من مهام رسول الله تجاهنا أن يكون معلّمًا لنا، يعلّمنا كتاب الله الحكيم، الكريم، كتاب الله الذي يتضمّن التعاليم العظيمة، التي إن أخذنا بها نسعد في الدنيا والآخرة، ونسلم من عذاب الله في الدنيا والآخرة، ونعيش في عزّة وسعادة، ويكون مصيرنا إلى خير في الآخرة أيضًا. معلّم يعلّم كتاب الله، ويعلّم هذه الأمّة الحكمة لتكون أمّة حكيمة في مواقفها، وسلوكها، وأعمالها، حكيمة في إدارة شؤون حياتها، وفي مواجهتها مع أعدائها، وتصرّفاتها، ومواقفها، وأعمالها حكيمة. هذا هو الرسول، وهذا هو مشروعه للأمّة أوّلها ولاحقها، سابقها وآخرها، رسول الله هو لهذه المهمّة؛ ليكون مربّيًا لنا، قائدًا، مصلحًا، يحلّ مشاكلنا، يزكّي نفوسنا، يقودنا إلى حيث الخير، إلى حيث الرشاد، إلى حيث العزّة، إلى حيث المجد، إلى حيث الفلاح، إلى السعادة. يشدّنا نحو الله، ويصلنا بما يكسبنا رضوانه تعالى، وتوفيقه، وعونه، ونصره، رسول يتكفّل بهذه المهمّة لهذه الأمّة، السابقين منهم واللاحقين ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ﴾.

وهذا كلّه يمثّل فضلًا من الله علينا، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾. وأعظم ما أكرمنا الله به أن يجعل منّا رسولًا، له هذه القيم، وهذه التعاليم، وهذه المهام العظيمة؛ لكي نكون نحن خير أمّة أخرجت للناس، نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر، ونسود فوق الأمم الأخرى، وننهض بمسؤوليّة هي شرف كبير لنا. فوجود الرسول فضل من الله علينا، وهو في الوقت نفسه مِنّة ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾[1] حتّى لا نكون أمّة ضائعة، أمّة تعيش دون هدف، ضائعة في كلّ مجال من مجالات الحياة، ثمّ يكون مصيرها إلى جهنّم والعياذ بالله؛ فهذه مِنّة من الله، وفضل، وشرف كبير أنعم الله به علينا ويجب أن نعرف ذلك ونعي أنّ نعمة وجوده ﷺ أعظم من كلّ النعم الماديّة التي لا يصبح لها أيّ قيمة مع الشقاء ومع الضلال ومع البعد عن هدى الله جلّ شأنه.

حينما بُعث رسول الله ﷺ بُعث في مجتمع يبدأ منه المشوار، هذا المجتمع هو مكّة. ومكّة كانت بقعة مقدّسة؛ لأنّ فيها بيت الله الحرام والكعبة المشرّفة، وهي البقعة الأساسيّة التي استوطنها إسماعيل بن نبيّ الله إبراهيم صلوات الله عليهما.

جاء محمّد ﷺ إلى تلك البقعة التي كانت أيضًا قد سيطر عليها الشرك والضلال والفساد مثلما سائر العالم العربي والعالم كلّه آنذاك. جاء الرسول وبدأ مشواره من هناك وبما أنّ هذا الدين هو استنقاذ للإنسان وصلاحه وفلاحه من العبوديّة لغير الله سواء أصنام الحجر أو أصنام البشر؛ فقد عمل على استنقاذ الناس من العبوديّة للطواغيت والمجرمين والمفسدين والمضلّين الذين يتعاملون مع عباد الله بالإذلال والاستعباد والإهانة، لا يهمّهم أمر الناس ولا خيرهم ولا ما فيه مصلحة الناس أبدًا.

---

(١) سورة **آل عمران**، الآية ١٦٤.

والطواغيت عادة ما يكونون أنانيّين مستكبرين تحلّ فيهم روح الإجرام والأنانيّة والاستكبار والغرور؛ فيجعلون من الناس مجرّد خدم وعبيد لهم يسخّرونهم لتحقيق مصالحهم الخاصّة.

ولأنّ المشروع الإسلامي مشروع رحمة للناس يستنقذ المستضعفين، ويبني مجتمعًا عزيزًا كريمًا عظيمًا، ولأنّ المشروع الإسلامي في الوقت نفسه ضدّ الظلم، وضدّ الباطل، وضدّ الطغيان، وضدّ الإجرام والمجرمين فقد أثار حفيظة الطغاة والمجرمين والمستكبرين فعملوا بكلّ جهد لمواجهة نبيّ الله محمّد ﷺ ووقفوا بوجهه بكلّ وسيلة، وأسلوب، بعمل جادّ ومتواصل لوأد هذا المشروع، وللقضاء على هذا الرجل ورسالته الإلهيّة وقد شرح الله جل وعلا واقعهم: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ٤ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ٥ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ﴾[1]. الملأ منهم كبارهم والنافذون فيهم من لهم السلطان والنفوذ أو الثروة والمال انطلقوا في محاربة هذا المشروع الإلهي العظيم ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ﴾[2] لأنّهم كانوا يجعلون من الشرك وسيلة للنفوذ واستعباد الناس من دون الله جلّ وعلا ﴿أَنِ ٱمۡشُواْ﴾ تحركوا في مواجهة هذا المشروع، لا تسكتوا عنه، لا تقفوا أمامه، امشوا، واعملوا ضدّه بكلّ ما يمكن ﴿وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ﴾ في مواجهة هذا الرجل الذي ينسف حالة الشرك والاستعباد لغير الله بصبر ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ٦ مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ﴾[3].

بدأوا في مواجهة المشروع الإلهي الذي يهدف إلى تزكية هذه الأمّة، ومن الطبيعي أنّ مشروعًا يسير بالوجهة الصحيحة ويهدف لهداية الناس وإخراجهم

---

(١) سورة **ص**، الآيات ٤-٦.

(٢) سورة **ص**، الآية ٦.

(٣) سورة **ص**، الآيتان ٦ و٧.

من الظلمات إلى النور أن تتقبّله الأمّة، وتستجيب لله ولمشروعه؛ مثلما يقول الله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾[١].

هذا المشروع شرف كبير لك ولقومك؛ لأنّ فيه مجد قومك وعزّتهم وقيامهم وحياتهم وسعادتهم وسيادتهم وفلاحهم في الدنيا والآخرة وإبعادهم عن الذلّ والقهر والهوان والانحطاط.

لكنّ أولئك الطواغيت والجبابرة أمثال أبي جهل وغيره من أصحاب النفوذ؛ فقد كانوا يرون في دين الله وتحرير العباد من هيمنتهم وطغيانهم خطرًا عليهم، كما يرون فيه مشروعًا يهدّد ما يقوم كيانهم عليه من ظلم وطغيان ونهب وغير ذلك.

تحرّكوا في مواجهة هذا المشروع بداية بالشائعات والأكاذيب، قالوا: عن الرسول إنّه ساحر وإنّ التأثير الذي لهدى الله ولآيات الله ولكلام الله على قلوب الناس ومشاعرهم وعلى نفوسهم سمّوه سحرًا، وحرّكوا هذه الشائعة في المجتمع؛ ليصدّوا المجتمع حتّى عن اتباع الرسول ﷺ والاستجابة له.

قالوا عنه: كذّاب وإنّ ما يقوله كذب، وأنّه ليس رسولًا من عند الله، وأنّ القرآن ليس كتاب الله، قالوا عنه مجنون ومختلّ عقليًا ولديه مشاريع وأفكار غريبة، قالوا فيه ﴿شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾.

بثّوا في أوساط المجتمع هذه الشائعات وبشكل كبير ومكثّف ونشاط كبير، لكنّهم لم يفلحوا لذلك، ولم يتحقّق لهم مأربهم من إيقاف هذه الدعوة. واجهوا النبيّ ﷺ بالتكذيب والعداء وإثارة المجتمع ضدّه، لكنّهم لم يفلحوا في القضاء على هذه الرسالة العظيمة.

استمرّ رسول الله محمّد ﷺ صابرًا محتسبًا ثابتًا، مبلّغًا رسالات ربّه، صادعًا بالحقّ لا يبالي بأنّه وحيد في هذه الأرض، وبدأ مشواره وحيدًا وفيما بعد استجاب له فئة قليلة من الناس. لم يوحشه ذلك، توكّل على الله،

---

(١) سورة **الزخرف**، الآية ٤٤.

وصدع بأمر الله وصبر وصابر واستمرّ في تذكير عباد الله برحمة كبيرة إلى حدّ أنّه من شدّة الحرص على هداية الناس وهو يرى الخطر الكبير عليهم في عدم الاستجابة لله، أن تأخذه الحسرة الكبيرة على الناس والألم الشديد فيقول الله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾[١] تكاد تقتل نفسك، تكاد تختنق من الهمّ والحزن والأسف على هؤلاء كيف لا يهتدون؟! كيف يعرضون عمّا هو خير لهم، عما هو عزّة لهم، عمّا هو شرف كبير لهم، عمّا فيه فلاحهم ومستقبلهم في الدنيا والآخرة؟!.

استمرّت هذه الحالة من الصراع بشكل إعلامي، واستغلّ أولئك النافذون والطغاة والجبابرة نفوذهم لدى الناس لصدّ الناس عن سبيل الله وعن الاستجابة، فكانت الاستجابة في داخل مكّة عبارة عن فئة قليلة من المستضعفين استجابوا للرسول ﷺ وأسلموا وانطلقوا مع الله وفي سبيل الله وكانت قضيّة الإسلام تعني تجنّدًا، كانت مسألة أن تنضمّ، أن تسلم معناه أنّك صرت جنديًّا لخدمة هذه الرسالة العظيمة الإسلام ولإقامة هذا الدين.

تحرّك أولئك المؤمنون وهم قلّة لكنّهم صابرون وثابتون رغم كلّ المعاناة الشديدة: القهر، الظلم لهم، والمحاولة الدائمة لصدّهم وإبعادهم عن الحقّ. واستمرّ رسول الله محمّد ﷺ مبلّغًا لرسالة الله، عاملًا على هداية الناس وإنقاذهم وتحريرهم من العبوديّة لغير الله جلّ وعلا حتّى وصل الحال بعد ثلاث عشرة سنة في مكة إلى أن يحصل تآمر كبير لهدف تصفيته أو القضاء عليه بأيّ طريقة.

وهذه الحالة من العجز وصل إليها كلّ طواغيت الأرض قبل رسول الله وفي عصره وبعد عصره يعجزون عن مواجهة هدى الله؛ لأنّ هدى الله قويّ والحقّ قويّ والباطل زهوق ضعيف وأمام القدرة البيانيّة للحقّ ووضوحه وصدوعه يتحوّل الباطل، عندما يعجز ويفشل في مواجهة الحقّ، عن الحجّة

---

(١) سورة **الكهف**، الآية ٦.

وعن البيان ويلجأ إلى محاولات أخرى منها القوّة لمنع الحقّ وتصفيته والقضاء عليه.

تلاحقت الأحداث بعد أن أعلن رسول الله ﷺ عن الدعوة إلى الإسلام، وانتشر خبرها، وتحدّث الناس بها، وتهيّأ الجوّ النفسي والفكري العامّ لتوجيهها، ومخاطبة الناس بها، فأمر الله نبيّه ﷺ أن يخاطب عشيرته، ويدعوهم إلى الإسلام، ليكوّن له قاعدة شعبيّة، وحماية اجتماعيّة، وليُلقي الحجّة عليهم بالّتي هي أحسن، فأنزل الله تعالى الآية المباركة: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾[1]، والّتي افتتحت بداية مرحلة جديدة من التحوّل في حياة الدعوة إلى الإسلام وأسلوب المخاطبة، ووضع طواغيت قريش في الموضع الضعيف أمام الرأي العامّ المكّي خاصّة والعربيّ بصورة عامّة.

لقد أصبحت قريش هدفًا لدعوة الإسلام، ومساحة للتحرّك وتوجيه الضربات للشرك والكفر والظلم والطغيان. فاختار النبيّ ﷺ أُسلوبًا اجتماعيًّا وجوًّا عاطفيًّا ونفسيًّا مؤثِّرًا، ودعا بني هاشم وهم سادة قريش، فاجتمعوا في دار الحارث بن عبد المطلب بن هاشم وهو من وجوههم وزعمائهم، وكان فيهم أبو لهب وأبو طالب، وهما من أعمام النبيّ ﷺ، وأمر عليّ بن أبي طالب أن يصنع طعامًا للحاضرين ففعل. لقد اجتمع الحاضرون وتناولوا الطعام، عشرة بعد عشرة ثمّ انعقد الاجتماع وتحدّث رسول الله ﷺ وشرح لهم مبادئ الإسلام، وأهداف الدعوة، وما أمره الله به من إنذارهم، وتكريمهم إن استجابوا وأسلموا، إلّا أنّ أبا لهب عمّه تصدّى له وواجه بقسوة ورفض شديدين وقام محرِّضًا بني هاشم عليه ﷺ، وداعيًا إلى تطويقه والأخذ على يده قائلًا: «خذوا على يَدَي صاحبكم قبل أن يأخذ على يدهِ غيرُكُم، فإنْ منعتموه قتلتم، وإن تركتموه ذللتم»[2].

(١) سورة **الشعراء**، الآية ٢١٤ .

(٢) اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي** (ليدن، ١٨٨٣م)، الجزء ٢، الصفحة ٢٧.

ولم ينتهِ خطاب أبي لهب التحريضي الاستفزازي حتّى تصدى له أبو طالب الّذي ما برح يسند محمّدًا ﷺ، ويدافع عن دعوته، وهاجمه هجومًا عنيفًا، معلنًا وقوفه إلى جانب محمّد ﷺ وداعيًا إلى نصرته وتأييده بقوله: «يا عورة! والله لَنَنْصُرَنّه، ثمّ لَنُعينَنّه».

بعد ذلك وجّه خطابه إلى محمّد ﷺ وبنو هاشم تنصت للخطاب قائلا: «يا ابن أخي! إذا أردت أن تدعو إلى ربّك فأعلمنا حتّى نخرج معك بالسلاح»(١).

تطوّر الموقف، ودخل الصِّراعَ بهذا الاجتماع عنصر جديد، وكسبت الدعوة إلى الإسلام هذا الحدث الإعلامي الخطير، والموقف المؤيّد من أبي طالب والتهديد باستخدام السلاح لنصرتها.

ولم تنتهِ مكاسبُ هذا الاجتماع التأريخي الخطير في حياة الدعوة بهذا وحسب بل وخرج الاجتماع بمكاسب أُخرى وتحوّل كبير، «ويومئذ أسلم جعفر بن أبي طالب، وعبيدة بن الحارث، وأسلم خلق عظيم، وظهر أمرهم وكثرت عدّتهم، وعاندوا ذوي أرحامهم من المشركين»(٢).

وفي هذا الاجتماع، وقف الرسول ﷺ بعد أن دعاهم إلى نصرته فقال: فأيّكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيّي وخليفتي فيكم، فلم يجب أحد منهم، فقام عليّ عليه السلام فقال: «أنا يا رسول الله أؤازرك على هذا الأمر»، فقال: «اجلس». فأعاد الرسول ﷺ القول ثانية، وصمت القوم وأجابه عليّ ثانية. ثمّ أعاد ﷺ القول ثالثة، فلم ينطق أحد منهم بحرف، فقام عليّ فقال: «أنا أؤازرك يا رسول الله على هذا الأمر»، فقال: «اجلس فأنت أخي ووصيّي ووارثي وخليفتي من بعدي»(٣).

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) الشيخ الصدوق، **علل الشرائع**، تحقيق بحر العلوم (النجف الأشرف، منشورات المكتبة الحيدريّة، ١٩٦٦م)، الجزء ١، الصفحة ١٧٠؛ أيضًا: أحمد بن حنبل، **مسند أحمد**، الصفحتان ١١١ و١٩٥.

الكثير منهم انصرفوا مستهزئين وقالوا: ألهذا دعوتنا؟ ولكن رسول الله ﷺ في الصباح يذهب إلى الصفا ليدعو قريشًا كلّها.

يقف رسول الله ﷺ فوق الصفا: «يا معشر قريش.. يا معشر قريش أرأيتم لو أخبرتكم أنّ خيلًا بسفح هذا الجبل أكنتم تصدقوني؟»

قالوا: نعم. أنت عندنا غير متهم.

قال: «فإنّي نذير لكم بين يدي عذابٍ شديد».

«يا بني عبد المطلب، يا بني عبد مناف، يا بني زهرة، يا بني تميم، يا بني مخزوم، يا بني أسد إنّي لا أغني عنكم من الله شيئًا إلّا أن تقولوا لا إله إلّا الله».

فقال أبو لهب: تبًّا لك، ألهذا جمعتنا؟

فنزل جبريل عليه السلام بالآيات: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ۝٥﴾[١].

تشاور الطواغيت وقرّروا الذهاب إلى أبي طالب.

قال أحدهم: يا عبد مناف، يا أبا طالب إنّ ابن أخيك يسبُّ آلهتنا ويسفِّهُ أحلامنا.. فإن كان يريد ملكًا جعلناه ملكًا علينا، وإن كان يريد مالًا جعلناه أكثر مالًا.

فأجاب محمّد ﷺ عمّه: «يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتّى يظهره الله أو أهلك دونه».

---

(١) سورة **المسد**، الآيات ١-٥.

وكانت مكائد قريش تبوء بالفشل، فكلّما حاولوا تشويه صورة رسول الله ﷺ ونشر الأكاذيب ومعارضة القرآن، جاء القرآن بقوة لينقض كلّ مكائدهم ويظهر كذب أقاويلهم وخبث نواياهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾[١] وعندما يتكلّمون مع العامّة لتضليلهم يأتي القرآن ليفضحهم.

وفي المكان الذي تجتمع فيه قريش (دار الندوة) كان الجميع يرى بوضوح هزيمة قريش أمام القرآن.

فقام أحدهم قائلًا: لقد جعل محمّدٌ منّا ومن آلهتنا حديث الناس في الأسواق والمجالس ولا نستطيع مقارعته، فما الحيلة لمنع الناس من اتباعه قبل أن يقضى عليكم؟

ويجيبه آخر: لا حيلة إلّا أن يتركه أبو طالب لنا على أن نعطيه مالًا وولدًا، فينطلقون إلى أبي طالب ويعرضون عليه هذا العرض.

فيقول أبو طالب: أمّا المال فلا حاجة لنا به وأمّا الولد فما تنصفوني، أتعطوني ولدًا أغذّيه لكم وأعطيكم ابني تقتلونه؟

قال مطعم بن عدي: ما أراك تريد أن تقبل منّا شيئًا.

فأجاب أبو طالب: والله ما أنصفتموني ولكنّكم قد أردتم وأجمعتم على خذلاني ومظاهرة القوم عليَّ فاصنعوا ما بدا لكم، ثمّ اتجه إلى محمّد وقال له: اذهب يا بنيّ يا محمد فافعل ما أحببت، والله لا أسلمك لشيء أبدًا وأنشد يقول:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتّى أوسد في التراب دفينا

فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة وامضِ وقَرَّ بذاك منك عيونا[٢]

---

(١) سورة **فصلت**، الآية ٢٦.

(٢) من قصيدة لأبي طالب، عليه السلام، عمّ الرسول الأكرم.

ولم يستطع أولئك الطواغيت إطفاء نور الله بأفواههم ويأبى الله إلّا أن يتمّ نوره ولو كره المشركون.

وعندما عجزت قريش عن مقارعة القرآن وثني الرسول ﷺ عن نهجه لجأت إلى تعذيب من أسلم من العبيد والموالي والضعفاء كبلال وخبَّاب وصهيب الذين كسروا حجار الأصنام حين كسرت قريش على صدورهم الحجارة في حرّ الشمس الشديد، وألهبوا نارًا تأكل جبابرة قريش حين ألهبت ظهورهم السياط الظالمة لأيّام ونرى سميّة وزوجها ياسر وابنهما عمّار يضربون أروع مثالٍ للأسرة المؤمنة.

فقال أبو جهل يقول لعمّار: تراجع يا بن سميّة وإلّا قتلت أمّك وأباك أمام عينيك. فلم يردّ عليه عمّار بشيء.

فأشار أبو جهل إلى غلمانه: اضربوهم بالسياط. فيضربونهم حتّى أغمي عليهم، وبينما أبو جهل يعذّبهم مرّ رسول الله ﷺ مواسيًا لهم وموصلًا رسالة إلهيّة عاجلة بموعدهم الجميل ألا وهو الجنة حين قال: «صبرًا آل ياسر فإنّ موعدكم الجنّة»[١].

وبعد أيّام من التعذيب يفقد أبو جهل عقله ويضع سنان رمحه على نارٍ حتّى صار كالجمرة ليتقدّم نحو سميّة - أم عمار - وهو لا يدري أنّ خطواته تلك هي الفاصل بينها وبين الجنّة فيطعن ظهرها لتفيض روحها الطاهرة محلّقة إلى مكان الموعد منتظرة لزوجها ياسر، وهي أوّل شهيدة في سبيل الله، وبعد لحظات التحق بها زوجها ياسر.

ولمّا اشتدّ تعذيب قريش لمن آمن من المستضعفين، أشار رسول الله ﷺ على أصحابه بالهجرة إلى الحبشة فهاجر أحد عشر رجلًا وأربع نساء.

---

(١) **نهج البلاغة**، الجزء ٢٠، الصفحة ٣٦

ولكنّ قريشًا نشرت خبرًا أنّها تركت تعذيب المسلمين، فلمّا بلغهم الخبر رجعوا بعد شهرين فوجدوها حيلة لإعادتهم.

ولكنّ رسول الله ﷺ أشار عليهم مرة ثانية بالهجرة وجعل على رأسهم جعفر بن أبي طالب ‹رضي الله عنه› فخرج ثلاثة وثمانون رجلًا وثماني عشر امرأة بسريّة تامّة وتخطيط محكم، فلمّا علمت قريش غضبت غضبًا شديدًا وأرسلت عمرو بن العاص - أحد دهاة العرب وصديق ملك الحبشة - وحمَّلته بالهدايا للملك ووزرائه.

جثا عمرو بن العاص راكعًا بين يدي ملك الحبشة: كيف حال مولاي الملك المعظم؟

ردّ عليه النجاشي: على أحسن حال.. كيف أنت يا عمرو؟.. لقد غبت عنّا كثيرًا....

دار الحديث بينهما وسلّم إليه الهدايا.

فسأله النجاشي: ما أقدمك إلينا يا عمرو؟

قال عمرو: لقد فرّ إلى أرضكم من قومنا فتية خرجوا عن ديننا ولم يدخلوا في دينكم وجاؤوا بدين جديد.

فأشار البطارقة، وزراء النجاشي: نرى أن تسلمهم لعمرو يا مولانا الملك.

قال النجاشي: فأتوا لنسمع منهم قبل أن نسلمهم.

قال جعفر بن أبي طالب: كنّا قومًا أهلَ جاهليّة، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونُسِيئُ الجوار، ويأكل القويُّ منّا الضعيف، فكنّا على ذلك حتّى بعث الله إلينا رسولًا منّا، نعرف نسبه، وصدقه، وأمانته، وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحّده ونعبده، ونخلع ما كنّا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكفِّ عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقولِ الزُّورِ، وأكلِ مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد

الله وحده لا نشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام - وعدّد عليه أمور الإسلام -؛ فصدّقناه، وآمنّا به، واتبعناه على ما جاء به من الله؛ فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئًا، وحَرَّمْنَا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحلَّ لنا؛ فَعَدَا علينا قَومُنَا فعذّبونا، وفتنونا عن ديننا؛ ليردّونا إلى عبادة الأوثان، وأن نستحلّ ما كنّا نستحلّ من الخبائث، فلمّا قهرونا، وظلمونا، وضيّقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا. خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارِك، ورجونا ألّا نظلم عندك أيّها الملك.

فقال له النجاشي: هل معك ممّا جاء به عن الله من شيء؟ فقال له جعفر: نعم، فقال النجاشي: فَاقْرَأْهُ عليّ، فقرأ عليه صَدْرًا من **كهيعص**، فبكى النجاشي حتّى اخْضَلَّتْ[١] لحيته، وبكت أساقفته حتّى أَخْضَلُوا مصاحفَهم حين سمعوا ما تلا عليهم، ثمّ قال لهم النجاشي: إنّ هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مِشكاةٍ[٢] واحدة؛ انطلقا فلا والله لا أُسَلِّمُهُمْ إليكما، ولا يُكَادُونَ! وقد أسلم رحمه الله، ولمّا مات صلّى عليه النبيّ وأصحابه صلاة الغائب.

وفي اليوم الثاني، جاء عمرو بن العاص وقال للملك: إنّهم يقولون في عيسى قولًا عظيمًا فاستدعى النجاشي جعفر بن أبي طالب وسأله.

فسأل النجاشي: ما تقولون في عيسى بن مريم؟

قال جعفر: نقول فيه ما يقوله نبيّنا، وتلا من سورة **مريم**: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ١٦ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ١٧ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ١٨ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ١٩ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ٢٠ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ٢١ ۞فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا ٢٢ فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ

---

(١) أي ابتلت من الدموع.

(٢) المشكاة: الكوة غير النافذة؛ أراد أن القرآن والإنجيل كلام الله تعالى وأنهما من شيء واحد.

جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا
مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ
ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ
مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا
﴿٢٦﴾ فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخۡتَ
هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ
كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ
وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ
مَا دُمۡتُ حَيّٗا ﴿٣١﴾ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ
وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا﴾[1] حتّى بكى النجاشي والبطارقة.

فقال النجاشي: انطلق يا عمرو فوالله لا أسلّمهم إليكم. ثمّ التفت إلى غلمانه قائلًا: ردّوا إليهم هداياهم.

فتعود قريش خائبة ويفرح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنون بذلك.

نعم إنّه الفرج يتوالى فها هو حمزة بن عبد المطلب راجع من رحلة صيد فتقف جارية لتخبره بسبّ وشتم أبي جهل لمحمّد عند الصفا.

فقال حمزة: وأين أبو جهل؟

قالت الجارية: مع القوم في المسجد.

فيتّجه حمزة مسرعًا إلى المسجد حتّى وقف على رأس أبي جهل والغضب قد بدا على وجهه فيمسك قوسه ويضرب أبا جهل ضربة شجَّه بها وقال: ردّها عليَّ إن استطعت. فقام رجال من الذين في المجلس وقالوا: يا حمزة ما نراك إلّا قد صبأت.

---

(١) سورة **مريم**، الآيات ١٦-٣٣.

فقال حمزة: ومن يمنعني أن أشهد أن لا إله إلّا الله وأنّ محمّدًا رسول الله فامنعوني إن كنتم صادقين.

فقال أبو جهل: دعوا أبا عمارة فإنّي قد سببت ابن أخيه سبًّا قبيحًا.

فكان إسلام حمزة على رؤوس الملأ كصاعقة نزلت بقريش فهو فارسها الأوّل وسيّد من ساداتها فقد أسلم بعده ثلاثون رجلًا وسقطت هيبة قريش وزاد المؤمنون قوّة ومنعة.

إلّا أنّ الفرحة لم تستمرّ طويلًا فإنّ أبا طالب الذي تخشاه قريش يغادرهم إلى جوار ربّه راضيًا مرضيًّا وقد آمن به وأسلم ونصر رسول الله ﷺ ويعمّ الحزن كلّ أحياء مكّة وبيوتها.

ويقف رسول الله ﷺ بجوار الجسد الطاهر ويقول بصوت حزين: كفلتني يتيمًا وربّيتني صغيرًا ونصرتني كبيرًا فجزاك الله عنّي خيرًا. ثمّ يغسله ويكفنه وألم الفراق يملأ الأجواء، ودفنه بيديه الطاهرتين فأصبحت قريش تتحين الفرصة.

وبينما الرسول ﷺ في الأيّام الأولى لفراق أبي طالب يرجع إلى زوجته التي تواسيه في كلّ محنة ولكنّها ترقد على فراش المرض وعيناها تواسي رسول الله في مصابه بعمّه وهي توشك أن تفارقه فمن يواسيه في مصابه بها فقد فاضت روح خديجة الطاهرة إلى بارئها راضية مرضيّة فسألت فاطمة الزهراء أباها بعد الدفن: إلى أين ذهبت أمّي؟

فيجيبها رسول الله ﷺ: «إلى مقرّها في الجنّة مع مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم».

فتطمئنّ فاطمة عليها السلام وترجع مع أبيها إلى المنزل لتكون القلب الحنون الذي يواسي رسول الله ﷺ؛ إنّها حقًّا أمّ أبيها فها هي ترفع الشوك الذي وضعته امرأة أبي لهب على الباب، وها هي ترعاه وتحوطه بعناية فائقة واهتمام كبير، وها هي كذلك تشاطره كلّ الآلام والأحزان وتبكي لذلك.

ويقول لها رسول الله ﷺ: «يا بنتي لا تبكي فإنّ الله مانعي وناصري».

إنّه عام الحزن فكان ﷺ يقول: «ما نالت قريش منّي شيئًا أكرهه حتّى مات عمّي أبو طالب».

وبعد ذلك، كان الإسراء من مكّة (٢٧ رجب قبل الهجرة بسنة -٦٢١م) إلى بيت المقدس، يقول الله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾[١].

وفي رواية أمّ هاني: أَنَّهُ مِنْ بيتها؛ إذ قالت: نام عندي تلك الليلة في بيتي فصلّى العشاء الآخرة، ثمّ نام ونمنا، فلمّا كان قبيل الفجر أَهَبَّنَا رسول الله ﷺ، فلمّا صلّى الصبح صلّينا معه، فقال: يا أمّ هاني لقد صليت معكم العشاء الآخرة كما رأيتِ في هذا الوادي، ثمّ جئت إلى بيت المقدس فصلّيت فيه، ثمّ قد صليت صلاة الغَدَاةِ معكم الآن كما ترين، ثمّ قام ليخرج فأخذت بطرف ردائه فقلت: يا رسول الله لا تُحَدِّثْ بِهِ النَّاسَ فَيُكَذِّبُوكَ وَيُـؤْذُوكَ، قال: «والله لَأُحَدِّثَنَّهُمُوهُ»! قالت: فقلت لجارية حبشيّة: اتبعي رسول الله حتّى تسمعي ما يقول للناس وما يقولون له؟ فلمّا خرج رسول الله ﷺ إلى الناس أخبرهم فعجبوا! وقالوا: ما آيةُ ذلك يا محمّد، فإنّا لم نسمع بهذا قطّ؟ قال: آيةُ ذلك أنّي مررتُ بِعِيرِ بني فلان وهي قادمةٌ عند طلوع الشمس؛ وقد سألوه متعجّبين: إنّا لنركض إلى بيت المقدس شهرًا ذهابًا وشهرًا إيابًا، وأنت تأتيه في ليلة واحدة؛ فَصِفْهُ لنا! قال ﷺ: «لَمَّا كذبتني قُرَيْشٌ قمتُ في الحِجْرِ، فجلى الله لي بيت المقدس فَطَفِقْتُ أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه»[٢].

---

(١) سورة **الإسراء**، الآية ١.

(٢) **صحيح مسلم**، الجزء ١، الصفحة ١٠٨.

ولَمَّا كان في الصباح ابتدروا إلى الطريق يرقبون الإبل التي أخبر بقدومها، فقال أحدهم: هذه الشمس طلعت، وقال آخر: وهذه العير قد أقبلت.

وفي المصابيح: عن الحسين بن القاسم من كلام ذكره الشرفي: «وروي أنّه أتى إلى أهل مكّة بأخبار من سافر منهم إلى الشام فلمّا وصل أصحابهم سألوهم عن ذلك فوجدوه حقًّا» انتهى المراد.

وقوله تعالى: ﴿بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ﴾ (البركة): الخير الخفي ولعلّ المراد بركات الرسالة والوحي في عهد إبراهيم وموسى وعيسى وبركات الأرض هناك لما فيها من الثمرات والماء، وقوله تعالى: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ﴾ تعليل للإسراء به أي إنّه أسرى به ليريه بعض آياته، فهو تثبيت لقلبه وزيادة في إيمانه[١].

أمّا موضوع المعراج، فلم يثبت بطرق صحيحة والآيات التي تُوَظَّف أَنَّها تتحدّث عن المعراج في سورة **النجم** هي لا تعني ذلك أبدًا ولا تتحدّث عن موضوع المعراج، ومعناها الحقيقي هو كالآتي:

﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ﴾ الخطاب لقريش ومن حولهم يؤكّد لهم أنّ صاحبهم الذي يدعوهم إلى توحيد الله وترك الشرك والباطل الذي هم عليه ما ضلّ فيما أتاهم به وبلّغهم، ما ضلّ عن الطريق ولا عن الصواب ﴿وَمَا غَوَىٰ﴾ ما خاب بل رشد بالتبليغ والإنذار.

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ﴾ فيما يبلغكم وفيما يقوله لكم. ﴿إِنۡ هُوَ﴾ هذا القرآن وهذا الكلام الذي يبلّغكم عن الله ﴿إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾ إليه إلى النبيّ ﷺ من الله تعالى، وسمّي الوحي وحيًا باعتبار أنّه خفيّ، والعرب تسمّي الدلالة الخفيّة وحيًا.

﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ﴾ يعني علّم النبي ملك شديد القوى، ونحن لا نعرف تفاصيل عن قوّة جبريل عليه السلام إلّا أنّ منها قوّة النزول وقوّة الطلوع وقوّة

(١) انتهى من تفسير السيّد العلّامة المجاهد بدر الدين الحوثي رضوان الله عليه.

التعليم. ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ المرّة، هي القوّة العظيمة ﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾ استوى جبريل وظهر للنبيّ على الهيئة المناسبة للنبي. ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ استوى وهو لا يزال في الأفق الأعلى في الهواء. ﴿ثُمَّ دَنَا﴾ بعد ما استوى وتهيّأ للنزول، ﴿دَنَا﴾ قرب من الأرض ﴿فَتَدَلَّىٰ﴾ إلى جهة النبيّ ﷺ ليصل إلى حوله. ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ قرب منه مقدار مسافة قوسين، وهي المسافة فيما بين جبريل ومحمّد ﷺ، أو مثل مسافة ما يبلغ القوس الأوّل ثمّ القوس الثاني عند الرمية بهما ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾ يعني أو أقرب، وهذا الترديد لا يعني الشكّ في المسافة بل قد يعني أنّه تارة يقرب فيصير أقرب من قاب قوسين، وتارة يبعد فيصير مقدار قوسين. ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ رجع الكلام إلى الوحي؛ لأنّه قال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ فأوحى الله بواسطة جبريل ﴿مَآ أَوْحَىٰ﴾ وهو ما يبلغه الرسول إلى أمته. ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ﴾ فؤاد النبيّ ﷺ ﴿مَا رَأَىٰٓ﴾ لأنّها رؤية بصر وقلب، ما كذب فيها ليست خياليّة بل هي رؤية حقيقيّة لأنّ البصر قد يخدع مثل أن يرى السراب ويظنّه ماء.

﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ هذا إنكار عليهم حين انطلقوا يمارونه ويجادلونه ويشكّكون عليه في شيء قد تيقّنه ورآه رؤية حقيقيّة ببصره وقلبه. ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ هذه ليست هي النزلة الأولى، بل قد نزل إليه جبريل عليه السلام مرة سابقًا. ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ والسدرة هي شجرة العلب يسمّى ثمرها الدوم أو النبق، ﴿ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ لعلّه منتهى جبريل حين نزل إلى الأرض هذا أقرب عندي، وكأنّ الآخرين من المفسّرين اعتمدوا روايات غير موثوقة حين جعلوا سدرة المنتهى شجرة فوق السبع السموات؛ لأنّه قال: ﴿نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ فصرّح بالنزلة، وكذلك اعتمدوا في تحديد مكان السدرة على روايات في تفسير قوله: ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ فجعلوا الجنّة حقيقة هناك فوق السبع السموات، لكنّ الجنّة عرضها السموات والأرض فكيف يمكن تحديدها بأنّها هي عند سدرة المنتهى، لا أن سدرة المنتهى عندها! هذا بعيد، وعندي أنّ المقصود هذا الوحي الذي جاء به جبريل حين نزل فكأنّه جاء بالجنّة لأنّه جاء بتعريف طريقها وتعليم أسبابها مثل ما قال في

الحديث: «الجنّة تحت ظلال السيوف»، «الجنّة تحت أقدام الأمهات» بمعنى سبب الجنّة، كما يبعد أن تكون بمعنى بستان في مكان ما في الدنيا، وكذا كونها جنّة مؤقّتة في السماء تستقرّ فيها أرواح الأنبياء والشهداء لأنّه قال جنّة المأوى ولا من جنّة مأوى إلّا المعهودة التي قال في سورة **النازعات**: ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾(١) والله أعلم.

﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ اذكر.. وذلك عند نزول جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ وحين غشي السدرة من البركات والخير والهدى والنور شيء عظيم مع نزوله على السدرة على ضخامته وعظمه. ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ ما زاغ بصر الرسول، مثل قوله: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ يعني: ما زاغ بصره حتّى يرى الشيء على غير حقيقته، ولا طغى، بأن يكبّر الشيء الصغير مثلما يُرى بالمجهر. ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ رأى آيات كبرى عظيمة لعلّها نفس جبريل لأنّه من آيات ربّه وقد يكون جبريل عند نزوله أراه آيات من آيات ربّه ليعلم أنّه رسول من الله(٢).

وفي مواسم الحجّ، كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يدعو قبائل العرب قبيلة قبيلة، فكانوا يرفضونه ويصدّونه حتّى وصل إلى ستّة رجال من قبيلة يمنيّة هي الأوس والخزرج في يثرب.

التقى بهم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عند جمرة العقبة: السلام عليكم يا أهل يثرب.

فاستقبله أسعد بن زرارة الخزرجي: وعليك السلام.

قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «إنّي رسول الله لأدعو الناس إلى عبادة الله وألّا يشركوا به شيئًا وأنزل عليَّ القرآن لأنذركم به ومن بلغ...» ثمّ تلا آيات من القرآن الكريم فأنصت القوم حتّى سكت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) سورة **النازعات**، الآية ٤١.

(٢) انتهى من تفسير السيّد العلامة المجاهد بدر الدين الحوثي (رضوان الله عليه).

فقال أهل يثرب: ما أعذب هذا الكلام! يا قوم إنّ هذا رسول الله وما هذا الكلام إلّا من عند الله.. نشهد أن لا إله إلّا الله وأنّك رسول الله. فبايعوه. يا رسول الله ابعث معنا من يعلّمنا ويفقّهنا ويدعو قومنا إلى الإسلام.

فأجاب رسول الله ﷺ: سنبعث معكم مصعب بن عمير بن هاشم. فينطلق أهل يثرب بعد الموسم ومعهم مصعب بن عمير.

فيقول مصعب بن عمير - بعد ثلاثة أيّام-: يا أهل يثرب إنّ رسول الله بعثني أدعوكم إلى عبادة الله وألّا تشركوا به شيئًا.. وتلا عليهم من القرآن الكريم فأنصتوا فلمّا فرغ من التلاوة أقبلوا عليه يزدادون من التلاوة فيتلو عليهم وهم منصتون بقلوبهم.

وقال سعد بن معاذ: يا قوم إنّ هذا الكلام من عند الله وما جاء به إلّا رسول من عند الله وإنّي كبيركم سعد بن معاذ أشهد أن لا إله إلّا الله وأنّ محمّدًا رسول الله. فأسلم بعده المئات من أهل يثرب.

ولمّا جاء الموسم الثاني للحجّ، خرج الكثير من أهل يثرب ليروا رسول الله ﷺ ويسمعوا منه القرآن ولمّا وصلوا لم يُظهروا إسلامهم، وفي ليلة من ليالي التشريق اتفقوا مع رسول الله ﷺ سرًّا عند جمرة العقبة وهم ثلاثة وسبعون رجلًا وامرأتان، وكان مع رسول الله ﷺ عمّه العبّاس فتكلّم العبّاس، فقال الأنصار قد سمعنا ما قلت فليتكلّم رسول الله ﷺ ويأخذ لنفسه.

فتكلّم رسول الله ﷺ وتلا من القرآن ورغّبهم في الإسلام وقال: «تمنعوني ممّا تمنعون منه أنفسكم وأبناءكم ونساءكم». فقال البراء بن معرور: والذي بعثك لنا لنمنعنّك ممّا نمنع منه ذرارينا فبايعْنا يا رسولَ الله فنحن والله أهل الحرب.

وأمرهم رسول الله ﷺ أن يخرجوا منهم اثني عشر كفيلًا، وقال ﷺ: «أنتم كفلاء قومكم ككفالة الحواريّين لعيسى بن مريم عليه السلام».

وما أعظم وأفضل وأربح المدينة وأهلها! وما أحقر وأسوأ وأخسر أهل مكّة! في تلك اللحظات التي يستنفر فيها أهلها لاغتيال رسول الله ﷺ وفي الوقت نفسه تستعدّ المدينة لاستقبال ونصرة رسول الله ﷺ

وهكذا وُوجِـهَ النبيّ ﷺ بشكل كبير من بيئته ذاتها، من محيطه نفسه، من ذلك المجتمع الذي ولد فيه ونشأ فيه وتربّى فيه وعاش؛ مجتمع قريش الذي كان يعيش وضعًا مريحًا ومختلفًا من بعض النواحي عن بعض المجتمعات في المنطقة العربيّة وغيرها بفضل شرف البيت الحرام وكرامته قال في كتابه الكريم: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ٢ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ٤﴾[1]. مجتمع قريش كان يحظى باستقرار أمني أكثر من غيره من المجتمعات بسبب وجود بيت الله الحرام هناك في مكّة. ويحظى باستقرار اقتصادي، استجاب الله سبحانه وتعالى لدعوة نبيّه إبراهيم وبحكمته أيضًا سبحانه وتعالى أراد لمكّة أن يكون فيها الخير ورغد العيش حتّى يساعد ذلك على استقرار هناك لصالح الحجاج الذين يؤمّون البيت الحرام ولصالح عمارة هذا المسجد الحرام بالطاعة والعبادة والذكر لله سبحانه وتعالى في أجواء آمنة ومستقرّة على المستوى الأمني وعلى المستوى الاقتصادي والمعيشي.

كان مشركو مكّة يعتبرون لأنفسهم الفضل هم وليس لله ولبيته الحرام كما هو حال نظام آل سعود اليوم، وكما نشاهد اليوم كان البعض من كفار مكّة ومشركيها. اليوم كما نشاهد النظام السعودي الذي يستغلّ البيت الحرام ويستغلّ فريضة الحجّ والعمرة أيضًا في الحصول على أموال هائلة جدًّا باعتبارها أكبر معلم سياحي ديني في العالم ولا يماثله معلمٌ آخر - ربما - في التوافد إليه، في الحرص على الوصول إليه، في زيارته، في الحجّ إليه، يستفيد منه بالأموال الكثيرة. وعلى مستويات أخرى، يحاول أن يستغلّ سيطرته وهيمنته عليه حتى على المستوى السياسي، مع كلّ ذلك يتمنّن وكأنّ له المنّة

---

(١) سورة **قريش**، الآيات ١-٤.

في وجود البيت الحرام في مكّة وكأنّه هو الذي يخدم هذا البيت ولا يستغلّه أو يكسب منه، والذي يعطيه لا يساوي شيئًا أبدًا بقدر ما يأخذهُ ويكسبهُ ويستفيده، وهذا معلوم.

على كلٍّ، القليل من ذلك المجتمع وتلك البيئة هم الذين أسلموا واستجابوا لرسالة الله سبحانه وتعالى، هم الذين انفتحوا على دين الله سبحانه وتعالى ومبادئه وقيمه. أمّا الآخرون فقد قال الله عنهم: ﴿لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾[1] لم يؤمن منهم إلّا القليل، الأكثر لم يؤمنوا حتّى فيما بعد، لم يدخل الإيمان إلى قلوبهم، النبيّ ﷺ بالرغم من طيلة المدّة التي قضاها في مكّة ثلاثة عشر عامًا كما في بعض الأخبار والروايات لم يؤمن إلّا دون الألف مع جهدٍ كبيرٍ لبعض الإحصائيّات.

ولكنّه لم يفشل، فقد حقّق نتائج مهمّة جدًّا في مكّة، أوّل نتيجة مهمة للغاية: أنّه أوصل صوته، أوصل صدى هذا الدين الجديد، هذا الإسلام المستجدّ في تلك البيئة، وإلّا فالإسلام هو رسالة الله ودينه لأنبيائه جميعًا. أوصل صدى وصوت هذا الدين إلى كلّ أنحاء الجزيرة التي كانت تتوافد منها الوفود للحجّ إلى بيت الله الحرام؛ لأنّ الحجّ كان باقيًا منذ نبي الله إبراهيم في الوسط العربي حتّى في عصر الجاهلية بقيوا يحجّون. وبالتالي، كانت الوفود القادمة إلى مكّة للحجّ وللتجارة تسمع بهذا الدين تعرف مبادئهُ، يلتقي بها النبيّ ﷺ يُعرِّفها بالإسلام، يدعوها إلى الله، إلى دينه المجيد، وهذا كان له أهميّة كبيرة فيما بعد؛ لأنّ وصول هذا الصوت إلى الآخرين مهمّ جدًّا. يهيّئهم فيما بعد للاستجابة عن معرفة، الكثير قد تحول بينهم وبين الاستجابة عوائق معيّنة لكن حينما يكونون قد عرفوا وتزول تلك العوائق يكونون جاهزين للدخول في الإسلام، وهذا ما حدث فعلًا. فبعد زوال بعض العوائق والموانع من قبيل التكذيب والصدّ والافتراء والاستهداف على كلّ المستويات والدعايات المتنوّعة وكلّ أشكال الصدّ والتكذيب، قالوا: إنّه كذاب، قالوا: إنّه

(١) سورة **يس**، الآية ٧.

ساحر، قالوا: إنّه افترى على الله، قالوا: إنّه مجنون، قالوا: الكثير من الدعايات والاتهامات التي استهدفوا بها شخصيّة النبيّ ﷺ وهم يعرفونه ويسمّونه بالصادق الأمين، إضافة إلى ذلك هم واجهوا كثيرًا من مبادئ الرسالة ومن ضمنها مبدأ المعاد، مبدأ التوحيد، جملة من المبادئ المهمّة والأساسية في الرسالة بالتكذيب وبالجدل وبالخصام إلى غير ذلك.

لكن مع كلّ ذلك، كانوا يلحظون أنّ بنيان هذا الدين يزداد صلابةً وقوّةً واتساعًا فزاد قلقهم وبذلك انتقلوا في مؤامراتهم إلى محطّة أخرى، لا سيّما بعد رحيل من كان له دور أساسي في حماية النبيّ ﷺ مثال أبي طالب. اتجهوا إلى التآمر المباشر على شخصيّة النبيّ ﷺ في مرحلة كان الله سبحانه وتعالى قد هيّأ فيها لهذا النبي مرحلة جديدة في تاريخ الإسلام مهمّة بعد إشراف المرحلة الأولى على الاكتمال، المرحلة التي تسمّى بالمرحلة المكيّة كان فيها ثلاثة أشياء مهمة جدًّا قد تحقّقت؛ المسألة الأولى هي: أنّ مكّة كمركز مهمّ للتوافد إليه من شتّى أنحاء الجزيرة قد قدّم خدمة كبيرة؛ فذاع فيها صيت الإسلام، ووصل فيها صوت الرسول، وأصبح معروفًا بالشكل المهمّ والمطلوب واللازم في الجزيرة العربية بشكل عامّ.

إضافة إلى بناء اللبنة الأولى للجماعة المسلمة التي سيكون لها دور أساس من المهاجرين الذين هاجروا مع رسول الله ﷺ إلى المدينة.

فتهيّأت بذلك بيئة جديدة قابلة وحاضنة للإسلام هم الأنصار - الأوس والخزرج - الذين من خلال توافدهم إلى مكّة للحجّ عرفوا بالرسالة وسمعوا من النبيّ ﷺ وبينهم روابط عشائريّة مع النبيّ ﷺ وهم أخوال والده، وبالتالي كانت البيئة الجديدة التي عمل النبي ﷺ على تهيئتها وأرسل إليها بعض المهاجرين لينشروا الإسلام فيها ويعملوا على تهيئتها بشكل مناسب لاستقبال الرسول واستقبال هذا الدين ونصرته.

وعندما أتى الإسلام وبُعث الرسول ﷺ، كان لهذا المجتمع فرصة مهمّة جدًّا أن يكون هو النواة الأولى التي يتشكّل منها المجتمع الإسلامي، وتبنّى

من خلالها الرسالة الإسلاميّة، وأن يكون القدوة لبقيّة المجتمعات والحامل الأوّل لهذا المشروع العظيم، فيتشرّف بهذا الشرف؛ ولهذا قال الله سبحانه وتعالى عن رسالته، عن كتابه، عن قرآنه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ﴾(١)، شرف كبير، مشروع عزّة، وكرامة، وارتقاء. ولكن هذا المجتمع لم يستفد من هذه الفرصة، لم يقبل بهذا الشرف حتّى لم يرَ فيه شرفًا، كانت موازينه مختلّة، رؤيته عمياء، فهمه للأشياء فهم مغلوط، فكانت عنده حالة الاستكبار، الارتباط بالمستكبرين. المستكبرون أنفسهم كانوا في الطليعة صادّين ومستكبرين ومعارضين ومثبّطين ومعادين بكلّ ما تعنيه الكلمة، وكانت لهم دوافعهم الاستكباريّة بالطبع، يقولون فيما يقولون: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ﴾(٢)، كيف ينزل عليه وليس أثرانا مالًا، ولا أقوانا سلطةً؟! فكيف ينزل عليه الذكر، القرآن، والوحي الإلهي؟! لأنّهم كانوا يرون قيمة الإنسان، وأحقيّته بالاتباع بقدر ما لديه من ثروة، من قوّة، من إمكانات، ليس عندهم اعتبارات للقيمة الإنسانيّة والقيمة الأخلاقيّة التي تؤهّل لحمل هذا المشروع بما يؤهّل الله بها رسله وأنبياءه.

يقول الله تعالى: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾(٣)، كان هناك في مكّة، والطائف أثرياء، وزعامات لديها سلطة، وتأثير، وأتباع، وقوّة، لماذا لم ينزل على أحدهم القرآن؟ هذه نظرة غبيّة وجاهلة. هذه النظرة كانت تقدّم الاقتراحات والاعتراضات في نزول الوحي على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعلى حركته بالرسالة، بهذه الاعتبارات وبهذه المقاييس المادية.

﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا﴾(٤)، نريد منك أشياء ماديّة حتّى نرى وزنك فيها، قيمتك فيها، أحقيّتك بالاتباع من خلالها،

---

(١) سورة **الزخرف**، الآية ٤٤.

(٢) سورة **ص**، الآية ٨.

(٣) سورة **الزخرف**، الآية ٣١.

(٤) سورة **الإسراء**، الآية ٩٠.

أحيانًا يقولون: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ﴾(١) يعني: لماذا لا يمتلك مثل هذه الأشياء؟ حينها سنتّبعه، عندما يصبح معه كنز وثـروات، ننجذب إليه بفعل ما معه من ثـروة، ما معه من إمكانات.

في حالة من الحالات قالوا له: ﴿أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ﴾(٢) لماذا لا يكون لديك قصر من الذهب، فنرى بريقه؛ فننجذب إليك وننجذب إلى رسالتك ونؤمن بك بقدر ما نرى من بريق ذهب قصرك.

أي نظرة هذه؟! هي النظرة السائدة لدى الكثير من الناس، فلا ينجذبون إلّا لهذه العوامل، وبهذه المؤثّرات، ذلك المجتمع وصل إلى درجة قال الله سبحانه وتعالى عنها: ﴿لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾(٣).

الأكثريّة في هذا المجتمع وصلوا إلى درجة الخذلان والعمى الرهيب والامتناع الكلّي والانصراف الشامل عن تقبُّل هذا الدين، عن تقبّل هذا الحقّ، عن الإقبال إلى هذه الرسالة الإلهيّة التي فيها كلّ الشرف وفيها كلّ الخير، فلم يروا عظيمًا إلّا أبا جهل، وإلّا أبا سفيان، وإلّا تلك الشخصيّات والزعامات التي كان لها سلطة وثروة، كانوا يرون فيهم العظماء، ولا يرون القيمة في غير ذلك.

في ظرف ومجتمع وبيئة كتلك هي بيئة ضياع، بيئة غير قابلة أن تحمل رسالة الله، أن تتقبّل وتنفتح على المبادئ، هذه بيئة حيوانيّة، بيئة غريزيّة، الناس فيها لا يلتفتون ولا يتأثّرون إلّا بدافع الماديّات والأطماع فقط، يريدون أموالًا، يريدون ذهبًا، يريدون تجارة، يريدون مصالح ماديّة ومكاسب ماديّة على نحوٍ أعمى، بانفصال كامل عن المبادئ والقيم والأخلاق.

---

(١) سورة **الفرقان**، الآيتان ٧ و٨.

(٢) سورة **الإسراء**، الآية ٩٣.

(٣) سورة **يس**، الآية ٧.

لم تَعُد الأرضيّة صالحة لأن ينشأ فيها نبت الإسلام الطيِّب؛ فلذلك أتى قرار بالهجرة أمرًا من الله سبحانه وتعالى في آيات متعدّدة في القرآن الكريم: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾[١]، وآيات كثيرة في القرآن الكريم أتى فيها الإذن بالهجرة، في المقابل سنّة الله في الاستبدال قائمة والمشروع الإلهي لا يتعطّل، إذا كان هناك مجتمع منغلق، خانع وخاضع للمستكبرين، يعيش التبعيّة العمياء، والانغلاق التامّ، لا يسمع ولا يبصر، لا يهتدي، لا يذعن للحقّ، لا يقبل بالنور، فسنّة الله في الاستبدال قائمة، تأتي مجتمعات أخرى، مجتمعات مختلفة تمامًا، مجتمعات تبصر، تسمع للحقّ، تتقبّله، لديها في واقعها النفسي والمعنوي ما يؤهّلها للانفتاح على هذا الحقّ.

بعيدًا عن مجتمع مكّة، كان هناك مجتمع آخر، هو مجتمع المدينة، مدينة يثرب (المدينة المنوّرة)، في هذا المجتمع قبيلتان يمنيّتان هما: الأوس والخزرج)ّ، كان لهما الشرف الكبير والفضل العظيم، والدور التاريخي المُهِمّ. هذا المجتمع المكوّن من هاتين القبيلتين اختاره الله سبحانه وتعالى بديلًا عن ذلك المجتمع.

ودخل هذا المجتمعُ التاريخَ من أوسع أبوابه، فكان هو المجتمع الذي آوى، وكان هو الأرضيّة التي نبت الإسلام العظيم والطيّب، وكان هو المجتمع الذي شكَّل اللبنة الفاعلة والصلبة والقويّة لنشوء الكيان الإسلامي، فهو المجتمع الذي آوى واستقبل المهاجرين، آوى الرسول ونصره واستقبل المهاجرين، وشكَّل مع المهاجرين نواة عظيمة وصلبة وقويّة لحمل راية الإسلام، فكان له ميزات مهمّة.

بعض مميزات المجتمع المدينيّ

يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز - بعدما تحدّث عن المهاجرين عرّج على ذكر الأنصار -: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ

(١) سورة **الذاريات**، الآية ٥٤.

هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٌ﴾[١].

المجتمع في مكّة كان مجتمعَ طمع، مجتمعًا ماديًّا، مجتمعًا يلهث وراء أن يأخذ بأيّ حال، بأيّ أسلوب، بأيّ طريقة. في حين أنّ المجتمع في المدينة - مجتمع الأوس والخزرج - كان مجتمعًا معطاءً، كريمًا، سخيًّا، فكانت هاتان الحالتان تشكّلان عاملًا مهمًّا في الفوارق الكبيرة بين مجتمع جديد ومهيّأ وقابل لحمل هذه الرسالة، ومجتمع ليس مستعدًّا لتقبُّلها.

هذا المجتمع كان على درجة عالية من الاستعداد للتضحية والبذل والعطاء، مجتمعًا كريمًا وسخيًّا بكلّ ما تعنيه الكلمة، كان في استعداده للعطاء، في استعداده للتضحية، في استعداده للبذل، فيما يقدّم، فيما يعطي، كان على مستوى هذه الدرجة الفريدة العظيمة المهمّة ﴿وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٌ﴾.

قد يُعطي الغنيّ وهو متمكّن قليلًا ممّا لديه من ثروة، وضمن حساباته التي يرى فيها أنّ ما أعطاه لا يؤثّر على ثروته وإمكاناته، لكن الحالة التي يؤثر الإنسان فيها على نفسه.. هي الحالة التي يقدّم فيها لقضيّته، يقدّم فيها لمبادئه، لأخلاقه، يقدّم فيها على حساب مصلحته الشخصيّة، وهل الإنسان خاسر في هذا؟ لا.

هؤلاء الذين هم أهل عطاء، هؤلاء الذين يحملون روحيّة العطاء بكلّ أشكاله هم البناة الحقيقيّون للمجتمعات الكبرى، هم الفعَّالون، والمؤهّلون لحمل القضايا الكبيرة، والمواقف العظيمة والمهمّة، هم الاستثنائيّون في التاريخ، هم البُنَاةُ، هم المؤسّسون، هم الذين يصلحون لأن يكونوا رافعةً حقيقيّة للمشاريع الكبرى والمهمّة. هم الفعَّالون والعمليّون، أمّا أولئك فمكبَّلون بالشُّحّ، بالطمع، بالجشع، بالحرص، لا يؤهّلهم ذلك لأن يكونوا راقين،

(١) سورة **الحشر**، الآية ٩.

إنّما يهيّئهم لأن يكونوا منحطّين؛ لأنّ الطمع والجشع يذلُّ الإنسان، «الطَّمَعُ رِقٌّ مُؤَبَّدٌ»[١] كما قال الإمام علي عليه السلام، رِقّ، عبوديّة، الطمع هو مهانة، هو خزي، هو خِسَّة، هو انحطاط، هو دناءة، الطَّمع الأعمى والجشع يهين الإنسان، يذلّه، يجعله يخضع للباطل أو يتَّجه في صفّ الظالمين والمستكبرين فيمارس معهم وفي صفِّهم أيّ جرائم، وأيّ فظائع مهما كانت؛ لينال شيئًا منهم.

أمّا أولئك الذين يحملون روحيّة العطاء والبذل يفكّرون في كيفيّة التقديم، يقدّمون حتّى في الظروف الصعبة جدًّا، هؤلاء هم الصابرون، هم الاستثنائيّون، هم الأقدرون على حمل المشاريع المهمّة والكبرى، هذه ميزة هيّأتهم لحمل الرسالة الإلهيّة.

ونورد ما جاء عن رسول الله ﷺ وهو يقول لهم، يثني عليهم: «إنّكم ما علمت» يعني كما أنتم تعلمون وتعرفون أنفسكم «تكثرون عند الفزع، وتقلّون عند الطمع»[٢]، الله أكبر ما أعظم هذه الصفة! رجال! رجال بما تعنيه الكلمة، تكثرون عند الفزع، عند الأخطار، وعند التحدّيات، تهبُّون وتتحرّكون وتظهرون وتأتون. أمّا إذا صارت المسألة مسألة أطماع ومصالح شخصيّة تقلُّون. ليس هناك ازدحام من جانبهم، إذا كانت المسألة مسألة غنيمة أو مكاسب ماديّة، ليس هناك ذلك الازدحام، وذلك التهافت.

كانوا على هذا المستوى، كما قالوا هم عن أنفسهم - يخاطبون رسول الله -: «وإنا لَصُبُرٌ عند الحرب، صُدُقٌ عند اللقاء»[٣]، كانت هذه المواصفات المهمّة والروحيّة العالية التي أهَّلتهم لأن يكون المجتمع الذي يحمل رسالة الله، وراية الإسلام، يُؤوي وينصر ويستقبل ويحتضن ويتحرّك بكلّ جديَّة،

---

(١) خطب الإمام علي عليه السلام، **نهج البلاغة**، شرح الشيخ محمّد عبده (قم: دار الذخائر، الطبعة١، ١٤١٢هـ/ ١٣٧٠هـ.ش)، الجزء ٤، الصفحة ٤٢.

(٢) المتّقي الهندي، **كنز العمّال** (لبنان- بيروت: مؤسّسة الرسالة، ١٤٠٩ ه/ ١٩٨٩م)، الجزء ١٤، الصفحة ٦٧.

(٣) ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم (دار إحياء الكتب العربيّة، ١٩٦١م)، الجزء ١٤، الصفحة ١١٢.

يعطي لهذه الرسالة كلّ شيء، يعطي النفس، يعطي المال، ولكنّه في المقابل كسب كلّ شيء: كسب رضا الله، كسب العزّ الأبديّ، كسب الشرف الذي لا يساويه شرف، كسب المكانة التاريخيّة، وحقّق الله على يديه الكثير.

نال الأنصار، هؤلاء الأوس والخزرج القبيلتان اليمنيّتان، الشرف العظيم الذي خسرهُ مجتمع قريش في أكثره الذي واجه الرسالة والرسول بالخصام الألدّ، بالنكران والتكذيب، بالكفر والعناد، بالبغضاء والأحقاد، بالتصلّب. كان هناك مجتمع بديل كما قال الله سبحانه وتعالى ﴿فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾[١] وهنا نستذكر هذه المنقبة التي ينبغي أن يتطلّع إليها شعبنا اليمني العظيم بصفحة بيضاء، صفحة عظيمةٍ في تاريخه، الأنصار الذين هم من أصل يمني حظيوا بهذا الشرف؛ شرف أن يكونوا هم البيئة التي تنصر وتُؤوي وتؤيّد وتحمل لواء الحقّ والعدالة وقيم الإسلام وتستقبل الرسول الذي أراد قومُه في مكّة قتلَه، وتآمروا عليه وتنكّروا لرسالته العظيمة. هيّأ الله لهؤلاء الأنصار اليمانيّين أن يكونوا هم من يؤمنون، من ينصرون، من يؤوون، من يتقبّل هذه الرسالة بكلّ رحابة صدر ومحبّة وعشق وإخلاص وصدقٍ ومودّة فحظيوا بشرف عظيم ما بعده شرف.

و«لمّا علمت قريش ما كان من الأنصار ومبايعتهم للرسول ﷺ اشتدَّ أذاهم على من بقي في مكّة من المسلمين فأمرهم رسول الله بالهجرة إلى المدينة، وهذه صفة القائد العظيم الذي يهتمّ بأمّته ويرأف بهم فبادر بعضهم إليها في خفاء وتستّر ونزلوا على الأنصار في دورهم فأكرموا نُزُلَهم وآووهم، فلمّا علمت قريش أحسّوا بالخطر وأرادوا أن يتلافوا الأمر قبل أن يفلت من أيديهم - حسب زعمهم - فعقدوا اجتماعًا طارئًا في دار الندوة الذي كانوا يجتمعون فيه، وحضر فيه جميع زعماء قريش ومشايخها.

فقال خطيبهم: يا قوم إنّ أمر محمّد قد ذاع في البلدان وباتت الأمور تخرج عن نِطاق السيطرة؛ فأوجدوا لنا حلًّا.

---

(١) سورة **الأنعام**، الآية ٨٩.

فنادى أميّة بن خلف: نحبس محمّدًا حتّى يذوق طعم المنون.

وأيّده أحد الزعماء: بئس الرأي هذا الرأي إنّه سيثير سخط المسلمين علينا وقد يأتي من يخرجه من بيننا.

فقال عتبة وأبو سفيان: نركب محمّدًا على ذلول صعب فنوثق رباطه عليه فنخرجه من مكّة فيقطعه في الشعاب والأودية أو يتيه في الصحراء فيموت.

وقال أبو جهل: إنّي قد رأيت لكم رأيًا سديدًا.

فقال القوم: ما هو يا أبا جهل؟ أخبرنا.

قال أبو جهل: نختار من كلّ قبيلة رجلًا متقلّدًا سيفًا حسامًا حتّى إذا غسق الليل هجموا عليه في بيته وضربوه ضربة رجل واحد فيريحونا منه.

فقال القوم: إنّ بني هاشم ستقوم بثأره.

فردّ أبو جهل: كلّا يا قوم إنّ دمه سيتفرّق بين القبائل فلا تستطيع بنو هاشم الأخذ بثأره فلا يجدون بدًّا من القبول بالديّة.

ووافق القوم: نعم الرأي رأيك يا أبا جهل.

بدأ العمل بالتخطيط لهذه الجريمة والإعداد لها ظنًّا منهم أنّ هذه الجريمة ستريحهم وسيتخلّصون من محمّد ودعوته، متجاهلين قوّة الله القاهر وشدّة بطشه، وأنّه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء سبحانه وتعالى، فقد نجّى أنبياءه في أحلك الظروف وأشدّها، فقد نجّى نوحًا وإبراهيم وموسى وسائر الأنبياء، عليهم السلام.

وفي أجواءٍ من السريّة والتكتّم، كان زعماء قريش يخطّطون ولا يعلمون أنّ الله يعلم السرّ وأخفى، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور. أرسل الله أمين الوحي جبريل عليه السلام في رسالة عاجلة تكشف لرسول الله ﷺ ما خفي عنه

فأخبره جبريل بالخبر وتلا عليه: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾[١].

أذن الله لرسوله بالهجرة إلى المدينة فأخبر وصيّه وخليله وأمين سرّه الفتى الشجاع الإمام عليًّا، عليه السلام بهذه المؤامرة، فقال: «يا علي أوحى إليّ ربّي أن أهجر دار قومي وأن أنطلق إلى غار ثور وأن آمرك بالمبيت على ضجاعي لتخفي بمبيتك عليه أثري. فما أنت قائل وصانع؟».

فقال علي عليه السلام: أو تسلمن بمبيتي هناك يا نبيّ الله؟ قال: «نعم». فتبسّم علي عليه السلام ضاحكًا وأهوى إلى الأرض ساجدًا، شكرًا لله لمّا أنبأه به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من سلامته.

فلمّا رفع رأسه قال: امضِ فيما أُمرتَ فداك سمعي وبصري وسويداء قلبي ومُرني بما شئت. [...]

فقال: «ارقدْ على فراشي، واشتمل ببردتي الحضرمي، ثمّ إنّي أخبرك يا علي أنّ الله تعالى يمتحن أولياءه على قدر إيمانهم ومنازلهم من دينه [...]. وقد امتحنك الله يا بن عم وامتحنني فيك بمثل ما امتحن الله خليله إبراهيم عليه السلام والذبيح إسماعيل عليه السلام فصبرًا صبرًا، فإن رحمة الله قريب من المحسنين»، ثم ضمّه النبيّ، صلّى الله عليه وآله، إلى صدره وبكى[٢]، فأنزل الله في عليّ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾[٣]..

يتهيّأ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لهذه الرحلة الخطيرة ويخطّط لها وهو يعلم أنّ هذه الليلة هي الليلة التي يريدون قتله فيها، ورغم ذلك كان متأسّفًا ومتحسّرًا

---

(١) سورة **الأنفال**، الآية ٣٠.

(٢) العلّامة المجلسيّ، **بحار الأنوار** (بيروت: مؤسّسة الوفاء، الطبعة ٢ المصحّحة، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م)، الجزء ١٩، الصفحتان ٦٠ و٦١.

(٣) سورة **البقرة**، الآية ٢٠٧.

على قومه لعدم إسلامهم لكي لا تنالهم عقوبة الله وسخطه بسبب إقدامهم وتجرّؤهم على محاولة قتل نبي الله.

كانت مكّة في حالة ترقّب واستنفار والكون يلتهب وملائكة الله في دهشة ممّا يحدث. قرّر رسول الله ﷺ أن يكون خروجه أوّلًا إلى جنوب مكّة عكس طريق المدينة حتّى يهدأ الوضع كما علّمه الله. ولبث ﷺ مع علي يوصيه ويأمره بالصبر وأداء الأمانات التي كانت عند رسول الله ﷺ.

أعدّت قريش أربعين مقاتلًا من صناديدها مع كلّ واحدٍ منهم سيفه البتّار، وصدرت التعليمات فذهبوا إلى بيت رسول الله ﷺ متخفّين في ظلام الليل الدامس لتنفيذ تلك الجريمة البشعة ألا وهي قتل رسول الله ﷺ أشرف وأكرم مخلوق في هذا الكون.

يا لها من جريمة ما أبشعها! إنّها جريمة بكلّ المقاييس، إنّه أسلوب اليهود مع أنبياء الله! وصلوا إلى منزل الرسول المصطفى ﷺ في جنح الظلام وأحاطوا به وطوّقوه من كلّ الاتجاهات مستلّين سيوفهم في تأهّب واستعداد ينتظرون إلى أن ينتصف الليل وتنام الأعين وتحين ساعة الصفر لتنفيذ الجريمة.

ويتهيّأ الرسول ﷺ للخروج في أجواءٍ من الطمأنينة؛ لأنّه واثق بالله وبوعده؛ لأنّ الله لا يتخلّى عن أوليائه فقد جعل النار بردًا وسلامًا على إبراهيم ونجّى موسى ومن معه وجعل البحر طريقًا لهم وأهلك فرعون وجنده.

ثمّ بعد ذلك يصلّي الرسول ﷺ هو وعلي عليه السلام العشائين ونام عليّ على فراش النبيّ بكلّ استبسال وشجاعة وخرج ﷺ من الدار بعد العشاء الآخرة وهو يقرأ ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾[1] وأخذ بيده قبضة من التراب فرماها على رؤوسهم فما شعر القوم به حتّى تجاوزهم، ومضى إلى غار ثور أسفل مكّة.

---

(١) سورة **يس**، الآية ٩.

ما أعظم قدرة الله الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾(١) إنّ الله سبحانه وتعالى لا يتخلّى عن أنبيائه وأوليائه أبدًا.

فلمّا أرخى الليل سدوله وانقطع الأثر أقبل القوم يقتربون من الدار قليلًا قليلًا وأخذوا يرمون عليًّا عليه السلام بالحجارة معتقدين أنّه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتّى إذا قرب الفجر ودقّت ساعة الصفر هجموا على الدار وكانت دور مكّة لا أبواب لها يتقدّمهم خالد بن الوليد فوثب عليهم عليّ عليه السلام وثبة الأسد الضرغام، وأخذ السيف من يد خالد، وشدّ عليهم به فهربوا إلى خارج الدار فأبصروه، فإذا هو علي، فقالوا: إنّا لا نريدك، أين صاحبك؟ فخيّب الله أملهم وجعل كيدهم في تضليل.

لكنّهم لم يكتفوا بما فعلوا فنادى مناديهم إنّ محمّدًا قد خرج من داره ولا يكون خروجه إلّا إلى يثرب فالحقوا به لا يفوتنّكم الرجل، ابحثوا عنه في كلّ مكان.

فانطلق إلى حيث أمره ربّه إلى غار ثور فدخل الغار فأرسل الله جنديًّا بسيطًا من جنوده العنكبوت - الحشرة الضعيفة - وأمرها الله أن تنسج على باب الغار، وأمر الله حمامتين فباضتا في باب الغار ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾(٢) وصلت مجموعة من فرسان المشركين إلى باب الغار، فشاهدوا نسيج العنكبوت وبيض الحمام فقال بعضهم إنّ عليه العنكبوت قبل ميلاد محمّد، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ

---

(١) سورة **يس**، الآية ٨٢.

(٢) سورة **الفتح**، الآية ٤.

ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[١].

كان أهل يثرب مستبشرين بقدوم رسول الله ﷺ وكانوا في كلّ صباح يخرجون إلى ضواحي المدينة لاستقباله في شوق وتلهّف إلى قدومه ورؤيته؛ لأنّهم عرفوا قدره وفضله وقدر النعمة التي جاء بها بعكس أهل مكّة.

كان رسول الله ﷺ على مقربة من المدينة فنزل في مكان يسمّى: (قباء) فاستقبله أهلها استقبالًا عظيمًا، وأسّس فيها مسجده الذي قال الله فيه: ﴿لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ﴾[٢] ومكث فيها إلى أن لحق به عليٌّ ومن معه من العوائل، وكان يسير الليل ويكمن النهار حتّى تفطّرت قدماه عليه السلام ثمّ قدموا إلى المدينة.

وصل النور والسراج المنير إلى المدينة، ما أروعها من لحظات! وما أجمله من قدوم! كيف لا وهو الرحمة المهداة الذي استنقذ الله به العالم؟! فقد كانوا على شفا حفرة من النار وأخرجهم من الظلمات إلى النور ودلّهم على طريق الجنّة والسعادة الأبديّة.

استقبله الأنصار بكلّ فرح وسرور متشرّفين بقدومه مردّدين الأناشيد التي تعبّر عن فرحتهم بقدوم هذا الضيف الكريم منها:

طلع البدر علينا ... من ثنيّات الوداع

وجب الشكر علينا ... ما دعا لله داع

أيّها المبعوث فينا ... جئت بالأمر المطاع

---

(١) سورة **التوبة**، الآية ٤٠.

(٢) سورة **التوبة**، الآية ١٠٨.

جئـت شـرفـت الـمـديـنـة مـرحـبًـا يـا خـيـر داع[١]

دخل الرسول ﷺ المدينة طاويًا صفحة من الدعوة إلى الله مع أهله وقومه وأهل بلده مستقبلًا عهدًا جديدًا من الجهاد والعمل في غير وطنه. دخل وهو يرسم ملامح دولة إسلاميّة ربّانيّة تقيم شرع الله، وتقوم بنشر دين الله في جميع أقطار المعمورة.

دخل المدينة وكلّ واحدٍ من أهلها يريد أن يتشرّف بضيافته، كلّ واحد يمسك بزمام ناقته ﷺ يريده أن يحلّ ضيفًا عنده ولكن الرسول ﷺ يقول لهم: «دعوها فإنّها مأمورة».

لم يكن همّ الرسول أين سيجلس أو في أيّ بيت سيكون الأكل. كلا. إنّ همّه الأكبر كيف يهتدي الناس؟ كيف يزيل المنكر من أوساطهم؟ بركت الناقة بأمر الله في مكان أراده الله سبحانه وفي ذلك المكان بنى مسجده المعروف في المدينة، أقام مسجدًا ليس للصلاة والعبادة فحسب بل يكون من خلاله إدارة شؤون الدولة وتبليغ الرسالة وتدبير الجهاد والتخطيط للمعارك، فلم يكن له قصر ولا مجلس للوزراء بل كان يقوم بكلّ أعماله من المسجد.

بركت الناقة، وأخذ أبو أيّوب الأنصاري متاعه إلى منزله، فأخذ الناس يكلّمونه، فقال: المرء مع رحله، ونزل عند أبي أيّوب الأنصاري.

كانت هجرة النبيّ ﷺ تحوّلًا كبيرًا في تاريخ الإسلام. كانت إيذانًا بفرج لهذا الرجل العظيم وللمسلمين وللأمّة وللخلق بعد ثلاث عشرة سنة من المتاعب الكبيرة في مكّة.

أمّا مجتمع مكّة، فقد خسر شرف نصرة الحقّ ولم يضِعْ الإسلام. عندما يقوم مجتمعٌ بخذلان الحقّ فإنّه هو من يخسر، عندما يقوم أيّ مجتمع كان فهو

---

(١) هذا هو النشيد الذي استقبل الأنصار به الرسول الأكرم، وهو من أشهر أهازيج التاريخ النبوي التي قيلت في خير الأنام ولا يعرف قائلها.

من يخسر، ويستبدله الله بمجتمع آخر يحظى بذلك الشرف العظيم: شرف الإسلام وشرف قوّة الإسلام.

بعد ذلك التحوّل التاريخي الكبير في هجرة النبي وخسارة مكّة وفوز أهل المدينة (أهل يثرب) بشرف نصرة الحقّ والإيواء للمهاجرين، وبأن يجعلوا من منطقتهم وبلدهم ساحة مقدّسة طاهرة تقوم عليها أوّل بذرة للإسلام في المنطقة العربيّة في ذلك العصر، وتكون بداية لعصر وعهد جديد للأمّة العربية وللعالم.

انتصر الإسلام وامتدّ نفوذه في العالم رغم كلّ المؤامرات فما الذي حصل فيما بعد؟ ولماذا تغيّر واقع الأمّة بعد عهد كبير من الصراع ثمّ انتصار الحقّ؟ ثمّ ماذا؟ ضياع للأمّة العربية وهوانها؛ لأنّها تخلّت عن ذلك المشروع الكبير، عندما ابتعد الناس عن الدين، عن الله، عن النبيّ ﷺ واتباع هدى الله، عن نصرة الحقّ، وتخاذلوا ضاعت الأمّة.

فمثّلت الهجرة انتقالًا ومرحلةً جديدةً فارقةً في تاريخ البشريّة وليس فقط للمسلمين؛ لأنّ الإسلام هو دين الخلاص للبشريّة جمعاء، هو إرث الأنبياء، كلّ الأنبياء: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمّد. يُمثّل الإسلام المبادئ الإلهيّة التي منّ الله سبحانه وتعالى علينا بها وهي توافق الفطرة البشريّة التي فطر الله الناس عليها. هو دين الفطرة، دين الرحمة، دين العدالة وهذه أشياء هي من صميم حاجة البشريّة إليها ولا يمكن أن تتحقّق للبشريّة وللإنسان إنسانيّته بما تعنيه الكلمة إلّا بتلك التعاليم التي جاء بها الأنبياء في أممهم وجاء بها خاتم الأنبياء وارثًا لكلّ الأنبياء ومتمّمًا لهم؛ إذًا المرحلة كانت انفتاحَ أفق واسع لصالح البشريّة جميعًا.

ما نودّ أن نقوله ونعيه هو: إنّ الإسلام هو مشروع إلهي مكتوب له من الله أن ينتصر، فمن أهمّ ما يجب أن نعرفه عن الإسلام قضيّة مهمّة جدًّا وهي: أنّ الإسلام هو مشروع إلهي لا بدّ له أن يغلب ويظهر على كلّ الأديان ويقهر كلّ الأباطيل، ويظهر أهله، ولن يقدر أحد مهما كانت قوّته وإمكانيّاته أن ينهي

المشروع الإلهي أبدًا، أن يقضي على هدى الله وعلى دينه أبدًا. لن يستطيع أحدٌ مهما حاول، لأنّ الله جلّ وعلا هو الذي تكفّل بذلك. هو مَن يهيّئ له من عباده رجالًا أنصارًا له، حملة، حماة، يتمسّكون به، لينالوا شرف نصرته، فيظهرون هم بظهوره ويغلبون بغلبته ويعتزّون بعزّته.

عندما يكون هناك مكر وخداع، عندما يكون هناك تآمر من كلّ الطغاة والجبابرة والمستكبرين من أجل القضاء على دين الله؛ فإنّ الله يتدخل أيضًا، عندما يمكرون الله يمكر، ومكرهم يبور ومكر الله هو الغالب والقاهر.

هذا الدين معه الله، ومن ينطلق على هذا الدين لنصرة هذا الدين فإنّ الله معه وبالله سينتصر، وبمكر الله سيبور مكر الآخرين في أيّ عصر وفي أيّ جيل، في أيّ مكان، ويمكرون فيما كانوا يمكرون للتآمر على هذا الدين وعلى نبيّه العظيم ﴿وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾[١]، ومكره هو الغالب، كيده هو الغالب؛ إنّ الحقّ دائمًا يبقى له وجود ويبقى له أنصار.

ولنتطرّق هنا إلى موضوع مهمّ جدًّا: إنّ رفض الاستجابة للحقّ له مبرّرات عدّة؛ بعض المجتمعات والمناطق لا تقبل بالحقّ ولا تتّبع هدى الله وتتنصّل كرهًا للحقّ ورغبة في أن يكونوا مع المتسلّطين والمتكبّرين في دنياهم، أو خوفًا منهم أحيانًا فكان البعض في مكّة يقولون ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ﴾[٢] سيقضى علينا، سننتهي.

البعض الآخر يرفض الحقّ والاستجابة لله على أساس أنّها مجتمعات ذكية لا تتورّط في نصرة الحقّ ظنًّا منها أنّه صدام مع المستكبرين والطغاة وهي بذلك تكسب خيرًا.

فلننظر فيما يتعلّق بخذلان أهل مكّة للنبيّ وتمسّكهم بأبي جهل وأبي سفيان والطغاة والمستكبرين في ذلك العصر أمثال زعماء العرب في عصرنا

---

(١) سورة **الأنفال**، الآية ٣٠.

(٢) سورة **القصص**، الآية ٥٧.

هذا، هل تمسّكهم بأولئك أضاع المشروع الإسلامي؟ هل قضى على رسالة الله؟ هل انتهى الإسلام؟ لا. وهل فازوا بخير؟ وهل كسبوا خيرًا من وراء ذلك؟ لا. كانوا هم الخاسرين، جاء الأمر الإلهي للنبي بعد ثلاث عشرة سنة أمضاها لديهم وهو يذكّر ويبلّغ ويعمل بكلّ جهد على هدايتهم بالهجرة وتركهم في الوقت الذي كان ذلك المجتمع قد وصل إلى حالة رهيبة من الإعراض عن هدى الله، والتمسّك بالضلال والشرك، والاتباع للطغاة والمجرمين والمستكبرين بدلًا عن رسول الله محمّد وبدلًا عن هدى الله.

قال الله جلّ وعلا ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾[١] وجاء الإذن للنبي ﷺ ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾[٢] رحل عنهم محمّد وخرج من بينهم بحماية إلهيّة بملائكة الله محيطة به أنزل جنودًا لم تروها وبرعاية إلهيّة عظيمة نجّاه الله من مكرهم وكيدهم، وانتقل إلى مجتمع آخر هيّئاه الله لأن ينال شرف النصرة وشرف الإسلام وشرف الحقّ وشرف الزكاء: مجتمع يثرب مجتمع المدينة المنوّرة.

يتخذ الله قرارًا أن يستبدل المجتمع عندما يتخاذل عن نصرة الحقّ. يبقى الحقّ دائمًا ويبقى له أنصار ويبقى له حملة، وعندما تعرض مجتمعات معيّنة أو حتّى على مستوى الأفراد الله يستبدلهم، يهيّئ الله ويقيّض مجتمعًا آخر يقبل بالحقّ، ويتمسّك به، ويحظى بشرف نصرته.

فكان مجتمع يثرب، ذلك المجتمع المعزول المتناحر المقتتل المستضعف يحيط به قبائل أو مجتمعات يهوديّة كانت هناك تتربّص بالحقّ، ومع ذلك يحظى هو بشرف أن يكون المجتمع الذي يكون ساحة أولى لقيام الإسلام وقيام كيان إسلامي عظيم ومجتمع إسلامي يسوده الإسلام بالعدل والحقّ، مجتمع خالٍ من هيمنة وطغيان الطغاة والجبابرة والمستكبرين، مجتمع يخضع لله ولا يخضع لغيره.

---

(١) سورة **الأنعام**، الآية ٨٩.

(٢) سورة **الذاريات**، الآية ٥٤.

وكـان أقـوى شخص وأعظـم شخصيّة علـى رأس هـذا المجتمع هو الرسول ﷺ. كان هو نفسه مجرّد متبع لهدى الله وليس متنفذ، ولا متسلّط، ولا متغلب، كان هو بنفسه كما يقول الله له وكما علّمه أن يقول: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾[1] فكان هذا المجتمع الذي كان في المدينة والذي هاجر إليه النبيّ واحتضن الحقّ.

وكـان للأنصار شرف النصرة والإيمان ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[2] الشرف الكبير. وكان من المكاسب الكبيرة في المدينة المنوّرة (في يثرب) أن ألّف الله بين قلوبهم، انتهت لديهم حالة الفُرْقة، حالة الشتات، الظلم انتهى، وزال الطغيان والفساد، وبدلًا عن الفساد حلّ الصلاح، وبدلًا عن الشرّ حلّ الخير، وبدلًا عن الرذيلة حلّ الزكاء والطهر والفلاح، وأصبح مجتمعًا متنوّرًا. منطقة لا يوجد فيها مكان للظلم ولا للطغيان ولا للإجرام، يسودها الحقّ، والعدل، والخير، والفلاح، يسودها دين الله وأمر الله وحكم الله، مجتمعًا عزيزًا، مجتمعًا كريمًا، مجتمعًا صالحًا. فكانت هناك أوّل نواة للدين الإسلامي، نواة راسخة وقويّة متماسكة داخليًّا، ونواة مثّل الإسلام في واقع حياتها فأصبح هو نظامه، يقوده محمّد، أمّة يربيها ويزكّيها ويزرع فيها الخير والفلاح، ثمّ يجعل منها أمّة عظيمة كريمة عزيزة، لها أهداف ومهمّة كبيرة ومقدّسة، أمّة متجنّدة مع الله من أجل تلك الرسالة ولحمايتها وللعمل على نشرها في العالمين.

---

(١) سورة **الأحقاف**، الآية ٩.

(٢) سورة **الحشر**، الآية ٩.

رابعًا- مرحلة تأسيس المجتمع الجديد في المدينة

برزت أسس المجتمعِ الجديد بالمدينة في قضايا عدّة أهمّها:

١- بناء المسجدِ

فقد بدأ بناء المسجد وعمل فيه رسول الله ﷺ بنفسه وعاونه المهاجرون والأنصار.

ومن على منبر هذا المسجد، كان يوجِّه رسول الله محمّد ذلك النور الإلهي: وحي الله المُنزل وبه يعالج قلوبًا مرضى ويشفي نفوسًا ويزكّي نفوسًا ويطهِّر قلوبًا ويقوِّم سلوكًا وعملًا، يبني هذه الأمّة ويصلحها، وفي الوقت نفسه كان قاعدة يزرع فيها روح الجهاد والتضحية في نفوس المسلمين.

بنى المسجد كقاعدة عسكريّة، قاعدة للجهاد، بنى المسجد ليؤاخي - داخل هذا المسجد - بين أصحابه، بين جموع المهاجرين والأنصار، بنى المسجد ليكون منطلقًا ليوحّد بين الأمّة، بنى المسجد لينطلق منه لمقارعة الظلم والطغيان.

ومن هذا المسجد المبارك، يقدّم الرسول ﷺ لأمّته ومن خلالها للعالم كلّه مشروع الله، منهجًا يتضمّن التعليمات الإلهيّة فيما تعمل الأمّة وفيما تترك وفي تحديد مسؤوليّاتها في الحياة، وفي تبصيرها بواقع الحياة وما فيه، وفي علاقتها بالله سبحانه وتعالى فكان منهجًا إلهيًّا مثّل النور والهدى والبصائر التي على ضوئها تبني الأمّة واقعها وتتحرّك في مواقفها على أساسه.

قدّم المشروع القرآني مشروعًا للحياة، ومثّل هو القيادة التي تتحرّك على أساس القرآن الكريم وتعكس تعاليمه وقيمه قولًا وفعلًا وسلوكًا ومواقفَ.

٢- تقوية الجبهة الداخلية من خلال

أ- المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار.

ب- عقد معاهدات مع بقيّة سكّان المدينة المنوّرة

المعاهدات مع بيوتات أهل المدينة وليس مع اليهود مباشرة، وقد أشار السيّد حسين ‹رضوان الله عليه› إلى حقيقة ما حصل، في محاضرة (يوم القدس العالمي) بقوله:

«حتى في هجرة الرسول ﷺ من مكّة إلى المدينة يتحدّثون في كتب السيرة عن صلحه مع اليهود فهل هناك صلح قد وقع منه مع اليهود؟! عندما تقرأ الوثيقة التي صاغها الرسول ﷺ بعد أن وصل المدينة المنوّرة، وذكر فيها كلّ بطون سكّان المدينة، كلّ بيوتات القبائل الساكنة في المدينة وحولها، تعلم أنّها وثيقة ليست نصًّا يشير إلى الصلح مع اليهود.

اليهود كانوا حول المدينة حلفاء لبيوت أو أشخاص من الأوس والخزرج داخل المدينة، حلفاء لهم مرتبطين بمعاهدات معهم كأتباع لهم. عندما اتجه الرسول ﷺ من مكّة إلى المدينة مهاجرًا، أراد أن يبني قاعدةً ينطلق منها للجهاد، وإعلان دولته، ودعوته؛ وللجهاد ضدّ كل المعارضين لدعوته التي بعث بها، فعمل على أن يجعل المدينة قاعدةً مستقرّة.

اقرؤوا هذه الوثيقة لن تجدوا فيها مصالحة مع اليهود، إنّما باعتبارهم حلفاء لمن داخل المدينة من أوس أو خزرج أو أشخاص من كبارهم يسري على اليهود ما يسري على حلفائهم. وهذا شيء طبيعي في المواثيق وفي المعاهدات العربيّة أنّه يسري على الأولياء - الذين يسمّونهم وَلِّي آل فلان أو حليف آل فلان - ما يسري على من هو في حلفه، أو في ولائه، أو في معاهدةٍ معه»(١).

---

(١) محاضرة السيّد حسين في يوم القدس العالمي.

٣- بناء الدولة

تحرّك ﷺ بكلّ جديّة وفاعليّة في المدينة المنوّرة لبناء دولة قويّة عادلة بمواصفات عظيمة، وأخلاق عالية، تُجسِّد المبادئ التي يدعو إليها ويعمل على إقامتها، وتدلّ على عظمة هذا الدين، وعلى ثمرة الارتباط بالله وهديه.

كان ﷺ في سلوكه وتعامله على خلق عظيم، يتمتّع بمواصفات عظيمة وبمكارم الأخلاق العظيمة على أعظم مستوى يمكن أن يصل إليه بشر، قائد عظيم، على خلق عظيم وهدى؛ ليبني أمّة عظيمة عزيزة، يقول الله جلّ شأنه: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[١].

وبهذه المزايا العظيمة، وبهذه الصفات الحميدة، من موقع الشعور بالمسؤوليّة، من موقع الرأفة والرحمة، ومن حالة الحرص الشديد على إنقاذ الناس، على دفع الضرر عنهم، على بناء هذه الأمّة بناءً عظيمًا تكون على مستوى من المناعة ممّا يذلّها، ويضرّها، ويُهيّئ لهيمنة الأعداء عليها، فيما يدفع الشرّ عنها، ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾، ولم يألُ جهدًا بهذا الحرص، وهذه الرأفة العظيمة التي كان عليها ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ﴾[٢]، والرحمة والحرص على الأمّة إذ كان يتحرّك بمنهج الله مربيًا وساعيًا على بناء هذه الأمّة بناءً عظيمًا حتّى وصف الله ذلك المجتمع الذي بناه محمّد رسول الله بقوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾[٣] رسول الله ﷺ ومن معه يقتدون به، يتبعونه، لديهم الشدّة، هم أشداء، لكن على من؟ تلك الشدّة والقسوة على من؟ على الكفّار، على الشرّ، على الباطل، على الظلم، على الطغيان، أشدّاء على الكفّار؛ لأنّه

---

(١) سورة **التوبة**، الآية ١٢٨.

(٢) سورة **آل عمران**، الآية ١٥٩.

(٣) سورة **الفتح**، الآية ٢٩.

لا يُجدي أمام الكفّار إلّا الشدّة في مواجهة الكفّار والحكمة التي أرشد إليها الله، وأمر بها؛ لأنّ الكفّار لا يمتلكون قِيَمًا، وليس فيهم إنسانيّة، أو رحمة، ولا لديهم ضمير، وحين يُعاملون بالرحمة، والدبلوماسيّة والعلاقات وما شابه ذلك يكونون هم من يسطون على الأمّة، من يفتكون بها، ويضربونها الأمة، ويذلّونها. وهذا واقع نفهمه حيال الكفّار من اليهود والنصارى، الأمريكيّين والإسرائيليّين، هؤلاء هل أجدت تلك السياسة التي يعتمد عليها الحكّام العرب: الليونة، اللطف، الدبلوماسيّة، العلاقات، مدّ اليد للسلام، وما أشبه ذلك؟ لم تُجْدِ شيئًا، لم تدفع ضُرًّا ولم تكشف شرًّا عن الأمّة أبدًا.

الله جل شأنه أرشدنا إلى سلوك يتّصف به محمّد، ومنهج اعتمده ومن معه، منهج من الله قُدِّم في كتب الله السابقة كما قُدِّم في القرآن الكريم ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ﴾ أن لا يكون هناك ضعف، ولا وهن ولا ذلّة ولا عجز أبدًا.

أمّا في داخل المجتمع المسلم، المجتمع الإيماني المتربّي بتربية محمّد، المتمسّك بنهجه، الآخذ بتعاليم محمّد، ﴿رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾[(١)] الرحمة في كلّ أشكالها، في تعاملهم مع بعضهم البعض، في اهتمامهم ببعضهم البعض، في طريقة تعاطيهم مع قضاياهم الداخليّة، الإيثار، التعاون، التكاتف، لا مكان للشدّة فيما بينهم، مجتمع متوحّد، متكاتف، معتصم وقويّ. وأمّا خضوعهم وركوعهم وتذلّلهم أمام الله ﴿تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا﴾، لا يذهبون إلى البيت الأبيض في أمريكا ليحنوا رؤوسهم، لا يتعلّمون هذا ولا يفعلونه، لا يحنون رؤوسهم لا لطواغيت، ولا لمجرمين، ولا لمستكبرين أبدًا ﴿تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ﴾[(٢)].

(١) سورة **الفتح**، الآية ٢٩.

(٢) سورة **الفتح**، الآية ٢٩.

خامسًا- مرحلة الصراع المسلّح

بعد هجرة النبي ﷺ تحوّل مجتمع مكّة؛ المجتمع الذي لم يستجب للحقّ ولله وخسر بذلك خسارة كبيرة، إلى مجتمع محارب وبدأ مشوارًا كبيرًا من الصراع والحروب والمعارك والوقائع الكبيرة مع الإسلام.

١- معركة بدر الكبرى (١٧ رمضان ٢هـ - يناير ٦٢٤م)

لا يخفى موقف قريش العدائي من رسالة النبيّ ﷺ وممّن التحق بهذا الدين إلى درجة اضطر فيها النبيّ ﷺ أن يهاجر من مكّة إلى المدينة بعد أن وصلت بهم الحال إلى محاولة قتله ﷺ وظلّ ذلك الموقف العدائي حتّى بعد الهجرة فكانوا يستخدمون نفوذهم وقوّتهم وتسلّطهم على أبناء الجزيرة العربيّة في الصدّ عن سبيل الله ممّا جعل المواجهة العسكريّة مع هؤلاء الطواغيت شيئًا لا بدّ منه كما ذكر الله سبحانه وتعالى لأنّ الحرب بنفسها تكون أحيانا شيئًا ضروريًّا في إطار التدبير الإلهي العامّ لإقامة دين الله. وإرادة الله أحيانًا تقتضي أن يتخذ هو ويهيّئ لتنفيذ إرادتـه ومشيئته الأسباب والعوامل التي تدفع الطرفين إلى القتال: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾[1] ﴿لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾[2] لأنّ نتائج المعركة هي بيده سبحانه وتعالى.

(١) سورة **الأنفال**، الآية ٧.

(٢) سورة **الأنفال**، الآية ٤٢.

ولذلك كان الخروج إلى هذه المعركة بتوجيهات وترتيبات إلهيّة كما قال تعالى: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾[١].

« كان النبي ﷺ قائدًا عظيمًا، يمثّل أعظم قائد عرفته البشريّة على الإطلاق؛ ولذلك كان مدركًا بأنّه لا بدّ من المواجهة مع هؤلاء المشركين وغيرهم ممّن لا يريد خيرًا للبشريّة ولا يريد أن تتحرّر البشريّة، ممّن يرون في حريّتها وإنقاذها من الضلال تهديدًا لمصالحهم الشخصيّة الضيّقة، وهكذا همّ الطواغيت في كلّ زمان ومكان يعمدون إلى أن تظلّ الأمّة ضالّة ضائعة غبيّة لتظلّ تحت سيطرتهم وطغيانهم.

ولمعرفة الرسول بأنّ هناك من يتربّص بهذا الدين الشرّ والعدوان كان يجهّز نفسه لمواجهة كلّ هذه التهديدات فكان يبعث بمجموعات للرصد والرقابة ومن خلال هؤلاء أُبلغ النبيّ ﷺ في السنة الثانية للهجرة بعودة قافلة كبيرة جدًّا لقريش من الشام تقول الروايات إنّه لا يوجد أحد من أهل مكّة إلّا ومعه فيها نصيب. فكان رسول الله يريد ضرب طواغيت مكّة اقتصاديًّا؛ ليردعهم عن محاربة الإسلام والتضييق على المسلمين.

وكان المسلمون أمام حالتين: إمّا مواجهة القافلة التي يمثّل استهدافها ضربة كبيرة لقريش اقتصاديًّا؛ لأنّهم يعتمدون في قوّتهم العسكريّة على الجانب المادّي، وهذه ستمثّل ضربة كبيرة لهم إضافة إلى أنّه كان ضمن القافلة أبو سفيان بن حرب قائد المشركين هو ومجموعة معه سهل القضاء عليهم.

فالمسلمون خرجوا وهم أمام فائدتين: الأولى الضربة الاقتصاديّة للعدوّ واستفادتهم الاقتصاديّة الخاصّة، والثانية كانوا ينظرون بأنّها فرصة للسيطرة على أبي سفيان نفسه وفي قتله أو أسره ضربة كبيرة للمشركين، وهكذا تحرّكوا على هذا الأساس.

---

(١) سورة **الأنفال**، الآية ٥.

جاءت الأخبار لأبي سفيان بتحرّك النبي ﷺ فأرسل رسولًا إلى مكّة يبلغ قريشًا بذلك ويستنفر أهل مكّة وسلك بالقافلة طريقًا أخرى.

فخرج رسول أبي سفيان سريعًا إلى مكّة فوصلها صارخًا وقد جَدَّعَ أنف بعيره، وَحَوَّلَ رَحْلَهُ، وَشَقَّ قميصه! وهو يقول: يا معشرَ قريش: اللَّطِيمَةَ اللَّطِيمَةَ[١]: أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمّد وأصحابه، لا أرى أن تدركوها، الغَوْثَ الغَوْثَ[٢].

أثار هذا الخبر أهل مكّة كثيرًا فكان الاستنفار كبيرًا في مكّة، فكانوا بَيْنَ رَجُلَيْنِ: إمّا خارجٍ، وإمّا باعثٍ مكانه رجلًا، ولم يتخلّف من أشراف قريش إلّا أبو لهب فقد استأجر مكانه العاص بن هشام بن المغيرة بأربعة آلاف درهم كانت دينًا عنده. فخرجوا بجيش كبير في عدده وعدّته وإمكانيّاته بالنسبة لإمكانيّات النبيّ ﷺ.

وأقبلت قريش تشقّ طريقها نحو بدر فلا تنزل منزلًا إلّا وتنحر الجزور وتشرب الشراب وتغنيهم القيان. فأرسل أبو سفيان رسولًا إلى قريش ولكن هذه المرّة يخبرهم بنجاة القافلة ويطلب منهم الرجوع إلى مكّة.

لكنّ أبو جهل خاطب أشراف قريش عند وصول رسول أبي سفيان: لا والله لا نرجع حتّى نَرِدَ بدرًا فنقيم فيها ثلاثًا ننحر فيها الجزور ونشرب الخمور وتعزف علينا القيان وتسمع العرب بمسيرنا فلا تزال تهابنا. وقد أنزل الله في ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾[٣].

---

(١) اللطيمة: الإبل التي تحمل البرَّ والطيب. ابن منظور، **لسان العرب**، الجزء ١٢، الصفحتان ٥٤٥ و٥٥٩.

(٢) الطبري، **تاريخ الطبري** (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، لا تاريخ)، الجزء ٢، الصفحة ١٣٧. أيضًا: ابن هشام، **السيرة النبويّة** (القاهرة: المدني، ١٩٦٣)، الجزء ٢، الصفحة ٤٤٢.

(٣) سورة **الأنفال**، الآية ٤٧.

وصلت الأخبار إلى الرسول ﷺ بأنّ القافلة قد نجت وأنّ قريشًا قد خرجت لاستئصال المسلمين ولكنّه كان يسير وفق ترتيبات إلهيّة في الموضوع، كلّ هذه الترتيبات تلمس فيها التدبير الإلهي، وهنا يجمع المسلمين ويستشيرهم في الموضوع. فقال رسول الله: «أيّها الناس، إنّ قريشًا قد أقبلت في جيش لحربنا فما ترون؟».

فأجابه المقداد: والله يا رسول الله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾[1] ولكن نقول: اذهبْ أنت وربّك إنّا معكما مقاتلون.

قال رسول الله: «أشيروا عليَّ» وكان يريد الأنصار.

فردّ سعد بن معاذ: والله لكأنّك تريدنا يا رسول الله.

قال رسول الله: أجل.

فقال سعد بن معاذ: قد آمنّا بك وصدّقناك، فامضِ يا رسول الله، فوالذي بعثك بالحقّ لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، إنّا لصُبُرٌ عند الحرب، صُدُقٌ عند اللقاء.

فسُرَّ رسول الله ﷺ بهذا الجواب القويّ، وأثلج صدره، وهو جواب كلّ مؤمن قويّ في إيمانه مخلص لله في عمله.

ثمّ خاطبهم رسول الله قائلًا: «سيروا على بركة الله فإنّ الله قد وعدني إحدى الطائفتين والله لكأنّي أنظر إلى مصارع القوم» ويتلو عليهم: ﴿وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[2].

---

(١) سورة **المائدة**، الآية ٢٤.

(٢) سورة **الأنفال**، الآية ٧.

لقد وعد الله سبحانه وتعالى المسلمين بأنّ إحدى الطائفتين ستكون لهم إمّا القافلة أو النصر في المعركة ولكن الرغبة كانت الغنائم كما قال الله سبحانه: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

هنا التدبير الإلهي لم يأتِ على مزاج النفوس والأهواء؛ لأنّ الهدف كان أكبر من مجرّد قافلة، وإنّما كان لغرض كبير وهو إحقاق الحقّ وإبطال الباطل. وإحقاق الحقّ يعني سيادة المشروع الديني في واقع الحياة.

اذكروا أنتم يا أيّها المؤمنون ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا﴾[1] في جنبة الوادي الأقرب إلى طريق المدينة، وأعداؤكم في جنبة الوادي الأبعد الأخرى، يفصل بينكم الوادي، وفي هذا الجوّ الذي أنتم فيه، وصلتم في ظروف هيّأ الله فيها كلّ عوامل الاحتكاك والصدام والاشتباك.

﴿وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ الركب الذين كان لديهم القافلة، وهي قافلة التجارة والأموال كان هناك بعيدًا عنكم فصرفتم عنهم ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ﴾ لو لم تشتبكوا ولم تقتتلوا ولم تدخلوا في المعركة واتفقتم على ميعاد آخر لما تمّ ﴿لَٱخْتَلَفْتُمْ﴾. لكنّ الترتيبات الإلهيّة كانت حاسمة، واقتضت إرادة الله وحكمته أن يحصل الاشتباك والقتال لما سيترتّب عليه من نتائج مهمّة في الواقع.

﴿وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ لأنّ الواقع العملي وخصوصًا الصراع تتجلّى فيه حقائق مهمّة، تزيد من وضوح الحقّ، وبيانه، وترسّخ القناعة به، وتكشف واقع الباطل وحقيقته فيما هو عليه من زيف وضعف، وما إلى ذلك ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

---

(١) سورة **الأنفال**، الآية ٤٢.

وهكذا التقى الفريقان في وادي بدر بينما نجت القافلة. المسلمون كانت عدّتهم قليلة جدًّا قياسًا على ما عند الأعداء وحتّى الإمكانيّات. وكان هناك من الطرفين من لا يريد الحرب لكنّ الله كان يريد ذلك.

وقبل المعركة، حدثت تدخلات إلهيّة كانت تدفع وتشجّع على المواجهة منها: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾[1].

كذلك ما يتعلّق بالنبيّ ﷺ يقول: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[2].

يقول المؤرّخون: إنّ الفريقين باتا قريبًا من بعضهما ولا يعلم أحدهما بالآخر. فقال رسول الله: «انطلقْ يا عليُّ أنت والزبير وبعض الرجال، فاتوني بأخبار عن الماء».

انطلقت المجموعة إلى الماء فوجدوا عليه بعض رجال قريش فأسرّوهم وأفلت بعضهم فأخبروا قريشًا فاستاؤوا وباتوا يتحارسون فجاء علي والزبير بالسقاة إلى رسول الله ﷺ فسألهم: «أين قريش؟».

أجاب السقاة: خلف هذا الكثيب.

قال الرسول: «كم عددهم؟».

قال السقاة: لا ندري وهم كثير.

قال رسول الله: «كم ينحرون كلّ يوم؟».

قال السقاة: ينحرون يوميًّا عشرة أباعر ويومًا تسعة.

---

(١) سورة **الأنفال**، الآية ٤٤.

(٢) سورة **الأنفال**، الآية ٤٣.

هنا تبرز حكمة رسول الله القائد الحكيم فقال: «هم ما بين الألف والتسعمئة».

ثمّ قال ﷺ للمسلمين: «هذه مكّة قد ألقت إليكم أفلاذ أكبادها».

وهنا ذكّر الله سبحانه وتعالى المسلمين بحالهم يوم كانوا في مكّة وما صاروا إليه من العزّة والكرامة والتمكين بعد الهجرة؛ لكي يذكروا الله كثيرًا ويستقيموا ويثبتوا عند لقاء عدوّهم قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(١).

لم يعد يفصل بين الجيشين إلّا مسافة قليلة تقدّر بليلة واحدة. والرسول ﷺ يخطّط للمعركة ويحثّ المسلمين على الصبر والثبات ثمّ يأمرهم أن يتحرّكوا ليسبقوا المشركين إلى مصدر الماء وهي بئر بدر، فتحرّك جيش المسلمين وسيطروا على الماء.

وأخذ رسول الله يتفقّد المكان، ويرسم الخطط، وأمر الجيش بالتمركز في «العُدْوَةِ الدنيا» من الوادي وأن يستقبلوا المغرب والشمس خلفهم، وأمرهم ببناء حوض للماء يشربون منه حال المعركة.

ثمّ بات المسلمون ليلتهم يصلّون ويذكرون الله ويجهّزون سيوفهم وسلاحهم ويدعون: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾(٢) وأخذوا يتجهّزون ويستعدّون ليوم الغد فيغشاهم النعاس فينامون ليلتهم في سكينة واطمئنان كأنّهم في منازلهم؛ وهي تثبيت من الله سبحانه وتعالى.

ثمّ أنزل عليهم الله سبحانه وتعالى غيثًا من السماء لِيُلَطِّفَ الجوّ ويثبت الأرض حتّى لا تغوص الأقدام فيها حال المعركة عكس قريش فإنّه حصل

---

(١) سورة **الأنفال**، الآية ٢٦.

(٢) سورة **البقرة**، الآية ٢٥٠.

لهم من المطر ما آذاهم ولم يكن بين الجيشين إلّا مسافة قليلة وذلك قول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾[١].

طلع الفجر، فجر يوم جديد غيَّر الله فيه موازين القوى وتغيّرت فيه الأمور لصالح المسلمين بنصر الله لهم، إنّه فجر يوم العزّة والكرامة والنصر الإلهي، أشرقت شمس ذلك اليوم العظيم على ساحة العزّة والشرف تشعّ على ميدان الجهاد والاستبسال بضوئها الناصع البياض لترسم للأجيال في تاريخهم يومًا مشهودًا.

بدأت طبول الحرب تدقّ «والقائد العظيم والمعلّم المصطفى محمّد ﷺ في كلّ ميدان يجهّز الجيش، يرصّ الصفوف، يرسم الخطط، يعطي رايته علي بن أبي طالب، ويعطي لواء المهاجرين لمصعب بن عمير، ولواء الخزرج للحبّاب بن المنذر، ولواء الأوس إلى سعد بن معاذ، يحثّ الجميع على ذكر الله وإخلاص العمل لله ويتلو عليهم من كتاب الله.

أقبل المشركون فكان لا بدّ لهم من النزول بالعدوة القصوى من الوادي واستقبال الشمس؛ لأنّ المسلمين قد سبقوهم والرسول والمسلمون ينظرون إليهم لوضع اللمسات الأخيرة للمعركة.

وبدأ أبو جهل ينظر إلى جيش المسلمين في غرور وتكبّر ويُحدِّث مَنْ حوله ولا يدري كيف سيكون مصيره بعد ساعات فيقول: ما هم إلّا أكلة رأس لو بعثنا إليهم عبيدنا لأخذوهم أخذًا باليد.

فقال عتبة: أترى لهم كمينًا أو مددًا.

فبعثوا عمير بن وهب الجمحي وكان فارسًا شجاعًا فجال بفرسه حول معسكر رسول الله ﷺ ثمّ رجع فقال: القوم ثلاثمئة إن زادوا زادوا قليلًا

---

(١) سورة **الأنفال**، الآية ١١.

وليس لهم كمين ولا مدد، أمهلوني حتى أَنْظُرَ أَلِلْقَومِ كمينٌ أو مَدَدٌ؟ فضرب في الوادي حتى أَبْعَدَ فلم يَرَ شيئًا فرجع إليهم فقال: ما وجدتُ شيئًا ولكني رأيت البَلايَا[١] تحمل المنايا، نَوَاضِحَ يثرب تحمل الموت النَّاقع[٢]؛ قوم ليس معهم مَنَعةٌ ولا ملجأ إلّا سيوفهم، يتلمظون تلمظ الأفاعي ما أرى أنهم يولون حتى يُقْتلوا ولا يُقْتلون حتى يَقْتلوا بعددهم.

فقال أبو جهل: كذبت وجبنت.

فنزل قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾[٣] فبعث رسول الله ﷺ إليهم أن ارجعوا فلئن يلي هذا الأمر منّي غيركم أحبّ إليّ.

فقال عتبة: ما ردّ هذا قوم قطّ فأفلحوا، ثمّ ركب جملًا أحمر وخطب خطبةً قال فيها: يا معشر قريش أطيعوني اليوم واعصوني الدهر فإن يك صادقًا فأنتم أعلى عينًا به، وإن يك كاذبًا كفتكم ذؤبان العرب أمره.

وتحمّل عتبة دم الحضرمي الذي قتله المسلمون بنخلة على أن يرجعوا.

وقال أبو جهل: كلّا لن نرجع، أجبنت وانتفخ سحرك؟

قال عتبة: أمثلي يجبن؟ وشتم أبا جهل وأخذته حميّة الجاهليّة فقرّر القتال معهم.

واصطف المشركون للقتال وتجهّزوا واستعدّوا وبدأت المناوشة بين الطرفين.

---

(١) البلايا: جمع بليّة، وهي الناقة أو الدابة تُرْبَطُ إلى قبر الميت فلا تُعْلَفُ وَلَا تُسْقَى حتى تموت.

(٢) النواضح: الإبل يستقى عليها. والناقع: الثابت، البالغ في الإفناء.

(٣) سورة **الأنفال**، الآية ٦١.

فقال الأسود المخزومي: أقسم باللات والعزّى لأهدمن الحوض الذي بناه المسلمون للشرب فشدَّ على فرسه حتّى دنا من الحوض فاستقبله أسد الله وأسد رسوله حمزة بن عبد المطلب فضربه ضربة أطنَّ قدمه فقطعها.

فزحف إلى الحوض فهدمه برجله الأخرى فعطف عليه حمزة فقتله فكان أوّل قتيل من المشركين.

فكبّر المصطفى ﷺ واستغاث الله، فكبّر المسلمون وأخذوا يجأرون بالدعاء ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾(١) فميدان المعركة هو محراب الدعاء المستجاب.

وقد أخبر الله عن ذلك في كتابه الكريم ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ﴾(٢). وتحمس عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة وولده الوليد بن عتبة للقتال وأخذتهم حميّة الجاهليّة، وخرجوا من بين صفوف المشركين مستلّين سيوفهم فتقدّموا إلى جيش المسلمين ينادون من يبرز لنا؟ ألا هل من مبارز؟

فتقدّم للبراز ثلاثة من الأنصار.

فنادى منادي المشركين: يا محمّد أَخرِجْ لنا أكفّاءنا من بني قومنا.

فقال: «قم يا حمزة بن عبد المطلب، قم يا علي بن أبي طالب، قم يا عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب» فخرج حمزة وعلي وعبيدة متقلّدين سيوفهم، وتقدّموا نحو الميدان في ثبات وإيمان واستبسال وعليهم لباس أبيض حتّى وقفوا أمامهم.

فقال عتبة: تكلّموا نعرفكم فإن كنتم أكفاءنا قاتلناكم.

قال حمزة: لم تعد تعرفنا أنا حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله.

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ٢٥٠.

(٢) سورة **الأنفال**، الآية ٩.

قال عتبة: كفؤٌ كريم وأنا أسد الحلفاء ومن هذان معك؟

قال حمزة: علي وعبيدة بن الحارث.

قال عتبة: كفوان كريمان.

فبرز حمزة لعتبة، وعبيدة بن الحارث لشيبة، وبرز علي للوليد.

وبدأت المبارزة بين الفريقين في وسط الميدان فالكلّ في حالة من الذهول والترقب عمّا ستسفر عنه المبارزة فما لبثوا لحظات إلّا وعلي بن أبي طالب يتحفهم بالانتصار الأوّل عندما ضرب الوليد على عاتقه وأخرج السيف من إبطه وضربه ثانية فصرعه فبدت ملامح النصر تلوح في الأفق.

تخفق القلوب وتزداد النبضات لحظة لحظة، وتستمرّ المبارزة فإذا بحمزة يضرب عدوّ الله (عتبة) ضربةً صرعته، ولم يتبقَ إلّا عبيدة وخصمه وتستمرّ المبارزة فيختلفان ضربتين، عبيدة ضرب شيبة ضربة على رأسه فلقت هامته، وشيبة ضرب عبيدة ضربة قطعت ساقه وانتهت المبارزة بهزيمة ساحقة للمشركين ونصر عظيم للمسلمين فارتفعت هتافات التكبير والتهليل من معسكر المسلمين واستبشروا بنصر الله وتأييده، بينما قريش بمقتلهم ذلّت وشعرت بالهزيمة والخزي.

والتحم الجيشان وجهًا لوجهٍ وخاض أنصار الله وأنصار رسوله المعركة كالأسود متلهّفين للشهادة ينتزعون أرواح المشركين انتزاعًا، شعارهم «يا منصور أمت» تحفُّهم ملائكة الله وتثبتهم.

وأصوات التكبير ترتفع من كلّ ناحية وحمزة - أسد الله - وعلي الكرار يصولان ويجولان في أرض المعركة كالليوث الضارية يقطعون رؤوس أئمّة الكفر قطعًا، ويحمى وطيس المعركة فيخرج القائد الحنون من عرينه ويخوض المعركة بنفسه وهو يقول: «سيهزم الجمع ويولّون الدبر، والذي نفس محمّد بيده ما يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرًا محتسبًا إلّا أدخله الله الجنّة».

فسارع المسلمون في القتال وأبلوا بلاءً حسنًا واقتتل الناس قتالًا شديدًا فأخذ رسول الله ﷺ كفًّا من التراب فرمى بها نحو القوم وقال: «شاهت الوجوه، اللهم ارعب قلوبهم وزلزل أقدامهم» ولمّا جاء وقت الظهيرة انهزم المشركون وولّوا هاربين لا يلوون على شيء، يرمون الدروع عن أجسادهم لشدّة خوفهم وهلعهم على الرغم من أنّهم كانوا ثلاثة أضعاف المسلمين وأقوى تسليحًا، ولكنّ النصر بيد الله، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[(١)]، ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[(٢)].

وما وضعت الحرب أوزارها وانجلت الغبرة عن أرض المعركة إلّا وقد سقط فيها من جيش المشركين وصناديدها وزعمائها ٧٠ رجلًا أضف إلى ذلك من جرح ٧٤ أسيرًا.

قتل منهم علي بن أبي طالب عليه السلام ٢٤ وفي رواية أخرى ٣٥ سوى من شارك في قتله مع غيره.

وقتل في هذه الغزوة فرعون قريش - أبو جهل - ولمّا وقف عليه رسول الله مقتولًا قال: «الحمد لله الذي أخزاك يا عدوّ الله» وأميّة بن خلف وعتبة وشيبة ابنا ربيعة وحنظلة بن أبي سفيان وعقبة بن أبي معيط والكثير من زعماء قريش. أمّا الذين اختارهم الله من المسلمين في ذلك اليوم ١٤ رجلًا من الأنصار و٦ من المهاجرين شهداء عند ربّهم يرزقون.

ولم يتمّ التمثيل بأيّ جثّة من المشركين على الرغم ممّا حصل منهم، بل حتّى أنّ الرسول أمر بجمع قتلاهم ووقف عليهم رسول الله ﷺ وخاطبهم رجلًا رجلًا: «يا عتبة، يا شيبة، يا أميّة بن خلف، يا أبا جهل، هل وجدتم ما وعدكم ربّكم حقًّا؟ إنّي وجدت ما وعد ربّي حقًّا، بئس القوم كنتم لنبيّكم،

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ٢٤٩.

(٢) سورة **آل عمران**، الآية ١٢٣.

كذّبتموني وصدّقني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، وقاتلتموني ونصرني الناس».

ورجع المسلمون إلى المدينة في فرحة وسرور رافعين أصواتهم بهتافات التكبير لله فهو الذي بيده النصر والتأييد فهو أكبر من كلّ كبير. أمّا قريش فعادت إلى مكّة تجر أذيال الهزيمة والحسرة إلى درجة أن أبا لهب لما بلغه الخبر مرض من ساعته بالجذام ولم يلبث إلّا سبعة أيام ومات.

وهكذا انتهت المعركة بهزيمة المشركين وقتل عدد كبير من الطواغيت وكسر شوكة الشرك في الجزيرة العربيّة كلّها.

وشكّلت هذه المعركة نقلة نوعيّة في حياة الرسالة فقد قطع دابر الكافرين وكسرت شوكتهم وظهر المسلمون كقوّة لا يُستهان بها في الجزيرة العربيّة وأزيلت عقبة كبيرة تحول بين الناس وبين تفهّم هذا الدين وبدأ الناس يأتون إلى النبي ﷺ بأنفسهم ليعلنوا إسلامهم.

لقد كان للتدخّل الإلهي دوره في هذه المعركة، فهو يرفع الجانب المعنوي لدى الإنسان ويسهم بشكل كبير في أن تكون معنويّاتك قويّة وعالية لأنّ الجانب المعنوي يعتبر أساسيًا، فلو كانت إمكانيّات الناس كيفما كانت ومعنويّاتهم منهارة لن يستفيدوا منها، إذا انهار عند الإنسان الجانب المعنوي فالله يؤيد وبشكل كبير بما يؤدّي إلى رفع معنويّات المجاهدين في سبيل الله حتّى يدخلوا إلى المعركة بنفوس ثابتة ومطمئنة.

ويظهر هذا التدخّل بما يلي:

أ- أمد الله المسلمين بالملائكة: لقد كان حجم التدخّل الإلهي في هذه المعركة كبيرًا جدًّا بالشكل الذي جعل سير المعركة لصالح المستضعفين. فعندما لجأ المسلمون إلى الله القويّ العزيز أمدّهم بنصره وتأييده ورعايته بما جعل معنويّاتهم عالية كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ

فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ﴾(١) حتّى نوع الدعاء يدلّ على الحالة التي كان يعيشها المسلمون. و﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ﴾(٢) أمد الله المؤمنين بالملائكة وأمرهم بتثبيتهم، وهو بذلك يدلّل على أهميّة الموقف فيشجّع الملائكة أكثر على الاهتمام وتقدير المهمّة التي يتحرّكون فيها في جبهة وموقف الحقّ، في ميدان الصراع، في ميدان المعركة؛ لأنّ للملائكة إمكانيّة أن يؤدّوا دورًا مهمًّا على المستوى المعنوي، ولهم طريقتهم المؤثّرة على نفسيّة الإنسان المؤمن وهو يعيش أجواء الحرب والمعركة فيشعر بالاطمئنان ويشعر أنّه ليس لوحده، وإن كانوا قليلًا في مقابل عدد الأعداء الكثير يشعرون بأنّهم ليسوا لوحدهم، وأنّ بجانبهم غيرهم هكذا إحساس معنوي يساعد على الثبات في الموقف.

فالله سبحانه وتعالى حينما يمدّ بملائكته ليس لأنّ النصر بيد الملائكة، لا، النصر ليس بيد لا ملائكة ولا بحساب إمكانات معيّنة ولا بحساب زيادة عدد! النصر هو فقط وفقط من عند الله من خواصّ ملك الله، من خواص تدبيره سبحانه وتعالى. النصر مسألة بيد الله ليست بزيادة العدد بملائكة ولا يكون هو بذاته عاملًا للنصر إنّما عاملًا معنويًّا مطمئنًا مبشّرًا؛ لأنّ أجواء التفاؤل والأمل بالله، وحالة الاستبشار والرجاء مهمّة بغية انتظار النصر من الله، لا أن يعيش المؤمنون الروح الانهزاميّة، وأجواء التشاؤم وسوء الظنّ بالله، وانتظار النتائج السيّئة! لا يكونوا منتظرين لهزيمة بل منتظرين لنصر متفائلين به مشدودين بالأمل الكبير بفضل الله ونصره. ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ﴾ لأنّ أجواء الصراع تتطلّب أن تكونوا متفائلين ومستبشرين لا متشائمين ﴿وَلِتَطۡمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمۡۚ﴾ فعامل الاطمئنان في القلوب أهمّ عامل للثبات

(١) سورة **الأنفال**، الآية ٩.

(٢) سورة **الأنفال**، الآية ١٢.

في أجواء الصراع وفي المعركة. أمّا النصر فليس بزيادة عدد حتّى لو كان من الملائكة ولا بزيادة عدّة ولا بتوفّر إمكانيّات معيّنة ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ﴾ الله هو الذي ينصر، هو الذي يتولّى النصر، هو سبحانه وتعالى فقط. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ والنصر من عند الله يرتبط بعزّة الله وبحكمته ومن عزّته أن يعزّ أولياءه بالنصر ومن حكمته أن ينصر أوليائه لإحقاق الحقّ وإزهاق الباطل، ولكن هناك في الواقع العملي ترتيبات عمليّة ترتبط بعزّة الله ومسؤوليّات عمليّة ترتبط فيها أيضًا الحكمة الإلهيّة.

ب- تقليل المشركين في أعين المؤمنين ليتشجّعوا على المواجهة: فالله يرحم عباده المؤمنين ويصرف عنهم أشياء كثيرة قد تؤثّر على نفسيّاتهم ويعطيهم عوامل تزيدهم قوّةً حتّى على المستوى النفسي والتفاعل القلبي فحينما ندخل إلى أجواء الترتيبات الإلهيّة والتدخّل الإلهي الذي أوصل إلى حالة الاشتباك ومظاهر التأييد الإلهي نجدها كبيرة ومتنوعة، فهو قدم في بداية سورة **الأنفال** أشكالًا من التأييد الإلهي والتهيئة الإلهية من ضمنها تقليل المشركين في عين الرسول ﷺ وفي أعين المؤمنين يقول الله سبحانه وتعالى عن ذلك: ﴿إِذۡ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلٗاۖ وَلَوۡ أَرَىٰكَهُمۡ كَثِيرٗا لَّفَشِلۡتُمۡ وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ يا محمد هم في حالة قلّة ممّا مثّل عاملًا مشجّعًا على الذهاب والتحرّك لمواجهتهم. ﴿وَلَوۡ أَرَىٰكَهُمۡ أَرَاكَهُمْ﴾ في منامك وقصصته على المؤمنين وأنّك رأيتهم كثيري العدد لهال ذلك البعض ولضعفوا وضعفت نفسيّاتهم؛ لأنّ حالة القلق النفسي والاضطراب تسبّب خلافًا واضطرابًا في التدبير: ﴿وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۚ﴾. ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ فهو يرحم عباده المؤمنين ويصرف عنهم أشياء كثيرة ويعطيهم عوامل تزيدهم قوّةً حتّى على المستوى النفسي والتفاعل القلبي. فالله يمدّ بمدد متنوّع فيه ربط على القلوب، وطمأنة، وزيادة في التحفيز للموقف وزيادة في العزم والاطمئنان؛ لأنّ العامل المعنوي مهمّ جدًّا في الحرب، بل يهيئ الكثير مما يصنع الهزيمة النفسية في صفوف الأعداء.

أمّا حينما تمّ اللقاء فهناك مظهر آخر من مظاهر التدخّل الإلهي: قلّل كلّ طرف في عين الآخر ليتشجّع الطرفان على الاقتتال، وهذا ما حصل: ﴿لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ فاقتتل الطرفان وانتصر المؤمنون وابتدأت مرحلة جديدة في تاريخ المسلمين نحو القوّة وترسيخ دعائم الإسلام، وإزهاق الباطل، وإضعاف المشركين والكافرين وكسر شوكة الجبابرة والظالمين والفاسدين.

ج- الشعور بالطمأنينة والأمان لدرجة النعاس: وكان له دور كبير وبارز ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾[١]. من أنواع المدد الإلهي أنّ الله سبحانه وتعالى يَمُنّ بأشياء متعدّدة في غايتها تطمئنك، تطمئن مشاعرك، يطمئن قلبك، ونفسك، تذهب عنك حالة المخاوف والقلق والاضطراب. فعندما تعيش في واقعك النفسي حالة الخوف والقلق والاضطراب الشديد سيؤثر ذلك على تفكيرك، وتصرّفك، وتدبيرك، وثباتك، ولكن كلّما ازددت اطمئنانًا، وكنت تعيش حالة الأمل بنصر الله، والمعنويّات العالية، سيفيدك ذلك في قوّة الموقف، والإقدام. والعمل والقتال في سبيل الله يتطلّب نفسيّة مطمئنّة، معنويّات عالية ومرتفعة، ثقة بالله سبحانه وتعالى، اطمئنان نفسي يساعد على تفكير سليم وموقف وإقدام قويّين.

ففي معركة بدر، كان النعاس من وسائل الدعم الإلهي لعباده المؤمنين ليعيشوا بعيدًا عن حالة الخوف والقلق؛ فالقلق يسبّب فشل وخلل حتّى في التفكير والتصرّف، والعمل، والثبات؛ ولهذا قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ النعاس حالة النوم ومع هذه الحالة كان ينزل شعور بالاطمئنان والأمن، ويصل الحال إلى هذا المستوى: (رقاد) في ظلّ الظروف الصعبة، الأحداث الكبيرة، المشاكل الكبيرة، وهذه من مظاهر الرعاية الإلهيّة، يعني دعم معنوي، سبحان الله، ما أعظم كرم الله؛ لأنّ «الدعم المعنوي من أهمّ ما يحتاج إليه الناس في أجواء الصراع وفي ظروف الحرب والقتال، أهمّ حتى من الجانب الماديّ بكثير». فكم يبذل الآخرون من جهود

---

(١) سورة **الأنفال**، الآية ١١.

كبيرة وجبّارة، وينفقون من إمكانات هائلة في سبيل أن يرفعوا من معنويّات مقاتليهم.

الله سبحانه وتعالى هو الذي يملك النفوس والقلوب يهيّئ الكثير من الوسائل، ويقدّم الدعم المعنوي بوسائل متعدّدة. ولربّما الكثير جرّب هذه الرعاية الإلهيّة في ظلّ الظروف والأحداث العصيبة في الحروب وبالذات في هذه الحرب التي نخوضها مع قوى الشرّ بقيادة أمريكا وإسرائيل والنظام السعودي العميل والخائن، في كثير من الحالات تأتي هذه الحالة: شعور بالاطمئنان مع حالة نوم في ظرف عصيب جدًّا، وأحداث بالغة الشدّة والقسوة.

دعّم الله سبحانه وتعالى معونته بأشكال متعدّدة، وهو الذي بيده كلّ شيء، والقادر على كلّ شيء، ما أعظمها من نعمة وما أكبره من شرف: أن يتحرّك الناس في سبيل الله، في الحقّ وبالحقّ، قضايا مشرّفة، مسار مشرّف وعظيم ومقدّس، إضافةً إلى أن يحظوا برعاية من الله، ومعونته، بتأييد منه تعالى.

د- إنزال المطر: من مظاهر المدد الإلهي أنّ الله سبحانه وتعالى حتّى على مستوى البيئة يشتغل لمصلحتك وأنت في الموقف الحقّ في سبيله تعالى يهيّئ عوامل متعدّدة ومتنوّعة حتّى بيئيّة، وحتّى جغرافيّة، يمكن أن يحرّك السحاب، يمكن أن ينزل المطر، يمكن أن يثير الغبار، يمكن أن يأتي بالضباب، يحرّك أشياء كبيرة في ملكوته ومخلوقاته بما يدعّم موقفك، بما يكون لصالحك في أدائك العملي، بما يفيدك ضمن ما تحتاج إليه في الميدان، فبيده كلّ شيء. كان من هذه الشواهد ما حصل في معركة بدر أتى بماء، أَنزل من السماء ماءً مطرًا غزيرًا، وكان لهذا نتائج متعدّدة ومتنوّعة. ﴿لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ تستفيدون أنتم منه للطهارة وللنظافة وحتّى للجانب النفسي: ﴿وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ وساوس الشيطان القذرة التي تخيفكم؛ ولأنّ المشركين في بدر كانوا قد سبقوا المؤمنين إلى الماء لذلك

كانوا قلقين من ناحية الحاجة إلى الماء فأتى المطر وأذهب وساوس الشيطان وتوفّر الماء.

ه- الربط على القلوب: ﴿وَلِيَرۡبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمۡ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ﴾ من أهمّ عوامل الثبات ومن أعظم الدعم والمدد الإلهي هو الربط على القلوب لأنّه كما قلنا الجانب المعنوي هو الأساس في أجواء الصراع، وهو العامل المهمّ في الثبات والنصر. يربط الله على القلوب عندما يتحرّك الناس في سبيله، عندما يستجيبون له، عندما يكونون في جبهة الحقّ، عندما يلتجئون إلى الله، يربط على القلوب فيذهب عنها حالة الخوف، حالة الاضطراب، حالة القلق، حالة الرعب، فتعيش حالة القوّة، وتكون المعنويّات مرتفعة بشكل كبير، ولربّما كان من فوائد هذا المطر، هذا الماء الذي أنزله الله في هذه الغزوة عاملًا معنويًّا في هذا الاتجاه ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ﴾.

و- تثبيت الأقدام: ومن ضمن المدد الإلهي الذي حصل في غزوة بدر وسيحدث في أيّ عصر مع عباد الله المؤمنين أن يثبت أقدامهم، وحتّى ضمن الأدعية التي يعلّمنا الله سبحانه وتعالى أن نطلب منه أن يثبت أقدامنا: ﴿وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ فضمن المعونة الإلهيّة أنّ الله يثبت الأقدام، وفي بدر هيّأ الله حتّى من خلال المطر وكان الوادي وادي رمل؛ أن اشتدّ الوادي بالماء وأصبح ميدان المعركة ميدانًا ثابتًا صلبًا متماسكًا، وبالتالي كانت حالة الرمل ستؤثّر حتّى على الأداء القتالي.

ز- إلقاء الرعب في قلوب الأعداء: فعند المواجهة يتدخّل سبحانه وتعالى بشكل أكبر: ﴿سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ﴾ وهذا من أهمّ عوامل النصر الإلهي، لربّما هو الأمر الحاسم في الصراع؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى وهو مالك قلوب كلّ عباده بما فيهم الأعداء، بما فيهم من هم في جانب الباطل الذين يتحرّكون في صفّ الباطل والطغيان والظلم تحت راية الكفر، أو فيما يخدم الكفر، بالتالي لو كانت إمكانيّاتهم كيفما كانت عندما يتدخّل الله ويلقي في قلوبهم الرعب فإنّهم حينئذ ينهزمون، عامل حاسم فما إن يلقي الله الرعب في قلوبهم إلّا

يعيشون حالة الهزيمة والروح الانهزاميّة فيسقطون. وهذا أمر بيد الله المقتدر العظيم؛ لأنّ حالة الرعب حينما تتملك قلوبهم، وتتغلّب على مشاعرهم لا يستطيعون الثبات، قد يهرب لو كان بيده إمكانيّات كيف ما كانت لا يستطيع أن يثبت بل ينهزم فورًا.

لقد تحدّث القرآن الكريم عن الرعاية الإلهيّة والتدخّل لمن يسيرون في سبيله وكيف يكون التدخّل الإلهي في المسيرة الجهاديّة، فالتدخّل الإلهي يكون له الأثر الكبير في حسم هذا الصراع وفي نتائجه، وله أشكال متعدّدة.

ومهمّة التدخّل الإلهي أن يرفع الجانب المعنوي لدى الإنسان، ويسهم بشكل كبير في أن تكون معنويّاتك قويّة وعالية؛ لأنّ الجانب المعنوي يعتبر أساسيًّا، لو كانت إمكانيّات الناس كيفما كانت ومعنويّاتهم منهارة لن يستفيدوا منها إذا انهار عند الإنسان الجانب المعنوي، فالله يؤيّد وبشكل كبير بما يؤدّي إلى رفع معنويّات المجاهدين في سبيل الله؛ حتّى يدخلوا إلى المعركة بنفوس ثابتة ومطمئنّة.

ورجع المسلمون إلى المدينة في فرحة وسرور رافعين أصواتهم بهتافات التكبير لله فهو الذي بيده النصر والتأييد فهو أكبر من كلّ كبير. أمّا قريش فعادت إلى مكّة تجرّ أذيال الهزيمة والحسرة إلى درجة أنّ أبا لهب لمّا بلغه الخبر مرض من ساعته بالجذام ولم يلبث إلّا سبعة أيّام ومات.

وهكذا انتهت المعركة بهزيمة المشركين وقتل عدد كبير من الطواغيت وكسر شوكة الشرك في الجزيرة العربيّة كلّها.

وشكلّت هذه المعركة نقلة نوعيّة في حياة الرسالة، فقد قطع دابر الكافرين وكسرت شوكتهم وظهر المسلمون كقوّة لا يستهان بها في الجزيرة العربيّة وأزيلت عقبة كبيرة تحول بين الناس وبين فهم هذا الدين وبدأ الناس يأتون إلى النبي ﷺ بأنفسهم ليعلنوا إسلامهم.

الدروس والعبر

يقدّم **القرآن الكريم** أحداث التاريخ كأحداث مليئة بالدروس والعبر لهذه الأمّة في كلّ جيلٍ وعصر؛ لأنّ رسول الله نبيّ للأوّلين وآخرين ﴿وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾[١]؛ فتخطيطاته ومسيرته الجهاديّة يقدّم فيها الدروس للأمّة إلى يوم القيامة فالنبيّ ﷺ لم يكن يفكّر في عصره فقط. قدّم القرآن الأحداث على أساس أنّها أحداث تعليميّة في كلّ عصر وليس فقط للسنة الثانية للهجرة مثل واقعة بدر؛ ولذلك لا يوجد حديث عن مكّة وقريش هنا وإنّما حديث عن إيمان وكفر، مؤمنين وكافرين، أنصار لله وأنصار الباطل؛ لأنّها قضيّة تبقى دائمًا في كلّ زمان وعصر.

فمن تلك الدروس:

أ- إنّ قضيّة تطهير الأرض من الفساد قضيّة تقع على عاتق المؤمنين:

فالقرآن الكريم يقدّم تطهير الأرض على أنّها قضيّة مهمّة من قضايا الفساد. ففي معركة بدر، أخرج الله قريش إلى المجزرة، إلى حيث ينحرون، وكانت مهمّة رسول الله ﷺ ومن معه أن يطهّروا الأرض من هؤلاء ﴿لِيَقۡطَعَ طَرَفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡ يَكۡبِتَهُمۡ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ﴾[٢]. هذه مهمّة أساسيّة بالنسبة لمن يدينون بدين الله؛ أنّ الدين هو لتطهير النفوس من الفساد وتطهير الأرض من الخرافات والفاسدين.

يصل الوضع بالنسبة للواقع إلى مستوى أنّه لم يبقَ من حلّ لمواجهة الباطل والظلم والفساد والشرّ إلّا الخيار العسكري، فيتحتّم الموقف الجهادي. يصل الخطر في أضراره، وأثره السيّء في الحياة لدرجة لا بدّ فيها من الجهاد، والقتال في سبيل الله لدفعه. فهو لا يندفع هكذا تلقائيًا ولا يتثبّت واقع الحقّ في الحياة إلّا بالجهاد في سبيل الله، لأنّ الشرّ والباطل والطغيان بما فيه من

---

(١) سورة **الجمعة**، الآية ٣.

(٢) سورة **آل عمران**، الآية ١٢٧.

مساوئ يفرض نفسه في الحياة، يعمل على الحيلولة دون قيام الحقّ، يعمل على الهيمنة على الناس، له آثاره السيّئة في الحياة.

وحين تستدعي الضرورة القتال في سبيل الله سبحانه وتعالى لدفع الشرّ والخطر والفساد والظلم ولإحقاق الحقّ وللحفاظ عليه ولتمكين وجوده في الحياة، فإحقاق الحقّ يحتاج إلى ماذا؟ إلى توجيهات عمليّة، إلى مواقف بوجه الفساد والظلم والشرّ تدفعه وتهيّئه للحقّ ليتمكّن من الواقع.

ب- إنّ الوقوف بوجه الظلم والطغيان والجبابرة يمنعهم من الهيمنة بالباطل والطغيان:

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ كلماته التي توجّه إلى مواقف عملية فتهيّئ الناس للاندفاع في الواقع العملي. هي النور التي بها وبهديها تترتّب المواقف العمليّة التي تمكّن الحقّ، وتثبته في الواقع. والحقّ أعمّ من أن يكون مجرّد كلمة، هو دين الله بما فيه من تعليمات وعدل وخير ومسؤوليّة ومبادئ يترتّب عليه خير وسعادة الناس في الحياة. وإحقاقه يكون من خلال كلمات الله التي توجّه إلى المواقف العمليّة وتعطي البصيرة التي توفّر الدافع في مقام العمل.

فكان إحقاق الحقّ يستلزم موقفًا (مشكلة) وعادة الناس يتهرّبون من المشاكل أو من المسؤوليّات التي فيها مشاكل! لكن لا، إنّه لا بدّ من مشكلة ليقف كلّ واحد عند حدّه، وإذا لم نقف بوجه الباطل والظلم والطغيان والجبابرة والمستكبرون ولم نعمل لصدّهم عن مبتغاهم فسيعملون على إطفاء نور الله وإزاحة الحقّ، والهيمنة عليه.

﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ يوجّه لهم ضربة قاصمة، وفعلًا كانت غزوة بدر ضربة قاصمة ترتّب بعدها أن يكون مسار الكافرين إلى الأسفل حتّى ظهر أمر الله وهم كارهون.

﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ فإحقاق الحقّ وإبطال الباطل يرتبط بماذا؟ بمسؤوليّات ومهام عمليّة بقتال وجهاد في سبيل

الله، والذي عنده رؤية أخرى لا يعرف القرآن، هو جاهل بأشياء كثيرة في القرآن، منها الواقع؛ وهو يجهل السنن الإلهيّة القاضية بإحقاق الحقّ وإبطال الباطل عبر الجهاد والتضحية.

﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ الله سبحانه وتعالى يحقّق هذه النتائج، يعني الله يقول لنا تحرّكوا، أنتم موعودون بالنصر ليكون هو تعالى قائمًا في الحياة يحقّ الحقّ ويبطل الباطل ويزيحه من واقع الحياة ولو كره المجرمون وتحرّكوا بكلّ ما يستطيعون مكرًا وغدرًا وظلمًا وتجبرًا وطغيانًا ومؤامرات ومكائد وبكلّ ما يمكن أن يفعلوا نتيجة كرههم لإحقاق الحقّ وإبطال الباطل!.

ج- إنّ عامل النصر الحقيقي هو الإيمان:

من أهمّ الدروس التي نستفيدها من معركة بدر هو أنّ العامل الأساسي في النصر هو الجانب الإيماني والسير على هدى الله والإخلاص له وطاعة لمن يقودهم، وليس الجانب المادي. صحيح أنّ الجانب المادّي مهمّ أيضًا ولكنّ الله بالنسبة للجانب المادي لم يكلّف عباده إلّا ما يستطيعون يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ وقال أيضا: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

د- إنّ المشروع الدينيّ قائم على أساس المسؤوليّة:

من الدروس المهمّة أنّ الانطلاقة في سبيل الله سبحانه وتعالى هي انطلاقة مقدّسة، تتحرّك فيها استجابة لأمر الله، طاعةً لله والتكليف فيها من الله، ما أشرفها من مهام، بعكس من يخرجون من بيوتهم إلى ميادين القتال والصراع ظالمين مفسدين في الأرض، في مهام قذرة باطل أو ظلم أو طغيان

نتيجة ثمن بخس! لا، الجهاد في سبيل الله حالة مختلفة تخرج وتتحرّك على أساس توجيهات الله سبحانه وتعالى.

وهنا عندما يقول الله سبحانه وتعالى للنبيّ محمّد ﷺ: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ﴾ يقدّم لنا حقيقة الإيمان والمشروع الديني بحقيقته وجوهره. المشروع الديني قائم على أساس مسؤوليّة عمل، جهاد، إقامة للعدل، تحرّك في سبيل الله سبحانه وتعالى، ليس هناك مجال لعزل النفس - من بيتك إلى المسجد –. هذه الأمور غير موجودة أبدًا في دين الله، والنبي في مقامه العظيم وهو أيضًا في مقام القدوة، وفي مقامه الإيماني العظيم يخرج في سبيل الله في إطار مسؤوليّة جهاديّة يتحرّك في سبيل الله لإعلاء كلمة الله.

أخرجك ربّك في إطار مسؤوليّة جهاديّة، ﴿مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ وخروج بالحقّ في غاية مقدّسة؛ خروج وتحرّك بأمر الله استجابةً لله وطاعةً له وفي موقف الحقّ ومن أجل الحقّ وبالحقّ، لا خروجًا لظلم، وطغيان وجرائم! لا، بل لهدف وعمل مقدّس وغاية مقدّسة وعظيمة. فالخروج نفسه بالحقّ من دون هدف باطل وظلم وتكبّر وطغيان، إنّما يجب أن يتّسم بالهدفيّة والدافعيّة، لأنّه لا يكفي عنوان الخروج.

الآن نرى المجاهدين في سبيل أمريكا في سوريا والعراق واليمن وغيرها يحملون عناوين دينيّة ويتظاهرون بالدين لكن ممارساتهم ونواياهم ودوافعهم ومشاريعهم كلّها مشاريع ودوافع هدّامة مدمّرة مفسدة وإن حاولوا أن يلبسوها غطاء الدين.

هـ- إنّ كلّ نقص في جانب الإيمان سيترتّب عليه خلل في واقع العمل:

ولهذا يربّينا القرآن على أن نكون في واقعنا الايماني على نحو عظيم لنسلم الكثير من الإشكالات في الواقع العملي؛ لأنّ كلّ خلل إيماني يترتّب عليه إشكالات في الواقع العملي، كلّ نقص في جانب الإيمان سيترتّب عليه خلل في واقع العمل، خللك هناك في الواقع النفسي على المستوى الإيماني سيتجلّى في موقفك، وفيما تقول وتعمل وتتحرّك فقد تحاول أحيانًا

أن تعمل عملًا خاطئًا أو تعارض شيئًا صحيحًا، لذا يطلب **القرآن الكريم** أن نرسّخ ثقتنا بالله، وحسن الظن به والتوكّل عليه.

هؤلاء حينما قال عنهم ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ كان توكّلهم على الله ضعيفًا وثقتهم بالله بالنصر قليلًا، كانت المسألة بالنسبة لهم ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ﴾ وليس هناك أمل ولا ثقة كبيرة بوعد الله بالنصر، كان ظنّهم وتوقّعهم بأنّهم سيقتلون ولا يبقى منهم أحد، وحالتهم النفسيّة قلقة بأنّهم سيصلون إلى منطقة الحرب يُقتلون عن آخرهم، أو يتسبّبون بمشكلة كبيرة نتيجتها في نهاية المطاف الفناء. وهذه المخاوف التي أثّرت عليهم سببها ماذا؟ نقص في الإيمان.

ولذلك يا إخوتي الأعزّاء أحيانًا يكون الإنسان في مرحلة عاديّة ليس فيها أحداث كبيرة أو تحدّيات فهو يطمئنّ إلى واقعه الإيماني والحقيقة أنّ واقعه الإيماني في ظلّ ظروف عاديّة كان بمستواها العادي، لكن إذا لم يكن عندك اهتمام بالتربية الإيمانيّة وبتعزيز علاقتك بالله وبتنمية خوفك منه وتوكّلك على الله بازدياد، فقد تأتي مرحلة مختلفة فيها أحداث كبيرة ترى فيها أخطار كبيرة، بالتالي تؤثّر على نفسيّتك وموقفك فترى نفسك في حالة مختلفة عمّا كنت عليه.

كنت على حالة طبيعيّة لأنّك في وضع طبيعي وعادي لكن عندما واجهت وضعًا مختلفًا وأخطارًا وتحدّيات كبيرة اختلفت المسألة إذا بك تهتزّ في إيمانك وموقفك، مستعدّ حتّى أن تجادل النبي - وهو النبي المعصوم - للاعتراض على قراره وموقفه ويصدر منك كراهية للموقف والقرار الذي اتخذ، تعتبره قرارًا سبّب للأمّة مشاكل وأدخلها الأمة في مخاطار كبيرة، وأنّه غير صحيح، ولم يكن من المفترض هذا. لا ينبغي أن نتحرّك هكذا، هذا خطر وكأنّك تساق إلى الموت، ليس عندك ثقة بالله كما ينبغي، ولا أمل كبير بنصر الله، ولا وعي بضرورة الموقف طبقًا للاستجابة لله سبحانه وتعالى والامتثال لأمره.

فتجادل وتعترض وتنتقد، وقد تثبط، وقد تخذل، وقد تكون متذمّرًا من الموقف وغير متفاعل وغير مستعدّ أن تتحرّك فيه كما ينبغي، وهنا ندرك هذه نتيجة من نتائج خلل في الواقع الإيماني ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾.

و- إنّ الثقة بما يدبره الله ضرورة ضروارات الصراع:

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ الله سبحانه وتعالى وعد المسلمين بالنصر والظفر بإحدى الطائفتين، كان هناك طائفتان:

الطائفة التجاريّة: القافلة قافلة تجاريّة ضخمة عائدة من الشام إلى مكّة معها وعلى رأسها أبو سفيان قائد المشركين، وهناك طائفة أخرى: الطائفة العسكريّة التي يقودها أبو جهل جيش المشركين.

فالله سبحانه وتعالى وعد المسلمين بالظفر بإحدى الطائفتين: إمّا الظفر بالقافلة التجاريّة وعلى رأسها أبو سفيان، أو الظفر والنصر والغلبة على جيش المشركين والنصر عليهم، فكانت الرغبة النفسيّة بالنسبة لأغلبهم أن يكون الظفر بطائفة القافلة التجاريّة بحكم أنّها ليست قافلة حسّاسة، يعني ليست المسألة معها مسألة حرب وقتال ومشكلة كبيرة معها تجارة ضخمة، فكانوا راغبين في الظفر بالقافلة التجاريّة، وأبو سفيان نفسه هو هدف مهمّ بالنسبة للمسلمين مع رغبتهم في عدم الاحتكاك والدخول في مشكلة مع جيش المشركين.

﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ غير الجيش المسلّح الذي لديه القوّة والسلاح وسيقاتلكم وتدخلون معه في مشكلة.

﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ كانت إرادة الله مختلفة عن طبيعة رغبتهم. كانت رغبة معظم الجيش الإسلامي بالظفر بالقافلة وعدم الاحتكاك والدخول في مشكلة مع المشركين، لكن كانت إرادة الله شيء آخر كما يقولون في المثل: (أنت تريد وأنا أريد والله

يحكم ما يريد). شاءت إرادة الله بأن يكون الظفر بجيش المشركين، وأن يكون الاحتكاك معهم، وأن يكون هناك أهم وأوّل واقعة بين المشركين والمؤمنين.

ز- إنّ من الأساسيّات المهمّة في الصراع أن يعيش المؤمنون دائمًا حالة الالتجاء والاستغاثة بالله:

الحالة التي يجب أن نعيشها كمؤمنين سواء كنّا قليلًا أو كنّا كثيرًا، سواء كان لدينا إمكانات أو كنّا بدون إمكانات، أن نستشعر حاجتنا المطلقة إلى الله سبحانه وتعالى، وأنّنا بدون الله لا شيء نعيش حالة الضعف والعجز، وأنّه لاحول لنا، ولا قوّة إلّا بالله، ولا يمكن أن ننتصر إلّا بالله.

ومهما كان واقع العدوّ الذي نواجهه سواء كان لديه إمكانات كثيرة أو محدودة، كان كثير العدد، أو قليل يجب أن نستشعر دائمًا بالحاجة إلى الله، وأن نعيش حالة الالتجاء إلى الله والاستغاثة به لأنّ مفهوم الاستغاثة فيه التجاء مع شعور بالحاجة الشديدة إلى الله سبحانه وتعالى، والإلحاح من موقع الشعور بالضعف، من موقع طلب النجدة من الله سبحانه وتعالى.

ولذلك من المهمّ جدًّا حين نكون في طريق الحقّ ومساره أن ننطلق بالحقّ وعلى أساسه كمؤمنين ونعيش دائمًا في أجواء الصراع، وفي مواجهة التحدّيات والأخطار مهما بلغت، ومع أيّ عدوّ مهما كانت إمكانيّاته؛ أن نعيش حالة الالتجاء إلى الله، وطلب المدد منه سبحانه وتعالى، وأن نستغيث الله فنطلب العون الإلهي منه، فنشعر حينها بالقوّة بأنّ الله سندنا وركننا والمعين لنا والناصر لنا والمؤيّد، القويّ العزيز المقتدر القاهر المهيمن الجبّار ملك السموات والأرض.

حينها لن نشعر بالضعف أمام أيّ عدوّ مهما كانت إمكاناته، أمريكا أو غير أمريكا، عدوّ داخلي أو خارجي مهما بلغ كيده، مهما كانت إمكاناته، مهما بلغ عديده وعدّته، نعيش حالة الشعور بالقوّة والاطمئنان في التجائنا إليه، وهذه هي الحالة التي يجب أن نعيشها في كلّ الظروف، تجاه أيّ خطر أو أيّ تحدٍ مهما كان، ولو تغيّرت ظروفنا فوجدنا أنفسنا في ظرف من الظروف أو في

مرحلة من المراحل وقد زاد عددنا وعدّتنا أصبح لدينا الآلاف من المقاتلين، أو أصبحنا نرى أنفسنا في الموقف القوي من حيث العدد والعدّة والإمكانات، لا، لا نغترّ ولا نعتمد على أنفسنا نهائيًّا ولا نغفل عن الاعتماد على الله سبحانه وتعالى.

نعيش حالة الشعور بالحاجة إلى الله، فلا نعجب بأنفسنا، ولا نعجب بإمكاناتنا، ولا نعجب بكثرة عدد، ولا بزيادة إمكانات، نعيش دائمًا حالة الالتجاء والافتقار إلى الله سبحانه وتعالى.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ توجّهتم إلى الله، هذه الحالة الطبيعيّة الصحيحة السليمة لمن يجاهد ويتحرّك في سبيل الله: أن يدرك أنّه مع الله، وفي سبيل الله، ولأجل الله وبالتالي يتوجّه إليه تعالى.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ ربّكم بعلاقتكم به، باعتباركم عبيدًا له. هو ربّكم ووليّ نعمكم والمحسن إليكم، هو المربّي والمالك لكم، من واقع علاقتكم بالله كعبيد لله تتحرّكون في سبيل الله.

النتيجة كانت نتيجة مهمّة وعظيمة: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ التجاؤكم إلى الله وأنتم في مهمّة مقدّسة عظيمة مع الحقّ وللحقّ وبالحقّ، في سبيل الله تعالى، عشتم أجواء الاستغاثة فاستجاب لكم سبحانه وتعالى، استغثتم به، طلبتم النجدة منه والمدد والنصر منه فاستجاب لكم، وهو العظيم المهيمن المقتدر الذي يقدّم كلّ مقوّمات النصر، وعوامله وأسبابه، وهو المهيمن المقتدر العزيز.

ح- إنّ الموقف القتالي في مواجهة الباطل والشرّ يتطلّب شدّة في الموقف وقوّة في البأس:

﴿فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ الموقف القتالي في سبيل الله في مواجهة الباطل والشرّ، وفي دفع الطغيان والفساد والظلم والجور يتطلّب شدّة الموقف وقوّة في البأس؛ مواقف رادعة، قويّة تجعل قوى الطغيان والظلم والإجرام تتراجع، وتراجع حساباتها؛ لأنّ نفسيّاتها السيّئة

والحقودة والطاغية والمستكبرة، والظلومة لا يردّها رادّ إلّا عندما تشعر هي بأنّ هناك في الواقع العملي بالفعل شدّة بأس، موقفًا قويًّا رادعًا حينها تراجع حساباتها. عادةً، يعيش الطغاة والظالمون والجبابرة والمفسدون واقع الاستكبار والحقد والطغيان والإجرام، وعدم المبالاة بالناس، لكن إذا وجد أنّ هناك شدّة بأس، وموقفًا صلبًا يراجع حساباته ويتراجع.

ط- إنّ الدافع الحقيقي لمواجهة الأعداء هو الله، من أجله وفي سبيله:

كذلك ينبغي أن يكون الدافع للموقف من الأعداء دافعًا سليمًا لا يدخل فيه أيّ حسابات شخصيّة لا قضايا ولا أغراض ولا أمور، ولا مناطقيّة، ولا غير ذلك. على الموقف منهم أن يبقى باعتبار معارضتهم للحقّ وعنادهم ضدّه وضدّ الله وضدّ دينه، وضدّ مبادئ الحقّ والعدل، يبقى الموقف منهم من أجل الله ولله وفي سبيل الله، ولأنّهم أدخلوا أنفسهم في دائرة الخطر في الدنيا والآخرة، عذاب في الدنيا وعذاب في الآخرة ﴿وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ والعياذ بالله.

ي- إنّ إحقاق الحقّ وإقامة الدين لا يمكن إلّا بالجهاد في سبيل الله:

لا يمكن إحقاق الحقّ وإقامة الدين وإزهاق الباطل والعمل على تطهير الأرض من الفساد والشرّ والطغيان والمنكر إلّا بالصراع. الصراع عامل أساس عندما يكون التحرّك فيه من منطلق صحيح من خلاله يحقّ الله الحقّ.

والحقّ هو العنوان الواسع الذي يدخل في إطاره تفاصيل الدين كلّها، يدخل فيه العدل، والخير، وتدخل فيه بقيّة التفاصيل المهمّة للدين، كما أنّ الباطل هو العنوان العريض الذي تدخل فيه تفاصيل كثيرة: الشرّ، المنكر، الفساد، الطغيان، الإجرام، كلّها تفاصيل مرتبطة بالباطل.

الحقّ له امتداده في الواقع وله أثره في الحياة، الحقّ ليس مجرّد كلمة نتكلّم بها! لا! الحقّ هو سلوك وعمل، الحقّ هو موقف وأخلاق، الحقّ له امتداداته في الحياة من خلال أهله وحَمَلته المنتمين الصادقين إليه، في أعمالهم وتصرّفاتهم وسلوكيّاتهم يتجلّى الحقّ، وفي أقوالهم نعرف الحقّ..

وبالتالي، يتجلّى في واقعهم الحقّ، ويتجلّى بذلك أثره في الحياة، أثر الحقّ في الحياة أثر نافع ومفيد يترتّب عليه الخير والسعادة للناس، عوائده عزّة، وكرامة، وسعادة، وفلاح، وفوز في الدنيا والآخرة.

أمّا الباطل فكذلك يتجلّى في واقع أهله، للباطل أهله كما للحقّ أهله ويتجلّى سوء الباطل في أهله في تصرّفاتهم تصرّفات شرّ وعدوان وجرائم في سلوكيّاتهم وأخلاقهم السيّئة، في ممارساتهم الظالمة وهكذا تتجلّى وتتّضح سبيل المجرمين فيما يفعلون في تصرّفاتهم، ومواقفهم من ظلم، وفساد، وجرائم، وطغيان، وأشكال متنوّعة.

فامتداد الباطل في واقع الحياة من خلال أهله وأثره في واقع الحياة سيّئ؛ معاناة الناس، الشقاء، الاضطهاد كلّ ذلك يملأ الحياة بالمظالم والطغيان والشقاء والنكد، وكذلك الشرور والمفاسد بكلّ أشكالها وأنواعها!.

أيضًا في جانب الصراع نفسه، إنّ أهمّ ما يتجلّى فيه الحقّ أخلاقه وقيمه ويتجلّى فيه سوء الباطل بمساوئه الفظيعة. وخلال الصراع، يترجم كلّ طرف المبادئ والأخلاق والقيم التي ينتمي إليها.

فالمؤمنون يترجمون عمليًّا في الواقع أثناء الصراع قيم الحقّ الذي ينتمون إليه في وفائهم وحسن أخلاقهم، في ثباتهم في تضحيتهم وعطائهم، في صبرهم وممارساتهم العادلة والسليمة... وتتجلّى أيدي أهل الباطل بالسوء، ويظهر سبيل الإجرام في ممارساتهم أثناء الصراع، ما يرتكبونه من جرائم فضيعة، ما يعملونه من أعمال وحشيّة وفظيعة وقبيحة وممارسات ظالمة، وطغيان كبير وفساد وشرّ.

الحقّ ينزل عمليًّا في واقع الحياة بمبادئه وأخلاقه وقيمه، ويتحوّل إلى مشروع عمل، وإلى مواقف، وسلوك. الباطل كذلك ينزل من خلال أهله وحملته إلى واقع الحياة بسوئه ومفاسده، بما فيه من شرّ، وإجرام، وطغيان، وامتداداتهما، امتداد الحقّ في الميدان وفي الواقع وفي حياة الناس، وامتدادات الباطل كذلك في واقع الحياة حتّى يتغيّر هذا الواقع.. مثلًا:

الظلم هو من الباطل، بل واحد من أسوأ ما في الباطل وامتداداته في الحياة، كيف يزاح هذا الظلم، كيف يتخلّص الناس منه في واقع حياتهم، وكيف يمكن إحقاق جانب من الحقّ وهو العدل لإقامته في الحياة؟.. لا بدّ من الصراع مع أولئك الذين يحملون الباطل، ويكونون آلة له، وترجمانه، وامتداده في الحياة، فهو لا ينزل بنفسه إلى الحياة هكذا! لا، بل بأهله، بحملته، بأنصاره، بأتباعه، بممارساتهم، بأعمالهم، بتصرّفاتهم، بمواقفهم.

ك- إنّ إحقاق الحقّ وإبطال الباطل يتطلّب مواقف جهاد وتضحية:

هذه المواقف هي مواقف في سبيل الله، مواقف جهاد، مواقف تضحية، مواقف عمليّة جادّة لإزهاق الباطل، مواقف ضدّ أولئك الذين هم حملة للباطل، وامتداد له في واقع الحياة... فكان لا بدّ من الجهاد، لم يمكن حتّى للنبي بمقامه العظيم عند الله أن يجلس ولا يتحمّل مسؤوليّة، ولا يدخل في مشاكل ويدعو الله من داخل مسجده ويقتصر على ذلك، وانتهى الموضوع! لا، كان لا بدّ من التحرّك العملي، استدعى أن يصبح النبي قائدًا عسكريًّا يقود الجيوش، يحرّض على القتال، يعبّئ التعبئة الجهاديّة اللازمة.. يحرّك الأمّة ويتحرّك بالأمّة.

كان هذا أمرًا ضروريًّا لكي يتمكّن من إقامة الحقّ في الحياة وإزهاق الباطل بضرب أهله وحملته الذين هم يفرضونه في واقع الحياة: ممارسة وهيمنة وطغيانًا وعملًا وسلوكًا شائنًا فأراد الله إحقاق الحقّ. الحقّ هو حقّ لكنّ إحقاقه وفرضه في واقع الحياة يتطلّب موقفًا. إبطال الباطل كذلك، الباطل نراه في الحياة ظلمًا من جانب الظالمين، فسادًا من جانب المفسدين، إجرامًا من جانب المجرمين، نرى أثره السيّئ في واقع الحياة: معاناة وشقاء ومآسي.. وإزهاقه وإبطاله وقلعه من واقع الحياة يتطلّب موقفًا إيمانيًّا جهاديًّا ضدّ حملته.

فكانت إرادة الله في إحقاق الحقّ وإبطال الباطل وقطع دابر الكافرين بالقتال والاحتكاك والمواجهة ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ

ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ إذًا لا بدّ من المواجهة، من الصراع، هذا من أهمّ ما ورد في الآيات السابقة: حتميّة الصراع مع أهل الباطل، وهذه مسألة واضحة في الآيات السابقة، ولم يكن هناك من مناص من هذا حتّى للنبيّ صلوات الله عليه وعلى آله في مقامه العظيم فكان لا بدّ له أن يحرّك الأمّة في هذا الاتجاه.

ل- إنّ ارتباط إحقاق الحقّ وإبطال الباطل، وإقامة الدين بالله من أهمّ عوامل القوّة فيه:

تحرّك النبي في هذا الاتجاه والمسار الإيماني الجهادي؛ مسار إحقاق الحقّ وإبطال الباطل، وإقامة الدين. هذا المسار أهمّ ما يميّزه في كلّ عصر وزمن أنّه مرتبط بالله سبحانه وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا﴾.

المسألة مرتبطة بالله سبحانه وتعالى ليست مجرّد مسؤوليّة تقع عبئًا على الناس وحدهم دون تدخّل الباري. كلا، الله يتولّى معونتهم، بفضله، بتأييده، بتقديم الدعم، المدد، التأييد الواسع.. تهيئة أشياء كثيرة جدًّا وفي النهاية يكتب ويحقّق النصر.

بالتالي، فالتأكيد على أهميّة الالتجاء إلى الله، وأن تكون حالة يعيشها المؤمنون في أيّ مستوى كانوا قليلًا أو كثيرًا، في الظروف التي لديهم فيها إمكانيّات أو تلك التي يفتقدون ذلك ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ﴾. هذه الحالة من المهمّ أن يعيشها المؤمنون في ظل الصراع والمواجهة: الاستغاثة، وحالة الالتجاء إلى الله سبحانه وتعالى مع الشعور العميق بالحاجة إلى الله وإلى تأييده.

م- إنّ المدد الإلهي لعباده المؤمنين مستمرّ في كلّ عصر:

من الأمور المهمّة جدًّا أنّ الله سبحانه وتعالى قال: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ﴾ بمعنى أنّ الله استجاب لعباده المؤمنين، وأمدّهم من ملائكته. هذه مسألة مهمّة؛ لأنّ البعض مثلًا قد يتصوّر

أنّ الإمداد في معركة بدر بالملائكة إنّما كان خاصيّة يختصّ بها النبي ﷺ فيتصوّر أنّه لا يمكن أن يمدّ الله بملائكته إلّا نبيّه.. هنا الآية تتحدث أنّ الإمداد كان للمؤمنين، وكان ضمن استجابة الله سبحانه وتعالى لجنوده، وعباده المؤمنين المجاهدين حينما استغاثوا وطلبوا منه المعونة والمدد فأمدهم هم.

﴿فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ﴾ أنتم كمؤمنين.. ﴿أَنِّي مُمِدُّكُم﴾ يوجّه الخطاب لمن؟ للمؤمنين! المدد كان مددًا للمؤمنين استجابة لهم، وفي مقدّمتهم بلا شكّ الرسول ﷺ وهو أوّل المؤمنين، وسيّد المرسلين! ولكن حتّى لا يتوهّم البعض أنّ المسألة كانت فقط من أجل النبي..لا.. المسألة رحمة من الله، وعون لعباده المؤمنين.

بالتأكيد في زمنٍ كهذا، أصبح لدى الظالمين والكافرين والمنافقين وكلّ أولياء الشيطان إمكانات هائلة جدًّا، وأصبح لديهم كيان كبير في العالم، وسيطرة وإمكانات هائلة.. بالتأكيد أنّ المدد الإلهي سيكون كبيرًا بحجم الظروف والأوضاع، والله أرحم الراحمين.

ن- إنّ للرصد والرقابة والمتابعة أهميّة لتحرّكات الأعداء:

من أهمّ الدروس التي نتعلّمها من النبي ﷺ هو الوعي بأهميّة الرصد والرقابة لكلّ تحرّكات الأعداء لمعرفة ما يخطّطون له وينوون القيام به اقتداء بالرسول ﷺ الذي كان طوال مواجهته لأعداء الله يبعث بمجموعات لغرض الرصد والرقابة لتحرّكات الأعداء.

س-إنّ التصدّي الأوّل للرسول في بدر قدّم درسًا مهمًّا:

كان رسول الله ﷺ في معاركه يقدّم أهل بيته هو، وكان أوائل الشهداء من أهل بيته في المعارك، في بدر كان الذين برزوا للمشركين في أوّل معركة هم من أهل بيته، من أقاربه، من أسرته.

ولذلك، فإنّه يتوجّب على أهل البيت في كلّ زمان أن يكونوا في مقدّمة من يتحرّكون لإحياء كتاب الله في أوساط عباده ويطبّقون شريعته على أرضه

ومن يواجهون الظلم والطغيان وأن يكونوا في مقدّمة من يجنّدون أنفسهم في هذا الزمن لمواجهة اليهود والنصارى؛ أمريكا وإسرائيل وعملائهم.

ع- إنّ القرآن الكريم بيّن لنا كيف تكون نهاية الطواغيت:

أولئك المشركين من صناديد قريش برزوا في بدر أبطالًا، وكانوا يعتبرون أنفسهم من ذوي أصول قويّة، ماذا حدث؟ جعلهم رجال الله ينهارون، وقد اندهش بعضهم ممّن كانوا يعتبرون أنفسهم أبطالًا أنّهم هُزموا وقُتل بعضهم على أيدي من كانوا يحتقرونهم ولا يقيمون لهم وزنًا. إنّ نهاية الطواغيت في الدرك الأسفل لأنّ دين الله سينتصر وسيعلو مهما حاول المشركون، وهذا الشيء كان له وقعه في نفوس طواغيت قريش. إنّ دين الإسلام لا يفرّق بين غنيّ أو فقير كلّهم أمام الله متساوون وهذا ما لم يكن يعجبهم حتّى لو على مستوى أن يُقتل أحدهم على أيدي رجلٍ ممّن يعتبرونه دونهم. وهذا ابن مسعود وجد أبا جهل مصروعًا في بدر من ضربة معاذ بن عمرو بن عفراء، فكان يجرّ رأسه، وهو يقول: (يا رويعي الغنم لقد ارتقيت مرتقًى صعبًا)[١].

ف- إنّ النبيّ ﷺ أراد للأمّة في الصراع أن تكون أمّة مستقلّة:

أراد الله سبحانه وتعالى أن يعلّمنا بأنّ دينه يستطيع أن يجعلنا أمّة مستقلّة، تقف على قدميها، عزيزة، رافعة رأسها، تقهر الأمم الأخرى، ما الذي يحصل الآن؟ أليس كلّ العرب يتّجهون إلى أمريكا لتنقذهم من إسرائيل؟ ولو أنّ أمريكا هي المحتلّة وإسرائيل هناك للجأوا إلى إسرائيل لتنقذهم من أمريكا! يلجأون إلى أمريكا وروسيا راعيتا السلام أن تنقذهم من إسرائيل.

أراد الله لهذه النظرة القاصرة أن يمسحها من أذهان العرب لو تربّوا على دينه، وعلى نهج نبيّه ﷺ، لو عرفوا سيرته وهو في جهاده من بدر إلى آخر معركة لم يلجأ إلى طرف آخر، لم يلجأ إلى الفرس، أو إلى الروم، وهما القوّتان التي كانتا تمثّلان القوى العظمى في العالم في ذلك العصر. لم يلجأ إلى

---

(١) الدرس الثالث من دروس شهر رمضان للسيّد حسين (رضوان الله تعالى عليه).

الفرس ليساعدوه ضدّ الروم، ولا إلى الروم ليساعدوه ضدّ الفرس، ولا إلى الفرس ليساعدوه على قريش، ولا إلى الروم ليساعدوه على قريش، ربّى الأمّة تربية توحي لها بأنّ باستطاعتها أن تقف على قدميها وتقارع الأمم الأخرى[١].

ص- إنّ معركة بدر جعلت المسلمين يعروفن الرسول أكثر:

من خلال معركة بدر، تجلّت قدرة الرسول ﷺ القياديّة فقد كان شخصًا هامًّا جدًّا حكيمًا وقديرًا ذكيًّا فاهمًا، قائدًا على أعلى مستوى للقيادة فعلًا، حتّى أنّ الغربيّين عندما حلّلوا شخصيّته ومواقفه اعتبروه أعظم قائد في التاريخ.

٢- معركة أُحُد (السبت ٧ شوال سنة ٣هـ - يناير ٦٢٥م)

عاشت مكّة مرارة الهزيمة التي لحقت بها في بدر وأعدّوا عدّتهم للانتقام من المسلمين وخرج أبو سفيان إلى قبائل العرب يطلبهم للنصرة على محمّد بعد أن عجزت قريش.

وأنفقت قريش أرباح القافلة لتجهيز جيش الشرك والضلال ليزحفوا على المدينة بثلاثة آلاف، والنساء يَسِرْنَ وراء الجيش يحملن (هبل) على ناقة.

أخذ رسول الله ﷺ يرصد تحرّكات قريش:

«العبّاس بن عبد المطلب يبعث برسالة إلى رسول الله ﷺ يخبره فيها بتحرّك قريش. وصلت رسالة العبّاس إلى رسول الله ﷺ بخروج قريش فأرسل رجلين ليعرفا أين العدوّ وما هو عليه.

يقول الرجلان: يا رسول الله إنّهم في ذي الحليفة وقد أكلت إبلهم زروع أهل المدينة.

(١) الدرس الثاني من تفسير سورة **آل عمران** للسيّد حسين (رضوان الله تعالى عليه).

فأخبر رسول الله ﷺ صباحًا المسلمين بقوله: «لقد رأيت في منامي أنّي في درع حصينة وأنّ بقرًا تذبح وأنّ ثلمًا في سيفي. أمّا الدرع الحصينة فالمدينة، فامكثوا فيها وتحصّنوا بها. وأمّا البقر فيقتل رجال من أصحابي. وأمّا الثلم فرجل من أهل بيتي يقتل».

يقال: كان رأي رسول الله ﷺ وآخرين: أن يبقوا في المدينة، ويقاتلوهم فيها، وكانوا - كما يشير بعض الكتّاب - شبابًا، لديهم طموح، قالوا: نخرج نلقاهم، وأصرّوا على ذلك. وحين رأى ﷺ إصرارهم ورغبتهم في الخروج من المدينة لملاقاة المشركين دخل ولبس لباس الحرب استجابة لرأي الأكثريّة، ورفض الرجوع إلى الرأي الأوّل حين عدلوا هم عنو لأنّ في ذلك تشكيك في سداد رأي النبيّ ومعنى أنّ يلبس الرسول لامة الحرب أنّه تجهّز للقتال وكفى.

خطب فيهم رسول الله ﷺ وحثّهم على الجهاد، ثمّ دخل بيته ولبس عمامته وتقلّد سيفه، ووضع القوس والسهام على جنبه وألقى الترس على ظهره وخرج.

وقال ﷺ: «هاتوا ثلاثة رماح للألوية فلواء المهاجرين بيد علي، ولواء الأوس بيد أسيد بن حضير، ولواء الخزرج بيد الحبّاب بن المنذر».

تحرّك رسول الله ﷺ وعسكر بهم في خارج المدينة وأخذ رسول الله ﷺ يستعرض الجيش وجهوزيّته.

أمّا من جهة أخرى، فقد عاد عبد الله بن أبيّ زعيم المنافقين بثلث الجيش بعد أن قال: ما ندري علام نقتل أنفسنا؟ ارجعوا أيّها الناس. فرجع معه ثلاثمئة من المنافقين وهم ثلث الجيش.

فخشيت طائفة من المسلمين الفشل بسبب نقصان المنافقين.

فقرأ رسول الله ﷺ على المسلمين قول الله تعالى: ﴿لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ

﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾[١]. فأوكل إلى كتيبة محمّد بن مسلمة حراسة المعسكر في تلك الليلة.

ورأت فرقة الاستطلاع: يا رسول الله إنّ المشركين نزلوا بالقرب من جبل أحد.

فأوكل رسول الله ﷺ صباحًا من يعرف طريقًا غير مكشوفة دليلًا.

وبرز رسول الله القائد العسكري المحنّك في أرض المعركة بعد أن ألقى ﷺ نظرة فاحصة لتشكيلة جيش العدّو، فأخذ رسول الله ﷺ يصفّ الصفوف كالبنيان المرصوص، وجعل جبل أحد خلف ظهره ووضع الرماة في ثغرةٍ قائلًا: «احموا ظهورنا لا يأتون من خلفنا وانضحوهم بالنبل إنّا لا نزال غالبين ما دمتم في مكانكم».

توجّه رسول الله إلى الجيش يحثّهم على الصبر واليقين والجدّ والنشاط. وكانت دفوف الحرب تضربها نساء المشركين وجيش المشركين يزحف. فلمّا أخرجت راية المشركين للمبارزة أمر رسول الله ﷺ عليًّا عليه السلام أن يتقدّم لمناجزته.

استلّ علي عليه السلام سيفه ورفع صوته بالتكبير وقطع رجل طلحة فكبّر المسلمون بعده وسقطت راية المشركين، وحمل المشركون طلحة جثّة هامدة فرفع الراية أخوه سعيد بن أبي طلحة، وقال: هل لك يا علي في المبارزة؟

فانطلق علي عليه السلام على فرسه إلى سعيد وبحركة قتاليّة ماهرة يرديه قتيلًا ليلحق بأخيه إلى جهنّم وبئس المصير. ويكبّر رسول الله ﷺ بصوتٍ عالٍ فيكبر المسلمون بعده بقوّة.

وكان الحمزة ‹رضي الله عنه› حامل الراية فانطَلَق كالصاعقة لتسقط راية المشركين فيعلو التكبير ويخيم السكوت على المشركين من هول ما رأوا.

---

(١) سورة **التوبة**، الآية ٤٧.

فأخذ أبو سفيان يحفّز بني عبد الدار على حمل الراية ولكن كلّ من حملها كان علي عليه السلام أو حمزة ‹رضي الله عنه› له بالمرصاد حتّى بلغ قتلى الراية أحد عشر قتيلًا وسقطت الراية زمنًا لم يجرؤ على رفعها أحد.

فكبّر رسول الله ﷺ وحمل على المشركين وهبّ وراءه المسلمون هبّة رجل واحد فأخذ الجيش المشرك يتفكّك ويفقد ترابط صفوفه. وفي زمن يسير بدأ أوّلهم بالهرب وأخذ الرسول ﷺ والمسلمون يحصدون أرواح المشركين الذين تركوا أمتعتهم غنائم لينشغل المسلمون بحملها ويتركونهم.

وفي أثناء ذلك، كان خالد بن الوليد بكتيبة من خيل المشركين يحاول الالتفاف على المسلمين من الخلف إلّا أنّ عبد الله بن جبير وخمسين من الرماة ينضحون الخيل بالسهام ويمنعون الخيل من التقدّم حتّى كاد اليأس يدبّ في نفوسهم وفجأةً توقّفت السهام.

صاح عبد الله بن جبير (رضي الله عنه): ما لكم لا تلزمون أماكنكم؟

قال أحد الرماة: ألا ترى انهزام المشركين والناس يجمعون الغنائم؟ هيّا لنجمع الغنائم معهم.

صرخ عبد الله بن جبير ‹رضي الله عنه›: لقد سمعتم رسول ﷺ حين قال: «إن رأيتمونا قد هزمناهم حتّى أدخلناهم مكّة فلا تبرحوا من هذا المكان وإن رأيتموهم قد هزمونا حتّى أدخلونا المدينة فلا تبرحوا والزموا أماكنكم».

ثمّ وعظهم: أطيعوا رسول الله ﷺ طاعة مطلقة، ولا يُقبل أيّ عذر أو تأويل مع وجود رسول الله ﷺ. إنّ أثر العصيان داخل فئةٍ تحمل رسالة إذا حصل الخلل في جانبهم قد يعرّضون الرسول ويعرضون الرسالة كلّها للخطر.

ولكنّهم يردّون: قد انتهت المعركة والمسلمون في أرض المعركة ينظرون إليهم ساكتين وكأنّ نشوة النصر قد أسكرتهم فتحرّك خالد بن الوليد وبقيّة

الخيّالة على عبد الله بن جبير ومن تبقى معه فاستشهد عبد الله بن جبير ومن بقي معه على جبل الرماة»[١].

جالت خيل المشركين وباغتتهم من الخلف فتفكّكت صفوفهم وتوقّف هجومهم، فأعاد المشركون توازنهم وانطلقت امرأة لترفع راية المشركين التي كانت على الأرض وانقلبت موازين المعركة؛ فالمسلمون قد اختلطت خيل المشركين بينهم وبينما الحمزة ‹رضي الله عنه› في توثّبه وشجاعته وإخلاصه يحصد أرواح المشركين أمامه كانت هند (أمّ معاوية) ومعها وحشي الحبشي، رامي الرمح الغادر الذي سدّده وهو على بُعْد أمتارٍ من الخلف إلى سيّد الشهداء كما سمّاه رسول الله ﷺ فتصعد روحه في جسده الجديد إلى جوار ربّها تاركًا جسده الطاهر ليشهد وحشيّة آل أبي سفيان وهمجيّتهم فتبقر (هند) بطنه وتخرج كبده لتلوكه بأسنانها وتقطع أذنيه وأنفه لتخيطها أسورة في يدها، وفي ذلك الوضع يسقط العشرات من الشهداء.

وها هو آخر الأنبياء والمرسلين في ثبات منقطع النظير تهاجمه الجموع المشركة من كلّ جانب وهو يرميهم بالسهام حتّى فرغت جعبته، ويقارعهم بسيفه ومعه أربعة عشر رجلًا من أهل بيته ثبتوا معه ومن المخلصين، أمّا الباقون فقد فرّوا وتركوا رسول الله ﷺ فمنهم من وصل إلى المدينة ومنهم من لا يزال قريبًا.

ولكنّ القلّة المؤمنة الثابتة مع رسول الله ﷺ استبسلت فكلّما هجمت عصابة من المشركين كشفها الكرار علي عليه السلام وقتل منها قائدها فتراجعت إلّا أنّهم يهجمون من كلّ الجهات فكان أبو دجانة يضرب بسيفه حتّى انحنى.

وتقدّم أبيٌّ بن خلف مع عصابته على رسول الله ﷺ حتّى اقترب أبيٌّ فقال: لا نجوتُ إن نجوتَ يا محمّد، فتناول رسول الله ﷺ الحربة من

---

(١) انظر: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، الجزء ٢، الصفحة ٤٧.

الحارث بن الصمة وطعن أبيّ بن خلف في رقبته فسقط من ظهر فرسه يخور كالثور ومات منها.

لقد كان رسول الله ﷺ أقرب أصحابه إلى العدوّ ويقاتل قتالًا شديدًا فرماه ابن قمأة - أقماه الله - بحجرٍ شجّت وجنته وكسرت سنّه ﷺ ثمّ أهوى ابن قمأة بسيفه على رسول الله ﷺ فلقيه مصعب بن عمير بجسده ليفدي رسول الله ﷺ وسقط شهيدًا.

ويضرب الرسول ﷺ أروع الأمثلة في الصمود والاستبسال والثبات، ولا يزال ينظّم أصحابه طوال فترات المعركة.

ويُسمع الرسول ﷺ وهو يدعو أصحابه إلى إعادة صفّ الصفوف فبدأوا بالتراجع واحدًا واحدًا حتّى اصطفوا من جديد وفجأةً بدت للمشركين فكرة الرجوع إلى معسكرهم وإنهاء المعركة خوفًا أن يستعيد المسلمون زمام السيطرة فيخسرون هذا النصر الكبير فتركوا ساحة القتال وأنوفهم في السماء فخرًا وفرحًا فقد ثأروا لقتلاهم في بدر.

لقد منع التدخّل الإلهي المشركين من مواصلة التقدّم حيث كان من البديهي أن يتحرّك المشركون إلى المدينة لكنّ الله صرفهم عنها بعد أن عفا عن المؤمنين فتمثّل ذلك العفو في صرفه للمشركين عن المدينة كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[١] وتوجّه المشركون إلى معسكرهم وركبوا الإبل وتركوا الخيل راضين بهذه النتيجة للمعركة.

فلمّا انتهت المعركة سأل رسول الله ﷺ عن الشهداء فإذا بعمّه حمزة «رضي الله عنه» في الشهداء وقد مثّلوا به فحزن حزنًا شديدًا فقدّم الشهداء

---

(١) سورة **آل عمران**، الآية ١٥٢.

للصلاة عليهم؛ يرفعون مجموعة مجموعة وحمزة لا يُرفع حتّى صلّى على جميع الشهداء ثمّ دُفنوا في أحد.

وانصرف المسلمون مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة مثخنين بالجراح وأرسل عليًّا عليه السلام في آثار المشركين، واستقبلت فاطمة عليها السلام أباها صلى الله عليه وآله وسلم وعالجت جراحه وغسلت الدم وهي تبكي فهي تعلم حرص رسول الله على إنقاذ الناس من عذاب الله وهم يفعلون به كلّ هذا.

الدروس والعبر

لنستمع إلى السيّد حسين ‹رضوان الله عليه› وهو يتحدّث مع بعض الحُجَّاج ومن على جبل أحد عن أهمّ الدروس والعبر من هذه المعركة فيقول:

أ- السمع والطاعة للقائد:

كان من أهمّ الأشياء التي رُبِّيَ عليها المسلمون في **القرآن الكريم**، وعلى يد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هي: السمع والطاعة، الطاعة بمعنى الكلمة، والقرآن أكّد هذا، طاعة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في كلّ الميادين.

ب- عدم التنازع بين المجاهدين لأنّه يؤدّي إلى الفشل:

في بداية المعركة - كما قال الله سبحانه وتعالى في **القرآن الكريم**-: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ﴾[1] في أو المعركة كان القتل يتمّ بسهولة، يمسحون رؤوس الكافرين، وحين وقع التنازع والعصيان حصل الفشل، وهذا الذي ضرب المسلمين ضربة رهيبة، إذ لا مبرّر لأيّ شخص أن يدلي برأي، أو أن يقول شيئًا مع وجود رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. أوّلًا: كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم رسول من عند الله، شخص كامل في ذكائه، وفهمه، شخص يعرف المجتمع

(١) سورة **آل عمران**، الآية ١٥٢.

العربي، ويعرف آلة الحرب عند العرب، ويعرف أيضًا تكتيكات المعارك، والقتال، لكن حين تُدلى الآراء يظهر التنازع، والفشل داخل الفئة. هم كانوا أنصار رسول الله ﷺ، وإذا ما حصل الخلل في جانبهم قد يُعرِّضون الرسول، ويعرّضون الرسالة كلّها، ثمّ يعرّضون البشريّة كلّها للخسران، وهذا ما حدث في معركة أُحُد؛ حصل التنازع بين الرماة في الجبل، فبعد أن رأوا الغلبة للمسلمين في المعركة، وهزيمة المشركين قالوا: انتهت المعركة، ننزل لنجمع الغنائم!

وثانيًا: كان رسول الله ﷺ سبق أن أكّد عليهم بألّا يبرحوا أماكنهم أبدًا، لكن حدثت هذه الثغرة في صفوفهم فمِنهم مَن صمم على البقاء، ومنهم مَن نزل. الذين نزلوا شاهدهم المقاتلون الآخرون بالطبع، كان المفروض أن يقولوا: لا تبرحوا أماكنكم كما أمركم رسول الله ﷺ، لكن عصوا، والمعصية هذه كانت عامّة أدّت إلى تنازُع وفشل، ماذا حصل فيما بعد؟

لقد ارتكبوا خطيئة كبيرة، بغض النظر عن أنّ من ورائها جهنّم أم لا، هذه خطيئة في واقع العمل الرسالي، وهو شيء غير مقبول لمن يحمل رسالة للبشريّة كلّها، فإذا لم يكونوا هم ملتزمين بالطاعة المطلقة للرسول ﷺ فمعنى هذا بداية الفشل في أوّل الطريق، وهذا تعريض للرسالة، وللرسول وللأمّة كلّها للخطر.

ج- إنّ من عواقب التفريط أن تخسر الأمّة عظماءها:

ما الذي حصل بعد أن تنازع المقاتلون وتركوا أماكنهم؟ تهيّأ المشركون ليلتفوا على المسلمين فيضربونهم، فيُقتل سبعون شهيدًا، منهم: حمزة الذي قال عنه الرسول ﷺ: سيّد الشهداء، حمزة الذي كان معروفًا بالفروسيّة، والبطولة، أيضًا بالإخلاص لرسول الله ﷺ، والتفاني في القتال. كانت خسارة حمزة خسارة رهيبة؛ لأنّ أعظم خسارة على الأمّة هي عظماؤها حقيقة، وأيُّ خسارة أخرى يمكن أن تعوَّض، كوارث طبيعيّة في المساكن، أو المزارع، أو أيّ شيء آخر، لكنّ العظماء إذا ما فقدوا فهي خسارة لا تعوَّض.

من أين جاءت هذه الخسارة؟ هل الخسارة على النبي ﷺ وحده أم خسارة على الكلّ؟ كانت خسارة على الكلّ؛ لأنّ أولئك الذين تثاقلوا - كما قال الله عنهم - تنازعوا، وفشلوا، وعصوا، استحقّوا أن يؤدّبوا فعلًا، والأدب يأتي عامًّا؛ لأنّ الآخرين سكتوا، ألم ينزل هؤلاء من الجبل والآخرون يشاهدونهم؟ لم يتكلّموا، عندما يسكت الناس فالسكوت أحيانًا يعبّر عن الموقف الجماعي، فيكون الكلّ مستحقين للعقوبة.

والقرآن الكريم أكّد على أنّ العقوبات تحصل في الدنيا، وأيّ عمل يعمله الناس يستدعي عقوبة مفاجئة، كما مال المشركون وفاجأوا المسلمين، وهم يجمعون الغنائم، كانت هزيمة منكرة للمسلمين حقيقة، حيث بقي رسول الله ﷺ مع مجموعة من أهل بيته، ومن خواصّ أصحابه، يدافعون عنه، والمشركون (شمتوا) بالنبي ﷺ حتّى قال أبو سفيان: (أُعلُ هبل).

كانت تلك ضربة شديدة ذكرها الله في كتابه، وفي معركة أُحُد لم يكن النصر في نتيجتها النهائيّة للمسلمين حقيقة، لكن كان فيها دروس كثيرة مهمّة لا تزال مسطّرة إلى الآن يحتاج إليها المسلمون في كلّ زمن.

قال الله سبحانه ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ﴾(١) ممّا يدلّ على أنّهم تلقّوا عقوبة إلهيّة؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى قال: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾(٢) متى ما عصوه يتحمّل هو المسؤوليّة، ويهيّئ الجنود لحمل الرسالة. كان المسلمون جميعًا في أيّام رسول الله ﷺ طليعة من يصلح البشريّة، وعندما عصوا استحقّوا العقوبة، ولكن ﴿وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ﴾ يفسّره البعض العفو بالذنب أو الإثم، ولكنّ الموضوع ليس موضوع إثم، الموضوع موضوع عقوبات وقتيّة هنا في الدنيا، الإثم هناك في الآخرة.

---

(١) سورة **آل عمران**، الآية ١٥٢.

(٢) سورة **الفتح**، الآية ٤.

ولقد عفا عنكم، كانت المدينة تبعد عن أحد أربعة كيلو مترات، وكان الشيء الطبيعي المحتمل لقريش هو أن يدخلوا المدينة، فيحتلّوها، ويعبثوا بها، وكان قد خرج الأنصار منها، والمسلمون قد هزموا، وبعضهم ضاعوا لفترة، ولكنّ الله عفا عن المسلمين، وتدارك الأمر فصرفهم، فانصرف المشركون، واتجهوا نحو مكّة.

هذا من اللطف الإلهي، من العفو الإلهي العظيم في هذا الموقف، وإلّا كانت المدينة قريبة جدًّا، وأيّ قائد عسكري يحصل له نصر كهذا، مثلما حصل لخالد بن الوليد ولقريش في تلك المعركة أن يتبادر إلى ذهنه الهجوم على المدينة، ليسوا أغبياء أن ينصرفوا عن ذلك، لكن الله صرفهم عفوًا عن خطأ المسلمين»(١).

ويقول:

«المهمّ في هذا الموقف أنّ فيه دروسًا، وأنّ العصيان يؤدّي إلى خسارة كبيرة، كانت في معركة بدر خسارة حمزة، الرجل الشجاع، المخلص، المؤمن، القويّ في ذات الله وكان رسول الله ﷺ في ظرف أحوج ما يكون إلى شخص كحمزة، وقد تألّم لفقده كثيرًا. إذ إنّ أيّ قائد يدخل في مواجهة مع آخرين يعرف قيمة رجل كهذا، وفي ميادين المواجهة مع أعداء الله يصبح الرجل المهمّ له قيمته العالية، ويعرف الناس الحاجة الماسّة إليه(٢)».

د- خطورة التصنيفات والتأويلات أمام أيّ توجيهات تأتي من القائد:

يقول السيّد حسين ‹رضوان الله عليه›:

«عندما نعود ونقرأ القرآن في قصّة (أُحُد) نأخذ منها عبرًا؛ لأنّ الله خلّدها، لحاجة الأمّة إليها في كلّ مراحل حياتها، والقرآن ليس كتابًا تاريخيًّا، أو

---

(١) من دروس ألقاها الشهيد القائد في جبل الرماة المدينة المنورة ١٤٢٢هـ.

(٢) المصدر نفسه.

كتاب قصص، يخلّد القضيّة؛ لأنّها مُهمّة، وموطن العبرة فيها هي عدم مخالفة أمر القائد الجهادي الميداني بأي شكل من الأشكال، ليست المسألة إثم أو تأويل خاطئ، إنّما هو التزام بالأمور وعدم فسح المجال أبدًا أمام التأويلات، والتصنيفات، والتقديرات، وربّما.. ولعلّ. القاعدة هي الالتزام المطلق بأي أوامر أو توجيهات كما كانت روحيّة الإمام علي عليه السلام في طاعته المطلقة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ولأنّ من يلتزمون هذا المبدأ هم من يحصلون على الكمال المكتوب لهذا الدين العظيم؛ فالإسلام دين تكامل للبشر، فمن التزم به، من سلّم روحيّته له، وأطاع الله، وأطاع رسوله الطاعة المطلقة، يحصل على العلم، والكمال المقدّر له، لكن من ينطلقون وراء التصنيفات والتأويلات هم من يجنون على الأمّة، لم يسقط الأمّة إلّا هذه التأويلات التي تخرج عن المبدأ الأساس»(١).

هـ- بروز عظمة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في أُحُد كقائد عسكري:

يقول السيّد حسين ‹رضوان الله عليه› في الدرس السادس عشر من دروس شهر رمضان:

«لقد كان صلى الله عليه وآله وسلم قائدًا لديه معرفة عالية ويعتمد عليه الجميع بشكل كبير في ميدان المواجهة ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾(٢) كذلك بالنسبة لنفسيّته وأخلاقه العالية وسعة صدره التي تجعله يعرف كيف يتعامل مع الآخرين في الظروف الصعبة التي عادة تؤدّي إلى اختلاف بين الناس، فيما بين القيادة والجنود ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ

(١) من دروس ألقاها الشهيد القائد في جبل الرماة المدينة المنورة ١٤٢٢هـ.

(٢) سورة **آل عمران**، الآية ١٢١.

ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ﴾[١]. عندما نسمع توجيهات كهذه فيها ما هو حكاية عمّا هو عليه فعلًا وتراها ذات قيمة عالية ومهمّة جدًّا، خاصّة في وضعيّة كهذه التي مرّ بها المسلمون بعد معركة أحد.

﴿ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ ﴾[٢] وتجد داخل الآيات التي تذكر أحداث معركة أحد وتلك الهزيمة، كم ظهر فيها من كلمات ﴿ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ ﴾[٣] ﴿ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ ﴾[٤] وهكذا فيوجّه رسوله ﷺ أيضًا بأن يعفو عنهم ﴿ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ ﴾ العفو قد يكون التغاضي عن المؤاخذة، التغاضي عن كثير من التأنيب والتوبيخ، العفو يختلف عن المغفرة ويكون له مجال خاصّ؛ ولهذا يجمع في بعض الآيات بين العفو والمغفرة.

﴿ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ ﴾[٥] اطلب من الله المغفرة لهم ﴿ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ ﴾[٦] والمشاورة نوع من الأنس، يعني يلمسون بأنّه لا تزال نظرته إليهم جيّدة ولا يزال قريبًا منهم، لأنّ الهزيمة - عادة - تترك أثرًا كبيرًا في النفوس خاصّة، وهم عندما انهزموا في أحد تركوا رسول الله ﷺ في الميدان وكانت هذه قضيّة كبيرة، فكان من الطبيعي أن يستحيي كلّ شخص من نفسه ومن الرسول ويخجل ويكون يحاول ألّا يراه رسول الله ﷺ فإذا ما اتجه رسول الله ﷺ إليهم وشاورهم وتحدّث معهم يحسّون بنوع من الأنس، وهذا له أثر كبير في النفوس.

وعندما ينطلق رسول الله ﷺ ليتعامل على هذا النحو من منطلق معرفته بالناس كبشر ويعلم أن ليس من الأسلوب الصائب أن يتّجه إلى

---

(١) سورة **آل عمران**، الآية ١٥٩.
(٢) سورة **آل عمران**، الآية ١٥٩.
(٣) سورة **آل عمران**، الآية ١٥٥.
(٤) سورة **آل عمران**، الآية ١٥٢.
(٥) سورة **آل عمران**، الآية ١٥٩.
(٦) سورة **آل عمران**، الآية ١٥٩.

توبيخهم ومقاطعتهم والنفور منهم، هذا سيزيد من ماذا؟ من ارتياح العدوّ؛ لأنّه أوجد هزيمة جعلت هذا المجتمع يتفكّك تمامًا وكلّ إنسان، هو وإن زلّ قد يكون قريبًا إلّا نوعيّه منهم قال فيهم: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ﴾[١]، وهذه نوعية ثانية ممّن كشفتهم الظروف بأنّ نفسيّتهم لم تكن سليمة منذ البداية.

﴿فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ توجيهات مهمة جدًّا وبالتأكيد أنّ رسول الله ﷺ كان على مستوى العمل بهذه التوجيهات[٢]».

و- في معركة أُحُد غُربلت النفوس:

يقول السيّد حسين ‹رضوان الله عليه› في الدرس السادس عشر من دروس رمضان:

«لاحظ في معركة أُحُد كم حصل من خلالها من غربلة، كما قال الله تعالى: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٦٦ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ﴾[٣]، ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[٤]، ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ﴾[٥]، ﴿وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[٦].

الظروف الصعبة عادة تخدم في معرفة الشخص لنفسه وللآخرين. قد يتلمّس أحد ما نقاط ضعف في نفسه، أو رؤى قد تكون غير صحيحة، فيصلح نفسيّته، ويحاول أن يصحّح وضعيّته. إضافة إلى تقييم الناس لبعضهم

---

(١) سورة **آل عمران**، الآية ١٥٤.

(٢) الدرس السادس عشر من دروس الشهيد القائد من دورس شهر رمضان ١٤٢٤هـ.

(٣) سورة **آل عمران**، الآيتان ١٦٦ و١٦٧.

(٤) سورة **آل عمران**، الآية ١٤١.

(٥) سورة **آل عمران**، الآية ١٤٠.

(٦) سورة **آل عمران**، الآية ١٤٢.

البعض، وتقييم المجتمع وغربلته من خلال الأحداث؛ لأنّ مستقبل الأمّة، أيّ أمة تستفيد من الأحداث على هذا النحو فتحدّد خططًا قائمة على معرفة، تعرف أنّ هذا الإنسان كذا وهذا كذا وتلك القبيلة كذا وسكّان تلك القرية كذا. وهكذا تستطيع أن تعرف وتحدّد بدقّة من يثبت ومن يتخلّى عنك، وعليه تبني خططك بالشكل الذي لا يكون فيها أخطاء متكرّرة، فقد توكل مهمّة إلى شخص أو إلى مجموعة من الناس هم في الواقع غير جديرين بأن يقوموا بتلك المهمّة. لذا، نحن نعتبر الظروف أفضل طريق لغربلة الناس كما في معركة أُحد»(١).

٣- معركة الخندق (الأحزاب) (في شوال سنة ٥ هـ- ٦٢٧م)

«حصل تآمر بين اليهود والزعماء العرب في ذلك العصر، تحالف المتنفّذون والمتسلّطون وتكاتفوا بهدف القضاء على الإسلام عسكريًّا وكان من ثمرات هذا التحالف ومن نتائجه معركة الأحزاب.

حشد المجرمون من العرب وبدعم اليهود في هذه المعركة حشودًا كبيرة من الجنود بهدف حصار النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومن معه من المؤمنين في المدينة المنوّرة والسعي للقضاء عليهم نهائيًّا وتصفيتهم عسكريًّا.

ولذلك سُمّيت بمعركة الأحزاب؛ لأنّ قوى الشرك من العرب مع أحفاد القردة والخنازير اليهود الملعونين في محكم التنزيل تحزّبوا مع المشركين وتكالبوا للقضاء على الإسلام واستئصال المسلمين؛ حقدًا منهم على هذا الدين القويم واستكبارًا في الأرض وعلوًّا كما أخبر بذلك ربّ العالمين عنهم: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ﴾(٢).

لم يهدأ لليهود بال ولم يستقرّ لهم قرار منذ بزوغ فجر الإسلام وخصوصًا بعد أن دخل الإسلام إلى يثرب؛ فظلّوا يحيكون المؤامرات، ويثيرون الحروب ضدّ المسلمين.

---

(١) الدرس السادس عشر من دروس الشهيد القائد من دروس شهر رمضان ١٤٢٤هـ.

(٢) سورة **المائدة**، الآية ٨٢.

ففي السنة الخامسة من الهجرة، ذهب مجموعة من اليهود منهم: حيي بن أخطب وسلام بن مشكم إلى قريش لتحريضهم على قتال الرسول محمّد ﷺ فاستقبلهم زعماء قريش بالحفاوة والترحاب ومنهم أبو سفيان بن حرب.

استقبلهم أبو سفيان مُرَحِّبًا بهم: أهلًا أحبّ الناس إلينا من أعاننا على عداوة محمّد.

ثمّ توجّه أبو سفيان لبعض الزعماء: يا معشر اليهود أنتم أهل الكتاب الأوّل أخبرونا أديننا خير أم دين محمّد؟

أجاب اليهود: بل دينكم يا معشر قريش خير من دين محمّد.

وقد ذكر الله ذلك في القرآن قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾[1].

فقال اليهود: إنّا ندعوكم يا معشر قريش لقتال محمّد واستئصال شأفته، ونحن سَنَدٌ لكم وعونٌ على حربه، وسوف نقوم بتحريض من استطعنا تحريضه من قبائل العرب.

ردّ زعماء قريش: نحن أوّل من يجيب إلى ذلك إذا كنتم صادقين.

قال اليهود: نحن صادقون في ما نقول، وسترون ذلك بأمّ أعينكم. ثمّ انطلق اليهود إلى قبيلة غطفان والتقوا بزعمائها.

قال حيي بن أخطب: يا معشر العرب إنّ محمّدًا قد قويت شوكته واستفحل أمره وإنّا ندعوكم إلى حربه والقضاء على دينه وقد أجمعت قريش على حربه معنا وهذه بعض الأموال تعينكم على الحرب.

أجاب زعماء غطفان: ما دام الأمر كذلك فإنّا مستعدّون.

---

(١) سورة **النساء**، الآية ٥١.

ثمّ ذهب اليهود إلى قبيلة سُليم وغيرها من القبائل ونجحوا في تحريضهم، وتعاهدوا جميعًا على حرب محمّد، وحدّدوا موعدًا للخروج، ثمّ بدأوا يتهيَّؤُون.

وانطلق رَكْبٌ من خزاعة إلى المدينة ووصلوا في أربع ليالٍ. فقالوا: يا رسول الله، إنّ قريشًا وقبيلة غطفان وبعض القبائل العربيّة ومعهم اليهود قد تحالفوا وتعاهدوا على حصاركم وحربكم.

فجمع الرسول المسلمين وأخبرهم خبر الأحزاب الذين تحزّبوا لحرب الإسلام، وطلب منهم الاستعداد لمواجهتهم، وأوصاهم دائمًا بالصدق مع الله والثبات على دين الله، وأنّ المسلم الواعي لا يتزعزع دينه مهما كانت الظروف والأحداث.

ولخطورة هذا التحالف العربي اليهودي الذي يستهدف القضاء على الإسلام والمسلمين، فقد قرّر الرسول ﷺ وهو أعظم قائد عرفه الوجود بأن يحفر خندقًا حول المدينة يحيط بها من كلّ جانب، فلا يستطيع الأعداء عبوره، وقيل إنّ حفر الخندق كان بوحي من الله سبحانه وتعالى؛ هذا ما أشار إليه السيّد عبد الملك (حفظه الله) في لقائه مع المنشآت.

ثمّ أخذ الرسول ﷺ يخطّط لحفر الخندق وكيف يكون مساره وعمله، فتمّ التخطيط له ودراسة الموضوع، وبدأت مرحلة التنفيذ فأمر الرسول ﷺ بحفر الخندق وجعل لكلّ عشرة رجال ٤٠ ذراعًا يحفرونه، ووكّل بكلّ جهة قومًا، وأخذ المسلمون يحفرون بجدٍ ونشاط، ويردّدون الأشعار المحفِّزة على العمل، وكان رسول الله ﷺ يعمل بنفسه حتّى اغبر جسمه، فتمّ حفره في مدّة وجيزة لم يصل العدوّ إلّا وقد تمّ العمل، وكان سلمان الفارسي (رضوان الله عليه) ممّن يعمل بجدّ ونشاط فكان يعمل عمل عشرة رجال فأخذ الصحابة من المهاجرين يقولون سلمان منّا، والأنصار يقولون بل منّا، فقال ﷺ: «سلمان منّا أهل البيت».

ووصلت جموع الأحزاب وجحافل الشرك والضلال إلى المدينة في جيش عظيم قوامه عشرة آلاف مقاتل بكلّ عتاده وعدّته على رأسهم أبو سفيان بن حرب رئيسًا على الجميع، فتفاجَأُوا بوجود خندقٍ حولَ المدينة لا يستطيع أحدٌ تجاوزه كأنّه حصن.

فقالوا: هذه مكيدة لم تكن العرب تعملها.

فغضبوا غضبًا شديدًا، وحطّوا رحالهم حول المدينة مُحاصِرِين لها.

فنزلت قريش ومن تبِعهم في مجمع الأسيال، ونزلت غطفان ومن تبعهم من نجد إلى جانب جبل أُحد.

بينما كان الرسول ﷺ قد خرج في ثلاثة آلاف وعسكر بهم عند سفح جبل سلع شمال المدينة، فجعل الجبل خلف ظهره والخندق بينه وبين القوم، وجعل مجموعاتٍ يتناوبون للحراسة ليلًا حتّى يمنعوا تسلّل العدوّ، وكان يسكن المدينة ثلاثة بطون من اليهود: (بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة). أمّا بطنان فقد نقضوا العهد مع رسول الله ﷺ وأجلاهم منها، وبقي منهم بطن هم بنو قريظة فدسّ إليهم أبو سفيان حيي بن أخطب اليهودي ليحملهم على نقض العهد والانضمام إلى جموع الأحزاب ولضرب المسلمين من الداخل.

فتسلّل حيي بن أخطب إلى أن وصل بني قريظة فرآه زعيم بني قريظة كعب بن أسد وصاحب العهد مع رسول الله ﷺ فدخل الحصن مسرعًا وأغلق الباب دونه.

قال حيي: افتحِ البابَ يا كعب. فلم يجبه كعب.

أعاد حيي: يا كعب ويحك افتحْ لي.

قال كعب: إنّك امرؤ مشؤوم قد عاهدتُ محمّدًا ولست بناقضٍ ما بيني وبينه ولم أرَ منه إلّا الصدق والوفاء.

قال حيي: افتحْ لي أُكلمْك.

قال كعب: ما أنا بفاعل.

قال حيي: ما أغلقت باب الحصن إلّا خوفًا على طعامك فَلَستُ بآكلٍ منه. ففتح له باب الحصن ودخل حيي إلى كعب. لقد جئتُك يا كعب بعزّ الدهر، جئتك ببحر طام بقريش على قادتها وسادتها، وغطفان على قادتها وسادتها، عاهَدُوني على ألّا يبرحوا حتّى نستأصل محمّدًا ومن معه.

قال كعب: جِئْتَني والله بذلّ الدهر، فدعني وشأني، فإنّي لم أرَ من محمّدٍ إلّا صدقًا ووفاءً.

ولم يزل حيي به حتّى نقض العهد على أن يعطيه عهدًا وميثاقًا لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمّدًا أن يدخل معه حيي في الحصن حتّى يصيبه ما أصاب بني قريظة.

هكذا دائمًا اليهود لا يفون بعهد أو ميثاق، شيمتهم الغدر كما قال الله عنهم: ﴿أَوَ كُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾[1].

فقام كعب بن أسد زعيم بني قريظة بتمزيق الكتاب الذي فيه العهد.

رجع حيي بن أخطب (إبليس اليهود) إلى أبي سفيان وقد نجح في حمل بني قريظة على نقض العهد.

تصل الأخبار إلى رسول الله ﷺ عن نقض بني قريظة العهد فيبعث نفرًا لمعرفة الخبر. فيجدونهم على أخبث حال ثمّ يعودون إلى رسول الله.

قال النفر: يا رسول الله إنّ اليهود قد نقضوا العهد.

ردّ رسول الله: «الله أكبر أبشروا يا معشر المسلمين».

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ١٠٠.

لمّا حاصر الأحزاب المدينة بجيشهم الكبير، ونقض اليهود العهد من داخل المدينة عظم البلاء على المسلمين واشتدّ الخوف ووضعوا النساء والأطفال في الحصون خوفًا عليهم من اليهود وقد شخّص الله سبحانه هذه الحالة بقوله: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾(١) وظنّ بعض المؤمنين الظنون كما ذكر القرآن وقصّ الله علينا حالتهم في سورة **الأحزاب** قال الله تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾(٢).

وتهيّأت أجواءٌ خصبة للمنافقين فظهر النفاق حتّى قال قائلهم: كان محمّد يَعِدُنا كنوز كسرى وقيصر وأحدنا اليومَ لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط.

فهذه المعركة غربلت المسلمين، وكشفت المنافقين والذين في قلوبهم مرض والذين يتبخّر إيمانهم ويتلاشى في وقت وجيز ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا﴾(٣).

وسطّر فيها المؤمنون الواعون أعظم الدروس في الشجاعة والتضحية والثبات في أفعالهم ومواقفهم وأقوالهم فكانوا حقًّا مثلًا يحتذى بهم وقال الله عن هذه النوعيّة العالية: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾(٤).

كان الأحزاب يُحكِمون حصارَهم على المدينة فلا يدخل إليها طعامٌ مدّة الحصار إلّا ما كان سرًّا؛ فأصاب المسلمين جوعٌ بسبب الحصار لكنّ الله جعل البركة في ما كان موجودًا.

---

(١) سورة **الأحزاب**، الآية ١١.

(٢) سورة **الأحزاب**، الآية ١٠.

(٣) سورة **الأحزاب**، الآية ١٤.

(٤) سورة **الأحزاب**، الآية ٢٢.

وعانى رسول الله ﷺ والمؤمنون الصادقون معاناة شديدة من المنافقين والذين في قلوبهم مرض؛ لأنّهم وجدوا لهم تربة خصبة لبثّ سمومهم ومؤامراتهم، وكذلك عانى الرسول من أصحاب الوعي الضعيف والناقص والذين يختلقون الأعذار ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾[1]، ومن الذين قال الله عنهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾[2].

وفي أيّام الحصار، كان المعسكران يتراشقان بالنبل والحجارة، فكان لدى المسلمين من النبل ما يكفيهم لعام إلّا أنّ المشركين كانوا لا يعوّلون على سلاح النبل كثيرًا فكان همّهم الأكبر الذي يتلهّفون له هو عبور الخندق واقتحام المدينة واستئصال شأفة المسلمين، فكانوا يتحيّنون الفرصة طوال الليل والنهار، لكنّ الله من بيده مقاليد السماوات والأرض خيّب أملهم.

وفي يوم من أيّام الخندق، رمى أحد المشركين بنبل فأصاب سعد بن معاذ في أكحله فأخذ الدم ينزف منه.

فقال سعد: اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئًا فأبقني لها فإنّه لا قوم أحبّ إليَّ أن أجاهدهم من قوم آذوا رسول الله وكذّبوه وأخرجوه، وإن كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعله لي شهادة ولا تمتني إلّا وقد أقررت عيني من بني قريظة فاستجاب الله دعوته فتوقّف نزيف الدم إلى أن أقرّ الله عينه في بني قريظة واستشهد رضوان الله تعالى عليه.

وبينما الوضع على تلك الحال من حصار وتراشق بالنبل إذا بنفر من أشجع فرسان قريش تجول حول الخندق منهم: عمرو بن عبد ودّ، وعكرمة بن أبي جهل، ونوفل بن المغيرة، وهبيرة بن أبي وهب، وضرار بن الخطاب حتّى

(١) سورة **الأحزاب**، الآية ١٣.

(٢) سورة **الحجّ**، الآية ١١.

وجدوا ثغرة في الخندق فأقحموا خيلهم منها وتقدّموا نحو معسكر المسلمين متحدّين مستصغرين للمسلمين.

فطلب عمرو المبارزة ثلاث مرات فلم يجبه من المسلمين أحد سوى علي بن أبي طالب عليه السلام الذي كان يقول للنبي صلى الله عليه وآله وسلم -في كلّ مرة-: أنا أبارزه يا رسول الله! وَلَمَّا سمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم عَمْرًا يقول:

وَلَـقَـدْ بَحِحْتُ مِـــنَ النِّدَاءِ   لِجَمْعِهِمْ هَلْ مِــنْ مُبَـــارِزْ
فَوَقَفْـتُ إِذْ جَبُـــنَ الْمُشَجْـ   ـجَعُ مَـوْقِـفَ القِــرْنِ الْمُناجِــزْ
إِنِّـيْ كَـــذَلِـــكَ لــمْ أَزَلْ   مُتَسَرِّعًا نَحْــــوَ الْهَزَاهِـــزْ
إِنَّ الشَّجَاعَـــةَ فــي الْفَتَــى   والْجُــودَ مِـنْ خَيْـرِ الْغَرائِزْ

وأردف قائلًا: أتزعمون أنّ قتلاكم في الجنّة وقتلانا في النار؛ فما لكم لا تخرجون إليَّ؟! فَأَذِنَ صلى الله عليه وآله وسلم لعليٍّ عليه السلام، وعَمَّمَهُ بعمامته، وقَلَّدَهُ سيفه، وقال: اللهم إنّ هذا أخي وابنُ عمّي؛ فلا تَذَرْني فَرْدًا وأنت خير الوارثين، فخرج علي يرتجز:

لاَ تَعْجَلَـــــنَّ فَقَـــدْ أَتَـا   كَ مُجِيبُ صَوْتِكَ غَيْرَ عَاجِــزْ
ذُو نِيَـــــةٍ وَبَصِيْــــرَةٍ   يَرْجُــو بِــذَاكَ نَجَــاةَ فَائِـــزْ
إنـــّـي لأَرْجُــــو أَنْ أُقِيــ   ـمَ عَلَيْـــكَ نَائِحَـــةَ الْجَنَائِـزْ
مِـنْ طَعْنَـــةٍ نَجْـــلاَءَ يَبْــ   ـقَى ذِكْرُهَـــا عِنْـدَ الهَزَاهِـــزْ(١)

فقال عمرو: مَنْ أنت؟ فَانْتَسَبَ له؛ فقال: يا ابن أخي، كان أبوك نديمي وصديقي؛ فارجع فلا أحبّ أن أقتلك!

فقال علي: لكنّي أحبّ أن أقتلك!

(١) أبيات ارتجز بها عمرو بن عبد ودّ وهي شهيرة رواها عنه مؤرّخو السيرة النبويّة.

فقال عمرو: إنّي لأكره أن أقتل الرجل الكريم مثلك فارجع.

فقال علي: إنّ قريشًا تُحَدِّثُ عنك أنّك لا تُدْعَى إلى ثلاث إلّا أجبتَ ولو إلى واحدة منها، قال: أجل.

فقال: أدعوك إلى الإسلام، قال: دَعْ عنك هذه، قال: أدعوك إلى أن ترجع بمن معك.

قال: إذن تتحدّث نساء قريش أنَّ غلامًا خدعني!

قال: فإنّي أدعوك إلى المبارزة؛ فحمي عَمْرٌو وقال: ما كنت أظنّ أنَّ أحدًا من العرب يرومها، فَتَرَجَّلَ عن فرسه فَعَقَرَهُ، فتجاولا وحجبهما الغبار عن الناس.

فتنازلا وتجاولا، هذا يهتف بسم الله الله أكبر، وهذا يهتف باللات والعزّى، والمسلمون ينظرون ويترقبون في دهشة وقلق، والرسول يدعو في محراب العزّة والشرف. وفي هذا اليوم، قال الرسول ﷺ «برز الإيمان كلّه إلى الشرك كلّه».

فثار الغبار من تحت أقدامهما من شدّة المبارزة، فضرب عمرو بن عبد ودّ عليًّا ضربةً شديدة فتلقّاها علي بالدرقة فقدَّها وأثبت سيفه فيها.

فضربه عليٌ ضربة حيدريّة كانت كالصاعقة على عاتقه سقط منها على الأرض.

ثمّ تقدّم إليه علي ليجهّز عليه، فتفله عمرو، فتراجع علي قليلًا حتّى هدأ غضبُه ليكون قتله لله خالصًا، فلمّا هدأ غضبه عاد إليه فقتله.

فارتفع هتاف الله أكبر من بين الغبرة فعرف الرسول والمسلمون أنّ عليًّا قد قتله؛ فكبّروا، وفرحوا بنصر الله.

ولمَّا انجلت الغبرة فإذا بعدوّ الله قد خرّ صريعًا على الأرض أفنى عمره في نصرة اللات والعزّى وهبل، وختم عمره بالقتل والخزي في سبيل الجبت

والطاغوت، فقد كان لدعاة الكفر صمّام الأمان ورأس الحربة فقد كان في مقدّمة الصفوف وقلب المعارك.

وكانت لعمرو درع من نسج داود؛ فقال عمر بن الخطاب لعلي عليه السلام: هلّا سلبته درعه؟ فإنّه ليس للعرب درع خير منها؟ فقال: استحييت أن أسلب ابن عمّي، وأنشد:

نَصَرَ الْحِجَارَةَ مِنْ سَفَاهَةِ رَأْيِهِ   وَنَصَرْتُ رَبَّ مُحَمَّدٍ بِصَوَابِ

فَصَدَدْتُ حِينَ تَرَكْتُهُ مُتَجَدِّلًا   كَالْجِذْعِ بَيْنَ دَكَادِكٍ وَرَوَابِي

وعَفَفْتُ عَنْ أَثْوَابِهِ وَلَوَ انَّنِي   كُنْتُ الْمُقَطَّرَ بَزَّنِي أَثْوَابِي[1]

وبمقتل عمرو انكسرت شوكة الأحزاب واهتزّ كيانهم وتصدّع وسبّب لهم الإرباك والفشل، ووصل إليهم مقتله فكان بمثابة الزلزال المدمّر وحلّ عليهم شبح الخوف والرعب، وكانت هزيمتهم كما أخبر الله: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ﴾[2].

ثمّ أقبل علي إلى رسول الله ووجهه يتهلّل بالفرح والسرور، فعانقه صلى الله عليه وآله وسلم وقال: «لمبارزة علي بن أبي طالب لعمرو بن عبد ودّ يوم الخندق أفضل من عبادة أمّتي إلى يوم القيامة».

قال جابر بن عبد الله: فما شبهت قتل علي عَمْرًا إلّا بما قصّ الله من قصّة داود وجالوت حيث يقول الله جلّ شأنه: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾[3].

وبمقتل عمرو ونوفل قال صلى الله عليه وآله وسلم: «الآن نغزوهم ولا يغزونا».

---

(١) العلّامة المجلسي، **بحار الأنوار**، الجزء ٢٠، الصفحة ٢٠٥.

(٢) سورة **الأحزاب**، الآية ٢٥.

(٣) سورة **البقرة**، الآية ٢٥١.

وفي ليالٍ شاتية شديدة البرد، بعث الله الريح على الأحزاب في معسكراتهم لم تترك لهم نارًا تشتعل وأزالت خيامهم وتساقطت قدورهم كما ذكر الله ذلك في القرآن الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا﴾[(١)].

عند ذلك نادى أبو سفيان: يا قوم لقد هلك الكراع والخفّ وأخلفتنا بنو قريظة ولقينا من هذه الريح ما ترون فالرحيل الرحيل فإنّي مرتحل فارتَحِلوا، فارتَحَلوا يجرّون أذيال الخيبة والهزيمة.

فسمعت غطفان بما فعلت قريش فشمّروا راجعين إلى بلدانهم.

فلمّا كان الصبح وقد تأكّد الرسول ﷺ من رحيلهم رجع بالمسلمين إلى المدينة منتصرين مسرورين.

الشعب اليمني اليوم يعيش أجواء معركة الأحزاب:

وما أشبه تحالف قوى العدوان اليوم في حربهم وحصارهم للشعب اليمني حيث تتظافر جهود طواغيت ومنافقي العرب مع اليهود والنصارى، مع أمريكا وإسرائيل للقضاء على الإسلام المحمّدي الأصيل الذي سطع نوره من اليمن ونحن على يقين أنّ مصير تحالف قوى الشرّ سيكون أسوأ من مصير من تحالفوا في يوم الأحزاب على رسول الله والمسلمين معه.

الدروس والعبر

أ- الثقة بالله وعدم سوء الظنّ والأخذ بأسباب النصر:

يجب أن تظلّ ثقتنا بالله كبيرة مهما كان حجم التآمر وألّا نسيئ الظنّ بالله مهما حصل من متغيّرات ميدانيّة، يقول السيّد حسين ‹رضوان الله عليه› في (معنى التسبيح):

---

(١) سورة **الأحزاب**، الآية ٩.

«من يضعف إيمانهم دائمًا يردّون المَحْق في الله، فيحمِّل الله مسؤوليّة ما حصل، ثمّ ينطلقون ليسيئوا الظنّ بالله ﴿وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾[١] تمامًا كما حصل عند البعض عندما حوصر المسلمون في المدينة مع الرسول ﷺ في الأحزاب، حتّى انطلق بعضهم يسخرون من النبي ﷺ وهم يحفرون الخندق. وعندما ضرب الصخرة انقدحت فقال: «الله أكبر، إنّي لأرى قصور فارس، إنّي لأرى قصور صنعاء» فقالوا: يعدنا بأن يصل ديننا، أو أن تفتح هذه المناطق على أيدينا، وها نحن لا يأمن الواحد منّا أن يخرج ليبول. ألم يقولوا هكذا؟ انطلق بعض الناس يقول هكذا. وعندما حاصرهم المشركون حصل لديهم رعب: ﴿هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا﴾[٢]، ﴿وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾[٣] بدأت الظنون السيّئة[٤]».

ب- الإنسان المؤمن يزداد إيمانًا مع الشدائد:

﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾[٥]؛ لأنّ أحداث الحياة كلّها دروس، آيات تزيدك إيمانًا، كما تزداد إيمانًا بآيات **القرآن الكريم** ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾[٦] كذلك المؤمن يزداد إيمانًا من كلّ الأحداث في الحياة، يزداد بصيرة، كم هو الفارق بين من يسيئون الظنّ عندما تحصل أحداث، وبين من يزدادون إيمانًا؟ والأحداث نفسها، أليس الفارق كبيرًا جدًّا؟.

---

(١) سورة **الأحزاب**، الآية ١٠.

(٢) سورة **الأحزاب**، الآية ١١.

(٣) سورة **الأحزاب**، الآية ١٠.

(٤) من دروس الشهيد القائد في «معنى التسبيح» ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.

(٥) سورة **آل عمران**، الآية ١٧٣.

(٦) سورة **الأنفال**، الآية ٢.

لماذا هذا أساء ظنّه، وضعف إيمانه، وتزلزل وتردّد وشك وارتاب، وهذا ازداد يقينًا وازداد بصيرة وإيمانًا؟! هذا علاقته وثقته بالله قويّة، تصديقه بالله سبحانه وتعالى، تنزيهه لله تنزيه مترسّخ في أعماق نفسه، يسيطر على كامل مشاعره فلا يمكن أن يسيئ الظنّ بالله مهما كانت الأحوال، حتّى ولو رأى نفسه في يوم من الأيّام وقد جثم على صدره (شمر بن ذي الجوشن) ليحتزّ رأسه كالإمام الحسين «صلوات الله عليه».

٤- معركة خيبر (سنة ٧ هـ - ٦٢٨م)

«كان يهود خيبر ممّن نقضوا عهودهم مع رسول الله ﷺ وانضمّوا إلى التحالف الذي كان يستهدف استئصال المسلمين. وبعد هزيمة الأحزاب، كانت يهود خيبر تخرج للتدريب بجيشها وكانوا عشرة آلاف مقاتل يخرجون صفوفًا ويرفعون حصونهم المتتابعة الممتدّة على كلّ قراهم كما هو دأبهم وكما وصفهم الله في **القرآن الكريم**: ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾[1] ويحفرون الخنادق ويجمعون غذاءً يكفيهم عامًّا كاملًا ويجمعون السلاح بجميع أنواعه آنذاك فهم أهل أموال طائلة وكنوزٍ وفيرة.

وبينما هم في التدريب قال أحدهم: إنّ محمّدًا يغزو كلّ من حاربه مع الأحزاب فتكلّم قائدهم: محمّد يغزونا؟ هيهات هيهات!!!

قال آخر: إنّ محمّدًا لم يقاتل إلّا قومًا أغمارًا لا علم لهم بالحرب، أمّا نحن فلن يخرج إلينا فنحن أهل الحرب والقتال.

---

(١) سورة **الحشر**، الآية ١٤.

وكان رسول الله ﷺ قد سلك طريقًا مغايرة لطريق خيبر فَأَمِن أهل خيبر وفي ليلة من الليالي كان رسول الله ﷺ ينزل بالجيش في ساحة خيبر ويفرض الحصار عليها بشكل سرّي وهادئ.

وبعد طلوع الشمس، خرج اليهود من حصونهم إلى مزارعهم للعمل ولكنّهم رأوا رسول الله ﷺ قد غزاهم فجأة ولّوا هاربين إلى الحصون يصيحون: محمّدٌ والخميس، محمّدٌ والخميس (أي الجيش).

فقال رسول الله ﷺ: «الله أكبر، خزيت خيبر، إنّا جيش إذا نزلنا بساحة قومٍ فساء صباح المنذَرين».

وبعد أيّام من الحصار والمناورات، أرسل رسول الله ﷺ أبا بكر مع مجموعة، فلمّا ً وصلوا خرجت المجموعة المجهّزة لذلك المكان من الحصن وبرز فارسهم فيبرز له فارس من المسلمين وتنازلا فضرب اليهودي بسيفه ضربة قويّة فلقيها المسلم بترسه ولكنّ السيف نزل إلى الأسفل ووصل إلى رِجْل المسلم فقطعها فاستشهد رحمه الله واشتبكت المجموعتان فترة من النهار فكانت الغلبة لليهود فرجع أبو بكر بالمجموعة مهزومًا.

وفي اليوم الثاني، أرسل رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب بمجموعة فلمّا قربوا من الحصن أبطأ عمر في السير، فقال له جنديّ من المجموعة: ما لك يا أبا حفص لا تتقدّم؟

قال عمر: أسرعوا يا إخوتي وتوكّلوا على الله.

فلمّا اقتربوا خرجت مجموعة من الحصن واقتتلوا فترة من النهار فكان محمود بن مسلمة تحت الحصن فألقى عليه يهودي حجرًا فاستشهد رحمه الله وكانت الغلبة لليهود فرجع عمر بالمجموعة مهزومًا، فقال عمر للمجموعة: لو كان معي مجموعة غير جبناء لفتحت الحصن.

فأجابه أحدهم: إنّك الذي جَبُنْتَ يا أبا حفص وكأنّ سيفك عصا.

فتألّم رسول الله ﷺ أكثر لما جرى، وجمع الناس، وقال لهم: «لأعطينّ الراية غدًا رجلًا يحبّ الله ورسوله، ويحبّه الله ورسوله، كرار غير فرار، يفتح الله على يديه»(١).

فتمنّى البعض أن يكون هو الذي سيعطيه رسول الله ﷺ الراية، وفي الصباح اجتمعوا عند رسول الله ﷺ فقال: «أين علي؟» فقالوا: إنّه أرمد. فقال رسول الله ﷺ: «ائتوني بعلي» فلمّا جاءه تفل ومسح عينيه فشفيتا وأعطاه الراية وقال: «خذ هذه الراية فامضِ بها حتّى يفتح الله على يديك» فأخذ علي عليه السلام يهرول بالراية مسرعًا حتّى ركزها تحت الحصن.

وظهر يهودي من الحصن: من أنت؟

فأجابه: أنا علي بن أبي طالب.

فقال اليهودي: علوتم وما أنزل على موسى، وخرجت مجموعة من فرسان اليهود وبرز الحارث فتقدّم علي عليه السلام لمنازلته وتعاركا فما هي إلّا لحظات وإذا الحارث صريع مجندل على الأرض فحمله اليهود.

وتقدّم أخوه (مرحب) أقوى فرسان خيبر كلّها وطلب المبارزة وارتجز شعرًا فقال:

قد علمت خيبر أنّي مـرحـب   شاكي السلاح بطلٌ مجـرب
إذا الحـروب أقبلـت تلهـب

فتقدّم علي عليه السلام يرتجز شعرًا فقال:

أنا الـذي سمَّتني أمـي حيـدرهْ   كليثِ غـابٍ في العرينِ قَسْوَرَهْ
أكيـلكم بـالسيف كيـل السنـدرهْ

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، الجزء ٤، الصفحة ٢٠. الهيثمي، **مجمع الزوائد**، الجزء ٦، الصفحة ١٥٠. ابن هشام، **السيرة النبويّة**، الجزء ٣، الصفحة ٧٩٨. والعلّامة المجلسي، **بحار الأنوار**، الجزء ٢١، الصفحة ٣.

وضرب بذي الفقَار فوق رأس مرحب ضربة سمع اليهود الذين في الحصن تلك الضربة حين قطعت المغفر المنحوت من الحجر ووصل السيف بين أسنان مرحب، وتوقّف الجميع مندهشين لتلك الصورة فقد توقّف سيف مرحب في الهواء وأنفلق رأسه نصفين وخرّ صريعًا فكبّر علي عليه السلام وكبّر بعده من كان قد وصل من المجموعة، وواصل المسلمون هجومهم، بينما اليهود يهربون إلى داخل الحصن إلّا أنّ عليًّا عليه السلام ومن معه استطاعوا اللحاق بهم قبل أن يغلقوا الباب فضرب يهودي بسيفه عليًّا عليه السلام فلقيه بالترس وسقط الترس فأخذ علي عليه السلام بمقبض الباب وتترس به وقتل ذلك اليهودي، بينما مجاميع من جيش المسلمين لا تزال في الطريق إلى ساحة المعركة وما إن وصلوا حتّى اقتحموا مع علي عليه السلام الباب ودخلوا الحصن يقتلون ويأسرون فأخذ اليهود يهربون إلى الحصون الخلفيّة بعد أن سقطت حصون ناعم، فأرسل علي عليه السلام بلالًا ‹رضي الله عنه› بالأسرى والغنائم إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فتقدّمت المجموعة مع علي عليه السلام إلى الحصون الخلفيّة واليهود قد امتلأت قلوبهم رعبًا من هول ما رأوا من تلك الضربات الحيدريّة، ولكن أحد فرسانهم تقدّم للمبارزة فأهوى بسيفه على علي عليه السلام ولكن عليًّا عليه السلام أوقف حركة هذا المبارز فقد قطع ذو الفقار رأسه وتناوش المسلمون مع اليهود زمنًا يسيرًا كانت الغلبة للمسلمين لتسقط حصونهم ويهرب أكثر اليهود إلى آخر معاقلهم وحصونهم والخوف قد سبقهم إلى تلك الحصون المحاصرة فضربات علي عليه السلام قد شلّت تفكيرهم القتالي وأصبحوا يطلبون الصلح فقبل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يصالحهم على:

ألّا يقتلهم وأن يأخذ جميع أموالهم، وأن يستأجرهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على مزارعهم بنصف ما أثمرت.

وانتشر نبأ سقوط خيبر في يد الرسول فأسرع اليهود الساكنون في فدك والعوالي وتيماء إلى طلب الصلح من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ودفع الجزية، وكان

سقوط خيبر نهاية لليهود ودرسًا لكلّ المشركين من قبائل العرب؛ فأسلم بعض قبائل العرب وها هي مكّة تتهيّأ للسقوط في يد رسول الله ﷺ.

الدروس والعبر

إنّ أكثر درس مهمّ نستفيده من خيبر هو: معرفة القيادة والأمّة التي تستطيع هزيمة اليهود.

لقد أعطى رسول الله ﷺ درسًا مهمًّا للأمّة من بعده في خيبر حتّى تكون على وعي كامل وبصيرة عالية بمن هو الجدير بقيادتها، ومن هو الذي يستطيع أن يقودها إلى النصر والعزّة ومن يمثّل صمّام الأمان لها وبالذات في مواجهة اليهود الذين هم العدوّ التاريخي والمستقبلي لهذه الأمّة.

في خيبر، كشف الرسول ﷺ كيف أنّ الأمّة كما يقول السيّد حسين ‹رضوان الله عليه› في الدرس الأول من دروس سورة **المائدة**:

إنّ الأمّة بحاجة إلى علي حتّى وإن كان في مقام قد تعتقد أنّه لا ينفع فيه، فنحن بحاجة أن نتولّى عليًّا عليه السلام، وإن كنّا نعتقد أن عليًّا لن يخرج بسيفه فيقاتل.

عندما كان أرمد لا يبصر موضع قدميه، ألم يكونوا يرون بأنّهم لا يحتاجون إلى علي؟ فعندما قال رسول الله ﷺ: «لأعطينّ الراية غدًا رجلًا يحبّ الله ورسوله ويحبّه الله ورسوله كرار غير فرار يفتح الله على يديه»[١] الآية نفسها التي قالت: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾[٢] المنطق نفسه يضعه رسول الله ﷺ على علي؛ أنّه لن يقف أمام اليهود ويهزمهم إلّا رجلٌ من أهل بيت رسول الله يحبّ الله ورسوله ويحبّه الله ورسوله، قيادة في

---

(١) ابن هشام، **السيرة النبويّة**، تحقيق وضبط وتعليق محمّد محيي الدين عبد الحميد (القاهرة: ١٩٦٣م)، الجزء ٣، الصفحة ٧٩٧.

(٢) سورة **المائدة**، الآية ٥٤.

هذا المستوى، قيادة يحبّها الله ورسوله، وتحبّ الله ورسوله، وأمّة تحبّ الله ورسوله ويحبّها الله ورسوله.

٥- صلح الحديبية[1] (في آخر سنة ٦هـ - ٦٢٨م)

خرج ﷺ يريد العمرة، واستعمل على المدينة نُمَيْلَةَ بن عبد الله الليثي، واستنفر العرب ليخرجوا معه، وكان عدد أصحابه (١٤٠٠)، وقيل: (١٥٠٠)، وقيل: (١٧٠٠) وهو يخشى من قريش أن يَعْرِضُوا له بِحَرْبٍ، أو يَصُدُّوْهُ عن البيت، فأبطأ عليه كثير من الأعراب، وساق معه الهديَ سبعينَ بَدَنةً. وأحرم بالعمرة ليأمن الناسُ، ويعلموا أنّه خرج زائرًا معظّمًا للبيت، حتّى إذا كان بِعُسْفَانَ[2] أُخْبِرَ بأنّ قريشًا قد لَبِسُوا جُلُودَ النُّمُورِ، ونزلوا بذي طُوَى (قرب مكّة)، واستنفروا من أطاعهم من الأحابيش، وأجلبت معهم ثقيف، وخرجوا إلى بَلْدَحَ، وضربوا هناك القباب فعسكروا هنالك، وجعلوا العيون على الجبال يوحي بعضهم إلى بعض الصوت، وقدّموا خالد بن الوليد في خيل إلى كُرَاعِ الغميم يعاهدون الله أن لا يدخلها عليهم أَبَدًا!

فقال: يا ويحَ قريش، لقد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلّوا بيني وبين سائر العرب: فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوّة! فما تظنّ قريش؟

(١) الحديبية: قرية متوسّطة، سُمِّيَتْ باسم بئر هناك عند مسجد الشجرة التي بايع رسول الله تحتها، وبَعْضُ الحديبية في الحِلِّ، وبَعْضُهَا في الحرم، وهي أبعد الحل من البيت، ليس في طول الحرم ولا عرضه بل في مثل زاوية الحرم، بينها وبين مكة (٩ أميال) يقارب (١٧كم تقريبًا)، بين مكّة وجدة في حدود الحرم. العلّامة المجلسي، **بحار الأنوار**، الجزء ٢٠، الصفحة ٣١٩. وابن سعد، **الطبقات الكبرى**، الجزء ٢، الصفحة ١٣٤. والطبري، **تاريخ الطبري**، الجزء ٢، الصفحة ٢٥٦.

(٢) مَنْهَلٌ بين الجحفة ومكّة، وقيل: قرية بها نخيل ومزارع على (٣٦) ميلًا من مكة. ابن كثير، **البداية والنهاية**، الجزء ٤، الصفحة ١٨٨.

فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به حتّى يُظْهِرَهُ الله أو تَنْفَرِدَ هذه السالفة[١]!

فطلب مَنْ يَدُلُّهُ على طريق غير طريقهم، فانتدب رَجُلٌ مِنْ أسلم؛ فسلك بهم طريقًا وَعْرًا شَقَّتْ على المسلمين؛ فأفضوا إلى أرض سهلة عند منقطع الوادي، فقال ﷺ للناس: قولوا: نستغفر الله ونتوب إليه، فقالوا ذلك، فقال: والله إنّها لَلْحِطَّةُ[٢] التي عُرِضَتْ على بني إسرائيل فلم يقولوها؛ فهبطوا إلى الحديبية أَسْفَلَ مكّة، ونَذِرَتْ بهم قريش فركضوا راجعين، وسدّوا الطريق أمام رسول الله ﷺ. وفي ثَنِيَّةِ المُرَارِ بَرَكَتْ نَاقَتُهُ؛ فقال الناس: خَلأَتِ النَّاقَةُ[٣]! فقال ﷺ: ما خَلأَتْ وما هُوَ لها بِخُلُقٍ؛ ولكن حبسها حابس الفيل عن مكّة؛ لا تدعوني قُرَيْشٌ اليوم إلى خطّة يسألونني فيها صلة الرحم إلّا أعطيتهم إيّاها.

ثمّ قال للناس: انزلوا، قيل له: ما بالوادي ماء ننزل عليه؛ فأخرج سهمًا من كنانته فأعطاه رجلًا من أصحابه فنزل به في قَلِيْبٍ من تلك القُلُبِ فغرزه في جوفه فجاش البئر بالماء!

فلمّا اطمأن رسول الله ﷺ اختلفت بينه وبين قريش الرسل والوسطاء وأخبرهم أنّه جاء معتمرًا، لَكِنَّ قُرَيْشًا أمعنت في تعنّتها؛ فطلب النبي ﷺ من المسلمين أن يبايعوه بيعة الموت، وعزم على مناجزة قريش حتّى النهاية! وقعد تحت شجرة، وبويع بيعة الرضوان لم يتخلّف عنها أحد إِلَّا الْجَدُّ بن قيس من المنافقين فقد اختبأ وراء ناقته! فأنزل الله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[٤].

---

(١) العنق.

(٢) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ سورة **الأعراف**، الآية ١٦١، ومعناه: اللهُمَّ حُطَّ عَنَّا ذُنُوبَنَا.

(٣) بركت من غير علّة.

(٤) سورة **الفتح**، الآية ١٨.

فأدركت قريش أنّ العواقب وخيمة؛ فأرسلت سهيل بن عمرو؛ فلمّا رآه النبي ﷺ قال: أَرَادَتْ قُرَيْشٌ الصُّلْحَ؛ فتمّ الصلح.

وروي: أنّه لمّا كان يوم الحديبيّة خرج أناس من المشركين فيهم سهيل بن عمرو وأناس من رؤساء المشركين، فقالوا: يا رسول الله خرج إليك أناس من أبنائنا وإخواننا وأرقّائنا وليس لهم فقه في الدين، وإنّما خرجوا فرارًا من أموالنا وضياعنا فارددهم إلينا.

قال: فإن لم يكن لهم فقه في الدين سنفقّههم، فقال النبي ﷺ: «يا معشر قريش لَتَنْتَهُنَّ أَوْ لَيَبْعَثَنَّ اللهُ عليكم مَنْ يَضْرِبُ رِقَابَكُمْ بِالسَّيْفِ على الدِّينِ قَدِ امْتَحَنَ الله قَلْبَهُ على الْإِيمَانِ» قالوا: مَنْ هو يا رسول الله؟ فقال له أبو بكر: مَنْ هو يا رسول الله؟ وقال عمر: من هو يا رسول الله؟ قال: «هُوَ خَاصِفُ النَّعْلِ»، وكان قد أعطى عليًّا نعله يخصفها[١].

وممّا جاء من بنود الصلح: دعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب عليه السلام فقال: اكتب «بسم الله الرحمن الرحيم».

فقال سهيل: لا أعرف هذا ولكن اكتب: «باسمك اللهم» فكتبها.

ثمّ قال: اكْتُبْ: «هَذَا مَا صَالَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ سُهَيْلَ بْنَ عَمْرٍو»؛ فقال سهيل: لو شهدتُ أنّك رسولُ الله لم أقاتلك! ولكن اكتبْ اسْمَكَ واسْمَ أبيك!

فقال رسول الله ﷺ: اكْتُبْ: هذا ما صَالَحَ عليه مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ سُهَيْلَ بْنَ عَمْرٍو، اصطلحا على:

١- وضع الحرب عن الناس عشر سنين، يَأْمَنُ فِيهِنَّ النَّاسُ وَيَكُفُّ بَعْضُهُمْ عن بعض.

---

(١) الترمذي، **سنن الترمذي**، الجزء ٥، الصفحة ٢٩٨، رقم ٣٧٩٩.

٢- مَنْ أَتَى مُحَمَّدًا من قريش بغير إذن وليّه رَدَّهُ عليهم، وَمَنْ جاء قريشًا ممّن مع محمّد لا تردّه عليه.

٣- وأَنَّ بيننا عَيْبَةً مَكْفُوفَةً(١)، وَأَنَّهُ لا إِسْلَالَ وَلَا إِغْلَالَ(٢).

٤- وَأَنَّهُ مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَقْدِ مُحَمَّدٍ وعَهْدِهِ دَخَلَ فِيهِ، وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَقْدِ قريش وعَهْدِهِمْ دَخَلَ فيه؛ فَتَوَاثَبَتْ خُزَاعَةُ فقالوا: نَحْنُ في عَقْدِ محمّد وعهده، وتواثبت بنو بكر فقالوا: نحن في عقد قريش وعهدهم.

٥- وأنّك ترجع عنا عامَك هذا فلا تَدْخُلُ عَلَيْنَا مَكَّةَ، وأَنَّهُ إِذَا كَانَ عَامٌ قابِلٌ خَرَجْنَا عَنْكَ فَدَخَلْتَهَا بأصحابِك فَأَقَمْتَ بها ثَلَاثًا، مَعَكَ سِلَاحُ الرَّاكِبِ: السُّيُوفُ في القُرُبِ، لا تَدْخُلُهَا بِغَيْرِهَا.

وفي أثناء كتابة بنود الصلح، جاء أبو جَنْدَلِ بن سهيل بن عمرو مُسْلِمًا يَرْسُفُ في الحديد، قد انفلت إلى رسول الله ﷺ! وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ خرجوا، وهم لا يَشُكُّونَ في الفتح؛ لرؤيا رآها رسول الله ﷺ.

فلمّا سمعوا بنود الصلح دخل عليهم من ذلك أمر عظيم حتّى كادوا يهلكون: فلمّا رأى سَهَيْلٌ أبا جندل قام إليه فضرب وجهه وأخذ بِتِلْبِيبِهِ(٣)، ثمّ قال: يا محمّد قد لَجَّتِ(٤) القضيّة بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا، قال: صدقت؛ فجعل يَجُرُّ ابنه ليردّه، وهو يصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين أأُرَدُّ إلى المشركين يفتنوني في ديني؟

فازداد غمّ المسلمين! فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا جندل اصبر واحتسب؛ فإنّ الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا؛

---

(١) أصل العَيْبَةِ: وعاء من جلد يكون فيه المتاع. مكفوفة: أُشْرِجَتْ على ما فيها وأقفلت. ضُرِبَ ذلك مَثَلًا للقلوب التي طويت على ما تعاقدوا عليه.

(٢) الإسلال: السرقة الخفية. والإغلال: الخيانة.

(٣) التلبيب: مجمع الثياب عند الصدر والنحر، أخذ بتلبيبه: جمع عليه ثوبه عند صدره وقبض عليه يجرّه.

(٤) أي تَمَّتْ.

إنّا قد عقدنا بيننا وبين القوم صُلْحًا، وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله؛ وإنّا لا نَغْدِرُ بهم»[١].

الدروس والعبر

من الدروس التي نستفيدها من صلح الحديبية أن نعرف أنّ الشدائد أحيانًا تعتبر مقدّمات فتح.

يقول السيّد حسين رضوان الله في درس «معنى التسبيح»:

«عندما يدخل الناس في أعمال، ونكون قد قرأنا قول الله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾[٢] فيمرّ الناس بشدائد؛ فإذا لم تكن أنت قد رسّخت في قلبك عظمة الله سبحانه وتعالى، وتنزيه الله أنّه لا يمكن أن يخلف وعده فابحث عن الخلل من جانبك: (أنّه ربّما نحن لم نوفّر لدينا ما يجعلنا جديرين بأن يكون الله معنا، أو بأن ينصرنا ويؤيّدنا) أو ابحث عن وجه الحكمة إن كان باستطاعتك أن تفهم، ربّما أنّ تلك الشدائد تعتبر مقدّمات فتح، مفيدة جدًّا في آثارها.

وقد حصل مثل هذا في أيّام الرسول ﷺ في الحديبية، عندما اتجه المسلمون وكانوا يظنّون بأنّهم سيدخلون مكّة، ثمّ التقى بهم المشركون فقاطعوهم فاضطروا أن يتوقّفوا في الحديبية، ثمّ دخل الرسول ﷺ في مصالحة معهم، وكانت تبدو في تلك المصالحة من بنودها شروط فيها قسوة، لكن حصل في تلك المصالحة هدنة لعدّة سنوات كأنّها لعشر سنوات تقريبًا.

لاحظ ماذا حصل؟ بعد ذلك الصلح الذي دُوِّن فيه بنود تبدو قاسية، وظهر فيه المسلمون وكأنّ نفوسهم قد انكسرت، بعد هذه الهدنة توافدت الوفود على رسول الله ﷺ من مختلف المناطق في الجزيرة العربيّة واليمن

---

(١) من كتاب **السيرة النبويّة** للشهيد الدكتور مرتضى المحطوري، الصفحة ٢٣٩.

(٢) سورة **الحجّ**، الآية ٤٠.

وغيرها، وفود إلى المدينة ليسلموا، فكان ذلك يعتبر فتحًا، وكان فتحًا حقيقيًّا في ما هَيّأ من ظروف مناسبة ساعدت على أن يزداد عدد المسلمين، وأن يتوافد الناس من هنا وهناك إلى المدينة المنوّرة إلى رسول الله ﷺ ليدخلوا في الإسلام، فما جاء عام الفتح في السنة الثامنة إلّا ورسول الله ﷺ قد استطاع أن يجنّد نحو اثني عشر ألفًا، الذين دخلوا مكّة.

إذا كان الإنسان ضعيفَ الإيمان، ضعيفَ الثقة بالله، ضعيفًا في إدراكه لتنزيه الله سبحانه وتعالى فقد يهتزّ عند الشدائد، إمّا أن يسيئ الظنّ في موقفه: (ربّما موقفنا غير صحيح وإلّا لكنّا انتصرنا..) أو يسيئ الظنّ بالله تعالى وكأنّه تخلّى عنّا، وكأنّه ما علم أنّنا نبذل أنفسنا وأموالنا في سبيله: (لماذا لم ينصرنا؟ لماذا لم...؟)»[١].

٦- فتح مكة (في شهر رمضان سنة ٨ هـ، يناير ٦٣٠م)

«كانت خزاعة في حِلْفِ النبي ﷺ وأمانِه كما سبق في صلح الحديبيّة وبنو بكر مع قريش، وكان بين خزاعة وبني بكر ثارات؛ فدبَّر بنو بكر غلامًا رفع صوته متغنّيًا بهجاء النبي ﷺ - صانه الله - فشجَّهُ رجل من خزاعة؛ فطلب بنو بكر من أشراف قريش أن يُعِينُوهُمْ بالرجال والسلاح فأمدّوهم فأغاروا على خزاعة ليلًا وهم آمنون على ماء يسمّى الوتير بأسفل مكّة! وقتلوا منهم عشرين أو يزيدون! وقاتل معهم جَمْعٌ من قريش مثل: سهيل بن عمرو، وصفوان بن أميّة، وعكرمة بن أبي جهل وغيرهم حتّى ألجأوهم إلى الحرم! وبادر سيّد خزاعة عمرو بن سالم في أربعين راكبًا إلى المدينة، والنبي ﷺ في المسجد بين الناس فأنشده:

يَــا رَبِّ إنِّي نَـاشِــدٌ مُحَمَّــدا حِلْفَ أَبِينَـا وَأَبِيـهِ الأَتْلَــدَا[٢]
قَــدْ كُـنْتُمُ وُلْــدًا وَكُـنَّا وَالِــدَا ثُمَّتَ أَسْلَمْنَا فَلَــمْ نَـنْزِعْ يَــدَا

---

(١) من محاضرة للشهيد القائد بعنوان معنى التسبيح ٢٠٠٢م

(٢) نَاشِدٌ: طَالِبٌ وَمُذَكِّرٌ. الأَتْلَدُ: القديم.

فَانْصُرْ هَدَاكَ اللهُ نَصْرًا أَعْتَدَا[١] وَادْعُ عِبَادَ اللهِ يَأْتُوا مَدَدَا
فِيهِمْ رَسُولُ اللهِ قَدْ تَجَرَّدَا إِنْ سِيمَ خَسْفًا وَجْهُهُ تَرَبَّدَا[٢]
فِي فَيْلَقٍ كَالْبَحْرِ يَأْتِي مُزْبِدَا إِنَّ قُرَيْشًا أَخْلَفُوكَ الْمَوْعِدَا
وَنَقَضُوا مِيثَاقَكَ الْمُؤَكَّدَا وَجَعَلُوا لِي فِي كَدَاءَ رُصَّدَا[٣]
وَزَعَمُوا أَنْ لَسْتُ أَدْعُو أَحَدَا وَهُمْ أَذَلُّ وَأَقَلُّ عَدَدَا
هُمْ بَيَّتُونَا بِالْوَتِيرِ هُجَّدَا وَقَتَلُونَا رُكَّعًا وَسُجَّدَا

فقال رسول الله ﷺ: نُصِرْتَ يا عمرو بن سالم! وقام يجرّ رداءه وهو يقول: لا نُصِرْتُ إن لم أَنْصُرْ بَنِي كَعْبٍ مِمَّا أَنْصُرُ بِهِ نَفْسِي! وعَرَضَ له عَنَانٌ في السماء، فقال: «إِنَّ هَذِهِ السَّحَابَةَ لَتَسْتَهِلُّ بِنَصْرِ بَنِي كَعْبٍ»؛ وأمر الناس بالجهازِ، وسأل الله أن يُعْمِيَ على قريش حتّى يَبْغَتَهُمْ في بلادهم.

وترسل قريش أبا سفيان لتجديد الصلح وتدارك الأمر فيفشل أبو سفيان في مهمّته ويرجع إلى قريش خائبًا في أواخر شعبان.

فأرسل رسول الله ﷺ إلى المسلمين في جميع المناطق يأمر كلّ مسلم بالصيام في المدينة، ولمّا اجتمعوا في المدينة بدأ يجهّز الجيش وقد جعل على مداخل المدينة نقاطًا لمعرفة الداخل والخارج إلى المدينة كي لا يصل خبر الجيش إلى قريش.

ولَمَّا أجمع رسول الله ﷺ المسير إلى مكّة كتب حاطبٌ بن بلتعة إلى قريش يخبرهم بزحف وشيك! ثمّ أعطاه امرأة، فَدَسَّتْهُ بين شعر رأسها! فنزل الوحي يكشف ما صنع حاطب! فدعا النبي ﷺ عَلِيًّا والزبير، وقيل: معهما المقداد، فقال: انطلقوا إلى (روضة خاخ) فإنَّ بها ظعينة معها كتاب

---

(١) أَعْتَدَ: من العتيد، وهو الحاضر.
(٢) سِيمَ الخَسْفُ: كُلِّفَ الذلّ. تربّد: تغيّر إلى السواد.
(٣) كَدَاءُ: موضع بأعلى مكّة. رُصَّدا: جمع راصد، وهو المترقّب.

من حاطب إلى قريش يُحذِّرُهُمْ؛ فأدْرَكُوهَا وأنكرتِ الكتاب، وفَتَّشُوا رَحْلَهَا فلم يجدوا شيئًا! فقال لها علي بن أبي طالب عليه السلام: إنّي أحلف بالله ما كَذَبَ رسول الله ﷺ ولا كُذِبْنا! وَلَتُخْرِجِنَّ الكتاب أو لأَكْشِفَنَّكِ! فلمّا رَأَتِ الجِدَّ منه قالت: أعرِضْ؛ فأعرَضَ، فَحَلَّتْ قرونها فاستخرجت الكتاب وناولته! فأتى به رسول الله ﷺ؛ فقال:«يا حاطب ما هذا»؟ فقال: إنّي لمؤمن بالله ورسوله ما غيَّرتُ ولا بدَّلتُ، ولكنّي ملصق بقريش لا عشيرة لي، ولي بين أظهرهم ولد وأهل؛ فصانعتهم عليهم، فقال رسول الله ﷺ: «إنّه قد صدقكم»[1]! «اللهم عَمِّ الأخبار عن قريش حتّى نأتيهم بغتة» ويعظ المسلمين موضحًا لهم أنّ المشركين أعداءٌ للمسلمين، ونهاهم عن موالاة الأعداء ومن يفعله منكم فقد ضلّ سواء السبيل.

ثمّ تحرّك الجيش في الثاني من رمضان متّجهًا غير جهة مكّة فظنّت قريش أنّه يريد غزو هوازن وثقيف فاطمأنت قريش حتّى إذا شارف الرسول ﷺ على جبال مكّة ليلًا أمر كلّ رجل أن يشعل نارًا أو نارين للمباغتة والإرهاب لينهزم العدوّ.

ولمّا رأت قريش ذلك أصابها الذعر والهلع وانهزمت نفسيًّا، وخرج أبو سفيان يتجسّس فرآه العبّاس وقال له: إنّه لا ينجيكم من القتل إلّا الإسلام ولو رآك أحد المسلمين لقتلك فاركب لآخذك إلى رسول الله. ثمّ أسلم أبو سفيان وأمَّنه رسول الله ﷺ وأوقفه ليرى عشرة آلاف يمرّون إلى مكّة فاتحين.

قال أبو سفيان للعبّاس: لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيمًا.

ردّ عليه العبّاس ‹رضي الله عنه›: إنّها النبوّة يا أبا سفيان أولم تُسْلِم؟! فقال: نعم. الحكمة أنفع من السيف.

---

(١) بتصرّف من كتاب **السيرة النبويّة** للشهيد الدكتور مرتضى المحطوري، الصفحة ٢٧٧.

فوزّع رسول الله ﷺ الجيش إلى كتائب تدخل من طرق مكّة كلّها ولم يصم رسول الله ﷺ والمسلمون ذلك اليوم ليقووا على القتال؛ ولأنّهم في سفر، فهرب من هرب من قريش ولكن خمسمئة مقاتل تعاهدوا ألّا يدخلها محمّد وأيديهم قادرة على حمل السيف.

فقاتلوا ساعة من الزمن حتّى قتل منهم ثلاثة عشر رجلا والمسلمون قد دخلوا من كلّ طريق فتفكّكوا وولّوا هاربين وكان المنادي من جيش رسول الله ﷺ يقول: من دخل المسجد الحرام فهو آمن، ومن دخل داره فهو آمن، ومن رمى بسلاحه فهو آمن، ومن تعلّق بحلقة داره فهو آمن.

فكانت حكمة نبويّة عظيمة، وتفرّق المقاتلون، ودخل أهل مكّة بيوتهم ودخل الرسول ﷺ مكّة المكرّمة على ناقته العضباء والكتائب الملمّة تدخل من كلّ جانب.

وكان رسول الله ﷺ عند دخول مكّة بعد ثماني سنوات من إخراجهم له منها يتلو قوله تعالى: ﴿رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ﴾[١]، ﴿وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا ٨٠ وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا﴾[٢].

فيدخل رسول الله ﷺ فاتحًا شاكرًا لله، متهلّل الوجه وهو على ناقته يسبّح الله ويستغفره حتّى دخل المسجد الحرام فحطّم الأصنام كلّها وطاف بالبيت، ثمّ دخل الكعبة وركع فيها ثماني ركعات.

«وخرج رسول الله ﷺ من الكعبة يمشي إلى القرشيّين وهم أسرى وهم ينظرون إليه نظرة العبد إلى سيّده ثمّ وقف ﷺ فقال لهم: «ما تظنّون أنّي فاعل بكم؟»».

---

(١) سورة **النمل**، الآية ١٩.

(٢) سورة **الإسراء**، الآية ٨٠، ٨١.

قالوا: أخٌ كريم وابن أخٍ كريم قد ملكت فاسجح[١].

قال الرسول ﷺ: «اذهبوا فأنتم الطُّلَقاء».

هذا موقف يدلّ على عظمة الرسول ﷺ وعظمة الدين والمنهج الذي يسير عليه.

وهذا هو العفو الحقيقي لأنّه عفا (عند المقدرة) وفي موقع قوّة وليس في موقع ضعف.

الدروس والعبر

أ- العفو عند المقدرة:

من أهمّ الدروس في فتح مكّة وأعظمها هي العفو عند المقدرة. وهذه هي تعاليم الدين وتوجيهاته؛ فالعفو والصفح في حالة الضعف ليس عفوًا بل ذلًّا واستسلامًا للطغاة والظالمين وليس موقفًا قرآنيًّا.

ولكنّ موقف الرسول هذا هو الموقف القرآني الحقيقي فهو تحرّك وجاهد في سبيل الله، ولم يخضع للظالمين والطغاة لا في مكّة ولا في المدينة فلمّا انتصر كان عفوًّا رحيمًا كما أمره الله تعالى، ما أعظمها من أخلاقيّات!

فهؤلاء الطلقاء هم رؤوس قريش من بني أميّة وغيرهم دخلوا الإسلام مكرهين فقلوبهم لا تزال كافرة تنتظر الفرصة للانقضاض على رسول الله ﷺ وأهل بيته وعلى الإسلام من داخله.

ب- ألّا يغرق الإنسان في ذاته:

يقول السيّد حسين ‹رضوان الله عليه› حول هذا الموضوع في مديح القرآن الدرس السادس:

---

(١) السجح: حسن العفو.

«إنّ من أخطر الأمور على الإنسان عندما يكون غارقًا في ذاتيّته، في نفسيّته، هذه هي المشكلة الكبيرة، فإبليس مثلًا كان يتعبّد مع الملائكة لكنّه شخص غارق في ذاتيّته! كلّ سنة، كلّ سنتين، وكلّ قرن وهو يلتفت إلى نفسه، وهذا ما جعله يسقط.

لكنّ الإنسان إذا كانت بداياته صحيحة، وقد ثبّت نفسه إيمانيًّا، ليس هناك مجال لأن يغرق في ذاتيّته، يفهم الإنسان بأنّ الباري لا يمكر بأوليائه أبدًا، فإذا كنت أنت تسير على طريقة صحيحة عشرات السنين بحيث لم يبق بينك وبين الجنّة إلّا شبرًا أو ذراعًا فإنّ الله لا يمكر بك ليدخلك جهنّم هذا غير صحيح!

يأتي التثبيت إلهي بشكل متواصل للبشر، لكن إذا كان فيك خلل، أو بذرة خلل من تكبّر أو غير ذلك، ستغرق نفسك في الضلال؛ لهذا أمر الله الناس بربط الأشياء به، أن يسلِّموا أنفسهم إليه، وهو بدوره سيجعل في دينه رفعة لهم، عظمة، مجدًا، سموًّا لهم، مثلما حصل في القرآن بالنسبة للنبي نفسه ﷺ (بعد فتح مكّة) هذه من الآيات العجيبة في سورة: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ في الوقت الذي يحصل لأيّ إنسان عمل إنجازات من ذلك النوع يلتفت إلى نفسه، ويرى نفسه كبيرًا! ألا يحصل ذلك؟ يدخل الخلل في ذهنيّته لذا يقول الله: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾، في لحظة الإنجازات الكبيرة هذه اغرق في ماذا؟ في تقديسك لله، انسَ نفسك نهائيًّا، واعرف بأنّك لا تزال قاصرًا ومقصّرًا، ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ استغفره، ارجُ توبته.

وعندما يرى الله منه الإخلاص يعظّمه ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ﴾[١] ألم يرفع له ذكره؟ يقرن اسمه باسمه في الآذان، يقرن اسمه باسمه في الشهادة بالوحدانيّة، في التشهّد للصلاة.

(١) سورة **الشرح**، الآية ٤.

الشرط الوحيد أن يغرق الإنسان في إنيّته لأنّه بذلك سوف يُحبط وينهار مهما رأى نفسه كبيرًا، ويغرق في الضلال؛ ولهذا جعل الله القضيّة أكبر من أن تلتفت إلى ذاتيّتك، إلى نفسك، حَمْلُ المسؤوليّة نفسها، حَمْلُ المسؤوليّة جعلها الله بالشكل الذي تكون أكبر منك»[١].

٧- معركة حُنَين (في ١٠ شوال ٨ هـ - فبراير ٦٣٠م)

«لما سَمِعَتْ هَـوَازِنُ بفتح مكة اجتمعت مع ثقيف وبني هلال تحت قيادة مالك بن عوف النضري ومعهم دُرَيدُ بْنُ الصِّمَّةِ شيخ كبير أحضروه لخبرته بالحرب وجودة رأيه؛ خرجوا وَهُمْ عازمون على إبادة رسول الله ﷺ.

ولـمّا سمع بهم نبي الله ﷺ بعث إليهم عبدَ الله بن أبي حَـدْرَدَ الأسلَمِيِّ، وأمره أن يدخل في الناس حتّى يعلم علمهم؛ فعلم ما قد أجمعوا له من حرب رسول الله ﷺ فأخبره به فخرج ﷺ لمواجهتهم في اثني عشر ألفًا، منهم ألفان من مُسْلِمِي الطلقاء. ويروى أنّ البعض من المسلمين دخل العجب إلى نفوسهم فقالوا: (لن نهزم اليوم من قلّة)، هنا تكلّم البعض لكن مشاعر الآخرين، الأغلبيّة قد تكون على هذا النحو وهذا ما ضرب المسلمين وسبّب في هزيمتهم عندما تغيّرت مشاعرهم.

وكان القوم قد سبقوا المسلمين إلى الوادي فَكَمَنُوْا لهم في شِعَابِهِ وأحنائه (جوانبه) ومضايقه، وقد أجمعوا وتهيّأوا وأعدّوا! يقول الراوي: فوالله ما راعنا إلّا وقد شدّوا علينا شَدَّةَ رجل واحد، وانشمر الناس (أي انفضّوا وانهزموا) راجعين لا يلوي أحد على أحد! وانحاز رسول الله ﷺ ونادى في الناس:

أَنَـا النَّبِـــيُّ لاَ كَــذِبْ   أَنَـا ابْـنُ عَـبْـدِ الْـمُـطَّـلِبْ[٢]

---

(١) من محاضرات الشهيد القائد في مديح القرآن الدرس السادس ٢٠٠٣م.

(٢) يعتبر هذا من الرجز؛ والرجز ليس شعرًا عن العرب وقول الرسول للرجز لا يعني أنّه قال الشعر فالله تعالى قال: وما علّمناه الشعر وما ينبغي له.... هذه الحاشية إضافة من عندي.

ثمّ قال: أيّها الناس، هَلُمُّوا إليَّ أنا رسول الله، أنا محمّد بن عبد الله، فلم يَلْوُوْا على شيء، وحَمَلتِ الإبلُ بعضُهَا عَلَى بعض! إلّا أنّه قد بقي مع رسول الله ﷺ نفر من أهل بيته وخلَّص أصحابه.

ولمّا انهزم الناس تكلّم رجال من جفاة مكّة بما في أنفسهم من الضِّغْنِ والحقد! فقال أبو سفيان بن حرب: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر! وإنَّ الأزلام لَمَعَهُ في كِنَانَتِهِ(١)! وصرخ جَبَلَةُ بْنُ الحنبل أخو صفوان لِأُمِّهِ وهو مشرك: ألا بَطَلَ السحر اليوم! وقال شيبة بن عثمان - وكان أبوه قُتِلَ يوم أحد-: الْيَوْمَ أُدْرِكُ ثأري من محمّد؛ فَأَرَدْتُ قتله! فأقبل شيء حتّى تغشى فؤادي فلم أُطِقْ ذاك! وعلمتُ أنّه ممنوع منّي.

و«عن العبّاس بن عبد المطلب قال: إنّي لَمَعَ رسول الله ﷺ آخِذٌ بلجام بغلته البيضاء، وكنتُ امرأ جسيمًا شديد الصوت، وَرَسُولُ الله ﷺ يقول حين رأى ما رأى من الناس: أَيْنَ أَيُّهَا النَّاسُ؟ فلم أَرَ الناس يلوون على شيء! فقال: يا عبّاسُ اصْرُخْ يا معشر الأنصار، يا أصحاب السَّمُرَةِ(٢)! قال: فصرخت؛ فأجابوا: لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ! فذهب الرجل لِيَثْنِيَ بعيره فلا يقدر على ذلك؛ فيأخذَ درعه فيقذفَها في عنقه، ويأخذَ سيفه وتُرْسَهُ، ويقتحمَ عن بعيرِهِ ويُخَلِّيَ سبيلَه! فَيَؤُمَّ الصَّوْتَ حتّى ينتهي إلى رسول الله ﷺ، حتّى إذا اجتمعَ إليه منهم مئة استقبلوا الناس فاقتتلوا، وكانت الدعوة أوّل ما كانت: يا للأنصار، ثمّ خَلَصَتْ أخيرًا: يا للخزرج؛ وكانوا صُبُرًا عند الحرب، فأشرف رسول الله ﷺ في ركائبه، فنظر إلى القوم وهم يجتلّدون فقال: الآنَ حَمِيَ الوَطِيسُ(٣)! وصدق المقاتلون من المسلمين، وأخذ النبي ﷺ كفًّا من حصباء، وضرب به المشركين وقال: شاهت الوجوه فانهزموا! واسْتَحَرَّ القتل في بني مالك من ثَقِيفٍ، فقتل منهم سبعون تحت رايتهم، وتفرّق المنهزمون:

(١) الأزلام: السهام التي كانوا يستقسمون بها ويخضعون لحكمها.

(٢) السمرة: شجرة الرضوان التي بايعوا تحتها بيعة الرضوان.

(٣) الوطيس: التَّنُّورُ. العلّامة المجلسي، **بحار الأنوار**، الجزء ١٩، الصفحة ١٩١.

فمنهم مَنْ ذهب إلى الطائف ومعهم مالك بن عوف، وبعضهم بأوطاس، وبعضهم بنَخْلَة.

وفي يوم حنين نزل قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[1].

و«عن أبي سعيد الخدري قال: لَمَّا أعطى رسولُ الله ﷺ ما أعطى من تلك العطايا في قريش وفي قبائل العرب، ولم يكن في الأنصار منها شيءٌ؛ وَجَدَ هذا الحيُّ من الأنصار في أنفسهم حتّى كَثُرَتْ منهم القَالَةُ[2]، حتّى قال قَائِلُهُمْ: لقي رسولُ الله ﷺ قومَه! فمشى سعد بن عبادة إلى رسول الله ﷺ وقال: إنّ هذا الحيَّ من الأنصار قد وَجَدُوا عليك في أنفسهم لِمَا صَنَعْتَ في هذا الفيء؛ أعطيت قومك وسائر العرب عطايا عِظَامًا! ولم يكُ في هذا الحيّ من الأنصار منها شيء! قال: فأين أنتَ من ذلك يا سعد؟ قال: ما أنا إلّا من قومي! قال: فاجمع لي قومَك في هذه الحظيرة؛ فلمّا اجتمعوا جاءهم، وجاء رجال من المهاجرين فتركهم فدخلوا، وجاء آخرون فَرَدَّهُمْ! فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال: يا معشر الأنصار، مقَالَةٌ بلغتني عنكم؟ وَجِدَةٌ[3] وجدتموها عَلَيَّ في أنفسكم؟! ألم آتِكم ضُلَّالًا فَهَدَاكُمُ الله! وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ الله، وَأَعْدَاءً فَأَلَّفَ الله بَيْنَ قُلُوبِكُمْ؟! قالوا: بلى، الله وَرَسُولُهُ أَمَنُّ وَأَفْضَلُ! ثمّ قال: ألا تُجِيبُونَنِي يا مَعْشَرَ الأنصار؟ قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله وَلِرَسُولِهِ الْمَنُّ وَالفَضْلُ! قال ﷺ: أَمَا وَالله لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ فَلَصَدَقْتُمْ وَلَصُدِّقْتُمْ: أَتَيْتَنَا مُكَذَّبًا فَصَدَّقْنَاكَ، وَمَخْذُولًا فَنَصَرْنَاكَ، وَطَرِيدًا فَآوَيْنَاكَ،

---

(١) سورة **التوبة**، الآيتان ٢٥ و٢٦.

(٢) القالة: الكلام البذيء، أي قالوا: يغفر الله لرسول الله! يعطي قريشًا ويتركنا! وسيوفنا تقطر من دمائهم!.

(٣) الجِدَةُ: الغَضَبُ، أَصْلُهَا وِجْدَةٌ؛ فحذفت الواو تخفيفًا؛ لأنّها في الطَّرَفِ.'

وَعَائِلًا فَآسَيْنَاكَ(١)! أَوَجَدْتُّمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ فِي أُنْفُسِكُمْ فِي لُعَاعَةٍ(٢) مِنَ الدُّنْيَا تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْمًا لِيُسْلِمُوا وَوَكَلْتُكُمْ إِلَى إِسْلَامِكُمْ؟! أَلَا تَرْضَونَ يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ وَتَرْجِعُوا بِرَسُولِ الله إِلَى رِحَالِكُمْ؟! فَوَالله لَمَا تَنْقَلِبُونَ بِهِ خَيْرٌ مِمَّا يَنْقَلِبُونَ بِهِ! فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْلا الهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا وَسَلَكَتِ الأَنْصَارُ شِعْبًا لَسَلَكْتُ شِعْبَ الْأَنْصَارِ؛ اللهمَّ ارْحَم الأَنْصَارَ، وَأَبْنَاءَ الأَنْصَارِ، وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الأَنْصَارِ! قال: فبكى القومُ حتى أَخْضَلُوا لِحَاهُمْ [بَلَّلُوهَا]، وقالوا: رضينا برسولِ الله قَسْمًا وحَظًّا، ثمّ انصرف رسولُ الله ﷺ وتفرّقوا(٣).

الدروس والعبر

إنّ أهمّ درس يمكن أن نتعلّمه من هذه المعركة هو: أن يظلّ ارتباط المؤمنين بالله قويًّا مهما كانت قوّتهم.

وهذا ما أشار إليه السيّد حسين ‹رضوان الله عليه› عندما قال في معنى التسبيح:

«ففي مسيرة العمل، عندما يكون الموقف مع الله موقفا ثابتًا... تنزيهه، نزاهته لا يمكن أن يخلف وعده أبدًا. فمتى ما مرّ الناس بصعوبة ولم يرجعوا إلى أنفسهم، وإلى واقع الحياة، وضعفت ثقتهم بالله كما حصل في يوم حنين ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾(٤)؛ فرأوا أنفسهم كثيرًا وكانوا لا يزالون في نشوة النصر بعد فتح مكّة فاتجهوا لقتال هوازن، وبعض القبايل الأخرى، فقال البعض: (لن نهزم اليوم من قلّة) رأى جموعًا كثيرة.

---

(١) آسيناك: أعطيناك حتّى جعلناك كأحدنا.

(٢) اللُّعَاعَةُ: بالضمّ: البقيّة اليسيرة.

(٣) ابن حبان، **الثقات** (الهند: مؤسّسة الكتب الثقافيّة، الطبعة ١، ١٣٩٣هـ)، الجزء ٢، الصفحة ٨١.

(٤) سورة **التوبة**، الآية ٢٥.

وعندما يكون هذا الشعور داخل الكثير، وبدل أن تكون النفوس ممتلئة باللجوء إلى الله، واستمداد النصر منه، والتأييد منه، الذي تعبّر عنه الآية: ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[١] فيهزمون هزيمة منكرة.

الإيمان على هذا النحو هو الذي يدفع الناس إلى أن يرجعوا إلى أنفسهم فيصحّحوا أخطاءهم ويكتشفوها، ويُحَسِّنوا من أوضاعهم، وخططهم، وتصرفاتهم، فيظلّون دائمًا مرتبطين بالله مهما بلغت قوّتهم، وعددهم، ويظلّ ارتباطهم بالله قويًّا، ارتباطهم بالله وهم مئة ألف كارتباطهم بالله يوم كانوا ثلاثمئة شخص، أو أقلّ. متى ما انفصل الناس عن الله، ورأوا أنفسهم وكأنّهم في حالة لا يحتاجون معها إلى تأييد من الله سيضربون. كلمة (لن نهزم اليوم من قلّة) هي التي ضربت المسلمين في حنين»[٢].

٨- معركة تَبُوك (في رجب ٩ هـ - أكتوبر ٦٣٠م)

«تبوك تقع شمال الجزيرة العربيّة تبعد عن مدينة الرسول ﷺ حوالي ٧٥٠ كيلو مترًا تقريبًا. وكانت بلاد الشام وما حولها تحت النفوذ الروماني المباشر أو تحت من يدينون بالولاء للدولة الرومانيّة.

في السنة التاسعة للهجرة، بلغ المصطفى ﷺ أنّ الروم يحشدون جيشًا لقتال المسلمين، فندب المسلمين وحثّهم لملاقاة الروم والتصدّي لهم بحزم وقوّة فهذا الأمر لا يمكن السكوت أو التغاضي عنه، وبعث رسلًا إلى مكّة وإلى قبائل العرب يحثّهم على الجهاد والاستنفار وحثّ الناس على الجدّ والاجتهاد وبيَّن لهم أنّ هذه الغزوة تختلف عن غيرها فالمسافة بعيدة والوقت حارّ والعدوّ مختلف فلديه الجيوش والإمكانيّات الكبيرة حتّى يكونوا على كامل الاستعداد.

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ٢٥٠.

(٢) من محاضرة الشهيد القائد في معنى التسبيح.

فكانت هذه المعركة اختبارًا من الله سبحانه وتعالى لعباده المنضوين تحت راية الإسلام ليميز الله الخبيث من الطيّب والصادق من المنافق، فالشدائد ومصاعب الجهاد هي المعيار في غربلة الناس، وهي الكفيلة بالتمييز بين العباد، فلا يثبت فيها وينجح إلّا الرجال المخلصون الذين يجعلون رضا الله همّهم ونصب أعينهم، أمّا الذين يجعلون الدنيا أكبر همّهم ولا يجعلون للآخرة عندهم أيّ اعتبار فسريعًا ما يخسرون.

وقد قصّ الله علينا هذه المعركة في سورة **التوبة** وغيرها، وكشف المنافقين على حقيقتهم وتآمرهم على الرسول ﷺ وعلى الإسلام فالمنافقون خطرهم عظيم في كلّ وقت وزمان.

كان في هذه المعركة أصناف شتّى من الناس؛ فمنهم من أبطأ عن طاعة الرسول ﷺ رغبة في العاجل وحرصًا على المعيشة وإصلاحها وخوفًا من شدّة الحرِّ وبعد المسافة، ونهض بعضهم على استثقال وتخلّف آخرون، والبعض الآخر يختلقون الأعذار والمبرّرات وهم ناوون على القعود مع الخوالف سواء أذن لهم الرسول أو لم يأذن، وهناك الرجال الأوفياء الذين استجابوا لله ورسوله لا يتراجعون في أيّ ظرف كان أو مقابل أيّ عدوٍّ، يجاهدون بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله همّهم رضا الله وإعلاء كلمته فكانوا هم الفائزين.

كما حثّ رسول الله ﷺ على الصدقة والإنفاق في سبيل الله لتمويل الجيش فأخرج الناس صدقاتهم فكان منهم أناس يخرجون ما قدروا عليه من الصدقة قلَّت أم كثرت استجابة لرسول الله وابتغاء رضوان الله، ومنهم من يريد بصدقته أن يُشار إليه ويُقال عنه.

لم يكن أحد الصحابة المخلصين لديه إلّا صاعٌ من برّ فأخرجه في سبيل الله على استحياء لقلّته، فجاء إلى رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله هذا ما قدرت عليه، فقال له رسول الله ﷺ: «بارك الله فيك وعليك»، وأمره أن ينثره على كومة الصدقة ففعل ما أمره رسول الله به، فسخر منه بعض الحاضرين من الصحابة فنزلت آية من كتاب الله تحكي لنا هذه القصّة:

﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[١].

أمّا سبعة نفر من الفقراء من الذين استجابوا لله ورسوله لم يكن لديهم شيء من المال فذهبوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه أن يعطيهم شيئًا من المال ليستعينوا به على الخروج فردّ عليهم رسول الله ﷺ: ﴿قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾[٢] فأعفاهم الله عن الخروج وأنزل فيهم قرآنًا يتلى في سورة **التوبة**.

سمّي ذلك الجيش بجيش العسرة؛ لأنّه كان وقت عسرة من الناس وشدّة في الحرّ وجدب في البلاد وحين طابت الثمار والناس يحبّون المقام.

فلمّا جهز رسول الله ﷺ الجيش دعا عليًّا عليه السلام وقال له: «يا عليّ إنّ المدينة لا تصلح إلّا بي أو بك فأنت خليفتي فيها» لأنّه ﷺ يعلم من خبث المنافقين واليهود والأعراب والكثير من أهل مكّة فلم يأمن جانبهم أن يعيثوا فيها فسادًا.

وخرج ﷺ بالجيش يوم الخميس وكان يستحبّ الخروج فيه في جيشٍ قوامه ثلاثون ألفًا معهم عشرة آلاف فرس.

كان عبد الله بن أبيّ بن سلول رئيس المنافقين قد عسكر في ثنيّة الوداع في حلفائه من اليهود والمنافقين فرجع ومن معه.

لمّا علم المنافقون استخلاف رسول الله ﷺ عليًّا على المدينة عظم عليهم مقامه وضاقوا به فأخذوا يشنّون عليه الدعايات والأكاذيب من أجل أن يغادر المدينة حتّى يتسنّى لهم تنفيذ مؤامراتهم وإثارة الفوضى في المدينة وقالوا: إنّما استخلفه رسول الله لأنّه تثاقله.

---

(١) سورة **التوبة**، الآية ٧٩.

(٢) سورة **التوبة**، الآية ٩٢.

فلمّا سمع علي بما يقوله المنافقون أخذ سلاحه ولحق برسول الله حتّى أتى رسول الله ﷺ وهو نازل بالجرف فقال يا رسول الله: إنّ المنافقين قالوا إنّما استخلفتني لأنّك استثقلتني فقال ﷺ: «أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى إلّا أنّه لا نبي بعدي».

فقال علي: بلى يا رسول الله بأبي أنت وأمي ثمّ رجع.

وكان من الذين تخلّفوا من غير شكّ ولا ارتياب رجل اسمه أبو خيثمة السالمي فجاء إلى أهله بعد أن سار رسول الله ﷺ أيّامًا في يوم حارّ فوجد زوجتيه في عريشين لهما وقد بردتا له ماء وهيّأتا له طعامًا فقام على باب العريشين فنظر إليهما وما صنعتا له، فقال: رسول الله في الحرّ والريح وأبو خيثمة في ظلال بارد وماء بارد في أهله وماله مقيم، والله ما هذا بالإنصاف والله لا أدخل لكما عريشًا حتّى ألحق برسول الله، هيّئا لي زادًا، فهيّئتا له زادًا وأخذ راحلته وارتحل حتّى لحق برسول الله ﷺ بتبوك.

فلمّا كان ﷺ ببعض الطريق ضلّت ناقته فخرج أصحابه في طلبها فقال رجل من المنافقين أليس محمّد يزعم أنّه نبي ويخبركم عن خبر السماء وهو لا يدري أين ناقته.

فقال ﷺ لمّا بلغه ذلك: «إنّي والله لا أعلم إلّا ما علّمني ربّي وقد دلّني الله عليها وهي في هذا الوادي في شعب كذا وكذا قد حبستها شجرة بزمامها» فذهبوا فوجدوها حيث قال.

وفي أثناء السفر، كان يتخلّف الرجل تلو الرجل حتّى قيل تخلّف أبو ذر وكان قد أبطأ به بعيره فأحزنه تأخّره عن رسول الله ﷺ فكان يتلوّم على بعيره، لكنّه لم يصبر عليه طويلًا فأخذ متاعه من على ظهر بعيره وحمله ومشى وترك البعير وأخذ يتتبع رسول الله ﷺ ماشيًا فنزل رسول الله في بعض منازله، فنظر بعض المسلمين فقال: إنّ هذا الرجل يمشي على الطريق وحده، فقال ﷺ: «كن أبا ذرّ»، فلمّا تأمّلوه قالوا هو أبو ذرّ، فقال ﷺ: «يرحم الله أبا ذرّ يمشي وحده ويموت وحده ويبعث وحده».

في هذا السفر وهذه المعركة، حدثت قصص ومواقف وأحداث يجب أن نقف عليها في تأمّل وتفكّر، ونأخذ منها العبرة والدروس لنا في حياتنا وواقعنا اليوم.

كان رهط من المنافقين يسيرون مع رسول الله ﷺ فقال بعضهم لبعض: أتحسبون قتال بني الأصفر كقتال غيرهم والله لكأنّي بكم غدًا مقرّنين في الحبال، إرجافًا وترهيبًا للمؤمنين.

فقال ﷺ لعمّار: «أدرك القوم فسلهم عمّا قالوا فإن أنكروا فقل: بلى قد قلتم كذا وكذا»، فأتوا رسول الله ﷺ يعتذرون وقال بعضهم كنّا نخوض ونلعب فنزلت آية ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾[1] ولمّا انتهى ﷺ إلى تبوك عسكر فيها وجهّز جيشه وصفّه للقتال، وكان معسكر الروم في الجهة المقابلة فلمّا رأوا جيش المسلمين وقد علموا من استبسالهم تراجعوا وكفى الله المؤمنين القتال، فأتاه (يحنه) صاحب (إيلة) فصالح رسول الله ﷺ وأعطاه الجزية، وجاء أهل (جرباء وأذرح) فأعطوه الجزية، ثمّ جاء أمراء تلك المناطق واحدًا تلو الآخر وصالحوا رسول الله ﷺ، وأقام ﷺ بتبوك عشرين ليلة ثمّ عاد راجعًا إلى المدينة بعد أن دانت له الجزيرة العربيّة.

وفي أثناء العودة، كان في الطريق ماء يخرج من وشل[2] يروي الراكب والراكبين والثلاثة بوادٍ يقال له وادي المشقق. وكان قد وجّههم أن من سبق إليه فلا يستقين منه حتّى نأتيه فسبق إليه نفر من المنافقين فاستقوا ما فيه فلمّا رآه قال: من سبقنا إليه قيل فلان وفلان فلعنهم ودعا عليهم، ثمّ نزل

(١) سورة **التوبة**، الآيات ٦٤-٦٦.

(٢) المقدار اليسير من الماء.

فوضع يده تحت الوشل فجعل يصبّ في يده ثمّ نضحه ودعا فخرج الماء فشرب الناس واستقوا.

والعجب العجاب أنّ بعض المنافقين خطّطوا لاغتيال رسول الله، كانوا يريدون القضاء عليه، وهم منتمون إلى الإسلام، وهم في نفس الوقت داخل جيش رسول الله ﷺ وهو عائد من تبوك، فكيف كان مخطّطهم؟ مخطّط غريب، خطّطوا أن يعملوا للرسول حادثًا مروريًا، قالوا عندما يصل النبي إلى أعلى العقبة وهو مكان مرتفع في الطريق شاهق سينفرون في وجه الناقة التي يركب عليها ليفزعوها فتسقط، والطريق ضيّق ومرتفع على شفا مكان شاهق، على شفا الجبل فتسقط الناقة برسول الله ﷺ من على ذلك المكان المرتفع فيتقطّع رسول الله إربًا إربًا، ويقولون رسول الله أسقطتهُ ناقتهُ فسبّبت بمقتله.

ولكنّ الله كشف هذا المخطّط لنبيّه محمّد ﷺ ففشل هذا المخطّط، وعرفت تلك المجموعة التي تآمرت هذه المؤامرة.

«ولمّا اقترب ﷺ من المدينة أثناء عودته نزل قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ﴾[١]

وقد كان زمرة من المنافقين بنوا هذا المسجد ليتستّروا به ويحيكوا من داخله المؤامرات، ومأوىً لمن حارب الله ورسوله كما هو حال الكثير من المساجد اليوم فأمر رسول الله ﷺ بهدمه وإحراقه وجعله مكانًا للقمامة.

ثمّ وصل المدينة فاستقبله أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، فكانت هذه المعركة الوحيدة التي لم يخرج فيها علي عليه السلام ولم يحدث فيها قتال.

---

(١) سورة **التوبة**، الآيتان ١٠٧ و١٠٨.

ودخل رسول الله ﷺ المسجد فوجد ثلاثة رجال قد ربطوا أنفسهم في سارية المسجد كانوا من الذين تخلّفوا عن رسول الله ﷺ فندموا ندمًا شديدًا وهداهم الله إلى التوبة وتابوا وربطوا أنفسهم في سارية المسجد حتّى يكون رسول الله هو الذي يحلّ رباطهم فنزلت الآية: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾(١).

الدروس والعبر

تحدّث السيّد حسين في محاضراته ودروسه كثيرًا عن هذه المعركة؛ لأنّ فيها الدروس الكثيرة من ذلك ما ذكره في محاضرة (يوم القدس العالمي) حيث قال:

لو يرجع المسلمون في مواجهتهم للغرب ولليهود إلى تبوك وحدها في السيرة، وإلى سورة **التوبة** التي توجّهت نحو هذه المعركة لكانت وحدها كافية لأن يأخذ المسلمون منها دروسًا كافية في معرفة مواجهة اليهود، ودول الغرب كلّها.

ومن هذه الدروس ما تحدّث عنه ‹رضوان الله عليه› في محاضرة (آيات من سورة **آل عمران** - الدرس الثاني):

أ- الالتجاء إلى الله والثقة به:

«عندما كانت البلاد العربيّة مستعمرة من البريطانيّين، والفرنسيّين، والإيطاليّين، وغيرهم ماذا كان يحصل؟ عندما كانت نظرة المسلمين كلّها منعدمة الثقة بالله سبحانه وتعالى كان من يريد أن يتحرّر من بريطانيا يلجأ إلى إلى روسيا، ومن يريد أن يتحرّر من روسيا يلجأ إلى بريطانيا، ومن يودّ أن يتحرّر

(١) سورة **التوبة**، الآية ١١٨.

من إيطاليا يلجأ إلى فرنسا، وهكذا، ما كانت النتيجة في الأخير؟ أليست سواء؟ تخرج من سيطرة بريطانيا وتدخل في سيطرة روسيا، كلّه واحد.

أراد الله سبحانه وتعالى أن يعلّمنا بأنّ دينه يستطيع أن يجعلنا أمّة مستقلّة، تقف على قدميها، عزيزة، رافعة رأسها، تقهر الأمم الأخرى، ما الذي يحصل الآن؟ ألا يّتجه كلّ العرب إلى أمريكا لتنقذهم من إسرائيل؟ ولو أنّ أمريكا هي المحتلّة لكانت إسرائيل هي الملجأ لتنقذهم من أمريكا! يلجؤون إلى أمريكا وروسيا راعيتا السلام لتنقذهم من إسرائيل.

أراد الله أن يمسح هذه النظرة القاصرة من أذهان العرب لو تربّوا على دينه، ومشوا على نهج نبيّه ﷺ...

وكان أبرز مثال على هذا ما عمله هو في ترتيبات (معركة تبوك)؛ لأنّه كان رجلًا قرآنيًا ﷺ يتحرّك بحركة القرآن، ويعرف ماذا يريد القرآن أن يصل بالأمّة إليه في مناهجه التربويّة وهو يربّي نفوسهم كيف تكون كبيرة، كيف تكون معتزّة بما بين يديها من هذا الدين العظيم فلا تحتاج إلى أيّ قوى أخرى»[1].

ب- كيفيّة مواجهة دعايات المنافقين وإرجافهم:

يقول السيّد حسين ‹رضوان الله عليه› محاضرة (آيات من سورة **المائدة** - الدرس الرابع):

«سورة **التوبة** تحدّثنا عن وضع غير طبيعي حصل في أيّام إعداد الرسول ﷺ أولئك الناس، ذلك المجتمع لمواجهة الروم في تبوك، ما الذي حصل؟ تثاقل، تباطؤ، تخلّف، قعود، وآيات القرآن في سورة **التوبة** تهاجم، وتدفع بعبارات قاسية، عمليّة زعزعة، محاولة تشجيع، وحركة نفاق تبدو على أوسع نطاق. لاحظوا سورة **التوبة** كيف مُلئت بحديث عن المنافقين؛ لأنّهم تحرّكوا بشكل كبير.

---

(١) من محاضرة للشهيد القائد آيات من سورة **آل عمران** الدرس الثاني ٢٠٠٢م.

وعادة، عندما يتحرّك المنافقون بأعداد كبيرة منهم معروفون، ومنهم غير معروفين، والمنافقون ألوان: منهم من لا يزال كافرًا في باطنه مظهرًا للإسلام، ومنهم من هو مسلم، ولكنّه ما زال من النوعيّة التي في قلبه مرض، من النوعيّة التي يؤثر مصالحها، أعداد كبيرة تحرّكت، وعندما يتحرّك المنافقون في ظروف كتلك يصبح المجتمع فيما ظهر عنه قابلًا لأن يُزعزع، ويُثبَّط.

فالقرآن دفعهم دفعًا رهيبًا في تبوك، مع أنّ الله يعلم أنّهم لن يواجهوا بقتال، أخرجوا أولئك الأشخاص الثلاثة عندما تخلّفوا وقال النبي ﷺ: لا تكلّموهم[١]».

ج- اعتماد الأمّة على نفسها وربّها:

لقد كان استنفارًا عامًّا؛ لأنّ المسألة كانت في الجانب التربوي للأمة أكثر من احتمال المواجهة العسكريّة، خرجوا متثاقلين، في وضع اقتصادي سيّئ، ومعنويات هابطة جدًّا، عدد قليل سيواجه أكثر من مئة ألف أو من مئة وثلاثين ألف جندي حشدتهم دولة الرومان. ما الذي حصل؟

لم يحاول الرسول ﷺ أن يستنجد بدولة كسرى، دولة الفرس وهي كانت أيضًا الدولة العظمى الثانية في ذلك العصر ليستمدّ منها؛ لأنّه سيواجه دولة كبرى، وهذه الدولة لا تزال في صراع مستمرّ مع دولة الفرس فتكون الفرصة مهيّأة له بأن يحصل على دعم من الفرس، من الأكاسرة فيشدّوا أزره فيهاجم دولة الرومان. لم يحصل هذا، ولم يحاول، بل لم يفكر في هذا. أراد أن يربّي هذه الأمّة كيف تكون معتمدة على نفسها، وعلى ربّها، وعلى كتابها، وعلى نبيّها؛ لأنّها تملك دينًا قيّمًا يستطيع هذا الدين أن يجعلها تقف على قدميها دون أن تحتاج لا إلى شرق ولا إلى غرب، ولا إلى أمريكا ولا إلى روسيا، ولا إلى أطراف أخرى.

---

(١) من محاضرة للشهيد القائد آيات من سورة **المائدة** الدرس الرابع ٢٠٠٢م.

خرجوا متثاقلين، جمعوا نحو ثلاثين ألفًا بعد الحشد والاستنفار العامّ، والحشد والدفع الهائل، ثلاثين ألفًا توجّهوا على بعد سبعمئة وخمسين كيلو من المدينة باتجاه الشام.

فبدا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شخصًا وكأنّه - أمام الآخرين - لا يدري من سيواجه، إذًا أحشد هذا الحشد، لكن حاول أن تضع هذا الحشد في أماكن تحصّن منه البلد الإسلامي الذي قد أصبح بين يديك، واتسعت رقعته بين يديك. لا. هو الذي هاجم وبادر بالهجوم، ليهاجم بأولئك الجيش، أو بذلك العدد، ذو النفسيّات الهابطة، والمعنويّات المنحطّة، على بعد، إلى أعماق، إلى أقرب منطقة للدولة الرومانيّة، إلى تبوك.

الروم أزعجهم هذا فقرّروا عدم المواجهة، ما الذي حصل؟ تحرّك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو لا يزال في تبوك بسرايا هنا وسرايا هناك، وعمل أعمالاً يتحدّى بها الروم، فارتفعت معنويّات الناس بشكل رهيب جدًّا.

وكان المنافقون، وبعض من تخلّفوا من الأعراب تشجّعوا إلى أن يدبّروا مؤامرة ضدّ رسول الله في المدينة نفسها ليمسحوا الدولة الإسلاميّة فترك لهم عليًّا، علي هو صمّام الأمان للدولة الإسلاميّة سيبقى في المدينة بعده، وهو من يخرج إلى أقصى منطقة.

من جهة أخرى، سرّب المنافقون دعاية ضدّ علي عليه السلام أنّه إنّما خلّفه في النساء والأطفال، لأنّه استثقله، وكره خروجه معه. وكذا كمّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أفواههم بقوله: «أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى إلّا أنّه لا نبي بعدي».

رجع المسلمون من تبوك ومعنويّاتهم مرتفعة بأنّهم قهروا الدولة العظمى في ذلك العالم وبدون مواجهة. أراد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شيئًا عظيمًا للأمّة، أن ترتفع معنويّاتها، أن يربّيها، يشدّ من أزرها، يقوّي إيمانها، يعلّمها كيف تعتمد

على نفسها، وفي الوقت نفسه اختار لها القائد المُهِم العظيم الذي هو جدير بقيادتها علي بن أبي طالب في قادم الأيّام»[١].

د- التعبئة العامّة وخطورة الصمت في مواجهة أهل الكتاب:

يقول السيّد حسين في محاضرة (وإذ صرفنا إليك نفرًا من الجنّ):

« جعل الله القرآن الكريم نورًا للمؤمنين، يهتدون به قبل أن تهجم عليهم الظُّلْمة، يتحرّكون على أساسه قبل أن يهجم عليهم العدوّ في عُقرِ ديارهم، سواء بفساده، أو أن يصل بقدمه وبنفسه، ألم يتحرّك الرسول ﷺ بنفسه في هذه المعركة؟ وعلى مسافة طويلة جدًّا من المدينة نحو (٧٥٠ كم) إلى تبوك ليواجه دولة عظمى في ذلك الزمن هي دولة الرومان؟

أراد أن يقول لأمّته: إنّ من ينتظرون، ويصمتون سيكونون أذلّاء إذا ما هجم عليهم العدوّ، سيكونون معرّضِين لأن يُفتنوا عن دينهم، ولأن يتنازلوا ببساطة عن دينهم إذا ما هجم عليهم العدوّ إلى داخل ديارهم. لقد ربّى الرسول ﷺ المسلمين على الاهتمام، والمبادرة، واستشعار المسؤوليّة، على أن تكون لديهم روح وثّابة داخل كلّ شخص منهم، روح جهاديّة، روح تستشعر المسؤوليّة فتنطلق، لا تنتظر الأعداء وإن كانوا كبارًا، وإن كانوا يمتلكون مختلف وسائل القوّة، لا ينتظرونهم حتّى يهجموا عليهم.

تناولت سورة **التوبة** - وهي من أجمل السور في **القرآن الكريم** في مجال التعبئة العامّة للمسلمين في مواجهة أعدائهم - كلّ مواضيع المواجهة، أولئك الذين ينطلقون للتثبيط هاجمتهم مهاجمةً قويّةً، توبيخًا عنيفًا، سخريةً منهم، استهزاءً بهم، تحطيمًا لمشاعرهم، وفعلًا الإنسان الذي يتّجه إلى الحقّ، ويكون موقفه موقف حقّ لا تتوقّع أنّ بإمكان الباطل أن يقف أمامه إلّا إذا حصل تقصير من جانبك، أو أنت لم تهيّئ نفسك بالشكل المناسب في أسلوبك، في تقديمك للحقّ بأن يكون بالشكل الذي يزهق الباطل.

---

(١) من محاضرة للشهيد القائد آيات من سورة **المائدة** الدرس الرابع ٢٠٠٢م.

ألم يقل المنافقون في ذلك العصر أيّام رسول الله ﷺ عندما انطلق المسلمون لمواجهة دولة الروم، ومواجهة دولة الروم كمواجهة أمريكا الآن: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ﴾ مساكين مغفّلين يذبحون أنفسهم، كيف يستطيعون أن يؤثّروا على دولة عظمى؟! لا، إنّ المغرورين هم أولئك، هم الذين غرّوا أنفسهم.

وجاء القرآن الكريم ليؤكد أيضًا أنّ من يتخذون قرارات كهذه - ليقعدوا - إنّهم لن يسلموا وستنالهم العقوبة بأضعاف أضعاف من الآلام والنقص أكثر ممّا يعاني منه المجاهدون»[١].

هـ- المبادرة والمسارعة:

يقول السيّد حسين في محاضرة (سارعوا إلى مغفرة من ربّكم):

«كان رسول الله ﷺ يتحلّى بصفة المبادرة، والمسارعة، لا يوجد عنده تثاقل، ولا تردّد، ولا ترجيحات.

في معركة (تبوك) استخدم هذا الجانب، جانب المبادرة الذي جعل الرومان - وهم أكثر قوّة، وأكثر عددًا - يتراجعون، ويقرّرون عدم المواجهة مع رسول الله ﷺ؛ لأنّه حرّك الناس.

عندما بلغه بأنّهم قد تجمّعوا في الشام، يريدون أن يهجموا على بلاد الإسلام حرّك الأمّة، والقرآن حرّكهم أيضًا بآيات ساخنة، يخرجون حتّى وإن كانوا في وقت شدّة، وقت قلّة ثمر. لم يقل ننتظر حتّى ينضج الثمر، والثمار تحصل حتّى يكون لدينا قدرة أن نموّل نفوسنا، ونخرج.

لا بل خرجوا، وبادر هو بالزحف، وانطلق إلى تبوك، وبين تبوك وبين المدينة حوالي (٧٥٠ كيلو)! يعني: دخل إلى أقرب منطقة من المناطق في بلاد الشام، ومعه ثلاثون ألفًا، قد حشدهم من الناس.

---

(١) من محاضرة الشهيد القائد «وإذ صرفنا إليك نفرًا من الجن» ٢٠٠٢م.

هكذا كان النبي ﷺ؛ لأنّه كان رجلًا قرآنيًا، رجلًا يتحرّك بحركة القرآن، يجسّد القرآن، يفهم معانيه، وغاياته، ومقاصده، وأساليبه، ومنهجه»[١].

٩- حجّة الوداع وغدير خمّ في السنة ١٠هـ

«حجّة الوداع كانت في العام الأخير من حياة النبي ﷺ يعني أواخر السنة العاشرة. دخل النبي في السنة الحادية عشرة لم يلبث فيها إلّا شهر محرم وصفر على اختلاف الأخبار في أنّه هل توفي في اليوم الأخير من شهر صفر أم في بداية ربيع، على كُلٍّ النبي ﷺ حجّ هذه الحجة التي سمّيت بحجّة الوداع أعلن فيها للأمّة تأهّبه للعروج إلى الله سبحانه وتعالى، للرحيل من هذه الدنيا الفانية وأنّ مهمّته الكبرى في إبلاغ رسالات الله سبحانه وتعالى وإقامة دين الله جل وعلا ومحاربة الظلام والضلال والباطل والكفر والإجرام والطغيان، وإقامة الحقّ وإحقاقه وإقامة العدل في الحياة، هذه المهمّة بالنسبة له قد اكتملت، لم يبق له إلّا الشيء اليسير ثمّ يرحل من هذه الحياة.

ولذلك، تلك الرحلة تضمّنت إعلانات وكذلك نصوص مهمّة أثناء حجّة الوداع نفسها أو في الطريق. عاد النبي ﷺ من رحلته تلك وقد أتمّ مهمّته، ما كان منها في أثناء الحجّ في صعيد عرفات في خطبته الشهيرة، وما كان منها في طريقه عائدًا من مكّة.

في عودة النبي ﷺ من حجّة الوداع وقد ودّع الأمّة في ذلك اليوم ونزل عليه قول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ الآية في مضمونها على حسب التعبير المعتاد ساخنة، قويّة في مضمونها وتعبيرها وأسلوبها، يعني أتت تأكيد على النبي ﷺ بشكلٍ كبير عجيب ﴿بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ وأرفقت بضمانة للحماية الإلهيّة كالضمانة التي أعطاها

(١) من محاضرة الشهيد القائد «وسارعوا إلى مغفرة من ربكم».

الله لموسى وهارون في ذهابهما إلى فرعون، قال: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾، هنا ضمانة إلهيّة ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾.

من المؤكّد أنّ النبي ﷺ كان دائمًا في حالة استعداد تامّ للتضحية في سبيل الله جلّ شأنه ولم يكن ليتردّد عن إبلاغ أيّ شيء من أوامر الله وتوجيهاته ودين الله نتيجة مخاوف من الناس، لا، هو كان منذ البداية ولكن هنا كان لهذه القضيّة شيء من الخصوصيّة لربّما أكثر من مسألة القتل، لربّما أكثر من مسألة الاغتيال، لربّما أكثر من تلك المخاوف، بأن يعاجل بالتصفية قبل أن يتمّ عمليّة البلاغ، أو أن يتعرّض لإساءات كبيرة تمسّ بعرضه، وكرامته، ومقامه في أوساط الأمّة من خلال توجيه الإساءات إليه، والاتهامات إليه بالمحاباة والإيثار لعلي بن أبي طالب لاعتبارات أخرى.

تلقّى النبي ﷺ هنا ضمانات من الله فيما سيبلّغ، هذا البلاغ سيكون في وسط إسلامي ليس فيه أحد من المشركين، تلك الجموع الغفيرة العائدة من الحجّ والتي جُمعت في مفترق الطرق قبل أن تتفرّق نحو الآفاق، وهذا يدلّ على حساسيّة المسألة والتي بقيت حسّاسة أصلًا في الوسط الإسلامي على طول التاريخ، وبقيت النظرة إليها والتعاطي معها على هذا الأساس، وهذا يجعلنا مثلًا نستشعر حساسيّة تلك المرحلة التي عاشها النبي ﷺ ما قبل تقديم البلاغ وأثناء تبليغه.

ولذلك، أعطي تأكيد كبير لضمانة إلهيّة بالحماية له ولمقامه ﷺ في أوساط الأمّة، وفعلًا تحقّق ذلك، لم يجرؤ أحد على الإساءة إليه بما يؤثّر على مكانته في أوساط الأمّة، وإن كان هناك مواقف فهي ضعيفة جدًا لم يكن لها أيّ تأثير أبدًا، يعني كانت الحالة السائدة ما بعد التبليغ هي حالة الهدوء، لم يترتّب على هذا البلاغ وهذا الإعلان أيّ مشاكل في وسط الساحة الإسلاميّة آنذاك، الكلّ هدأ ما بين مرتاح وما بين ساكت.

كان هناك احتمال ربّما أن يترتّب على هذا الإبلاغ مشاكل في الساحة الإسلاميّة واحتجاجات واعتراضات ونزاعات، لكن لا، تحقّقت الإرادة والوعد

الإلهي بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾، فالساحة بقيت عاديّة ومتماسكة ومستقرّة وهادئة. جمع النبي ﷺ الناس في غدير خم في تلك المنطقة أثناء عودته من مكّة إلى المدينة، وجمع الآلاف المؤلّفة من الحجّاج المسلمين العائدين إلى آفاقهم، ومناطقهم، والذين سيسهمون بشكل كبير في إبلاغ هذا البلاغ، جُمعوا وفي وقت وبأسلوب أشبه ما يكون بحالة نفير، لأنّ الحالة كانت أثناء الظهيرة، أوقفت الجموع التي لا زالت متحرّكة، استعيدت الجموع التي كانت متقدّمة شيئًا ما، جمع الكلّ في صحراء واحدة في ساحة واحدة، في مكان واحد، واضح، لم يكن فيه أيّ عوامل يمكن أن تمثّل عائقًا إمّا عن رؤية النبي أو عن سماعه، حضر الكلّ، في حالة استدعاء عاجل وملفت وطارئ، ترى ماذا هناك؟ ماذا يريد النبي ﷺ؟.

وأثناء الظهيرة، قام النبي ﷺ بعد أن رصّت له أقتاب الإبل ليصعد عليها وأَصعد معه عليًا عليه السلام على نفس الأقتاب ثمّ وجّه خطابه إلى الأمّة وأبلغ ما أمره الله بإبلاغه بعد حديث هيّأ فيه الذهنيّة العامّة للمستمعين لما سيقدّمه إليهم وبكلّ ما يساهم على لفت الأنظار وعلى جلب التركيز والانتباه وعلى جلب حالة الإصغاء والانتباه.

أي إنّ النبي ﷺ أدّى مهمّته على أكمل وجه وأتمّ ما ينبغي، لا نقص، لا في مستوى التبليغ، ولا في طريقة التبليغ، ولا في إعطاء التبليغ جوًّا يساعد على إدراك أهميّته والالتفات إليها، فتحدّث بخطاب شهير ثمّ وصل إلى الموضوع الرئيسي في الخطاب فقال ﷺ: «يا أيّها الناس إنّ الله مولاي وأنا مولى المؤمنين أولى بهم من أنفسهم، فمن كنت مولاه فهذا عليّ مولاه».

وكان علي عليه السلام إلى جانبه، فأخذ بيده ورفعها أمام الحضور، الآلاف المؤلّفة من المسلمين، «فهذا علي مولاه، اللهم والِ من والاه، وعادِ من عاداه، وانصر من نصره واخذل من خذله».

هذا النصّ وهذه الواقعة توارثتها الأمّة الإسلاميّة وهي في نفسها من الثوابت المعترف بها بين أبناء الأمّة الفريقين الرئيسين في الأمّة كما يقال

الشيعة والسنّة الكلّ توارثوا هذه الحادثة بنفسها وهذا النصّ «فمن كنت مولاه فهذا علي مولاه» توارثته الأمّة كلّها فأصبح من المتواتر والثابت بين الأمّة.

وبعد انتهاء هذه المراسيم التي تمّ فيها تنصيب الإمام علي عليه السلام وليًّا للمسلمين من بعده نزل قول الله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾[١] فهم الجميع ماذا يريد النبي وبارك من تمكّن للإمام علي عليه السلام هذا الشرف المتوقّع أصلًا فما جرى في يوم الغدير لم يكن سوى تتويجًا رسميًّا للإمام علي وإلّا فمن كان يسمع النبي وما يقوله في الإمام علي ويعرف الإمام عليًا ومواقفه العظيمة يدرك بأنّه المؤهّل والأكفأ والأجدر بهذا المقام بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وسخّر النبي صلى الله عليه وآله وسلم ما تبقّى من حياته، إلى أن توفّاه الله وأخذه إلى الرفيق الأعلى، يقدّم لأمّته النصائح والتوصيات والإرشادات ويدلّها ويشدّها إلى ما يمثّل صمّام أمان لها من فتن وأخطار يخاف أن تعصف بها كما حصل للأمم الماضية من قبلها، وكان من آخر وصاياه صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّي تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبدًا؛ كتاب الله وعترتي أهل بيتي إنّ اللطيف الخبير نبأني أنّهما لن يفترقا حتّى يردا عليَّ الحوض» «أذكّركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكرهم الله في أهل بيتي».

وهكذا، تمكّن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بما منحه الله من حكمة ومؤهّلات قياديّة عظيمة وبالهدى الذي أتى به من عند الله، وبجهاده وصبره وتضحياته العظيمة هو والمؤمنون معه وفي فترة وجيزة من تغيير ذلك الواقع كلّه، وبنور الله محا ظلمات الجهل، وأخرجهم من الظلمات إلى النور، وطهّر الجزيرة العربيّة من تلك المفاسد والرذائل، وأحدث تغييرًا كبيرًا، وحوّل ذلك المجتمع الجاهلي إلى مجتمع تسوده مكارم الأخلاق، يعبد الله ويجاهد في سبيله، ويحمل قضيّة عظيمة مقدّسة، فأرسى دعائم العدل، وحقّق الأمن والسلام والعزّة، وأعاد للإنسان كرامته الإنسانيّة، وقوّض الإمبراطوريّات الظالمة، وبنى أمّة

---

(١) سورة **المائدة**، الآية ٣.

قويّة موحّدة عزيزة زاكية، آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر مصلحة في الأرض تحقّق لها رفاه العيش وكرامة الحياة. أمّة في داخلها الرحمة والتكافل والتآخي والتعاون، وفي مواجهة أعدائها قويّة صلبة ثابتة لا تقبل بالإذلال ولا بالضيم كما قال الله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ﴾(١).

لقد سعى الطواغيت وفي خطوة استباقيّة إلى هدم الكعبة قبل مبعثه وحرصوا على إخافة العرب بذلك الفيل الذي لم يحصل أن عرفوا مثله إلّا أنّ الرسالة الإلهيّة غيّرت في حركة النبي ﷺ ومن بعد مبعثه الشريف هاديًا ومعلّمًا ومربيًا، مجاهدًا وصابرًا ومضحّيًا، غيّرت الواقع في الجزيرة العربيّة، لتمتدّ آثار ذلك التغيير وبمستويات متفاوتة إلى أرجاء الدنيا كلّها.

والأمّة التي كانت متفرّقة وجاهلة وظلاميّة وأخافها في يوم من الأيّام فيلٌ واحد في مقدّمة جيش تغيّر واقعُها بعد إسلامها بعد أن تنوّرت بالنور، واستبصرت بالهدى، وزكت بالقرآن وبتربية الرسول ﷺ فواجهت جيوش الإمبراطوريّات والدول الكبرى المستكبرة، ولم ترهب جيوشها التي كانت تأتي بأعداد كثيرة من الفيلة.

كانوا يتوقّعون أن يخاف المسلمون مجدّدًا إذا شاهدوا الفيلة كما خافوا قبل إسلامهم من فيل واحد، فأتوا بالكثير من الفيلة فلم تخف، لم يخف المسلمون فيما بعد، وقويت عليها بقوّة الحقّ، وانتصرت بنصر الله، حينما تحوّلت إلى أمّة حملت أعظم مشروع وأقدس قضيّة، أمل لكلّ المستضعفين في الدنيا غير مؤطّرة بعنوان جغرافي ولا بلون ولا بعرق ولا بقوميّة بل بخطاب القرآن لكلّ الناس الذي يقول فيه (يا أيّها الناس).

لقد استطاع الرسول ﷺ بحركة بالقرآن وبما منحه الله تعالى من مؤهّلات عالية وكمال عظيم، وبتأييد الله تعالى أن يصنع تغييرًا مفصليًّا في

---

(١) سورة **الفتح**، الآية ٢٩.

التاريخ، وأن يؤسّس لعهد جديد ختم به رسالات الله تعالى إلى الأنبياء، ومن معجزات الرسالة الإلهيّة أن رافعتها وحملتها وأتباعها وأنصارها والمنتصرين بها هم المستضعفون وليس المستكبرون.

لم يكن انتصار الرسالة الإلهيّة مرهونًا بقوى الاستكبار، بل كانوا هم على الدوام أعداءها والمختلفين معها لأنّها تُناقض أطماعهم وطغيانهم واستعبادهم للبشريّة، بل كان المستضعفون هم الذين يؤمنون ويعتزّون ويقوون بها ويتغيّر واقعهم بها بعد أن يغيرّوا ما بأنفسهم»[١].

---

(١) من كلمة السيّد عبد الملك بدر الدين الحوثي بمناسبة المولد النبوي ١١ ديسمبر ٢٠١٦م.

خاتمة

إنّ «الرسالة الإلهيّة هي المشروع الوحيد، ليس هناك أيّ مشروع آخر، هي المشروع الوحيد القادر على إحداث التغيير الحقيقي للواقع البشري، لتقديم الحلول الواقعيّة للبشر؛ لأنّها مشروع شامل يتجه للإنسان نفسه، فيغيّر ما بنفسه من ظلمة ودنس، فإذا صلح الإنسان صلحت الحياة كلّها وصلح واقعه؛ لأنّها مشروع يصنع الوعي ويزكّي النفس ويأخذ بيد الإنسان في الحياة في الطريق السويّ ويهدي للتي هي أقوم قال الله تعالى ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[٢].

ولأنّه مشروع الله لكلّ عباده ليس من قوم حسبوا حساب أنفسهم وحساب مصالحهم على حساب قوم آخرين، لا لعرق على عرق ولا للون على لون ولا لقوميّة على قوميّة، بل هو الكلمة السواء التي يمكن أن يلتقي عليها جميع البشر، وهو المشروع العالمي الحقيقي الصالح القائم على العدل، والعدل دعامة أساسيّة في بنيانه. قال الله تعالى: ﴿قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾،

---

(١) سورة **إبراهيم**، الآية ١.

(٢) سورة **الحديد**، الآية ٩.

ثمّ هو حجّة الله تعالى على عباده لأنّه هو الذي خلقهم، هو ربّهم وملكهم وإلههم الحقّ وإليه مصيرهم وحسابهم وجزاؤهم، وقد قدّم نداءه إليهم منذ بداية وجودهم على هذه الأرض، فقال تعالى مخبرًا بندائه واحتجاجه (يا بني آدم) خطاب الله إلى البشر في كلّ الأجيال التي قد خلت ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾[١].

ولذلك، فلا خلاص اليوم للبشريّة بأيّ بديل عن رسالة الله تعالى ولا حلّ يغيّر الواقع إلّا الانفتاح على الرسالة الإلهيّة، على رسالة الله ونوره، ولا صلاح لآخر الأمّة إلّا بما صلح به أوّلها.

ولا شكّ بأنّ الأمّة اليوم تعيش حالة من العبوديّة لغير الله بأسوأ ممّا كان في الجاهليّة الأولى، أليست أمريكا اليوم هي من يسارع الكثير إلى طاعتها ويلجأون إليها ويخافونها وينفّذون مشاريعها ولا يعملون لتوجيهات الله وأوامره ومشروعه أيّ حساب؟!

وأمريكا في نفس الوقت ماذا تعمل بهم في المقابل؟ لقد ثبت أنّ قوّة الاستكبار اليوم وعلى رأسها أمريكا وإسرائيل تفاقم مشاكل البشريّة وتفسد في الأرض وتعتدي على الشعوب وتنهب الخيرات وتصنع الحروب والأزمات ولا تقدّم للبشريّة إلّا المزيد من المآسي والنكبات، وزاد من سوء الأمر في عالمنا الإسلامي خصوصًا في المنطقة العربيّة التبعيّة العمياء والعبوديّة المطلقة من بعض الدول التي تقدّم نفسها على أنّها تمثّل الإسلام كما هو حال النظام السعودي المنافق الذي جعل من نفسه أداة الشرّ لتنفيذ مؤامرات الأعداء وهدم كيان الأمّة من الداخل، وهو بلا شكّ امتداد ظلامي ظالم لقوى الاستكبار، يمثّل حالة الانحراف والتحريف داخل الأمّة التي

---

(١) سورة **الأعراف**، الآية ٣٥.

ائتلفت مع شبيهاتها في حالة الانحراف والتحريف في شريعة موسى وشريعة عيسى عليه السلام.

إنّ القرآن الكريم يجعل من التبعيّة لأعداء الأمّة من المستكبرين خروجًا عن الحقّ وزيغًا عن الهدى وخيانة للأمّة وهو يقول: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(١). وإنّ أكبر معاناة تعانيها الأمّة اليوم هي هذه التبعيّة التي مثّلت حالة اختراق كبير ومؤذٍ ومخرّب في داخل الأمّة ويجب أن تحذر منها الأمّة وأن تتحصّن منها بالوعي وأن تواجه مؤامراتها ومكائدها بكامل المسؤوليّة، ومآل أولئك الخونة المنحرفون إلى الخسران مصداقًا للوعد الإلهي في سورة **المائدة**.

والأمّة في مواجهة التحدّيات الداخليّة مع قوى النفاق، والخارجيّة من قوى الطاغوت والاستكبار معنيّة بالاعتصام بالله سبحانه وتعالى، والارتباط الوثيق برسالته، فبها تتقوّى وبتعاليمها تفلح وبالتمسّك بها تنتصر، لأنّها رسالة في مضمونها من التعاليم والتوجيهات والحكمة عناصر القوّة، وعناصر القوّة هذه ذاتيّة فيها وبالتمسّك بها تحظى الأمّة بنصر الله وعونه قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾(٢)(٣).

لم يكن النبي ﷺ يفرض هيمنته الشخصيّة على الناس، لم يكن يريد من الناس أن يسيروا في حياتهم وفق مزاجه، ووفق هوى نفسه، وأن يأمرهم بما يريد هو، ويفرض عليهم شيئًا من نفسه على الإطلاق.

الرسول كان فقط يسير بالناس معه على ضوء تعاليم الله، يُعبِّد الناس لله فقط، لا يعبّدهم لنفسه، لا يفرض عليهم أشياء لنفسه، ومن أجله هو، أو من

---

(١) سورة **المائدة**، الآية ٥١.

(٢) سورة **التوبة**، الآية ٣٣.

(٣) من كلمة السيّد عبد الملك بدر الدين الحوثي بمناسبة المولد النبوي ١١ ديسمبر ٢٠١٦م.

عنده هو، كان مع الناس متبعًا لهدى الله، ولما أنزله الله، يبلّغ رسالات الله وأوامره ثمّ يطبّقها مع الناس، ويعمل بها.

لكن ما يريده منّا الزعماء العرب هو أكثر ممّا كان لرسول الله، لم يكن لرسول الله أن يأمر من نفسه، وأن يُسيِّر الناس على نفسه، وأن يحكم الناس بشيء من نفسه هو، كان يقول: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ﴾ وكان يتقيّد بأوامر الله، يأمر بما أمر الله وينهى عمّا نهى الله؛ لأنّه لا يريد أن يكون الناس عبيدًا إلّا لله، أمّا الطواغيت فإنّهم يريدون أن يستعبدونا، أن يُسيِّرونا في حياتنا وفي مواقفنا على أهوائهم، لمصالحهم الشخصيّة، لأطماعهم، أن يستذلّونا، أن يقهرونا، أن يستعبدونا، وهذا شيء غير مقبول فلم يكن حتّى لرسول الله ﷺ.

لقد قام الرسول محمّد ﷺ بمسؤوليّته على أكمل وجه، وبلّغ البلاغ المبين، وجاهد في سبيل الله؛ لأنّ الله جلّ شأنه جعل إقامة هذا الدين يقترن بها الجهاد في سبيل الله، الله يقول: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ﴾[1] أنزل الله مع الرسل الكتاب وأنزل مع الرسل الحديد.

إنّ الإسلام الذي جاء به محمّد يربّي رجالًا يحملون الحديد فيذودون به عن هدى الله، ويواجهون به الطغاة، ويواجهون بالحديد المستكبرين، ويواجهون بالحديد الطامعين الذين يريدون أن يطفئوا دين الله.

إنّ دين الله يربّي رجالًا، ينتج أبطالًا يخلعون ثوب الذلّ، وكذلك يكونون بعيدًا عن المسكنة والهوان والإذلال والتعاسة، رجالًا أعزّاء بعزّة الله العزيز، وبعزّة رسوله العزيز، وبعزّة القرآن العزيز، أنزل الله الحديد ليكون أبناء الإسلام، أمّة محمّد، أتباع محمّد رجالًا يحملون الحديد فيدافعون بالحديد عن

(١) سورة **الحديد**، الآية ٢٥.

أنفسهم، وبالحديد الذي حمله رسول الله درعًا، وبالحديد الذي حمله رسول الله سيفًا، وبالحديد الذي حمله رسول الله سهمًا تحرّك رسول الله كأعظم قائد عسكري وبطل ورجل عظيم ليقارع الطغيان، ليقارع المنكر، واجه اليهود وهزمهم، وواجه مشركي العرب وطغاتهم، والمفسدين من العرب وهزمهم، وواجه أيضًا النصارى بكلّ إمكانيّاتهم العسكريّة وانتصر عليهم.

هذا هو رسول الله الذي خاض الكثير من المعارك ذودًا عن الحقّ، من أجل المستضعفين، من أجل المظلومين، من أجل إقامة الحقّ، من أجل إزالة الظلم وإزالة الطغيان، على هذا الأساس قام الدين، وقام الحقّ، وقام العدل، وأصبح للمسلمين كيان عزيز، وكيان مقتدر وقويّ.

لقد أعدّ الرسول ﷺ بجهاده العظيم حتّى وهو يحتضر على فراش الموت سريّة جهاديّة، أعدّ جيشًا مجاهدًا وهو يقول: «أنفذوا جيش أسامة، أنفذوا جيش أسامة»، بهذه الجهود العظيمة التي بذلها ﷺ وهو يبلّغ ويقاتل، ويربّي، ويعلّم، ويصلح، بهذه الجهود العظيمة قام للإسلام كيان عزيز وعظيم وقويّ»[١].

«أراد الله لهذه الأمّة أن تكون مرتبطة بنبيّها الارتباط القائم على أساس الولاء الصادق والطاعة، ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾[٢] ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾[٣] أمّة تقتدي بنبيها، تتعرّف على هذا النبي، على صفاته، تستفيد من هديه، تستفيد من حياته، من منهجه ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾[٤].

---

(١) من كلمة السيّد عبد الملك بدر الدين الحوثي بمناسبة المولد النبوي ١١ ديسمبر ٢٠١٦م.

(٢) سورة **الأحزاب**، الآية ٦.

(٣) سورة **النساء**، الآية ٦٤.

(٤) سورة **الأحزاب**، الآية ٢١.

يتحرّك الرسول ﷺ ضمن مسؤوليّة عالميّة، مسؤوليّة عامّة، فمسؤوليّته هو وأمّته مسؤوليّة ترتبط بالناس عمومًا وليس بالعرب خاصّة، مسؤوليّة ترتبط بالعالمين، كما يقول الله جلّ شأنه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[١]، ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾[٢].

فنصل إلى نتيجة مهمّة وهي أنّه يتحقّق للناس من خلال اتباع الرسول والقرآن التحرّر من عبوديّة الطاغوت المذلّة والسيّئة والتي هي شرّ محض، ويتحقّق لهم عبادة الله بشكل صحيح في إقامة دينه متكاملًا بما يحقّق الخير لهم والعزّة والفلاح، ولا يمكن أن يقبل الله من عباده أن يطيعوه في بعض الأمور المحدودة وما تبقى من أمورهم للطاغوت، كما يتصوّر البعض - وهم مخطئون - أنّه يكفي من حياتنا خمس خصال لله، والباقي من كلّ شؤون حياتنا ومواقفنا تكون على ما يريد الطاغوت! هذا خطأ كبير.

فالله جلّ شأنه يقول في **القرآن الكريم**: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ﴾[٣]، ومن خلال هذه الآية القرآنيّة المباركة يتضح أنّه لا يتحقّق الإيمان بالله إلّا بالكفر بالطاغوت، ومن هذا المنطلق بعث الله خاتم رسله وأنبيائه محمّدًا ﷺ بمشروع متكامل عظيم مرتبط بملك الله ورحمته؛ لإصلاح البشريّة ودفعها إلى عبادة الله، وإنقاذها من الطاغوت والظلم والهوان، ولتحقيق العدل، وإتمام مكارم الأخلاق، والسموّ بالإنسان ليقوم بمسؤوليّته في الحياة مع مبدأ الثواب والعقاب، كما يقول الله جلّ شأنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ٤٦ وَبَشِّرِ

---

(١) سورة **الأنبياء**، الآية ١٠٧.

(٢) سورة **الأعراف**، الآية ١٥٨.

(٣) سورة **البقرة**، الآية ٢٥٦.

ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾[١]»[٢].

وأخيرًا، «فإنّه بالرغم ممّا واجهوا به الإسلام في ذلك العصر سواء من داخل المتنفّذين في داخل المنطقة العربيّة أو بالتحالفات مع اليهود أو من خلال ما قامت به أكبر دولة في ذلك العصر الروم حيث شنّت حربًا على الإسلام والمسلمين في ذلك العصر ورغم أنّ بداية انتشار هذا الحقّ وقيامه على أيدي فئة من المستضعفين، وبإمكانيّات ماديّة محدودة رغم حجم المؤامرات الكبيرة، الشائعات، الحروب أكثر من سبعين واقعة التي كانت عبارة عن سرايا، وخمس عشرة معركة التي كانت عبارة عن حروب كبرى رغم كلّ ذلك فشل الطغاة وفشل المستكبرون وقام دين الله وجاء الفتح والنصر والغلبة، وضاع الشرك وتهاوى الطغاة والمستكبرون وذلّوا وهانوا وقام الإسلام وعمّ وانتشر في الجزيرة العربيّة كلّها ليبدأ إشعاعًا نورانيًّا إلى بقيّة الأرض ولتمتدّ فروعه إلى بقيّة العالم، هذا كلّه يمثّل عبرة وآية كبيرة؛ لأنّ الله جلّ شأنه عندما قال ﴿يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾[٣] لو كرهوا، ولو حاربوا، ولو عاندوا، لو قتلوا، لو دمّروا، لو عملوا ما عملوا في سبيل إطفاء هذا النور فإنّه لا بدّ أن يتمّ؛ لأنّ الله معه ويتمّه.

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾[٤] هذه الرسالة جاءت لتنتصر، هذا الدين جاء ليغلب وإنّما من ينال شرف أن يتحرّك هو فيحظى بهذا الشرف الكبير، الله جلّ شأنه عندما

---

(١) سورة **الأحزاب**، الآيات ٤٥ - ٤٨.

(٢) من كلمة السيّد عبد الملك بدر الدين الحوثي بمناسبة المولد النبوي ١١ ديسمبر ٢٠١٦م.

(٣) سورة **الصفّ**، الآية ٨.

(٤) سورة **التوبة**، الآية ٣٣.

أرسل رسوله فهو أرسله بالهدى ودين الحقّ ليظهر المشروع الإلهي، الدين؛ دين الله ورسالته العظيمة ومشروع أتى به الله ليظهر وليس ليسقط ولا ليضيع.

إنّ من عظمة هذا الإسلام، دين الله، رسالة الله، هدى الله أنّه مهما كان حجم إمكانيّات أعدائها، مهما صادفت أو واجهت من عوائق ومتاعب وصدّ ومشاكل كبيرة إلّا أنّه حتمًا ينتصر رغم كلّ ذلك، رغم كره الكافرين والمشركين والمجرمين ينتصر رغم أنوفهم ولو عملوا ما عملوا في مواجهته؛ لأنّ الله معه وتكفّل ليظهره، لم يرسل رسولًا ويتركه ويرسل دينًا ويتركه ويتخلّى عنه ليكون دينًا مقهورًا ضائعًا تحت وطأة المجرمين وسعي المستكبرين وطغيان الطغاة والظالمين لا.

أرسل هذا الدين وتكفّل بأن يظهره ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ فيكون الدين الحقّ وهدى الله جلّ وعلا ظاهرًا وغالبًا وكلمة الله ستكون هي العليا وهذا ما حصل.

لقد بدأ محمّد مشواره وحيدًا من مكّة المكرّمة، رجل وحده صدع بأمر الله، ووقف ضدّه كلّ طغاة العالم يهودًا ونصارى ومن مشركي العرب ومن قومه الأقربين، تآمروا ضدّه، شنّوا عليه حروبًا كبيرة: إعلاميّة وعسكرية واقتصاديّة وغيرها لكن كلّ جهودهم فشلت، وانتشر الحقّ وعمّ الإسلام وساد وسقط الشرك والأصنام الحجريّة ذلّت وهانت الأصنام البشريّة ودخل أبو سفيان بالرغم عنه في الإسلام تحت قوّة الإسلام وقهره ذليلًا وهو على رغم تجبّره لم يفلح فيما رام إليه وسقط أبو جهل وغيره من الطغاة في ميادين القتال والحرب.

نعرف هنا عظمة الإسلام أنّه مشروع مكتوب له النجاح، مشروع إلهي مكتوب له الغلبة، مكتوب له الظفر، مكتوب له النصر. لكنّه فيما بعد وللأسف تضعضع ذلك البنيان وحصل تراجع لدى المسلمين، تراجع عن تلك التعليمات المهمّة والعظيمة، وفي الوقت نفسه صحب هذا التراجع ذلّة وهوان، وتشتّت وفرقة، وانعدام للضمير والشعور بالمسؤوليّة، وانحطاط في

القيم، حتّى أصبح أغلب المنتمين للإسلام يحملون نفوسًا مهزومة ومأزومة وضعيفة وهزيلة، وفي الوقت نفسه أصبحوا قابلين لأن يُظلموا وأن يُستذلّوا وأن يُقهروا وأن يُهانوا.

وها هو هذا النور قد عاد من جديد من خلال هذه المسيرة المباركة، ولا شكّ بأنّ دين الله المحمّدي الأصيل الذي تتحرّك هذه المسيرة على أساسه هو الموعود من الله المقتدر بالنصر والتمكين والغلبة وهذا إيماننا وهذه ثقتنا، ليس بمقدور أيّ أحد مهما كان ومهما كانت إمكانيّاته أن يُطفئ نور الله، أو أن يحول دون نفوذ إرادة الله في ظهور دينه وهديه والحقّ الذي أنزله، يقول الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾[1].

الإسلام العظيم قادرٌ على تقويض الجاهليّة الأخرى، و«الرسالة الإلهيّة تحقّق للإنسان الحريّة الحقيقيّة، والكرامة والعدل، وهي بصائر ونور تصنع وعيًا عاليًا، وحكمة فائقة، ونظرة صحيحة إلى الواقع وإدراكًا للحقائق، وهي فرقان وحماية من التضليل والخداع، وهي صلة بين الناس وبين الله ربّهم، يترتّب عليها الرعاية الإلهيّة الواسعة من نزول البركات وسعة الخيرات وتحقّق النصر والوصول إلى السعادة.

ولولا الانحراف والتحريف في مسيرة الأمّة لما وصل الأمر إلى ما عليه الحال الذي تعيشه الأمّة الإسلاميّة وبقيّة العالم، ولكان واقع العالم مختلفًا تمامًا، ولولا التفريط بتلك المبادئ والأخلاق لما وصلت الأمّة إلى ما وصلت إليه من الانحطاط والضعة وهيمنة أعدائها عليها، بل وواقع العالم بشكل عامّ، ولا يصلح آخر هذه الأمّة إلّا بما صلح به أوّلها، وصدق رسول الله ﷺ حيث قال: «بعثت بين جاهليّتين أخراهما شرّ من أولاهما».

(١) سورة **الصفّ**، الآيتان ٨ و٩.

ولمواجهة جاهليّة العصر بهمجيّتها وطغيانها التي تقودها أمريكا وإسرائيل، والتي أُميت فيها من الإسلام روحه: مكارم الأخلاق والعدل والخير والقيم العظيمة والمبادئ المهمّة، يجب أن يتحرّك الربّانيّون والأخيار والعظماء من أبناء الأمّة وجماهيرها ورجالها بالنور والعزم والإيمان والمبادئ والمواقف التي بها انمحى ظلام الجاهليّة الأولى، وزال ظلمها وطغيانها وهمجيّتها وإجرامها وفسادها.

والإسلام العظيم بمنهجه النقي الصحيح غير المزيّف، ورموزه الحقيقيّين غير الوهميّين والمصطنعين قادرٌ على تقويض الجاهليّة الأخرى كما قوّض وأنهى الجاهليّة الأولى؛ لأنّه من الله ومعه الله، وهو دين مكتوب له من الله الغلبة والظهور، قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾[1] وهو نور الله ﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾[2]، وهو دين الفطرة ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾[3]. والمستقبل للإسلام والعاقبة للمتّقين والنصر للمستضعفين.

---

(١) سورة **التوبة**، الآية ٣٣.

(٢) سورة **التوبة**، الآية ٣٢.

(٣) سورة **الروم**، الآية ٣٠.

الفصل الثاني: في رحاب فاطمة الزهراء عليها السلام

توطئة

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ٣﴾[١] صدق الله العلي العظيم.

يسرّني بمناسبة ولادة السيدة فاطمة الزهراء البتول عليها السلام أن أقدّم هذه المادّة المتواضعة عنها لنتعرّف من خلالها على بعض الصفحات المشرقة من حياة الصدّيقة الطاهرة سيّدة نساء العالمين؛ لحاجتنا الماسّة بأن نعود إلى أعلامنا العظماء عبر التاريخ؛ لنستلهم منهم القيم والأخلاق والمبادئ، لنتعلّم منهم الصبر والثبات والصمود في مواجهة المستكبرين، لنتعلّم منهم مكارم الأخلاق ومحاسن الصفات.

السيّدة فاطمة الزهراء لم تكن امرأة عاديّة، وإنّما هي واحدة من النساء المتميّزات عبر التاريخ، بل هي أبرزهنّ وأفضلهنّ وأعظمهنّ جعلها الله سبحانه وتعالى للمرأة المسلمة - بالدرجة الأولى - قدوة يحتذى بها إلى يوم القيامة بما حملته من مواصفات عالية، وبما كانت عليه من الجهاد ومن الصبر والحبّ للناس والرحمة بهم، وما عرفت به من العبادة والتقوى والعمل في سبيل الله. وما أحوجنا وما أحوج نساء عصرنا بأن يتعرّفن على حياتها وسيرتها لتكون لهنّ الأسوة والقدوة الحسنة، لنسمو ونرتقي وتزكو نفوسنا وتطهر قلوبنا كما أراد الله ورسوله، في الوقت الذي يسعى أعداؤنا من أولياء الشيطان

---

(١) سورة **الكوثر**.

لأن يصنعوا لنا ولنسائنا ولأطفالنا ولشبابنا قدوات فاسدين منحطّين ضائعين لنكون نحن منحطّين فاسدين تائهين ضائعين مثلهم.

وهي مادّة مختصرة بالمناسبة العزيزة، وقد اعتمدت فيها على بعض ملازم السيّد حسين بدر الدين الحوثي (رضوان الله عليه)، وكذلك محاضرة السيّد عبد الملك بدر الدين الحوثي (حفظه الله) بمناسبة ولادة الزهراء لعام ١٤٣٥هـ، وغير ذلك من المصادر التاريخيّة.

نسأل الله التوفيق والسداد وأن يوفقنا للسير على صراطه المستقيم صراط الذين أنعم عليهم، وأن يبعدنا عن طريق المغضوب عليهم والضالّين.

يحيى قاسم أبو عواضة

شهر جمادى الآخرة ١٤٣٩هـ

مقدّمة

في مسيرة الدين وعبر التاريخ وحتّى في ظلّ الرسل والأنبياء، برز دور المرأة المؤمنة مرتبطًا بدور الرجل ككيانٍ واحد، وكان دورًا مهمًّا وأساسيًّا وعظيمًا، ومن شواهده المهمّة ما ورد في قصّة نبي الله موسى عليه السلام.

«في الترتيبات الإلهيّة التي أرادها الله حينما أذن سبحانه وتعالى بفرج أمّةٍ مستضعفةٍ تعاني الويلات والمآسي من ظلم طاغيةٍ متجبّر هو فرعون، وأذن الله بفرج تلك الأمّة المستضعفة كان ضمن الترتيبات الإلهيّة ومقدّمات ذلك الفرج دورٌ رسمه الله سبحانه وتعالى للمرأة بدءًا من أمّ موسى عليه السلام.

فالله سبحانه وتعالى قال في كتابه الكريم: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[1]، ضِمن تلك الترتيبات الإلهيّة أوحى الله سبحانه وتعالى إلى أمّ موسى بطبيعة المهمّة الكبيرة والدور الأساس الذي عهد به إليها، ووصلت التعليمات من الله سبحانه وتعالى إليها عن طريق الوحي، دورٌ مهمّ أساس يرتبط به فرج أمّةٍ وخلاصها وانعتاقها من ويلات الظلم والطغيان فقامت بدورها على أكمل وجه بما لديها من مؤهلاتٍ إيمانيةٍ وقِيميَّة وأخلاقية.

(١) سورة **القصص**، الآية ٧.

كانت الخطوة الأولى من خلال امرأة، ومن موقعها كأمّ لأنّ المرأة تؤدّي دورها دائمًا كدور تكاملي مع الرجل، وهو كذلك يؤدّي دورًا تكامليًّا مع المرأة، ليس هناك استقلالٌ في مسار الحياة والمسؤوليّة لا للرجل عن المرأة ولا للمرأة عن الرجل، هو يؤدّي دورًا مكمّلًا لدور المرأة وهي تؤدّي دورًا مكمّلًا لدوره وكلُّ دور منهما مرتبطٌ بالآخر لا فكاك بينهما أبدًا؛ لأنّهما كيانٌ واحد وأصلٌ واحد ومخلوقٌ واحد في مسيرة الحياة الواحدة.

أوحى الله إليها وحيًا، وأوصل إليها التعليمات المهمّة ﴿فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ﴾ وما كانت لتفعل ذلك وهي الأمّ الحنون الرؤوفة، هي الأمّ التي بفطرتها تحمل كلّ الحنان والرحمة والرأفة لرضيعها الصغير ولا علاقة تساوي علاقة الأمّ برضيعها، ما كانت لتُقدم على خطوةٍ كهذه لولا إيمانها الكبير بالله سبحانه وتعالى وتصديقها بوعده ﴿فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ﴾ ألقيه في البحر ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾.

وعرض الله لها ضمن التعليمات تفاصيل مهمّة عن دور هذا الرضيع المستقبلي الذي هو دورٌ كبيرٌ، وحظيت أيضًا، وهي تؤدّي دورها الكبير والمهمّ، برعاية ورأفة من الله سبحانه وتعالى وطمأنة كبيرة من الله سبحانه وتعالى، فتضمّنت هذه النصوص التي وردت في هذه الجملة عدّةً من الأمور المهمّة؛ أمرين من الله سبحانه وتعالى، ثمّ نهيين، وبشارتين ﴿أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٧ فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ﴾[1].

والمقادير الإلهيّة ساقت موسى عليه السلام إلى قصر فرعون، وهناك التقطه آل فرعون بتدبير الله الحكيم والعظيم والمقتدر والمهيمن والغالب ليعود من قصر فرعون آمنًا وقد تجاوز مرحلة الخطر التي كانت سائدةً آنذاك حيث كان

---

(١) سورة **القصص**، الآيتان ٧ و٨.

فرعون يأمر بذبح أيّ وليدٍ يولد في بني إسرائيل خوفًا واحترازًا من هذا الوليد القادم»[١].

﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ۝٨ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾[٢] وهناك في قصر فرعون - أيضًا - كان هناك دور مهمّ وأساس لامرأةٍ، ومن خلال امرأةٍ هي امرأة فرعون، والتي كانت أيضًا صالحةً، وتحدّث **القرآن الكريم** عن إيمانها بموسى عليه السلام، وعن صلاحها، وكانت فعلًا امرأةً نموذجًا راقيةً في إيمانها ووعيها وصلاحها.

فنلحظ أنّ هذه المهمّة الإلهيّة بدأت بامرأة هي أمّ موسى، وتكاملت بامرأة هي زوجة فرعون ﴿لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٩ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ﴾[٣] بطبيعتها الحنونة، بعطفها على ولدها، بقلقها، بخوفها عليه كانت على درجةٍ عاليةٍ وكبيرة من الخوف والقلق والانزعاج ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ من شدّة خوفها وقلقها على ابنها الوليد الرضيع الصغير كادت تكشف أمرها لكنّها هنا أيضًا تحظى برعايةٍ من الله كامرأةٍ مؤمنةٍ قامت بدورٍ كبير، وتحمّلت مسؤوليّةً عظيمة ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٤] فحفظ الله لها إيمانها برعايته.

﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ﴾ وهنا دورٌ آخر لامرأةٍ أخرى: ابحثي عنه وانظري حاله. قامت أيضًا بدورٍ مهمّ، والذي من خلاله سيتحقّق الوعد الإلهي بإعادة موسى إلى أمّه، وإلى أحضانها لتربيه هي: ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١١ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ

(١) من خطاب السيّد عبد الملك الحوثي لعام ١٤٣٥هـ بمناسبة ولادة السيّدة الزهراء عليها السلام.

(٢) سورة **القصص**، الآيتان ٨ و٩.

(٣) سورة **القصص**، الآيتان ٩ و١٠.

(٤) سورة **القصص**، الآية ١٠.

عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٖ يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ١٢ فَرَدَدۡنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَ وَلِتَعۡلَمَ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[1] تتضمّن هذه الآيات المباركة الكثير من الدروس والعبر والدلائل على أهميّة الدور الذي يمكن أن تقوم به المرأة المؤمنة حتّى في المراحل الخطرة والظروف الحسّاسة، والمسؤوليّة التي يمكن أن تنهض بها في مواجهة الطغيان والظالمين، ولكن لا يتّسع الوقت للحديث المفصَّل عنها.

قدّم **القرآن الكريم** نماذج متعدّدة لنساء مؤمنات وعلى مرِّ التاريخ مثلما كانت أمّ موسى عليه السلام، وأخته، وامرأة فرعون نموذجًا للمرأة المؤمنة التي تتحمّل دورًا مهمًّا وكبيرًا، وتنهض بمسؤوليّةٍ مهمّة يترتّب عليها أمرٌ كبيرٌ وعظيم هو خلاص أمّةٍ وفرجها واستنقاذها من الظلم والطغيان على مستوى الكمال الإيماني في طبيعة العلاقة مع الله سبحانه وتعالى وعلى المستوى العظيم من الإيمان والتقوى والمحبّة لله والارتباط به.

كما تحدّث **القرآن الكريم** عن نموذج آخر أيضًا هو امرأة نبي الله عمران، كيف كانت على مستوىً عالٍ من الإيمان، وكيف كانت في إيمانها ومحبّتها لله حريصةً على أن تقدِّم لله سبحانه وتعالى أغلى ما لديها وأعزّ ما تملك ﴿إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾[2] في نهاية المطاف وبعد ولادتها كان حملها هو مريم، مريم بنت عمران عليها السلام.

كذلك مريم كانت نموذجًا متميّزًا على درجةٍ عاليةٍ من الكمال الإنساني والإيماني، امرأةً زكيّةً طاهرةً راقيةً، والله سبحانه وتعالى تحدّث كثيرًا في **القرآن الكريم** عنها وسمّى سورةً كاملة باسمها سورة **مريم**، ويقول الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: ﴿وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ

---

(١) سورة **القصص**، الآيات ١١- ١٣

(٢) سورة **آل عمران**، الآية ٣٥.

وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾[١] خاطبتها الملائكة ونادتها وأخبرتها أنّ الله طهّرها واصطفاها لتكون أمًّا لعيسى عليه السلام نبيّه وعبده وروحه وكلمته، واصطفاها كذلك على نساء العالمين في مسؤوليّةٍ مهمّة جسّدت من خلالها قيم الدين القيّم والأخلاق المثلى لدين الله سبحانه وتعالى، والحديث عنها واسعٌ في **القرآن الكريم**.

(١) سورة **آل عمران**، الآية ٤٢.

أوّلًا- الزهراء عليها السلام قبل التكوين حتّى الولادة

نموذج آخر من النساء المصطفيات هو خديجة بنت خويلد تلك المرأة الزكيّة المرضيّة التي كانت منذ بداية الرسالة مع زوجها رسول الله محمّد صلى الله عليه وآله وسلم فكانت السبّاقة إلى الإسلام، عالية الدرجة في إيمانها وتقواها وإخلاصها وصدقها. كانت ناصرةً، ومعينةً، وقدّمت ما تملك من المال، كانت ثريةً حتّى لقد قيل إنّ من مقوّمات الدعوة لرسالة النبي محمّد صلى الله عليه وآله وسلم في حركته - في البداية - مال خديجة.

كانت بما تمتلك من قيم وأخلاق وإيمان وصدق وإخلاص ونصح ونصرة ومعونة تتحرّك بكلّ ما تستطيع من أجل إقامة الحقّ، من أجل نصرة الدين تقف بكلّ صدق مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مواسيةً ومعينةً وناصرة.

وللمرتبة التي وصلت إليها خديجة (رضوان الله عليها) فقد نزل الوحي على النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيما روي مبلغًا عن الله السلام إليها وأنّه يبشرها ببيتٍ في الجنّة من قصب لا نصب فيه ولا صخب، من قصب يعني من اللؤلؤ الرطب وبيت تعيش فيه مستقرّة هانئة سعيدة، وهكذا كانت نموذجًا متميّزةً في تاريخ الرسالة الإلهيّة.

هذا النموذج الراقي أولد نموذجًا أرقى وأكثر تميّزًا هو فاطمة الزهراء، بنت رسول الله محمّد صلى الله عليه وآله وسلم، وأمّها خديجة (رضوان الله عليها)، فاطمة عليها السلام التي قال عنها الرسول صلوات الله عليه وعلى آله «إنّها سيّدة نساء العالمين وإنّها بضعةٌ مني من آذاها فقد آذاني».

وقبل أن نعيش مع الزهراء عليها السلام في بعض مسيرة حياتها لا بدّ أن نعود إلى الأيّام التي جمعت فيها مشيئة الله وإرادته أبويها الكريمين: محمّد بن عبد الله، وخديجة بنت خويلد.

محمّد بن عبد الله بن عبد المطلب شابّ في ريعان شبابه عُرف في قومه بالعفّة والطهارة، وكلّما مرّت الأعوام ازداد محمّد تميّزًا ورجاحة في العقل، كان كثير التأمّل في الكون الفسيح، لا يعبد الأصنام، ولا يفعل المنكرات، يتحلّى بالأخلاق الفاضلة والقيم النبيلة، إنّها مواصفات لفتت انتباه السيّدة خديجة بنت خويلد وهي مواصفات محبّبة إلى قلبها.

وهي الشابّة التي عُرفت أيضًا في قومها بذات المال والجمال والجاه والعقل، وبلغ من علوّ شأنها أنّها كانت قبل أن تتزوّج بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم تُعرف بالطاهرة لعفّتها واستقامتها، وبسيّدة نساء قريش، وهي مع ذلك من أثرياء قريش وأوسعهم جاهًا، خطبها زعماء قريش إلّا أنّها كانت ترفض؛ لأنّها لم تجد في أحد منهم ضالّتها التي تبحث عنها.

كانت تتابع بشغف كبير أخبار محمّد هذا الشابّ الذي عُرف بين قومه بـ(الصادق الأمين). إنّه ابن سادة قريش: هاشم وعبد المطلب وأبي طالب، إنّه الحكيم الذي أصلح بين قبائل قريش حين كادت تقتتل عند إعادة بناء الكعبة الشريفة حين وصل البناء إلى الحجر الأسود واختلفت قبائل مكّة على من يضع الحجر الأسود في موضعه، وكادت الحرب تشتعل بينهم، لقد وقف محمّد بحكمته العالية بعد أن تراضوا به حكمًا وقال: «هذا ردائي ضعوا الحجر فوقه وليمسك كلّ كبير قبيلة بطرف من الثوب ولترفعوه جميعًا» فأُعجب أهل مكّة بهذا الصلح الذي حافظ على أرواحهم ودمائهم وجنَّبهم الحرب فيما بينهم.

لقد أصبح الحديث عن هذا الشابّ وحكمته ورجاحة عقله وأخلاقه الكريمة حديث المجالس في قريش، وكان محمّد صلى الله عليه وآله وسلم كلّما ازداد رفعة وشرفًا ومكانة في قومه كان يزداد تواضعًا لهم وعطفًا عليهم ورحمة بهم، لقد

كانت خديجة تتابع أوّلًا بأوّل ما يقال عن محمّد، وكلّ يوم تزداد يقينًا بأنّ هذا الشابّ هو فارس أحلامها الذي تبحث عنه.

بدأت السيّدة خديجة بنت خويلد تقترب أكثر من هذا الشاب الذي صار محطّ إعجاب الجميع فأرسلت إليه ليذهب في تجارتها وبذلت له ضعفي ما كانت تبذله لغيره، فوافق على طلبها بعد أن استشار عمّه أبا طالب، وأرسلت معه غلامها (ميسرة) لخدمة القافلة ورعايتها، والأكثر من هذا والأهمّ عند السيّدة خديجة هو أن يتعرّف إلى محمّد عن قرب وينقل لها تفاصيل ما حصل في هذه الرحلة وما شاهده من أخلاق محمّد.

كانت الرحلة ناجحة وموفّقة بشكل لم توفّق له رحلة قبلها، كان ميسرة يحثّ الخطى في طريق العودة إلى مكّة ليخبر سيّدته بما جرى في هذه الرحلة، وقبل دخول القافلة مشارف مكّة سبقهم مسرعًا ليخبر خديجة بما جرى وما حدث لمحمّد في طريق رحلتهما من الأمور الغريبة والكرامات العجيبة.

ومن نبوغ وحدّة ذكاء السيّدة خديجة ونظرتها البعيدة أنّها أدركت عظمة شخصيّة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وسموّ أخلاقه قبل تكليفه برسالة السماء، وأنّه ينتظره مستقبل عظيم فاختارته زوجًا لها من دون الرجال والشخصيّات المرموقة الذين تقدّموا لخطبتها، ولإعجابها الشديد فإنّها وخلافًا للأعراف السائدة هي التي تقدّمت وعرضت نفسها ورغبت في الاقتران به.

وهكذا، اقتضت مشيئة الله سبحانه وتعالى وحكمته أن يتزوّج محمّد الصادق الأمين صلى الله عليه وآله وسلم بالسيّدة خديجة بنت خويلد، كان عمره في تلك الفترة خمسًا وعشرين سنة وهي بنت ست وعشرين وقيل ثمان وعشرين سنة والراجح بأنّها كانت عذراء يوم تزوّجها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

لقد تحقّقت أمنيتها تلك وتمّ الزواج المبارك وعاشت مع محمّد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أسعد الأيّام وأجملها، وكان يزداد كلّ يوم شعورها بأنّ الله يعدّ هذا الرجل لأمر عظيم ومهمّة جسيمة.

رسول الله ﷺ ما بعد اقترانه بخديجة وزواجه المبارك منها تأمّن له استقرار في حياته وقد قدّمت نفسها وثروتها وما تملك في خدمة رسول الله ﷺ وعرفت بفضله، ومكانته، وقدره وقيمته فأعزّته ولم تتعامل فقط معه كزوج عادي ترتبط به ارتباطًا عاديًا. لا، عرفت أنّ له شأنًا عظيمًا ومنزلة كبيرة ومستقبلًا مهمًّا، فكان لها إسهام كبير، فقد أمّنت للرسول ﷺ فرصة لأن يكون له أوقات للعبادة وأوقات للخلوة وأوقات للتأمّل.

حتّى إذا بلغ الأربعين من العمر حين كان في غار حراء . كعادته . لعبادة الله على دين إبراهيم عليه السلام يتأمّل في خلق السموات والأرض، ويتألّم لحلول الجاهليّة محل الدين الحنيف - دين إبراهيم الخليل - جاءه الروح الأمين جبريل عليه السلام ملك الوحي إلى رسل الله عليهم السلام مبلّغًا له برسالةٍ من ربّ العالمين.

وهكذا، بعث الله نبيّه محمّدًا خاتم الأنبياء والمرسلين برسالته الخاتِمة، بالإسلام دينًا عظيمًا، هذا الدين القويم الذي هو إرث الأنبياء، وخلاصة رسالتهم، وكان **القرآن الكريم** يمثل الوثيقة الإلهيّة التي تضمّنت محتوى كتب الله السابقة، بعثه على حين فترة من الرسل في ظلّ جاهليّة جهلاء أطبقت ظلماتها على الأرض فعمّ في هذا الدنيا الجهل والظلم والشر والفساد والطغيان، وتنكّرت البشريّة لتعاليم الله التي أتت في السابق عن طريق أنبيائه ورسله وكتبه، وأصبح واقع البشريّة واقعًا سيّئًا جدًّا انحطّ الإنسان فيه عن إنسانيّته كثيرًا.

وعندما بعث الله محمّدًا بالرسالة الخاتمة لم تتفاجأ السيّدة خديجة (رضوان الله عليها) بذلك فقد كانت تدرك بأنّه ينتظر زوجها محمّدًا ﷺ مستقبل واعد، فلم تتردّد في الإيمان به والتصديق بدعوته فكانت سبّاقة إلى الإيمان بدعوته، بل كانت له السند والمعين وسخّرت كلّ تجارتها وممتلكاتها ونفوذها ومكانتها وحياتها كلّها في سبيل نشر هذه الرسالة الإلهيّة فكانت بحقّ من المقوّمات الأساسيّة في إقامة هذا الدين العظيم.

وعن عائشة أنَّها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا ذكر خديجة لم يسأم من الثناء عليها والاستغفار لها، فذكرها ذات يوم فحملتني الغيرة فقلت: وهل كانت إلّا عجوزًا قد أخلف الله لك خيرًا منها؟ قالت: فغضب حتّى اهتزّ مقدّم شعره وقال: «والله ما أخلف لي خيرًا منها، لقد آمنت بي إذ كفر الناس، وصدَّقتني إذ كذّبني الناس، وأنفقتني مالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله أولادها إذ حرمني أولاد النساء». قالت: فقلت في نفسي: والله لا أذكرها بسوء أبدًا».

ومن هذين الأبوين الكريمين خاتم الأنبياء محمّد صلى الله عليه وآله وسلم والسيّدة خديجة بنت خويلد وُلدت السيّدة فاطمة الزهراء البتول وكفى بهذا شرفًا ومجدًا وفضلًا وسموًّا.

كانت ولادة الزهراء عليها السلام في يوم الجمعة في العشرين من شهر جمادى الآخرة قبل البعثة النبويّة ببضع سنوات.

ثانيًا- الزهراء في رحاب أبيها محمّد ﷺ

نشأت الزهراء البتول عليها السلام في وقتٍ احتدم فيه الصراع بين أبيها رسول الله محمّد ﷺ من جهة، وبين طواغيت قريش من جهة أخرى إلّا أنّ هذا لم يشغل رسول الله ﷺ عن تربية وتأهيل ابنته التي بشّره الله بها قبل ولادتها، ولم تثنه مواجهة الشرك والطغيان عن إعطاء ابنته الاهتمام الكبير، وخصوصًا وقد عرف الدور المهمّ لابنته المباركة، وأنّه عن طريقها ومن خلالها سوف تستمرّ السُّنة الإلهيّة في الهداية إلى يوم القيامة.

وهكذا كان، وهكذا نشأت فاطمة الزهراء في أحضان الوحي والنبوّة في بيت مفعم بكلمات الله وآيات القرآن المجيد، وعاشت طفولتها تتربّى عند أبيها رسول الله ﷺ فمنذ طفولتها وهي تعيش في أحضان الرسالة تتربّى أحسن تربية وأعلى تربية وأعظم تربية كيف لا؟! ومن تولّى تربيتها وتعليمها وتنشئتها هو خاتم الأنبياء والمرسلين محمّد ﷺ.

عاشت فاطمة الزهراء عليها السلام مرحلة طفولتها وهي ترقب أباها وتتابع انطلاقته في تبليغ رسالة الله صابرًا محتسبًا، ثابتًا، مبلّغًا رسالة ربّه، صادعًا بالحقّ لا يبالي بأنّه وحيد في هذه الأرض فكانت تشاهد وتتابع ما يحدث ويجري باهتمام كبير وتتعلّم من ذلك أبلغ الدروس والعبر.

وبالرغم من المصاعب التي كان يواجهها رسول الله ﷺ في بداية الدعوة، وما لاقاه من تعنّت قريش وطغيانهم وأذاهم إلّا أنّ الرسول ﷺ

كان فرحًا بما تحقّقه الدعوة الجديدة من إنجازات متسارعة، والسيّدة خديجة تسخّر إمكاناتها في دعم وإسناد هذه التحرّك، وأبو طالب يعمل على حمايته من بطش قريش إلّا أنّ هذه الفرحة لم تستمرّ طويلًا فإنّ أبا طالب الذي تخشاه قريش يغادرهم إلى جوار ربّه راضيًا مرضيًّا وقد آمن به وأسلم ونصر رسول الله ﷺ ويعمّ الحزن كلّ أحياء مكّة وبيوتها.

ويقف رسول الله ﷺ بجوار الجسد الطاهر ويقول بصوت حزين: «كفلتني يتيمًا وربّيتني صغيرًا ونصرتني كبيرًا فجزاك الله عنّي خيرًا». ثمّ يغسله ويكفّنه وألم الفراق يملأ الأجواء ودفنه بيديه الطاهرتين.

وبينما الرسول ﷺ في الأيّام الأولى لفراق أبي طالب يرجع إلى زوجته التي تواسيه في كلّ محنة ولكنّها ترقد على فراش المرض وعيناها تواسي رسول الله في مصابه بعمّه وهي توشك أن تفارقه، فمن يواسيه في مصابه بها؟ فقد فاضت روح خديجة الطاهرة إلى بارئها راضية مرضيّة.

وممّا زاد من ألم رسول الله ﷺ سؤال وَجّهته فاطمة الزهراء إلى أبيها بعد دفن أمّها حيث قالت له: إلى أين ذهبت أمّي؟ فأجابها رسول الله ﷺ والحزن يملأ قلبه: «إلى مقرّها في الجنّة مع مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم».

فتطمئنّ فاطمة عليها السلام وترجع مع أبيها إلى المنزل لتكون القلب الحنون الذي يواسي أباها رسول الله ﷺ.

فاطمة (الفتاة) التي لم تشبع من حنان الأُمومة وعطف الوالدة بعد، فقد شاطرته المأساة ورُزئت هي الأُخرى، فشملتها المحنة في ذلك العامّ الحزين، وشعرت بغمامة الحزن واليتم تخيّم على حياتها الطاهرة.

ويحسّ الأبّ الحنون ﷺ بوطأة الحزن على نفس ابنته فاطمة عليها السلام ويرى دموع ألم الفراق تتسابق على خدّيها، فيرقُّ القلب الرحيم، وتفيض مشاعر الودّ والأبوّة الصادقة، فيحنو رسول الله ﷺ على فاطمة، يعوّضها من حبّه وحنانه ما فقدته في أُمّها من حبّ ورعاية وحنان.

لقد أحبّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فاطمة، وأحبّته، وحنا عليها، وحنّت عليه، فلم يكن أحد أحبّ إلى قلبه، ولا إنسان أقرب إلى نفسه من فاطمة، لقد أحبّها وكان يؤكّد - كلّما وجد ذلك ضروريًّا - هذه العلاقة بفاطمة، ويوضح مقامها ومكانتها في أُمّته، وهو يمهّد لأمر عظيم وقدر خطير يرتبط بفاطمة، وبالذريّة الطاهرة التي أعقبته فاطمة وبالأمّة الإسلاميّة كلِّها فها هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعرّف بفاطمة ويؤكّد للمسلمين: «فاطمة بضعة مني من أغضبها أغضبني» .

تكبر فاطمة عليها السلام وتشبّ ويشبّ معها حبّ أبيها لها ويزداد حنانه عليها وتبادله هي هذا الحبّ وتملأ قلبه بالعطف والرعاية فيسمّيها «أُمّ أبيها».

وفي هذه الفترة العصيبة، عاشت مع أبيها ما لاقاه من الصعوبات والمحن ومن الحصار والأذى فكانت ترعى أباها رغم صغر سنّها، وتعمل جاهدة على ملء الفراغ الذي تركته والدتها خديجة الكبرى بعد رحيلها إلى بارئها.

لقد شاركت أباها آلامه وآماله، وقد انطلق وحده ليقف في وجه الكفر العالمي وعبادة الأصنام والشرك، ويغالب المشاكل والمصاعب الخطيرة.

وقد حفظ لها النبي هذا الدور، والتقت عاطفته بحنانها، فكان إذا أراد السفر سلَّم على من أراد التسليم عليه من أهله، ثمّ يكون آخر من يسلِّم عليه فاطمة.. فيكون وجهه إلى سفره من بيتها، وإذا رجع بدأ بها.. لقد كانت تشعر أنّ أباها صلى الله عليه وآله وسلم يمثِّل كلّ شيء في حياتها كأبّ، وكنبيّ، فقد كانت تحسُّ أنّ عليها أن تبذل له كلّ شيء.

كانت ترقب انفعالات وجهه، وخلجات نظراته؛ لتفهم منه كلّ ما يريده وما لا يريده، دون أن يقول شيئًا أو ينهاها عن شيء، فتبادر لامتثال أوامره ونواهيه دون إبطاء أو تردُّد، مدفوعة إلى ذلك بعامل المحبَّة له والتقديس لشخصه كنبيّ.

وشاء الله سبحانه وتعالى أن تشهد فاطمة فترة صراع الدعوة في مكّة، وتشهد محنة أبيها ﷺ، فترى الأذى والاضطهاد يقع عليه وتشهد جوّ مكّة المعادي لبيت النبوّة، بيت الهدى والإيمان والفضيلة، وتشاهد أباها والصفوة المؤمنة من دعاة الإسلام والسابقين بالإيمان يخوضون ملحمة البطولة والجهاد، فيؤثّر هذا الجوّ الجهادي في نفسها، ويساهم في تكوين شخصيّتها، وإعدادها لحياة التحمّل والمعاناة.

لقد عايشت فاطمة كلّ ذلك وهي بعد لمّا تزل صبيّة صغيرة، لقد عايشت المحنة الأشدّ مع أبيها، بعد فقد أُمّها: المواسي والأنيس والحبيب الذي كان يخفّف عنها متاعب الحياة والآلام والاضطهاد، وبعد فقد أبي طالب حامي الدعوة والمدافع عن رسول الله الذي ما تجرّأت قريش في حياته أن تؤذيه ﷺ أو تنال منه شيئًا، إلّا كان لها بالمرصاد.

هذه الحماية التي عبّر عنها رسول الله ﷺ بعد فقده أبا طالب بقوله: «ما زالت قريش كاعين عني حتّى مات أبو طالب».

واستمرّ رسول الله محمّد ﷺ مبلّغًا لرسالة الله، عاملًا على هداية الناس وإنقاذهم وتحريرهم من العبوديّة لغير الله جلّ وعلا حتّى وصل الحال بعد ثلاث عشرة سنة في مكّة إلى أن يحصل تآمر كبير لهدف تصفيته والقضاء عليه بأيّ طريقة، وهنا جاء قرار من الله له بالهجرة إلى يثرب ﴿فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾[١].

واجه مشركو مكّة النبي ﷺ بالتكذيب والعداء وإثارة المجتمع ضدّه لكنّهم لم يفلحوا في القضاء على هذه الرسالة العظيمة. استمرّ ﷺ صابرًا محتسبًا ثابتًا، مبلّغًا رسالات ربّه، صادعًا بالحقّ لا يبالي بأنّه وحيد في هذه الأرض وبدأ مشواره وحيدًا وفيما بعد استجاب له فئة قليلة من الناس، لم يوحشه ذلك، توكّل على الله وصدع بأمره وصبر وصابر واستمرّ في تذكير عباد

(١) سورة **الأنعام**، الآية ٨٩.

الله برحمة كبيرة إلى حدّ أنّه من شدّة الحرص على هداية الناس ويرى الخطر الكبير عليهم في عدم الاستجابة لله والخسارة الكبيرة عليهم تأخذه الحسرة الكبيرة على الناس والألم الشديد إلى حدّ أن يقول الله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾[1] تكاد تقتل نفسك من الهمّ والحزن والأسف على هؤلاء كيف لا يهتدون؟ كيف يعرضون عمّا هو خير لهم، وعزّة وشرف، وعمّا فيه فلاحهم ومستقبلهم في الدنيا والآخرة؟.

استمرّت هذه الحالة من الصراع بشكل إعلامي، واستغلّ أولئك المتنفّذون والطغاة والجبابرة نفوذهم لدى الناس لصدّ الناس عن سبيل الله وعن الاستجابة. فكانت الاستجابة في داخل مكّة فئة قليلة من المستضعفين أسلموا وانطلقوا مع الله وفي سبيل الله، وكانت قضيّة الإسلام تعني تجنّدًا، كانت مسألة أن تنظّم، أن تسلم معناه: أنّك صرت جنديًّا لخدمة هذه الرسالة العظيمة الإسلام ولإقامة هذا الدين.

تحرّك أولئك المؤمنون، هم قليلون لكنّهم صابرون وثابتون رغم كلّ المعاناة الشديدة من القهر، والظلم لهم، والمحاولة الدائمة لصدّهم وإبعادهم عن الحقّ.

واستمرّت قريش في تعنّتها، وازدادت طغيانًا وتآمرًا حتّى وصلت إلى حدّ التفكير في تصفية الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وهنا جاء من الله الأمر له بالهجرة إلى يثرب المدينة المنوّرة.

وامتثالًا لأمر الله سبحانه وتعالى بالهجرة، فقد هاجر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في السنة الثالثة عشرة للبعثة من مكّة إلى يثرب (المدينة)، وأوصى علي بن أبي طالب عليه السلام أن يبيت على فراشه ليلة الهجرة ليوهم المشركين ويشغلهم، وأوصاه صلى الله عليه وآله وسلم بعدة وصايا، منها: ردّ الأمانات التي كانت مودعة لديه إلى

---

(١) سورة **الكهف**، الآية ٦.

أهلها، وتسديد الديون التي كانت عليه، ثمّ التوجّه إليه مع عائلته من الفواطم وغيرهنّ.

ولمّا وصل ﷺ منطقة (قباء)- وهي على أميال من يثرب - استقرّ فيها منتظرًا لأمير المؤمنين علي عليه السلام ومعه الفواطم.

قام أمير المؤمنين عليه السلام من ساعته واشترى الرواحل اللازمة، وأعدّ متطلّبات السفر والهجرة من مكّة، وأمر من كان معه من ضعفاء المؤمنين أن يتسلّلوا ويتخفّوا إذا ملأ الليل بطن كلّ وادٍ إلى (ذي طوى). فلمّا أدّى الأمانات قام على الكعبة فنادى بصوت رفيع: يا أيّها الناس! هل من صاحب أمانة؟ هل من صاحب وصيّة؟ هل من عدّة له قِبَل رسول الله؟ وحين لم يأتِ أحد لحق بالنبي ﷺ[١].

خرج علي عليه السلام بالفواطم في وضح النهار؛ وهنّ: فاطمة الزهراء عليها السلام وفاطمة بنت أسد الهاشميّة (أُمّه)، وفاطمة بنت الزبير بن عبد المطلب، وفاطمة بنت حمزة بن عبد المطلب.

وسار، فلمّا شارف (ضجنان) أدركه الطلب سبعة فوارس من شجعان قريش متلثّمين وثامنهم مولى الحارث بن أُميّة يدعى جناحًا، وكان شجاعًا مقدامًا، فأقبل الإمام علي عليه السلام على أيمن، وأبي واقد وقد تراءى القوم فقال لهما: «أنيخا الإبل واعقلاها»، وتقدّم حتّى أنزل النسوة، ودنا القوم فاستقبلهم علي عليه السلام منتضيًا سيفه.

فأقبلوا عليه وقالوا: ظننت أنَّك ناج بالنسوة، ارجعْ لا أبا لك قال: «فإن لم أفعل؟» قالوا: لترجعنّ راغمًا، أو لنرجعنّ بأكثرك شعرًا - أي رأسك - ودنا الفوارس من النسوة والمطايا ليثوروها.

---

(١) اللآلئ المضيئة.

فحال علي عليه السلام بينهم وبينها، فأهوى له جناح بسيفه فراغ علي عليه السلام عن ضربته، ثمّ ضربه علي عليه السلام على عاتقه ضربة قاضية، ثمّ شدّ عليهم بسيفه فتصدّع القوم عنه، وقالوا له: اغن عنّا نفسك يا ابن أبي طالب.

قال: «فإنّي منطلق إلى ابن عمّي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فمن سرّه أن أفري لحمه وأُهريق دمه فليتبعني» فرجعوا مخذولين منكسرين.

ثمّ أقبل على صاحبيه أيمن وأبي واقد فقال لهما: «اطلقا مطاياكما»، ثمّ سار بالركب ظافرًا قاهرًا حتّى نزل «ضحنان»، فتلوم بها - أي لبث فيها - قدر يومه وليلته ولحق به نفر من المستضعفين من المؤمنين، وكانوا يصلّون ليلتهم ويذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم، فلم يزالوا كذلك حتّى طلع الفجر فصلّى الإمام علي عليه السلام بهم صلاة الفجر، ثمّ سار لوجهه حتّى قدموا (قباء) القريبة من المدينة، والتحقوا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حيث كان ينتظرهم بها[١].

ومكث النبي صلى الله عليه وآله وسلم خمسة عشر يومًا بـ(قباء) في انتظار قدوم الوفد، وفي تلك الفترة أسّس مسجد (قباء)، ونزلت فيه آيات بيّنات قال تعالى: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ﴾[٢] كما أنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم حثّ على الصلاة فيه وإحيائه، وذكَر الأجر الكبير لمن صلَّى فيه. وبعد استراحة الركب سار صلى الله عليه وآله وسلم بمن معه من أصحابه وأهله متوجّهًا إلى يثرب، واستقبلته الجماهير المسلمة بالأشعار والأهازيج وشعارات الترحيب، واستقبله سادات يثرب وزعماء الأوس والخزوج مرحّبين بقدومه باذلين كلّ ما وسعهم من إمكانات ماليّة وعسكريّة، وكان عندما يمرّ على حيّ من أحيائهم يتقدّم الأشراف ليأخذوا بخطام الناقة رجاء أن ينزل في حيّهم حيث الضيافة والمنعة، فكان صلى الله عليه وآله وسلم يدعو لهم بالخير ويقول: «دعوا الناقة تسير فإنَّها مأمورة». ثمّ بركت في رحبة في الأرض بجوار دار أبي أيوب الأنصاري،

---

(١) اللآلئ المضيئة.

(٢) سورة **البقرة**، الآية ١٤٤.

فنزل ﷺ ونزلت السيِّدة الطاهرة فاطمة الزهراء عليها السلام مع الفواطم ودخلن على أمّ خالد[١].

وبقيت السيِّدة فاطمة عليها السلام مع أبيها ﷺ زهاء سبعة أشهر حتّى تمَّ بناء المسجد، ودار رسول الله ﷺ، وبيته المتواضع المؤلّف من عدّة حجرات بعضها بالأحجار، والبعض الآخر من جريد النخل، أمَّا ارتفاع الحجرات فقد وصفه الإمام الحسن عليه السلام سبط رسول الله ﷺ فيما جاء عنه أنَّه قال: «كنت أدخل بيوت النبي ﷺ وأنا غلام مراهق فأنال السقف بيدي». أمَّا الأثاث الذي هيَّأه النبي لبيته الجديد فهو في منتهى البساطة والخشونة والتواضع، وأعدّ لنفسه فيه سريرًا مؤلّفًا من أخشاب مشدودة بالليف، واستقرّت الزهراء في دار هجرتها وفي بيت أبيها، ذلك البيت البسيط المتواضع في دار الإسلام، لتنعم بعنايته وحبّه ورعايته، تلك العناية والرعاية والحبّ الذي لم يحظَ بمثله امرأة ولا أحد من الناس سواها.

إلى هذا البيت المتواضع جاءت فاطمة بنت محمّد ﷺ مهاجرة من مكّة لترى أباها بين أنصاره في يثرب يفدونه بالأنفس ومعه المهاجرون، وقد اطمأنّ بهم المقام مع إخوانهم ممّن أسلم من الأوس والخزرج، وانصرفوا مع النبي ﷺ إلى الدعوة للإسلام والتخطيط لغدٍ أفضل.

تلك الصدّيقة الزهراء فاطمة بنت رسول الله محمّد ﷺ تلك الزكيّة المرضيّة التي بلغت ذروة الكمال الإنساني والإيماني للمرأة، وجسّدت في حياتها قيم وأخلاق الإسلام على أرقى مستوى فكانت نعم القدوة ونعم الأسوة للمرأة المؤمنة، وتجلّى بأخلاقها وقيمها وكمالها الإنساني عظيم أثر الإسلام وتربية أبيها المصطفى محمّد ﷺ، وكانت نعم الشاهدة على أنّ الله سبحانه وتعالى قد فتح للمرأة آفاق ومعارج الكمال الإنساني والإيماني، وشرَّفها وأعلى من شأنها بالقيم والأخلاق والمبادئ العظيمة.

---

(١) خالد: هو اسم أبي أيوب الأنصاري.

تربّت على الإيمان والتقوى ومكارم الأخلاق، وشربت معارف الإسلام فكانت تلميذة أبيها وخرّيجة مدرسته الأولى، وبذلك كانت سيّدة نساء العالمين، سيّدة نساء المؤمنين، سيّدة نساء أهل الجنّة، وهذه المواصفات وهذا المقام العظيم ليس مجرّد مقام تشريفي أو أوصاف تشريفيّة إنّما كان مقامًا وصلت إليه بجدارة، مقامًا قائمًا على أساس من الإيمان والتقوى، كانت سيّدة نساء العالمين، أي: نموذجًا متميّزًا عالميًّا للمرأة في كلّ الدنيا، بلغت الذروة في كمالها الإنساني أخلاقًا، قيمًا، مبادئ، ثمّ على مستوى واقع نساء المؤمنين كانت في مقام القدوة الأولى كامرأةٍ مؤمنة بكمالها الإيماني، ثمّ بالتالي سيّدة نساء أهل الجنّة.

هذا المقام العظيم، المقام الإيماني والقيمي والأخلاقي والإنساني الذي وصلت إليه في عالم الدنيا كان بمؤهلاتٍ إيمانيّة، وعلى أسسٍ إيمانيّة وأخلاقيّة لم يكن مقامًا زائفًا؛ ولذلك لم يكن فقط في عالم الدنيا بل كان أيضًا في عالم الآخرة فكانت سيّدة نساء المؤمنين في الدنيا وهي أيضًا سيّدة نساء أهل الجنّة، وهي أيضًا في عداد النساء الأربع اللواتي بلغن ذروة وعلوّ المقام الإنساني للمرأة، كانت أيضًا هي المتقدّمة فيهنّ وهنّ (مريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وآسية بنت مزاحم، وفاطمة بنت محمّد)، ونلحظ من خلال هؤلاء الأربع اللواتي بلغن مرتبةً إيمانيّةً عالية، ومقامًا عظيمًا عند الله سبحانه وتعالى.

ولمعرفة مقام الزهراء عليها السلام ومكانتها، تحدّث أبوها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن مقامها ومكانتها كثيرًا، ليس هذا فحسب بل من خلال طريقة النبي في التعامل معها، كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم في تعامله معها يدلّل ويُشعِر ويكشِف مقامها عند الله سبحانه وتعالى، وفي السِيَر والتواريخ يتحدّث الكثير عن طريقة النبي في التعامل معها والإكرام لها حتّى لقد كان فيما روي عنه: إذا أتت إليه إلى المنزل بعدما تزوّجت وانتقلت إلى بيت الزوجيّة - عند زوجها الإمام علي عليه السلام - كانت إذا زارت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقوم لها من مجلسه ويجلسها بكلّ إكبار واحترام وتقدير.

وكان إذا غاب من المدينة في أيّ سفر، في أيّ رحلةٍ جهاديّة، تكون آخر عهده فيودعها في الأخير، وعندما يقدِم إلى المدينة فهي أوّل من يذهب إليها، وكذلك في تعامله، في توجيهاته، فيما قاله عنها، ثمّ هي فيما كانت عليه في مسار حياتها تدلّ على عظيم المقام الإيماني الذي وصلت إليه.

أيضًا بما أعطاها الله من مؤهّلات وقابليّة عالية، فكان كلّ جهد يبذله الرسول ﷺ في تربيتها يترك أثرًا عظيمًا ومتميّزًا فيها، وكانت ثماره طيّبة ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾(١)، وكانت حياتها متميّزة في طفولتها مع أبيها إلى مرحلة الزواج. لم تنفصل فيها، ولم تبتعد عن أبيها كانت قريبة، تعايشه في كثيرٍ من الأوقات، تسمع منه، وتتعلّم منه. كان هو أيضًا مهتمًّا بأمرها، وكثيرًا ما كان يذهب إلى منزلها، وتأتي إليه كثيرًا تتعلّم، تستفيد، تنتفع، تزداد ارتقاءً على مستوى المعرفة، وعلى مستوى الأخلاق، وعلى مستوى الارتقاء في سلّم الكمال الإيماني حتّى وصلت إلى درجة عالية.

ولا بُدَّ من الإشارة إلى أنَّ العلاقة بين فاطمة عليها السلام ورسول الله ﷺ كانت أكثر من علاقة ابنةٍ بأب، فقد نقل لنا تاريخ سيرتها أنّها كانت إذا دخلت على رسول الله ﷺ قام من مجلسه واستقبلها وقبَّل يدها، وكان رسول الله ﷺ إذا دخل عليها استقبلته وقبّلت يده. وهذا النوع من العلاقة قد لا يكون مألوفًا بين الأبّ وابنته؛ ولذا فنحن نستوحي من ذلك أنَّ رسول الله ﷺ في الوقت الّذي كان يعيش حبَّه للزَّهراء عليها السلام، كان يحمل احترامه لها، لما يعرفه من ملكاتها الرُّوحيَّة، ومن ثروتها الثقافيَّة، ومن إخلاصها لله وللإسلام والمسلمين ودورها المستقبلي.

ونعرف حركيّة هذه العلاقة في روح الزهراء عليها السلام وذلك عندما احتضر النبي ﷺ فقد ضمَّها إلى صدره، فبكت عندما أخبرها أنَّه سوف يُفارق الحياة قريبًا، ثُمَّ ضمَّها إلى صدره فضحكت، لأنَّه أخبرها أنَّها أوَّل أهل بيته لحوقًا به. فتصوَّروا امرأةً: أمًّا كانت أو زوجةً، يُخبرها أبوها بأنَّها ستموت في

(١) سورة **الأعراف**، الآية ٥٨.

وقتٍ قريب وتلحق به، فإذا هي تشعر بالفرح والسرور، فأيّ علاقة هي هذه العلاقة بين الأبّ وابنته؟!

روى الحاكم في **المستدرك**، قال: «كان رسول الله إذا رجع من غزاة أو سفر أتى المسجد فصلى فيه ركعتين شكرًا لله على أنَّه أرجعه من سفره، ثمّ ثنى بفاطمة ثمّ يأتي أزواجه»(١)، ما يعني أنّ فاطمة تقف في المركز الأوّل في علاقته بالناس، حتَّى في علاقته بزوجاته.

فهي آخر من يلتقيه لتبقى صورة فاطمة وحنان فاطمة وعاطفة فاطمة الّتي تفيضها عليه، معه في سفره يعيش فيه ويرتاح له، «وإذا قدِمَ من سفرٍ كان أوَّل الناس عهدًا به فاطمة»؛ لأنّه كان يعيش الشوق إليها كما لم يعش الشوق إلى أيّ إنسان آخر، ولذلك كان يعبِّر عن حرارة هذا الشوق باللِّقاء بها، أوَّل من يلتقيه من الناس.

وفي حديث آخر، سُئِلت عائشة: أيُّ الناس كان أحبَّ إلى رسول الله؟! قالت: فاطمة، يقول الراوي: قلت: من الرجال؟ قالت: زوجها، إنه كان ما علمته صوَّامًا قوَّامًا(٢).

---

(١) الحاكم النيسابوري، **المستدرك** (بيروت: دار المعرفة، لا تاريخ)، الجزء ٣، الصفحة ١٥٥.

(٢) المصدر نفسه، الصفحة ١٥٧.

ثالثًا- فاطمة عليها السلام في بيت علي عليه السلام

فاقت فاطمة الزهراء عليها السلام نساء عصرها في الحسب والنسب فهي بنت محمّد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وخديجة (رضي الله عنها)، وسليلة الفضل والعلم والسجايا الخيّرة، وغاية الجمال الخَلقي والخُلقي، ونهاية الكمال المعنوي والإنساني، علا شأوها وتألّق نجمها، وكانت تكبر يومًا بعد يوم تحت ظلال النبي صلى الله عليه وآله وسلم حتّى أدركت سلام الله عليها مدرك النساء؛ تقدّم الكثير لخطبتها عليها السلام إلّا أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يردّهم قائلًا: «أمرها إلى الله»[1].

كان الإمام علي عليه السلام يفكّر في خطبة الزهراء عليها السلام إلّا أنّ الحياء وقلّة ذات اليد كانا يمنعانه، وذات يوم وما إن أكمل الإمام عليه السلام عمله حتّى توجّه نحو منزل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكان في بيت السيّدة أمّ سلمة، فدقّ علي عليه السلام الباب، فقالت أُمُّ سلمة: من بالباب؟ فقال لها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «قومي يا أُمَّ سلمة فافتحي له الباب ومريه بالدخول، فهذا رجل يحبّه الله ورسوله ويحبّهما». فقالت أُمُّ سلمة: فداك أبي وأُمي، من هذا الذي تذكر فيه هذا وأنت لم تره؟ فقال: «مه يا أُمَّ سلمة، فهذا رجل ليس بالخرق ولا بالنزق، هذا أخي وابن عمي وأحبّ الخلق إليّ». قالت أُمُّ سلمة: فقمت مبادرة أكاد أعثر بمرطي، ففتحت الباب فإذا أنا بعلي بن أبي طالب عليه السلام فدخل على رسول

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٤٣، الصفحة ١٢٤.

الله ﷺ فقال: «السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته»، فقال له النبي ﷺ: «وعليك السلام يا علي، اجلس».

فجلس علي عليه السلام بين يدي رسول الله ﷺ وجعل ينظر إلى الأرض كأنّه قصد لحاجة وهو يستحيي أن يبيّنها حياءً من رسول الله ﷺ، فكأنّ النبي ﷺ علم ما في نفس علي عليه السلام فقال له: «يا علي، إنّي أرى أنَّك أتيت لحاجة، فقل حاجتك وأبـدِ ما في نفسك، فكلّ حاجة لك عندي مقضيّة». قال علي عليه السلام: «فداك أبي وأُمّي إنَّك أخذتني عن عمّك أبي طالب ومن فاطمة بنت أسد وأنا صبي، فغذّيتني بغذائك، وأدَّبتني بأدبك، فكنت لي أفضل من أبي طالب ومن فاطمة بنت أسد في البرّ والشفقة، وإنّ الله تعالى هداني بك وعلى يديك، وإنّك والله ذخري وذخيرتي في الدنيا والآخرة يا رسول الله فقد أحببت مع ما شدّ الله من عضدي بك أن يكون لي بيت وأن تكون لي زوجة أسكن إليها، وقد أتيتك خاطبًا راغبًا، أخطب إليك ابنتك فاطمة، فهل أنت مزوّجي يا رسول الله؟». فتهلّل وجه رسول الله ﷺ فرحًا وسرورًا، وأتى فاطمة فقال: «إنّ عليًّا قد ذكرك وهو من قد عرفت» فسكتت عليها السلام، فقال ﷺ: «الله أكبر، سكوتها رضاها».

قالت أُمُّ سلمة: فرأيت وجه رسول الله ﷺ يتهلّل فرحًا وسرورًا، ثمّ تبسَّم في وجه علي عليه السلام فقال: «يا عليّ فهل معك شيء أزوِّجك به؟» فقال علي عليه السلام: «فداك أبي وأمّي، والله ما يخفى عليك من أمري شيء، أملك سيفي ودرعي وناضحي، وما أملك شيئًا غير هذا». فقال رسول الله ﷺ: «يا علي أمّا سيفك فلا غنى بك عنه، تجاهد في سبيل الله، وتقاتل به أعداء الله، وناضحك تنضح به على نخلك وأهلك، وتحمل عليه رحلك في سفرك، ولكنّي قد زوّجتك بالدرع ورضيت بها منك»[١].

قال السيّد أبو طالب الهاروني وزوّج الرسول عليًّا فاطمة بأمر الله سبحانه في آخر صفر سنة اثنتين من الهجرة.

---

(١) انظر: الطبري، **ذخائر العقبى** (القاهرة، ١٣٥٦هـ)، الصفحات ٣١-٣٩.

ولمّا زوج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ابنته فاطمة عليها السلام قال لها: «زوّجتك سيّدًا في الدنيا والآخرة، وإنَّه أوّل أصحابي إسلامًا وأكثرهم علمًا وأعظمهم حلمًا»[١].

انتقلت السيِّدة فاطمة الزهراء عليها السلام إلى البيت الزوجي وكان انتقالها من بيت الرسالة والنبوّة إلى دار الوصاية والولاية، فهي تعيش في جوّ تكتنفه القداسة والنزاهة، وتحيط به عظمة الإيمان وبساطة العيش، وكانت تعين زوجها على أمر دينه وآخرته.

كان علي عليه السلام يحترم السيِّدة فاطمة الزهراء احترامًا لائقًا بها، لا لأنَّها زوجته فقط، بل لأنَّها أحبّ الخلق إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولأنَّها سيّدة نساء العالمين، ولأنّ نورها من نور رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولأنَّها مجموعة الفضائل والقيم.

وبنى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لابنته فاطمة بيتًا ملاصقًا لمسجده، له باب إلى المسجد كبقيّة الحجرات التي بناها لزوجاته، وانتقلت السيِّدة فاطمة إلى ذلك البيت الجديد الملاصق لبيت الله، والمجاور لبيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليترك هذا الغرس النبوي دون أن يرعاه ويحتضنه بتوجيهه وعنايته، فعاش الزوجان في ظلّ رسول صلى الله عليه وآله وسلم وفي كنفه ومنح صلى الله عليه وآله وسلم فاطمة بعد زواجها ما لم يمنحه لأحد من الحبّ والنصيحة والتوصية، فقد علّمها أبوها صلى الله عليه وآله وسلم معنى الحياة، وأوحى لها بأنّ الإيمان هو جوهر الإنسانيّة والحياة، وأنَّ السعادة الزوجيّة القائمة على الخلق والقيم الإسلاميّة هي أسمى من المال والقصور والزخارف وقطع الأثاث وتحف الفنّ المزخرفة. وتعيش فاطمة الزهراء في كنف زوجها قريرة العين سعيدة النفس، لا تفارقها البساطة، ولا يبرح بيتها خشونة الحياة، فهي الزوجة المؤمنة، زوجة علي عليه السلام بطل المسلمين، ووزير الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ومشاوره الأوّل، وحامل لواء النصر والجهاد، وعليها أن تكون بمستوى المسؤوليّة الخطيرة، وأن تكون لعلي كما كانت أُمّها خديجة لرسول

(١) ابن عبد البرّ، **الاستيعاب**، تحقيق علي محمّد البجاوي (بيروت: دار الجيل، الطبعة ١، ١٤١٢هـ)، الجزء ٣، الصفحة ١٠٩٩.

الله ﷺ تشاركه في جهاده وتصبر على قساوة الحياة ورسالة الدعوة الصعبة. لقد كانت حقًّا بمستوى مهمّتها التي اختارها الله تعالى لها، فكانت القدوة الصالحة للمسلم الرسالي والمرأة النموذجيّة المسلمة.

وكان ثمرة زواجهما الإمام الحسن عليه السلام الذي ولد بالمدينة في النصف من شهر رمضان السنة الثالثة للهجرة، والإمام الحسين عليه السلام الذي ولد في شهر شعبان لخمس خلون منه سنة أربع من الهجرة، ذكر ذلك الإمام يحيى بن الحسين بن هارون في كتاب **الإفادة**.

وروي أنّ فاطمة لما ولدت الحسن قالت لعلي: سمّه؛ فقال: ما كنت لأسبق رسول الله باسمه، فجاء رسول الله فقال: «ما كنت لأسبق ربّي جلّ وعلا، فأوحى الله إلى جبريل: أنّه ولد لمحمّد ابنٌ فأقرئه السلام وهنِّه، وقل له: إنّ عليًّا منك بمنزلة هارون من موسى، فسمّه باسم ابن هارون، فهبط جبريل فهنّأه، ثمّ قال: إنّ الله يأمرك أن تسمّيه باسم ابن هارون، فقال: وما كان اسمه؟ قال: شبَّر، قال: لساني عربي؛ قال: فسمّه الحسن»، فلمّا ولد الحسين أوحى الله إلى جبريل «قد ولد لمحمّد ابن فهنه، وقل له: عليّ منك بمنزلة هارون من موسى، فسمّه باسم ابن هارون، فلمّا نزل وهنّأه وبلّغه الرسالة، قال: وما كان اسم ابن هارون؟ قال: شبير، قال: لساني عربي، قال: سمّه الحسين»[1].

وعن جابر: أنّ النبي جاع ذات يوم، فطاف في منازل جميع أزواجه فلم يصب عند واحدة منهنّ شيئًا. فأتى فاطمة فقال: «يا بنيّة، هل عندك شيء آكله فإنّي جائع؟» فقالت: لا.

فلمّا خرج بعثت جارية لها برغيفين وبضعة من لحم، فأخذتها منها ووضعتها على جفنة لها وغطّتها، وقالت: والله لأُوثِرَنَّ بهذا رسول الله على نفسي ومن عندي، وكانوا جميعًا محتاجين إلى شبعة من طعام، فبعثت حسينًا وحسنًا إلى النبي فرجع إليها، فقالت: بأبي أنت وأمّي قد أتانا الله بشيء فخبّأته لك.

---

(١) الشيخ الصدوق، **عيون أخبار الرضا** عليه السلام، تصحيح وتعليق الشيخ حسين الأعلمي (بيروت: مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م)، الجزء ١، الصفحة ٢٩.

فقال: «هلمّي يا بنيّة» فكشفت عن الجفنة، فإذا هي مملوءة خبزًا ولحمًا، فقدّمته إلى النبي.

فقال: «من أين لك هذا؟» فقلت: يا أبتي ﴿هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[١].

فقال: «الحمد لله الذي جعلك يا بنيّة، شبه سيّدة نساء بني إسرائيل، فإنّها كانت إذا رزقها الله شيئًا فسُئِلَت عنه، قالت: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾». فبعث إلى علي، ثمّ أكل النبي وعلي والحسن والحسين، وجميع أزواج النبي وأهل بيته حتّى شبعوا، وجعل الله فيها بركة وخيرًا كثيرًا[٢].

وهكذا عاشت الزهراء عليها السلام حياتها كأيَّة زوجة تخلص في كلِّ مسؤوليّاتها الزوجيَّة، لم تميِّز نفسها عن أيَّة زوجة مسلمة مع زوجها من خلال أنّها ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، كانت مسلمة كأفضل ما تكون المسلمات في مسؤوليّاتها الزوجيّة، كانت تطحن وتعجن وتخبز، وكانت تربِّي أولادها، وكان أولادها يتتابعون وهي ما هي عليه من الضعف منذ بداية حياتها كما ينقل الّذين كتبوا سيرتها. وكانت هناك نقطة مهمَّة في هذا البيت الّذي ضمَّ عليًّا وفاطمة، وهي أنّ الزهراء عليها السلام أعطت عليًّا من روحها، ومن استقامتها، ومن عبادتها، ومن وعيها، أعطته الجوّ الإسلامي للبيت، بحيث كان عليٌّ يدخل البيت ويرى الإسلام يحيط به من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله؛ لأنّ الزهراء عليها السلام كانت تملأ البيت بذلك كلِّه، فكان عليٌّ يتنفَّس الإسلام في المسجد مع رسول الله، وكان يتنفّس الإسلام في البيت مع ابنة رسول الله، وكان عليٌّ أيضًا الزوج المسلم الّذي كان مع الحقّ وكان الحقّ معه، كان يُعطي فاطمة عليها السلام من عقله، ومن روحه، ومن استقامته، ومن عبادته، ومن زهده هذا الجوّ الإسلامي، فكانت تتنفّس الإسلام في بيتها من خلال عليٍّ،

---

(١) سورة **آل عمران**، الآية ٣٧.

(٢) ابن كثير، **تفسير ابن كثير** (بيروت: دار المعرفة، ١٩٩٢)، الجزء ١، الصفحة ٣٦٨.

وكانت ابتهالاتهما لله، وعبادتهما له، وسجودهما بين يديه، وتنهُّداتهما في المحبّة لله والخوف منه، تمتزج ببعضها البعض.

وكانت الزهراء خير من يؤثر على نفسه اقتداءً بأبيها حتّى عُرف عنها إيثارها بقميص عرسها ليلة زفافها سلام الله عليها، وروي عن جابر بن عبد الله الأنصاري أنّه قال: صلّى بنا رسول الله ﷺ صلاة العصر، فلمّا انفتل جلس في قبلته والناس حوله، فبينا هم كذلك إذ أقبل شيخ من مهاجرة العرب عليه سمل[1] قد تهلّل وأخلق، ولا يكاد يتمالك كبرًا وضعفًا، فأقبل عليه رسول الله ﷺ يستحثّه الخبر، فقال الشيخ: يا نبي الله، أنا جائع الكبد فأطعمني، وعاري الجسد فاكسني، وفقير فأرشني، فقال ﷺ: «ما أجد لك شيئًا، ولكنّ الدال على الخير كفاعله، انطلق إلى منزل من يحبّ الله ورسوله، ويحبّه الله ورسوله، يؤثر الله على نفسه، انطلق إلى حجرة فاطمة». (وكان بيتها ملاصقًا لبيت رسول الله ﷺ الذي ينفرد به لنفسه من أزواجه) وقال: «يا بلال قم فقف به على منزل فاطمة».

فانطلق الأعرابي مع بلال، فلمّا وقف على باب فاطمة؛ نادى بأعلى صوته: السلام عليكم يا أهل بيت النبوّة، ومختلف الملائكة، ومهبط جبرئيل الروح الأمين بالتنزيل من عند ربّ العالمين، فقالت فاطمة: «عليك السلام، فمن أنت يا هذا؟» قال: شيخ من العرب أقبلت على أبيك السيّد البشير من شقّة، وأنا يا بنت محمّد ﷺ عاري الجسد جائع الكبد فواسيني يرحمكِ الله.

فعمدت فاطمة إلى جلد كبش مدبوغ بالقرظ كان ينام عليه الحسن والحسين، فقالت: «خذ أيّها الطارق، فعسى الله أن يختار لك ما هو خير فيه»، قال الأعرابي: يا بنت محمّد، شكوت إليك الجوع فناولتني جلد كبش ما أصنع به مع ما أجد من السغب؟ قال: فعمدت لمّا سمعت هذا من قوله إلى عقد كان في عنقها أهدته لها فاطمة بنت عمّها حمزة بن عبد المطلب، فقطعته من عنقها ونبذته إلى الأعرابي وقالت: «خذ وبعه، فعسى الله أن

(١) السمل: الثوب الخلق، وتهلّل الثوب: انخراقه.

يعوّضك به ما هو خير منه». فأخذ الأعرابي العقد وانطلق إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والنبي جالس في أصحابه فقال: يا رسول الله، أعطتني فاطمة هذا العقد، فقالت: «بعه». فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «كيف لا يعوّضك به ما هو خير منه؟! وقد أعطتك فاطمة بنت محمّد سيّدة بنات آدم». فقال عمّار بن ياسر (رضي الله عنه) فقال: يا رسول الله، أتأذن لي بشراء هذا العقد؟ قال: «اشتره يا عمّار»، فقال عمار: بكم العقد يا أعرابي؟ قال: بشبعة من الخبز واللحم، وبردة يمانيّة أستر بها عورتي وأُصلي بها لربّي، ودينار يبلّغني أهلي ...

وكان عمّار قد باع سهمه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من خيبر ولم يبقَ معه شيء، فقال: لك عشرون دينارًا ومئتا درهم هجريّة وبردة يمانيّة وراحلتي تبلّغك أهلك، وشبعة من خبز البرّ واللحم .

فقال الأعرابي: ما أسخاك بالمال يا رجل! وانطلق به عمّار فوفّاه فأضمن له، وعاد الأعرابي إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أشبعت واكتسيت؟» قال الأعرابي: نعم، واستغنيت بأبي أنت وأمّي.

قال: «فأجزِ فاطمة بصنيعها» فقال الأعرابي: اللهم إنّك إله ما استحدثناك، ولا إله لنا نعبده سواك، وأنت رازقنا على كلّ الجهات، اللهم أعط فاطمة ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت. فأقبل النبي على أصحابه، فقال: «إنّ الله قد أعطى فاطمة في الدنيا ذلك، أنا أبوها ولا أحد من العالمين مثلي، وعليٌ بعلها؛ ولولا علي لما كان لفاطمة كفؤ أبدًا، وأعطاها الحسن والحسين وما للعالمين مثلهما سيّدا شباب أهل الجنّة».

فعمد عمار إلى العقد فطيّبه بالمسك، ولفّه في بردة يمانيّة، وكان له عبد اسمه (سهم) ابتاعه من ذلك السهم الذي أصابه بخيبر، فدفع العقد إلى المملوك وقال له: خذ هذا العقد وادفعه لرسول الله وأنت له، فأخذ المملوك العقد فأتى به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأخبره بقول عمّار، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «انطلق إلى فاطمة فادفع إليها العقد وأنت لها»، فجاء المملوك بالعقد وأخبرها بقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فأخذت فاطمة عليها السلام العقد وأعتقت المملوك فضحك الغلام، فقالت: «ما يضحكك يا غلام؟»، قال: أضحكني عظم بركة هذه العقد، أشبع جائعًا وكسى عريانًا وأغنى فقيرًا وأعتق عبدًا ورجع إلى صاحبه[١].

وأعظم من هذا ما خلّده القرآن الكريم في قصّة الإطعام لها ولأهل بيتها في سورة **الإنسان** في قوله تعالى: ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ قدّم فيها صورة من صور الرحمة لأهل بيت النبوّة، فقد ذكر لنا **القرآن الكريم** وسجل موقفًا يدلّل على مدى رحمة أهل البيت عليهم السلام وإيثارهم وعطفهم وحنانهم المتميّز سجّله في سورة **الإنسان** في موقفٍ مشهورٍ معروف لهم، تلك الأسرة النبويّة الكريمة العظيمة فيما تحمله من قِيَم في صيامهم ومع غروب الشمس ودخول الليل وحان وقت الإفطار وأتى وقت العشاء بجوعهم ولديهم القليل من الطعام، في وضعٍ اقتصاديٍ صعب عاشوه في تلك المرحلة يأتي إليهم ذوو الحاجة من الناس، المسكين واليتيم والأسير فكان الموقف الذي سجّله لهم القرآن الكريم: ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ٨ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا عَبُوسًا قَمۡطَرِيرًا ١٠ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةً وَسُرُورًا ١١ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾[٢].

بكلّ رحمة، بكلّ عاطفة، بكلّ محبّة، ومن واقعٍ إيمانيٍ قائمٍ على الخوف من الله وعلى ابتغاء مرضاته وعلى السعي للحصول على رحمته يقدّمون طعامهم وهم في أشدّ الحاجة إليه، ويصبرون على جوعهم، ويؤثرون أولئك ذوي الحاجة والفقر والشدّة، المسكين واليتيم والأسير على أنفسهم، هكذا يبرزون ويقدّمون قِيَم الإسلام بأرقى صورة، وبإخلاص خلّده القرآن الكريم ليكون درسًا بليغًا لكلّ الأجيال على مر الزمان.

---

(١) من كتاب **فاطمة الزهراء البتول** للدكتور أحمد مطهر الشامي.

(٢) سورة **الإنسان**، الآيات ٨ - ١٢.

بعض ما ورد في أهل البيت عليهم السلام من آيات **القرآن الكريم** وفي مقدّمتهم الزهراء عليها السلام

١- آية التطهير قول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾[١] فقد جمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليًّا وفاطمة والحسن والحسين تحت ثوب وقال: اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصّتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرًا[٢].

٢- آية المودّة قول الله سبحانه وتعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ [٣] لما نزلت هذه الآية قالوا: يا رسول الله من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودّتهم؟ قال: علي وفاطمة وأبناؤهما[٤].

٣- آية المباهلة قول الله سبحانه وتعالى: ﴿فَمَنۡ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمۡ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمۡ ثُمَّ نَبۡتَهِلۡ فَنَجۡعَل لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾[٥].

أجمع المفسّرون على أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم عندما أراد مباهلة نصارى نجران دعا عليًّا وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام للمباهلة، وذكروا بأنّ المراد بنسائنا: فاطمة، وأبنائنا: الحسن والحسين، وأنفسنا: الإمام علي عليه السلام[٦].

---

(١) سورة **الأحزاب**، الآية ٣٣.

(٢) السيّد المرعشي، **شرح إحقاق الحقّ** (قم: منشورات مكتبة السيّد المرعشي النجفي، الطبعة ٢، ١٤١٧هـ)، الجزء ٢٢، الصفحة ١٧.

(٣) سورة **الشورى**، الآية ٢٣.

(٤) **شرح إحقاق الحقّ**، مصدر سابق، الصفحة ٩٧.

(٥) سورة **آل عمران**، الآية ٦١.

(٦) من أولئك الزمخشري، **تفسير الكشّاف**، سورة **آل عمران**، الآية ٦١. وكذا جاء في **تفسير الثعالبي** عن مجاهد والكلبي: ويُطلق لفظ أصحاب الكساء على الّذين اجتمعوا مع النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم تحت كسائه ونزلت فيهم آية التطهير، وهم: عليٌّ وفاطمة والحسن والحسين. و**تفسير الرازي**، الجزء ٣، الصفحة ٢٤٧. ومسلم، **صحيح مسلم**، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل علي بن أبي طالب. **وسنن الترمذي**، الجزء ٥، الصفحة ٦٣٨. **ومسند أحمد**، الجزء ١، الصفحة ١٨٥. وغيرهم.

رابعًا- مقام الزهراء عليها السلام

ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كلمات بحقّ الزهراء عليها السلام نذكر منها:

١ - يقول الرسول الكريم محمّد صلى الله عليه وآله وسلم: «فاطمة بضعة منّي فمن أغضبها أغضبني»[١].

٢ - وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّما فاطمة بضعة منّي يؤذيني ما آذاها»[٢]. وفي رواية: «فاطمة بضعة منّي يقبضني ما يقبضها ويبسطني ما يبسطها».

٣ - وقال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لفاطمة عليها السلام: «إنّ الله يغضب لغضبك ويرضى لرضاك»[٣] .

٤- عن حذيفة قال: «أتيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم فصلّيت معه المغرب فصلّى حتّى صلّى العشاء، ثمّ انفتل فتبعته فسمع صوتي فقال: من هذا؟ حذيفة. قلت: نعم قال: ما حاجتك غفر الله لك ولأمّك؟ ثمّ قال: إنّ هذا ملك لم

---

(١) زيد بن علي، **مسند زيد بن علي** (بيروت: دار مكتبة الحياة، لا تاريخ)، شرح صفحة ٤٥٩. ورواه البخاري في **صحيح البخاري** (القاهرة: دار الحديث) في باب مناقب المهاجرين وفضلهم الجزء ٤، الصفحة ٢٨١.

(٢) **مسند الإمام زيد**، الباب الرابع في فضل فاطمة (رضي الله عنها).

(٣) رواه الحاكم في **المستدرك** على الصحيحين كتاب مناقب أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، الجزء ٣، الصفحة ١٥٤ وقال عنه حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

ينزل الأرض قطّ قبل هذه الليلة استأذن ربّه أن يسلِّم عليَّ ويبشّرني بأنّ فاطمة سيّدة نساء أهل الجنّة، وأنّ الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنّة»[١].

٦- وعن أنس قال: قال رسول الله: «حسبك من نساء العالمين بأربع: مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمدٍ حسبك بهنَّ من نساء العالمين».

٧ - كان رسول الله ﷺ إذا سافر جعل آخر عهده فاطمة وأوّل من يدخل عليه إذا قدم فاطمة[٢].

٨ - قال رسول الله ﷺ لعلي وفاطمة والحسنين: «أنا سلم لمن سالمكم وحرب لمن حاربكم»[٣].

إنّها نموذج المرأة المؤمنة إذ هي سيّدة نساء هذه الأمّة، وهي نموذج المرأة العالميّة إذ هي سيّدة نساء العالمين. وهي نموذج المرأة التي تبتغي طريق الجنّة إذ هي سيّدة نساء أهل الجنّة؛ فنساء هذه الأمّة يجدن في الزهراء نموذجهنّ القرآني الذي ينبغي التأسّي به في جميع مجالات تحرّكها، وهناك من المفاهيم والقضايا والمبادئ الإنسانيّة والفطريّة ما يجعل المرأة العالميّة تجد ضالّتها المنشودة في نموذج الزهراء عليها السلام وهناك فيها سلام الله عليها من المواصفات الإيمانيّة ما تجد فيها المرأة المؤمنة التي تبتغي الجنّة طريقًا إليها.

---

(١) أورده الترمذي في **سننه**، كتاب المناقب، الجزء ٥، الصفحة ٣٢٦. وجاء في **المستدرك**، الجزء ٣، الصفحة ١٥١. بسنده عن عائشة قالت لفاطمة: ألا أبشرك؟ إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سيّدات نساء أهل الجنّة أربع: مريم بنت عمران، وفاطمة بنت محمّد، وخديجة بنت خويلد، وآسية بنت مزاحم». وجاء في **كنز العمّال**، الجزء ١٢، الصفحة ٩٦. أنّ فاطمة سيّدة نساء أهل الجنّة. وذكر الطبري حديث أفضل أربع نساء فضّلهنّ الله في **ذخائر العقبى**، الصفحة ٤٤. وأضاف وأفضلهنّ فاطمة.

(٢) ورد في **مسند أحمد بن حنبل**، الجزء ٥، الصفحة ٢٧٥. وذكر ذلك الحاكم في **المستدرك**، الجزء ١، الصفحة ٤٨٩ ورواه البيهقي في سننه.

(٣) رواه أحمد بن حنبل في **مسنده**، الجزء ٢، الصفحة ٤٤٢، وابن الأثير في **أسد الغابة**، الجزء ٣، الصفحة ١١ والجزء ٥، الصفحة ٥٢٣.

إنّها نموذج الحريّة والكرامة والعلم والعدل والإنصاف والتواضع والإنسانيّة والإيثار والتفضّل وقوّة الموقف واعتداد المرأة بكرامتها الآدميّة وحسن التربية بما يغني أيّ امرأة - اليوم - عن الاتجاه إلى نموذج آخر وهي تتوق إلى جميل المبادئ وروعة العفاف وقويّ المواقف(١).

عندما تنشأ الزهراء في بيت النبوة؛ البيت الذي كانت آيات القرآن الكريم تتنزل فيه، وفي الوقت نفسه كانت تحظى بعناية خاصّة وإعداد فريد من قبل أبيها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فمن الطبيعي أن تنشأ فاطمة الزهراء على مستوى عالٍ ومتميّز في العلم والمعرفة. أضف إلى ذلك أنّها سيّدة نساء العالمين ونساء هذه الأمّة ونساء أهل الجنّة. وهذا بالتأكيد ليس عبارة عن وسام منحها أبوها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هكذا لأنها ابنته بل لأنّها جديرة بهذا الوسام وأهلٌ له بفطرتها ولما تحمله من مؤهّلات إيمانيّة وخلقيّة ومعرفيّة.

ونستطيع القول إنّ الأمّة وبالذات المرأة خسرت الكثير والكثير من علمها ومعرفتها نتيجة لإقصائها عن أن تكون هي القدوة والأسوة والرمز والمثل للمرأة المؤمنة كما أراد ذلك الله ورسوله، وتمّ ترميز أخريات ممّن كانوا يسيرون في فلك السلطة الحاكمة وتقديمهنّ بدلًا عنها. فالشيء المعروف تاريخيًّا بأنّ السيّدة الزهراء تعرّضت للإقصاء والتغييب كما أقصي وغيّب زوجها أمير المؤمنين علي عليه السلام بل وصل الحال في عهد بني أميّة إلى أن يصبح الحديث عنهم جريمة عقوبتها الإعدام، وأن تختم خطب الجمعة بلعنهم، وهم من أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيرًا، ومن أوصى الرسول أمّته بالتمسّك بهم مع القرآن الكريم.

ومع هذا، فإنّ ما روي عن مشاركاتها العلميّة ورواياتها وفقهها وخطبها واحتجاجاتها يشير إلى علمها الواسع وحصافتها الفائقة رغم معاجلة الموت لها بعد وفاة أبيها. وإذ لم يتح لها أبدًا أن تقدّم من المعرفة والعلم ما كان يمكن أن تقدّمه، غير أنّ مشاركاتها وآراءها في أهمّ القضايا العلميّة والسياسيّة

---

(١) الأستاذ حمّود الأهنومي.

والاجتماعيّة في تلك المدّة القصيرة بُعيد وفاة النبي بيَّن أيّ امرأة عالمة كانت الزهراء، وأيّ زوجة كان الله قد اختارها واصطفاها لباب مدينة العلم وأمّ لأعلام الهدى ومصابيح الدجى.

وقد مرّ عن أمّ سلمة قولها عن فاطمة عليها السلام: وكانت والله آدب منّي وأعرف بالأشياء كلّها. وكقول عائشة: إنّها ما رأت مثلها يشبه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في كلامها وحديثها وفي سمتها وهديها. ولا شكّ بأنّ المشابهة للرسول في الحديث والسمت والهدي لا بدّ أن يكون له علاقة بالجانب المعرفي كأفضل امرأة تشبه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في الناحية العلميّة.

عاجلت المنيّة الزهراء قبل أن تزهر ثمار علمها وتونق أشجار معارفها فغادرت الحياة بعد أشهر من وفاة أبيها إلّا أنّ الأشهر القليلة التي قضتها بعد وفاة أبيها أظهرت ما كان لديها من معارف وعلوم بشكل أثبت فرادتها وجدارتها وسيادتها على العالمين تلمس ذلك في خطبتيها التي سنوردهما لاحقًا[١].

لقد كانت السيّدة الزهراء نسخة لأبيها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم روحًا وأخلاقًا وتقوىً وعبادةً وصلةً بالله وانسجامًا مع تعاليمه؛ فكان يسود بيتها المتواضع روحانيّة الإيمان، وبساطة العيش، وقناعة النفس، وصفاء الروح، كمَثَلٍ حيٍّ للبيت المسلم الذي يعيش الأجواء الإسلاميّة، ويتنفّس في جوٍّ إسلاميٍّ خالص، وهكذا انطلقت لتكون مَثَلًا أعلى للمرأة المسلمة، في قداستها وطهرها، وعبادتها المنقطعة النظير.

يقول الحسن البصري، حول عبادة الزهراء النموذجيّة: ما كان في هذه الأُمّة أعبد من فاطمة عليها السلام، إنّها كانت تقوم حتّى تتورّم قدماها.

لقد كانت تتضرّع لربّها من أجل الآخرين، وتحاول أن تطلب الخير للمؤمنين والمؤمنات، قبل أن تطلبه لنفسها. يقول الإمام الحسن بن

---

(١) انتهى بتصرف من كلام الأستاذ حمود الأهنومي.

علي عليه السلام «رأيتُ أُمّي فاطمة في محرابها ليلةً، فلم تزل راكعةً ساجدةً حتّى اتّضح عمود الصبح وسمعتُها تدعو للمؤمنينَ والمؤمناتِ وتُسمِّيهم وتكثرُ من الدعاءِ لهم، ولا تدعو لنفسِها بشيءٍ، فقلت لها: يا أُمّاه لِمَ لا تَدعينَ لنفسِك كما تَدعين لغيرِك؟ فقالت: يا بُنَيَّ الجارُ ثمّ الدار»[١].

وعن أمير المؤمنين علي عليه السلام قال: قلت لفاطمة: إنّه قد أجهدك الطحين، فلو أتيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فتسأليه خادمًا، فأتته صلى الله عليه وآله وسلم فذكرت له ذلك، فقال: «أُعَلِّمُكُمَا ما هو خير لكما من ذلك، إذا آويتما إلى فراشكما فسَبِّحا الله ثلاثًا وثلاثين، واحمداه ثلاثًا وثلاثين، وكبراه أربعًا وثلاثين، فتلك مئة على اللسان، وألف في الميزان». قال عليّ (كرم الله وجهه): فما تركتها منذ سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. قال له رجل ولا ليلة صفين؟ قال: ولا ليلة صفين.

وبعد أن أكمل الله الدين وأتمّ على الناس النعمة، وبعد أن حدّد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم المسار السياسي للأمّة إلى يوم الدين بدءًا بالإمام علي عليه السلام في حديث الولاية ونزول قول الله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾[٢]، وبعد أن دلّ الأمّة على ما يمثّل صمّام أمان لها في حديث الثقلين المعروف بين الأمّة عندما قال: «ألا أدلّكم على ما إن تمسّكتم به لن تضلّوا من بعدي أبدًا كتاب الله وعترتي أهل بيتي إنّ اللطيف الخبير نبّأني أنّهما لن يفترقا حتّى يردا على الحوض»، وبعد توصيات كثيرة تضمن للأمّة إن هي عملت بها ألَّا تكون ضحيّة لأيّ تضليل وبعد أن جهّز جيشًا بقيادة أسامة بن زيد لمواصلة مسيرة الجهاد في سبيل الله ومواجهة الطواغيت والمستكبرين، بعد هذا كلّه شعر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بدنو أجله وقال لأهل بيته ولأصحابه: «نُعِيَت إليَّ

(١) من كتاب **فاطمة الزهراء البتول** للدكتور أحمد مطهر الشامي.

(٢) سورة **المائدة**، الآية ٣.

نفسي»، وعرف اقتراب أجله، فدخل منزله، ودعا فاطمة عليها السلام فوضع رأسه في حجرها ساعة، ثمّ رفع رأسه وقال: «يا فاطمة، يا بنيّة، أشعرت أنّ نفسي قد نعيت إليَّ»، فبكت فاطمة عند ذلك حتّى قطرت دموعها على خدّ رسول الله، فرفع رأسه ونظر إليها، فقال: «أما إنّكم المستضعفون المقهورون بعدي، فلا تبكينّ يا بنيّة، فإنّي قد سألت ربّي أن يجعلك أوّل من يلحق بي من أهلي، وأن يجعلك سيّدة نساء أمّتي، ومعي في الجنّة، فأُجِبْت إلى ذلك»، فتبسّمت فاطمة عند ذلك، ونساء النبي ينظرنَ إليها حين بكت وتبسمّت، فقال بعضهنّ: ما شأنك يا فاطمة، تبكين مرّة وتبتسمين مرّة؟ فقال رسول الله: «دعن ابنتي».

وفي آخر ساعاته، خاطب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مَنْ حضر عنده من أصحابه بقوله: «ائتوني بدواة وكَتِف، لأكتُبَ لَكُم كتابًا لا تضلُّوا بعدَهُ أبَدًا» وكان في البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب، فقال عمر: إنَّ الرجل ليهجر، وقد غلبه الوجع وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله.

فاختلفوا وكثر اللغط واختصموا، فمنهم من يقول قرّبوا يكتب لكم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ومنهم يقول ما قاله عمر، فلمّا أكثروا اللغط والاختلاف، وغمّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال: قوموا عنّي ولا ينبغي عندي التنازع.

وكان ابن عبّاس يعبّر عن أساه لما حدث بقوله: «الرزيَّة كلّ الرزيَّة ما حال بيننا وبين كتاب رسول الله» في رواية البخاري ومسلم: ثمّ بكى ابن عبّاس حتّى بلّ دمعه الحصى.

ولمّا رأت فاطمة أباها قد ثقل، دعت الحسن والحسين، فجلسا معها إلى رسول الله، ووضعت خدَّها على خدّ رسول الله، وجعلت تبكي حتّى أخضلت لحيته ووجهه بدموعها، فأفاق، وقد كان أغميَ عليه، فقال لها: «يا بنيّة لقد شققت على أبيك»، ثمّ نظر إلى الحسن والحسين فاستعبر بالبكاء، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «اللهم إنّي أستودعكهم وصالح المؤمنين، اللهم إنّ هؤلاء ذرّيتي أستودعكهم وصالح المؤمنين»، ثمّ أعاد الثالثة، ووضع رأسه.

فقالت فاطمة: واكرباه لكربك يا أبتاه.

فقال لها: «لا كرب على أبيك بعد اليوم».

وفي رواية: أنّ فاطمة عليها السلام جاءت بالحسن والحسين وقالت لهما: ادنوا من جدّكما فسلّما عليه.

فدنوا منه وقالا: يا جدّاه، ثلاثًا، ثمّ بكيا وقال له الحسن: ألا تكلّمنا كلمة وتنظر إلينا نظرة؟ فبكى عليٌ والفضل وجميع من في البيت من النساء، وارتفعت أصواتهم بالبكاء ففتح رسول الله عينيه وقال: «ما هذا الصوت؟».

فقالت فاطمة: يا رسول الله، هذان ابناك الحسن والحسين، كلّماك فلم تجبهما، فبكيا وبكى من في البيت لبكائهما.

فقال رسول الله: «ادنوَا مني»، فدنا منه الحسن فضمّه إليه وقبّله ودنا الحسين منه، ففعل به مثل ذلك، فبكيا ورفعا أصواتهما بالبكاء، فزجرهما عليّ وقال: لا ترفعا أصواتكما.

فقال له رسول الله: «مه يا علي...»، ثمّ قال: «اللهم إنّي أستودعكهما وجميع المؤمنين من أمّتي» وغمض عينيه فلم يدع عليٌّ أحدًا يدنو منه.

فقبضه الله إليه يوم الإثنين من شهر ربيع الأوّل سنة إحدى عشرة للهجرة[1].

---

(١) المناقب لمحمد بن سليمان الكوفي.

خامسًا- فاطمة عليها السلام بعد أبيها محمّد صلى الله عليه وآله وسلم

في الوقت الذي كان الإمام علي عليه السلام وقلّة قليلة من المسلمين معه مصدومين بانتقال خاتم الأنبياء والمرسلين إلى الرفيق الأعلى ومغادرته هذه الحياة وفراقهم للقائد والمعلّم والمربّي والهادي؛ فالمسألة ليست سهلة أبـدًا وخـلال انشغالهم بتجهيز رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتوديعه، كان هناك من يحيكون المؤامرات للاستيلاء على السلطة بحيث لا يكمل الإمام علي ومن معه وداع رسول الله والصلاة عليه ودفنه إلّا وقد تمّت المؤامرة بنجاح ووضع الإمام علي عليه السلام ومن معه أمام أمر واقع وهذا ما تمّ فعلًا.

فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان لها موقفٌ بارزٌ ومهمٌّ مِن قضيّة بيعةِ السَّقيفةِ والخلافةِ وأحداثِها، وشُؤونِ الإمامةِ والسياسةِ في تلك الفترةِ مِن حياةِ الأُمَّة الإسلاميّة.

فكما حدَّثنا المؤرِّخون والـرُّواة الّذين نقلوا حوادث السَّقيفة، وموقف فاطمة الزهراء عليها السلام منها، فإنَّ فاطمة عليها السلام كانت قد أبدتْ رأيًا مُعارِضًا لاختيار الخليفة أبي بكر، ووقفت إلى جانب الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وتحدّثت مع الأنصار بعد بيعة السَّقيفة، وطلبت منهم أن يُبايعوا عليًّا، باعتباره المنصوص عليه بالخلافة.

وقد روى لنا أحـدُ المؤرِّخين موقفَ الزَّهراء عليها السلام هـذا من خلال حديثها مع الأنصار فقال: (وخرج عليٌّ (كرَّم الله وجهه) يحمل فاطمة بنت

رسول الله ﷺ على دابَّة ليلًا في مجالس الأنصار، تسألهم النُّصرة، فكانوا يقولون: خشينا الفتنة يا بنت رسول الله! فقالت لهم الزهراء: ﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ﴾[١] هذه هي الفتنة.

والبعض قال: يا بنت رسول الله ﷺ! قد مَضَتْ بيعتُنا لهذا الرَّجل، ولَوْ أنَّ زوجَكِ وابن عَمِّكِ سَبَقَ إلَيْنا، قَبْلَ أبي بكر، ما عَدَلْنا عنه.

وحاول الإمام علي عليه السلام بكلّ جهوده تذكير الأمّة بخطورة ما يجري وعواقبه الوخيمة وكذلك لخّصت السيّدة فاطمة عليها السلام كيف سيكون مستقبل الأمّة بقولها: «ألا في الفتنة سقطوا» إلّا أنّ المؤامرة كانت أكبر من كلّ تلك الجهود. واستمرَّ موقفُ فاطمةَ عليها السلام المعارضُ هذا مدَّة حياتها.

كانت السلطة الجديدة تدرك ما يمكن أن يفعله الإمام علي وفاطمة الزهراء عليهما السلام فيما لو التفّ حولهما المخلصون من المسلمين؛ فسارعت إلى توجيه ضربة سياسيّة واقتصاديّة إلى أهل البيت عليهم السلام لما أرسلت جنودها للاستيلاء على [فدك] - وهي القرية التي كان رسول الله ﷺ قد أنحلها لابنته فاطمة عليها السلام - بدعوى غريبة هي أنّ الأنبياء لا يورّثون؛ الأمر الذي استدعى فاطمة الزهراء إلى أن تذهب إلى هذه السلطة للمطالبة بإطلاق حقّها في [فدك]، وتبيّن خطأ قولهم هذا وفي نفس الوقت أبعاد هذه المؤامرة.

وقد ألقت الزهراء عليها السلام خطبة أوضحت فيها للمسلمين الكثير من الأمور وهذا نصّ خطابها: فبعد أن افتتحت كلامها بالحمد لله عزّ وجلّ والثناء عليه والصلاة على رسوله ﷺ قالت: «﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[٢] فإن تعزوه[٣] تجدوه أبي دون آبائكم، وأخا ابن عمّي دون رجالكم،

---

(١) سورة **التوبة**، الآية ٤٩.

(٢) سورة **التوبة**، الآية ١٢٨.

(٣) تعزوه: تسندوه.

فبلغ الرسالة صادعًا بالنذارة[١] مائلًا عن سنن المشركين ضاربًا ثبجهم[٢] يدعو إلى سبيل ربّه بالحكمة والموعظة الحسنة، آخذًا بأكظام[٣] المشركين يهشّم الأصنام ويفلق الهامّ، حتّى انهزم الجمع، وولّوا الدبر، وحتّى تفرى[٤] الليل عن صبحه، وأسفر الحقّ عن محضه، ونطق زعيم الدين، وخرست شقاشق[٥] الشياطين، وتمّت كلمة الإخلاص وكنتم على شفا حفرة من النار نهزة الطامع[٦] ومذقة الشارب[٧] وقبسة العجلان[٨] وموطأ الأقدام، تشربون الطرق[٩] وتقتاتون القدّ[١٠] أذلّة خاسئين، يتخطّفكم الناس من حولكم، حتّى أنقذكم الله عزّ وجلّ برسوله صلى الله عليه وآله وسلم بعد اللتيّا والتي[١١] وبعد أن مني ببهم الرجال[١٢] وذؤبان العرب[١٣] ومردة أهل النفاق[١٤] ﴿كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُ﴾[١٥]

---

(١) صدع بالأمر: تكلّم به جهارًا.

(٢) الثبج - بفتحتين - ما بين الكاهل إلى الظهر، وقيل: ثبج كلّ شيء وسطه.

(٣) الأكظام جمع كظم - بالتحريك -: مخرج النفس.

(٤) تفرى الليل عن صبحه: انشقّ.

(٥) الشقاشق - جمع شقشقة - الجلدة الحمراء التي يخرجها البعير من جوفه عند هيجانه.

(٦) النهزة كالفرصة.

(٧) اللبن الممزوج بالماء.

(٨) قبسة العجلان مثل في الاستعجال تشبيها بالمقتبس الذي يدخل الدار ريثما يقبس الجذوة من النار.

(٩) الطرق - بفتح وسكون - والمطروق أيضًا: ماء الغدران الذي تبول فيه الإبل وتبعر.

(١٠) القدّ - بالكسر -: سير يقدّ من جلد غير مدبوغ.

(١١) اللتيّا - بالفتح والتشديد - والمراد باللتيّا والتي الداهية الصغيرة والكبيرة، وكنّى عن الكبيرة بالتصغير تشبيها بالحيّة فإنّها إذا كثر سمّها صغرت لأنّهم يزعمون أنّ السمّ يأكل جسدها، والأصل في المثل أنّ رجلًا من جديس تزوّج امرأة قصيرة فقاسى منها الشدائد فطلّقها وتزوّج طويلة فكانت أشدّ من الأولى فطلّقها فقيل له: ألا تتزوّج قال: أبعد اللتيّا والتي فذهبت مثلًا.

(١٢) بهم الرجال: شجعانهم.

(١٣) ذؤبان العرب: لصوصهم وصعاليكهم.

(١٤) المردة - جمع مارد وهو العاتي.

(١٥) سورة **المائدة**، الآية ٦٤.

ونجم قرن للشيطان[١] أو فغرت للمشركين فاغرة[٢] قذف أخاه في لهواتها، فلا ينكفئ حتّى يطأ صماخها بأخمصه[٣] ويخمد لهبتا بحدّه مكدودًا في ذات الله[٤] وأنتم في رفاهية فكهون آمنون وادعون[٥].

حتّى إذا اختار الله لنبيّه دار أنبيائه ظهرت حسيكة النفاق[٦] وسمل جلباب الدين[٧] ونطق كاظم الغاوين[٨] ونبغ خامل الآفكين[٩] وهدر فنيق المبطلين، فخطر في عرصاتكم[١٠] وأطلع الشيطان رأسه صارخًا بكم، فدعاكم فألفاكم لدعوته مستجيبين، وللغرّة[١١] ملاحظين، ثمّ استنهضكم فوجدكم خفافًا، وأحمشكم[١٢] فألفاكم غضبًا فوسمتم[١٣] غير إبلكم، ووردتم غير شربكم، هذا والعهد قريب والكلم رحيب[١٤] والجرح لمّا يندمل[١٥] إنّما زعمتم ذلك

---

(١) نجم: ظهر وطلع.

(٢) فاغرة المشركين: جماعتهم، والمعنى مجازي مأخوذ من فغر فاه إذا فتحه.

(٣) الصماخ - بالكسر - خرق الأذن، وقيل: هو الأذن نفسها والسين لغة فيه. والأخمص: ما دخل من باطن القدم فلم يصب الأرض.

(٤) مكدودًا: متعبًا.

(٥) الرفاهية والرفاهة من العيش: السعة، والفكه: طيب النفس والودع والوديع الساكن.

(٦) الحسيكة والحسكة والحساكة: الحقد والعداوة وقد وردت الرواية باللفظتين الأوليين.

(٧) سمل: أخلق، والجلباب الملحفة والجمع جلابيب.

(٨) كاظم - هنا - فاعل الكظوم وهو السكوت.

(٩) نبغ الشيء: ظهر، والخامل: الساقط الذي لا نباهة له.

(١٠) هدر البعير: ردّد صوته في حنجرته، والفنيق: الفحل من الإبل، وخطر: اهتزّ في مشيه تبخترًا وهي هنا مجازية، والعرصة - بوزن ضربة - كلّ بقعة بين الدور واسعة ليس بها بناء والجمع عراص - بكسر العين - وعرصات.

(١١) تروى بإعجام الأوّل وإهمال الثاني كما تروى بالعكس ومعنى الأولى الغفلة والمراد طلبها ومعنى الثانية الحميّة والأنفة.

(١٢) أحمشكم - هنا هيجكم.

(١٣) الوسم: الكيّ، وهو علامة كانت العرب تستعملها للإبل.

(١٤) الكلم: الجرح، والرحيب: الواسع.

(١٥) اندمل الجرح وأدمل: تماثل وتراجع إلى الشفاء.

خوف الفتنة ﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾[١] فهيهات منكم وأنّى بكم وأنّى تؤفكون[٢] وكتاب الله بين أظهركم، زواجره بيّنة، وشواهده لائحة، وأوامره واضحة، أرغبة عنه تريدون، أم بغيره تحكمون ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾[٣] ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْأَخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[٤] ثم لم تلبثوا إلّا ريث أن تسكن نفرتها تسرّون حسوا في ارتغاء[٥] ونصبر منكم على مثل حزّ المدى[٦] وأنتم الآن تزعمون ألّا إرث لنا ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[٧].

يا ابن أبي قحافة أترث أباك ولا أرث أبي ﴿لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾[٨] فدونكها مخطومة مرحولة[٩] تلقاك يوم حشرك، فنعم الحكم الله، والزعيم محمّد، والموعد القيامة، وعند الساعة يخسر المبطلون ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾[١٠] ثمّ انكفأت إلى قبر أبيها فقالت:

قد كان بعدك أنباء وهنبثة — لو كنت شاهدها لم تكثر الخطب[١١]

إنّا فقدناك فقد الأرض وابلها — واختلّ قومك فاشهدهم ولا تغب[١٢]

---

(١) سورة **التوبة**، الآية ٤٩.

(٢) هيهات - بتثليث الآخر - اسم فعل بمعنى بعد، وأنى: ظرف مكان بمعنى أين. والإفك: الكذب.

(٣) سورة **الكهف**، الآية ٥٠.

(٤) سورة **آل عمران**، الآية ٨٥.

(٥) الحسو: الشرب شيئًا فشيئًا، والارتغاء: شرب الرغوة وهي ما يطفو على فوق اللبن من الماء المشوب به، والمثل يضرب لمن يظهر شيئا ويريد غيره.

(٦) الحزّ: القطع، والمدى جمع مديّة وهي السكّين.

(٧) سورة **المائدة**، الآية ٥٠.

(٨) سورة **مريم**، الآية ٢٧.

(٩) مخطومة من الخطام وهو كلّ ما يوضع في أنف البعير ليقاد به، والرحل للناقة كالسرج للفرس.

(١٠) سورة **الأنعام**، الآية ٦٧.

(١١) الهنبثة جمعها هنابث: الأمر الشديد والاختلاط في القول.

(١٢) كتاب **الشافي** في الإمامة والغدير.

باءت جهود أمير المؤمنين علي وجهود فاطمة الزهراء عليهما السلام بالفشل، وهاجمها المرض ألمًا وحزنًا وهي ترى هذا الدين الذي عمل وتعب وضحّى من أجله أبوها طوال حياته يُعصف به، وآن أن يتحقّق ما أخبرها به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من أنها أوّل اللاحقين به، وكلّما رأت الانحرافات ازداد كمدها وحزنها واشتدّت بها العلّة، وعند زيارة نساء المهاجرين والأنصار لها رأت الفرصة سانحة لتوضيح خطورة ما أقدم عليه القوم وتوضيح موقفها الرافض والمستنكر لما جرى.

قال سُوَيْدُ بن غفلة: لما مرضت سيدتنا فاطمة عليها السلام المَرْضة التي توفِّيت فيها؛ اجتمعت إليها نساء المهاجرين والأنصار ليَعِدْنَها، فقلن لها: يا بنت رسول الله كيف أصبحت من علّتك؟ فحمدت الله وصلّت على أبيها صلى الله عليه وآله وسلم ثمّ قالت: «أصبَحتُ واللهِ عائِفَةً[١] لدنياكم، قالِية[٢] لرجالكم، لَفَظْتُهُم[٣] بَعدَ أنْ عَجَمْتهُمْ[٤] وشَنَأْتُهُمْ[٥] بَعْدَ أن سَبَرْتُهُمْ[٦]. فَقُبحًا لفُلولِ الحدِّ واللَّعبِ بَعدَ الجِدِّ[٧] وقَرْعِ الصَّفاةِ[٨]، وخَوْرِ القَناةِ[٩] وخَطَلِ الرَّأيِ[١٠] وزَلَلِ الأهواءِ وبِئسَ ما قَدَّمَتْ لهم أنفُسُهم أنْ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِم وفي العذابِ

(١) أي كارهة.

(٢) مبغضة.

(٣) لفظت الشيء من فمي: أي رميته وطرحته.

(٤) جرَّبتهم.

(٥) أبغضتهم.

(٦) اختبرتُهُم.

(٧) اللَّعب بعد الجدِّ: أي أخذتم دينكم باللَّعب والباطل بعد أن كنتم مجدِّين فيه آخذين بالحجَّة.

(٨) وقرع الصفاة، الصفاة: الحجر الأملس أي جعلتم أنفسكم مقرعًا لخصامكم حتَّى قرعوا صفاتكم أيضًا.

(٩) الخور- بالفتح وبالتحريك-: الضعف. والقناة: الرُّمح.

(١٠) المنطق الفاسد المضطرب.

هُم خالدون. لا جَرَمَ والله لَقَدْ قَلَّدَتْهُم رِبْقَتها[١] (وَحَمَّلَتْهُم أَوْقَتَها)[٢] وشَنَنْتُ عَلَيْهِم غارتها، فجَدعًا وعَقرًا وسُحْقًا للقوم الظالمين. وَيْحَهُم أنّى زَحْزَحوها عن رَواسي الرِّسالةِ، وقواعِدِ النبوَّةِ والدّلالَةِ ومَهبطِ الوحيِ الأمين، والطّبين[٣] بأمرِ الدُّنيا والدِّين، ألا ذلك هو الخسران المبين، وما نَقَموا من أبي الحسن؟! نَقموا واللهِ مِن نكيرِ سيفِهِ، وقِلَّةِ مُبالاتِه بِحَتْفِهِ وشِدّةِ وَطأتِهِ ونكالِ وَقْعته وتَنمُّرِهِ في ذاتِ اللهِ عزَّ وَجَلَّ. واللهِ لو تَكافُّوا عَن زَمانٍ نَبَذَهُ رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم لأعْتَلَقَهُ ولَسارِ بِهم سَيْرًا سُجُحًا[٤] وتالله لو مالوا عن المحجّة اللائحة، وزالوا عن قبول الحجّة الواضحة لردَّهم، وحملهم عليها ولا يُكْلَمُ خِشاشُه[٥] (ولا يكلُّ سائره) ولا يُتَعْتَعُ راكبُهُ، ولأوردهم مَنْهَلًا نميرًا فَضْفاضًا[٦] تَطْفَحُ ضِفَّتاه ولا يَتَرَنَّقُ جانِباهُ ولأَصْدَرَهُم بِطانًا ونصح لهم سرًّا وإعلانًا قد تحيَّر بهم الرّيّ، وحلي منه بخير غير متحلٍّ منه بطائل [قال الجوهريُّ: قولهم: لم يحلَّ منها بطائل أي: لم يستفد منها كثير فائدة. والتحلي: التزيُّن، والطائل: الغنى والمزيَّة والسعة والفضل]. ولا يحظى من الدنيا بنائل[٧] إلاَّ بِغَمْرِ[٨] الماءِ وَرَدْعِه[٩] شر الساغِب[١٠]، وَلَبانَ لَهُمُ الزَّاهِدُ من الرَّاغِب والصَّادقُ مِنَ الكاذِبِ، ولَفُتِحَتْ عليهم بَرَكاتٌ مِنَ السماءِ والأرضِ، ألا هلمَّن فاسمعن، وما عشتنَّ أراكنَّ الدهر عجبًا، وإنْ تَعْجَبْ فَقَد أعْجَبَك الحادِثُ لَيْتَ شِعري إلى أيِّ سِنادٍ استَنَدوا؟! وعلى أيِّ

---

(١) ربقتها: الرِّبقة في الأصل: عروة في حبل تجعل في عنق البهيمة أو يدها تمسكها، ويقال للحبل الذي تكون فيه الرِّبقة: ربق، وتجمع على ربق ورباق وأرباق، والضمير في ربقتها راجع إلى الخلافة المدلول عليها بالمقام، أو إلى فدك، أو حقوق أهل البيت عليهم السلام أي جعلت إثمها لازمة لرقابهم كالقلائد.

(٢) أي حملته المشقّة والمكروه.

(٣) الفطن الحاذق.

(٤) اللِّين السهل.

(٥) ما يجعل في أنف البعير من خشب ويشدُّ به الزمام ليكون أسرع لانقياده.

(٦) الواسع.

(٧) النائل: العطية.

(٨) التغمُّر: هو الشُّرب دون الرِّيّ، مأخوذ من الغمر- بضم الغين المعجمة وفتح الميم-: وهو القدح الصغير.

(٩) الردع: الكف والدفع، والردعة: الدفعة.

(١٠) والسّغب: الجوع.

عِمادٍ اعتَمَدوا؟! وبِأَيَّةِ عُرْوةٍ تَمَسَّكوا؟! وعلى أَيَّةِ ذُرِّيَّةٍ أَقْدَموا واحتنكوا؟! لبئس المولى ولبئس العشير، وبئس للظالمين بدلًا استبدلوا الذُّنابى والله بالقودام والعجز بالكاهل، فَرَغْمًا لمَعاطِسِ قوم يحسبون أَنَّهُم يُحسِنون صُنْعًا، ألا إِنَّهم هُمُ المُفْسِدون وَلكن لا يَشْعُرونَ، وَيْحَهُم أَفَمَنْ يَهدي إلى الحقِّ أَحَقُّ أن يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إلاَّ أَنْ يُهدى فما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمون.

أما لَعَمْري لقد لَقِحَتْ فَنَظِرَةٌ رَيْثَما تُنْتِج ثمَّ احْتَلِبوا طِلاعَ القَعْبِ دَمًا عَبيطًا، وذُعافًا مُمْقِرًا، هُنالِكَ يَخْسَرُ المُبْطِلونَ، ويَعْرِفُ التالون غِبَّ ما سَنَّ الأَوَّلونَ. ثمّ طيبوا عن أنفسكم أنفسًا وطَأْمنوا لِلْفِتْنَةِ جَأشًا ثمّ اطمئنُّوا واطمئنُّوا وأبْشروا بِسَيْفٍ صارِمٍ وَسَطْوَةِ مُعْتَدٍ غاشِمٍ وهَرَجٍ شامِلٍ وَاستِبدادٍ مِنَ الظالمينَ، يَدَعُ فَيْئَكُم زَهيدًا وَزَرْعَكُمْ حَصيدًا فَيا حسرتي لكم، وأَنَّى بِكُمْ وقَدْ عُمِّيَتْ عليكم أَنُلزِمُكموها وأَنْتُم لها كارِهون»[1].

قال سويد بن غفلة: فأعادت النساء قولها عليها السلام على رجالهنّ فجاء إليها قوم من وجوه المهاجرين والأنصار معتذرين، وقالوا: يا سيِّدة النساء لو كان أبو الحسن ذكر لنا هذا الأمر من قبل أن نبرم العهد ونحكم العقد لَمَا عَدَلنا إلى غيره، فقالت: «إِلَيْكُمْ عَنِّي! فَلا عُذرَ بَعْدَ تَعذيرِكُم ولا أَمْرَ بَعْدَ تَقصيرِكُم».

وفي خضم الأحـداث المريرة التي عايشها أمير المؤمنين عليه السلام في هذه الفترة، ألمَّت بالزهراء سيدة نساء العالمين العلّة التي توفّيت على أثرها فلحقت بالراحل العظيم أبيها، حيث كان الإمام عليه السلام طوال فترة المرض الذي عانت منه فاطمة عليها السلام يعايش ما تعاني ملْء كِيانه؛ فهي وديعة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهي الصابرة المحتسبة، وهي بعد ذلك زوجته الوفيّة التي عايشت معه آماله وآلامه طوال حياتها.

---

(١) مصادر الخطبة: **دلائل الإمامة** للطبري، و**بلاغات النساء** لأبي الفضل بن أبي طاهر، و**كشف الغمّة** للأربلي، و**شرح نهج البلاغة** لابن أبي الحديد.

وأوصت عليها السلام قبيل وفاتها ألاَّ يحضر جنازتها ولا الصلاة عليها أبو بكر ولا عمر، وشدّدت على الإمام علي بأن ينفِّذ وصيّتَها؛ فخرج علي عليه السلام مع عمّار ومجموعة خاصّة من أوليائه ليدفنوها في الليل وقد حفروا عدّة قبور ليعموا حتّى قبرها عنهم.

وفاطمة هي كما قال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «سيّدة نساء العالمين» «فاطمة بضعة منّي يُرِيبُني ما رابها، يؤذيني ما يؤذيها، يغضبني ما يغضبها، من آذاها فقد آذاني، من أغضبها فقد أغضبني» على اختلاف ألفاظ الحديث أو تعدّد الروايات[١].

والإمـام علي عليه السلام يرى ويشاهد هذه الزوجة الوفيّة بضعة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تموت كَمَدًا وقهرًا، وهي ترى هذا الدين يُعصف به من أوّل يوم بعد وفاة والدها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيزداد ألمه وحزنه.

لم تبكِ السيّدة فاطمة عليها السلام وتتألم على مصادرتهم لما نَحَلَها أبوها من أراضٍ واسعة في (فَدَك) كما يصوّر البعض، صحيح بأنّ (فدك) قضيّة تؤلمها لكن لم تبك عليها، ولم تمت كمدًا على فدك، إنّما ماتت كمدًا وحزنًا على هذه الأمّة[٢].

رأى الإمام عليه السلام زهراء الإسلام بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهي تعايش مرارة الأسى على ما حصل من ضياع لدين أبيها، ثمّ وهي تستسلم لفراش المرض فيشحب لونها وتتردّى أوضاعها الصحيّة يومًا بعد يوم، ثمّ يراها وهي تفارق الدنيا، فيباشر تغسيلها وتجهيزها عليها السلام ثمّ يقف على شفير قبرها مودِّعًا ولا ينسى أن يحملها رسالة إلى أبيها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعبارات تكشف عن ألمه وحزنه، شاكيًا إلى أخيه ومربّيه ومعلّمه رسول الله ما ألمَّ به وما يعانيه قائلًا:

---

(١) البخاري، **صحيح البخاري** (بيروت: دار إحياء التراث العربي، لا تاريخ)، الجزء ٥، الصفحة ٢٦، باب مناقب فاطمة.

(٢) الدرس الأوّل من سورة **المائدة** للسيّد حسين بدر الدين الحوثي رضوان الله عليه.

«السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ عَنِّي، وَعَنِ ابْنَتِكَ النَّازِلَةِ فِي جِوَارِكَ، وَالسَّرِيعَةِ اللَّحَاقِ بِكَ! قَلَّ يَا رَسُولَ اللهِ، عَنْ صَفِيَّتِكَ صَبْرِي، وَرَقَّ عَنْهَا تَجَلُّدِي، إِلَّا إِنَّ لِي فِي التَّأَسِّي(١) بِعَظِيمِ فُرْقَتِكَ، وَفَادِحِ(٢) مُصِيبَتِكَ، مَوْضِعَ تَعَزٍّ(٣)، فَلَقَدْ وَسَّدْتُكَ فِي مَلْحُودَةِ قَبْرِكَ(٤)، وَفَاضَتْ بَيْنَ نَحْرِي وَصَدْرِي نَفْسُكَ.

(إِنَّا لله وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)، فَلَقَدِ اسْتُرْجِعَتِ الْوَدِيعَةُ، وَأُخِذَتِ الرَّهِينَةُ! أَمَّا حُزْنِي فَسَرْمَدٌ، وَأَمَّا لَيْلِي فَمُسَهَّدٌ(٥)، إِلَى أَنْ يَخْتَارَ اللهُ لِي دَارَكَ الَّتِي أَنْتَ بِهَا مُقِيمٌ.

وَسَتُنَبِّئُكَ ابْنَتُكَ (بِتَضَافُرِ أُمَّتِكَ عَلَى هَضْمِهَا)(٦)، فَأَحْفِهَا السُّؤَالَ(٧)، وَاسْتَخْبِرْهَا الحَالَ، هذَا وَلَمْ يَطُلِ الْعَهْدُ، وَلَمْ يَخْلُ مِنْكَ الذِّكْرُ.

وَالْسَّلَامُ عَلَيْكُمَا سَلَامَ مُوَدِّعٍ، لاَ قَالٍ(٨) وَلاَ سَئِمٍ(٩)، فَإِنْ أَنْصَرِفْ فَلاَ عَنْ مَلاَلَة، وَإِنْ أُقِمْ فَلاَ عَنْ سُوءِ ظَنٍّ بِمَا وَعَدَ اللهُ الصَّابِرِينَ».

قال بعض الرواة: إنّ فاطمة عليها السلام عاشت بعد أبيها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ٤٠ يومًا، وقال بعضهم ٧٥ يومًا، وقال بعضهم إنّها عاشت ثلاثة أشهر، وقال بعضهم: ستّة أشهر.

---

(١) يريد بالتأسّي: الاعتبار بالمثال المتقدم.

(٢) الفادح: المثقِل.

(٣) التعزِّي: التصبّر.

(٤) مَلْحُودة القبر: الجهة المشقوقة منه.

(٥) مُسَهَّد: أي ينقضي بالسهاد وهو السهر.

(٦) هَضْمها: ظلمها.

(٧) إحْفَاء السؤال: الاستقصاء فيه.

(٨) القالي: المبغض.

(٩) السئم: من السآمة وهي الضجر.

سادسًا- الزهراء عليها السلام القدوة

«حياة فاطمة الزهراء جديرة جدًّا بالتأمّل والدراسة وهي في موقع القدوة للمرأة المؤمنة فما أحوج أخواتنا المؤمنات إلى الاطلاع على سيرتها كيف كانت في حياتها على مستوى المسؤوليّة الدينيّة والأسريّة؟ كيف كانت بالرغم من عظيم ما هي عليه من مقام وإيمان وأخلاق، والمستوى المعرفي الذي وصلت إليه كذلك لكنّها مع ذلك كلّه عاشت حياتها بكلّ بساطةٍ وتواضع، فعاشت الظروف المعيشيّة الصعبة في ظلّ وضعٍ اقتصاديٍّ في مراحل صعبة.

ولم تكن أبدًا لتستنكف عن القيام بمسؤوليّاتها الفطريّة في بيت الزوجيّة كانت تهتمّ بكلّ شؤون البيت: تربّي أولادها، تقوم بكلّ متطلّبات الحياة والمعيشة، تطبخ، تنظّف البيت، تعدّ الطعام، تفعل كلّ شيء كأيّ امرأة أخرى عاديّة، يعني مقامها الإيمانيّ، مقامها المعرفي لم يبعدها أبدًا عن المسؤوليّات الفطريّة، وعن الدور المهمّ في التربية، وعن الدور الأساس في الواقع المعيشي والحياتي الذي هو أساس في واقع الناس وحياة الناس ومن متطلّبات الحياة.

قامت بذلك كلّه، امرأة في واقعها المعيشي في غاية التواضع والبساطة وكأيّ امرأةٍ أخرى، تعجن، تغسل الملابس، تعدّ الطعام، تربّي أطفالها، تهتمّ بهم وبتنشئتهم وبتربيتهم وبتغذيتهم، تصبر على متاعب الحياة مع زوجها تواجه الظروف الصعبة تحدّث القرآن الكريم عن بعضها في سورة **الإنسان** وكشف هذا الدرس المهمّ جوانب متعدّدة منها الظرف والواقع المعيشي

الصعب، وهذا طبيعي في واقع الحياة أن يحصل ومع ذلك المستوى العالي جدًّا جدًّا من الأخلاق، الإيثار بالطعام في حال الصيام عند أوان الفطر، الإيثار بالطعام في وقتٍ هي وزوجها وأسرتها أحوج ما تكون إلى ذلك الطعام.

تلك المرأة المؤمنة الزكيّة المرضيّة الصدّيقة التي وصلت إلى ذروة الكمال الإنساني والإيماني وتحرّكت في واقع الحياة بمسؤوليّاتها الفطرية من دون كللٍ ولا ملل ولا عتْب ولا تنصّل عن المسؤولية وعلى درجة عالية ومستوى عظيم من التواضع، تقدّم الدرس المهمّ للمرأة المؤمنة كيف تكون في واقع الحياة في إطار مسؤوليّاتها المتعدّدة، وفي مواجهة أعباء الحياة في كلّ الاتجاهات والمجالات، على المستوى الإيماني والعبادي. كانت هي التي سمّيت بالبتول منقطعةً إلى الله سبحانه وتعالى متبتّلةً منقطعةً إلى الله عابدةً متوجّهةً بصدق إلى الله سبحانه وتعالى لكنّها لم تكن بذلك منعزلةً عن الحياة، وواقعها وطبيعتها وظروفها. لا، كانت امرأة تعيش مع زوجها وأسرتها الواقع الحياتي المعتاد.

ثمّ هي على ما هي عليه من علم ومعرفة وزكاء وطهارة وتقوى تلك المرأة الخدومة المحسنة التي تحسن إلى الآخرين وتهتمّ بهم، مصدر عطاء وينبوع خير ومصدر إحسان هكذا يريد الله للمرأة المؤمنة أن تكون مصدرًا للعطاء والخير والإحسان وهكذا كانت فاطمة (القدوة)، والمرأة المؤمنة بحاجة إلى القدوة وأن ترسّخ في واقعها القدوة، وطبعًا القدوة العليا للمؤمنين والمؤمنات هو الرسول محمّد ﷺ هو أسوة وقدوة للرجال وللنساء معًا.

فاطمة الزهراء والنماذج النسائيّة الراقية العظيمة الكاملة في واقعها الإيماني والإنساني هي نماذج أيضًا وقدوة حتّى في الخصوصيّات التي تختص بها المرأة بفطرتها وخلقها وكينونتها، فهناك جانب معيّن من الخصوصيّة ففاطمة الزهراء هي نعم القدوة ونعم الأُسوة، وينبغي التأسّي بها خصوصًا أنّ هناك استهداف للمرأة المسلمة، وجهد كبير من قبل أعداء الإسلام وأعداء القيم الإنسانيّة والأخلاق إلى الانحراف بها والتأثير عليها واستهدافها ثقافيًّا، واستهدافها في فكرها وأخلاقها وقيمها.

هناك ضرورة ملحّة جدًّا لترسيخ ارتباط القدوة، هذا الارتباط القيمي الأخلاقي المعرفي الإيماني الذي يساعد المرأة المسلمة على أن تبقى منشدّةً إلى تلك المرأة الكاملة في إيمانها ووعيها؛ لتسير فعلًا في مسار التكامل الإنساني والإيماني، وحتّى لا تتأثّر بنساء أخريات بعيدات عن القيم والأخلاق.

اليوم، تتعرض المرأة المسلمة للتأثير باستهدافها لأن تكون متأثّرةً بالمرأة الغربيّة التي تختلف معها إلى حدٍّ كبير في المبادئ وفي القيم وفي الأخلاق، المرأة الغربيّة التي كانت إلى حدٍّ كبير ضحيّة لاستهداف كبير ثمّ أرادوا بها ومن خلالها أن تكون هي النموذج غير المنسجم، غير المتوافق للمرأة المسلمة لا مع دينها ولا مبادئها ولا أخلاقها ولا قيمها الإنسانيّة.

نحن نقول: إنّ المرأة الغربيّة كانت ضحيّة استُهدِفت من قِبل أولئك المجرمين المفسدين في الأرض الذين سعوا إلى الانحراف بالمرأة عن دورها ومكانتها وقيمها وكرامتها، وعملوا على أن يجعلوا منها ألعوبة، وأرخصوها إلى حدٍّ كبير حينما أرادوا أن يجعلوا منها مجرّد ألعوبة للإغواء والإفساد ونشر الرذيلة والعياذ بالله.

هنا، مطلوبٌ من المرأة المسلمة أن تكون منشدّةً إلى تلك النماذج الراقية والعظيمة وفي مقدّمتهن فاطمة البتول الزهراء عليها السلام، مريم بنت عمران، زينب، وهكذا [وهنّ كُثر] النساء المؤمنات الخيّرات المتكاملات في إيمانهنّ، واللواتي - أيضًا - كان لهنّ دورٌ مهمّ على مسار التاريخ، هنّ النموذج الراقي الذي يجب أن تتأثّر به المرأة المسلمة في سلوكها وأعمالها واهتماماتها، وما تنشده من دورٍ لها في واقع الحياة وفي إطار المسؤوليّة، هذا شيءٌ مهمّ

فلماذا غيّبت فاطمة الزهراء عن وسائلنا التعليميّة والتثقيفيّة؟

«إذا كان الأستاذ العقّاد يقول في كتابه **فاطمة الزهراء والفاطميّون**: في كلّ دين صورة للأنوثة الكاملة المقدّسة يتخشّع بتقديسها المؤمنون كأنّما هي آية الله فيما خلق من ذكر وأنثى. فإذا تقدّست في المسيحيّة صورة مريم

العذراء، ففي الإسلام لا جَرمَ تقدَّس صورة فاطمة البتول. فلا أجد ما يسوغ أو يبرّر لواضعي الإستراتيجيّة التربويّة في اليمن تغييب فاطمة الزهراء عن المناهج التربويّة في التعليم الأساسي والثانوي والجامعي طوال عقود ماضية غير التعصّب الأعمى والحقد الذي لا مبرّر له أو الخضوع والانسياق لما تمليه الرغبات الخارجيّة التي ترى في نموذج الطهارة والعفّة خطرًا يوجب إخراجه من مناهجنا.

بصراحة، لا أستطيع أن أفهم أنّه لا يوجد درس واحد في دروس التاريخ ولا التربية الإسلاميّة ولا العربيّة ولا الوطنيّة ولا الاجتماعيّات في مناهج المدارس التربويّة إلّا بأنّه بسبب استلاب القرار التربوي والسياسي للبلد من قبل أنظمة تدين بالولاء لليهود والنصارى المعتدين وأوليائهم المنافقين.

لقد تمّ التغييب الممنهج والمتعمّد لنموذج فاطمة الزهراء وكان هذا أحد تطبيقات إستراتيجيّة التجهيل لشعبنا ونسائنا. غيّبوها في المناهج، وغيّبوها في المؤلّفات وفي الصحافة وفي الحلقات وفي خطب الجمعة والمناسبات ليس هذا في اليمن فقط بل في مختلف الشعوب الإسلاميّة والعربيّة. وفي نفس الوقت، قدّموا نماذج دينيّة لنسائنا أقلّ ما يقال عنها بأنّها نماذج لا تسمن ولا تغني من جوع.

والخطورة أنّهم غيّبوها عن نصف مجتمعنا والذي يتحكّم فيه الآخر تربية واتجاهًا، غيّبوها وهي سيّدة نساء العالمين، وسيّدة نساء هذه الأمّة، ولم تعد المرأة المسلمة تعلم عنها إلّا ما بقي من قصص وأمثال وعبارات ورثنها عن الأمهات والجدات ممّا شذّ وندر وضمن دوائر اجتماعيّة ضيّقة»[١].

هناك عدّة عوامل أبعدت الأمّة عن قدواتها الحقيقيّين رجالًا ونساء، أهمّها:

---

(١) **تلك هي فاطمة الزهراء** للأستاذ حمّود الأهنومي مع الزيادة لما ورد عنه.

العامل الأوّل: التعصّب الوهّابي الطائفي المقيت

يقول السيّد عبد الملك بدر الدين الحوثي (حفظه الله):

«تبنّى النظام السعودي التوجّه التكفيري الوهّابي وفرَّخ له في أوساط الأمّة ودعمه وموّله ونشره، ومكَّن له من خلال دعم إعلامي ومادّي وسياسي هائل جدًا، استغلّ نفوذه السياسي على بعض الحكومات وبعض الأنظمة أن تفتح للتغلغل الوهّابي في الشعوب، كان هذا التيّار غريبًا على شعوبنا كلّها، وغير موجود فيها، هو ظاهرة طرأت في الساحة الإسلاميّة وتغلغلت فيها وانتشرت بفعل هذا الدعم، بفعل (البترو دولار) هذه الأموال الهائلة التي صدَّرته إلى العالم الإسلامي، صدَّرته بعد الجزيرة في دول الخليج، صدّرته إلى اليمن، إلى مصر، إلى دول المغرب العربي، إلى الشام، ولم يكن موجودًا فيها نهائيًّا، واكتسح الساحة وتغلغل في مناطق كثيرة.

تأثّر من تغلغله هذا التيّار السني، استهدف الساحة السنيّة، وأتباع المذاهب الأربعة كما الساحة الشيعيّة، واستهدف كلّ فرق الأمّة وكل ساحة الأمّة وتغلغل فيها مدعومًا بشكل كبير ماديًّا ومدعومًا بشكل كبير سياسيًّا، كثير من الحكومات والأنظمة ناصرته، أُعطيت له أهمّ الوزارات، كان التيّار الوهّابي التكفيري دائمًا يُسلّم وزارة الأوقاف والإرشاد ووزارة التربية والتعليم حتّى يتمكّن من خلال هاتين الوزارتين إلى أن يتحرّك بشكل رسمي.

إضافة إلى تغلغله في الوسط الشعبي حظي بحماية، ودعم أمني وعسكري، دعم من الحكومات في البلدان التي تناصره، كان في بعض البلدان يذهب إلى المساجد ومعه فرق عسكريّة أو فرق من الشرطة، فرق تابعة للداخليّة تساعده في عمليّة اقتحام المساجد، والحديث عن هذا الجانب يطول، والمآسي فيه شملت كلّ البلدان العربيّة والإسلاميّة، شملت اليمن، المغرب العربي، مصر، الشام، حديث واسع عن هذه الاقتحامات والسيطرة على المساجد واستحواذ على المنابر، ومن ثمّ السيطرة على المناهج الدراسيّة.

هذا شيء حرص عليه النظام السعودي، على أن يتحكّم في سياسة المناهج الدراسيّة فيما تتضمّنه من ثقافة ومن معارف دينيّة وتاريخيّة، وفي اليمن مثال على مدى عشرات السنين، تحكّمت السياسة السعوديّة والنزعة التكفيريّة الوهّابية على صياغة المناهج في المدارس والجامعات.

تجد مثلًا في دول الخليج العربي، في أكثرها، في النظام السعودي نفسه، المنهج المدرسي في المدارس والجامعات تنشر كثير من رسائل التخرّج الجامعي، في مراحلها المتعدّدة والمتنوّعة التي تحوي على مستوى من إثارة الحساسيّة الكبيرة في الحديث عن أهل البيت عليهم السلام وفي المقدّمة الإمام علي وفاطمة الزهراء، بل وصلت إلى حدّ الإساءة إلى الإمام علي عليه السلام، والتطاول عليه بشكل ينتقص من مقام وقدر هذا الرجل العظيم في الإسلام»[١].

فأصبحت السياسة التي يتبنّاها النظام السعودي على المستوى الثقافي والتعليمي، تحرص دائمًا إلى إقصاء الإمام علي والزهراء والحسن والحسين وأبناؤهم عليهم السلام نهائيًّا من المناهج، وإذا كان ثمّة حديث بسيط جدًّا عنهم، يقدّمهم أحيانًا كشخصيّات عاديّة ليس لها أيّ اعتبار في التاريخ الإسلامي نهائيًّا.

أمّا الأحاديث التي تضمّنها التراث الإسلامي، وتضمنتها أهمّ الكتب في الحديث لدى إخوتنا من أهل السنّة، أهمّ تلك النصوص لا تكاد تجد لها أثرًا أبدًا في المناهج الجامعيّة، سواء في السعوديّة أو في اليمن أو عدد من البلدان، وكأنّ النبي لم يتحدّث بها أصلًا، وكأنّه لا وجود لها في التراث الإسلامي نهائيًّا.

تأتي الطامّة الكبرى على من يقتصر اعتمادهم في ثقافتهم الدينيّة والتاريخيّة على ما احتوت عليه المناهج الدراسيّة والجامعيّة سواء عندنا في

---

(١) من محاضرة السيّد عبد الملك الحوثي بمناسبة ذكرى استشهاد الإمام علي عليه السلام رمضان ١٤٣٨هـ.

اليمن أو في السعوديّة أو في كلّ البلدان التي خضعت للسياسة السعوديّة في مناهجها التعليميّة، طامّة كبيرة جدًّا يمكن للطالب أن يقطع مشواره التعليمي من المرحلة الأساسيّة، إلى الابتدائيّة والأساسيّة والثانويّة والجامعيّة ثمّ يتخرّج وهو يجهل بمثل هذه النصوص المهمّة، النصوص التي تدلّ على أنّ للمسألة علاقة بإيمانه، بثقافته، بجوانب أساسيّة يحتاج إليها في دينه.

فيتخرّج من الجامعة وهو يجهل مقام أهل البيت عليهم السلام، والبعض يصل إلى درجة أن يكون معلّمًا في الجامعة، ولأنّ ثقافته وعلومه اقتصرت على ما احتوت عليه تلك المناهج التي خضعت لاعتبارات وتأثيرات سياسيّة، فكان مفلسًا ومنعدم الثقافة والمعرفة بمقام الإمام علي هذا الرجل العظيم في الإسلام وفاطمة الزهراء، وكذلك بقيّة أهل البيت عليهم السلام.

والبعض لا يأتي فيما بعد، مثلًا ما بعد دراسته الجامعيّة، أو ما بعد دراسته في كلّ المراحل، لينفتح على التراث الإسلامي، لا، يقتصر على ما قد عرفه واطلع عليه من خلال تلك المناهج.

ولذلك، أنا أقول لكلّ الثقافيّين ولكلّ المثقّفين، والتربويّين، والمتعلّمين في أبناء أمّتنا حذارِ حذارِ من الاقتصار على المناهج الجامعيّة والمناهج الدراسيّة الرسميّة، حذارِ من ذلك، هذه كارثة، هذا سيكون مصدر لكثير من الآفات، لأنّه من المعلوم قطعًا وبكلّ تأكيد ويقين وثبوت أنّ المناهج الدراسيّة في عالمنا العربي في المستوى الرسمي خضعت بلا شكٍ للتأثيرات السياسيّة، حكمتها سياسات وتوجّهات معيّنة؛ فقرّرت ما يدرج وما يحذف.

في المعارف الدينيّة والتاريخيّة، هناك الكثير ممّا حُذف والأمّة بحاجة إلى الاطلاع عليه، دينها، قيمها، أخلاقها، واقعها العملي، كذلك مسؤوليّتها الحضاريّة تفرض عليها أن تطّلع على ذلك وقد حُذف نهائيًّا، وهناك ما ضُمن في هذه المناهج ممّا لا أصل له، لا صحّة له، ممّا ليس من الحقائق التاريخيّة هو افتراء وتزوير على التاريخ، أو هو افتراء وتزوير على المعارف الدينيّة وعلى الإسلام.

فلذلك يجب التعاطي بحذر مع المناهج الدراسيّة الرسميّة التي خضعت للسياسات الرسميّة، والنظرة إليها من هذا المنظار باعتبار شابها فيما تضمّنته أخطاء كبيرة وتزييف كثير، وباعتبارها أيضًا ناقصة، لم تتضمّن أشياء مهمّة جدًّا بات اليوم يحذف منها أشياء كثيرة. فيما يتعلّق بالتاريخ المعاصر، حُذف من المناهج الدراسيّة ما بعد الألفين وبداية الحملة الأميركيّة في الـ٢٠٠١، والتي ركّزت على حذف أشياء كثيرة تتعلّق بالخطر الأميركي والإسرائيلي والعربي والاستعماري على عالمنا الإسلامي[١].

العامل الثاني: الإشراف المباشر من قبل اليهود والنصارى على صناعة مناهجنا الدراسيّة

يقول السيّد حسين بدر الدين الحوثي (رضوان الله عليه):

«حتى الربط بالأعلام عندهم قضيّة خطيرة؛ ولهذا رأينا نحن وأنتم جميعًا أنّه كيف غيّب الحديث عن الإمام علي وأهل البيت في المناهج الدراسيّة، وغيّب الحديث عنهم في وسائل الإعلام، وغيّب الحديث عن آثارهم عن طريق الثقافة، ولم تبدِ وزارة الثقافة في أيّ بلد - خاصّة في اليمن - اهتمامًا بالآثار آثار أعلام أهل البيت!! لأنّ الربط بالأعلام أيضًا مهمّ جدًا، إذا ما رسّخ في أنفسنا عظمة علم من أعلام الإسلام المتكاملين والكاملين فعلًا، فلو كان مجرّد اسم يتردّد على ألسنتنا لكن قد يأتي من يجعل هذا الاسم فاعلًا ومؤثّرًا.

كان الإمام الحسين عليه السلام يتردّد كثيرًا في أيّام عاشوراء، وفي غير عاشوراء في أوساط الشيعة الجعفريّة كثيرًا يبكون، ويلطمون.. لكن كانت كلّها مظاهر عاطفيّة، فجاء الإمام الخميني واستطاع أن يجعلها ذات تأثير كبير، إحياء عاشوراء، الحديث عن الحسين لدرجة أنّه قال: «كلّ ما بين أيدينا من بركات الحسين»، أو بعبارة تشبه هذه. إذًا ذلك الاسم الذي تردّد مئات السنين في أجواء عاطفيّة بحتة، لم يربط به جهاد، ولم يربط به اتخاذ موقف، ولم يربط به

---

(١) من ذكرى استشهاد الإمام علي ١٤٣٨هـ.

عمل لرفع معنويّات الأمّة، لاتخاذ موقف ما من أعداء الأمّة وأعداء الدين.. ألم يصبح فاعلًا؟. عندما جاء من يجعل له حيويّة في نفوس الناس؟

وهكذا، الآن في جنوب لبنان في أوساط حزب الله يصرخون باسم الحسين، بل أصبحوا يتذوّقون عاشوراء بشكل آخر يختلف عن ما كانوا عليه يوم كانوا يتحدّثون عن عاشوراء من الجانب العاطفي فقط، وأصبحوا يستلهمون من كربلاء ومن عاشوراء، ومن الحسين الأشياء الكثيرة جدًا، التي تدفع بهم وبشبابهم إلى ميادين الجهاد.

الحسين الذي عاش مئات السنين داخل الطائفة الاثني عشريّة جامدًا في نفوسهم، ألم يحرّك الأمّة في مرحلة من التاريخ؟ وها نحن نرى إيران تشكّل عقبة أمام الغرب؟ الغرب ينظر إلى إيران بنظرة، ولبقيّة العرب المسلمين بنظرة مختلفة.

وهكذا رأينا كيف أنّه في مناهجنا الدراسيّة، وعلى شاشات التلفزيون، وفي غيره من وسائل الإعلام، كيف تقدّم الأمّة، حين صاروا يتحدثون عنهم كثيرًا في المساجد، في المعاهد وفي المراكز، والجامعات، وفي كلّ مكان. يجب أن تفهم الأمّة أنّ اليهود والنصارى يتحكّمون تقريبًا في كلّ شيء، في الجوانب الإعلاميّة، الثقافيّة، التربويّة، الاقتصاديّة، السياسيّة، في الدول كلّها يتحكّمون فيها، ويتدخّلون في كلّ صغيرة وكبيرة.

هم يعرفون أنّ أولئك الأعلام لا يصنعون شيئًا إن لم يكونوا فاعلين في نفوسنا؛ فحاولوا أن يجعلوهم بلا قيمة فتتردّد أسماؤهم دونما تأثير وصنعوا كذلك نماذج فارغة القيمة.

لكنّ أعلامًا كالإمام علي عليه السلام والحسن، والحسين، والزهراء، وزيد، والهادي، والقاسم، وغيرهم ممّن هم على هذا النحو، هم الخطيرون في واقع الحياة، هم من لو التفت الإنسان، أو التفتت الأمّة لتستلهم منهم شيئًا سترى ما يشدّها، ترى ما يرفع معنويّاتها، ترى المواقف المتعدّدة، ترى التضحية،

ترى الاستبسال، ترى الشعور بعظمة الإسلام، ترى الاستهانة بالأنفس والأموال والأولاد في سبيل الإسلام.

لهذا، هل نجد عليًا عليه السلام أو نجد الحديث عن أهل البيت في مدارسنا أو مراكزنا أو جامعاتنا؟ لا يوجد، وإذا ما وجد كان شيئا بسيطًا، وإذا ما جاء حديث عن الإمام علي فكبّر نوعًا ما، يمسخ ذلك التكبير بأن يقال هو على الرغم ممّا هو عليه ها هو يبايع أبا بكر، وهو إنّما كان جنديًّا من جنود أبي بكر، يكبّرونه قليلًا ثم يجعلونه وسيلة من وسائل تكبير أبي بكر، فيشدّونك أكثر إلى أبي بكر، فيما إذا تحدّثوا قليلًا عن علي، أمّا أن يقدّموا عليًا علمًا لوحده بعد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فهذا ما لا يمكن، لأنّه يشكّل خطورة بالغة.

متى رأينا في وسائل إعلامنا حديثًا عن الإمام الهادي وعن أثره في اليمن؟ متى سمعنا برامجًا تتحدّث عن أخباره وسيرته الحميدة وما عمله من أعمال عظيمة في اليمن وفي أوساط اليمنيّين وفي هدايتهم؟ وهم من كان القرامطة قد عبثوا بأفكارهم، والباطنيّة، وبقايا كثيرة من اليهود كانت ما تزال في مختلف مناطق اليمن؟ لا حديث عنه إلّا بما يسيء، لا حديث عنه إلّا بتعسّف بما يقدّمه ناقصًا.

هكذا يفكّر أولئك الناس، وهم ينظرون إلى القرآن، أو ينظرون إلى أعلام الإسلام أنّه قد يكون هذا الاسم، وقد يكون هذا الكتاب وإن لم يكن له أثر الآن، وإن كنّا نرى هذه الأمّة قد ضربناها ضربة قاضية، لكن ما يزال هذا يشكّل خطورة ولو بعد حين، فيجب أن نعمل على إقصائه بأيّ وسيلة[1]».

«ومن خلال ما نلحظه من مقام عظيم لتلك النماذج الراقية والعظيمة مثل تلك النساء الأربع ندرك أنّ الإسلام فعلًا أعلى ورفع من مكانة المرأة، بل ووصّى بها في كلّ مواقعها في الحياة، وأخذ بعين الاعتبار دورها المهمّ في كلّ المسارات، دورها الكبير في تربية الأجيال وتنشئتهم وهذه مسؤوليّة

---

(١) الدرس الثالث عشر من دروس معرفة الله.

كبيرة ودورٌ مهمّ وأساسٌ في واقع الحياة، ولو أنّ الآخرين الذين يسعون لإفساد المرأة والانحراف بها يحاولون أن يقلّلوا من قيمة هذا الدور، وأحيانًا يصفونه بالوضاعة، وأحيانًا يسعون إلى إشعار المرأة بالنقص تجاه هذا الدور، وهو دور كمالي ومهمّ وكبير لأنّ من أحضانها تخرّج العظماء من الرجال والنساء، وكان حضن المرأة هو معراج الكمال للرجل والمرأة معًا، منه ينطلق إلى واقع الحياة متأثّرًا بتلك المرحلة التي قضاها في طَور التربية التي كانت في بدءِ حياته، منذ نعومة أظفاره، منذ فتح عينيه على الحياة، وبدأ استيعاب واقع الحياة من حوله»[١].

«إنّ الله سبحانه وتعالى ائتمن المرأة على مسؤوليّة كبيرة جدًّا، وادّخرها لدورٍ مهمّ وأساس في واقع الحياة، هذا الدور ليس دورًا يمثّل ضعةً للمرأة ولا انتقاصًا من مكانتها، بل إنّ الله سبحانه وتعالى حمّلها هذه المسؤوليّة الكبيرة جدًّا لأنّه يعرف مدى تأثيراته التي تبقى مصاحبة للدور الإنساني رجلًا أو امرأة مدى حياته، وفي بقيّة مراحل حياته.

هذا الدور المهمّ الذي تقوم به من واقعها كامرأة الله سبحانه وتعالى تحدّث عنه حتّى في مراحله الأولى وأَجَلَّ المرأة جنبًا إلى جنب مع الأبّ، وأعطاها امتيازًا بحسب معاناتها وظروفها وآلامها في مرحلة الحمل، وفي مرحلة الولادة والرضاعة والتربية في البداية فيقول سبحانه وتعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ﴾[٢].

جعل هذه التوصية المهمّة جدًّا جنبًا إلى جنب مع مسألة مهمّة وكبيرة، وهذه أهمّ مسألة على المستوى الديني والإيماني وهي ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ عبادة الله وحده، وإلى جنب هذا كلّه يأتي بالتوصية الأخرى: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ﴾ إعلاءً من شأن ذلك وتنبيهًا على أهميّته الكبرى

(١) نصّ كلمة السيّد عبد الملك بدر الدين الحوثي بمناسبة اليوم العالمي للمرأة المؤمنة ١٤٣٧هـ.

(٢) سورة **الإسراء**، الآية ٢٣.

بحيث جعله في كفّه، وتوصيته بعبادته وحده والأمر بعبادته وحده في كفّةٍ أخرى.

أيضًا يقول: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾(١) إنّ آلام المرأة في مرحلة الحمل والتنشئة في مرحلة الرضاعة للطفل بكلّ ما فيها من آلام ومعاناة ومتاعب ومشاقّ لم تغب عن الله أبدًا، بل إنّ الله يقدّرها ويشكرها عليها ويوصِّي بالإحسان إليها لقاء ذلك.

وفيما روي عن الرسول ﷺ أنّه قال: «الجنّة تحت أقدام الأمّهات» فيه إعلاء كبير لدور المرأة من موقعها كأمّ، وأهميّة هذا الدور وما يترتّب عليه في تنشئة الأجيال وفي تربية الرجال والنساء معًا، المرأة تؤدّي أيضًا دورًا مهمًّا من موقعها كزوجة في حياتها الزوجيّة وفي بناء الأسرة لتكون لبنةً صالحة في بناء المجتمع»(٢).

والإسلام يولي أهميّةً كبيرة للأسرة وبناء الأسرة لأنّ المجتمع في نهاية المطاف يتشكّل ويتكوّن من الأسر وصلاح الأسر يعني صلاح المجتمع كلّه؛ فالأسرة هي اللبنة الأساسيّة والمهمّة جدًّا في بنيان المجتمع الكبير، وبقدر ما يتحقّق الصلاح والخير والرفق وكذلك الروابط الوثيقة في ظلّ الأسرة بقدر ما ينعكس أثر ذلك إيجابًا في واقع المجتمع. هذا الدور المهمّ جدًّا يركّز عليه الإسلام ويوليه أهميّة كبيرة، وقد لوحظ في واقع المجتمع الإسلامي أنّه على قدرٍ كبيرٍ من التماسك الداخلي لأنّ التماسك على مستوى الأسر يعزّز الروابط الاجتماعيّة كذلك.

والآن، فإنّ ممّا يعاني منه الغرب وبشكل كبير هو التفكّك الأسري، والذي ينذر بمستقبلٍ مشؤوم على مستوى تفكّك النسيج الاجتماعي في الغرب، وعلى العكس منه في الواقع الإسلامي هذا التوجّه والتوجيه الإلهي والتعليم

(١) سورة **الأحقاف**، الآية ١٥.

(٢) نصّ كلمة السيّد عبد الملك بدر الدين الحوثي بمناسبة اليوم العالمي للمرأة المؤمنة ١٤٣٧هـ.

الإسلامي في الاهتمام بالأسر وبناء واقع أسري متميّز متماسك قائم على الرفق والخير والقيم والأخلاق والتقوى والتعاون والتكاتف يؤدّي دورًا إيجابيًّا على مستوى الترابط الاجتماعي كلّه.

نجد أيضًا الاهتمام الكبير بدور المرأة على مستوى المسؤوليّة في الإطار العامّ؛ في واقعها الأسري، في واقعها كأمّ، في واقعها كزوجة، كأخت لها دور كبير في إطار المسؤوليّة الكبرى في مسيرة الدين، في مسيرة المسؤوليّة فالله سبحانه وتعالى يقول في كتابه الكريم: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1]. هنا، تحدّث **القرآن الكريم** عن المؤمنين والمؤمنات في إطار المسؤوليّة، وفي مسيرة الدين وفي القيم، وفي المبادئ هم كيانٍ واحد، لهم توجّهٌ واحد ومسؤوليّةٌ واحدة قد تتفاوت فيها الأدوار على نسب معيّنة بحسب المؤهّلات سواء كانوا رجالًا أو نساء. والمؤمنون والمؤمنات في الآية الكريمة بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف في دائرة المعروف الواسعة التي تشمل الخير في الدين والدنيا، وينهون عن المنكر يتحرّكون معًا في مسؤوليّة واحدة وأدوار متعدّدة للنهي عن المنكر بكلّ أشكاله وأنواعه، المنكر فسادًا، والمنكر ظلمًا، والمنكر طغيانًا، المنكر بكلّ أشكاله في دائرته الواسعة فيما يمثّل شرًّا وخطرًا على الدين والدنيا وعلى الحياة، وفي مقام العبادة لله والتوجّه إلى الله سبحانه وتعالى.

نجد كذلك أنّ الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ فمسيرة الدين ومسيرة المسؤوليّة هي مسيرة لهم جميعًا؛ لأنّهم كما كرّرنا كيانٌ واحد له مسؤوليّةٌ واحدة.

وهكذا نجد أنّ الله سبحانه وتعالى كرّم المرأة وأعلى من شأنها وقدرها، ورسم لها في الحياة مسيرةً واحدةً مع الرجل جنبًا إلى جنب، فهما جميعًا

---

(١) سورة **التوبة**، الآية ٧١.

أصلٌ واحد ومخلوقٌ واحد هو الإنسان بشقَّيه الذكر والأنثى كلٌّ منهما يمثّل إنسانًا ولا يختلف عن الآخر في أنّه إنسان، يختلف فقط بأنّ ذاك ذكر وتلك أنثى والجميع إنسان، مخلوقٌ واحد، وله مسؤوليّةٌ واحدة هي الاستخلاف في الأرض.

فالله استخلف الإنسان ذكرًا وأنثى في هذه الأرض، وتختلف كما قلنا الأدوار حتّى في أوساط الرجال وهذه الأمور تتعلّق بمؤهّلات وتتعلّق باعتبارات أخرى وهناك أحيانًا خصوصيّات فطريّة معروفة.

هذه الحقيقة يؤكّدها الله سبحانه وتعالى حينما وجّه خطابه إلى الناس والخطاب يشمل الرجال والنساء، الذكر والأنثى فقال جلّ شأنه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا﴾[١] خلقكم من نفسٍ واحدة فالجميع من أصلٍ واحد والشيء العجيب في حكمة الله وتدبيره وصنعه ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ حتّى حواء خُلقَت من آدم، من نفس آدم ليكون البشر جميعًا من أصلٍ واحد فيكونون فعلًا كيانًا واحدًا، ومخلوقًا واحدًا بشقّيه الذكر والأنثى.

يؤكّد القرآن هذه الحقيقة على مستوى المسؤوليّة والعمل والمقام عند الله سبحانه وتعالى فيقول عن عباده المؤمنين من الرجال والنساء: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ﴾[٢] بعكس ما تودّ السياسة الغربيّة الصهيونيّة ترسيخه من ثقافة التفريق بين الأجناس البشريّة.

تعمد السياسة الغربيّة الصهيونيّة إلى تقديم الرجال وكأنّهم عالمٌ وحدهم، والنساء عالمٌ آخر مختلف تمامًا، ثمّ يبدأون بإثارة النزاع ما بين الرجال والنساء والخصام، وأنّ على المرأة أن تناضل لتحصل على حقوقها من الرجل، ويقدّمون الرجل كمشكلة للمرأة، والمرأة كمشكلة على الرجل، وهكذا في ظلّ

(١) سورة **النساء**، الآية ١.

(٢) سورة **آل عمران**، الآية ١٩٥.

سياسة التفريق المعروفة لديهم، سياسة التفريق بالنسبة لهم أساسيّة في كلّ شيء، ويعمدون إلى إشعار المرأة وكأنّها نوعٌ وحدها، ومسارها في الحياة مسار تقوم فيه على أساس التنازع مع الرجل.

ويعمدون أحيانًا في بعض المجتمعات إلى إثارة المسألة نفسها في بعض الدول الأوروبيّة، سمعنا أحيانًا عن كلام يتعلّق باحتجاج بعض الرجال عن انتقاص حقوقهم، يتحرّكون في إثارة النزاع وبثّ الفرقة بعنوان (الحقوق)، ونسمع كثيرًا حديثًا عن حقوق المرأة وضرورة النضال لأن تستردّ المرأة حقوقها الضائعة وأشياء من هذا القبيل.

القرآن الكريم والإسلام العظيم رسم للمرأة مسارها مع الرجل ورسم للجميع مسؤوليّات وحقوقًا، المسؤوليّات التي تتعلّق بالجميع في ظلّ المسؤوليّة الكبرى التي هي: الاستخلاف في الأرض، هذه هي المسؤوليّة الكبرى بعنوانها الكبير، يندرج تحت هذه المسؤوليّة تفاصيل كثيرة تتعلّق بالجميع ضمن مؤهّلات، ضمن اعتبارات قد تختلف داخل الرجال وقد تختلف داخل النساء.

إذ لم يتعامل الإسلام في جميع تشريعاته مع المرأة على أساس الانتقاص، ولا الإقصاء، ولا فصلها لا في مسارها في الحياة ولا في مسارها عن المسؤوليّة عن الرجل، بل جعل لها دورًا أساسيًّا بكلّ ما تعنية الكلمة، ولكنّه دورٌ تكامليٌّ ما بينها وبين شقيقها الرجل، وما أحسن ما قاله الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «النساء شقائق الرجال»، شقيقة أي يربطها رابطة عظيمة من كيانٍ واحد، من أصلٍ واحد، من نفسٍ واحدة في مسارٍ واحدٍ في الحياة، حتّى في واقع الحياة بكلّ ما فيها من مشاكل، وأعباء، ومحن، ومصائب، وويلات، كلّ ذلك ينعكس على الجميع لا يمكن أن نتخيَّل وضعيّةً للرجل مريحة، سعيدة، جيّدة، إيجابيّة، بينما نتخيَّل وضعيّة للمرأة تكون فيها وحدها، يكون فيها عالم النساء وحدهنّ في حالة بؤس وحرمان ومعاناة وشقاء. لا، عادةً يعيشون واقعًا واحدًا إمّا في ظلّ عدالة، وسعادة، وخير، ورخاء، واستقرار

للجميع، أو بؤس يطال الجميع كما نلحظ ذلك في واقعنا الآن، في عالمنا العربي والإسلامي.

وعندما نعود إلى العراق أو إلى فلسطين نجد أنّ المرأة في واقعها تعاني مع الرجل سواءً بسواء؛ لأنّ ارتباط واقعهما في الحياة ارتباطٌ وثيقٌ أكيد، ولا يمكن أبدًا الانفصام بينه نهائيًّا.

حتّى أولئك الذين نسمع عنهم ومنهم كثيرًا من الكلام عن حقوق المرأة، هل احترموا حقوق المرأة في فلسطين؟ هل احترمت أمريكا نفسها وهي أكبر داعم للكيان الصهيوني الإسرائيلي هل احترمت حقوق المرأة الفلسطينيّة؟ ألم تُقتَل المرأة الفلسطينيّة في فلسطين بالسلاح الأمريكي وبالدعم الأمريكي لإسرائيل؟ ألم تصادر حقوقها وتعيش حالة البؤس، والمعاناة، والاضطهاد، بدعمٍ من أمريكا لإسرائيل؟ أمريكا نفسها في العراق ألم تستهدف الرجال والنساء؟ ألم تتعرّض النساء في العراق لحالات الاغتصاب، والقتل، والامتهان، والإذلال، كما الرجال في العراق؟ هذا حصل وضاعت كلّ تلك العناوين التي يردّدونها كثيرًا.

لم يرعوا حقوق المرأة المسلمة في أيّ بلدٍ من بلدان العالم الإسلامي نهائيًّا، هم السبب الأكبر وراء ما تعانيه المرأة المسلمة والرجل المسلم والأمّة المسلمة والشعوب العربيّة والإسلاميّة من معاناة، من إذلال، من بؤس، من حرمان، من فقر، من مشاكل، النزعة الاستعماريّة الغربيّة والهجمة الكبيرة والاستهداف الكبير لشعوبنا وأمّتنا جميعها رجالًا ونساءً، أطفالًا، كبارًا وصغارًا للجميع، حالة قائمة وويلاتها وآثارها سلبيّة قائمة في واقع الحياة كلّه، فهم لم يرعوا أبدًا حقوق المرأة المسلمة، وإنّما يحاولون أن يوظّفوا هذا العنوان الذي هم أبعد الناس عنه سلبيًّا لإثارة الفرقة والنزاع والخلاف داخل شعوبنا، هذا شيء معروف وهذا شيء واضح.

«كلّ تلك العناوين والدعايات التي تتغنّى بها المنظومة الغربيّة عن حقوق المرأة وحقوق الطفل وحقوق الحيوان كلّها تلاشت وانتهت، وهم

يقتلون المرأة اليمنيّة والطفل اليمني والرجل اليمني مباشرة، أو عبر صواريخهم وقنابلهم وطائراتهم ودعمهم وتشجيعهم.

ألم ينتخبوا النظام السعودي (العميل) رئيسًا لحقوق الإنسان في الوقت الذي يرتكب أبشع المجازر في اليمن بحقّ النساء والأطفال مكافأة له على هذه الجرائم البشعة.

كلّ هذه الأعمال هي تقدّمهم على حقيقتهم، وأنّهم كما أخبر الله عنهم مفسدون في الأرض بكلّ ما تعنيه هذه الآية في مدلولها القرآني: إهلاك للحرث والنسل في أبشع صوره.

المتشدّقون بحقوق الإنسان في الدوائر الغربيّة هم وراء كلّ ما يجري في المنطقة والعالم من جرائم بشعة يرتكبها الصهاينة والنظام السعودي والدواعش والقاعدة وغيرها من المسمّيات التي هي صنيعتهم ولا تتحرّك إلّا بتوجيهاتهم.

هم من يستهدفون المرأة وأطفالها، واستهداف المرأة ليس فقط الاستهداف المباشر الشخصي، بل كما قلنا واقعها مرتبط بواقع الرجل، كيان واحد، شيء واحد، حينما يُقتَل ابنها تعاني، حينما يُقتَل زوجها تعاني، حينما يُقتَل أخوها تعاني، حينما يُقتَل أبوها تعاني، بمعنى أنّ هذا الترابط في الحياة شيء أساس، فطري، تكويني، من ترتيبات الله، من حكمته، من فطرته سبحانه وتعالى.

وطوال هذه الحرب يحظى القتلة المجرمون المعتدون على بلدنا - قتلة الأطفال والنساء - بدعم عسكري واضح، وبتغطية وحماية سياسيّة من أمريكا وبريطانيا وفرنسا وإسرائيل، ولم نسمع أيّ كلمة، أيّ موقف، لا من الأمم المتّحدة ولا مجلس الأمن ولا مجلس حقوق الإنسان ولا من أيّ جهة، لم نسمع أيّ موقف تضامن مع المرأة، هل هناك مبادرة أو توجّه جادّ لمنع القتل اليومي للمرأة اليمنيّة والطفل اليمني؟ هل هناك توجّه حقيقي لإنصاف المرأة

المظلومة المسكينة التي تقتل وتشرّد ويقتل ابنها وزوجها وأبوها وأخوها ويدمّر بيتها وبلدها؟.

«والحالة القائمة نفسها في عالمنا الإسلامي، في منطقتنا العربيّة، في شعوب أمّتنا هناك استهداف مؤكّد للمرأة وللرجل للجميع، والاستهداف للمرأة كذلك في فكرها وثقافتها وقيمها وأخلاقها. كلّ المساعي الغربيّة لإفساد المرأة المسلمة التي تظهر تحت عنوان التحضُّر والحضارة والرُّقي هي عناوين زائفه لإفساد المرأة المسلمة تحتها ولا تمتّ بأيّ صلة للحضارة أبدًا.

الحضارة الحقيقيّة والرقي الحقيقي والارتقاء في سلّم الكمال هو بقيم الإسلام التي تحفظ للمرأة كرامتها ودورها المسؤول والبنَّاء والمهمّ والفعَّال والمؤثِّر والعظيم في واقع الحياة وبكلّ شرف، وبالحفاظ على عفّتها وطهارتها، الإسلام يريد للمرأة دورًا مسؤولًا مهمًّا نافعًا بنَّاءً مؤثِّرًا مع الحفاظ على شرفها وعفّتها والحفاظ على طهارتها، يعني يكرُّمها أمَّا أولئك فأحيانًا يقدّمون الحضارة وما يتعلّق بالحضارة وكأنّها ابتذال، انحطاط، تفسُّخٌ عن القيم، وانسلاخٌ من مكارم الأخلاق، وخلعٌ لرداء العفّة، هذه أعمال شيطانيّة، مؤامرات خبيثة تستهدف تدمير المجتمع المسلم؛ لأنّهم - والعياذ بالله - لو تمكّنوا فعلًا من إفساد المرأة بالتالي سيفسد المجتمع كلّه. دور المرأة أساس في بناء المجتمع وفي صلاحه، وهم يعمدون إلى إفسادها لأنّهم يدركون أهميّة دورها في صلاح المجتمع ولكنّهم بإذن الله سيفشلون، وستبوء محاولاتهم الهدَّامة والمفسدة بالفشل؛ لأنّه لا يزال في مجتمعنا، في نساءنا أمّهات، وزوجات، وأخوات بكلّ فئاتهنّ توجهٌ وإيمانٌ وتقوى وإخلاص ومكارم أخلاق راسخة ثابتة لا يمكن أن تزلزلها أو تؤثّر عليها الدعايات والأساليب التي يعتمد عليها الآخرون في تضليل الإنسان رجلًا أو امرأة.

إننا وبالقدر الذي تعانيه نساؤنا من القتل ومن الحصار والاستهداف اليومي لنثمّن ونقدّر ونجلّ ونُعْظِم ما هنّ عليه من الصبر والصمود والثبات في كلّ هذه المراحل بكلّ ما كان فيها من المحن والآلام والأوجاع. والمرأة في بلدنا البعض قُتل كلّ أبنائها، البعض فقدت زوجها، والبعض استشهد الكثير

من أسرتها إمّا أبًا أو زوجًا أو إخوةً أو أبناءً، وعانى الكثير منهنّ المعاناة الكبيرة على مستوى النزوح، ظروف الحرب ومعاناتها، لكنّهنّ برزن على درجةٍ عاليةٍ من الصبر، والصمود والثبات، والقوّة الإيمانيّة والأخلاقيّة، وعلى مستوى عظيم من البذل والعطاء والإحسان، وهذا ما نفتخر به؛ لأنّه ثمرةٌ لقيم ومبادئ يؤمنَّ بها وثقافة ينتمين إليها، ثمرتها كانت هكذا على خطى الصديقات المؤمنات فاطمة، ومريم، وزينب، وغيرهنّ من النساء الكاملات في إيمانهنّ ووعيهنّ، وفي مواجهة كلّ التحدّيات والأخطار.

نحن ندرك الدور الفعَّال والمهمّ والأساس للرجال والنساء معًا، وأنّه دورٌ تكامليٌّ أساسيٌّ وضروريّ في مواجهة كلّ الأخطار والتحدّيات القائمة، هناك استهداف، هناك عمل وجهد كبيرين من جانب الأعداء، واستهداف خارجي وداخلي لبلدنا وشعبنا، بنزعته الاستعماريّة يحاول السيطرة الكاملة على بلدنا، حتّى يفقد بلدنا استقلاله وشعبنا كرامته ونعيش تحت وصايةٍ واستعمارٍ كامل، وعلى مستوى مساعي قوى الاستبداد والعمالة التي تسعى أيضًا كأداة رخيصة وقذرة بكلّ الوسائل الخبيثة لتركيع الشعب اليمني الذي أذهل العالم بصموده وأفشل كلّ مؤامراتهم لإخضاعه للخارج الذي دخلت معه في صفقات قذرة وخبيثة بهدف إذلال بلدهم لأعداء الأمّة أمريكا وإسرائيل ونحن على يقين بأنّها صفقات خاسرة ولن يكون اليمن إلّا كما أراد له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يمن الإيمان والحكمة، يمن الأنصار، يمن الفاتحين، يمن الرجال العظماء، لن يكون إلّا اليمن الذي عرفه التاريخ شعبا أبيًّا ثابتًا شجاعًا يأبى الضيم ولا يرضى بالهوان.

«وهناك استهداف قيمي أخلاقي، محاولات كبيرة وجادّة في مسخ قيم الرجال والنساء الكبار والصغار، ومسخ هويّتهم العربيّة الإسلاميّة الأصيلة، مسخ باسم الدين، ومسخ باسم التحضّر والتقدّم، ومسخ باسم الثقافة، ومسخ وانحطاط باسم الموضة حتّى في اللبس وقصّ الشعر وطريقة الحلاقة وفي تغيير خلق الله.

البعض للأسف ينساق وراءهـم وخصوصًا فئة الشباب والشابّات ويقلّدونهم في أشياء لا تعبّر فقط عن انحطاط في القيم والأخلاق وإنّما هي انحطاط في الذوق، ناسين أو متناسين أنّ هؤلاء أعداء قال الله عنهم: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَلَا ٱلۡمُشۡرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ خَيۡرٖ مِّن رَّبِّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾[١] وأنّ الله قال لنا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ﴾[٢]

يتحتّم على الجميع الوعي واليقظة والتسلّح بثقافة القرآن الكريم فهي ما يمكن أن يحمينا ويحمي مجتمعنا رجاله ونساءه، كباره وصغاره من اختراق الأعداء لقيمنا ومبادئنا وطهارة قلوبنا وزكاء نفوسنا.

كما أنّ علينا القيام بمسؤوليّتنا والتحرّك الجادّ والفاعل والواعي رجالًا ونساء حتّى نضمن لأنفسنا الحريّة والاستقلال، ولشعبنا الكرامة، ولبلدنا الانعتاق من كلّ أغلال الاستعمار وقيود الهيمنة الأجنبيّة، لا غنى لنا عن الثبات والصمود والنهوض بالمسؤوليّة الكاملة لينعم شعبنا بالعدل والحريّة والعزّة والكرامة والأمن والخير والسلام .

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ١٠٥.

(٢) سورة **آل عمران**، الآية ١٠٠.

خاتمة

وختامًا نؤكّد على ضرورة العودة إلى سيرة وحياة السيّدة الصدّيقة فاطمة الزهراء البتول، وبالذات من نسائنا الفاضلات لتكون لهنّ القدوة والأسوة والمثل الأعلى في كلّ جوانب حياتها السلوكيّة والعمليّة كما أراد لنا الله ورسوله ذلك لا أن تنساق نساؤنا وراء المُثُل التي يصنعهم لنا أعداؤنا من النساء الضائعات التائهات الفاسدات عبر المسلسلات والأفلام ومن خلال القنوات الفضائيّة وغيرها؛ لأنّ تقليدهنّ والتخلّق بأخلاقهنّ السيّئة والمنحطّة تيه وضلال في الدنيا وعذاب أليم في الآخرة.

«يجب علينا أن نبحث عن الرجال والنساء الصالحين الصادقين المتّقين من يمثّلون القدوة والأسوة الحقيقيّة وفي مقدّمتهم الأنبياء والشهداء وأعلام الهدى والنساء المؤمنات الصالحات من أهل بيت رسول الله ومن الصحابة وغيرهم من عظماء هذه الأمّة، وحتّى النماذج العظيمة من الرجال والنساء الذين تحدّث عنهم **القرآن الكريم** وقدّمهم لنا قدوات نقتدي بهم، ألسنا ندعوا في صلاتنا كلّ يوم: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ فيجب أن نتعرّف على من أنعم الله عليهم من النبيّين والصدّيقين والشهداء وأعلام الهدى ورثة كتبه وأعلام دينه لنسير خلفهم ونقتدي بهم، ولا شكّ بأنّ أعلام الهدى من آل محمّد صلى الله عليه وآله وسلم في مقدّمة من أنعم الله عليهم، ألسنا نقول في تشهدّنا: (اللهم صلِّ على محمّد وعلى آل محمّد)؟

إذًا هؤلاء بالتأكيد هم في مقدّمة من ندعو الله أن يهدينا صراطهم.

وما يصنعه الشيطان وأولياؤه لنا من قدوات ورموز هم من ندعو الله أيضًا ونطلب منه أن يجنّبنا وأن يبعدنا عن طريقهم فنقول: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ فعلينا أن نتعرّف كذلك على أولياء الشيطان ونتجنّبهم ونبتعد عنهم وعن تقليدهم والتخلّق بأخلاقهم.

حتّى مَن يُقدِّمون كأعلام ضلال باسم الدين يجب أن نتجنّبهم ونبتعد عنهم وعن طريقتهم وعن قنواتهم وعن مدارسهم، وحتّى عن مساجدهم التي هي مساجد ضرار كما قال الله عن أمثالهم من المنافقين في عهد النبي ﷺ ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾[1]، وخصوصًا وقد فضحهم الله وكشف حقيقة أمرهم، ألم تظهر مساجد الوهّابيّة التكفيريّين ومدارسهم بأنّها مساجد ومدارس لتمزيق وضرب هذه الأمّة، وتخدم بامتياز أعداء الأمّة من اليهود والنصارى؟ أليسوا الآن يتحيّون الفرص لضرب الأمّة وتمزيقها وتسخير أبنائها وثرواتها الهائلة لصالح المشروع الأمريكي الإسرائيلي وتحت الإدارة الأمريكيّة وإشراف إسرائيلي بريطاني مباشر؟ هذا شيء قد أصبح أكثر من واضح، وها هم الآن يخوضون معركة شرسة في أكثر من بلد تحت قيادة النظام السعودي وبإدارة أمريكيّة مباشرة ودعم أمريكي إسرائيلي بريطاني لإخضاع أبناء أمّتهم وتركيعهم لأعدائهم».

إنّ من أعظم ما في هذا الزمن أنّ الضالّين والمغضوب عليهم قد اجتمعوا في تحالف واحد بكلّ أطيافهم وألوانهم وأشكالهم وتوجّهاتهم، من يلبس لباسًا دينيًّا متشدّدًا، والانحلالي المجاهر بالمعاصي، اجتمع الأسود والأبيض والأزرق والأصفر والعربي والعجمي كلّهم بقيادة سعوديّة وإدارة

---

(١) سورة **التوبة**، الآيتان ١٠٧ و١٠٨.

أمريكيّة وإشراف إسرائيليّ مباشر فماذا نريد بعد هذا الوضوح الذي هو من مصاديق قول الله سبحانه وتعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾[1].

(١) سورة **فصلت**، الآية ٥٣.

الفصل الثالث: في رحاب الإمام علي عليه السلام

توطئة

إنّ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام هو بحقّ يمثّل أعظم رجل عرفه التاريخ بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إيمانًا وتقوى وشجاعة وعدلًا وعلمًا وحلمًا وتواضعًا وحكمة ورحمة وتضحية وحرصًا على رسالة الله. هذه المؤهّلات الفريدة جعلته بحقّ وجدارة أفضل خريجي مدرسة النبوّة، عايش آلامها وآمالها، وضحّى من أجلها فصار ممّن ينظر إلى عظمة الإسلام من خلال شخصيّته العلميّة والعمليّة وخير من يجسّد سيرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم تجسيدًا في الوعي والمنطق والسلوك.

واستجابة للدعوة التي وجّهها السيّد حسين (رضوان الله عليه) في ذكرى استشهاد الإمام علي عليه السلام عندما قال: «ونحن شيعة علي يجب أن نرجع إلى دراسة تاريخ علي، إلى دراسة سيرة علي عليه السلام؛ لنعرف كيف نقتدي به؟ كيف نسير على خطاه؟ كيف نتمسّك بنهجه؟ كيف نسلك السبيل الذي سلكه؟ كيف ننظر إلى الأمور كنظرته؛ لأنّه بالتأكيد قرين القرآن».

فقد قمت بهذه المحاولة المتواضعة فجمعت ما استطعت من حياة الإمام علي عليه السلام التي هي بحقّ مدرسة متكاملة في كلّ مجالات الحياة، ولا غرابة فهو عليه السلام قرين القرآن، وإذا كان القرآن بحرًا لا يُدْرَكُ قعرُه فإنَّ الإمام عليًّا عليه السلام كان القرآن الناطق، وقد كان اعتمادنا بشكل أساسي في تقديم جوانب من شخصيّة الإمام عليه السلام على ما تناوله السيّد حسين بدر الدين الحوثي (رضوان الله عليه) في محاضراته ودروسه، وكذلك ما ورد عن السيّد عبد الملك بدر الدين الحوثي في محاضراته عن هذا الرجل العظيم. وقد

جعلت الحديث عنه في جزأين، وهذا الفصل هو الجزء الأوّل، يليه - إن شاء الله - الجزء الثاني في تفاصيل موضوع الولاية.

راجيًا من الله سبحانه وتعالى أن يتقبّل هذا العمل بأحسن القبول.

والله الموفق

يحيى قاسم أبو عَوَّاضَة
الجمعة ١٤رمضان ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤/٧/١١م

مقدّمة

نتحدّث عن الإمام علي عليه السلام لما لذلك من أهميّة بالنسبة لنا كمسلمين في علاقتنا بهذا الرجل العظيم؛ تلك العلاقة الإيمانيّة التي يتحتّم علينا فيها أن نكون محبّين له لأنّ حبّه إيمان وبغضه نفاق، وأن نتطلّع إليه باعتباره النموذج الإيماني الأرقى والأكمل في أمّة محمّد ومن أتباع محمّد ومن تلاميذ محمّد رسول الله خاتم النبيين صلى الله عليه وآله وسلم وأن نتطلّع إليه باعتباره حلقة الوصل ما بيننا وبين نبيّنا، ما بعد وفاة نبيّنا صلى الله عليه وآله وسلم في حمله راية الإسلام ولمشروع الإسلام في روحيّته وفي معارفه وفي علمه وفي أخلاقه وفي مواقفه.

وهناك نصوص وأحاديث أجمعت الأمّة على صحّتها ونقلتها الفرق والمذاهب المختلفة فيما تدلّ عليه من مقامه ومن دوره ومن كماله الإيماني العظيم سنذكر بعضها ضمن هذا البحث.

الإمام علي عليه السلام منهج متكامل، مدرسة متكاملة تلتقي به وأنت تتعرّف على الإسلام في أحكامه وشرائعه، تلتقي به كنموذج عظيم في موقع القدوة والأسوة في اتباع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، تلتقي به في التراث الإسلامي في كلّ المجالات وفي كلّ الجوانب، ولكن للذكرى وللاستفادة.

حينما نتحدّث عن الإمام علي عليه السلام من أهمّ ما نستفيده بشأنه عليه السلام أنّنا نرى فيه إبداع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وثمرة جهده. الإمام علي عليه السلام هو تربية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو الذي ربّاه، هو الذي علّمه، هو الذي اهتمّ به، فكلّ ما نراه من عظمة في شخصيّة علي عليه السلام فيما نراه من أخلاق، فيما كان

عليه من علم، فيما كان عليه من ارتقاء أخلاقي وإنساني وكمال هو شاهد للنبي ﷺ، هو أثر للنبي ﷺ، هو نتاج لجهود النبي ﷺ، هو دلالة على عظمة النبي ﷺ.

فالنبي ﷺ واحد من تجلّيات وآثار عظمته، وآثاره وأخلاقه ما نجده في الإمام علي عليه السلام، والحديث عن الإمام علي عليه السلام وفي محطّات محدودة عن ولادته ونشأته وغيرها تُذكر كشواهد ونماذج - هذا هو المهمّ - نستفيد منها ونتطلّع من خلالها إلى غيرها وإلى ما ورائها.

أوّلًا- الولادة والنشأة والمميّزات

ولد الإمام علي عليه السلام بمكّة المكرّمة، في بيت الله الحرام، يوم الجمعة ١٣ ليلة خلت من شهر رجب لثلاثين سنة خلت من عام الفيل وهو اليوم السابع من أيلول، كما رواه السيّد أبو طالب[١].

أبوه أبو طالب سيّد قريش وزعيمها تقلّد الزعامة بعد أبيه عبد المطلب بن هاشم الذي أوصى أبا طالب برعاية حفيده محمّد صلى الله عليه وآله وسلم، فقد كان عبد المطلب يعرف جيّدًا ما يضمره أبو طالب من حبّ وحنان وعطف على حفيده محمّد. ولقد كان كما توسّم فيه أبوه عبد المطلب حيث كان أبو طالب الحامي والناصر والمدافع عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ودعوته حتّى فارق الحياة.

وأمّه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف بن قصي، وهو أوّل هاشمي ولد من هاشميّين، ولم يولد في بيت الله الحرام قبله أحد ولا بعده شرف اختصّه الله به وهو وحده وليد البيت المعمور.

كان للإمام علي عليه السلام خصوصيّات عجيبة جدًّا، هو عليه السلام وليد الكعبة المشرّفة، وهذه الميزة لم تكن لغيره، ففي السِّيَر وفي الأخبار أنّ والدته (رحمة الله عليها) عندما أصابها الطلق والمخاض ذهبت إلى الكعبة لتدعو الله أن

(١) ذكر ذلك السيّد العلامة مجد الدين المؤيدي رحمه الله في **لوامع الأنوار**.

يسهّل عليها ولادتها، فأخذها طلق الولادة ومخاضها الولادة وألجأها ذلك إلى دخول الكعبة ووضعت فيها، فكان وليد الكعبة.

وهذا كان من لطف الله به وصنيع الله له، ورعاية الله والإعداد له لدور كبير ومهمّ في إطار النبي ﷺ وفيما بعد وفاة النبي ﷺ.

أمّا فيما يخصّ نشأته، فليست الصدف هي التي لعبت دورها في مجال نشأة الإمام علي عليه السلام وتأهيله، ولا الحظّ هو الذي خطّ طريق كمالات هذا الإنسان، بل تلمس أنّ هناك يدًا خفيّة هي يد الله وعنايته بهذا الإنسان الذي سوف يكون الامتداد الطبيعي للسنّة الإلهيّة في الهداية حينما تكمل مسيرة الرسالة المحمّدية في الدنيا وتنقضي أيّامها ويرحل مبلّغها إلى الرفيق الأعلى.

ولأنّ هذا الإنسان يحتاج إلى إعداد خاصّ، فقد تمّ تأهيله في مدرسة خاصّة على يد أمهر الأساتذة وأكملهم فكان الإسلام مدرسة علي وكان رسول الله محمّد ﷺ مُعَلِّمَهُ ومربّيه، فتح عينيه للنور، رأى نور رسول الله محمّد، ومنذ عرف الكمال عرفه في رسول الله محمّد وتعاليمه السامية.

لقد كتب الله لهذا الطفل أن ينتقل إلى بيت رسول الله محمّد وهو لا يزال في الرابعة من عمره وآخاه النبي ﷺ وقام بتربيته وإعداده لمستقبل الأيّام[١].

---

(١) قال ابن إسحاق: وحدّثني عبد الله بن أبي نَجِيْحٍ، عن مجاهد بن جَبْرٍ أبي الحجّاج قال: وكان من نعمة الله على علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه)، وممّا صنع الله له، وأراد به من الخير أنّ قريشًا أصابتهم أَزْمَةٌ شديدة، وكان أبو طالب مُعْسِرًا؛ فقال رسول الله ﷺ للعبّاس عمّه وكان من أيسر بني هاشم: (يَا عَبَّاسُ قَدْ أَصَابَ النَّاسَ مَا تَرَى مِنْ هَذِهِ الأَزْمَةِ، فَانْطَلِقْ بِنَا إِلَيْهِ فَلْنُخَفِّفْ عَنْهُ مِنْ عِيَالِهِ)؛ فقال العبّاس: نعم، فانطلقا فقالا له: إنَّا نريد أنْ نُخَفِّفَ عنك من عيالك حتّى ينكشف عن الناس ما هم فيه، فقال لهما: إذا تركتما لي عَقِيْلًا فاصنعا ما شئتما، فأخذ العبّاس جعفرًا، وأخذ رسولُ الله ﷺ عليًّا فضمَّه إليه، فلم يَزَلْ عَلِيٌّ مع رسول الله ﷺ حتّى بعثه الله تبارك وتعالى نَبِيًّا، فاتَّبَعَهُ عليّ عليه السلام وآمن به وصدّقه، ولم يفارق عليٌّ رسول الله حتّى أنزله القبر، وكان آخِرَ الناسِ عَهْدًا به) من سيرة الدكتور المحطوري.

هكذا أراد الله أن ينضمَّ علي إلى أسرة رسول الله؛ فيكون تحت رعايته، ويعيش في حجره، يتنسّم عطر النبوّة، ويشمّ عَرْف الرسالة، ويتبعه في كلّ أفعاله وأعماله وخصائصه ومميّزاته، حتّى أضحى ظلّ النبي الذي لا يفارقه، وربيبه الذي لا ينفكّ عنه. ورثه في جميع خصاله النفسيّة والدينيّة وهذا ما أفصح عنه علي عليه السلام نفسه في بعض كلماته حيث قال: «وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعِي مِنْ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم بِالْقَرَابَةِ الْقَرِيبَةِ، وَالمَنْزِلَةِ الخَصِيصَةِ. وَضَعَنِي فِي حِجْرِهِ وَأَنَا وليدٌ يَضُمُّنِي إِلَى صَدْرِهِ، وَيَكْنُفُنِي فِي فِرَاشِهِ، وَيُمِسُّنِي جَسَدَهُ، وَيُشِمُّنِي عَرْفَهُ[١]، وَكَانَ يَمْضَغُ الشَّيْءَ ثُمَّ يُلْقِمُنِيهِ، وَمَا وَجدَ لِي كَذْبَةً فِي قَوْل، وَلاَ خَطْلَةً[٢] فِي فِعْل.

وَلَقَدْ قَرَنَ اللهُ تَعَالَى بِهِ صلى الله عليه وآله وسلم مِنْ لَدُنْ (أَنْ) كَانَ فَطِيمًا أَعْظَمَ مَلَكٍ مِنْ مَلائِكَتِهِ يَسْلُكُ بِهِ طَرِيقَ الْمَكَارِمِ، وَمَحَاسِنَ أَخْلاَقِ الْعَالَمِ، لَيْلَهُ وَنَهارَهُ، وَلَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ اتِّبَاعَ الْفَصِيلِ[٣] أَثَرَ أُمِّهِ، يَرْفَعُ لي فِي كُلِّ يَوْم عَلَمًا[٤] مِنْ أَخْلاقِهِ، وَيَأْمُرُني بِالاقْتِدَاءِ بِهِ.

وَلَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ فِي كُلِّ سَنَة بِحِرَاءَ[٥]، فَأَرَاهُ وَلاَ يَرَاهُ غَيْرِي، وَلَمْ يَجْمَعْ بَيْتٌ وَاحِدٌ يَوْمَئِذٍ فِي الإِسْلاَمِ غَيْرَ رَسُولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم وَخَدِيجَةَ وَأَنَا ثَالِثُهُمَا، أَرَى نُورَ الْوَحْيِ وَالرِّسَالَةِ، وَأَشُمُّ رِيحَ النُّبُوَّةِ.

وَلَقَدْ سَمِعْتُ رَنَّةَ الشَّيْطَانِ حِينَ نَزَلَ الْوَحْيُ عَلَيْهِ صلى الله عليه وآله وسلم فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا هذِهِ الرَّنَّةُ؟ فَقَالَ: «هذَا الشَّيْطَانُ قَدْ أَيِسَ مِنْ عِبَادَتِهِ، إِنَّكَ تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ، وَتَرَى مَا أَرَى، إِلَّا أَنَّكَ لَسْتَ بِنَبِيٍّ، وَلكِنَّكَ وَزِيرٌ، وَإِنَّكَ لَعَلَى خَيْر»[٦].

(١) عَرْفه - بالفتح -: رائحته الذكيّة.

(٢) الخَطْلَة: واحدة الخَطَل - كالفرحة واحدة الفرح - والخطل: الخطأ ينشأ عن عدم الرويّة.

(٣) الفَصِيل: ولد الناقة.

(٤) عَلَمًا: أي فضلًا ظاهرًا.

(٥) حِراء بكسر الحاء: جبل على القرب من مكّة.

(٦) خطب الإمام علي عليه السلام، **نهج البلاغة**، شرح الشيخ محمّد عبده (قم: دار الذخائر، الطبعة١، ١٤١٢هـ/ ١٣٧٠هـ.ش)، الجزء ٢، الصفحة ١٥٨، الخطبة القاصعة في ذمّ الكبر وتقبيح الاختلاف.

ويقول عليه السلام معبرًا عن مكانته من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «وَأَنَا مِنْ رَسُولِ اللهِ كَالصِّنو مِنَ الصِّنو وَالذِّرَاعِ مِنَ الْعَضُدِ»(١).

إذًا، لقد اعتنى النبيّ في كماله العظيم بالإمام علي عليه السلام، وفي نفس الوقت كان هناك قابليّة جدًا وتأثّر كبير كالأرض الطيّبة الخصبة جدًا التي ينبت فيها ما بُذر فيها، ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ﴾(٢)، الإمام علي كان كالأرض الطيّبة الخصبة جدًّا، ما ألقي فيها من بذور نبتت فيها ونمت، فهذه القابليّة العالية جدًّا هي التي جعلته يتفاعل، ويتأثر تأثّرًا كبيرًا، ينتفع انتفاعًا كبيرًا بما يبذله النبي من جهود في تربيته، ونتاج هذه التربية.

وحينما بُعث النبي رسولًا كان علي لا يزال عنده في منزله، يحظى بتربيته، يلازمه، وبالتالي كان الإمام علي عليه السلام مع خديجة زوجة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أوّل المسلمين. وسبق إلى ذلك كلّ أبناء الأمّة لم يكن قد سبق إسلامُه شرك، أو تلوثٌ بدنس الجاهليّة ورجسها. لا، النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم نفسه كذلك كان موحّدًا قبل مبعثه رسولًا، وكان على الحنيفيّة، على دين إبراهيم عليه السلام، لم يسبق إيمانه أو مبعثه شيء من الشرك وعبادة الأصنام أو التلوّث أيضًا بشيء من رجس الجاهليّة، لا، كان طاهرًا وكان زكيًّا وكان يحظى برعاية خاصّة وطهارة وحفظ وصون من الله سبحانه وتعالى.

فالإمام عليّ عليه السلام في ظلّ هذه التربية وهذا الارتباط بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم حفظ في هذه التربية الجو الراقي والإيماني، حُفظ من أن يسجد لأيّ صنم، أو أن يعبد غير الله سبحانه وتعالى، ولذلك تعارفت الأمّة أن تقول عن الإمام علي عليه السلام، كرَّم الله وجهه من باب الاخصاص له، لأنّه لم يسجد لصنم قطّ.

---

(١) المصدر نفسه، الجزء ٣، الصفحة ٧٣، من كتاب له إلى عثمان بن حنيف والي البصرة.

(٢) سورة **الأعراف**، الآية ٥٨.

لقد نشأ الإمام عليٌ عليه السلام نشأةً طاهرةً، صالحةً، زكيةً، لم يتلوّث فيها بأيّ من رجس الجاهليّة وكلّ ما كان فيها من أشياء سيّئة بصفة تقاليد أو عادات في طعام وشراب وغير ذلك.

مميّزات أمير المؤمنين علي عليه السلام

اتصف الإمام علي عليه السلام بمميّزات منها:

١- كان أوّل الناس إسلامًا

كان الإمام علي عليه السلام في مساره الإيماني متميّزًا منذ بدايته فلقد كان السابق إلى الله سبحانه وتعالى في الإيمان قبل غيره من أبناء الأمّة، وأوّل المؤمنين إيمانًا وإسلامًا[١] بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم الإثنين، وأسلم عليّ يوم الثلاثاء.

عن ابن عبّاس في حديث عشر فضائل لعلي عليه السلام قال: وكان أوّل مَن أسلم من الناس بعد خديجة[٢].

وقد عبّر الإمام عن ذلك - كما سبق - بقوله: «وَلَمْ يَجْمَعْ بَيْتٌ وَاحِدٌ يَوْمَئِذ فِي الإِسْلاَمِ غَيْرَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم وَخَدِيجَةَ وَأَنَا ثَالِثُهُمَا».

(١) ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق** (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، ١٤١٥هـ)، الجزء ٤٢، الصفحة ١٦٧. و**بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٣٧، الصفحة ٢٦٨.

(٢) وذكر السيّد العالم بدر الدين الحوثي رحمه الله في كتابه **إرشاد الطالب** حديث ابن عبّاس بأن عليًا عليه السلام أوّل مَن أسلم من الرجال، وقال في حاشية الكتاب: أخرجه أحمد بن حنبل في **المسند**، الجزء ١، الصفحة ٣٣١، و**بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٣٨، الصفحة ٢٧٢.

وقال الدكتور المحطوري في كتاب **السيرة**: قال ابن إسحاق: ثمّ كان أَوَّلَ ذَكَرٍ من الناس آمن برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وصَلَّى معه وصَدَّقَ بِمَا جاءه من اللهِ تعالى عَلِيُّ بنُ أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم (رضوان الله وسلامه عليه)، وهو يومئذ ابن عشر سنين، روى عفيف الكندي - وكان تاجرًا - أنّه جاء إلى مكّة فشاهد رجلًا وغلامًا وامرأةً يُصَلُّونَ، فَسَأَلَ العبّاسَ؛ فأخبره بِأَنَّ الرَّجُلَ مُحَمَّدٌ، وَالغُلاَمَ عليٌّ، وَالمرأَةَ خديجةُ، وقال: هذا دِيْنٌ جاء به ابن أخي، وما على وجه الأرض على هذا الدين غيرُ هؤلاءِ الثلاثة.

وممّا تميّز به الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ وتفرّد به أنّه لم يسبق إيمانه أيّ شرك ولا انحراف في عبادةِ غيرِ الله سبحانه وتعالى؛ فلم يسجد للأصنام، ولم تتدنّس برذائل الجاهليّة ومفاسدها.

حظي الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ بتربية رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ منذ طفولته فربّاه الرسول أكرم وأحسن تربية، وعلّمه مكارم الأخلاق، وهو مهيّأ بفطرته وبما أعطاه الله من المؤهّلات ليكون نعم المتلقّي ونعم المتربّي. واستمرّت عناية الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ واهتمامه في مرحلة الطفولة، وفيما تبقّى من تاريخ الإسلام من مرحلة حياته مع رسول الله حتّى وفاة رسول الله على ارتباط وثيق وخصوصيّة لا مثيل لها فيما يتعلّق بالآخرين، فكان أخصّ الناس برسول الله ملازمة وعناية وتربية وإعدادًا وتعليمًا، وكانت كلّ جهود رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في تربية تلميذه هذا الرجل العظيم وفي إعداده وفي بنائه تتجلّى وتتضح في الواقع العملي فتبرز في علي عَلَيْهِ السَّلَامُ مكارم الأخلاق والصفات العظيمة الإيمانيّة ويتبيّن له في الواقع العملي الدور المميّز في كلّ مجالات الإيمان.

وكان هو في كلّ مسارات الإيمان ومقاماته الرجل الصادق مع الله سبحانه وتعالى، الرجل الوفيّ مع مبادئه ودينه الذي لم يتغيّر ولم يتبدّل ولم يساوم في دينه، وحين آل إليه أمر الأمّة أرسى دعائم الدولة الإسلاميّة على أسس من العدل، وواجه مشاكل كبيرة؛ لأنّه أراد إقامة الدولة الإسلاميّة على دعائم من العدل الخالصة وواجه مشاكل كبيرة ومعاناة كبيرة، فثبت ولم يساوم لأنّه لم يكن همّه فقط السلطة والوصول إلى المنصب فلم تساوِ نعله إلّا أن يقيم حقًّا أو يبطل باطلًا كما قال هو عَلَيْهِ السَّلَامُ[1].

٢- كان تلميذًا متميّزًا والأكثر استيعابًا

الإمام عليٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ منذ بداية مشواره مع الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وبحكم ملازمته للنبي وارتباطه الوثيق بالنبي وتميّزه ووعيه العالي، وحاز فضيلة السبق إلى الإسلام

---

(١) من محاضرة السيّد عبد الملك بدر الدين الحوثي في ذكرى استشهاد الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ لعامّ ١٤٣٤هـ.

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾[١] منذ انبثاق نوره ومن دون أيّ تردّد أو تأخّر أو تلكّؤ فكان كلّ قلبه وكلّ روحه وكلّ حياته ذوبانًا في الإسلام وامتزجًا به؛ فكان خلقه الإسلام وقضيّته الإسلام.

كما إنّه في كلا المرحلتين، في المرحلة الأولى التي هي مرحلة نشوء الإسلام، وبداية حركة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وفيما بعد، بما في ذلك تلك المرحلة الحسّاسة من تاريخ الأمّة كان شخصيّة متميّزة لها مقامها ومستواها العظيم، كان هو التلميذ الأكثر استيعابًا، والأكثر والأعظم تأثرًا بتربية النبي صلى الله عليه وآله وسلم منذ البداية، كان له من الاختصاص بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم ما لم يكن لغيره من أصحاب النبي، ومن سائر المؤمنين، وكان لديه القابليّة العالية جدًّا في كلّ الاتجاهات بأن يكون هو التلميذ النموذج بين كلّ تلاميذ النبي المؤمن الأرقى في إيمانه، استنارة، ووعيًا، وأخلاقًا، وعملًا وتميُّزًا بشكل عام.

هذا ما شهد به له النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وعبَّر عنه في أكثر من مقام، وأيضًا ما أثبته الواقع والتاريخ؛ تاريخ علي، مواقفه، سيرته، أخلاقه، قِيَمُه، فلذلك كان بكلّ جدارة هو النموذج التطبيقي للفرد المؤمن على أرقى مستوى، النموذج الأكمل، فإذا أردت أن ترى أكمل إنسان مسلم من تلاميذ النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأعظمهم تأثُّرًا بالنبي وبتربيته، واقتبس من النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وتأسَّى به، وانطبع بطابعه الإيماني والتربوي والأخلاقي، وتأثّر بالقرآن الكريم فهي علي عليه السلام.

إذا أردت أن تعرف معالم الإسلام في مبادئه، وأثره في تربيته، وأردت أن ترى أخلاق الإسلام، ومشروع الإسلام، مُتجسّدًا حركة واقعيّة في الحياة، فأعظم وأكمل من يقدم لك ذلك من تلاميذ النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ممّن ربّاهم النبي، من أتباع هذا الإسلام هو الإمام علي عليه السلام. فكان في كلّ الاتجاهات، في تعبيد نفسه لله سبحانه وتعالى، في جهاده، في كلّ أخلاقه، في كلّ أبعاد شخصيّته، يمثّل الإسلام على أرقى مستوى. ولهذا، فإنّ الأمّة أحوج ما تكون

(١) سورة **الواقعة**، الآيات ١٠ - ١٢.

إلى أن تقرأ سيرة علي، وأن تستفيد منه فيما تحتاج إليه؛ لترى النموذج التطبيقي الموثوق به؛ مقارنة مع كثيرين ممّن يحسبون أنفسهم على الإسلام، فيما يقدمونه من سلوك، وأعمال، ومواقف، وتوجّهات.

يروى أنّه دخل رجل من المؤمنين اسمه أبو ثابت، على أم سلمة زوج النبي ﷺ وكانت من خيار نساء النبي، فقالت له: يا أبا ثابت أين طار قلبك حين طارت القلوب مطائرها؟ أين اتجهت أنت مع من؟ إلى أين؟ فقال لها: تبع علي بن أبي طالب، قالت: وفّقت، والذي نفسي بيده لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «علي مع الحقّ والقرآن والحقّ والقرآن مع علي ولن يتفرقا حتّى يردا علي الحوض»[١].

واستأذن ذات مرّة عمّار بن ياسر على الرسول ﷺ، وكان الرسول في بيت أبي أيوب الأنصاري، فكان أنس هو الذي على الباب، فقال أنس بن مالك حينما سأله الرسول عن الطارق على الباب قال: عمّار، قال: افتحوا لعمّار الطيب المطيَّب، فدخل عمّار فتحدّث معه الرسول بحديثٍ واسع كان من ضمنه أن قال له: «فإن سلك الناس واديًا وعلي واديًا، فاسلك وادي علي وخلِّ عن الناس، يا عمّار إن عليًّا لا يردّك عن هدى، ولا يدلّك على ردى، يا عمّار طاعة علي طاعتي، وطاعتي طاعة الله عزّ وجل»[٢]. وهكذا، نجد في توصيات الرسول المتكرّرة والكثيرة التي لفت بها نظر الأمّة إلى هذا الرجل العظيم كعلمٍ للحقّ، وقرينٍ للقرآن، وكهادٍ للأمّة تهتدي به.

وحينما نأتي إلى التعبير والنصّ القرآني، فلربّما هو - وبالتأكيد - الأقدر على أن يقرّب إلى أذهاننا، ومفاهيمنا واستيعابنا الموقع العظيم للإمام علي عليه السلام في نصرة النبي، ونصرة الإسلام، ونصرة الحقّ، هناك نصّ قرآني يعبّر عن هذا بأرقى تعبير، قال الله سبحانه وتعالى - وهو يحكي عن النبي ﷺ -: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ﴾ المقام كان مقامًا يخاطب بعض نساء

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٣٨، الصفحة ٣٦.

(٢) المصدر نفسه، الجزء ٢٨، الصفحة ٦٨.

النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ولكن اتجه المقام إلى موضوع عامّ، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾(١). لقد عبّر القرآن عن الإمام علي عليه السلام بصالح المؤمنين وهو تعبير يثير الدهشة ويحتاج إلى تأمّل.

لقد واجه النبي صلى الله عليه وآله وسلم خلال دعوته وإبلاغه للرسالة الكثير من التحدّيات، المتمثّلة بخطر الكافرين، والمشركين، والمنافقين، وغيرها وبذلوا جهدًا جبّارًا بشتّى الوسائل لإطفاء نور الله، وفي وأد هذا المشروع الإلهي، وفي القضاء على الرسالة.

هذه التحدّيات الكبيرة التي كانت في كلّ الدنيا من طغيان وشراسة وجبروت وجاهليّة، تحرّكت بكلّ قواها، وبكلّ ما تستطيع لتستهدف نبي الإسلام، وحركة رسالته، ولكن كان إلى جانبه مَنْ؟ الله سبحانه وتعالى ناصرًا ومؤيدًا ومعينًا، ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾(٢). كان هو الناصر العظيم، والولي لهذا النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾(٣)، في إمداد الله له، وتأييده وكان من ضمن هذا المدد: جبريل الذي كان له دور أعظم من مستوى إيصال الرسالة الإلهيّة إلى النبي وهذا الدور يؤكده القرآن.

ويأتي إلى جانب هذا الدور في الحركة الميدانيّة، في مواجهة التحدّيات والأخطار موقع مهمّ: ﴿وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ﴾ لم يقل مثلًا: والمؤمنون وصالح المؤمنين، لم يقل: والمؤمنون وجبريل، لا.. قبل كلّ المؤمنين، هناك من بين هؤلاء المؤمنين دور هو الأكثر تميّزًا، الأكثر فاعليّةً، الأكثر تأثيرًا، الأرقى والأعلى مكانًا، ومقامًا عند الله سبحانه وتعالى ﴿وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ﴾.

---

(١) سورة **التحريم**، الاية ٤.

(٢) سورة **التوبة**، الآية ٣٣.

(٣) سورة **النساء**، الآية ٤٥.

من هو صالح المؤمنين؟ الروايات نقلت، والواقع أكّد: أنّه الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ، وله هذه السِّمَة، وهذا الوصف العظيم، الذي يقدّمه من بين المؤمنين، أنّه أرقاهم إيمانًا، أعلاهم منزلةً، أفضلهم عند الله سبحانه وتعالى، وأعلاهم في الواقع الفعلي الحركي في نصرة الإسلام، ونصرة نبي الإسلام صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فكان هو الجندي المخلص للرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، الأكثر فاعليّة وتأثيرًا في التصدّي لكلّ أولئك الأعداء، ولكلّ تلك المخاطر، وفي مواجهة كلّ تلك التحديات، ﴿وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ أتى موقع الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ، وبهذا التعبير القرآني العظيم والراقي، ما بين جبريل والملائكة. وهذا المستوى العالي باعتبار الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ يمثّل الامتداد الحقيقي للإسلام، والإيمان الحقيقي في مواجهة النفاق، جُعل علامة فارقة يتميّز من خلال حبّه وبغضه المؤمن من المنافق[١].

٣- أوّل فدائي في الإسلام

من مواقف الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ الشهيرة والمتميّزة والمبكرة في صدر الإسلام مبيته في فراش الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ليلة الهجرة في حادثة تستدعي أن يكون من يقوم بتلك المهمّة حاضرًا لبذل حياته في سبيل الله فتحرّك الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ للهجرة وأمّ غطاءً أمنيًّا حتّى لا ينتبه المشركون لحركته وخروجه من بيته فكان أن أوكل هذه المهمّة الفدائيّة الاستشهاديّة إلى الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي كان على استعداد تامّ وبدون أي تردّد لبذل روحه وحياته في سبيل الحفاظ على حياة الرسول من أجل الله ومن أجل الإسلام، وكان أن قال للرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «أَوَ تَسْلَمُ يا رسول الله؟» فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «نعم»، قال: فاذهب راشدًا مهديًّا، وبقي على فراشه ونزلت الآية القرآنيّة المباركة التي كان أوّل مصاديقها هو الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾[٢].

---

(١) من محاضرة السيّد عبد الملك في ذكرى استشهاد الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ لعام ١٤٣٧هـ.

(٢) سورة **البقرة**، الآية ٢٠٧.

فكان علي عليه السلام هو النموذج والمصداق الأوّل لهذه الآية المباركة وهذا يدلّل على حقيقة الإيمان وسموّ أخلاق الإسلام عندما يكون الإنسان بهذا المستوى من الحضور للبذل والعطاء والتضحية لا حدود لعطائه ومواقفه؛ يستعدّ أن يجود بنفسه وأن يعرّض نفسه لأيّ خطر مهما كان، فكان هذا من بداية المواقف التي سجّلها التاريخ لهذا الجندي العظيم بطل الإسلام ورجله، ورجل المسؤوليّة ورجل المواقف الكبيرة والمهمّات الصعبة[١].

أمّا في بدر وهي الملحمة الكبرى الأولى للمسلمين والإسلام في مواجهة قوى الطاغوت والشرك الاستبداديّة الظالمة الطاغوتيّة فكان الإمام علي عليه السلام في هذه المرحلة من تاريخ الإسلام متميّزًا بمواقفه التي سجّلها التاريخ لدرجة أنّ الحد الأدنى فيما تنقله الروايات لقتل الأعداء في معركة بدر الكبرى الذين قتلهم علي عليه السلام بنفسه كان يعادل ثلث قتلى العدوّ. هكذا كان دوره رجلًا عظيمًا وبطلًا ثابتًا سخّر كلّ شجاعته وتفانيه وعوامل التضحية والفداء لديه لإحقاق الحقّ وإزهاق الباطل وإقامة الإسلام الدين الحقّ.

وكذلك نشهد للإمام علي عليه السلام مواقفه المتميّزة والفريدة والواضحة داخل الجيش الإسلامي في (أحد) عندما انهزم المسلمون فكان الثابت الذي لا يتزحزح ولا يتزلزل ويوكل على نفسه مهمّة أساسية في الذبّ عن شخصيّة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في مرحلة كان صلى الله عليه وآله وسلم يتعرّض فيها للقتل، فكان يردّ الكتيبة تلو الأخرى عن شخص النبي لاستهدافه فيقول: أدفعهم عنّي يا علي، فيتحرّك ليقتل قائد تلك الكتيبة ثمّ يدفع الكتيبة الأخرى وهذا موقف متميّز سجّله له التاريخ. وفي هذا اليوم، نادى منادٍ: «لا سيف إلّا ذو الفقار ولا فتى إلّا علي»[٢].

أمّا عن موقفه المتميّز يوم (الخندق) عندما برز عمر بن عبد ودّ العامري، والذي كان يمثّل دورًا كبيرًا لنصرة الشرك وعاملًا معنويًّا مهمًّا في رفع

(١) من محاضرة السيّد عبد الملك في ذكرى استشهاد الإمام علي عليه السلام لعام ١٤٣٣هـ.

(٢) ابن هشام، **السيرة النبويّة**، الجزء ٣، الصفحة ٦١٥.

معنويّات العدوّ باعتباره أحد الأبطال المشهورين وفرسان الكفر والشرك والطاغوت المعروفين ببطولتهم واستبسالهم وبراعتهم في القتال وشدّة بأسهم فكان مهابًا ولكنّه عندما برز وجعل يتحدّى وينادي بأعلى صوته ينادي: هل من مبارز؟ قال الرسول: من يبرز له وأنا أضمن له الجنّة فكان علي هو المتقدّم لهذه المهمّة فيعرض نفسه ويقدّم استعداده للقيام بهذه المهمّة بكلّ رغبة وللمرّة الثانية والثالثة يجب علي ليقول الرسول ﷺ كلمة مهمّةً سجلها التاريخ: «برز الإيمان كلّه إلى الشركِ كلّه»، برز يحمل الإيمان في قلبه عقيدةً ومبدأ وفي روحه عزمًا وإرادة وصلابة وكان في موقفٍ حاسم يمثّل فيه قوّة الإيمان في زيف طغيان الشرك وجبروته فكان أن انتصر الإيمان وانتصر علي وانتصر الإسلام وقتل عمر بن عبد ودّ وكان قتله عاملًا مهمًّا في إضعاف معنويّات الأعداء.

وقد وصف رسول الله ﷺ موقف عليّ يوم الخندق بقوله: «لَمبارزة عليّ بن أبي طالب لِعمرو بن عبد ودٍّ يوم الخندق أفضل من أعمال أُمّتي إلى يوم القيامة»[١].

ثمّ في خيبر في الصراع مع اليهود وبعد حالة من الهزيمة والتراجع للجيش الإسلامي مع غياب علي عليه السلام في القصّة المشهورة التي ذكرتها السير والتواريخ يتميّز دور علي عليه السلام في اللحظات الأخيرة وقد قدّم الرسول ﷺ موقفًا مهمًّا ودرسًا كبيرًا للأمّة إلى قيام الساعة التي سيكون لها صراع محموم مع هذه الفئة الظالمة والطاغية فقال كلمته المشهورة: «لأعطينّ الراية غدًا رجلًا يحبّ الله ورسوله ويحبّه الله ورسوله كرار غير فرار يفتح الله على يديه»[٢]و[٣].

---

(١) الحاكم النيسابوري، **المستدرك**، الجزء ٣، الصفحة ٣٢. وأيضًا: الخطيب البغدادي، **تاريخ بغداد**، الجزء ١٣، الصفحة ١٩.

(٢) البخاري، **صحيح البخاري**، الجزء ٤، الصفحة ٢٠. الهيثمي، **مجمع الزوائد**، الجزء ٦، الصفحة ١٥٠. ابن هشام، **السيرة النبويّة**، الجزء ٣، الصفحة ٧٩٨. والعلّامة المجلسي، **بحار الأنوار**، الجزء ٢١، الصفحة ٣.

(٣) من محاضرة السيّد عبد الملك في ذكرى استشهاد الإمام علي عليه السلام لعام ١٤٣٣هـ.

لقد فتح عليّ عليه السلام الحصنَ ومعه المقاتلون المسلمون فانهارت مقاومة يهود خيبر ونصر الله نبيّه ودمّرت تلك القوّة العسكريّة المنيعة.

وفي تبوك، كان للإمام علي عليه السلام دوره الريادي فحين تواردت الأنباء إلى الرسول القائد صلى الله عليه وآله وسلم من أنّ الرّوم أعدّوا العُدّة لِغَزوِ الأجزاء الشماليّة من الجزيرة العربيّة، والّتي تُعتبر جزءًا من الدولة الإسلاميّة قرّر صلى الله عليه وآله وسلم أن يقود بنفسه الحملة العسكريّة لمواجهتهم وأصدر أوامره لاستنفار المسلمين في المدينة المنوّرة وخارجها، وأبقى علي عليه السلام في المدينة لحمايتها من المكائد وحماية من فيها، ولم تنفع دعايات المغرضين لبثّ فتنة بين علي عليه السلام ومحمّد صلى الله عليه وآله وسلم وكانت مقولة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى إلّا أنه لا نبي بعدي»[١].

وكم أسطر لك من بطولات علي عليه السلام وصفحات جهاده المشرقة التي تشعّ بالمجد والعزّة والإخلاص.

فدونك تاريخ الإسلام في عصره الأوّل في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأمعن النظر في صفحاته كي تحدّثك بفضل علي على الإسلام رسالة وأمّة وتاريخا.

على أنّ الجانب المعنوي في جهاد الإمام علي ليس مجدًا في حجم البطولات وعدد المعارك التي خاض غمارها فحسب وإنّما في صدق النيّة وحجم الإخلاص الذي امتلأ به قلب علي وهو يخوض تلك الحروب ببسالة فائقة وشجاعة نادرة وصمود لا يردّ.

ومن أجل ذلك، كان القرآن الكريم يثني على تلك الروح التي كان يحملها أمير المؤمنين عبر كفاحه من أجل إعلاء كلمة الله في الأرض ويؤكّد على ذلك. فعلى إثر حوار تفاخري بين طلحة بن شيبة والعبّاس بن عبد المطلب قال فيه طلحة: أنا أولى الناس بالبيت لأنّ المفتاح بيدي. فقال العبّاس: أنا أولى، أنا صاحب السقاية والقائم عليها. وفيما كانا يتفاخران مرّ الإمام عليه السلام

(١) آيات من سورة **المائدة** - الدرس الرابع.

فافتخر عليهما بقوله: لقد صلّيت قبل الناس وأنا صاحب الجهاد فنزل قول الله تعالى في ذلك كاشفًا عن المستوى العظيم الذي يتبوّؤه علي عليه السلام من ناحية عمله الإسلامي: ضخامة وإخلاصًا بعدًا وجوهرًا ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[١].

يقول السيّد عبد الملك بدر الدين الحوثي:

وباختصار فقد كان في كلّ مواطن الإسلام الكبرى ومعاركه الفاصلة والحاسمة مع أعدائه البطل والرجل المتميّز بفدائيّته وتضحيته وتفانيه في سبيل الله سبحانه وتعالى، فكان هو الذي يتصدّى لصناديد الشرك وأبطال الكفر والمردة المتعنّتين الذين كان لهم شهرة ببطولتهم وبراعتهم القتاليّة والذين كانوا يمثّلون أعمدة وأساطين لقوى الشرك والطاغوت يعتمدون عليها في محاولتهم للقضاء على الإسلام منذ انبثاق نوره وفجره[٢].

وهكذا، كان الإمام علي عليه السلام قويًّا متميّزًا في ميدان الجهاد وفي ميدان البطولة والاستبسال؛ متميّزًا لأنّه يحمل هذه المواصفات في نفسه وروحه وقلبه، لأنّه يتحرّك وهو يحمل هذه القوّة: قوّة محبّته لله، ومحبّته لرسوله، ومن أهمّ ما قاله الرسول ويبيّن لنا المكانة المهمّة للإمام علي عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عندما برز في مواجهة عمرو بن عبد ودّ قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾[٣] هذه الكلمة تدلّل على موقع عليٍّ عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فتحرّك الإمام علي عليه السلام بهذه المواصفات المهمّة رجلًا بكلّ ما تعنيه كلمة رجل يحمل في قلبه المحبّة العظيمة لله ورسوله، ومن تلك المحبّة العظيمة يحمل قوّة الإيمان وعاد منتصرًا فاتحًا وبتلك القوّة الإيمانيّة قلع باب خيبر، كرار لا يتراجع ولا يقبل الهزيمة، صلب وقوي في مواجهة

---

(١) سورة **التوبة**، الآية ١٩.

(٢) من محاضرة السيّد عبد الملك في ذكرى استشهاد الإمام علي عليه السلام لعام ١٤٣٣هـ.

(٣) سورة **hgأنبياء** ، الآية ٨٩.

الأعداء لدرجة أنّه في حروبه كان يحمل فقط درعًا أماميًّا فيسألونه لماذا لا يكون لك درع متكامل ومن خلفك فيقول: لا أحتاج لخلفي لأنّه لا يولي العدوّ دبره مقدام ووجهته دائمًا هي إلى الأمام[١].

٤- نفسه نفس النبي صلى الله عليه وآله وسلم

بعد أن تحقّق النصر للدعوة الإسلامية ونبيّها الكريم محمّد صلى الله عليه وآله وسلم في أرجاء الجزيرة، وتمّ فتح مكّة والطائف ودُمِّرَت معاقل الشِّرك والوثنيّة وظهر الإسلام كقوّة عقديّة وسياسيّة وعسكريّة؛ أخذت وفود العرب تَفِدُ على رسول الله لِتُعْلِنَ إسلامها وولاءها، فوفد على رسول الله ثلاثة وثلاثون وفدًا يمثّلون قبائلهم، وأخذ رسول الله يوجّه كتبه ورسله إلى الملوك والرؤساء يدعوهم إلى الإسلام من منطق القوّة والوثوق بالوعد الإلهي بالنصر المؤزّر، وكان ممّن وجّه إليهم كتبه، أساقِفَةُ نجران يدعوهم إلى الإسلام ويعرّفهم بدعوته. ونصّ كتابه المبارك هو: «بسم الله، من محمّد رسول الله إلى أساقفة نجران: بسم الله فإنِّي أحمدُ إليكم إله إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، أمّا بعد ذلكم فإنِّي أدعوكم إلى عبادة الله مِن عبادةِ العِبادِ، وأدعوكم إلى ولاية الله مِن وِلاية العِبادِ، فإنْ أبيتم فالجزية، وإنْ أبيتم آذَنتكم بحرب، والسلام»[٢].

حلّ هذا الكتاب الذي خاطب زعماء النصارى في نجران في بلاد اليمن، مثل انطلاقة جديدة تستهدف إحلال الدين الإسلامي - وفق السنن الإلهيّة - الذي يمثّل لبَّ الرسالات السماويّة محلّ الديانة المسيحيّة وغيرها ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾[٣] وفي الرّسالة نُلاحظ أنّ الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم حاول أن يُرْجِعَهُم إلى أُصول العقيدة التوحيديّة الّتي بشّر بها إبراهيم وإسماعيل

(١) من محاضرة السيّد عبد الملك في ذكرى استشهاد الإمام علي عليه السلام لعام ١٤٣٣هـ.

(٢) اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، الجزء ٢، الصفحة ٨١.

(٣) سورة **الشورى**، الآية ١٣.

وإسحاق ويعقوب لاتفاقهم معه، أنّ هؤلاء هم رسل الله، ولِيُثْبِتَ لهم أنّه نبيٌّ يدعو بدعوة الأنبياء.

والقرآن الكريم يؤكّد للناس جميعًا بما فيه هؤلاء النصارى بأنّه كتاب مهيمن على ما سبقه من الكتب ومصدّق لما بين يديه من الكتب، فالإيمان بالقرآن والالتزام به هو إيمان والتزام وتطبيق لدين الله الذي أراد أن يتعبّد الناس به، وأن يهديهم إليه.

ثمّ إنّنا نشاهد في هذه الرّسالة منطق القوّة الّتي يُخاطَبُ بها المُعانِدون، إنْ لم يستجيبوا لمنطق الحقّ، ودعوة العقل السليم.

لقد أحدثَ هذا الكتاب هزّة عنيفة في كيان النصارى في بلاد اليمن، ورأوا أنْ يَقدموا على رسول الله ﷺ بوفد يخوض حوارًا عقديًّا وفكريًّا، توجّه الوفد برئاسة أبي حارثة الأُسقُف ومعه عدد من كبار المسيحيّين، فوصلوا المدينة ودخلوا على رسول الله ﷺ في مسجده الشريف وهم متباهون بزينتهم وحُلِيِّهِم ظانّين أنّ ذلك يؤثِّر على موقف رسول الله ﷺ النفسيّ. وحين رآهم رسول الله متظاهرين بمظاهر العظمة المزيّفة قال لأصحابه: «دعوهم». ثمّ التقوا رسولَ الله، وبدأ الحوار والمساءلة طوال ذلك اليوم. ثمّ سأل أبو حارثة رسولَ الله: (يا محمّد! ما تقول في المسيح؟ قال: «هو عبد الله ورسوله». فقال أبو حارثة: تعالَى الله عمّا قلت).

وكان يظنُّ في المسيح ظنّ الربوبية، وحين اشتدّ إصرارهم على القوّة من عقيدة الشِّرْك وتأليه المسيح ورفض نبوّة محمّد ﷺ، أراد الله سبحانه أن يُظْهِر لهم نبوّة محمّد ﷺ بإجابة دعوته وبطلان عقيدتهم ودعواهم، فأنزل الله على نبيِّه آية المباهلة، قال تعالى: ﴿فَمَنۡ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمۡ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمۡ ثُمَّ نَبۡتَهِلۡ فَنَجۡعَل لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾[١].

(١) سورة **آل عمران**، الآية ٦١.

استمع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى البيان الإلهي. فَأصْغَى إلى كلمة الفصل والنصّ السماوي له. إنّهُ حجّة إعجازيّة تُضاف إلى حجّته الفكريّة والمبدئيّة، وإذن توجّه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بالخطاب إلى وفد النصارى: «إن لم تُؤمنوا بي وتُصدِّقوني، فتعالَوا نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لعنةَ الله علَى الكاذِب ونَنْتَظِرْ مَنْ سيَقَعُ عليهِ العَذابُ والعِقابُ الإلهي فهوَ على باطل»، فقالوا للنبيّ: نُباهِلُكَ غدًا.

ثمّ اجتمعوا فتحاوروا وتشاوروا بينهم، فقال أبو حارثة لوفده: (اُنْظُروا مَنْ جاءَ معه، وغدا رسول الله آخذًا بيد الحسنِ والحسينِ تتبعُهُ فاطمةُ، وعليّ بن أبي طالب بين يديه، وغدا العاقِبُ والسيِّدُ بِابْنَيْنِ لهما عليهما الدُّرُّ والحُلِيُّ، وقد حَفّوا بأبي حارثة، فقال أبو حارثة: مَنْ هؤلاءِ مَعَه؟ قالوا: هذا ابن عمِّهِ، وهذهِ ابنتُهُ، وهذانِ ابناها، فجثا رسولُ الله على ركبتيه ثمّ رَكَعَ، فقال أبو حارثة: جثا والله كما يجثو النبيّونَ للمباهلة). والله إنّي لأرى وجوهًا لو سألت الله أن يزيل هذا الجبل من مكانه لأزاله، فلا تباهلوا فتهلكوا ولا يبقى على وجه الأرض نصرانيٌّ إلى يوم القيامة. توجّهوا إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا: يا أبا القاسم رأينا ألَّا نباهلك.... قال الرازي: واعلم أنّ هذه الرواية متفق على صحّتها بين أهل التفسير والحديث[١].

قال الزمخشري في سياق تفسير آية المباهلة: «وقدّمهم في الذِّكر عَلَى الأنْفُس لِيُنَبِّهَ على لُطفِ مَكانِهم وقُرْبِ مَنْزِلَتِهم، وليُؤْذِنَ بأنّهم مُقدّمونَ علَى الأنْفُس مُفْدَوْنَ بها... وفيه دليلٌ لا شيءَ أقوى منه علَى فَضْلِ أصحابِ الكساء»[٢].

ومن المواقف التي تدلّ على مكانة الإمام علي وبأنّه رجل المواقف الذي لا بديل عنه ما حصل في تبليغ البراءة من المشركين، فقد اختير الإمام

(١) اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، الجزء ٢، الصفحة ٨٢. و**صحيح مسلم**، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل علي بن أبي طالب. والترمذي، **سنن الترمذي**، الجزء ٥، الصفحة ٦٣٨.

(٢) الزمخشري، **تفسير الكشّاف**، سورة **آل عمران**، الآية ٦١، وكذا جاء في **تفسير الثعالبي** عن مجاهد والكلبي: ويُطلق لفظ أصحاب الكساء على الّذين اجتمعوا مع النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم تحت كسائه ونزلت فيهم آية التطهير، وهم: عليّ وفاطمة والحسن والحسين.

علي عليه السلام لتبليغ وإعلان البراءة على المشركين حيث كان قد انتدب أبو بكر لتبليغها فلمّا كان أبو بكر في بعض الطريق، هبط الأمين جبرائيل عليه السلام بالأمر من الله لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم أن يَتولّى التبليغَ عليٌّ بن أبي طالب عليه السلام، فبعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كتابًا إلى أبي بكر، يأمرُهُ بإعطاء الكتاب الّذي يحمل السورة المباركة إلى عليّ عليه السلام، وهكذا كان.

فعاد أبو بكر إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كئيبًا، فقال له: أنزلَ فيَّ شيء؟

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «لا، إلّا أنّي أُمِرْتُ أنْ أُبلِّغه أنا أو رجلٌ من أهل بيتي»[(١)].

عن علي عليه السلام قال: «لما نزلت عشر آيات من براءة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم دعا النبي صلى الله عليه وآله وسلم أبا بكر فبعثه بها ليقرأها على أهل مكّة، ثمّ دعاني النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال لي: أدرك أبا بكر فحيثما لحقته فخذ الكتاب منه فاذهب به إلى أهل مكّة فاقرأه عليهم فلحقته بالجحفة فأخذت الكتاب منه ورجع أبو بكر إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله نزل فيّ شيء؟ فقال: لا ولكن جبريل جاءني فقال: لن يؤدّي عنك إلّا أنت أو رجل منك»[(٢)].

في إشارة إلى الإمام علي عليه السلام ومكانته العظيمة عند الله وعند رسوله.. وأنّ المهمّة تتطلّب رجلًا بمستوى الإمام علي عليه السلام.

لقد كانت أوّل عمليّة لإعادة الحجّ إلى حجّ إسلامي يوم أرسل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم علي بن أبي طالب عليه السلام ليعلن البراءة من المشركين بتلك العشر الآيات الأولى من سورة **البراءة**، بل ليعلن الحرب على المشركين وليس فقط البراءة منهم.

وسار عليّ عليه السلام حتّى إذا وصل مكّة وقف بِمِنى، وقرأ السورة المباركة، ثمّ نادى بأعلى صوته: «لا تَدخُلُ الكعبةَ إلّا نفسٌ مؤمنةٌ، ولا يطوفُ بالبيتِ

---

(١) النّسائي، **خصائص أمير المؤمنين** عليه السلام، الصفحة ٩١.

(٢) أخرجه الهيثمي، **مجمع الزوائد**، الجزء ٧، الصفحة ٢٩. وأحمد بن حنبل، **مسند أحمد**، الجزء ١، الصفحة ١٥١.

عُريانٌ، ومَنْ كانَ لهُ عهدٌ عند رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم فعهدهُ إلى مُدّتهِ، ومَن لم يكن له عهد، فأجلُهُ أربعة أشهر»[١].

كانت تلك هي أوّل عمليّة لتحويل الحجّ إلى حجّ إسلامي، وصبغه بصبغة توحي بالأهداف المقصودة من وراء تلك العبادة العظيمة التي هي الحجّ.

فقال سبحانه وتعالى يحكي تلك البراءة: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾[٢]؛ براءة من الله، وبراءة من رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وبراءة من علي، قرأها علي كلّها براءة من المشركين.

وبهذا البيان، طُوِيَتْ آخرُ صفحة للشِّرْك في مكّة المكرّمة، وعادت الكعبة لله وحدَهُ، لا يُعْبَدُ فيها غيرُهُ سبحانه ولا تُقام فيها غيرُ شعائر دينه العظيم.

٥- مبدئيّة الإمام علي عليه السلام

بقدر الشجاعة التي كان يحملها الإمام علي عليه السلام كان يحمل أيضًا معها مبدئيّة عالية في الحرب فجسّد بكلّ جدارة المبدئيّة التي نصّ عليها القرآن سواء من حيث الروحيّة التي يجب أن يحملها المجاهدون في سبيل الله أو من حيث السلوك والعقيدة والممارسات والتعامل مع الخصوم، فقد رسم الإمام بشهادة العديد من المفكّرين المنهجيّة الأقوم في الصراع مع الآخرين حتّى إنّ البطل مالك الأشتر النخعي قال كلمة مهمّة في الحرب: «علّمني الإمام علي عليه السلام كيف أقاتل عدوّي دون أن أحقد عليه»[٣].

ونبرز بعض جوانب مبدئيّة الإمام علي عليه السلام مع خصومه:

---

(١) الطبرسي، **إعلام الورى بأعلام الهدى**، الصفحة ١٣٢، ومحمّد حسين هيكل، **حياة محمّد**، الصفحة ٤٧٣.

(٢) سورة **التوبة**، الآية ٣.

(٣) الدرس الرابع من دروس شهر رمضان للسيّد حسين (رضوان الله عليه).

• مع عمرو بن العاص

انفرد الإمام عليه السلام بموقفه من عمرو بن العاص إذ لم يوجد بطل من أبطال التاريخ يرى ألدّ أعدائه أمامه وقد طرحه أرضًا ثمّ يتركه ويذهب دون أن يجهز عليه وهو يعرف خطورته الشديدة؛ لأنّه عندما أقبل عليه الإمام لينهيه بضربة حيدريّة تنقله على الفور من هذه الدنيا إلى عالم الآخرة كشف عن سَوْأَته، فأعرض الإمام عنه، وأبت عليه مبدئيّته الدينيّة ونخوته وإباؤه أن يقتله وهو على هذه الحالة مع معرفة الإمام بخطورة عمرو بن العاص، وأنّه كان (الدينامو) المحرّك لجيش معاوية.

يقول عبّاس محمود العقّاد معلّقًا على هذه الحادثة: ومن الفرص التي أبت عليه (يعني عليًّا) النخوة أن يستغلّها فرصة عمرو بن العاص وهو ملقى على الأرض مكشوف السوأة لا يبالي أن يدفع عنه الموت بما حضره من وقاء، فصدف بوجهه عنه آنفًا أن يصرع رجلًا يخاف الموت هذه المخافة التي لا يرضاها من منازلة في مجال صراع، ولو غير عليٍّ أتيح له أن يقضي على عمرو لعلم أنّه قاضٍ على جرثومة عداءٍ ودهاء فلم يبال أن يصيبه حيث ظفر به[1].

كذلك بُسْرُ بن أرطأة أحد قادة جيش معاوية هو الآخر نجا من ذي الفقار برفع الغطاء عن سوأته أمام الإمام علي عليه السلام وكاد هذا العمل أن يصير ثقافة لدى جيش معاوية كوسيلة من وسائل النجاة أمام ضربات ذي الفقار.

هذه الأحداث تكشف بجلاء معرفة الناس جميعًا - العدوّ والصديق - ما يحمله الإمام علي عليه السلام من قيم ومبادئ عالية وإلّا لما استخدموا مثل هذه الأساليب أمام ضرباته.

• مع طلحة والزبير

وممّا يدلّ على ما كان يتحلّى به الإمام من قيم عظيمة أنّ طلحة والزبير عندما بايعا الإمام كانا يطمعان في إمرة البصرة والكوفة وعندما لم يحصلا على

---

(١) مقدّمة **نهج البلاغة** من مقال للعقّاد بعنوان (ملتقى النفوس البشرية) الصفحة ٥٨.

ذلك غادرا المدينة بذريعة العمرة وكان الإمام يعرف تمامًا بأنّهما لا يريدان العمرة وإنّما الغدر والخديعة وقال لهما ذلك إلّا أنّه رغم هذه المعرفة لم يفتك بهما وهما في قبضة يده وهو قادر على ذلك. وممّا قال: «حتّى اجتمع عليَّ ملأُكم وبايعني طلحة والزبير وأنا أعرف الغدر في أوجههما، والنكث في أعينهما، ثمّ استئذناني في العمرة فأعلمتهما أن ليسا لعمرة يريدان».

- مع معاوية بن أبي سفيان

وأيضًا ممّا يدلّ على عظمة الإمام علي أنّه لمَّا بويع عليه السلام بلغه: أنّ معاوية قد وقف من إظهار البيعة له وقال: إن أقرَّني على الشام وأعمالي التي ولانيها عثمان بايعته.

فجاء المغيرة إلى أمير المؤمنين فقال له: يا أمير المؤمنين إنّ معاوية من قد عرفت وقد ولّاه الشام من كان قبلك فولّه أنت كيما تتسق عُرَى الأمور، ثمّ اعزله إن بدا لك.

فقال أمير المؤمنين: أتضمن لي عمري يا مغيرة فيما بين توليته إلى خلعه؟!

قال: لا.

قال: لا يسألني الله - عزّ وجلّ - عن توليته على رجلين من المسلمين ليلة سوداء أبدًا، وما كنت متخذ المضلّين عضدًا، لكن أبعثُ إليه وأدعوه إلى ما في يدي من الحقّ فإن أجاب فرجلٌ من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم، وإن أبى حاكمته إلى الله.

- مع عائشة

كان أمير المؤمنين متهيّئًا لغزو الشام، حيث أعلن معاوية التمرّد على حكومته ورفض بيعته، وبينما هو جادٌّ في تدبير الأمر.. إذ فاجأه الخبر عن أهل مكّة وتمرّدهم بقيادة طلحة والزبير وعائشة جاعلين من الطلب بدم عثمان ستارًا يخفون وراءه الأهداف الحقيقيّة لمطامعهم.

ورأى الإمام أنّ خطرهم أقوى من خطر معاوية، وشرّهم أقوى من شرّه، وإذا لم يبادر لإخماد هذه الفتنة فإنّه يوشك أن تتسع ويكثر التمرّد والاختلاف، فتجهّز للشخوص إليهم، وتجهّزت لنصرته البقيّة الصالحة من المهاجرين والأنصار.

وكان الإمام يهدف إلى أن يقضي على الفتنة قبل أن تتسع، ولكنّهم سبقوا الإمام إلى البصرة، وأرسل الإمام إلى جماهير أهل الكوفة يدعوهم إلى نصرته والقيام معه لإخماد نار الفتنة، حيث بعث في البداية محمّد بن أبي بكر، ومحمّد بن جعفر وزوّدهما برسالة إلى أهل الكوفة، ولم يحصل تجاوب من قبل أبي موسى الأشعري والذي كان واليًا على الكوفة.

وبعد مواجهة عنيفة، كان لعائشة وجملها الدور البارز فيه، تنجلي المعركة عن هزيمة طلحة والزبير وعائشة ومن معهم من المغرّر بهم وأصحاب الأطماع، ورغم ذلك يصفح الإمام عن عائشة وعن جميع المعارضين، بما فيهم عبد الله بن الزبير، ونادى مناديه عليه السلام: أَلَا لا يجهز على جريح، ولا يتبع مولٍ، ولا يطعن في وجه مدبر، ومن ألقى سلاحه فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن[١].

ولم يكتف الإمام بهذا بالنسبة لعائشة بل عمل على أن يعيدها إلى المدينة معزّزة مكرّمة لتقرّ في بيتها كما أمرها الله سبحانه وتعالى؛ فجهّزها بأحسن الجهاز وبعث معها أربعين امرأة، وقال بعضهم سبعين امرأة، حتّى قدمت المدينة، وقد لبسن لباس الرجال حتى لا يطمع فيهنّ أحد[٢].

٦- باب مدينة علم الرسول

الإمام علي عليه السلام كان في كلّ مواطن الإسلام الكبرى وأمام التحدّيات والأخطار على وجود الإسلام كان الجندي المتميّز بطل الإسلام العظيم

---

(١) اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، الجزء ٢، الصفحة ١٨٣.

(٢) ابن عبد ربّه، **العقد الفريد**، الجزء ٤، الصفحة ١٣٣.

والمتميّز بأخلاق الإسلام لم يكن وحشًا. كان يحمل أخلاق الإسلام وكانت قوّته من قوّة إيمانه ومن قوّة ما يحمل من مبادئ وأخلاق وعلاقة وطيدة بالله سبحانه وتعالى، والله سبحانه وتعالى أمدّه بمددٍ معنويٍّ عظيم وهائل جعله في ذلك المستوى، ثمّ هو في بقيّة الميادين رجل متميّز في مدرسة الإسلام الكبرى.

عندما نأتي إلى علمه يبرز كذلك متميّزًا فالرسول صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «أنا مدينة العلم وعلي بابها»[١]؛ فهو باب مدينة علم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لازم الرسول وبما منحه الله من ذكاء واستيعاب وأذن واعية كان يستوعب ما يقدّمه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من العلوم والمعارف والهدى والحقّ ما لم يكن يستوعبه غيره، وهو ذلك الذي كان الجميع بعد وفاة رسول صلى الله عليه وآله وسلم يرجعون إليه عند المعضلات وما كان يرجع إلى أحد منهم، يرجعون إليه يستفتونه يسألونه يحلّ لهم معضلات المسائل، وترك للأمّة ميراثًا متميّزًا من العلم والحقائق والنور لا يزال قائمًا إلى الآن، وسيبقى قائمًا ما بقي الإسلام، وسيبقى الإسلام قائمًا ما بقيت الحياة وما بقيت الأرض[٢].

يقول السيّد حسين (رضوان الله عليه):

«علي بطلُ بدر وأحد والأحزاب وحُنين وخَيْبَر، بطل صفّين والجمل والنهروان، علي الذي لم يكن فقط يذهل العقول في ميادين الجهاد وإنّما كان أيضًا ينير الدروب بكلماته المباركة، بتوجيهاته النيّرة، ببلاغته الخارقة. إنّه ربيب محمّد، وحليف وقرين القرآن»[٣].

(١) العلّامة المجلسي، **بحار الأنوار**، الجزء ١٠، الصفحة ١٢٠. كما أخرجه الحاكم في **المستدرك**، الجزء ٣، الصفحة ١٢٦، وقال: هذا حديث صحيح. والحاكم الحسكاني في **شواهد التنزيل**، الجزء ١، الصفحة ١٠٥. وابن عساكر في **تاريخ مدينة دمشق**، الجزء ٤٢، الصفحة ٣٤٩. وللمزيد يراجع تحرير الأفكار والغارة السريعة للسيّد العالم المجاهد بدر الدين الحوثي رحمه الله.

(٢) من محاضرة السيّد عبد الملك في ذكرى استشهاد الإمام علي عليه السلام لعام ١٤٣٣هـ.

(٣) السيّد الحسين (رضوان الله عليه) بعنوان «الإرهاب والسلام».

فلم يكن العطاء الفكري العظيم الذي أسداه الإمام عليه السلام للإنسان إلّا حصيلة طبيعيّة للإعداد الخاصّ الذي توفّر للإمام من لدن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منذ طفولته حتّى آخر ساعة من حياة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. لقد كان ذلك الإعداد النبوي منصبًّا على جميع جوانب شخصيّة الإمام من أجل تأهيله فكريًّا ونفسيًّا ليواصل الطريق التي سار عليها النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويكون امتدادًا له صلى الله عليه وآله وسلم وبديلًا عنه في غيابه عن مسرح الحياة. ليقول فيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «أنا مدينة العلم وعلي بابها» مبيّنًا المكانة العظيمة والسامية التي يتبوّؤها الإمام علي عليه السلام في الجانب المعرفي وتدعو الأمّة صراحة إلى وجوب أخذ معارف التشريع الإلهي عن طريقه؛ فمنه تستمدّ الأمّة الهدى، وخلفه تسلك الصراط المستقيم الذي سيوصلها إلى الله سبحانه وتعالى وجنّته كما هي السنّة الإلهيّة في الهداية لتبقى الأمّة موحّدة قويّة تعيش الاستقرار التشريعي الذي عاشته أيّام النبي صلى الله عليه وآله وسلم. لقد كان يقول: «علّمني رسول الله ألف باب من العلم كلّ باب يفتح لي ألف باب»[١]. كان يخاطب أصحابه بأنّ صدره يحمل علمًا عظيمًا تلقّاه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لو وجد له حملة أمناء يتصدّون لحمله وتبليغه لأودع بعض علمه لديهم. «إِنَّ هَا هُنَا لَعِلْمًا جَمًّا وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى صَدْرِهِ لَوْ أَصَبْتُ لَهُ حَمَلَةً»[٢].

ويتحدّث عن المخزون العلمي الكبير بما في ذلك علوم قد يحتار الناس عند سماعها وممّا قال: «بَلِ انْدَمَجْتُ عَلَى مَكْنُونِ عِلْمٍ لَوْ بُحْتُ بِهِ لَاضْطَرَبْتُمْ اضْطِرَابَ الْأَرْشِيَةِ فِي الطَّوِيِّ الْبَعِيدَةِ»[٣]. ففكر الإمام، وإن كان رساليًّا هادفًا إلى خدمة الرسالة الإلهيّة وحملتها وعاملًا على دفع عجلة مسيرة الإسلام التاريخيّة إلى الأمام، فإنّه يبقى منهلًا عذبًا لتصيب منه الإنسانيّة بشتّى نِحَلِها واتجاهاتها الفكريّة وهو كفيل بهدايتها إلى الحقّ وإلى صراط مستقيم.. وأمامك **نهج البلاغة** بما حواه من علوم في شتّى مجالات الحياة وهو ليس إلّا

(١) العلّامة مجد الدين المؤيّدي رحمه الله، **لوامع الأنوار**، الجزء ١، الصفحة ٤٣٨.

(٢) العلّامة مجد الدين المؤيّدي رحمه الله، **لوامع الأنوار**، الجزء ٢، الصفحة ٤٩٦.

(٣) خطب الإمام علي عليه السلام، **نهج البلاغة**، الجزء ١، الصفحة ٤١، من كلام له في أنّه لا ينخدع.

غَرفة من ذلك البحر الزاخر بالعلم والمعرفة لكنّ الأمّة خسرت خسارة فادحة إذ فرّطت في هذا الإمام العظيم ليكون البديل هو الجهل والضياع والغباء.

وفي رسائل الإمام علي وفي عهوده ووصاياه وفي خطبه وسائر أقواله روائع خالدة تراث عظيم للإنسانيّة بوصفها دستورًا جليلًا في الأخلاق الخاصّة والعامّة لا تسمو عليه دساتير المفكّرين والحكماء في مختلف العصور والأمكنة.

٧- تميّزه في الرحمة والإحسان

أمّا عندما نتحوّل إلى بعدٍ آخر في شخصيّة هذا الرجل المتكامل في إيمانه وإسلامه فمع أنّه في مواطن التحدّي في مواجهة الأخطار رجلٌ صلب وثابت ورجل بأس وشدّة لكنّه في مواطن الرحمة متميّز برحمته وعطفه وإيثاره. سطوته وجبروته وقوّته في مواجهة الظالمين والطغاة والجبابرة والمستكبرين وصناديد الكفر، أمّا مع المساكين والناس الآخرين فكلّه رحمة وعطف لا يوجد هناك شيءٌ من بأسه وجبروته وقسوته. وقد سجّل لنا **القرآن الكريم** موقفًا يدلّل على مدى رحمته وإيثاره وعطفه وحنانه المتميّز في سورة **الإنسان** في موقفٍ مشهورٍ معروف له ولزوجته فاطمة الزهراء (رضوان الله عليها) تلك الأسرة النبويّة الكريمة العظيمة فيما تحمله من قيم في صيامهم ومع غروب الشمس ودخول الليل وقد حان وقت الإفطار وأتى وقت العشاء بجوعهم ولديهم القليل من الطعام، في وضع اقتصاديٍّ صعب عاشوه في تلك المرحلة يأتي إليهم ذوو الحاجة من الناس، المسكين واليتيم والأسير فكان الموقف ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا﴾[١] بكلّ رحمة وعاطفة ومحبّة ومن واقعٍ إيمانيٍ قائمٍ على الخوف من الله وعلى ابتغاء مرضاته وعلى السعي

(١) سورة **الإنسان**، الآيتان ٨ و٩. الحاكم الحسكاني في **شواهد التنزيل** من عدّة طرق، وللمزيد حول الآيات الكريمة يطالع كتاب **الغارة السريعة** للسيّد بدر الدين الحوثي رحمه الله الصفحة ٣١٦.

للحصول على رحمته يقدّمون طعامهم وهم في أشدّ الحاجة إليه ويصبرون على جوعهم ويؤثرون أولئك ذوي الحاجة والفقر والشدّة، المسكين واليتيم والأسير على أنفسهم هكذا يبرزون ويقدّمون قيم الإسلام بأرقى صورة بأجمل صورة[١].

٨- تميّزه في عبادته

سنورد هنا صورة واحدة من صور الاتصال بالله والتضرّع إليه تعالى لدى أمير المؤمنين عليه السلام يروي أبو الدرداء في حديث قال: شهدت علي بن أبي طالب بشويحطات النجّار وقد اعتزل عن مواليه واختفى ممّن يليه واستتر بمغيلات النخل فافتقدته وبعُد عن مكانه، فقلت ألحق بمنزله، فإذا أنا بصوتٍ حزين، ونغم شجيّ، وهو يقول: «إلهي كم من موبقة حلمتَ عن مقابلتها بنقمتك، وكم من جريرة تكرّمتَ عن كشفها بكرمك، إلهي إن طال في عصيانك عمري وعظم في الصحف ذنبي فما أنا مؤمّل غير غفرانك ولا أنا براجٍ غير رضوانك».

فشغلني الصوت واقتفيت الأثر فإذا هو علي بن أبي طالب عليه السلام بعينه فاستترت له وأخملت الحركة، فركع ركعات في جوف الليل الغامر ثمّ فرغ إلى الدعاء والبكاء والبثّ والشكوى فكان ممّا ناجى به الله تعالى أن قال: «إلهي أفكّر في عفوك فتهون عليّ خطيئتي ثمّ أذكر العظيم من أخذك فتعظم عليَّ بليّتي».

ثمّ قال: «آه إن أنا قرأت في الصحف سيّئة أنا ناسيها وأنت محصيها فتقول خذوه فيا له من مأخوذ لا تنجيه عشيرته ولا تنفعه قبيلته ولا يرحمه الملأ إذا أذّن فيه بالنداء»، ثمّ قال: «آه من نارٍ تنضج الأكباد والكلى، آه من نار نزّاعة للشوى، آه من لهبات لظى». قال أبو الدرداء: ثمّ أمعن في البكاء فلم

---

(١) من محاضرة السيّد عبد الملك في ذكرى استشهاد الإمام علي عليه السلام لعام ١٤٣٣هـ.

أسمع له حسًّا ولا حركة، فقلت: غلب عليه النوم لطول السهر، أوقظه لصلاة الفجر.

فأتيته فإذا هو كالخشبة الملقاة فحرّكته فلم يتحرّك وزويته فلم ينزوِ فقلت: إنّا لله وإنّا إليه راجعون مات والله علي بن أبي طالب فأتيت منزله مبادرًا أنعاه إليهم، فقالت فاطمة عليها السلام: يا أبا الدرداء ما كان من شأنه ومن قصّته؟ فأخبرتها الخبر فقالت: هي والله يا أبا الدرداء الغشية التي تأخذه من خشية الله.

ثمّ أتوه بماء فنضحوه على وجهه فأفاق ونظر إليّ وأنا أبكي فقال: ممَ بكاؤك يا أبا الدرداء؟ فقلت: ممّا أراه تنزله بنفسك.

فقال: «يا أبا الدرداء فكيف لو رأيتني وقد دعي بي إلى الحساب وأيقن أهل الجرائم بالعذاب واحتوشتني ملائكة غلاظ وزبانية فظاظ فوقفت بين يدي الملك الجبّار قد أسلمني الأحباء ورفضني أهل الدنيا لكنت أشدّ رحمة بي بين يدي من لا تخفى عليه خافية». هذا شاهد من شواهد تعلّق الإمام عليه السلام بالله تعالى وشدّة انشداده إليه ورهبته منه.

وهكذا كان علي عليه السلام في شدّة تعلّقه بالله وعظيم تمسّكه بمنهج الأنبياء عليهم السلام إنّه ترجمة صادقة لعبادة محمّد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

٩- تميّزه في عدله

نأتي إلى بعدٍ آخر من أبعاد شخصيّة الإمام علي، المؤمن المتكامل في إيمانه وهو عدله. عندما وليّ أمر الأمّة وأصبحت رقعة جغرافيّة واسعة تحت حكمه وسيطرته لم يستغلّ موقعه ليعزّز نفوذًا أو ليملك ثروة، أو ليظلم أو لينتقم أو يتجبّر، بل سعى بكلّ جهده وهو يحمل قيم الإسلام وأخلاقه ليحقّق العدل ويقيم الحقّ في واقع الأمّة مواجهًا كلّ المعاناة والشدائد والمشاقّ والصعاب والعوائق الكبيرة التي كانت أمامه وبخوفٍ كبير من أن يظلم أيّ ظلم وقال

كلمته المشهورة: «وَاللهِ لَوْ أُعْطِيتُ الْأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ بِمَا تَحْتَ أَفْلَاكِهَا عَلَى أَنْ أَعْصِيَ اللهَ فِي نَمْلَةٍ أَسْلُبُهَا جُلْبَ شَعِيرَةٍ مَا فَعَلْتُهُ»[١].

هذه هي روحيّة الإسلام وأخلاق علي عليه السلام فهو من موقعه في السلطة وهو يلي أمر الأمّة يخاف كلّ الخوف، وبعيدٌ كلّ البعد، ويحذر كلّ الحذر أن يقترف أيّ ظلم ولو بهذا المقدار؛ حبّة شعيرة من نملة حتّى لو حقّق بهذا الظلم القليل مكاسب كبيرة جدًّا؛ الأفلاك والأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها ما فعل، لأنّه يرى ولو كان الوصول إلى مكاسب ماديّة أو سياسيّة عبر قليل من الظلم ليس مقبولًا في أخلاق علي ولا مستساغًا ولا الغاية تبرّر الوسيلة. في حين أنّ كثيرًا من التوجّهات والقيادات تحت مسمّيات كثيرة مستعدّون أن يهلكوا الأمّة ويصادروها ويلحقوا بها أيّ شيء مهما كان من الظلم مقابل أن يحصلوا على قليل من المكاسب السياسيّة أو المكاسب الماديّة. والإمام علي بروحيّته العظيمة المتميّزة، روح الإسلام وأخلاقه التي فيها أثر القرآن وأثر التربية النبويّة لا يقبل بالأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها بقليلٍ من الظلم يلحق بالناس ولا ببشر بل بنملة، لم يكن ليفعل ذلك.

دخل عليه ابن عبّاس أحد أنصاره وقادته (بذي قار) وهو في طريقه إلى حرب الجمل وهو يخصف نعله بنفسه فقال عليه السلام يخاطب ابن عبّاس «مَا قِيمَةُ هَذَا النَّعْلِ» واحدة من حذائه؟ فقال ابن عبّاس: (لَا قِيمَةَ لَهَا) فَقَالَ عليه السلام: «وَاللهِ لَهِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ إِمْرَتِكُمْ إِلَّا أَنْ أُقِيمَ حَقًّا أَوْ أَدْفَعَ بَاطِلًا»[٢]. الإمرة والسلطة والموقع الأعلى في القيادة ليس له أيّ قيمة عند علي عليه السلام إذا لم يكن لإحقاق حقّ أو لدفع باطل إذا كان فقط لمجرّد التحكّم والسيطرة والتسلّط، وأن يكون الإنسان يحظى بمسمّى وظيفي عالٍ ويكون لديه صلاحيّات واقتدار يحقّق لنفسه بها مكاسب شخصيّة، فهو بورٌ، جهنم، عذاب، شقاء، ليس له أيّ قيمة بل هو وبال على صاحبه. فالقيمة للموقع

(١) خطب الإمام علي عليه السلام، **نهج البلاغة**، الجزء ٢، الصفحة ٢١٨، من كلام له (٢٢٤).

(٢) المصدر نفسه، الجزء ١، الصفحة ٨٠، من خطبة له عند خروجه لقتال أهل البصرة.

في السلطة والاقتدار الذي يكسبه الإنسان من موقعه هي بقدر ما تقيم من الحقّ وما تدفع من الباطل وبقدر ما تقيم من العدل وتحقّقه، فهكذا هو علي عليه السلام في عدله وكان فعله مصداقًا لقوله، وسيرته تشهد وتاريخ حكمه برغم ما واجه من المشاقّ والعوائق الكبيرة متميّز[١].

لقد جاءت الخلافة للإمام علي عليه السلام في ظروف بالغة الخطورة والتعقيد فذوو النفوذ من الناس قد ألفوا الاستئثار واستراحوا إليه وليس يسيرًا أبدًا أن يذعنوا لأيّة محاولة إصلاحيّة تضرّ بمصالحهم الذاتيّة.

ثمّ إنّ المطامع قد تنبّهت لدى الكثير من الرجال بعد أن تحوّلت الخلافة مغنمًا لا مسؤوليّة لإقامة القسط في الأمّة. ولقد كان الإمام عليه السلام مدركًا لحقيقة الموقف بدقائقه وخفاياه بشكل جعله يعتذر عن قبول الخلافة حين أجمعت الأمّة على بيعته بعد مقتل عثمان قائلًا: «دعوني والتمسوا غيري فإنّا مستقبلون أمرًا له وجوه وألوان لا تقوم له القلوب ولا تثبت عليه العقول وإن الآفاق قد أغامت والمحجّة قد تنكّرت».

وبعد إصرار من الجميع قبل الإمام بشروط، وممّا قال: «وَاعْلَمُوا أَنِّي إِنْ أَجَبْتُكُمْ رَكِبْتُ بِكُمْ مَا أَعْلَمُ وَلَمْ أُصْغِ إِلَى قَوْلِ الْقَائِلِ وَعَتْبِ الْعَاتِبِ»[٢].

وقد كانت أوّل مهام الإمام أن يجسّد العدالة الاجتماعيّة في دنيا الناس ويمنح المنهج الإسلامي فرصة البناء والتغيير على شتّى الأصعدة. ومن جملة الإصلاحات التي قام بها:

- استرجاع الأموال التي تصرّف بها بنو أميّة من بيت مال المسلمين.
- قام بعزل الولاة الذين أساؤوا التصرّف وخالفوا أمر الله تعالى وتخطّوا نهجه الأقوم الذي ارتضاه لعباده.

---

(١) من محاضرة السيّد عبد الملك في ذكرى استشهاد الإمام علي عليه السلام لعام ١٤٣٣هـ.

(٢) خطب الإمام علي عليه السلام، **نهج البلاغة**، الجزء ١، الصفحة ١٨٢، من خطبة له لمّا أريد على البيعة بعد قتل عثمان.

- تبنّى سياسة المساواة في توزيع المال والحقوق. وكان يقول: «المال مال الله يقسّم بينكم بالسويّة لا فضل فيه لأحد على أحد».

«ألا لا يقولنّ رجال منكم غدًا قد غمرتهم الدنيا فامتلكوا العقار وفجّروا الأنهار وركبوا الخيل واتخذوا الوصائف المرقّقة إذا منعتهم ما كانوا يخوضون فيه وأصرتهم إلى حقوقهم التي يعلمون: حرمنا ابن أبي طالب حقوقنا».

وكان يقول: «واللهِ لَوْ وَجَدْتُهُ قَدْ تُزُوِّجَ بِهِ النِّسَاءُ وَمُلِكَ بِهِ الْإِمَاءُ لَرَدَدْتُهُ فَإِنَّ فِي الْعَدْلِ سَعَةً وَمَنْ ضَاقَ عَلَيْهِ الْعَدْلُ فَالجَوْرُ عَلَيْهِ أَضْيَقُ»[١].

وكان منهج علي في العدل هو منهج الرسول ﷺ بالذات. كان يقول: «وَاللهِ لَأَنْ أَبِيتَ عَلَى حَسَكِ السَّعْدَانِ مُسَهَّدًا أَوْ أُجَرَّ فِي الْأَغْلَالِ مُصَفَّدًا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَلْقَى اللهَ وَرَسُولَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ظَالِمًا لِبَعْضِ الْعِبَادِ وَغَاصِبًا لِشَيْءٍ مِنَ الحُطَامِ، وَكَيْفَ أَظْلِمُ أَحَدًا لِنَفْسٍ يُسْرِعُ إِلَى الْبِلَى قُفُولُهَا وَيَطُولُ فِي الثَّرَى حُلُولُهَا؟!... وَاللهِ لَوْ أُعْطِيتُ الْأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ بِمَا تَحْتَ أَفْلَاكِهَا عَلَى أَنْ أَعْصِيَ اللهَ فِي نَمْلَةٍ أَسْلُبُهَا جُلْبَ شَعِيرَةٍ مَا فَعَلْتُهُ وَإِنَّ دُنْيَاكُمْ عِنْدِي لَأَهْوَنُ مِنْ وَرَقَةٍ فِي فَمِ جَرَادَةٍ تَقْضَمُهَا مَا لِعَلِيٍّ وَلِنَعِيمٍ يَفْنَى وَلَذَّةٍ لَا تَبْقَى..

وَايْمُ اللهِ لَأُنْصِفَنَّ الْمَظْلُومَ مِنْ ظَالِمِهِ وَلَأَقُودَنَّ الظَّالِمَ بِخِزَامَتِهِ حَتَّى أُورِدَهُ مَنْهَلَ الحَقِّ وَإِنْ كَانَ كَارِهًا»[٢].

على أن تعاهد أمر الأمّة من لدن علي عليه السلام ليس محصورًا في إطار المال وتوزيعه وإنّما يمتدّ لكي يشعر الإنسان بكرامته ويعدّ وعيه في الحياة الحرّة الكريمة ويعلّمه أن يتمرّد على الظلم والكبت وكان يقول: «وَلَا تَكُنْ عَبْدَ غَيْرِكَ وَقَدْ جَعَلَكَ اللهُ حُرًّا»[٣].

---

(١) المصدر نفسه، الصفحة ٤٦، من كلام له فيما ردّه على المسلمين من قطائع عثمان.

(٢) المصدر نفسه، الجزء ٢، الصفحة ١٩، من كلام له في طلحة والزبير وفتنتهما.

(٣) خطب الإمام علي عليه السلام، **نهج البلاغة**، الجزء ٣، الصفحة ٥١، من وصيّة له لولده الحسن عليه السلام كتبها إليه بحاضرين منصرفًا من صفّين.

وكان يقول: «فَلَا تُكَلِّمُونِي بِمَا تُكَلَّمُ بِهِ الجَبَابِرَةُ وَلَا تَتَحَفَّظُوا مِنِّي بِمَا يُتَحَفَّظُ بِهِ عِنْدَ أَهْلِ الْبَادِرَةِ وَلَا تُخَالِطُونِي بِالمُصَانَعَةِ وَلَا تَظُنُّوا بِي اسْتِثْقَالًا فِي حَقٍّ قِيلَ لِي وَلَا الْتِمَاسَ إِعْظَامٍ لِنَفْسِي فَإِنَّهُ مَنِ اسْتَثْقَلَ الحَقَّ أَنْ يُقَالَ لَهُ أَوِ الْعَدْلَ أَنْ يُعْرَضَ عَلَيْهِ كَانَ الْعَمَلُ بِهِمَا أَثْقَلَ عَلَيْهِ فَلَا تَكُفُّوا عَنْ مَقَالَةٍ بِحَقٍّ أَوْ مَشُورَةٍ بِعَدْلٍ»(١). وتمتدّ ظلال العدالة في عهد أمير المؤمنين عليه السلام فيرعي أسواقهم من ناحية المكاييل والمعروض من السلع وطبيعة المعاملات فيها فيخرج كلّ يوم يتفقّد أسواق المسلمين بنفسه فيرشد الضالّ ويهدي المقصّر إلى طريق الحقّ ويأمر بكلّ معروف وينهى عن كلّ منكر.

وقد كان الإمام حريصًا على إلزام ولاته وقضاته وقادة جيوشه وجباة الأموال بالتزام العدل في معاملة الناس وتحرّي الحقّ في الحكم والقضاء وإعطاء الحقوق وفي جمع المال حتّى في حالات الحرب وسواها.

ومن وصيّة له عليه السلام لعبد الله بن العبّاس عند استخلافه إيّاه على البصرة: «سَعِ النَّاسَ بِوَجْهِكَ وَمَجْلِسِكَ وَحُكْمِكَ وَإِيَّاكَ وَالْغَضَبَ فَإِنَّهُ طَيْرَةٌ مِنَ الشَّيْطَانِ وَاعْلَمْ أَنَّ مَا قَرَّبَكَ مِنَ اللهِ يُبَاعِدُكَ مِنَ النَّارِ وَمَا بَاعَدَكَ مِنَ اللهِ يُقَرِّبُكَ مِنَ النَّارِ»(٢).

وكان يوجّه ولاته بتحرّي العدل والإنصاف ومن ذلك ما ورد في عهده لمالك الأشتر: «أَنْصِفِ اللهَ وَأَنْصِفِ النَّاسَ مِنْ نَفْسِكَ وَمِنْ خَاصَّةِ أَهْلِكَ وَمَنْ لَكَ فِيهِ هَوًى مِنْ رَعِيَّتِكَ فَإِنَّكَ إِلَّا تَفْعَلْ تَظْلِمْ وَمَنْ ظَلَمَ عِبَادَ الله كَانَ اللهُ خَصْمَهُ دُونَ عِبَادِهِ، وَمَنْ خَاصَمَهُ اللهُ أَدْحَضَ حُجَّتَهُ وَ كَانَ لِله حَرْبًا حَتَّى يَنْزِعَ أَوْ يَتُوبَ، وَلَيْسَ شَيْءٌ أَدْعَى إِلَى تَغْيِيرِ نِعْمَةِ اللهِ وَتَعْجِيلِ نِقْمَتِهِ مِنْ إِقَامَةٍ عَلَى ظُلْمٍ فَإِنَّ اللهَ سَمِيعٌ دَعْوَةَ الْمُضْطَهَدِينَ وَهُوَ لِلظَّالِمِينَ بِالْمِرْصَادِ، وَلْيَكُنْ أَحَبَّ الْأُمُورِ إِلَيْكَ أَوْسَطُهَا فِي الحَقِّ وَأَعَمُّهَا فِي الْعَدْلِ وَأَجْمَعُهَا لِرِضَى الرَّعِيَّةِ فَإِنَّ سُخْطَ الْعَامَّةِ يُجْحِفُ بِرِضَى الخَاصَّةِ وَإِنَّ سُخْطَ الخَاصَّةِ يُغْتَفَرُ مَعَ رِضَى الْعَامَّةِ

---

(١) المصدر نفسه، الجزء ٢، الصفحة ٢٠١، من خطبة له عليه السلام بصفّين.

(٢) **نهج البلاغة**، الجزء ٣، الصفحة ١٣٦، من وصيّة له لعبد الله بن عبّاس عند استخلافه إيّاه على البصرة.

وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الرَّعِيَّةِ أَثْقَلَ عَلَى الْوَالِي مَؤُونَةً فِي الرَّخَاءِ وَأَقَلَّ مَعُونَةً لَهُ فِي الْبَلَاءِ وَأَكْرَهَ لِلْإِنْصَافِ وَأَسْأَلَ بِالْإِلْحَافِ وَأَقَلَّ شُكْرًا عِنْدَ الْإِعْطَاءِ وَأَبْطَأَ عُذْرًا عِنْدَ الْمَنْعِ وَأَضْعَفَ صَبْرًا عِنْدَ مُلِمَّاتِ الدَّهْرِ مِنْ أَهْلِ الْخَاصَّةِ وَإِنَّمَا عِمَادُ الدِّينِ وَجِمَاعُ الْمُسْلِمِينَ وَالْعُدَّةُ لِلْأَعْدَاءِ الْعَامَّةُ مِنَ الْأُمَّةِ فَلْيَكُنْ صِغْوُكَ لَهُمْ وَمَيْلُكَ مَعَهُمْ»[١].

وكان يشدّد على جنوده في حالات الحرب بألّا يبدأوا بقتال العدوّ حتّى يبدأَهم بالحرب ولا يقتلوا من ولّى دبره عن قتالهم ولا يقتلوا الجريح ومن عجز عن حماية نفسه أثناء الحرب ولا يؤذوا النساء بشيء حتّى وإن بدأن بسبّ أو شتم.

أرأيت عدلًا رفيعًا كهذا العدل؟ بل هل حدّثك التاريخ الإنساني عن رجل يحبّ الخير حتّى لخصومه الذين ناصبوه العداء؟ إنّه علي صاحب القلب الكبير الذي شمل الناس بحبّ غامر فبسط لهم العدل في حياتهم وأشعرهم بحقيقة الكرامة الإنسانيّة ووفّر لهم غطاء من الأمن والاستقرار في جوّ الشعور بالمساواة والحياة الحرّة الكريمة.

وفي وصايا الإمام علي(عليه السلام) لجيوشه وجباة المال والولاة مؤشّرات أخرى على التزامه لمنهاج اللاعدوان على أحد كائنًا من كان.

واسمع عليًّا أمير المؤمنين عليه السلام وهو ينصّ في عهده لمالك الأشتر على وجوب التزام الرفق بالناس وعدم التعامل بأيّ لون من ألوان البغي والتعالي على الناس وغمط حقوقهم المفروضة في شرع الله العظيم: «وَأَشْعِرْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ وَالمَحَبَّةَ لَهُمْ وَاللُّطْفَ بِهِمْ وَلَا تَكُونَنَّ عَلَيْهِمْ سَبُعًا ضَارِيًا تَغْتَنِمُ أَكْلَهُمْ، فَإِنَّهُمْ صِنْفَانِ: إِمَّا أَخٌ لَكَ فِي الدِّينِ، وَإِمَّا نَظِيرٌ لَكَ فِي الخَلْقِ، يَفْرُطُ مِنْهُمُ الزَّلَلُ وَتَعْرِضُ لَهُمُ العِلَلُ وَيُؤْتَى عَلَى أَيْدِيهِمْ فِي الْعَمْدِ وَالخَطَإِ فَأَعْطِهِمْ مِنْ عَفْوِكَ وَصَفْحِكَ مِثْلَ الَّذِي تُحِبُّ وَتَرْضَى أَنْ يُعْطِيَكَ اللهُ مِنْ

---

(١) **نهج البلاغة**، الجزء ٣، الصفحة ٨٥، من عهد له لمالك الأشتر لمّا ولّاه مصر.

عَفْوِهِ وَصَفْحِهِ»[١]. ولم يكن منهاج علي عليه السلام هذا خاصًّا بأهل مصر وإنّما هو منهاجه الشامل لكلّ البلاد التي رفرفت راية دولته الكريمة عليها. ولقد كان الإمام عليه السلام يعهد إلى ولاته في الأمصار مثل الذي عهده إلى مالك الأشتر في وجوب إشاعة العدل والرفق بالناس وعدم البغي عليهم بحال من الأحوال أو معاملتهم بأيّ لون من ألوان الظلم.

(١) **نهج البلاغة**، الجزء ٣، الصفحة ٨٥، من عهد له لمالك الأشتر لمّا ولّاه مصر.

ثانيًا- مكانته العظيمة عند رسول الله ﷺ

لا تخفى منزلة الإمام علي عليه السلام في الإسلام، فلم يكن مؤمنًا عاديًّا في دائرة المؤمنين، بل له موقعٌ متميّز نعرفه من خلال ما قاله الرسول عنه، ومن خلال أعماله وسلوكيّاته ومواقفه العظيمة، وفي سبقه في فضائله فيما كان عليه من صفات وأخلاق عظيمة. لقد خاطبه الرسول ﷺ في قول: «أنت منّي بمنزلة هارون من موسى إلّا أنّه لا نبيّ بعدي»؛ فالنبوّة اختتمت بمحمّد ﷺ لكنّ المنزلة المتميّزة والفريدة التي كانت لهارون من موسى هي لعلي من محمّد وهذا هو مقامه الذي أشار إليه الرسول بنفسه وليس استنتاجًا ولا احتجاجًا مذهبيًّا.

فالإمام علي عليه السلام من خلال هذه المنزلة وفي هذا الموقع وبهذا المستوى كان يمثّل الامتداد الحقيقي للإسلام المحمّدي الأصيل، وذلك ما أشار إليه الرسول ﷺ: «عليّ مع القرآن والقرآن مع عليّ»، و«عليّ مع الحقّ والحقّ مع عليّ يدور معه حيثما دار».

فهو يمثّل في مسيرة الإسلام امتدادًا صافيًا حقيقيًّا للإسلام المحمّدي الأصيل والنموذج الراقي المتكامل الحقيقي للمسلم للمؤمن يُقتدى به ويتأسّى به وهو يقّدم النموذج الراقي المتميّز في مدرسة الرسول ومدرسة الإسلام الكبرى[1].

(١) من محاضرة السيّد عبد الملك في ذكرى استشهاد الإمام علي عليه السلام لعام ١٤٣٣هـ.

يقول السيّد حسين (رضوان الله عليه):

الإمام علي عليه السلام بمؤهّلاته وكمالاته وبأعماله ومواصفاته العالية كان على هذا النحو الذي أصبح فيه فعلًا - وهذه نقطة مهمّة يجب أن تتفهّمها - شاهدًا لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ لأنّه نزل في علي عليه السلام قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾[١].

كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يتحرّك على بيّنة من ربّه، وعليّ عليه السلام كان هو الشاهد لرسول الله، من نفسه؛ لذا قال عنه صلى الله عليه وآله وسلم في مقام آخر: «أنت منّي وأنا منك»، «عليّ منّي وأنا من عليّ»، وجاء القرآن الكريم ليؤكّد ذلك بقوله: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾[٢] فجاء بنفسه ونفس عليّ بعبارة واحدة ﴿وَأَنفُسَنَا﴾.

﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ هل الشهادة هذه هي فقط تقتصر بأن يشهد - لما رآه من هذه المعجزة أو تلك المعجزة - أنّ محمّدًا نبّي صادق؟! لقد شهد بها المشركون في قرارات أنفسهم ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[٣].

إنّها شهادة على مدى سنين، شهادة أدّاها في مواقفه، في حياته كلّها، أنت تريد أن تعرف عظمة هذا الإسلام، إذا كان هناك أيّ نظرية - كما يقولون - لا يمكن أن تعرف عظمتها إلّا عندما ترى ما تصنعه، ما تقدّمه من أثرٍ، ترى نماذج ممّن يحملون أفكار تلك النظريّة، ثقافة تلك النظريّة، وتوجُّهاتها، فتراهم كيف هم، هنا تحكم على تلك النظريّة عندما كانوا يجسّدونها بنسبة مئة في المئة.

لقد عَدّ كثير من الكُتّاب ومن العلماء عن عليّ أنّه كان معجزة للرسول لأنّه ما يُدرينا أنّ هذا الدين عظيم في واقعه؟ هو دين يخاطبنا، يتحدّث مع

---

(١) سورة **هود**، الآية ١٧.

(٢) سورة **آل عمران**، الآية ٦١.

(٣) سورة **الأنعام**، الآية ٣٣.

أنفسنا، مع وُجداننا، دين له رؤيته في تقديم نموذج للإنسان فكيف يسير هذا النموذج؟ ارجع إلى عليّ في رؤيته، في مواقفه، في ممارساته، في سلوكيّاته وستعرف ذلك النموذج الذي لم يبهر فقط المسلمين، بل بهر أيضًا المسيحيّين فكتب عنه كُتّاب مسيحيّون أُعجِبوا بعظمته، بمصداقيّته، اعتبروه عبقريًّا، وعظيمًا، ومثلًا أعلى.

إنّه فعلًا نموذجًا للشخصيّة العظيمة التي يمكن أن يصنعها هذا الدين الذي جاء به محمّد صلى الله عليه وآله وسلم، فهو شاهد لهذا الدين أنّه دين كامل، من إله كامل، اصطفى لتبليغه رسولًا كاملًا، هو الله سبحانه وتعالى الذي قال: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾[1]. إنّك تجد عظمة الإسلام بمحمّد صلى الله عليه وآله وسلم وتلميذه عليّ عليه السلام الذي جسّد أخلاق الإسلام. وهذه الأخلاق كان لها أثرها في النفوس،كلّ شيء سيبقى نظريّة، خاضعًا للاحتمالات إذا لم يكن هناك على صعيد الواقع ما يشهد لصحّته، ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾[2].

كما تأتي الشواهد في الأحداث، والمتغيّرات لتشهد أنّ هذا الدين هو حقّ لا شكّ فيه، كذلك المنهجيّة التربويّة للإنسان تبرز أحقيّته بالنموذج الذي يعطيه، فعلى مستوى النموذج الإنساني ارجع إلى عليّ عليه السلام إنّه شاهد على أنّه حقّ، وكفى به شهيدًا.

ولكن من أجلنا نحن بني البشر الذين قال عنهم: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا﴾[3]، ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾[4] إلى آخر ما وصل به هذا الإنسان عندما يتّجه إلى العناد؛ فمن أجل رحمة الله ولطفه ورأفته تعالى به

---

(١) سورة **المائدة**، الآية ٣.

(٢) سورة **فصّلت**، الآية ٥٣.

(٣) سورة **الكهف**، الآية ٥٤.

(٤) سورة **عبس**، الآية ١٧.

يُقَدِّم له الشواهد في مختلف المجالات على عظمة ما قدّمه له من منهج، على عظمة هذا الدين الذي أكمله له، وأتمّ به النعمة عليه، ورضيه دينًا يدين به أمام مولاه سبحانه وتعالى.

عندما تأتي إلى رؤية علي عليه السلام تجد فيه شاهدًا، رؤيته للحياة، رؤيته للإنسان؛ فجمع في **نهج البلاغة** ما قال عنه الكثير: «بأنّ عليًّا عليه السلام برز عالمًا فيلسوفًا بل قدوة في كلّ هذه الاتجاهات كعالم اجتماع، اقتصاد، نفس، مرشد، معلّم وغير ذلك، برز ذلك الشخص عظيمًا يقدّم رؤية حقيقيّة وواقعيّة للحياة».

حتّى وهو يتحرّك في مواجهة أعدائه، ومع من ينضوون تحت لوائه كان يحذّرهم، ينذرهم، يعطيهم رؤى، كان يذكّرهم بأشياء عرفوا من بعد صحّتها، عرفوا صحّتها، كان يقول لأهل العراق: «والله إنّي لأخشى أن يُدَال هؤلاء القوم منكم لاجتماعهم على باطلهم وتفرّقكم عن حقّكم».

في هذه العبارة، تجد رؤية حقيقيّة، رؤية واقعيّة، صحيحة لدى الإمام علي عليه السلام في النتائج، في المسبّبات، ما خلفيّاتها؟ ما أسبابها؟.[١]

لقد كان علي عليه السلام بما حظي به من تأهيل إلهي وتربية نبويّة، وإيمان صادق وشخصيّة فذّة ومؤهّلات فريدة ومواقف شجاعة وتضحيات أضاء بها تاريخ الأمّة الإسلاميّة كلّ هذه وغيرها من الأمور جعلت الإمام عليًّا عليه السلام المؤهّل الوحيد لوصاية رسول ربّ العالمين وخلافة المسلمين وإمرة المؤمنين والقدوة والقائد لهم في كلّ شيء بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد انطوى **القرآن الكريم** وأقوال النبي صلى الله عليه وآله وسلم على كثير من النصوص والروايات التي بيّنت مكانة هذا الرجل العظيم وكماله وتأهيله وتنطق كلّها بتنصيب الإمام علي أميرًا للمؤمنين ووصيًّا لرسول ربّ العالمين باعتباره الرجل

---

(١) محاضرة السيّد حسين في ذكرى استشهاد الإمام علي عليه السلام.

الكامل والمؤهّل لهذه المهمّة وتوجب على الناس سلوك سبيله وتولّيه بأنّه امتداد لتولّي الله ورسوله.

تمتع الإمام علي عليه السلام بصفات أشاد الله سبحانه وتعالى بها في كتابه العزيز وخلّدها وأكّدها النبي صلى الله عليه وآله وسلم على لسانه في أكثر من موطن وهي صفات عظيمة وفضائل جليلة ومن يتأمّلها يجد:

١-أنّها لم تكن مجرّد أوسمة ليس لها واقع من حياة الإمام علي عليه السلام وسيرته العطرة فمن يقرأ سيرة الإمام ومسيرته الجهاديّة مع معلّمه ومربّيه وقائده وقدوته رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يجد بأنّها كانت صفات وفضائل تحكي عن شخصه عليه السلام، فالمواقف التي جسّدها الإمام علي قولًا وفعلًا وسلوكًا هي مواقف تستحقّ أن تخلّد وتكتب على صفحات كتاب الله العزيز وينطق بها أعظم الأنبياء وخاتمهم.

٢-كما أنّها أيضًا تمثّل مقاييس ومعايير ومواصفات تبيّن للناس مستوى أهليّة الإمام علي عليه السلام لقيادة الأمّة وتحمّل هذه المسؤوليّة العظيمة التي تتطلّب رجلًا لديه الجدارة ببناء هذه الأمّة وتربيتها وتأهيلها والارتقاء بها وقيادتها في مواجهة أعدائها.

٣-كما أنّها مواصفات ومعايير ترسم منهجًا للأمّة إلى يوم القيامة تعرف من خلالها أنّ من يتحلّى بمثل هذه المواصفات والمعايير هو الجدير بولاية أمرها وقيادتها والارتقاء بها لتكون أمّة رائدة تسود الدنيا كلّها، قادرة على مواجهة أمواج الفتن العاتية والوصول بها إلى برّ الأمان.

بعض ما ورد في أهل البيت وفي مقدّمتهم الإمام علي عليه السلام

١- آية التطهير: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرًا﴾[1] فقد جمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليًّا وفاطمة والحسن

(١) سورة **الأحزاب**، الآية ٣٣.

والحسين تحت ثوب وقال: اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصّتي فأذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيرًا[١].

٢- آية المودّة: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾[٢] لمّا نزلت هذه الآية قالوا: يا رسول الله من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودّتهم؟ قال: علي وفاطمة وابناهما[٣].

٣- آية المباهلة: ﴿فَمَنۡ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمۡ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمۡ ثُمَّ نَبۡتَهِلۡ فَنَجۡعَل لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾[٤]. أجمع المفسّرون على أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم عندما أراد مباهلة نصارى نجران دعا عليًّا وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام للمباهلة وذكروا بأنّ المراد بنسائنا فاطمة، وأبنائنا الحسن والحسين، وأنفسنا الإمام علي عليه السلام[٥].

٤- قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾[٦] لمّا نزلت هذه الآية أومى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى عليّ فقال: «أنت الهادي يا علي بك يهتدي المهتدون من بعدي»[٧].

---

(١) أخرجه مسلم في **صحيحه**، باب فضائل الحسن والحسين، الجزء ١٥، الصفحة ١٩٤.

(٢) سورة **الشورى**، الاية ٢٣.

(٣) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٢٣، الصفحة ٢٣٢.

(٤) سورة **آل عمران**، الآية ٦١.

(٥) من أولئك الزمخشري، **تفسير الكشّاف**، سورة **آل عمران**، الآية ٦١. وكذا جاء في **تفسير الثعالبي** عن مجاهد والكلبي: ويُطلق لفظ أصحاب الكساء على الّذين اجتمعوا مع النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم تحت كسائه ونزلت فيهم آية التطهير، وهم: عليّ وفاطمة والحسن والحسين. و**تفسير الرازي**، الجزء ٣، الصفحة ١٦٦. ومسلم، **صحيح مسلم**، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل علي بن أبي طالب.

(٦) سورة **الرعد**، الآية ٧.

(٧) ابن جرير الطبري، **جامع البيان**، الجزء ١٣، الصفحة ١٤٢؛ وابن كثير في **تفسير ابن كثير**، الجزء ٢، الصفحة ٥٢٠، و**بحار الأنوار**، الجزء ٣٥، الصفحة ٣٩٩. للمزيد، انظر، **الغارة السريعة** للسيّد بدر الدين الحوثي (رضوان الله عليه) الصفحة ٣٥٤.

٥- ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ﴾[١] هذه الآية المباركة المشهور فيها أنّها نزلت في الإمام علي عليه السلام عندما تصدّق بخاتمه وهو راكع بعد أن دخل فقير يسأل ولم يعطه...[٢].

هذه الآية لها دلالات مهمّة جدًّا قدّمت بجلاء الروحيّة العظيمة التي كان يتمتّع بها الإمام علي عليه السلام روحيّة الاهتمام بأمر المحتاجين، نفسيّة رحيمة تهتمّ بالناس، وبمن تعرفهم ومن لم تعرفهم.. وسنقف مع دلالات هذه الآية الكريمة في مكانها المناسب من هذا الكتاب، وغير ذلك من الآيات التي سنتعرض لبعضها خلال بحثنا هذا.

وممّا ورد من الأحاديث النبويّة في فضل الإمام علي عليه السلام نورد قليلًا من كثير:

- قوله صلى الله عليه وآله وسلم لعلي عليه السلام: «عليّ مع القرآن والقرآن مع عليّ لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض»[٣].
- وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «أنا مدينة العلم وعلي بابها فمن أراد المدينة فليأتها من بابها»[٤].
- وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال نظر النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى عليّ فقال: «يا عليّ أنت سيّد في الدنيا سيّد في الآخرة حبيبك حبيبي

---

(١) سورة **المائدة**، الآية ٥٥.

(٢) ابن كثير في **تفسيره**، الجزء ٣، الصفحة ١٢٩، وابن جرير الطبري في **جامع البيان**، والخطيب البغدادي في **تاريخه**، الجزء ١، الصفحة ٢٨٦، والحاكم الحسكاني من عدّة طرق، وابن المغازلي في **المناقب** الصفحة ١٩٣.

(٣) أخرجه الحاكم في **المستدرك**، الجزء ٣، الصفحة ١٢٤، وصحّحه وأقرّه الذهبي، وأخرجه الإمام أبو طالب في **الأمالي** عن أمّ سلمة، وأخرجه محمّد بن سليمان الكوفي صاحب الإمام الهادي عليه السلام في آخر كتاب **المناقب**.

(٤) أخرجه الحاكم في **المستدرك**، الجزء ٣، الصفحة ١٢٦ وقال: هذا حديث صحيح.

وحبيبي حبيب الله، وعدوّك عدوّي، وعدوّي عدوّ الله والويل لمن أبغضك بعدي»[١].

- عن سلمان - رضي الله عنه - قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أحبّ عليًّا فقد أحبّني ومن أبغض عليًّا فقد أبغضني»[٢].
- عن النبي ﷺ أنّه قال لعلي: «أنت منّي وأنا منك»[٣].
- وقوله ﷺ في المؤاخاة: «أنت أخي في الدنيا والآخرة»[٤].
- وقوله ﷺ في حديث الطير: «اللهم ائتني بأحبّ خلقك إليك» فكان الإمام علي عليه السلام[٥].
- وقوله ﷺ لعلي عليه السلام: «لا يحبّك إلّا مؤمن ولا يبغضك إلّا منافق»[٦].
- وقوله ﷺ: «يا عليّ تقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله»[٧].
- وقوله ﷺ قبل فتح خيبر وبعد أن عجز عن فتحها أبو بكر وعمر فما كان من رسول الله ﷺ إلّا أن دعا عليًّا لفتحها بعد أن منحه

(١) أخرجه الحاكم في **المستدرك**، الجزء ٣، الصفحة ١٢٨ وصحّحه على شرط الشيخين واعترف في تلخيصه بأنّ رواته ثقات.

(٢) الحاكم النيسابوري، **المستدرك**، الجزء ٣، الصفحة ١٣٠. وابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، الجزء ٤٢، الصفحة ٢٧١.

(٣) أخرجه البخاري في كتابه **صحيح البخاري** في حديث عمرة القضاء، الجزء ٥، الصفحة ٨٥.

(٤) الحاكم النيسابوري، **المستدرك**، الجزء ٣، الصفحة ١٤، و**بحار الأنوار**، الجزء ٢٩، الصفحة ١٩٨.

(٥) الخطيب البغدادي في **تاريخ بغداد**، الجزء ٩، الصفحة ٣٧٦، والترمذي في **سننه**، الجزء ٥، الصفحة ٣٠٠، والحاكم في **المستدرك**، الجزء ٣، الصفحة ١٣٠، وللمزيد، انظر، **الغارة السريعة**، الصفحة ٤٠٠.

(٦) الترمذي في **سننه**، الجزء ٥، الصفحة ٣٠٦؛ والنسائي في **سننه**، الجزء ٨، الصفحة ١١٦؛ والعلّامة المجلسي في **بحار الأنوار**، الجزء ٢٧ ، الصفحة ٨٢، الحديث ٢١.

(٧) العلّامة المجلسي في **بحار الأنوار**، الجزء ٢٨، الصفحة ٤٥؛ **لوامع الأنوار**، الجزء ١، الصفحة ٤٣٨.

هذا الوسام الرفيع الذي يليق به وبما يتحلّى به: «لأعطينّ الراية غدًا رجلًا يحبّ الله ورسوله ويحبّه الله ورسوله كرّار غير فرّار يفتح الله على يديه»[١].

هذه الأحاديث بحقّ الإمام علي عليه السلام لم ترد عبثًا أو لحبّ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فحسب، بل لها دلالاتها الخاصّة فالرسول صلى الله عليه وآله وسلم أراد أن يرسم المنهج القويم لأمّته من بعده من خلال هذا الرجل العظيم.

يقول السيّد عبد الملك بدر الدين الحوثي مشيرًا إلى بعض دلالات حديث «لأعطينّ الراية غدًا رجلًا يحبّ الله ورسوله ويحبّه الله ورسوله كرّار غير فرّار يفتح الله على يديه»: «الإمام علي بمؤهّلاته التي كانت معروفة ومشهورة وتحدّث عنها النبي صلى الله عليه وآله وسلم في مقامات متعدّدة، منها في معركة خيبر. لقد تجلّى في ذلك المقام مستوى أهليّة الإمام علي عليه السلام لتلك المسؤوليّة العظيمة، رجلًا لديه الجدار لبناء هذه الأمّة بالارتقاء بها، بتعليمها، بقيادتها في مواجهة أعدائها مهما كانوا ومهما كانت إمكانيّاتهم، لديه هذا المستوى العالي من الإيمان، منزلةٌ عظيمةٌ، ساميةٌ، رفيعةٌ عند الله العظيم (يحبّ الله ورسوله ويحبّه الله ورسوله). هذا الرجل العظيم الذي يحبّه الله ورسوله أليس جديرًا منّا بالمحبّة؟ أليس جديرًا منّا بأن نتولّاه؟ أليس جديرًا بالمقام العظيم في قيادة الأمّة وهدايتها»[٢].

وحول حديث «لا يحبّك إلّا مؤمن ولا يبغضك إلّا منافق» يقول السيّد عبد الملك (حفظه الله): النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال نصًّا مهمًّا جدًّا نصًّا موجودًا في تراث الأمّة كلّها قال: «لا يحبّك إلّا مؤمن ولا يبغضك إلّا منافق». لا يحبّ عليًّا إلّا مؤمن وهذا له دلالات ذات أهميّة كبيرة: أوّلًا هو شهادة بكمال إيمان علي ومستواه الإيماني العظيم إذ لا يمكن أن يحبّه إلّا مؤمن. هذا النصّ الذي هو شهادة بكمال إيمان علي ورمزيّته؛ فلكلّ مؤمن ارتباط بالإمام علي عليه السلام قائم

---

(١) من محاضرة السيّد عبد الملك في ذكرى استشهاد الإمام علي عليه السلام لعام ١٤٣٣هـ.

(٢) خطاب الغدير لعام ١٤٣٣هـ.

على أساس المحبّة الصادقة التي فيها اقتداء بعلي والتقاء به في مقام والقيم والمسار الإيماني كلّه. لا يحبّ عليًّا إلّا مؤمن لأنّ المؤمن يحبّ كل تلك القيم ويرتبط بكلّ تلك المبادئ التي جسّدها علي على أرقى مستوى، والتي كان هو السبّاق إليها.

فحبّ علي علامة فارقة لأنّ إيمانه صافٍ لا زيف فيه ولا نفاق كبعض الذين يتحرّكون باسم الإيمان وقد قال عنهم الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾[١].

«ولا يبغضه إلّا منافق» ما الذي يمكن أن يجعل الإنسان يبغض عليًّا؟ هل كان علي فيما كان عليه من قيم ومبادئ وأخلاق وفيما يقول وفيما يعلم هل كان في واقعه شيء يجعل الإنسان يبغضه؟ الإمام علي عليه السلام جسّد في واقع حياته وفي تحرّكه قيم الإيمان والإسلام على أرقى مستوى، وكان مع القرآن والقرآن معه، وكان مع الحقّ والحقّ معه؛ فما الذي يجعل الإنسان يستاء من علي ويكرهه ويبغضه ويناوئه ويتحرّك ضدّه للحطّ من مكانته والتصغير من قدره ومقامه ومنزلته؟ النفاق هو الذي يجعل البعض يصطدمون بعلي ولا يتفقون معه بحال. النفاق هو الذي حرّك البعض في عصره مبغضين له ومناوئين ومستهدفين وعمدوا إلى القضاء عليه ومن بعد عصره كذلك بقي على مرّ التاريخ وإلى زمننا هذا من هو مبغض لعلي ومستاء منه ويمتعض ويتألّم ويغضب وينفر عندما يسمعك تتحدّث عن علي، ويستاء، لماذا؟ لأنّه منافق يحمل في قلبه الكره لعلي بما كان عليه من مواقف ودور متميّز وعظيم في إقامة الإسلام ومواجهة قوى الكفر أوّلًا وقوى النفاق العامدة إلى مسخ هويّة الإسلام وتحريف مفاهيمه ثانيًا، ولا يزال المنافقون والمستبدّون والطغاة والمجرمون وكلّ الفئات الضالّة المنحرفة ترى في علي خطرًا عليها حتى الآن، خطرًا في فكره وثقافته وأخلاقه وقيمه وسيرته، وترى أن تأثّر الأمّة به يمثّل خطورة عليها؛ ولذلك نرى تغييبًا ومحاربة كبيرة لأن يكون لعلي عليه السلام

(١) سورة **البقرة**، الآية ٨.

ما يستحقّ من المقام والذكر في سيرته وجهاده وإيمانه كرمز عظيم من رموز الإسلام سواء في المناهج الدراسيّة في الجامعات أو من خلال الأنشطة التثقيفيّة والتعليميّة عند الكثير[١].

فمن يعرف أهميّة هذه الأحاديث وما تهدي إليه وما تفيده وتدلّ عليه لا يسعه إلّا أن يستلهم من الإمام علي عليه السلام الرؤى والتوجيهات الحكيمة في مختلف الميادين والمجالات.

وما ذكرناه من الأحاديث هي غيض من فيض من النصوص الإسلاميّة والمجمع على صحّتها في الإمام علي عليه السلام.

ظلّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم طوال حياته يعمل على تأهيل الإمام علي عليه السلام وتقديمه علمًا وقائدًا وقدوة ليواصل مسيرة الرسالة من بعده وأثبت الإمام علي عليه السلام بمواقفه العظيمة أهليّته لهذه المهمّة وعرف لدى الجميع بأنّه أكمل إنسان بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأنّه الأجدر لحمل هذه المسؤوليّة.. ومع هذا كلّه، يتوّج النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذلك كلّه بإعلان ولاية الإمام علي عليه السلام على أمّته وبطريقة رسميّة معلنة.

ففي ظهيرة يوم الثامن عشر من ذي الحجّة من السنة العاشرة من الهجرة تمّ تنصيبه لهذا المقام العظيم وليًّا للمؤمنين من بعده وبطريقة رسميّة وعلى رؤوس الأشهاد، بعد أن أعدّ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بأمر الله تعالى ورتّب لتنصيب الإمام علي في مراسيم خاصّة واحتفاليّة كبرى تليق بهذه المناسبة المهمّة والكبيرة وتجعلها خالدة في ذاكرة التاريخ والأجيال ونتحدّث بالتفصيل عن حادثة الولاية وأبعادها في الفصل اللاحق.

وفي آخر ساعاته، خاطب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مَنْ حضر عنده من أصحابه بقوله: «ائتوني بدواة وكَتِف، لأكتُبَ لَكُم كتابًا لا تضلّوا بعدَهُ أبَدًا» وكان في

(١) من محاضرة السيّد عبد الملك في ذكرى استشهاد الإمام علي عليه السلام لعام ١٤٣٤هـ.

البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب، فقال عمر: إنّ الرجل ليهجر، وقد غلبه الوجع وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله.

عن ابن عبّاس، قال: لمّا حضرت رسول الله ﷺ الوفاة، وفي البيت رجال منهم عمر بن الخطاب فقال النبي ﷺ: «هلمّوا لكتاب أكتب لكم كتابًا لن تضلّوا بعده». فقال عمر: إنّ رسول الله قد غلب عليه الوجع، وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله. فاختلف أهل البيت واختصموا، فمنهم من يقول: قرّبوا له يكتب لكم رسول الله ﷺ، ومنهم من يقول ما قال عمر، فلمّا أكثروا اللغط والاختلاف عند رسول الله ﷺ قال: «قوموا عنّي، فلا ينبغي عندي التنازع». فكان ابن عبّاس يبكي بكاء مرًّا ويعبّر عن أساه لما حدث بقوله: إنّ الرزيّة كلّ الرزية ما حال بين رسول الله ﷺ وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب باختلافهم ولغطهم. ولا ينبغي عند نبيّ تنازع. ومن هنا، ظهرت بوادر التخلّي.

يقول السيّد حسين (رضوان الله عليه) معلّقًا على ما جرى في مرض النبي ﷺ: «لماذا فرّط المسلمون رغم ما عمله النبي ﷺ من تأكيدات على خلافة الإمام علي عليه السلام والتي توّجها بهذا الإعلان الهامّ في يوم الولاية! المسلمون الذين فرّطوا لم يكن إيمانهم بالله بالشكل الذي يجعلهم يلتزمون حرفيًّا، إيمانًا واعيًا. هم كانوا مؤمنين بالله وبرسوله، لكنّ الإيمان درجات، لم يكونوا بمستوى أن يعوا من خلال القرآن، ومن خلال محمّد ﷺ عظم المسؤوليّة الكبرى، وكيف يكونون بمستواها، ولم يأتِ التقصير، لا من خلال القرآن، ولا من خلال رسول الله ﷺ الذي هو أفصح العرب، وأنشط الأنبياء في عمله، أكثرهم نشاطًا، وأعظم البشر تبليغًا بوسائله، وبمنطقه.

عندما لم يعوا مسألة الإيمان بالشكل الذي يجعلهم يلتزمون حرفيًّا بتوجيهات الرسول ﷺ بالقرآن الكريم بدأ التفريط من أيّامهم، مذ كان رسول الله ﷺ على فراش الموت مريضًا في آخر أيّامه، عندما قال: «هلمّ أكتب لكم كتابًا لا تضلّوا بعده» فجاء عمر مع مجموعة كبيرة داخل مجلس رسول الله ﷺ ليعارضوا بأن يقدّم لرسول الله قلم ودواة، فيأمر بكتابة من يكتب ما لا تضلّ الأمّة إن تمسّكت به، فعارض عمر، وأثاروا ضجّة في مكان رسول

الله صلى الله عليه وآله وسلم وقالوا: «حسبنا كتاب الله»! لو كانوا يعرفون كتاب الله بالشكل المطلوب لكان عليهم أن يقدّموا لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قلمًا ودواة حتّى يكتب ذلك المكتوب الذي يريد أن يكتبه.

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما وصفه الله ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1]، يهمّه أمر الأمّة من بعده أن لا تضلّ ولا تختلف ولا تتمزّق أو تتفرّق، لا يبرز أشخاص يضلّونها يدمّرونها يهلكونها، وعلى الرغم ممّا قد عمل في الغدير وغيره يقول: «هَلُمَّ أكتب لكم كتابًا لا تضلّوا بعده» والحمى تلهب جسمه، لكنّه لا يزال يحمل اهتمامًا بأمر المسلمين والأمّة حتّى في اللحظات الأخيرة من حياته، أليس هذا هو يهمّه أمر الأمة؟ حريص عليها مشفق عليها؟.

وقد ظهرت بوادر التخلّي عن المسؤوليّة الكبرى ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان لا يزال حيًّا بكامل وعيه، وهو في آخر أيّامه، مريضًا على فراش الموت، وَلمّا قَرُبَ أجلُهُ أوصى عليًّا بجميع وصاياهُ، ثمّ فاضت نفسه الطاهرة في حِجْرِ عليّ عليه السلام.

كانت اللحظات الأخيرة من حياة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعلي عنده فرمقه بنظره وقال له: «يا علي، ضع رأسي في حجرك، فقد جاء أمر الله تعال، ووجّهني إلى القبلة، وتولّ أمري وصلِّ عليّ أوّل الناس ولا تفارقني حتّى تواريني في رِمْسِي واستعن بالله تعالى».

فأخذ علي عليه السلام رأس النبي صلى الله عليه وآله وسلم فوضعه في حجره فأغمي عليه ثمّ قبض صلى الله عليه وآله وسلم ويد علي اليمنى تحت حنكه ففاضت نفسه فيها، فرفعها إلى وجهه فمسحه بها ثمّ وجّهه وغمضه ومدّ عليه إزاره واشتغل في أمره.

ولملمت الشمس أشلاء يومها الكئيب.. فقد صعدت روح رسول الإنسانيّة إلى السماء تسبّح في الملكوت الأعلى، وغمر المصاب الكون كلّه،

---

(١) سورة **التوبة**، الاية ١٢٨.

وأذهل المخلصين هول الخطب وعقدت ألسنتهم مرارة الفاجعة، وتجمهروا حول بيت نبيّهم تلفّهم وحشه المأساة.

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْۚ..﴾(١) وشاع الخبر يهزّ الناس ويقضّ مضاجعهم؛ لقد انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى وانشغل علي بن أبي طالب عليه السلام وعدد من بني هاشم والمهاجرين في تجهيزه بينما عشّاق السلطة انطلقوا إلى سقيفة بني ساعدة بهدف الاستيلاء على السلطة.

شعر الأنصار بما يدبّره بعض قريش ومن يدور في فلكهم من أجل الإستيلاء على السلطة بعد وفاة رسول الله ﷺ حيث ظهرت مؤشّرات هذا التآمر واضحة، والتي كان آخرها ما حدث في مجلس رسول الله ﷺ وفي مرضه الأخير ومعارضتهم لكتابة الكتاب أدّت بالرسول أن يعزف عن كتابته نتيجة للمعارضة الشديدة من الطامعين في الاستيلاء على السلطة، والذين أدركوا ماذا يريد الرسول ﷺ وأنه يريد أن يشدّ الأمّة من جديد إلى الإمام علي عليه السلام إضافة إلى ما قد مضى في يوم الغدير وغيره فترجّح للأنصار بأنّ المسألة ربّما لا تتمّ للإمام علي عليه السلام وكان الصواب هنا أن يلتفّوا حول الإمام علي عليه السلام لتتمّ له المسألة، ولكن بدلًا من ذلك اجتمع بعض الأنصار في سقيفة بني ساعدة في يوم وفاة الرسول ﷺ كخطوة استباقيّة لاختيار أحد زعماء الأنصار، وهو سعد بن عُبادة الخزرجي أميرًا وخليفة للمسلمين بعد أن ألقى بهم خطابًا بيّن فيه فضل الأنصار، واستحقاقهم للخلافة، بقوله: «فشدّوا أيديكم بهذا الأمر، فإنّكم أحقّ الناس وأولاهم به»، فوافقوه على ذلك، وأجاب الحاضرون: «أن قد وفّقت في الرأي، وأصبت في القول، ولن نعدو ما رأيت توليتك هذا الأمر، فأنت مقنع، ولصالح المؤمنين رضا».

انتشر خبر بيعة الأنصار لسعد بن عبادة، ووصل الى أبي بكر وعمر فجاءا مسرعين إلى السقيفة، وفي الطريق التقيا بأبي عبيدة بن الجرّاح، فأخبراه

---

(١) سورة **آل عمران**، الآية ١٤٤.

الخبر فالتحق بهما، فتوجّهوا إلى السقيفة فدخلوها، فوجدوا الأنصار قد أمّروا سعد بن عُبادة، فاحتجّوا على ذلك، وجرى بينهم خلاف وجدال ونقاش شديد حول أمر الخلافة والإمارة، وكان ممّا قالوه: (يا معشر الأنصار، منّا رسول الله، فنحن أحقّ بمقامه).

وحين اشتدّ الجدل قدّم أحد الأنصار حلًّا وسطًا، فاقترح أن يكون منهم أمير، ومن المهاجرين أمير، فقالوا لهم: (منّا أمير، ومنكم أمير). ثم وضّحوا سبب موقفهم هذا، بأنّهم يخافون أن يستولي على قيادة المسلمين من ليس من المهاجرين، ولا من الأنصار - أي من الذين دخلوا الإسلام متأخّرين بعد فتح مكّة وأمثالهم - لذا قالت الأنصار: «ونحذر أن يغلب على هذا الأمر من ليس منّا، ولا منكم، فلو جعلتم اليوم رجلًا منّا ورجلًا منكم بايعنا، ورضينا، على أنّه إذا هلك اخترنا آخر من الأنصار، فإذا هلك، اخترنا آخر من المهاجرين، أبدًا ما بقيت هذه الأمّة».

إلّا أنّ أبا بكر رفض اقتراحهم هذا، وأراد أن تكون للأنصار الوزارة والمشورة، وجاء ردّه هذا بقوله: «فنحن الأمراء، وأنتم الوزراء، لا نفتات دونكم بمشورة، ولا تنقضي دونكم الأمور».

ثمّ اشتدّ الجدال بين عمر بن الخطاب وأبي بكر وأبي عُبيدة بن الجرّاح من جهة، والأنصار من جهة أخرى حول من الذي سيتولّى شؤون الإمارة والخلافة.

فقام أحد رجالات الأنصار، وهو الحُبَاب بن المنذر، وحثّ الأنصار على التمسّك بالإمارة، والخلافة، وعدم التنازل عنها، وقال لهم: «فأنتم أعظم الناس نصيبًا في هذا الأمر وإن أبى القوم فمنّا أمير ومنهم أمير». فقام عمر بن الخطاب وردّ على الحُبَاب، ورفض قوله، وقال: «هيهات، لا يجتمع سيفان في غمد واحد، إنّه والله لا ترضى العرب أن تؤمركم، ونبيّها من غيركم، ثمّ قال: من ينازعنا سلطان محمّد وميراثه، ونحن أولياؤه وعشيرته، إلّا مدلّ بباطل، أو متجانف لإثم، أو متورّط في هلكة».

فقام الحُبَاب بن المنذر فردّ على خطاب عمر، ودعا الأنصار إلى التمسّك بالإمارة مرّة أخرى، وجاء في خطابه: «املكوا على أيديكم، ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه، فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر».

وهكذا استمرّ الجدل والحوار بين الحاضرين حتّى ظهر رأي آخر في الأنصار، وهو رأي البشير بن سعد، وأسيد بن حضير، وهما من زعماء الأنصار المنافسين لسعد بن عبادة إلى جانب أبي بكر وعمر وأبي عبيدة، وعند ذلك قام عمر وأبو عبيدة ليبايعا أبا بكر، فسبقهما بشير الأنصاري، فبايع أبا بكر، وبايع الحاضرون، ورفض سعد بن عبادة بيعة أبي بكر، وهدّد باستعمال القوّة وإسقاط البيعة، ولم يبايع حتّى توفّي في الشام في خلافة عمر بن الخطّاب.

تحرّك المتآمرون في السقيفة وبسرعة كبيرة جدًّا لأخذ البيعة من المسلمين مستغلّين انشغال الإمام علي عليه السلام ومن معه بتجهيز رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإعداد مراسيم وداعه ومستفيدين من هول الصدمة بفقدان هذا الرجل العظيم وموهمين من تبقّى من المسلمين بأنّ العملية قد تمّت باتفاق الجميع. وكانوا يريدون حسم الموضوع سريعًا ليضعوا الإمام عليًا عليه السلام أمام الأمر الواقع، وقد نجحوا فعلًا في هذه المؤامرة وساعدهم على ذلك التقصير والتفريط من البعض وعدم إعطاء القضيّة أهمية من البعض الآخر؛ ممّا جعل عمر بن الخطاب يقول كلمته المعروفة «لقد كانت بيعة أبي بكر فلتة» يعني من غير مشورة، جرّبوا ونجحوا وتمّت لهم المسألة بأكثر ممّا كانوا يتوقّعون.

لقد جرى كلّ ذلك الجدل والخلاف والبيعة في السقيفة (سقيفة بني ساعدة) في حدود الحاضرين وحدهم، بينما البقيّة وعلى رأسهم الإمام علي عليه السلام كانوا مشغولين بتجهيز رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وتغسيله، وتحنيطه، وتكفينه، والصلاة عليه، وحجم الكارثة التي منيت بها الأمّة بفقدان رسول صلى الله عليه وآله وسلم أنساهم التفكير في موضوع الخلافة ومن جهة أخرى هم يعتقدون بأنّ قضيّة الخلافة قضيّة محسومة إلّا أنّ المفاجئة كانت كبيرة ومخيفة عندما جاء البرّاء بن عازب ليخبرهم بالخبر، وما تمّ في السقيفة.

فكان لفاطمة بنت محمّد صلى الله عليه وآله وسلم موقفًا ممّا حصل، وهي من أهل البيت الّذين أذهبَ اللهُ عنهم الرِّجسَ وطَهّرهُم تَطْهيرًا، وقدْ أنزلَ الله فيها وفي زوجها وولديها، آيات عديدة، مثلَ آيةِ التطهيرِ، وآيةِ المباهلةِ، وآيةِ المودّةِ، وسورة الدّهرِ... إلخ. وقد عاشت بعد أبيها مدّة قصيرة.

هذه الطاهرة الزكية كان لها موقفٌ بارزٌ ومهمٌّ مِن قضيّة بيعةِ السّقيفةِ والخلافةِ وأحداثِها فكما حدّثنا المؤرِّخون والرّواة الّذين نقلوا حوادث السّقيفة، وموقف فاطمة الزهراء عليها السلام منها فإنّ فاطمة عليها السلام تحرّكت بكلّ جهدها لاستنقاذ أمّة أبيها والحفاظ على ما قد تحقّق من منجزات وانتصارات ستكون معرّضة للتلاشي إذا ولّي الأمر من ليسوا بأهله ووقفت إلى جانب الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وتحدّثت مع الأنصار بعد بيعة السّقيفة، وطلبت منهم أن يُبايعوا عليًّا، باعتباره المنصوص عليه بالخلافة وحذّرتهم من العواقب الوخيمة لهذه المؤامرة التي ربّما لا يدركونها. فكانوا يقولون: خشينا الفتنة يا بنت رسول الله! إلّا أنّ السيّدة الزهراء الطاهرة عليها السلام أوجزت لهم عاقبة فعلهم هذا بقولها لهم: ﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ۗ﴾(١)؛ هذه هي الفتنة.

وكذلك حاول الإمام علي عليه السلام بكلّ جهوده تذكير الأمّة بخطورة ما يجري وعواقبه الوخيمة إلّا أنّ المؤامرة كانت أكبر من كلّ تلك الجهود. واستمرّ موقفُ فاطمةَ عليها السلام المعارضُ هذا مدّة حياتها.

لقد عانى الإمام علي عليه السلام معاناة شديدة بدءًا بمعاناته في فراق الأحبّة ورفاق الدرب وأوّلهم رسول صلى الله عليه وآله وسلم الذي فاضت نفسه الشريفة في حجر الإمام عليه السلام وواراه الثرى بنفسه وعايش مأساة فراقه بكلّ أبعادها، وها هو يخاطب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يلي غسله وتجهيزه بكلمات حزينة تدمي القلب وتنزع الأسى: «بِأَبِي أَنْتَ وأُمِّي، لَقَدِ انْقَطَعَ بِمَوْتِكَ مَا لَمْ يَنْقَطِعْ بِمَوْتِ غَيْرِكَ مِنَ النُّبُوَّةِ وَالأَنْبَاءِ وأَخْبَارِ السَّماءِ، خَصَصْتَ حَتَّى صِرْتَ مُسَلِّيًا عَمَّنْ سِوَاكَ، وَعَمَمْتَ حَتّى صَارَ النَّاسُ فِيكَ سَواءً، وَلَوْلاَ أَنَّكَ أَمَرْتَ بِالصَّبْرِ، وَنَهَيْتَ عَنِ

(١) سورة **التوبة**، الآية ٤٩.

الجَزَعِ، لأَنْفَدْنَا عَلَيْكَ مَاءَ الشُّؤُونِ، وَلَكَانَ الدَّاءُ مُمَاطِلًا، وَالْكَمَدُ مُحَالِفًا، وَقَلاَّ لَكَ! وَلكِنَّهُ مَا لاَ يُمْلَكُ رَدُّهُ، وَلاَ يُسْتَطَاعُ دَفْعُهُ! بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي! اذْكُرْنَا عِنْدَ رَبِّكَ، وَاجْعَلْنَا مِنْ بَالِكَ!».

وإذا أعدنا إلى الأذهان ما يحظى به رسول الله ﷺ من حبّ وتعظيم في نفس أمير المؤمنين عليه السلام لأدركنا حجم الأسى الذي صبّ على الإمام بفقده رسول الله فعليّ قد حظي بتربية الرسول ﷺ ورعايته وإعداده ومصاحبته منذ الصبا حتّى فارق رسول الله ﷺ الدنيا.

ولقد كانت تلك التربية وتلك الأخوّة بينهما مليئة بضروب الودّ والحنان والوفاء والإخلاص مماّ ليس له نظير.

لم يكد الإمام علي عليه السلام يمسح دموع الحزن والأسى على فراقه لرسول الرحمة والخير، ولم يكد ينفض التراب العالق بيديه بعد مواراة الرسول ﷺ في مثواه الأخير حتّى فوجئ بالمؤامرة التي عصفت بالأمّة فكان يتألّم عندما يرى أنّ تلك الجهود التي بذلها الرسول ﷺ وبذلها هو تحت لوائه، في مكّة، وفي المدينة، في معارك الإسلام، كلّها معرّضة لأن تصير هباء منثورًا تحت أقدام، وعلى أيدي من لم يكونوا يجرؤون في يوم من الأيّام أن ينزلوا إلى ساحات الوغى لمواجهة أعداء الله.

لقد كان الإمام علي عليه السلام يخوض غمار الموت، ويقتحم الصفوف، في بدر، في أحد، في كلّ معارك الإسلام، بينما كان أولئك يجلسون جانبًا، وَلَيْتَهم جلسوا جانبًا بعد ممات الرسول ﷺ لقد كانوا في أثناء احتدام مواجهة الكفر يجلسون جانبًا، وعندما نزل ﷺ إلى قبره، بل من قبل وهو لا يزال على فراش الموت بدأوا يتحرّكون وينزلون إلى ساحة هذه الأمّة؛ لينحرفوا بها عن نهج محمّد ﷺ الذي من أجله كان يقتحم ساحات الوغى، يقتحم الصفوف، وهو يواجه المشركين ويواجه الرومان، ويواجه اليهود، ويواجه كلّ أصناف أعداء الإسلام!.

هناك عبارة قالها أحد العلماء بالنسبة لعلي عليه السلام: «لو كانت الأمور تُقاس بمقاييس الدنيا لما رأينا أحدًا يُعدُّ مظلومًا أكثر ممّا حصل على عليّ من الظلم» يجاهد، يعاني، يتعب في سبيل دين هو يعلم أنّه دين عظيم، وفي خير هذه الأمّة ومصلحتها وعزّتها، ثمّ يرى الأيادي تعبث بهذا الدين.

لقد اتجه الإمام علي عليه السلام إلى تلك الأمّة نفسها التي من أجلها جاهد، ومن أجلها عانى، ومن أجل عزّتها تعب، يحاول أن يحرّكها قبل أن يَعْظُم الخَطْب، في مرحلة كان يمكن أن يتلافى فيها ما حصل لم يحصل له استجابة، حرّك الزهراء عليها السلام، حرّك الجانب العاطفي، ماذا عمل أولئك عندما خطبت فيهم الزهراء؟. بكوا وقالوا: إنّ خطوتها ما تَخْرُم خطوة رسول الله، تذكّروا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في خُطَى فاطمة، ومنطق فاطمة، ولم يتذكّروا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيما ذكّرتهم به فاطمة!.

بكوا لغياب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ولم يبكوا لغياب دينه، لم يبكوا لغياب الدين الذي كان الرسول مستعدًّا من أجله أن يُقتل، وواجه المخاطر الشديدة من أجله.

فكيف لا يتألّم الإمام علي عليه السلام، وكيف لا يرى نفسه مظلومًا وهو يرى الأمور تسير على هذا النحو الذي تضيع كلّ الجهود التي بذلها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وبذلها عظماء آخرون من خيار صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

لقد كان ممّا خاطب به الناس في تلك المرحلة الحرجة قوله: «أَيُّها النَّاسُ، شُقُّوا أَمْوَاجَ الفِتَنِ بِسُفُنِ النَّجَاةِ، وَعَرِّجُوا عَنْ طَرِيقِ المُنَافَرَةِ، وَضَعُوا تِيجَانَ المُفَاخَرَةِ. أَفْلَحَ مَنْ نَهَضَ بِجَنَاحٍ، أَوِ اسْتَسْلَمَ فَأَرَاحَ. هَذَا مَاءٌ آجِنٌ، وَلُقْمَةٌ يَغَصُّ بِهَا آكِلُهَا، وَمُجْتَنِي الثَّمَرَةِ لِغَيْرِ وَقْتِ إِينَاعِهَا كَالزَّارِعِ بِغَيْرِ أَرْضِهِ. فَإِنْ أَقُلْ يَقُولُوا: حَرَصَ عَلَى المُلْكِ، وَإِنْ أَسْكُتْ يَقُولُوا: جَزِعَ مِنَ المَوْتِ! هَيْهَاتَ بَعْدَ اللَّتَيَّا وَالَّتِي! وَاللهِ لَابْنُ أَبِي طَالِبٍ آنَسُ بِالمَوْتِ مِنَ الطِّفْلِ بِثَدْيِ أُمِّهِ، بَلِ انْدَمَجْتُ عَلَى مَكْنُونِ عِلْمٍ لَوْ بُحْتُ بِهِ لَاضْطَرَبْتُمُ اضْطِرَابَ الأَرْشِيَةِ فِي الطَّوِيِّ البَعِيدَةِ!».

يقول الدكتور سعيد عاشور - أستاذ التاريخ بجامعة الكويت - وهو يتحدّث عن صور التشويه في التاريخ الإسلامي وعند ذكره هذه الحقيقة التاريخيّة: «أين كان الإمام علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) في ذلك الوقت؟ كان مشغولًا بتجهيز الرسول ﷺ ودفنه، وهناك تبدو فكرة السموّ؛ السموّ الخلقي، النزاهة وعدم التكالب وراء الحكم أو الجري وراء منصب، كيف يترك جثمان الرسول ﷺ ويجري ليجتمع مع المجتمعين ليطلب لنفسه شيئًا؟! هنا يكمن الخلق العظيم والمتانة، كان ينبغي أن يقف المؤرّخ وقفةً عند هذه المسألة، عند هذه النقطة بالذات؛ فإذًا لم يكن هناك تفريط من الإمام علي (رضي الله عنه) بأيّ حال من الأحوال، ولكن كان هناك ما هو أهمّ، ما هو أسمى، الصلة التي تربطه برسول الله ﷺ في الوقت الذي انصرف فيه المنصرفون وتناقشوا وتحادّوا واختلفوا حول الخلافة، وعن مقربةٍ منهم جثمان الرسول ﷺ شُغِلَ عليٌّ بن أبي طالب بتجهيزه ودفنه؛ إذًا لم يكن هناك تفريط من الإمام علي في المطالبة بحقّه في الخلافة، وإذا كان الإمام علي (رضي الله عنه وكرّم وجهه) قد طالب بالخلافة فينبغي أن ينزّه من أنّه كان يجري وراء متاع، لو كان يجري وراء متاع لانصرف من أوّل الأمر وكان أسبق السابقين إلى السقيفة إلى سقيفة بني ساعدة ليرفع صوته مع من رفعوا أصواتهم».

وهكذا تمّت عمليّة الاستيلاء على السلطة التي تمّ التخطيط لها من قبل مستغلّين انشغال الإمام علي عليه السلام والمخلصين من أصحاب رسول الله ﷺ في تغسيل وإعداد الجثمان الطاهر لمواراته الثرى، وبالتعاون مع أمراض النفوس حتّى إنّ عمر نفسه اعترف وقال: «إنّ بيعة أبي بكر كانت فلتة» يعني هكذا (اتلفقت ومشت)، يعني لم يكن هو المؤمّل فيه، ولا المتوقّع لمثله أن تستقيم له المسألة.

(فَلْتة لكن وقى الله شرّها) كما قال!! والشخص الذي يكون محطّ إجلال وإكبار الناس جميعًا لا تكون بيعته فلته. الإمام علي ألم يتّجهوا إليه كلّهم بعد ما قُتل عثمان؟ حتّى كادوا يطأوا ابنه الحسن! اتجهوا كلّهم إليه يبايعونه

جميعًا؛ لأنّه لا أحد يشكّ في أنّ علي بن أبي طالب ليس أهلًا للولاية، لكن كان عمر نفسه ممّن يشكّ بالنسبة لأبي بكر؛ لأنّ الناس يعرفون بأنّه ليس أهلًا للخلافة ولكن ربّما تنجح المسألة.. فكانت فلتة، ومشت المسألة لهم.

لكن قوله: «وقى الله شرّها» ليس صحيحًا ما زال شرّها إلى الآن، وما زال شرّ تلك البيعة التي قال «فلتة» إلى الآن، وما زلنا نحن المسلمين نعاني من آثارها.

يقول السيد حسين (رضوان الله عليه):

«ولقد كان الأنصار في طليعة من دفعوا ثمن تفريطهم؛ لأنّه كان من المفترض عليهم أن يجتمعوا مع الإمام علي عليه السلام، لا أن يجتمعوا هناك وَحْدَهم، ويأتمروا وحدهم خوفًا منهم أنّه ربما لا تتمّ المسألة للإمام علي! فكان الصواب أن يذهبوا هم إلى الإمام علي ويقفوا معه حتّى تتمّ المسألة، لا أن يقولوا: ربّما لا تتمّ المسألة فالأحسن أن نكون قد انتبهنا لأنفسنا حتّى لا يأتي آخرون فيمسكوا بزمام الأمور فيظلمونا.

لم تنفعهم هذه. ظُلِموا، وأهينوا في أيّام أبي بكر، وعمر، وعثمان، ومعاوية، ويزيد اجتاح المدينة اجتياحًا رهيبًا جدًّا قتل حوالي سبعمئة شخص أو أكثر منهم، وانتهك أعراضهم ودمّر بيوتهم، قضيّة رهيبة جدًّا حصلت لهم.

هذه العواقب السيّئة التي نالتهم بسبب تفريطهم وهي قضيّة قائمة في دين الله، هذا هدى الله هل الناس سيقبلونه؟ يجب أن يقبلوه وإلّا فيجب أن يعرفوا بأنّ البديل هو الخزي، والعواقب السيّئة في الدنيا والآخرة».

وفي خضم الأحداث المريرة التي عايشها أمير المؤمنين عليه السلام في هذه الفترة، ألمّت بالزهراء سيّدة نساء العالمين العلّة التي توفّيت على أثرها فلحقت بالراحل العظيم أبيها حيث كان الإمام عليه السلام طوال فترة المرض الذي عانت منه فاطمة عليها السلام يعايش ما تعاني ملْء كِيانه؛ فهي وديعة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهي الصابرة المحتسبة، وهي بعد ذلك زوجته الوفيّة التي عايشت معه آماله وآلامه طوال حياتها.

وأوصت عليها السلام قبيل وفاتها ألّا يحضر جنازتها ولا الصلاة عليها أبو بكر ولا عمر، وشدّدت على الإمام علي بأن ينفّذ وصيّتَها؛ فخرج علي عليه السلام مع عمّار ومجموعة خاصّة من أوليائه ليدفنوها في الليل ويحفرون عدّة قبور ليعمّوا حتّى قبرها عنهم.

وفاطمة هي كما قال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «سيّدة نساء العالمين» «فاطمة بضعة منّي يُرِيبُني ما رابها، يؤذيني ما يؤذيها، يغضبني ما يغضبها، من آذاها فقد آذاني، من أغضبها فقد أغضبني» على اختلاف ألفاظ الحديث أو تعدّد رواياته.

والإمام علي عليه السلام يرى ويشاهد هذه الزوجة الوفية بضعة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تُقتل كَمَدًا وقهرًا وهي ترى هذا الدين يُعصف به من أوّل يوم بعد وفاة والدها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيزداد ألمه وحزنه.

لم تبكِ السيّدة فاطمة عليها السلام وتتألّم على مصادرتهم لما نحلها أبوها من أراضٍ واسعة في (فَدَك) كما يصوّر البعض، صحيح بأنّ (فدك) قضيّة تؤلمها لكن لم تبكِ عليها، ولم تمت كمدًا على فدك، إنّما ماتت كمدًا وحزنًا على هذه الأمّة.

رأى الإمام عليه السلام زهراء الإسلام بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهي تعايش مرارة الأسى على ما حصل من ضياع لدين أبيها، ثمّ وهي تستسلم لفراش المرض فيشحب لونها وتتردّى أوضاعها الصحّيّة يومًا بعد يوم، ثمّ يراها وهي تفارق الدنيا، فيباشر تغسيلها وتجهيزها عليها السلام ويقف على شفير قبرها مودِّعًا ولا ينسى أن يحمّلها رسالة إلى أبيها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعبارات تكشف عن ألمه وحزنه، شاكيًا إلى أخيه ومربّيه ومعلّمه رسول الله ما ألمّ به وما يعانيه قائلًا:

«السَّلامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ عَنِّي، وَعَنِ ابْنَتِكَ النَّازِلَةِ فِي جِوَارِكَ، وَالسَّرِيعَةِ اللَّحَاقِ بِكَ! قَلَّ يَا رَسُولَ اللهِ، عَنْ صَفِيَّتِكَ صَبْرِي، وَرَقَّ عَنْهَا تَجَلُّدِي، إِلَّا أَنَّ لِي فِي التَّأَسِّي بِعَظِيمِ فُرْقَتِكَ، وَفَادِحِ مُصِيبَتِكَ، مَوْضِعَ تَعَزٍّ، فَلَقَدْ وَسَّدْتُكَ فِي مَلْحُودَةِ قَبْرِكَ، وَفَاضَتْ بَيْنَ نَحْرِي وَصَدْرِي نَفْسُكَ.

(إِنَّا لله وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)، فَلَقَدِ اسْتُرْجِعَتِ الْوَدِيعَةُ، وَأُخِذَتِ الرَّهِينَةُ! أَمَّا حُزْنِي فَسَرْمَدٌ، وَأَمَّا لَيْلِي فَمُسَهَّدٌ، إِلَى أَنْ يَخْتَارَ اللهُ لِي دَارَكَ الَّتِي أَنْتَ بِهَا مُقِيمٌ.

وَسَتُنَبِّئُكَ ابْنَتُكَ (بِتَضَافُرِ أُمَّتِكَ عَلَى هَضْمِهَا)، فَأَحْفِهَا السُّؤَالَ، وَاسْتَخْبِرْهَا الحَالَ، هذَا وَلَمْ يَطُلِ الْعَهْدُ، وَلَمْ يَخْلُ مِنْكَ الذِّكْرُ.

وَالْسَّلاَمُ عَلَيْكُمَا سَلاَمَ مُوَدِّعٍ، لاَ قَالٍ وَلاَ سَئِمٍ، فَإِنْ أَنْصَرِفْ فَلاَ عَنْ مَلاَلَة، وَإِنْ أُقِمْ فَلاَ عَنْ سُوءِ ظَنٍّ بِمَا وَعَدَ اللهُ الصَّابِرِينَ».

إنّ الملاحظ للتاريخ بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سيعرف أنّ هناك قصدًا في تجنّب الأسرة الكريمة - وخاصّة علي - من هذا الشأن الذي يخصّه بالدرجة الأولى حيث لم تغرب شمس ذلك اليوم حتّى أُبرم الأمر وتمّت البيعة لأبى بكر خليفة للمسلمين وانتهت فصول السقيفة بهذا الحدث التاريخي وأعقب الحدث أمر صارم من الخليفة أو مؤيّديه بأنّ كلّ من لم يبايع فمصيره القتل ولأنّه كما يرى أنّ هذا الحكم للمصلحة العامّة..

وتوالت التبريرات لموقفهم، فقد ادّعوا بأنّ النصوص التي وردت في الإمام علي قد جمّدت للمصلحة العامّة! فأيّ مصلحة عامّة هذه تقف قبالة النصّ الشرعي وتتقدّم عليه؟!.

ولم تكن التبريرات التي ساقها القوم كافية مقنعة، وبقي السؤال يلتاع على الشفاه فترة ظامئًا إلى الجواب الشافي، حتّى كان يوم أن اجتمع فيه الخليفة عمر بن الخطاب، وعبد الله بن عبّاس ودار بينهما الحديث التالي:

عمر لابن عبّاس: أتدري ما منع قومكم منكم بعد محمّد؟

ابن عبّاس - وهو يكره أن يخوض في هذا الحديث مع الخليفة -: إن لم أكن أدري فأمير المؤمنين يدريني..

قال عمر: كرهوا أن يجمعوا لكم النبوّة والخلافة فتتبجّحوا على قومكم بجحًا فاختارت قريش لنفسها فأصابت ووفّقت.

ردّ ابن عبّاس: أمّا قولك (فاختارت قريش لنفسها فأصابت ووفّقت) فلو أنّ قريشًا اختارت لنفسها حيث اختار الله عزّ وجل لها لكان الصواب بيدها غير مردود ومحسود..أمّا قولك (إنّهم كرهوا أن تكون النبوّة لنا والخلافة) فإنّ الله عزّ وجلّ وصف قومًا بالكراهية فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾[١].

فقال عمر: هيهات: والله يا بن عبّاس قد كانت تبلغني عنك أشياء وكنت أكره أن أخبرك عنها فتزيل منزلتك عندي..

قال ابن عبّاس: وما هي؟.. فإن كانت حقًّا فما ينبغي أن تزول منزلتي منك، وإن كانت باطلًا فمثلي من أماط الباطل عن نفسه..

قال عمر: بلغني أنّك تقول إنّما حذفوها حسدًا وظلمًا.

ابن عبّاس: أمّا قولك (ظلمًا) فقد تبيّن للجاهل والحليم، وأمّا قولك (حسدًا) فإنّ إبليس حسد آدم فنحن ولده المحسودون.

قال عمر: هيهات أبت والله قلوبكم يا بني هاشم إلّا حسدًا ما يحول، وضغنًا وغشًّا ما يزول.

فقال ابن عبّاس: مهلًا، لا تصف قلوب قوم أذهب الله عنهم الرجس، وطهّرهم تطهيرًا بالحسد والغشّ.. فإنّ قلب رسوله الله ﷺ من بني هاشم.

فقال عمر: إليك عنّي.

هذه المحاورة تكشف بوضوح الأسباب الرئيسيّة التي دعت القوم أن يصرفوها عن صاحبها الذي نصّ عليه رسول الله ﷺ صاحب الرسالة كراهة أن تجتمع في بيت عبد المطلب النبوّة والخلافة..

ويقول الإمام علي عليه السلام مصوّرًا ما حدث: «حتّى إذا قبض رسوله رجع قوم على الأعقاب، وغالتهم السبل، واتكلوا على الولائج ووصلوا غير الرحم،

(١) سورة **محمّد**، الآية ٩.

وهجروا السبب الذي أمروا بمودّته، ونقلوا البناء عن رصّ أساسه، فبنّوه في غير موضعه معادن كلّ خطيئة، وأبواب كلّ ضارب في غمرة».

يقول عليه السلام مخاطبًا أحد عمّاله ومتحدّثًا عن مظلوميّته: «بلى كانت في أيدينا فدك من كلّ ما أظلّته السماء، فشحّت عليها نفوس قوم، وسخت عنها نفوس آخرين، ونعم الحكم الله، وما أصنع بفدك وغير فدك والنفس مظانّها في غد جدث تنقطع في ظلمته آثارها، وتغيب أخبارها، وحفرة لو زيد في فسحتها وأوسعت يدًا حافرها لأضغطها الحجر والمدر، وسدّ فرجها التراب المتراكم».

لقد امتنع أمير المؤمنين عن البيعة، وأعلن سخطه البالغ ممّا حدث، وقدّم الأدلّة والاحتجاجات على أحقيّته مع علمهم أنّ محلّه من الخلافة محلّ القطب من الرحى ولكن دون جدوى ولم تنتهِ المسألة هنا وإنّما مورس بحقّه وأهل بيته الحصار الاقتصادي مع العزل السياسي، وتحمّل الإمام عليه السلام كل ذلك بصبر وثبات وحكمة، واقتضت الحكمة أن يصبر الإمام علي عليه السلام. وكيفما كان، فإنّ حوادث السقيفة انتهت، وحملت بين طيّاتها سحابة قاتمة ومأساة مفجعة، ونيرانًا تستعر لهبًا مزّقت المسلمين إلى اليوم وشوّشت الصورة الجميلة والواضحة للإسلام.

ويتلخّص المشهد بعد استشهاد النبي (صلوات الله عليه وآله وسلم) بأن عُزل الإمام علي عليه السلام عن قيادة الأمّة ما يقرب من خمسة وعشرين عامًا، رغم التوجيهات الكثيرة والترتيبات التي قام بها النبي صلى الله عليه وآله وسلم حتّى يضمن أن تسير الأمور كما يريدها الله سبحانه وتعالى وكما يريدها هو صلى الله عليه وآله وسلم ورغم أنّ الإمام عليًّا عليه السلام كان المهيّأ الأكفأ لها من كلّ الاتجاهات وبكلّ المقاييس إلّا أنّ الأمّة ارتكبت خطأ فادحًا بحقّها وبحقّ الأجيال اللاحقة ما زال العالم يعيش آثاره إلى الآن.

ويوضح الإمام عليه السلام حقيقة ما حصل في الخطبة المسمّاة بالشقشقية، والتي هي من خطب الإمام عليه السلام التي بيّن فيها بوضوح حقيقة ما جرى

ملخّصًا ذلك منذ عهد أبي بكر إلى أن وصل الأمر إلى عثمان، والتي يقول فيها:

«أَمَا وَالله لَقَدْ تَقَمَّصَها ابن أبي قحافة، وَإِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنَّ مَحَلِّيَ مِنهَا مَحَلُّ القُطْبِ مِنَ الرَّحَى، يَنْحدِرُ عَنِّي السَّيْلُ، وَلا يَرْقَى إِلَيَّ الطَّيْرُ، فَسَدَلْتُ دُونَهَا ثَوْبًا، وَطَوَيْتُ عَنْهَا كَشْحًا، وَطَفِقْتُ أَرْتَئِي بَيْنَ أَنْ أَصُولَ بِيَد جَذَّاءَ، أَوْ أَصْبِرَ عَلَى طَخْيَةٍ عَمْيَاءَ، يَهْرَمُ فيهَا الكَبيرُ، وَيَشِيبُ فِيهَا الصَّغِيرُ، وَيَكْدَحُ فِيهَا مُؤْمِنٌ حَتَّى يَلْقَى رَبَّه. فَرَأَيْتُ أَنَّ الصَّبْرَ عَلَى هَاتَا أَحجَى، فَصَبرَتُ وَفي الْعَيْنِ قَذىً، وَفي الحَلْقِ شَجًا، أرى تُرَاثي نَهْبًا، حَتَّى مَضَى الأوَّلُ لِسَبِيلِهِ، فَأَدْلَى بِهَا إِلَى فلان بَعْدَهُ. ثمّ تمثّل بقول الأعشى:

شَتَّانَ مَا يَوْمِي عَلَى كُورِهَا وَيَوْمُ حَيَّانَ أَخِي جَابِرِ

فَيَا عَجَبًا!! بَيْنَا هُوَ يَسْتَقِيلُها في حَيَاتِهِ إِذْ عَقَدَهَا لآخَرَ بَعْدَ وَفَاتِهِ. لَشَدَّ مَا تَشَطَّرَا ضَرْعَيْهَا! . فَصَيَّرَهَا في حَوْزَة خَشْنَاءَ، يَغْلُظُ كَلْمُهَا، وَيَخْشُنُ مَسُّهَا، وَيَكْثُرُ العِثَارُ (فِيهَا) وَالاْعْتَذَارُ مِنْهَا، فَصَاحِبُهَا كَرَاكِبِ الصَّعْبَةِ، إِنْ أَشْنَقَ لَهَا خَرَمَ، وَإِنْ أَسْلَسَ لَهَا تَقَحَّمَ، فَمُنِيَ النَّاسُ لَعَمْرُ الله- بِخَبْطٍ وَشِمَاسٍ، وَتَلَوُّن وَاعْتِرَاض.

فَصَبَرْتُ عَلَى طُولِ المُدَّةِ، وَشِدَّةِ الْمِحْنَةِ، حَتَّى إِذا مَضَى لِسَبِيلِهِ جَعَلَهَا في جَمَاعَةٍ زَعَمَ أَنَّي أَحَدُهُمْ. فَيَا لله وَلِلشُّورَى ! مَتَى اعْتَرَضَ الرَّيْبُ فِيَّ مَعَ الأَوَّلِ مِنْهُمْ، حَتَّى صِرْتُ أُقْرَنُ إِلَى هذِهِ النَّظَائِرِ؟! لكِنِّي أَسفَفْتُ إِذْ أَسَفُّوا، وَطِرْتُ إِذْ طَارُوا، فَصَغَى رَجُلٌ مِنْهُمْ لِضِغْنِه، وَمَالَ الآخَرُ لِصِهْرِه، مَعَ هَنٍ وَهَن.

إِلَى أَنْ قَامَ ثَالِثُ القَوْمِ، نَافِجًا حِضْنَيْهِ بَيْنَ نَثِيلهِ وَمُعْتَلَفِهِ، وَقَامَ مَعَهُ بَنُو أَبِيهِ يَخْضَمُونَ مَالَ اللهِ خَضْمَ الإِبِلِ نِبْتَةَ الرَّبِيعِ، إِلَى أَنِ انْتَكَثَ عَلَيْهِ فَتْلُهُ، وَأَجْهَزَ عَلَيْهِ عَمَلُهُ، وَكَبَتْ بِهِ بِطْنَتُهُ.

فَمَا رَاعَنِي إلاَّ وَالنَّاسُ إليَّ كَعُرْفِ الضَّبُعِ، يَنْثَالُونَ عَلَيَّ مِنْ كُلِّ جَانِب، حَتَّى لَقَدْ وُطِىءَ الحَسَنَانِ، وَشُقَّ عِطْفَايَ، مُجْتَمِعِينَ حَوْلي كَرَبِيضَةِ الغَنَمِ.

فَلَمَّا نَهَضْتُ بِالأَمْرِ نَكَثَتْ طَائِفَةٌ، وَمَرَقَتْ أُخْرَى، وَفَسَقَ (وقسط) آخَرُونَ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا اللهَ سُبْحَانَهُ يَقُولُ: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1]. بَلَى! وَاللهِ لَقَدْ سَمِعُوهَا وَوَعَوْهَا، وَلكِنَّهُمْ حَلِيَتَ الدُّنْيَا في أَعْيُنِهِمْ، وَرَاقَهُمْ زِبْرِجُهَا! أَمَا وَالَّذِي فَلَقَ الحبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، لَوْلاَ حُضُورُ الحَاضِرِ، وَقِيَامُ الحُجَّةِ بِوُجُودِ النَّاصِرِ، وَمَا أَخَذَ اللهُ عَلَى العُلَمَاءِ أَلّا يُقَارُّوا عَلَى كِظَّةِ ظَالِم، وَلا سَغَبِ مَظْلُوم، لأَلْقَيْتُ حَبْلَهَا عَلَى غَارِبِهَا، وَلَسَقَيْتُ آخِرَهَا بِكَأْسِ أَوَّلِها، وَلأَلْفَيْتُمْ دُنْيَاكُمْ هذِهِ أَزْهَدَ عِنْدِي مِنْ عَفْطَةِ عَنْزٍ!».

قالوا: وقام إليه رجل من أهل السواد عند بلوغه إلى هذا الموضع من خطبته، فناوله كتابًا، فأقبل ينظر فيه، فلمّا فرغ من قراءته قال له ابن عبّاس: يا أمير المؤمنين، لو اطَّرَدت مَقالتكَ من حيث أَفضيتَ! فَقَالَ عليه السلام: هَيْهَاتَ يَا بْنَ عَبَّاس! تِلْكَ شِقْشِقَةٌ هَدَرَتْ ثُمَّ قَرَّتْ! قال ابن عبّاس: فوالله ما أَسفت على كلام قطّ كأَسفي على ذلك الكلام أَلَّا يكون أمير المؤمنين عليه السلام بلغ منه حيث أراد.

وهكذا جرّبت الأمة وليًّا لأمرها غير من اختاره الله ورسوله، إلّا أنّها وبعد أن ذاقت وبال أمرها وجنت ثمرة ابتعادها عن قرين القرآن ها هي تعود مرّة أخرى إلى الشخص الذي هو محطّ إجلال وإكبار الناس جميعًا الذي لم ولن تكون بيعته فلتة.. إنّه الإمام علي عليه السلام ألم يتّجهوا إليه كلّهم بعد ما قُتل عثمان، حتّى وطِئوا ابنيه الحسن والحسين لشدّة ازدحامهم حولَه؟! اتجهوا كلّهم إليه من بعد يبايعونه جميعًا؛ لأنّه لا أحد يشكّ في أنّ علي بن أبي طالب ليس أهلًا للولاية وأنّ بيده الحلول التي ستنقذ الأمّة ممّا قد وصلت إليه.

(١) سورة **القصص**، الآية ٨٣.

كانت صحوة متأخّرة، صحوة ولكن بعد تلك المدة الطويلة، بعدما يقرب من خمسة وعشرين عامًا بعد أن تغيّرت الأمّة وتغيّرت النفوس وقُدِّمت بدائل أخرى واختلطت الأمور والمفاهيم.

وهكذا، تحت ضغط الجماهير، وإلحاح الواجب يتولّى الإمام علي عليه السلام الخلافة، ولكن مع وجود فرق شاسع على ما كان عليه الوضع بعد موت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبعد مرور تلك الفترة؛ فالأجواء قد تغيّرت، والنفوس قد ألفت أسلوبًا آخر ينسجم مع أهوائهم وأطماعهم.

تدافع الناس إلى الإمام عليه السلام يبايعونه بالخلافة وفي مقدّمتهم زعماء المهاجرين والأنصار، وهم يعلمون بأنّ أبا الحسن سيحملهم على المحجّة البيضاء مهما كانت الظروف والأوضاع، وبات المسلمون في انتظار منهج الإمام في الحكم ومعالجته للأوضاع الشاذّة. وإن كان لا يخفى عليهم سيرة الإمام التي ما حادت عن الحقّ قيد أنملة، وقد قال فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «عليٌّ مع الحقّ والحقّ مع علي».

يقول الدكتور أحمد محمود صبحي - أستاذ الفلسفة الإسلاميّة بكلية الآداب جامعة الإسكندريّة - وبعنوان: وهرمٌ اجتماعي مقلوب أراد أن يعدله:

«وكان لا بدّ أن ينعكس ذلك على البنيان الاجتماعي فقد أصبح في قمّته بنو أميّة وهم من الطلقاء الذين أسلموا متأخّرين، وفي سفحه الأنصار الذين رضوا أن تكون الخلافة في قريش، ثمّ رضوا بأن تستأثر قريش بولاية الأنصار وامتلاك الأرض والمال، ولم يشاركهم في أسفل السلم الاقتصادي إلّا الشعوب المغلوبة من أصحاب الأقطار المفتوحة، لقد عملوا بنصيحة رسول الله أن يصبروا إذ سيلقون أثرةً حتّى يَرِدُوا عليَّ الحوض. هذا هو البنيان المختلّ الذي ورثه علي، فأراد أن يقوّمه فاستنكر عليه سادة قريش عزمه على الإصلاح، بينما التفّ حوله الأنصار والمستضعفون في الأرض ومن آثروا دينهم على دنياهم. وما عسى أن يكون الأمر لو استقرّت هذه الحال، إلّا أن تكون حال

الدولة الإسلاميّة كحال سائر الإمبراطوريّات حيث الحكم للقوّة وحيث يتسلّط الغالبون على المغلوبين ويغتصبون أرضهم ويستعمرون خططهم».

وبعنوان «وضع سياسيّ معوّج» أراد أن يقوّمه يقول: «ولم يكن الوضع السياسي بأقلّ خللًا إذ كان ولاة الأمصار في عهد عثمان - وهم سبب الفتنة وثورة الناس- من أقاربه حتّى أصبحت العصبيّة سافرة، ومن ثمّ فقد عمل عليّ منذ اليوم الأوّل لخلافته على حسم مسألة الولاة في غير هوادة»[١].

وفي اليوم الثاني من البيعة، أُعلن بأنّ الإمام سيخطب في الناس ويبسط منهاجه.. وضاق المسجد بالمسلمين وهدأت الأصوات، واعتلى عليٌّ المنبر وقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

«أيّها الناس إنّما أنا رجلٌ منكم، لي ما لكم، وعليَّ ما عليكم، وإنّي حاملكم على منهج نبيّكم ومنفذٌ فيكم ما أُمِرْتُ به. ألا إنّ كلّ قطيعةٍ أقطعها عثمان، وكلّ مالٍ أعطاه من مال الله فهو مردود في بيت المال.. فإنّ الحقّ لا يبطله شيءٌ، ولو وجدته قد تُزُوِّج به النساء وملّك به الإماء، وفرّق في البلدان لرددته، فإنّ في العدل سعة، ومن ضاق عليه الحقّ فالجور عليه أضيق.

أيّها الناس: ألا لا يقولنّ رجالٌ منكم غدًا قد غمرتهم الدنيا فاتخذوا العقار، وفجّروا الأنهار، وركبوا الخيل الفرهة، واتخذوا الوصائف الروقة، فصار عليهم عارًا وشنارًا، إذا ما منعتهم ما كانوا يخضون فيه، وأصرتهم إلى حقوقهم التي يعلمون[...] ويقولون: حرمنا ابن أبي طالب حقوقنا!..

ألا وأيّما رجلٍ من المهاجرين من أصحاب رسول الله يرى أنّ الفضل له على سواه لصحبته فإنّ الفضل النير غدًا عند الله، وثوابه وأجره على الله..

ألا وأيّما رجلٍ استجاب لله ورسوله، فصدّق ملّتنا، ودخل ديننا، واستقبل قبلتنا، فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده. فأنتم عباد الله، والمال مال

---

(١) **الزيدية**، الصفحة ٤٦.

الله يقسم بينكم بالسويّة، ولا فضل فيه لأحدٍ على أحد، وللمتّقين عند الله أحسن الجزاء...».

وهكذا رسم الإمام الخطوط العريضة في سياسته الماليّة في الحكم؛ هذه السياسة التي أطاحت ومزّقت النفوس الجشعة المريضة التي كانت تتلاعب بأموال المسلمين فكانت كافية أن تنبذ هذه السياسة تلك الفئة، وتجعلها في وجه إمام الحقّ والمساواة.. إنّها سياسة قائمة على العدالة المتكافئة التي يتعايش في ظلّها المسلمون سواءً بسواء.

وعندما طلب منه التخفيف في سياسته الماليّة أجاب:

«أتأمرونني أن أطلب النصر بالجور في من وليِّت عليه؟ والله لو كان المال لي لسوَّيت بينهم فكيف والمال مال الله.. ألا وإنّ إعطاء المال في غير حقّه تبذيرٌ وإسراف وهو يرفع صاحبه في الدنيا ويضعه في الآخرة»[1].

أمّا عن حال الأمّة التي قادها الإمام علي عليه السلام، عندما أقصي علي عليه السلام وأقصي معه القرآن قدّمت البدائل المغلوطة إلى درجة رهيبة جدًّا إلى درجة أنّه غاب عن الأمّة كيف كان يصلّي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما أكّد ذلك مطرف بن عبد الله وهو يبيّن حجم ما كانت قد وصلت إليه الأمّة حيث قال: «صلّيت أنا وعمران بن حصين خلف علي بن أبي طالب عليه السلام فلمّا انصرفنا أخذ عمران بن حصين بيدي فقال: لقد صلّى صلاة محمّد صلى الله عليه وآله وسلم ولقد ذكرّني صلاة محمّد صلى الله عليه وآله وسلم».

ولذلك تحوّلت الساحة إلى ساحة لا تقبل بالعظماء بل تقتلهم، وهذه الأمّة التي هي ضحيّة لما حصل من تغيّر وانحراف خلال الفترة الماضية هي الساحة وهي الأمّة التي ورثها الإمام علي عليه السلام وعانى منها الأمرّين؛ وقد أشار هو عليه السلام إلى فساد الوضعيّة عندما ألحّوا عليه بأن ينهض ويتحرّك

---

(١) ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم (دار إحياء الكتب العربيّة، ١٩٦١م)، الجزء ٧، الصفحة ٣٧.

واقتحموا عليه داره لبيعته، أكّد لهم بأنّ الأمور لم تعد كما كانت عليه في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبعد وفاته وممّا قال: «دَعُونِي وَالْتَمِسُوا غَيْرِي فَإِنَّا مُسْتَقْبِلُونَ أَمْرًا لَهُ وُجُوهٌ وَأَلْوَانٌ، لَا تَقُومُ لَهُ الْقُلُوبُ، وَلَا تَثْبُتُ عَلَيْهِ الْعُقُولُ، وَإِنَّ الْآفَاقَ قَدْ أَغَامَتْ وَالْمَحَجَّةَ قَدْ تَنَكَّرَتْ. وَاعْلَمُوا أَنِّي إِنْ أَجَبْتُكُمْ رَكِبْتُ بِكُمْ مَا أَعْلَمُ وَلَمْ أُصْغِ إِلَى قَوْلِ الْقَائِلِ وَعَتْبِ الْعَاتِبِ»[1].

وقد رأينا من خلال خُطبته (الشِّقْشِقيَّة) كيف لخّص الوضع العامّ الذي كانت عليه الأمّة، وكيف صارت الأمور بعد مقتل عثمان؛ فرغم إجماع الأمّة على بيعة الإمام عليٍّ عليه السلام إلّا أنّه عندما نهض بالأمر في تلك المرحلة شُهِرَتْ السيوفُ في وجه دولته العادلة، وسُفِكتْ الدماء، وأزهقتْ النفوس، ودارت رحى الحرب أكثر من مرّة على أيدي فئات كانت قد آثرتْ الحياة الدنيا على الآخرة.

لقد وصلتْ الأمّة إلى مستوى خطير، تمثّل في التمرّد على قرين القرآن، وخدين الحقّ، وباب مدينة العلم، مِنْ قبل الناكثين في معركة الجمل، ثمّ من قبل المارقين في معركة النهروان، ثمّ من قبل القاسطين الفاسقين في معركة صفّين.

(١) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ١، الصفحة ١٨١.

ثالثًا- الدور المحوري للإمام علي عليه السلام

بعد أن استلم الإمام علي عليه السلام مقاليد الحكم، أزَّت العاصفة في وجهه عليه السلام وثارت كالحةً عاتية وكأنّها تريد أن تجتثّ عهد الإمام وتطيح بحكمه.

فكانت المواجهة العسكريّة الأولى بين الإمام الخليفة الشرعي والمنتخب، وبين الناكثين بقيادة الأقطاب الثلاثة: عائشة، وطلحة، والزبير؛ وذلك لأخذ الخلافة من علي بالقوّة.

وحاول الإمام بكلّ ما يستطيع حقن الدماء ولكن دون جدوى. وعلى أرض البصرة، دقّت طبول الحرب إيذانًا بها. وانبلج الصبح بثوبٍ كاسف.. وقد اصطف فيه الجيشان لخوض المعركة.

وكانت أحقيّة الإمام علي عليه السلام واضحة كالشمس لكلّ من يوجد في قلبه ذرّةٌ من إيمان أو شعور بالحقّ والعدل والإنصاف.

ينقل الدكتور طه حسين - الأديب والكاتب المصري الشهير - في كتابه **علي وبنوه** خبر الرجل الذي تردّد في يوم الجمل في أمر عليٍّ عليه السلام وطلحة والزبير وعائشة، يقول في نفسه: كيف يمكن أن يكون مثل طلحة والزبير وعائشة على الخطأ؟! وشكا شكّه ذلك إلى الإمام علي عليه السلام وسأله: أيمكن أن يجتمع الزبير وطلحة وعائشة على باطل؟

فقال عليه السلام: «إنّك لملبوسٌ عليك إنّ الحقّ والباطل لا يعرفان بأقدار الرجال، اعرف الحقّ تعرف أهله، واعرف الباطل تعرف أهله».

وبعد أن ينقل الدكتور هذه الكلمات عن الإمام عليٍّ عليه السلام يقول: «ما أعرف جوابًا أروع من هذا الجواب الذي لا يعصم من الخطأ أحدًا مهما تكن منزلته، ولا يحتكر الحقّ لأحد مهما تكن مكانته، بعد أن سكت الوحي وانقطع خبر السماء»[١].

وينقل المؤرّخ المسعودي صورة للموكب العسكري الذي كان يتقدّمه أمير المؤمنين عليه السلام في معركة الجمل، والذي يظهر أنّ الحقّ في جانب الإمام علي عليه السلام في أنصع صورة لمن لا يعرفون مكانة الإمام؛ لما كان يحتويه معسكره من عظماء وفضلاء، فيقول:

لما قدم عليٌّ عليه السلام البصرة دخل ممّا يلي الطفّ فأتى الزاوية فخرجت أنظر إليه فورد موكبٌ في نحو ألف فارس يتقدّمهم فارسٌ على فرسٍ أشهب عليه قلنسوة وثياب بيض متقلّدٌ سيفًا ومعه راية وإذا تيجان القومِ الأغلب عليها البياض والصفرة مدجّجين في الحديد والسلاح، فقلت: من هذا؟ فقيل: هذا أبو أيّوب الأنصاري صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهؤلاء الأنصار وغيرهم.

ثمّ تلاهم فارسٌ عليه عمامةٌ صفراء وثيابٌ بيض متقلّدٌ سيفًا متنكّبٌ قوسًا معه راية على فرس أشقر في نحو ألف فارس، فقلت: من هذا؟ فقيل: هذا خزيمة بن ثابت ذو الشهادتين.

ثمّ مرّ بنا فارسٌ آخر على فرسٍ كميت[٢] معتمٌّ بعمامة صفراء من تحتها قلنسوة بيضاء وعليه قباءٌ[٣] أبيض مصقول، متقلّدٌ سيفًا متنكّبٌ قوسًا في نحو ألف فارس من الناس ومعه رايةٌ، فقلت: من هذا؟ فقيل لي: أبو قتادة بن ربعي.

---

(١) مرتضى مطهّري، **في رحاب نهج البلاغة**، الصفحة ٢٥.

(٢) ما كان لونه بين الأسود والأحمر.

(٣) القباء: ثوب يلبس فوق الثياب.

ثمّ مرّ بنا فارسٌ آخر على فرسٍ أشهب، عليه ثياب بيض وعمامة سوداء قد سدلها من بين يديه ومن خلفه، شديد الأدمة، عليه سكينة ووقار، رافع صوته بقراءة القرآن، متقلّدٌ سيفًا، متنكّبٌ قوسًا، معه راية بيضاء في ألفٍ من الناس مختلفي التيجان، حوله مشيخة وكهول وشباب كأنّما قد أوقفوا للحساب قد أثّر السجود في جباههم فقلت: من هذا؟

فقيل: عمّار بن ياسر في عدّة من الصحابة من المهاجرين والأنصار وأبنائهم.

ثمّ مرَّ بنا فارس على فرس أشقر، عليه ثياب بيض وقلنسوة بيضاء وعمامة صفراء متنكّب قوسًا، متقلّد سيفًا، تخطّ رجلاه في الأرض في ألف فارس الغالب على تيجانهم الصفرة والبياض معه راية صفراء. قلت: من هذا؟

قيل: هذا قيس بن سعد بن عبادة في عدّة من الأنصار وأبنائهم وغيرهم من قحطان.

ثمّ مرَّ بنا فارس على فرسٍ أشهل ما رأينا أحسن منه، عليه ثيابٌ بيض وعمامة سوداء قد سدلها من بين يديه بلواء. قلت: من هذا؟ قيل: هو عبد الله بن العبّاس في وفده وعدّة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ثمّ تلاه موكبٌ آخر، فيه فارس أشبه الناس بالأوّلين. قلت: من هذا؟ قيل: عبيد الله بن العبّاس.

ثمّ تلاه موكبٌ آخر فيه فارس أشبه الناس بالأوّلين. قلت: من هذا؟ قيل: قثم بن العبّاس، أو معبد بن العبّاس.

ثمّ أقبلت المواكب والرايات يقدّم بعضها بعضًا واشتبكت الرماح. ثمّ ورد موكبٌ فيه خلقٌ من الناس عليه السلاح والحديد مختلفو الرايات، في أوّله راية كبيرة، يقدّمهم رجل كأنّما كسر وجُبر[1] نظره إلى الأرض أكثر من نظره

(١) وهذه صفة رجل شديد الساعدين وكذلك تخبر العرب في وصفها إذا أخبرت عن الرجل أنّه كسر وجبر.

إلى فوق، كأنّما على رؤوسهم الطير، وعن يمينه شابٌّ حسن الوجه وعن يساره شاب حسن الوجه، وبين يديه شاب مثلهما.

قلت: من هؤلاء؟ قيل: هذا علي بن أبي طالب، وهذا الحسن والحسين عن يمينه وشماله وهذا محمّد بن الحنفية بين يديه معه الراية العظمى، وهذا الذي خلفه عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وهؤلاء ولد عقيل وغيرهم من فتيان بني هاشم، وهؤلاء المشائخ هم أهل بدر من المهاجرين والأنصار.

فساروا حتّى نزلوا الموضع المعروف بالزاوية فصلّى أربع ركعات وعفَّر خديه على التراب وقد خالط ذلك دموعه، ثمّ رفع يديه يدعو: اللهم ربّ السموات وما أضلّت، والأرضين وما أقلّت، وربّ العرش العظيم، هذه البصرة، أسألك من خيرها، وأعوذ بك من شرّها، اللهم أنزلنا فيها خير منزل وأنت خير المنزلين، اللهم إنّ هؤلاء القوم قد خلعوا طاعتي وبغوا عليَّ ونكثوا بيعتي، اللهم احقن دماء المسلمين(١).

وعلى أرض المعركة اشتبكت السيوف وحمي الوطيس، واقتتل الناس قتالًا شديدًا وتمرّ ساعات الحرب عنيفة تحصد الرؤوس وتزهق الأرواح، لا رحمة فيها ولا هوادة، ويُقتل طلحة بسهم رفيقه في المعركة مروان بن الحكم أخذًا بثأر عثمان قائلًا: لا أطلب ثأر عثمان بعد اليوم! إنّ دم عثمان عند هذا.

ويهرب الزبير من المعركة، وتسقط عائشة من على جملها بعد أن تخلّى عنها غلمان بني أميّة من كانوا يحيطون بجملها.

أمّا في موضوع المطالبة بدم عثمان بلاءٌ انصبّ على المسلمين بالأمس تألّبوا جميعًا على قتل عثمان وحربه، واليوم يذرفون الدموع عليه ويطالبون بدمه. وما شأن عليٍّ ودمّ عثمان؟! فالذين يطالبون بدمه هم الذين قتلوه،

---

(١) الميرزا النوري، **مستدرك الوسائل** (لبنان- بيروت: مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م)، الجزء ٣، الصفحة ٤٤٩.

أو خذلوه عن عمد، ولقد كان عمرو بن العاص يقول: «والله إنّي كنت لألقى الراعي فأحرضه على عثمان»[١].

وهكذا بدأ ابن آكلة الأكباد معاوية بن أبي سفيان من حيث انتهت في معركة الجمل مطالبًا بدم عثمان. ومع الأيّام، أصبح دم عثمان شعارًا يتذرّع به معارضو الإمام ولافتة صارخة يحملها مناوئوه للتأليب عليه والتصدّي لحكمه والإطاحة به.

وقميص عثمان اتخذ منه معاوية مبرّرًا لإعلان الحرب على الإمام والوصول إلى السلطة وعندما وصل معاوية إلى السلطة وتحقّقت أطماعه سقط هذا الشعار واختفى. وموقف الأمويّين من بني هاشم معروف وواضح منذ شروق الإسلام، فهو صراع بين الحقّ والباطل.

أمّا عليٌّ فيمثّل جانب الحقّ وفي وجهه مسحة الرسالة وشخصيّته امتداد لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «عليٌّ منّي وأنا منه».

ومعاوية يمثّل جانب الباطل، يمثّل أحقاد قريش وضغائنها التي ما فتئت تتحيّن الفرص لتنال من الإسلام؛ ثارات بدرٍ وحنين والأحزاب.

يقول السيّد العالم بدر الدين الحوثي رحمه الله في كتابه **إرشاد الطالب**:

«ولمّا قتل عثمان رجع الناس إلى علي عليه السلام وبايعه بقايا المهاجرين والأنصار الذين كانوا بمدينة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلّا أن يكون عدد يسير تأخّروا كابن عمر وسعد بن أبي وقّاص وكان علي عليه السلام هو المنظور إليه لهذا الشأن لما قدّمناه ولكونه صفوة قريش إن كان الأمر لقريش وصفوة المهاجرين منهم إن كان الأمر للمهاجرين من قريش وصفوة الصحابة وصفوة القرابة وعظيم الأمّة وعبقريّيها.

---

(١) عبّاس محمود العقّاد، **عبقريّة الإمام علي**، الصفحة ٧٢.

ولكن بني أمية استغلّوا الدعاية التي ذكرنا فطلبوا الملك وقام معاوية لحرب علي عليه السلام باسم الطلب بثأر عثمان، وقد كان علي عليه السلام بريئًا لا شكّ في براءته وقد عرض لمعاوية أن يدخل معاوية في طاعته ويحاكمهم إلى علي عليه السلام ويحكم علي عليه السلام بينهم بكتاب الله؛ لأنّه لم يكن من الحقّ قتلهم بدون محاكمة كما يطلب معاوية قتلهم على كلّ حال وعلي عليه السلام لا يرى ذلك؛ لأنّ لهم في قتله حجّة تسقط عنهم القصاص في ظاهر الأمر؛ لأنّهم قتلوه نهيًا عن المنكر ودفاعًا عن أنفسهم حيث ظهر أنّه قد عزم هو أو من يطيعه عثمان من الوزراء على قتلهم واعتقدوا أنّه لا ينقذهم من ذلك إلّا قتل عثمان فلم يكن يجب عند أمير المؤمنين التعرّض لهم والحال هذه وإن كان يرى لوليّ الدم لو طلب المحاكمة إلى علي عليه السلام أن يحاكمهم حتّى يدلي كلّ من الطرفين بحجّته ثمّ يحكم بينهم بالحقّ، وقد كان يجب على الأمويّين وغيرهم الرجوع إلى حكم علي عليه السلام لأنّه أقضى الأمّة وأعلمها بكتاب الله وسنّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولم يكن لهم أن يرجعوا إلى القتال دون الردّ إلى الله والرسول كما أمر الله تعالى في قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾»(١).

هذا بالنسبة إلى واقعة الجمل، وهناك واقعة أخرى هي صفّين التي تقع ما بين أعالي العراق وبلاد الشام، والبلدة التي خلّدها التاريخ، وخلّدت هي تاريخًا ظاهرًا في حياة الأمّة الإسلاميّة...

تلك الحرب التي استنفدت من تاريخ الدم المهراق مئة وعشرة أيّام، بلغت فيها الوقائع تسعين وقعة فيما يذكر المؤرّخون، وقتل فيها الكثير من الطرفين(٢). فما كاد الإمام علي عليه السلام وأصحابه ينزلون عن خيولهم بعد أن

---

(١) سورة **النساء**، الآية ٥٩.

(٢) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، الجزء ٢، الصفحة ٣٦١.

خمدت فتنة الناكثين في وقعة الجمل (عام ٣٦ من الهجرة) حتّى اعتلوها مرّة أخرى في حرب صفّين لخمس مضين من شوال من السنة نفسها. مجزرة رهيبة، فجائع، ضياع حقّ، باطل يريد أن يتغلّب، مكر، غدر، تزوير، خدعة، هذه زبدة صفين..

انتهت حرب الجمل في البصرة بانتصار أمير المؤمنين علي عليه السلام وعودته إلى الكوفة ليبني الدولة الإسلاميّة؛ دولة الحقّ والعدالة، ليقيم الحدود، لتطمئنّ النفوس، ليورق العود وتخضرّ الأرض اليابسة، وينعم المسلم بورعٍ وتقوى.

لم يرُق ذلك لمعاوية بن أبي سفيان، وهو الأمير المدلّل من قبل الخلافة السابقة، فقد عرف أنّ رياح التغيير سوف تعصف بأحلامه الجاهليّة، وأنّ يد الحقّ والعدالة ستطاله وهو بالشامّ؛ لذلك أغرق الشامّ بالمال، وأغراها بغير المال، وبكلّ وسيلة ممكنة لديه وقادهم إلى نزاع مسلّح مع أمير المؤمنين عليه السلام، وصي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ولو احتمل معاوية أنّ الإمام سيبقيه على بذخه، ويقرّه على إسرافه، لما أعلن التمرّد والعصيان، ويعلم كلّ العلم أنّ الإمام لا يداهن في دينه ولا يقرّ الظلم والاستبداد، فكيف يقرّ معاوية في الحكم وهو يعلم أنّه فاسق فاجر، لا واقعيّة ولا حريجة له في الدين.

يقول السيّد حسين بدر الدين الحوثي (رضوان الله عليه) في (دروس من وحي عاشوراء):

وهكذا الإمام علي عليه السلام عندما آلت الخلافة إليه كان أمامه عقبة كؤودًا، هي معاوية في الشام. كان أوّل قرار اتخذه الإمام علي عليه السلام هو أنّه يجب عزل هذا الرجل ولا يمكن أن يبقى دقيقة واحدة في ظلّ حكم علي، يحكم منطقة كالشامّ باسم علي، وباسم الإسلام.

البعض نصح الإمام عليًّا عليه السلام بأنّه ليس الآن الوقت لكي تتخذ مثل هذا القرار، معاوية قد تمكّن في الشامّ، انتظر حتّى تتمكّن خلافتك ثمّ

بإمكانك أن تعزله. يبدو هذا عند من يفهمون سطحيّة السياسة، وعند من لا يصل فهمهم إلى الدرجة المطلوبة بالنسبة للآثار السيّئة، والعواقب الوخيمة لأن يتولّى مثل ذلك الرجل على منطقة كَبُرَت أو صَغُرَت، على رقاب المسلمين، كمعاوية. لكنّ ذلك ليس بمنطق الإمام علي عليه السلام الذي استشهد بقول الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾[1] عونًا ومساعدًا؛ لأنّ من تعيّنه واليًا على منطقة، أو تقرُّه واليًا على منطقة ما، يعني ذلك أنّك اتخذته ساعدًا وعضدًا، يقوم بتنفيذ المهام التي هي من مسؤوليّتك أمام تلك المنطقة أو تلك.

إنّ معاوية رجل مضلّ، ومعنى أن يُضِلّ أمّة بعد أن جاء هدي الله ونور القرآن، بعد أن بعث الله محمّدًا صلى الله عليه وآله وسلم، وقد بقي فترة طويلة على بُعدٍ من عاصمة الدولة الإسلاميّة، أضلّ أمّة بأسرها، أقام لنفسه دولة في ظلّ الخلافة الإسلاميّة.. وعندما حصل الصراع بين الإمام علي عليه السلام وبين معاوية وجاءت معركة (صفين) استطاع معاوية أن يحشد جيشًا كثير العدد والعدّة أكثر من جيش الخليفة نفسه! وكان ذلك الجيش الذي حشده إلى ساحة (صفين) مجاميع من تلك الأمّة التي أضلّها معاوية.

ولمّا أضلّها معاوية، انطلقت تلك الأمّة لتقف في صفّ الباطل، في وجه الحقّ، لتقف في وجه النور، والعدالة، والخير، تقف مع ابن آكلة الأكباد، مع ابن أبي سفيان، ضدّ وصيّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أمير المؤمنين على بن أبي طالب، الذي قال فيه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى».

إنّه الضلال، وما أخطر الضلال! وما أسوأ آثاره ونتائجه وعواقبه! وما أفظع خسارة المضلّين عند الله في هذه الدنيا ويوم يلقون الله سبحانه وتعالى، وقد أضلّوا عباده!.

---

(١) سورة **الكهف**، الآية ٥١.

والإمام علي عليه السلام يعلم أنّ أخطر شيء على الأمّة والبشريّة هو الضلال والمضلّون؛ لذلك وهو من يعرف واجب السلطة في الإسلام، ويعرف مهمّة الدولة في الإسلام، ومهمّة الخلافة الإسلاميّة، يرى أنّه لا يمكن بحال أن يقرَّ شخصًا مضلًّا على منطقة في ظلّ دولته، وإن كانت النتيجة هي تَقْويض خلافته واستشهاده.. كان يقول: «إنّ خلافتكم هذه لا تساوي عندي شراك نعلي هذا إلّا أن أقيم حقًّا أو أميت باطلًا».

لماذا؟ قد يستغرب أيّ شخص منّا عندما يسمع كلامًا لأمير المؤمنين عليه السلام كهذا... أنت حريص على أن تزيل معاوية من موقعه حتّى لو كان الثمن هو تقويض خلافتك، إزاحتك عن هذا المنصب، استشهادك.! الإمام علي عليه السلام يرى كلّ هذا سهلًا، ولا أن يبقى معاوية دقيقة واحدة على رقاب الأمّة؛ لأنّ عليًّا لم يكن من أولئك الذين يحرصون على مناصبهم، وليكن الثمن هو الدين، ومصالح الأمة، ومستقبلها وعزّتها وكرامتها.

الإمام علي يعرف أنّ من يعشق السلطة، والمناصب هو نفسه من يمكن أن يبقي مثل معاوية على الشامّ، هو نفسه من يمكن أن يبيع الدين الإسلامي، هو نفسه من يمكن أن يبيع الأمّة بأكملها مقابل أن تسلم له ولايته، وأن يسلم له كرسيّه ومنصبه.

وهل عانت الأمّة من ذلك اليوم إلى الآن إلّا من هذه النوعيّة من الحكّام؟! هذه النوعيّة التي نراها ماثلة أمامنا على طول وعرض البلاد الإسلاميّة لما كانوا من هذا النوع الذي لم يتلقَّ درسًا من علي عليه السلام الذي كان قدوة يمكن أن يحتذي به من يصل إلى السلطة، قدوة للآباء في التربية، قدوة للسلاطين في الحكم، قدوة للدعاة في الدعوة، قدوة للمعلّمين في التعليم، قدوة للمجاهدين في ميادين القتال، قدوة لكلّ ما يمكن أن يستلهمه الإنسان من خير ومجد وعزّ. أولئك الذين لم يعيشوا هذه الروحيّة التي عاشها الإمام علي عليه السلام في اليوم الأوّل من خلافته، فأرى الجميع أنّ خلافته عنده لا تساوي شراك نعله إذا لم يقم حقًّا ويمت باطلًا.

ما قيمتها إذًا؟! ما قيمة دولة تحكم باسم الإسلام، ويتربّع زعيمها على رقاب المسلمين، وعلى عرش البلد الإسلاميّ، ثمّ لا يكون همّه أن يحيي الحقّ ويميت الباطل؟!. لا قيمة لها، ليس فقط لا قيمة لها، بل ستتحوّل قيمتها إلى شيء آخر، إلى أن يكون قيمتها هو الدين، والأمّة.

عندما نسمع زعماء العرب، زعماء المسلمين كلّهم يسرعون إلى الموافقة على أن تكون أمريكا حليفة، فيما يسمّى بمكافحة الإرهاب لأنّهم جميعًا يعشقون السلطة ويحرصون على البقاء في مناصبهم مهما كان الثمن، لكنّهم لا يمكن أن يصرّحوا بهذا، هم يقولون: من أجل الحفاظ على الأمن والاستقرار، من أجل الحفاظ على مصلحة الوطن! أو يقولون: خوفًا من العصا الغليظة! وأيّ عصا أغلظ من عصا الله، من جهنم، ومن الخزي في الدنيا؟ هل هناك أغلظ من هذه العصا؟.

أراد الإمام علي عليه السلام أن يعلم كلّ من يمكن أن يصل إلى موقع السلطة في هذه الأمّة أنّه لا يجوز بحال أن تكون ممّن يعشق المنصب؛ لأنّك إذا عشقت المنصب ستضحّي بكلّ شيء في سبيله، وألّا تخاف من شيء أبدًا، فإذا ما خفت من غير الله فسترى كلّ شيء مهما كان صغيرًا أو كبيرًا يبدو عصا غليظة أمامك.

وهكذا، اجتمعت في شخص معاوية صفات تؤهّله للوقوف بوجه الإمام علي عليه السلام: فدهاؤه وسعة ذكائه وعدم تحرّزه من الدين، أضف إلى ذلك تواجد المال بحوزته هيّأت له مجال العمل والتحرّك دون تحاشٍ، ومن ورائه الكائدون للإسلام.

وقبيل المعركة، طلب رجل من أهل الشام مقابلة الإمام، وأخذ ينادي بين الصفّين: يا أبا الحسن، يا علي أبرز إلي.

قال: فخرج عليٌّ حتّى إذا اختلف أعناق دابّتيهما بين الصفّين.

فقال: يا علي إنّ لك قدمًا في الإسلام وهجرة فهل لك من أمرٍ أعرضه عليك يكون فيه حقن هذه الدماء وتأخير هذه الحروب حتّى ترى من رأيك؟.

فقال له علي: وما ذاك؟

قال: ترجع إلى عراقك فنخلي بينك وبين العراق، ونرجع إلى شامنا فتخلي بيننا وبين شامنا.

فقال له علي عليه السلام: لقد عرفت إنّما عرضت هذا نصيحة وشفقة ولقد أهمّني هذا الأمر وأسهرني وضربت أنفه وعينيه، فلم أجد إلّا القتال، أو الكفر بما أنزل على محمّد صلى الله عليه وآله وسلم إنّ الله تبارك وتعالى لم يرضَ من أوليائه أن يعصى في الأرض وهم سكوت مذعنون لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر فوجدت القتال أهون عليَّ من معالجة الأغلال في جهنم[١].

وكانت محاولة الإمام الأخيرة مع معاوية أن يجنّب المسلمين مشاكل الحرب ويتقابلا وأن يعفيا الفريقين من القتال.. ولكن معاوية وهو الداهية يعلم مسبقًا أنّه لا قابليّة له على مقابلة ابن أبي طالب.

يقول الإمام في معرض ردّه على معاوية: «وقد دعوت إلى الحرب فدع الناس جانبًا واخرج إليّ، وأعفِ الفريقين من القتال ليُعلم أيّنا المرين[٢] على قلبه والمغطّى على بصره. فأنا أبو حسن قاتل جدّك وخالك وأخيك شدخًا يوم بدر.. وذلك السيف معي، وبذلك القلب ألقى عدوّي، ما استبدلت دينًا، ولا استحدثت نبيًّا. وإنّي على المنهاج الذي تركتموه طائعين، ودخلتم فيه مكرهين»[٣].

ويتغافل معاوية عن هذا النداء وكأنّه لا يعنيه.

فدقّت ساعة الحرب.. والتقى الجيشان.. ودارت رحى القتال تحصد الرؤوس دون رحمة وهوادة، وتخمد الأنفاس، وتهلع القلوب.. ولم يسهل ذلك على الإمام وحاول أن يحسم الأمر مرّة أخرى، فخرج من بين العسكر المتشابك

---

(١) ابن مزاحم المنقري، **وقعة صفّين** (القاهرة: الطبعة ٢، ١٣٨٢هـ)، الصفحة ٤٧٤.

(٢) المرين: المغطى.

(٣) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ٣، الصفحة ١٢، من كتاب له عليه السلام إلى معاوية.

حيث مقرّ معاوية فوقف قبالته وناداه: «علامَ يقتتل الناس ويُقتلون؟ أبرز يا معاوية إليّ ودع الناس فيكون الأمر لمن غلب».

نداءٌ طبيعي للغاية، ودعوة صريحة لا لبس فيها ولا خفاء، ولكن من الداعي ومن المدعوّ؟

الداعي: أبو الحسن وسيفه ذو الفقار بيده، والمدعوّ: معاوية بن أبي سفيان رجل مكرٍ لا حرب. والتفت أبو يزيد لبطانته وقد تسمّروا حوله وعيونهم مشدودة للفارس الذي يتحدّاهم فزرع الرعب في أعماقهم وأثار الرجفة في قلوبهم فارتعدت فرائصهم، إنّهم بطانة سوء مؤلّفة من عمرو بن العاص وبسر بن أرطأة وعبيد الله بن عمرو وعبد الرحمن بن خالد وأضرابهم، وحاول أن يستطلع رأيهم في الدعوة، فردّ عليه ابن العاص بخبث وسخرية قائلًا: لقد أنصفك الرجل فابرز إليه.

فالتاع معاوية من القول وكتمها بنفسه ثورة مكبوتة، وردّ عليه بتأنيب: طمعت فيها يا عمرو وهل بارز عليٌّ أحدًا إلّا قتله؟.

ولم يكن عمرو بن العاص بأسعد حظًّا من رفيقه معاوية، ففي المعركة وقعت عين أمير المؤمنين على الثعلب المكّار عمرو بن العاص وانقضّ عليه الإمام كالأسد الكاسر وكاد سيف علي أن يأكله لولا اتقاؤه لسيف علي بكشف سوأته؛ ممّا اضطر علي أن يدير بوجهه عنه، ففرّ من بين يديه يجرّ الخزي والعار.

تعالت ضحكات معاوية وهو يتذكّر منظر عمرو بن العاص أمام علي وقال له ساخرًا: يا عمرو احمد الله والإستاه؛ إذ حالت دون وصول سيف علي إليك! فردّ عليه عمرو بن العاص قائلًا: يا معاوية إنّه عليّ لم يبارزه أحد ويعود سالمًا أما تتذكّر يا معاوية يوم دعاك علي للبراز، أما والله لقد رأيتك وقد مال شدقاك واحولّت عيناك وخرج من أسفلك ما أكره أن أقوله.

ومن المواقف العظيمة للإمام علي عليه السلام في صفّين:

بعدما طلب الإمام علي من معاوية البراز في صفّين ورفض معاوية، برز يومئذٍ عروة بن داود الدمشقي فقال: إن كان معاوية كره مبارزتك يا أبا الحسن فهلمّ إلّي. فتقدّم إليه عليٌّ عليه السلام.

فقال أصحاب الإمام له: ذر هذا الكلب فإنّه ليس عليك بخطر.

فقال: والله ما معاوية بأغيض لي منه. دعوني وإيّاه، ثمّ حمل عليه فضربه ضربه فقطعه قطعتين سقطت إحداهما يمنة والأخرى يسرة فارتجّ المعسكران لهول الضربة.

ثمّ قال علي عليه السلام: اذهب يا عروة فأخبر قومك، أما والذي بعث محمّدًا بالحقّ لقد عاينتَ النار وأصبحتَ من النادمين[١].

ومن مواقف البطولة للإمام عليٍّ عليه السلام ما حصل لحريث مولى معاوية وكان بطلًا، وكان معاوية يفتخر به ويعدّه لنوائب الدهر.. وكان قد أوصّاه أن يبرز لكلّ أحد ما عدا علي بن أبي طالب، وكان عمرو بن العاص يخشى جانبه فاستغلّ غرور حريث وأكّد له بأنّ معاوية حسده أن يحظى بشرف القضاء على علي بن أبي طالب وإلّا فإنّه قادرٌ على ذلك.

وفي المعركة، نادى حريث، مولى معاوية، وكان شديدًا ذا بأس فقال: يا عليّ هل لك في المبارزة؟ فأقدم أبا حسن إذا شئت. فأقبل عليٌّ وهو يقول:

أنا عليٌّ وابن عبد المطلبْ   نحن لعمر الله أولى بالكتبْ
منّا النبيُّ المصطفى غير كذبْ   أهل اللواءِ والمقامِ والحجبْ
نحن نصرناه على جلِّ العَرَبْ   يا أيّها العبدُ الغريرُ المنتدبْ
أثبتْ لنا يا أيّها الكلبُ الكَلِبْ

ثمّ خالطه فما أمهله أن ضربه ضربة واحدة فقطعه نصفين.

---

(١) ابن مزاحم المنقري، **وقعة صفّين** (القاهرة: الطبعة ٢، ١٣٨٢هـ)، الصفحة ٤٥٨.

قال نصر بن مزاحم: فجزع معاوية عليه جزعًا شديدًا وعاتب عَمْرًا وقال في رثائه:

حريثٌ ألم تعلم وجهلك ضائرٌ ... بأنّ عليًّا للفوارس قاهرُ
وأنّ عليًّا لم يبارزه فارسٌ ... من الناس إلّا أقصدته الأظافرُ
أمرتك أمرًا حازمًا فعصيتني ... فجدّك إذ لم تقبل النصح عاثرُ
ودلّاك عمرو والحوادث جمّةٌ ... غرورًا وما جرّت عليك المقادرُ
وظنَّ حريثٌ أنَّ عَمْرًا نصيحُهُ ... وقد يُهلِكُ الإنسانَ مَنْ لا يحاذرُ
أيركب عمرو رأسه خوف سيفه ... ويصلى حريثٌ إنّه لفرافرُ[1]

أمّا عن مواقف عظماء الصحابة نذكر منهم:

- أبو أيّوب الأنصاري (رضوان الله عليه)

ذلك الصحابي العظيم، قال أبو صادق: قدم أبو أيّوب العراق فأهدت له الأزد جزورًا فبعثوا بها معي فدخلت فسلّمت عليه وقلت له: قد أكرمك الله بصحبة نبيّه ونزوله عليك فما لي أراك تستقبل الناس تقاتلهم، تستقبل هؤلاء مرّة، وهؤلاء مرّة؟.

فقال: إنّ رسول الله ﷺ عهد إلينا أن نقاتل مع عليٍّ الناكثين فقد قاتلناهم، وعهد إلينا أن نقاتل معه القاسطين فهذا وجهنا إليهم يعني - معاوية وأصحابه - وعهد إلينا أن نقاتل مع عليّ المارقين فلم أرهم بعد[2].

وعن أبي أيّوب الأنصاري أيضًا: إنّ الرائد لا يكذّب أهله: أمرني رسول الله ﷺ بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين مع علي.

---

(١) الفرافر: الأخرق الأحمق.

(٢) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٣٢، الصفحة ٣٠٨؛ والمتّقي الهندي، **كنز العمّال**، الجزء ١١، الصفحة ٣٥٢؛ وابن عساكر في **تاريخ مدينة دمشق**، الجزء ١٦، الصفحة ٥٤.

- أبو سعيد الخدري (رضوان الله عليه)

قال: أمرنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين قلنا: يا رسول الله أمرتنا بقتال هؤلاء فمع من؟ قال: مع علي بن أبي طالب[١].

- عبد الله بن مسعود (رضوان الله عليه)

قال: أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليًّا بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين.

- عمّار بن ياسر (رضوان الله عليه)

قال: أمرني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين[٢].

ويكفي أمير المؤمنين قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيه: أنّه لا يحبّه إلّا مؤمن ولا يبغضه إلّا منافق.

وقول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لعمّار: «ويح عمّار تقتله الفئة الباغية يدعوهم إلى الجنّة ويدعونه إلى النار». لذلك كان عمّار أقوى جنود الإمام وأكثرهم قناعة، وفي الطليعة الأولى من أصحاب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إيمانًا وجهادًا وانطلاقًا في خدمة الإسلام وكان أثيرًا على النبي حتّى قال فيه: «عمّار جلدة ما بين عيني وأنفي».

وقال في حقّه: «ما خُيِّر عمّار بين أمرين إلّا اختار أرشدهما»[٣].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لقد ملئ عمّار إيمانًا من قرنه إلى أخمص قدميه».

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «لو قتل عمّارًا جميع أهل الأرض لدخلوا النار».

---

(١) الحاكم النيسابوري، **المستدرك**، الجزء ٣، الصفحة ١٣٩؛ وابن عساكر في **تاريخ مدينة دمشق**، الجزء ٤٢، الصفحة ٤٨٦.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) الشيخ الأميني، **الغدير** (بيروت: دار الكتاب العربي، الطبعة ٤، ١٩٧٧)، الجزء ٩، الصفحة ٢٦؛ وفي **المستدرك**، الجزء ٣، الصفحة ٣٨٨.

وقال علي عليه السلام: «جاء عمّار يستأذن على النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: ائذنوا له مرحبًا بالطيّب وابن الطيّب»[١].

ولقد كان يقاتل على بصيرة من أمره، وكان يقول: إنّي لأرى وجوه قوم لا يزالون يقاتلون حتّى يرتاب المبطلون، والله لو هزمونا حتّى يبلغوا بنا سعفات هجر لكنّا على الحقّ وكانوا على باطل[٢].

من مواقف عمّار، نذكر منها: في صفّين نادى عمّار (رضي الله عنه) قائلًا: أين من يبتغي رضوان الله، ولا يؤوب إلى مالٍ ولا ولد، فأتته عصابة من الناس. فقال: أيّها الناس، اقصدوا بنا نحو هؤلاء الذين يبغون دم ابن عفان ويزعمون أنّه قتل مظلومًا، والله ما طلبتهم بدمه ولكنّ القوم ذاقوا الدنيا فاستحبّوها واستمرؤوها، واعلموا أنّ الحقّ إذا لزمهم حال بينهم وبين ما يتمرّغون فيه من دنياهم، ولم يكن للقوم سابقة في الإسلام يستحقّون بها طاعة الناس والولاية عليهم، فخدعوا أتباعهم أن قالوا: إمامنا قتل مظلومًا ليكونوا بذلك جبابرة ملوكًا، وتلك مكيدة بلغوا بها ما ترون ولولا هي ما تبعهم من الناس رجلان. اللهم إن تنصرنا فطالما نصرت، وإن تجعل لهم الأمر فادخر لهم بما أحدثوا في عبادك العذاب الأليم، ثمّ مضى ومضت معه تلك العصابة التي أجابته حتّى دنا من عمرو فقال: يا عمرو بعت دينك بمصر! تبًّا لك طالما بغيت في الإسلام عوجًا، ثمّ حمل عمّار وهو يقول:

صَدَقَ اللهُ وهو للصِّدْقِ أَهْلٌ ... وتعالى ربي وكانَ جليلا
ربِّ عَجِّلْ شهادةً لي بِقَتْلٍ ... في الذي قدْ أحبَّ قَتْلًا جميلا
مُقْبِلًا غيرَ مُدْبِرٍ إنَّ لِلْقَتْـ ... ـلِ على كُلِّ ميتةٍ تفضيلا
إنّهم عندَ ربِّهم في جنانٍ ... يشربون الرحيقَ والسلسبيلا

(١) ابن مزاحم المنقري، **وقعة صفّين** (القاهرة: الطبعة ٢، ١٣٨٢هـ)، الصفحة ٣٢٣.

(٢) المسعودي، **مروج الذهب**، الجزء ٢، الصفحة ٣٩١.

مِنْ شرابِ الأبرارِ خَالَطَهُ المسكُ وكأسًا مزاجها زنجبيلا

ثمّ نادى عبيد الله بن عمر فقال: صرعك الله بعت دينك من عدوّ الإسلام وابن عدوّه.

قال: لا ولكن أطلب بدم عثمان بن عفان.

قال له: أشهد على علمي فيك أنّك لا تطلب بشيءٍ من فعلك وجه الله عزّ وجلّ، وإنّك إن لم تقتل اليوم تمت غدًا، فانظر إذا أُعطي الناس على قدر نيّاتهم ما نيّتك؟[١].

ثمّ قال عمّار بن ياسر: اللهم إنّك تعلم أنّي لو أعلم أنّ رضاك في أن أقذف بنفسي في هذا البحر لفعلته، اللهم إنّك تعلم أنّي لو أعلم أنّ رضاك في أن أضع ظبّة سيفي في صدري ثمّ أنحني عليها حتّى تخرج من ظهري لفعلت، وإنّي لا أعلم اليوم عملًا هو أرضى لك من جهاد هؤلاء الفاسقين، ولو أعلم أنّ عملًا من الأعمال هو أرضى لك منه لفعلته[٢].

وروى أسماء بن الحكم الفزاري قال: كنّا بصفّين مع علي بن أبي طالب تحت راية عمّار بن ياسر ارتفاع الضحى، استظلّلنا ببردٍ أحمر، إذ أقبل رجلٌ يستقري الصفّ حتّى انتهى إلينا فقال: أيّكم عمّار بن ياسر؟ فقال عمّار بن ياسر: هذا عمّار قال أبو اليقظان؟ قال: نعم. قال: إنّ لي حاجة إليك فانطق بها علانيّة أو سرًّا؟ قال: اختر لنفسك أيّ ذلك شئت. قال: لا بل علانيّة.

قال: فانطق.

قال: إنّي خرجت من أهلي مستبصرًا في الحقّ الذي نحن عليه لا أشكّ في ضلالة هؤلاء القوم وأنّهم على الباطل، فلم أزل على ذلك مستبصرًا حتّى كان ليلتي هذه صباح يومنا هذا، فتقدّم منادٍ فشهد أن لا إله إلّا الله وأنّ

(١) ابن مزاحم المنقري، **وقعة صفّين** (القاهرة: الطبعة ٢، ١٣٨٢هـ)، الصفحة ٣٢٠.

(٢) الطبري، **تاريخ الطبري**، الجزء ٤، الصفحة ٢٦؛ وابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، الجزء ٥، الصفحة ٢٥٣، من أخبار يوم صفّين.

محمّدًا رسول الله ونادى بالصلاة، فنادى مناديهم بمثل ذلك، ثمّ أقيمت الصلاة فصلّينا صلاة واحدة، ودعونا دعوة واحدة، وتلونا كتابًا واحدًا، ورسولنا واحد فأدركني الشكّ في ليلتي هذه، فبتّ في ليلة لا يعلمها إلّا الله حتّى أصبحت، فأتيت أمير المؤمنين فذكرت ذلك له فقال: هل لقيت عمّار بن ياسر؟.

قلت: لا. قال: فالقه فانظر ما يقول لك فاتبعه. فجئتك لذلك.

قال له عمّار: هل تعرف صاحب الراية السوداء المقابلة لي فإنّها راية عمرو بن العاص، قاتلتها مع رسول الله ﷺ ثلاث مرّات وهذه الرابعة ما هي بخيرهنّ ولا أبرهنّ، بل هي شرهنّ وأفجرهنّ، أشهدت بدرًا وأحدًا أو حنينًا أو شهد لك أب فيخبرك عنها؟ قال: لا. قال: فإنّ مراكزنا على مراكز رايات رسول الله يوم بدر ويوم أحد ويوم حنين وإنّ هؤلاء على مراكز رايات المشركين من الأحزاب، هل ترى هذا المعسكر ومن فيه؟ فوالله لوددت أنّ جميع من أقبل مع معاوية ممّن يريد قتالنا مفارقًا للذي نحن عليه كانوا خلقًا واحدًا فقطعته وذبحته، والله لدماؤهم جميعًا أحلّ من دم عصفور، أفترى دم عصفورٍ حرامًا.! قال: لا بل حلال.

قال: فإنّهم كذلك حلالٌ دماؤهم أتراني بيّنت لك؟ قال: قد بيّنت لي.

قال: فاختر أيّ ذلك أحببت.

قال: فانصرف الرجل، ثمّ دعاه عمّار بن ياسر فقال: أما إنّهم سيضربوننا بأسيافهم حتّى يرتاب المبطلون منكم فيقولون: لو لم يكونوا على حقّ ما ظهروا علينا، والله ما هم من الحقّ على ما يقذي عين ذباب، والله لو ضربونا بأسيافهم حتّى يبلغوا بنا سعفات هجر(١) لعرفنا أنّا على حقّ وهم على باطل(٢).

---

(١) وإنّما خصّ هجر للمباعدة في المسافة ولأنّها موصوفة بكثرة النخيل.

(٢) **شرح نهج البلاغة**، الجزء ٥، الصفحة ٢٥٣، من أخبار يوم صفّين.

وأيم الله لا يكون سلمًا سالمًا أبدًا حتّى يبوء أحد الفريقين على أنفسهم بأنّهم كانوا كافرين وحتّى يشهدوا على الفريق الآخر بأنّهم على الحقّ وأنّ قتلاهم في الجنّة وموتاهم، ولا ينصرم أيّام الدنيا حتّى يشهدوا بأنّ قتلاهم وموتاهم في الجنّة وأن موتى أعدائهم وقتلاهم في النار، وكان أحياؤهم على الباطل(١).

وكان عمّار يحثّ الإمام قائلًا: يا أمير المؤمنين إن استطعت ألّا تقيم يومًا واحدًا فاشخص بنا قبل استعار نار الفجرة واجتماع رأيهم على الصدود والفرقة، وادعهم إلى رشدهم وحظهم فإن قبلوا سعدوا، وإن أبوا إلّا حربنا فوالله إنّ سفك دمائهم والجدّ في جهادهم لقربة عند الله وهو كرامة منه(٢).

واندفع الصحابي العظيم عمّار بن ياسر إلى تعريف الجيش الشامي بواقع معاوية فقال: يا أهل الشام أتريدون أن تنظروا إلى من عادى الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم وجاهدهما وبغى على المسلمين وظاهر المشركين؟ فلمّا أراد الله أن يظهر دينه، وينصر رسوله، أتى النبي فأسلم، وهو والله فيما يرى راهب غير راغب، وقبض الله رسوله وإنّا والله لنعرفه بعداوة المسلم، ومودّة المجرم، ألا إنّه معاوية فالعنوه لعنه الله، فإنّه ممّن يطفئ نور الله، ويظاهر أعداء الله.

- حذيفة بن اليمان (رضوان الله عليه)

كان حذيفة عليلًا بالكوفة سنة ٣٦هـ، فبلغه قتل عثمان وبيعة الناس لعلي فقال: أخرجوني وادعوا الصلاة جامعة، فوضع على المنبر فحمد الله وأثنى عليه وصلّى على النبي وعلى آله، ثمّ قال: أيّها الناس، إنّ الناس قد بايعوا عليًّا فعليكم بتقوى الله وانصروا عليًّا وآزروه فوالله إنّه لعلى الحقّ آخرًا وأولًا، وإنّه لخير من مضى بعد نبيّكم ومن بقي إلى يوم القيامة، ثمّ أطبق يمينه

---

(١) المصدر نفسه، هامش الصفحة ٢٥٨. وابن مزاحم المنقري، **وقعة صفّين** (القاهرة: الطبعة ٢، ١٣٨٢هـ)، الصفحة ٣٢٢.

(٢) **وقعة صفّين**، مصدر سابق، الصفحة ٩٣.

على يساره، ثمّ قال: اللهم إنّي قد بايعت عليًّا، وقال: الحمد لله الذي أبقاني إلى هذا اليوم، وقال لابنيه صفوان وسعد: احملاني وكونا معه فستكون له حروب كثيرة فيهلك فيها خلق من الناس فاجتهدا أن تستشهدا معه، فإنّه والله على الحقّ، ومن خالفه على الباطل، ومات حذيفة بعده بسبعة أيّام، وقيل: بأربعين يومًا. وقد عمل ولداه صفوان وسعد بنصيحته فاستشهدا مع الإمام بصفّين[١].

كما شهد صفّين مع علي عليه السلام من أصحاب بدر سبعة وثمانون رجلًا منهم سبعة عشر من المهاجرين، وسبعون من الأنصار، وشهد معه من الأنصار ممّن بايع تحت الشجرة، وهي بيعة الرضوان من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تسعمئة وكان جميع من شهد معه من الصحابة ألفين وثمانمئة[٢]. ولم يكن مع معاوية من الأنصار إلّا النعمان بن بشير ومسلمة بن مخلد.

كاد الإمام أن ينتصر ويحصد ثمار المعركة لولا المكر والخديعة من قبل معاوية وعمرو بن العاص والجهل وقلّة الإيمان والوعي والتمرّد والعصيان في جيش الإمام... ويسقط عمّار بن ياسر شهيدًا في المعركة بسيوف جيش معاوية مبيّنًا لمن ما زال في قلبه أدنى شكّ أو شبهة (الفئة الباغية) التي تدعوه إلى النار ويدعوها إلى الجنّة، كما بيّن ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «ويح عمّار تقتله الفئة الباغية يدعوهم إلى الجنّة ويدعونه إلى النار».

وابتلع جيش عليٍّ عليه السلام الطعم الذي وضعه له عمرو بن العاص برفع المصاحف مع أنّ الإمام قد أوضح لهم بأنّها: كلمة حقٍّ يراد بها باطل، دون جدوى ويحصل الانشقاق في جيش أمير المؤمنين، يتلوه مسرحيّة التحكيم؛ المؤامرة التي حاك خيوطها عمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان والأشعث وأبو موسى الأشعري لصالح معاوية الطليق بن الطليق.

---

(١) **مروج الذهب**، مصدر سابق، الجزء ٢، الصفحة ٣٩٤.

(٢) **مروج الذهب**، مصدر سابق، الجزء ٢، الصفحة ٣٦١.

وقبل أن تمسح الأمّة عن جبينها غبار المآسي وسيول الدماء التي جرت في صفّين وقبل أن تهدأ النفوس من مأساة التحكيم وما رافقها من أحداث كانت فتنة الخوارج عبئًا ثقيلًا على أمير المؤمنين عليه السلام حتّى قضى على فتنتهم.

كان الإمام قد حذّرهم مسبقًا، وخوّفهم المصير السيّئ الذي ينتظرهم قائلًا لهم:

«فَأَنَا نَذِيرٌ لَكُمْ أَنْ تُصْبِحُوا صَرْعَى بِأَثْنَاءِ هَذَا النَّهَرِ وَبِأَهْضَام هَذَا الْغَائِطِ عَلَى غَيْرِ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا سُلْطَانٍ مُبِينٍ مَعَكُمْ، قَدْ طَوَّحَتْ بِكُمُ الدَّارُ، وَاحْتَبَلَكُمُ الْمِقْدَارُ، وَقَدْ كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ هَذِهِ الْحُكُومَةِ فَأَبَيْتُمْ عَلَيَّ إِبَاءَ الْمُنَابِذِينَ، حَتَّى صَرَفْتُ رَأْيِي إِلَى هَوَاكُمْ وَأَنْتُمْ مَعَاشِرُ أَخِفَّاءُ الْهَامِ، سُفَهَاءُ الْأَحْلَامِ، وَلَمْ آتِ لَا أَبَا لَكُمْ بُجْرًا، وَلَا أَرَدْتُ لَكُمْ ضُرًّا»[1].

لقد كان الإمام يعرف مصيرهم تمامًا؛ فقد أخبره الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بذلك؛ ولذلك قال عليه السلام لمّا عزم على حرب الخوارج وقيل له: إنّ القوم عبروا جسر النهروان قال: «مَصَارِعُهُمْ دُونَ النُّطْفَةِ وَاللهِ لَا يُفْلِتُ مِنْهُمْ عَشَرَةٌ وَلَا يَهْلِكُ مِنْكُمْ عَشَرَةٌ»[2].

وتحدّث الإمام وَقَدْ مَرَّ بِقَتْلَى الْخَوَارِجِ يَوْمَ النَّهْرَوَانِ قائلًا: «بُؤْسًا لَكُمْ لَقَدْ ضَرَّكُمْ مَنْ غَرَّكُمْ، فَقِيلَ لَهُ: مَنْ غَرَّهُمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ فَقَالَ: الشَّيْطَانُ الْمُضِلُّ، وَالْأَنْفسُ الْأَمَّارَةُ بِالسُّوءِ غَرَّتْهُمْ بِالْأَمَانِيِّ، وَفَسَحَتْ لَهُمْ بِالْمَعَاصِي، وَوَعَدَتْهُمُ الْإِظْهَارَ فَاقْتَحَمَتْ بِهِمُ النَّارَ»[3].

---

(١) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ١، الصفحة ٨٧، من خطبة له عليه السلام في تخويف أهل النهروان.

(٢) قال الشريف: يعني بالنطفة ماء النهر وهي أفصح كناية عن الماء وإن كان كثيرًا جمًّا وقد أشرنا إلى ذلك فيما تقدّم عند مضيّ ما أشبهه. **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ١، الصفحة ١٠٧، من خطبة له عليه السلام في تخويف أهل النهروان.

(٣) المصدر نفسه، الجزء ٤، الصفحة ٧٧، من كلام له عليه السلام وقد مرّ بقتلى الخوارج يوم النهروان.

وتحدّث الإمام عن بقائهم وما سينال الأمّة من ويلات على أيديهم، وكأنّ الإمام يتحدّث عن التكفيريّين في هذه المرحلة ودورهم الخطير في ضرب الأمّة؛ فقد قيل له: يا أمير المؤمنين هلك القوم بأجمعهم فقال عليه السلام: «كَلَّا وَاللهِ إِنَّهُمْ نُطَفٌ فِي أَصْلَابِ الرِّجَالِ وَقَرَارَاتِ النِّسَاءِ، كُلَّمَا نَجَمَ مِنْهُمْ قَرْنٌ قُطِعَ حَتَّى يَكُونَ آخِرُهُمْ لُصُوصًا سَلَّابِينَ»[١].

وهكذا خاض الإمام علي عليه السلام ثلاث معارك مهمّة كان قد أخبره بها النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حديث صحيح لدى جميع المسلمين.

فقد روى عليّ عليه السلام فقال: أمرت بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين.

وروي عن ابن مسعود قال: أُمر عليّ بقتال الناكثين والمارقين والقاسطين.

وعن أبي أيّوب قال: قال لنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «تقاتلون الناكثين، والقاسطين، والمارقين». قلنا: مع من يارسول الله؟ قال: «مع علي».

وروي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم الخبر المشهور، أنّه قال: «يأتي قوم من بعدي، يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الإسلام، كما يمرق السهم من الرميّة»[٢]، بل وصف النبي صلى الله عليه وآله وسلم الخوارج بأنّهم كلاب أهل النار.

وهكذا، انقضت السنوات الخمس من حكم الإمام علي عليه السلام مثقلة الخُطَى، مجهدة الأيّام، اجتمعت عليه المحن والمصاعب من كلّ حدبٍ وصوب. فمن وقعة الجمل إلى مأساة صفّين إلى مشكلة الخوارج.. تئزّ العاصفة الهوجاء في وجهه فتحيل الدنيا سوادًا، وأرزاءً وخطوبًا.. وعلي عليه السلام ذلك البطل الذي يقابل الأحداث بقلبٍ ثابت وفكرٍ ثاقب

---

(١) المصدر نفسه، الجزء ١، الصفحة ١٠٧، من خطبة له عليه السلام في تخويف أهل النهروان.

(٢) **المستدرك**، مصدر سابق، الجزء ١٩، الصفحة ٥٢٤، **لوامع الأنوار**، الجزء ٢، الصفحة ٤٣٩.

وإيمان عميق.. لقد قابلها بثبات المؤمن وقوّة البطل وصبر المحتسب حتّى قالوا عنه: «لولا محاربة علي لأهل القبلة ما عرف العرب آداب الحرب»[١].

يقول الدكتور سعيد عاشور: ونحن نجد أنّ الإمام عليًّا عليه السلام عندما تولّى الخلافة أراد تصحيح أوضاع الأمّة الإسلاميّة في جميع النواحي السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة ممّا أثار عليه أصحاب المطامع والأهواء حتّى نكث عليه الناكثون وبسببهم كانت معركة (الجمل)، ونحن نعرف أنّ ذلك العمل هو الذي دفع بمعاوية للخروج على إمام الحقّ وكانت معركة (صفّين)، ونعرف أيضًا أنّ هاتين المعركتين تولّد منهما خروج طائفة ثالثة وكانت معركة النهروان ونعرف أنّ هذه الطوائف الثلاث هم الناكثون والقاسطون والمارقون.

لقد عمل الإمام علي عليه السلام على أن يصنع من واقع أصحابه الجهادي نموذجًا إيمانيًّا يطابق الرؤية القرآنيّة؛ ليكون في واقعه قرآنًا يمشي، قرآنًا يتحرّك في واقع الحياة؛ ليكون ذلك النموذج الذي قدّمه **القرآن الكريم** إلّا أنّ الإمام اصطدم بروحيّة اللامبالاة التي كان يحملها الكثير من أصحابه، وقلّة الإيمان وانعدام الوعي الذي سيطر على نفوس أصحابه.

وهكذا ازداد الوضع سوءًا نتيجة لهذا التخاذل الذي سيطر على أصحابه الذين لم يستطع الإمام بمؤهّلاته وقدراته أن ينقلهم من تلك الحالة السيّئة التي تربّوا عليها خلال الفترة الماضية بالرغم من بلاغته وما يملكه من بيان؛ لأنّ المشكلة كانت أنّهم ممّن لا يفتحون آذانهم لما يقدّم إليهم ولم يكونوا ينظرون للإمام علي عليه السلام على أنّه إمامهم ووليّ أمرهم وأنّ عليهم التسليم لكلّ ما يقدّمه إليهم.

كان هناك صفوة من أصحابه، وقد فقد الكثير منهم في الحروب السابقة والبقيّة يتعرّضون للتصفية من قبل معاوية وعمرو بن العاص، يساعدهم في ذلك حالة التخاذل التي نخرت جيش الإمام علي عليه السلام ولنستمع إلى الإمام

(١) في رحاب أئمّة آل البيت عليهم السلام باختصار.

علي وهو يتحسّر عند تذكّره تلك الصفوة من أصحاب النبي ﷺ الذين عايشهم الإمام ووقفوا معه بإخلاص ووفاء وكيف صارت الحال في تلك المرحلة التي هو فيها وممّا قال:

«أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي قَدْ بَثَثْتُ لَكُمُ المَوَاعِظَ الَّتِي وَعَظَ الْأَنْبِيَاءُ بِهَا أُمَمَهُمْ، وَأَدَّيْتُ إِلَيْكُمْ مَا أَدَّتِ الْأَوْصِيَاءُ إِلَى مَنْ بَعْدَهُمْ، وَأَدَّبْتُكُمْ بِسَوْطِي فَلَمْ تَسْتَقِيمُوا، وَحَدَوْتُكُمْ بِالزَّوَاجِرِ فَلَمْ تَسْتَوْسِقُوا لله أَنْتُمْ، أَتَتَوَقَّعُونَ إِمَامًا غَيْرِي يَطَأُ بِكُمُ الطَّرِيقَ وَيُرْشِدُكُمُ السَّبِيلَ؟ أَلَا إِنَّهُ قَدْ أَدْبَرَ مِنَ الدُّنْيَا مَا كَانَ مُقْبِلًا، وَأَقْبَلَ مِنْهَا مَا كَانَ مُدْبِرًا، وَأَزْمَعَ التَّرْحَالَ عِبَادُ الله الْأَخْيَارُ، وَبَاعُوا قَلِيلًا مِنَ الدُّنْيَا لَا يَبْقَى بِكَثِيرٍ مِنَ الْآخِرَةِ لَا يَفْنَى، مَا ضَرَّ إِخْوَانَنَا الَّذِينَ سُفِكَتْ دِمَاؤُهُمْ وَهُمْ بِصِفِّينَ أَلَّا يَكُونُوا الْيَوْمَ أَحْيَاءً يُسِيغُونَ الْغُصَصَ وَيَشْرَبُونَ الرَّنْقَ، قَدْ وَالله لَقُوا اللهَ فَوَفَّاهُمْ أُجُورَهُمْ، وَأَحَلَّهُمْ دَارَ الْأَمْنِ بَعْدَ خَوْفِهِمْ. أَيْنَ إِخْوَانِيَ الَّذِينَ رَكِبُوا الطَّرِيقَ وَمَضَوْا عَلَى الحَقِّ؟! أَيْنَ عَمَّارٌ؟! وَأَيْنَ ابْنُ التَّيِّهَانِ؟! وَأَيْنَ ذُو الشَّهَادَتَيْنِ؟! وَأَيْنَ نُظَرَاؤُهُمْ مِنْ إِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ تَعَاقَدُوا عَلَى المَنِيَّةِ وَأُبْرِدَ بِرُؤُوسِهِمْ إِلَى الْفَجَرَةِ؟!».

قَالَ ثُمَّ ضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى لِحْيَتِهِ الشَّرِيفَةِ الْكَرِيمَةِ فَأَطَالَ الْبُكَاءَ.

ثُمَّ قَالَ عليه السلام: «أَوِّهِ عَلَى إِخْوَانِيَ الَّذِينَ تَلَوُا الْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ، وَتَدَبَّرُوا الْفَرْضَ فَأَقَامُوهُ، أَحْيَوُا السُّنَّةَ، وَأَمَاتُوا الْبِدْعَةَ، دُعُوا لِلْجِهَادِ فَأَجَابُوا، وَوَثِقُوا بِالْقَائِدِ فَاتَّبَعُوهُ»(١).

وأخيرًا، يحطّ عليٌّ الرحال بعد رحلة طويلة بدأت من بيت الله الحرام وختمت بمسجد الكوفة شهيدًا كما كان يتمنّى، وما بين مولده في الكعبة واستشهاده بمحراب مسجد الكوفة تاريخ حافل بالجهاد والتضحية والمعاناة من أجل هذه الأمّة. رحل بعد أن طهّر الأرض من أغلب المفسدين والمضلّين طوال حكمه في معارك لا تقلّ أهميّة عن تلك المعارك التي خاضها مع أخيه

---

(١) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ٢، الصفحة ١٠٩، الخطبة رقم ١٨٢.

ورفيق دربه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي قال له: «ستقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على التنزيل» والذي أوصاه بقتال «الناكثين والقاسطين والمارقين».

صحيح أنّ الإمام كان يقول: «لو استوت قدماي لغيّرت أشياء»؛ فقد كان عليه السلام يأمل أن يعيد الأمّة إلى وضعها السابق على ما كانت عليه في زمن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولكنّه، وإن لم يصل إلى مبتغاه، إلّا أنّه قد حقّق الكثير والكثير من الإصلاحات وقضى على الكثير من رؤوس الضلال وصحّح الكثير من المفاهيم ولولا المعارك التي خاضها الإمام علي عليه السلام وما حقّقه لتحوّل الإسلام إلى أسوأ من المجوسيّة؛ ولذلك فالإمام علي انتصر على أعداء الله بانتصار القضيّة التي تحرّك من أجل تحقيقها وإعادة الصورة الناصعة للدين بعد أن كانت قد تغيّرت صورته على أيدي من سبقوه.

عاش الإمام علي عليه السلام مجاهدًا في سبيل الله، أمينًا، صادقًا، ناصحًا، حُرًّا، ناطقًا بالحقّ.. ولولا عليّ، لولا كلمة علي، لولا مواقف علي لما وصل الدين إلينا بنقاوته، وصفائه من داخل ظلمات ذلك الانحراف الذي أوصل معاوية - وهو اللعين ابن اللعين - إلى سُدَّةِ الحكم، إلى أن يتحكّم في رقاب هذه الأمّة[1].

(١) الشهيد القائد السيّد حسين في استشهاد الإمام علي عليه السلام.

رابعًا- بعض وصاياه وحكمه وأقواله

ومن وصاياه عليه السلام:

«إِنَّ أَفْضَلَ مَا تَوَسَّلَ بِهِ الْمُتَوَسِّلُونَ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ: الإِيمَانُ بِهِ وَبِرَسُولِهِ، وَالْجِهادُ فِي سَبِيلِهِ فَإِنَّهُ ذِرْوَةُ الإِسْلَامِ، وَكَلِمَةُ الإِخْلَاصِ فَإِنَّهَا الْفِطْرَةُ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ فَإِنَّهَا الْمِلَّةُ، وَإِيتَاهُ الزَّكَاةِ فَإِنَّهَا فَرِيضَةٌ وَاجِبَةٌ، وَصَوْمُ شَهْرِ رَمَضَانَ فَإِنَّهُ جُنَّةٌ مِنَ الْعِقَابِ، وَحَجُّ الْبَيْتِ وَاعْتِمارُهُ فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الْفَقْرَ وَيَرْحَضَانِ الذَّنْبَ[١]، وَصِلَةُ الرَّحِمِ فَإِنَّهَا مَثْرَاةٌ فِي الْمَالِ وَمَنْسَأَةٌ[٢] فِي الأَجَلِ، وَصَدَقَةُ السِّرِّ فَإِنَّهَا تُكَفِّرُ الْخَطِيئَةَ، وَصَدَقَةُ الْعَلَانِيَةِ فَإِنَّهَا تَدْفَعُ مِيتَةَ السُّوءِ، وَصَنَائِعُ الْمَعْرُوفِ فَإِنَّهَا تَقِي مَصَارِعَ الْهَوَانِ.

أَفِيضُوا فِي ذِكْرِ اللهِ فَإِنَّهُ أَحْسَنُ الذِّكْرِ، وَارْغَبُوا فِيمَا وَعَدَ الْمُتَّقِينَ فَإِنَّ وَعْدَهُ أَصْدَقُ الْوَعْدِ، وَاقْتَدُوا بِهَدْيِ نَبِيِّكُمْ فَإِنَّهُ أَفْضَلُ الْهَدْيِ، وَاسْتَنُّوا بِسُنَّتِهِ فَإِنَّهَا أَهْدَى السُّنَنِ»[٣].

ومن وصيّته عليه السلام لولده الحسن بن علي عليه السلام كتبها إليه بـ«حاضرين»[٤] عند انصرافه من صفّين:

---

(١) رَحَضَه كمنعه: غَسَلَه.

(٢) مَنْسَأة: مَطَالٌ فيه ومَزِيد.

(٣) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ١، الصفحة ٢١٦، من خطبة له عليه السلام في وصف الدنيا.

(٤) حاضرين: اسم بلدة في نواحي صفّين.

«مِنَ الْوَالِدِ الْفَانِ، الْمُقِرِّ لِلزَّمَانِ[١]، الْمُدْبِرِ الْعُمُرِ، الْمُسْتَسْلِمِ لِلدَّهْرِ، الذَّامِّ لِلدُّنْيَا، السَّاكِنِ مَسَاكِنَ الْمَوْتَى، الظَّاعِنِ عَنْهَا غَدًا، إِلَى الْمَوْلُودِ الْمُؤَمِّلِ مَا لاَ يُدْرَكُ، السَّالِكِ سَبِيلَ مَنْ قَدْ هَلَكَ، غَرَضِ الأَسْقَامِ[٢]، رَهِينَةِ[٣] الأَيَّامِ، وَرَمِيَّةِ[٤] الْمَصَائِبِ، وَعَبْدِ الدُّنْيَا، وَتَاجِرِ الْغُرُورِ، وَغَرِيمِ الْمَنَايَا، وَأَسِيرِ الْمَوْتِ، وَحَلِيفِ الْهُمُومِ، قَرِينِ الأَحْزَانِ، وَنُصْبِ الآفَاتِ[٥]، وَصَرِيعِ[٦] الشَّهَوَاتِ، وَخَلِيفَةِ الأَمْوَاتِ.

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ فِيما تَبَيَّنْتُ مِنْ إِدْبَارِ الدُّنْيَا عَنِّي، وَجُمُوحِ الدَّهْرِ[٧] عَلَيَّ، وَإِقْبَالِ الآخِرَةِ إِلَيَّ، مَا يَزَعُنِي[٨] عَنْ ذِكْرِ مَنْ سِوَايَ، وَالاهْتِمَامِ بِمَا وَرَائِي[٩]، غَيْرَ أَنِّي حَيْثُ تَفَرَّدَ بِي دُونَ هُمُومِ النَّاسِ هَمُّ نَفْسِي، فَصَدَفَنِي[١٠] رَأْيِي، وَصَرَفَنِي عَنْ هَوَايَ، وَصَرَّحَ لِي مَحْضُ أَمْرِي[١١]، فَأَفْضَى بِي إِلَى جِدٍّ لاَ يَكُونُ فِيهِ لَعِبٌ، وَصِدْقٍ لاَ يَشُوبُهُ كَذِبٌ.

وَوَجَدْتُكَ بَعْضِي، بَلْ وَجَدْتُكَ كُلِّي، حَتَّى كَأَنَّ شَيْئًا لَوْ أَصَابَكَ أَصَابَنِي، وَكَأَنَّ الْمَوْتَ لَوْ أَتَاكَ أَتَانِي، فَعَنَانِي مِنْ أَمْرِكَ مَا يَعْنِينِي مِنْ أَمْرِ نَفْسِي، فَكَتَبْتُ إِلَيْكَ كِتَابِي هَذا، مُسْتَظْهِرًا بِهِ[١٢] إِنْ أَنَا بَقِيتُ لَكَ أَوْ فَنِيتُ.

---

(١) المقرّ للزمان: المعترف له بالشدّة.

(٢) غرض الأسقام: هدف الأمراض ترمي إليه سهامها.

(٣) الرهينة: المرهونة، أي أنّه في قبضة الأيّام وحكمها.

(٤) الرَّمِيّة: ما أصابه السهم.

(٥) نُصب الآفات: لا تفارقه العلل، وهو من قولهم: فلان نصب عيني - بالضمّ - أي لا يفارقني.

(٦) الصريع: الطريح.

(٧) جُموح الدهر: استقصاؤه وتغلّبه.

(٨) يَزَعُني: يكفّني ويصدّني.

(٩) ما ورائي: كناية عن أمر الآخرة.

(١٠) صَدَفَه: صرفه.

(١١) محض الأمر: خالصه.

(١٢) مستظهرًا به: أي مستعينًا به.

فَإِنِّي أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللهِ - أَيْ بُنيَّ - وَلُزُوم أَمْرِهِ، وَعِمَارَةِ قَلْبِكَ بِذِكْرِهِ، وَالاعْتِصَام بِحَبْلِهِ، وَأَيُّ سَبَب أَوْثَق مِنْ سَبَب بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ إِنْ أَنْتَ أَخَذْتَ بِهِ!

أَحْيِ قَلْبَكَ بِالْمَوْعِظَةِ، وَأَمِتْهُ بِالزَّهَادَةِ، وَقَوِّهِ بِالْيَقِينِ، وَنَوِّرْهُ بِالْحِكْمَةِ، وَذَلِّلْهُ بِذِكْرِ الْمَوْتِ، وَقَرِّرْهُ بِالْفَنَاءِ(١)، وَبَصِّرْهُ(٢) فَجَائِعَ(٣) الدُّنْيَا، وَحَذِّرْهُ صَوْلَةَ الدَّهْرِ وَفُحْشَ تَقَلُّبِ اللَّيَالِي وَالأَيَّامِ، وَاعْرِضْ عَلَيْهِ أَخْبَارَ الْمَاضِينَ، وَذَكِّرْهُ بِمَا أَصَابَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِنَ الأَوَّلِينَ، وَسِرْ فِي دِيَارِهِمْ وَآثَارِهِمْ، فَانْظُرْ مَا فَعَلُوا عَمَّا انْتَقَلُوا، وَأَيْنَ حَلُّوا وَنَزَلُوا! فَإِنَّكَ تَجِدُهُمْ انْتَقَلُوا عَنِ الأَحِبَّةِ، وَحَلُّوا دَارَ الْغُرْبَةِ، وَكَأَنَّكَ عَنْ قَلِيل قَدْ صِرْتَ كَأَحَدِهِمْ.

فَأَصْلِحْ مَثْوَاكَ، وَلاَ تَبِعْ آخِرَتَكَ بِدُنْيَاكَ، وَدَعِ الْقَوْلَ فِيمَا لاَ تَعْرِفُ، وَالْخِطَابَ فِيمَا لَمْ تُكَلَّفْ، وَأَمْسِكْ عَنْ طَرِيق إِذَا خِفْتَ ضَلاَلَتَهُ، فَإِنَّ الْكَفَّ عِنْدَ حَيْرَةِ الضَّلاَلِ خَيْرٌ مِنْ رُكُوبِ الأَهْوَالِ، وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ تَكُنْ مِنْ أَهْلِهِ، وَأَنْكِرِ المُنْكَرَ بِيَدِكَ وَلِسَانِكَ، وَبَايِنْ(٤) مَنْ فَعَلَهُ بِجُهْدِكَ، وَجَاهِدْ فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ، وَلاَ تَأْخُذْكَ فِي اللهِ لَوْمَةُ لاَئم، وَخُضِ الْغَمَرَاتِ(٥) إِلَى الحَقِّ حَيْثُ كَانَ، وَتَفَقَّهْ فِي الدِّينِ، وَعَوِّدْ نَفْسَكَ الصَّبْرَ عَلَى الْمَكْرُوهِ، وَنِعْمَ الْخُلُقُ التَّصَبُّرُ، وَأَلْجِئ نَفْسَكَ فِي الأُمُورِ كُلِّهَا إِلَى إِلهِكَ، فَإِنَّكَ تُلْجِئُهَا إِلَى كَهْف(٦) حَرِيز(٧)، وَمَانِع عَزِيز، وَأَخْلِصْ فِي الْمَسْأَلَةِ لِرَبِّكَ، فَإِنَّ بِيَدِهِ الْعَطَاءَ وَالْحِرْمَانَ، وَأَكْثِرِ الاسْتِخَارَةَ(٨)، وَتَفَهَّمْ وَصِيَّتِي، وَلاَ تَذْهَبَنَّ [عَنْكَ]صَفْحًا(٩)، فَإِنَّ خَيْرَ الْقَوْلِ مَا نَفَعَ.

---

(١) قَرِّرْه بالفناء: اطلب منه الإقرار بالفناء.

(٢) بَصِّرْه: اجعله بصيرًا.

(٣) الفجائع: جمع فجيعة وهي المصيبة تفزع بحلولها.

(٤) بايِنْ: أي باعِدْ وجانِبْ.

(٥) الغَمَرات: الشدائد.

(٦) الكهف: الملجأ.

(٧) الحريز: الحافظ.

(٨) الاستخارة: إجالة الرأي في الامر قبل فعله لاختيار أفضل وجوهه.

(٩) صَفْحًا: جانبًا.

وَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ خَيْرَ فِي عِلْمٍ لاَ يَنْفَعُ، وَلاَ يُنْتَفَعُ بِعِلْمٍ لاَ يَحِقُّ[١] تَعَلُّمُهُ.

أَيْ بُنَيَّ، إِنِّي لَمَّا رَأَيْتُنِي قَدْ بَلَغْتُ سِنًّا[٢]، وَرَأَيْتُنِي أَزْدَادُ وَهْنًا[٣]، بَادَرْتُ بِوَصِيَّتِي إِلَيْكَ، وَأَوْرَدْتُ خِصَالًا مِنْهَا قَبْلَ أَنْ يَعْجَلَ بِي أَجَلِي دُونَ أَنْ أُفْضِيَ[٤] إِلَيْكَ بِمَا فِي نَفْسِي، أَوْ أَنْ أَنْقُصَ فِي رَأْيِي كَمَا نُقِصْتُ فِي جِسْمِي، أَوْ يَسْبِقَنِي إِلَيْكَ بَعْضُ غَلَبَاتِ الْهَوَى وَفِتَنِ الدُّنْيَا، فَتَكُونَ كَالصَّعْبِ[٥] النَّفُورِ[٦]، وَإِنَّمَا قَلْبُ الْحَدَثِ كَالأَرْضِ الْخَالِيَةِ مَا أُلْقِيَ فِيهَا مِنْ شَيْءٍ قَبِلَتْهُ، فَبَادَرْتُكَ بِالأَدَبِ قَبْلَ أَنْ يَقْسُو قَلْبُكَ، وَيَشْتَغِلَ لُبُّكَ، لِتَسْتَقْبِلَ بِجِدِّ رَأْيِكَ[٧] مِنَ الأَمْرِ مَا قَدْ كَفَاكَ أَهْلُ التَّجَارِبِ بُغْيَتَهُ[٨] وَتَجْرِبَتَهُ، فَتَكُونَ قَدْ كُفِيتَ مَؤُونَةَ الطَّلَبِ، وَعُوفِيتَ مِنْ عِلاَجِ التَّجْرِبَةِ، فَأَتَاكَ مِنْ ذلِكَ مَا قَدْ كُنَّا نَأْتِيهِ، وَاسْتَبَانَ[٩] لَكَ مَا رُبَّمَا أَظْلَمَ عَلَيْنَا مِنْهُ.

أَيْ بُنَيَّ، إِنِّي وَإِنْ لَمْ أَكُنْ عُمِّرْتُ عُمُرَ مَنْ كَانَ قَبْلِي، فَقَدْ نَظَرْتُ فِي أَعْمَالِهِمْ، وَفَكَّرْتُ فِي أَخْبَارِهِمْ، وَسِرْتُ فِي آثَارِهِمْ، حَتَّى عُدْتُ كَأَحَدِهِمْ، بَلْ كَأَنِّي بِمَا انْتَهَى إِلَيَّ مِنْ أُمُورِهِمْ قَدْ عُمِّرْتُ مَعَ أَوَّلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ، فَعَرَفْتُ صَفْوَ ذلِكَ مِنْ كَدَرِهِ، وَنَفْعَهُ مِنْ ضَرَرِهِ، فَاسْتَخْلَصْتُ لَكَ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ نَخِيلَتَهُ[١٠]، تَوَخَّيْتُ[١١] لَكَ جَمِيلَهُ، وَصَرَفْتُ عَنْكَ مَجْهُولَهُ، وَرَأَيْتُ حَيْثُ عَنَانِي مِنْ أَمْرِكَ

---

(١) لا يحقّ- بكسر الحاء وضمها-: أي لا يكون من الحقّ.

(٢) بَلَغْتُ سنًّا: أي وصلت النهاية من جهة السنّ.

(٣) الوَهْن: الضعف.

(٤) أفضي: ألقي إليك.

(٥) الفرس الصعب: غير المذلّل.

(٦) النّفُور: ضد الأنس.

(٧) جدّ رأيك: أي محقّقُه وثابته.

(٨) كفاه بُغْية الشيء: أغناه عن طلبه.

(٩) استبان: ظهر.

(١٠) النَخِيل: المختار المصفى.

(١١) تَوَخّيت: أي تحرّيت.

مَا يَعْنِي الْوَالِدَ الشَّفِيقَ، وَأَجْمَعْتُ عَلَيْهِ[١] مِنْ أَدَبِكَ أَنْ يَكُونَ ذلِكَ وَأَنْتَ مُقْبِلُ الْعُمُرِ مُقْتَبَلُ[٢] الدَّهْرِ، ذُونِيَّة سَلِيمَة، وَنَفْس صَافِيَة، وَأَنْ أَبْتَدِئَكَ بِتَعْلِيمِ كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَتَأْوِيلِهِ، وَشَرَائِعِ الإِسْلَامِ وَأَحْكَامِهِ، وَحَلَالِهِ وَحَرَامِهِ، لَا أُجَاوِزُ ذلِكَ[٣] بِكَ إِلَى غَيْرِهِ. ثُمَّ أَشْفَقْتُ[٤] أَنْ يَلْتَبِسَ عَلَيْكَ مَا اخْتَلَفَ النَّاسُ فِيهِ مِنْ أَهْوَائِهِمْ وَآرَائِهِمْ مِثْلَ الَّذِي الْتَبَسَ[٥] عَلَيْهِمْ، فَكَانَ إِحْكَامُ ذلِكَ عَلَى مَا كَرِهْتُ مِنْ تَنْبِيهِكَ لَهُ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ إِسْلَامِكَ إِلَى أَمْر لَا آمَنُ عَلَيْكَ بِهِ الْهَلَكَةَ[٦]، وَرَجَوْتُ أَنْ يُوَفِّقَكَ اللهُ فِيهِ لِرُشْدِكَ، وَأَنْ يَهْدِيَكَ لِقَصْدِكَ، فَعَهِدْتُ إِلَيْكَ وَصِيَّتِي هذِهِ.

وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ، أَنَّ أَحَبَّ مَا أَنْتَ آخِذٌ بِهِ إِلَيَّ مِنْ وَصِيَّتِي تَقْوَى اللهِ، وَالاقْتِصَارُ عَلَى مَا فَرَضَهُ اللهُ عَلَيْكَ، وَالأَخْذُ بِمَا مَضَى عَلَيْهِ الأَوَّلُونَ مِنْ آبَائِكَ، وَالصَّالِحُونَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ، فَإِنَّهُمْ لَمْ يَدَعُوا[٧] أَنْ نَظَرُوا لأَنْفُسِهِمْ كَمَا أَنْتَ نَاظِرٌ، وَفَكَّرُوا كَمَا أَنْتَ مُفَكِّرٌ، ثُمَّ رَدَّهُمْ آخِرُ ذلِكَ إِلَى الأَخْذِ بِمَا عَرَفُوا، وَالإِمْسَاكِ عَمَّا لَمْ يُكَلَّفُوا، فَإِنْ أَبَتْ نَفْسُكَ أَنْ تَقْبَلَ ذلِكَ دُونَ أَنْ تَعْلَمَ كَمَا عَلِمُوا فَلْيَكُنْ طَلَبُكَ ذلِكَ بِتَفَهُّمٍ وَتَعَلُّمٍ، لَا بِتَوَرُّطِ الشُّبُهَاتِ، وَعُلَقِ الْخُصُومَاتِ.

وَابْدَأْ قَبْلَ نَظَرِكَ فِي ذلِكَ بِالاسْتِعَانَةِ بِإِلهِكَ، وَالرَّغْبَةِ إِلَيْهِ فِي تَوْفِيقِكَ، وَتَرْكِ كُلِّ شَائِبَةٍ[٨] أَوْلَجَتْكَ[٩] فِي شُبْهَةٍ، أَوْ أَسْلَمَتْكَ إِلَى ضَلَالَةٍ.

---

(١) أجمعت عليه: عزمت.

(٢) مُقْتَبَل ـ بالفتح ـ من اقتبل الغلام فهو مقتبَل، وهو من الشواذّ، والقياس مُقْتَبِل بكسر الباء لأنّه اسم فاعل، ومُقْتَبَل الإنسان: أول عمره.

(٣) لا أجاوز ذلك: لا أتعدى بك.

(٤) أشفقت: أي خشيت وخفت.

(٥) التبس: غمض.

(٦) الهَلَكَة: الهَلاك.

(٧) لم يَدَعوا: لم يتركوا.

(٨) الشائِبَة: ما يشوب الفكر من شك وحيرة.

(٩) أَوْلجَتْك: أدخلتك.

فَإذا أَيقَنْتَ أَنْ قدْ صَفَا قَلْبُكَ فَخَشَعَ، وَتَمَّ رَأْيُكَ وَاجْتَمَعَ، وَكَانَ هَمُّكَ فِي ذلِكَ هَمًّا وَاحِدًا، فَانْظُرْ فِيما فَسَّرْتُ لَكَ، وَإِنْ أَنْتَ لَمْ يَجْتَمِعْ لَكَ مَا تُحِبُّ مِنْ نَفْسِكَ، وَفَرَاغِ نَظَرِكَ وَفِكْرِكَ، فَاعْلَمْ أَنَّكَ إِنَّمَا تَخْبِطُ الْعَشْوَاءَ(١)، وَتَتَوَرَّطُ(٢) الظَّلْمَاءَ، وَلَيْسَ طَالِبُ الدِّينِ مَنْ خَبَطَ وَلاَ مَنْ خَلَّطَ، وَالإِمْسَاكُ(٣)عَنْ ذلِكَ أَمْثَلُ(٤).

فَتَفَهَّمْ يَا بُنَيَّ وَصِيَّتِي، وَاعْلَمْ أَنَّ مَالِكَ الْمَوْتِ هُوَ مَالِكُ الحَيَاةِ، وَأَنَّ الْخَالِقَ هُوَ الْمُمِيتُ، وَأَنَّ الْمُفْنِيَ هُوَ الْمُعِيدُ، وَأَنَّ الْمُبْتَلِيَ هُوَ الْمُعَافِي، وَأَنَّ الدُّنْيَا لَم تَكُنْ لِتَسْتَقِرَّ إِلاَّ عَلَى مَا جَعَلَهَا اللهُ عَلَيْهِ مِنَ النَّعْمَاءِ، وَالاِبْتَلاءِ، وَالْجَزَاءِ فِي الْمَعَادِ، أَوْ مَاشَاءَ مِمَّا لاَ تعْلَمُ، فَإِنْ أَشْكَلَ عَلَيْكَ شَيْءٌ مِنْ ذلِكَ فَاحْمِلْهُ عَلَى جَهَالَتِكَ بِهِ، فَإِنَّكَ أَوَّلُ مَا خُلِقْتَ جَاهِلاً ثُمَّ عَلِمْتَ، وَمَا أَكْثَرَ مَا تَجْهَلُ مِنَ الاَمْرِ، وَيَتَحَيَّرُ فِيهِ رَأْيُكَ، وَيَضِلُّ فِيهِ بَصَرُكَ ثُمَّ تُبْصِرُهُ بَعْدَ ذلِكَ! فَاعْتَصِمْ بِالَّذِي خَلَقَكَ وَرَزَقَكَ وَسَوَّاكَ، وَلْيَكُنْ لَهُ تَعَبُّدُكَ، وَإِلَيْهِ رَغْبَتُكَ، وَمِنْهُ شَفَقَتُكَ(٥) .

وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ أَحَدًا لَمْ يُنْبِئْ عَنِ اللهِ سُبْحَانَهُ كَمَا أَنْبَأَ عَنْهُ نَبِيُّنَا ﷺ فَارْضَ بِهِ رَائِدًا(٦)، وَإِلَى النَّجَاةِ قَائِدًا، فَإِنِّي لَمْ آلُكَ نَصِيحَةً(٧)، وَإِنَّكَ لَنْ تَبْلُغَ فِي النَّظَرِ لِنَفْسِكَ - وَإِنِ اجْتَهَدْتَ - مَبْلَغَ نَظَرِي لَكَ.

وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ، أَنَّهُ لَوْ كَانَ لِرَبِّكَ شَرِيكٌ لأَتَتْكَ رُسُلُهُ، وَلَرَأَيْتَ آثَارَ مُلْكِهِ وَسُلْطَانِهِ، وَلَعَرَفْتَ أَفْعَالَهُ وصِفَاتِهِ، وَلكِنَّهُ إِلهٌ وَاحِدٌ كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ، لاَ يُضَادُّهُ

(١) العَشْواء: الضعيفة البصر، أي تخبط خبط الناقة العشواء لا تأمن أن تسقط فيما لا خلاص منه.

(٢) تورّط الأمر: دخل فيه على صعوبة في التخلّص منه.

(٣) الإمساك عن الشيء: حبس النفس عنه.

(٤) أمثل: أفضل.

(٥) شفقتك: خوفك.

(٦) الرائد: من ترسله في طلب الكلأ ليتعرّف موقعه، والرسول قد عرف عن الله وأخبرنا فهو رائد سعادتنا.

(٧) لم آلُكَ نصيحةً: أي لم أقصّر في نصيحتك..

فِي مُلْكِهِ أَحَدٌ، وَلاَ يَزُولُ أَبَدًا وَلَمْ يَزَلْ، أَوَّلٌ قَبْلَ الأَشْيَاءِ بِلاَ أَوَّلِيَّة، وَآخِرٌ بَعْدَ الاَشْيَاءِ بِلاَ نِهَايَة، عَظُمَ عَنْ أَنْ تَثْبُتَ رُبُوبِيَّتُهُ بِإحَاطَةِ قَلْب أَوْ بَصَر.

فَإِذَا عَرَفْتَ ذلِكَ فَافْعَلْ كَمَا يَنْبَغِي لِمِثْلِكَ أَنْ يَفْعَلَهُ فِي صِغَرِ خَطَرِهِ[١]، وَقِلَّةِ مَقْدِرَتِهِ، وَكَثْرَةِ عَجْزِهِ، عَظِيمِ حَاجَتِهِ إِلَى رَبِّهِ، فِي طَلَبِ طَاعَتِهِ، وَالرَّهْبَةِ مِنْ عُقُوبَتِهِ، وَالشَّفَقَةِ مِنْ سُخْطِهِ، فَإِنَّهُ لَمْ يَأْمُرْكَ إِلاَّ بِحَسَن، وَلَمْ يَنْهَكَ إِلاَّ عَنْ قَبِيح.

يَا بُنَيَّ، إِنِّي قَدْ أَنْبَأْتُكَ عَنِ الدُّنْيَا وَحَالِهَا، وَزَوَالِهَا وَانْتِقَالِهَا، وَأَنْبَأْتُكَ عَنِ الاْخِرَةِ وَمَاأُعِدَّ لأَهْلِهَا فِيهَا، وَضَرَبْتُ لَكَ فِيهِمَا الأَمْثَالَ، لِتَعْتَبِرَ بِهَا، وَتَحْذُوَ عَلَيْهَا.

إِنَّمَا مَثَلُ مَنْ خَبَرَ الدُّنْيَا[٢] كَمَثَلِ قَوْم سَفْر[٣]، نَبَا بِهِمْ مَنْزِلٌ[٤] جَدِيبٌ[٥]، فأَمُّوا[٦] مَنْزِلًا خَصِيبًا وَجَنَابًا[٧] مَرِيعًا[٨] فَاحْتَمَلُوا وَعْثَاءَ[٩] الطَّرِيقِ، وَفِرَاقَ الصَّدِيقِ، وَخُشُونَةَ السَّفَرِ، وَجُشُوبَةَ[١٠] الْمَطْعَم، لِيَأْتُوا سَعَةَ دَارِهِمْ، وَمَنْزِلَ قَرَارِهِمْ، فَلَيْسَ يَجِدُونَ لِشَيْء مِنْ ذلِكَ أَلَمًا، وَلاَ يَرَوْنَ نَفَقَةً مَغْرَمًا، وَلاَ شَيْءَ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِمَّا قَرَّبَهُمْ مِنْ مَنْزِلِهِمْ، وَأَدْنَاهُمْ مِنْ مَحَلِّهِمْ.

وَمَثَلُ مَنِ اغْتَرَّ بِهَا كَمَثَلِ قَوْم كَانُوا بِمَنْزِل خَصِيب، فَنَبا بِهِمْ إِلَى مَنْزِل جَدِيب، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إِلَيْهِمْ وَلاَ أَفْظَعَ عِنْدَهُمْ مِنْ مُفَارَقَةِ مَا كَانُوا فِيهِ، إِلَى مَا يَهْجُمُونَ عَلَيْهِ[١١]، وَيَصِيرُونَ إِلَيْهِ.

---

(١) خطره: أي قدره.

(٢) خَبَرَ الدنيا: عرفها كما هي بامتحان أحوالها.

(٣) السَفْر- بفتح فسكون-: المسافرون.

(٤) نَبَا المنزل بأهله: لم يوافقهم المقام فيه لوخامته.

(٥) الجَدِيب: المُقْحِط لا خير فيه.

(٦) أمّوا: قصدوا.

(٧) الجَناب: الناحية.

(٨) المَريع - بفتح فكسر-: كثير العشب.

(٩) وَعْثاء السفر: مشقّته.

(١٠) الجُشُوبة -بضم الجيم-: الغِلَظ.

(١١) هجم عليه: انتهى إليه بغتة.

يَا بُنَيَّ، اجْعَلْ نَفْسَكَ مِيزَانًا فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ غَيْرِكَ، فَأَحْبِبْ لِغَيْرِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، وَاكْرَهْ لَهُ مَا تَكْرَهُ لَهَا، وَلاَ تَظْلِمْ كَمَا لاَ تُحِبُّ أَنْ تُظْلَمَ، وَأَحْسِنْ كَمَا تُحِبُّ أَنْ يُحْسَنَ إِلَيْكَ، وَاسْتَقْبِحْ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَسْتَقْبِحُ مِنْ غَيْرِكَ، وَارْضَ مِنَ النَّاسِ بِمَا تَرْضَاهُ لَهُمْ مِنْ نَفْسِكَ، وَلاَ تَقُلْ مَا لاَ تَعْلَمُ وَإِنْ قَلَّ مَا تعْلَمُ، وَلاَ تَقُلْ مَا لاَ تُحِبُّ أَنْ يُقَالَ لَكَ.

وَاعْلَمْ، أَنَّ الإِعْجَابَ[١] ضِدُّ الصَّوَابِ، وَآفَةُ الأَلْبَابِ[٢]. فَاسْعَ فِي كَدْحِكَ[٣]، وَلاَ تَكُنْ خَازِنًا لِغَيْرِكَ[٤]، وَإِذَا أَنْتَ هُدِيتَ لِقَصْدِكَ فَكُنْ أَخْشَعَ مَا تَكُونُ لِرَبِّكَ.

وَاعْلَمْ، أَنَّ أَمَامَكَ طَرِيقًا ذَا مَسَافَة بَعِيدَة، وَمَشَقَّة شَدِيدَة، وَأَنَّهُ لاَ غِنَى بِكَ فِيهِ عَنْ حُسْنِ الارْتِيَادِ[٥]، وَقَدْرِ بَلاَغِكَ[٦] مِنَ الزَّادِ، مَعَ خِفَّةِ الظَّهْرِ، فَلاَ تَحْمِلَنَّ عَلَى ظَهْرِكَ فَوْقَ طَاقَتِكَ، فَيَكُونَ ثِقْلُ ذلِكَ وَبَالاً عَلَيْكَ، وَإِذَا وَجَدْتَ مِنْ أَهْلِ الْفَاقَةِ[٧] مَنْ يَحْمِلُ لَكَ زَادَكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَيُوَافِيكَ بِهِ غَدًا حَيْثُ تَحْتَاجُ إِلَيْهِ، فَاغْتَنِمْهُ وَحَمِّلْهُ إِيَّاهُ، وَأَكْثِرْ مِنْ تَزْوِيدِهِ وَأَنْتَ قَادِرٌ عَلَيْهِ، فَلَعَلَّكَ تَطْلُبُهُ فَلاَ تَجِدُهُ، وَاغْتَنِمْ مَنِ اسْتَقْرَضَكَ فِي حَالِ غِنَاكَ، لِيَجْعَلَ قَضَاءَهُ لَكَ فِي يَوْمِ عُسْرَتِكَ.

وَاعْلَمْ، أَنَّ أَمَامَكَ عَقَبَةً كَؤُودًا[٨]، الْمُخِفُّ[٩] فِيهَا أَحْسَنُ حَالاً مِنَ الْمُثْقِلِ[١٠]، وَالْمُبْطِئُ عَلَيْهَا أَقْبَحُ حَالاً مِنَ الْمُسْرِعِ، وَأَنَّ مَهْبِطَهَا بِكَ لاَ

---

(١) الإعجاب: استحسان ما يصدر عن النفس مطلقًا.

(٢) آفة: علّة. والألباب: العقول.

(٣) الكَدْح: أشدّ السعي.

(٤) خازنًا لغيرك: تجمع المال ليأخذه الوارثون بعدك.

(٥) الارتياد: الطلب. وحسنه: إتيانه من وجهه.

(٦) البَلاَغ - بالفتح -: الكِفاية.

(٧) الفاقة: الفقر.

(٨) كؤودًا: صعبة المرتقى.

(٩) المُخِفّ - بضم فكسر -: الذي خفّف حمله.

(١٠) المُثْقِل: هو من أثقل ظهره بالأوزار.

مَحالَةَ عَلَى جَنَّة أَوْ عَلَى نَار، فَارْتَدْ[١] لِنَفْسِكَ قَبْلَ نُزُولِكَ، وَوَطِّئِ الْمَنْزِلَ قَبْلَ حُلُولِكَ، فَلَيْسَ بَعْدَ الْمَوْتِ مُسْتَعْتَبٌ[٢]، وَلاَ إِلَى الدُّنْيَا مُنْصَرَفٌ[٣].

وَاعْلَمْ، أَنَّ الَّذِي بِيَدِهِ خَزَائِنُ السَّمواتِ وَالاَرْضِ قَدْ أَذِنَ لَكَ فِي الدُّعَاءِ، وَتَكَفَّلَ لَكَ بِالإِجَابَةِ، أَمَرَكَ أَنْ تَسأَلَهُ لِيُعْطِيَكَ، وَتَسْتَرْحِمَهُ لِيَرْحَمَكَ، وَلَمْ يَجْعَلْ بيْنَكَ وَبيْنَهُ مَنْ يَحْجُبُكَ عَنْهُ، وَلَمْ يُلْجِئْكَ إِلَى مَنْ يَشْفَعُ لَكَ إِلَيْهِ، وَلَمْ يَمْنَعْكَ إِنْ أَسَأْتَ مِنَ التَّوْبَةِ، وَلَمْ يُعَاجِلْكَ بَالنِّقْمَةِ، [وَلَمْ يُعَيِّرْك بِالإِنَابَةِ[٤]]، وَلَمْ يَفْضَحْكَ حَيْثُ الْفَضِيحَةُ [بِكَ أَوْلَى]، وَلَمْ يُشدِّدْ عَلَيْكَ فِي قَبُولِ الإِنَابَةِ، وَلَمْ يُنَاقِشْكَ بِالْجَرِيمَةِ، وَلَمْ يُؤْيِسْكَ مِنَ الرَّحْمَةِ، بَلْ جَعَلَ نُزُوعَكَ[٥] عَنِ الذَّنْبِ حَسَنَةً، وَحَسَبَ سَيِّئَتَكَ وَاحِدَةً، وَحَسَبَ حَسَنَتَكَ عَشْرًا، وَفَتَحَ لَكَ بَابَ الْمَتَابِ، فَإِذَا نَادَيْتَهُ سَمِعَ نِدَاكَ، وَإِذَا نَاجَيْتَهُ عَلِمَ نَجْوَاكَ[٦]، فَأَفْضَيْتَ[٧] إِلَيْهِ بِحَاجَتِكَ، وَأَبْثَثْتَهُ[٨] ذَاتَ نَفْسِكَ[٩]، وَشَكَوْتَ إِلَيْهِ هُمُومَكَ، وَاسْتَكْشَفْتَهُ كُرُوبَكَ[١٠]، وَاسْتَعَنْتَهُ عَلَى أُمُورِكَ، وَسَأَلْتَهُ مِنْ خَزَائِنِ رَحْمَتِهِ مَا لاَ يَقْدِرُ عَلَى إِعْطَائِهِ غَيْرُهُ، مِنْ زِيَادَةِ الأَعْمَارِ، وَصِحَّةِ الأَبْدَانِ، وَسَعَةِ الأَرْزَاقِ.

ثُمَّ جَعَلَ فِي يَدَيْكَ مَفاتِيحَ خَزَائِنِهِ بِمَا أَذِنَ لَكَ فِيهِ مِنْ مَسْأَلَتِهِ، فَمَتَى شِئْتَ اسْتَفْتَحْتَ بِالدُّعَاءِ أَبْوَابَ نِعَمِهِ، وَاسْتَمْطَرْتَ شَآبِيبَ[١١] رَحْمَتِهِ، فَلاَ

---

(١) ارْتَدِه: ابعث رائدًا من طيّبات الأعمال توقّفك الثقة به على جودة المنزل.

(٢) المُسْتَعْتَب: مصدر ميمي من استعتب، والاستعتاب: الاسترضاء، والمراد أنّ الله لا يسترضي بعد إغضابه إلاّ باستئناف العمل.

(٣) المُنْصَرَف: مصدر ميمي من انصرف، والمراد لا انصراف إلى الدنيا بعد الموت.

(٤) الإنابة: الرجوع إلى الله.

(٥) نُزوعك: رجوعك.

(٦) المُنَاجاة: المكالمة سرًا.

(٧) أفْضَيْت: ألقيت.

(٨) أبثثته: كاشفته.

(٩) ذات النفس: حالتها.

(١٠) اسْتَكْشَفْته كروبك: طلبت كشف غمومك.

(١١) شآبيب: جمع الشؤبوب بالضمّ، وهو الدفعة من المطر، وما أشبه رحمة الله بالمطر ينزل على الأرض الموات فيحييها.

يُقَنِّطَنَّكَ[١] إِبْطَاءُ إِجَابَتِهِ، فَإِنَّ الْعَطِيَّةَ عَلَى قَدْرِ النِّيَّةِ، وَرُبَّمَا أُخِّرَتْ عَنْكَ الإِجَابَةُ، لِيَكُونَ ذلِكَ أَعْظَمَ لاجْرِ السَّائِلِ، وَأَجْزَلَ لِعَطَاءِ الامِلِ، وَرُبَّمَا سَأَلْتَ الشَّيْءَ فَلاَ تُؤْتَاهُ، وَأُوتِيتَ خَيْرًا مِنْهُ عَاجِلًا أَوْ آجِلًا، أَوْ صُرِفَ عَنْكَ لِمَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ، فَلَرُبَّ أَمْرٍ قَدْ طَلَبْتَهُ فِيهِ هَلاَكُ دِينِكَ لَوْ أُوتِيتَهُ، فَلْتَكُنْ مَسْأَلَتُكَ فِيمَا يَبْقَى لَكَ جَمَالُهُ، وَيُنْفَى عَنْكَ وَبَالُهُ، فَالْمَالُ لاَ يَبْقَى لَكَ وَلاَ تَبْقَى لَهُ.

وَاعْلَمْ أَنَّكَ إِنَّمَا خُلِقْتَ لِلآخِرَةِ لاَ لِلدُّنْيَا، وَلِلْفَنَاءِ لاَ لِلْبَقَاءِ، وَلِلْمَوْت لاَ لِلْحَيَاةِ، وَأَنَّكَ فِي مَنْزِلِ قُلْعَة[٢]، وَدَارِ بُلْغَة[٣]، وَطَرِيقٍ إِلَى الآخِرَةِ، وَأَنَّكَ طَرِيدُ الْمَوْتِ الَّذِي لاَ يَنْجُو مِنْهُ هَارِبُهُ، وَلاَ بُدَّ أَنَّهُ مُدْرِكُهُ، فَكُنْ مِنْهُ عَلَى حَذَرِ أَنْ يُدْرِكَكَ وَأَنْتَ عَلَى حَال سَيِّئَة، قَدْ كُنْتَ تُحَدِّثُ نَفْسَكَ مِنْهَا بِالتَّوْبَةِ، فَيَحُولَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ ذلِكَ، فَإِذَا أَنْتَ قَدْ أَهْلَكتَ نَفْسَكَ.

يَا بُنَيَّ، أَكْثِرْ مِنْ ذِكْرِ الْمَوْتِ، وَذِكْرِ مَا تَهْجُمُ عَلَيْهِ، وَتُفْضِي بَعْدَ الْمَوْتِ إِلَيْهِ، حَتَّى يَأْتِيَكَ وَقَدْ أَخَذْتَ مِنْهُ حِذْرَكَ[٤]، وَشَدَدْتَ لَهُ أَزْرَكَ[٥]، وَلاَ يَأْتِيَكَ بَغْتَةً فَيَبْهَرَكَ[٦].

وَإِيَّاكَ أَنْ تَغْتَرَّ بِمَا تَرَى مِنْ إِخْلاَدِ أَهْلِ الدُّنْيَا[٧] إِلَيْهَا، وَتَكَالُبِهِمْ[٨] عَلَيْهَا، فَقَدْ نَبَّأَكَ اللهُ عَنْهَا، وَنَعَتْ[٩] لَكَ نَفْسَهَا، وَتَكَشَّفَتْ لَكَ عَنْ مَسَاوِيهَا،

---

(١) القنوط: اليأس.

(٢) قُلْعة - بضم القاف وسكون اللام وبضمّتين وبضمّ ففتح -: يقال منزل قلعة أي لا يُملَك لنازله، أو لا يدري متى ينتقل عنه.

(٣) البُلْغة: الكفاية وما يتبلغ به من العيش.

(٤) الحِذْر – بالكسر -: الاحتراز والاحتراس.

(٥) الأَزْر – بالفتح -: القوّة.

(٦) بهر – كمنع -: غلب، أي يغلبك على أمرك.

(٧) إخلاد أهل الدنيا: سكونهم إليها.

(٨) التكالب: التواثب.

(٩) نعاه: أخبر بموته، والدنيا تخبر بحالها عن فنائها.

فَإِنَّمَا أَهْلُهَا كِلاَبٌ عَاوِيَةٌ، وَسِبَاعٌ ضَارِيَةٌ(١)، يَهِرُّ(٢) بَعْضُهَا بَعْضًا، يَأْكُلُ عَزِيزُهَا ذَلِيلَهَا، وَيَقْهَرُ كَبِيرُهَا صَغِيرَهَا، نَعَمٌ(٣) مُعَقَّلَةٌ(٤)، وَأُخْرَى مُهْمَلَةٌ، قَدْ أَضَلَّتْ(٥) عُقُولَهَا، رَكِبَتْ مَجْهُولَهَا(٦)، سُرُوحُ(٧) عَاهَة(٨) بِوَادٍ وَعْثٍ(٩)، لَيْسَ لَهَا رَاعٍ يُقِيمُهَا، وَلاَ مُسِيمٌ(١٠) يُسِيمُهَا، سَلَكَتْ بِهِمُ الدُّنْيَا طَرِيقَ الْعَمَى، وَأَخَذَتْ بِأَبْصَارِهِمْ عَنْ مَنَارِ الْهُدَى، فَتاهُوا فِي حَيْرَتِهَا، وَغَرِقُوا فِي نِعْمَتِهَا، وَاتَّخَذُوهَا رَبًّا، فَلَعِبَتْ بِهِمْ وَلَعِبُوا بِهَا، وَنَسُوا مَا وَرَاءَهَا رُوَيْدًا يُسْفِرُ(١١) الظَّلاَمُ، كَأَنْ قَدْ وَرَدَتِ الأَظْعَانُ(١٢)، يُوشِكُ مَنْ أَسْرَعَ أَنْ يَلْحَقَ!

وَاعْلَمْ، أَنَّ مَنْ كَانَتْ مَطِيَّتُهُ اللَّيْلَ والنَّهارَ، فَإِنَّهُ يُسَارُ بِهِ وَإِنْ كَانَ وَاقِفًا، وَيَقْطَعُ الْمَسَافَةَ وَإِنْ كَانَ مُقِيمًا وَادِعًا(١٣).

وَاعْلَمْ يَقِينًا، أَنَّكَ لَنْ تَبْلُغَ أَمَلَكَ، وَلَنْ تَعْدُوَ أَجَلَكَ، وَأَنَّكَ فِي سَبِيلِ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ، فَخَفِّضْ(١٤) فِي الطَّلَبِ، وَأَجْمِلْ(١٥) فِي الْمُكْتَسَبِ، فَإِنَّهُ رُبَّ طَلَب

---

(١) ضارية: مولعة بالافتراس.

(٢) يهرّ - بكسر الهاء -: يعوي وينبح، وأصلها هَرير الكلب، وهو صوته دون حاجة من قلة صبره على البرد، فقد شبّه الإمام أهل الدنيا بالكلاب العاوية.

(٣) النّعَم ـ بالتحريك ـ: الإبل.

(٤) مُعقّلَة ـ من عَقّل البعير بالتشديد ـ: شدّ وَظِيفَهُ إلى ذراعه.

(٥) أضلّت: أضاعت.

(٦) مجهولها: طريقها المجهول لها.

(٧) السُروح ـ بالضم ـ: جمع سَرْح ـ بفتح فسكون ـ وهو المال السارح السائم من إبل ونحوها.

(٨) العاهة: الافة، فالمراد بقوله: سروح عاهة، أنهم يسرحون لرعي الآفات.

(٩) الوَعْث: الرخو يصعب السير فيه.

(١٠) مُسيم: من أسام الدابة يسيمها: سرحها إلى المرعى..

(١١) يُسْفِر: يكشف.

(١٢) الأظْعان: جمع ظعينة، وهي الهودج تركب فيه المرأة، عبر به عن المسافرين في طريق الدنيا إلى الاخرة.

(١٣) الوادع: الساكن المستريح.

(١٤) خَفِّضْ: أمر من خَفّضَ - بالتشديد - أي ارفق.

(١٥) اجمل في كَسْبِه: أي سعى سعيًا جميلًا، لا يحرص فيمنع الحقّ، ولا يطمع فيتناول ما ليس بحق.

قَدْ جرَّ إِلَى حرَب[١]، فَلَيْسَ كُلُّ طَالِب بِمَرْزُوق، وَلاَ كُلُّ مُجْمِل بِمَحْرُوم، وَأَكْرِمْ نَفْسَكَ عَنْ كُلِّ دَنِيَّة[٢] وَإِنْ سَاقَتْكَ إِلَى الرَّغَائِبِ[٣]، فَإِنَّكَ لَنْ تَعْتَاضَ بِمَا تَبْذُلُ مِنْ نَفْسِكَ عِوَضًا[٤]. وَلاَ تَكُنْ عَبْدَ غَيْرِكَ وَقَدْ جَعَلَكَ اللهُ حُرًّا. وَمَا خَيْرُ خَيْر لاَ يُنَالُ إِلاَّ بِشَرٍّ، وَيُسْر[٥] لاَ يُنَالُ إِلاَّ بِعُسْر[٦]؟!

وَإِيَّاكَ أَنْ تُوجِفَ[٧] بِكَ مَطَايَا[٨] الطَّمَعِ، فَتُورِدَكَ مَنَاهِلَ[٩] الْهَلَكَةِ[١٠]. وَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَلاَّ يَكُونَ بَيْنَكَ بَيْنَ اللهِ ذُو نِعْمَة فَافْعَلْ، فَإِنَّكَ مُدْرِكٌ قِسْمَكَ، وَآخِذٌ سَهْمَكَ، وَإِنَّ الْيَسِيرَ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ أَكْرَمُ أَعْظَمُ مِنَ الْكَثِيرِ مِنْ خَلْقِهِ وَإِنْ كَانَ كُلٌّ مِنْهُ، وَتَلاَفِيكَ[١١] مَا فَرطَ[١٢] مِنْ صَمْتِكَ أَيْسَرُ مِنْ إِدْرَاكِكَ مَا فَاتَ[١٣] مِنْ مَنْطِقِكَ، وَحِفْظُ مَا فِي الْوِعَاءِ بِشَدِّ الْوِكَاءِ[١٤]، وَحِفْظُ مَا فِي يَدَيْكَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ طَلَب مَا فِي يَدَيْ غَيْرِكَ، وَمَرَارَةُ الْيَأْس خَيْرٌ مِنَ الطَّلَبِ إِلَى النَّاسِ، وَالْحِرْفَةُ مَعَ الْعِفَّةِ خَيْرٌ مِنَ الْغِنَى مَعَ الْفُجُورِ، وَالْمَرْءُ أَحْفَظُ لِسِرِّهِ[١٥]، وَرُبَّ سَاع فِيما يَضُرُّهُ! مَنْ أَكْثَرَ أَهْجَرَ[١٦]، وَمَنْ تَفَكَّرَ أَبْصَرَ، قَارِنْ أَهْلَ الْخَيْرِ تَكُنْ مِنْهُمْ، وَبَايِنْ

(١) الحَرَب ـ بالتحريك ـ: سلب المال.

(٢) الدَنِيّة: الشيء الحقير المبتذل.

(٣) الرغائب: جمع رغيبة، وهي ما يرغب في اقتنائه من مال وغيره.

(٤) عِوَضًا: بدلًا.

(٥) اليُسْر: السهولة، والمراد سعة العيش.

(٦) العُسْر: الصعوبة، والمراد ضيق العيش..

(٧) تُوجِف: تسرع.

(٨) المَطَايَا: جمع مطية، وهي ما يركب ويمتطى من الدواب ونحوها.

(٩) المَناهل: ما ترده الإبل ونحوها للشرب.

(١٠) الهلكة: الهلاك والموت..

(١١) التلافي: التدارك لا صلاح ما فسد أو كاد.

(١٢) ما فرط أي: قصر عن إفادة الغرض أو إنالة الوطَر.

(١٣) إدراك ما فات: هو اللحاق به لأجل استرجاعه، وفات: أي سبق إلى غير عودة.

(١٤) بشدّ وكائها: أي رباطها

(١٥) أحْفَظُ لسرّه: أشد صونًا له وحرصًا على عدم البوح به.

(١٦) أهجرَ إهجارًا وهُجْرًا ـ بالضم ـ: هذى يهذي في كلامه.

أَهْلَ الشَّرِّ تَبِنْ عَنْهُمْ، بِئْسَ الطَّعَامُ الْحَرَامُ! وَظُلْمُ الضَّعِيفِ أَفْحَشُ الظُّلْمِ، إِذَا كَانَ الرِّفْقُ خُرْقًا[١] كَانَ الْخُرْقُ رِفْقًا، رُبَّمَا كَانَ الدَّوَاءُ دَاءً، وَالدَّاءُ دَوَاءً، وَرُبَّمَا نَصَحَ غَيْرُ النَّاصِحِ، وَغَشَّ الْمُسْتَنْصَحُ[٢].

وَإِيَّاكَ وَالاتِّكَالَ عَلَى الْمُنَى[٣]، فَإِنَّهَا بَضَائِعُ النَّوْكَى[٤]، وَالْعَقْلُ حِفْظُ التَّجَارِبِ، وَخَيْرُ مَا جَرَّبْتَ مَا وَعَظَكَ، بَادِرِ الْفُرْصَةَ قَبْلَ أَنْ تَكُونَ غُصَّةً، لَيْسَ كُلُّ طَالِبٍ يُصِيبُ، وَلاَ كُلُّ غَائِبٍ يَؤُوبُ، وَمِنَ الْفَسَادِ إِضَاعَةُ الزَّادِ، وَمَفْسَدَةُ الْمَعَادِ، وَلِكُلِّ أَمْرٍ عَاقِبَةٌ، سَوْفَ يَأْتِيكَ مَا قُدِّرَ لَكَ، التَّاجِرُ مُخَاطِرٌ، وَرُبَّ يَسِيرٍ أَنْمَى مِنْ كَثِيرٍ! لاَ خَيْرَ فِي مُعِينٍ مَهِينٍ[٥]، وَلاَ فِي صَدِيقٍ ظَنِينٍ[٦]، سَاهِلِ الدَّهْرَ[٧] مَا ذَلَّ لَكَ قَعُودُهُ[٨]، وَلاَ تُخَاطِرْ بِشَيءٍ رَجَاءَ أَكْثَرَ مِنْهُ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَجْمَحَ بِكَ مَطِيَّةُ اللَّجَاجِ[٩].

احْمِلْ نَفْسَكَ مِنْ أَخِيكَ عِنْدَ صَرْمِهِ[١٠] عَلَى الصِّلَةِ[١١]، وَعِنْدَ صُدُودِهِ[١٢] عَلَى اللَّطَفِ[١٣] وَالْمُقَارَبَةِ، وَعِنْدَ جُمُودِهِ[١٤] عَلَى الْبَذْلِ[١٥]، وَعِنْدَ تَبَاعُدِهِ عَلَى

---

(١) الخُرْق ـ بالضم ـ: العنف.

(٢) المُسْتَنْصَح ـ اسم مفعول ـ: المطلوب منه النصح.

(٣) المُنى ـ جمع منية بضم فسكون ـ: ما يتمناه الشخص لنفسه ويعلل نفسه باحتمال الوصول إليه.

(٤) النّوكى: جمع أنوك، وهو كالأحمق وزنًا ومعنى.

(٥) مَهين - بفتح الميم -: بمعنى حقير، والحقير لا يصلح أن يكون مُعينًا.

(٦) الظَنين – بالظاء -: المتهم.

(٧) ساهِلِ الدهر: خذ حظّك منه بسهولة ويسر.

(٨) القَعُود ـ بفتح أوله ـ: الجمل الذي يقتعده الراعي في كلّ حاجته، وللفصيل، أي: ساهل الدهر ما دام منقادًا وخذ حظّك من قياده.

(٩) المَطِيّة: ما يركب ويمتطي. واللَجاج ـ بالفتح ـ: الخصومة.

(١٠) صَرْمِهِ: قطيعته.

(١١) الصِلَة: الوصال، وهو ضد القطيعة.

(١٢) الصُدود: الهجر.

(١٣) اللّطَف ـ بفتح اللام والطاء ـ: الاسم من ألطفه بكذا أي برّه به.

(١٤) جموده: بخله.

(١٥) البَذْل: العطاء

الدُّنُوِّ، وَعِنْدَ شِدَّتِهِ عَلَى اللِّينِ، وَعِنْدَ جُرْمِهِ عَلَى الْعُذْرِ، حَتَّى كَأَنَّكَ لَهُ عَبْدٌ، وَكَأَنَّهُ ذُونِعْمَة عَلَيْكَ.

وَإِيَّاكَ أَنْ تَضَعَ ذلِكَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، أَوْ أَنْ تَفْعَلَهُ بِغَيْرِ أَهْلِهِ، لاَ تَتَّخِذَنَّ عَدُوَّ صَدِيقِكَ صَدِيقًا فَتُعَادِيَ صَدِيقَكَ، وَامْحَضْ أَخَاكَ النَّصِيحَةَ، حَسَنَةً كَانَتْ أَمْ قَبِيحَةً، وَتَجَرَّعِ الْغَيْظَ[١]، فَإِنِّي لَمْ أَرَ جُرْعَةً أَحْلَى مِنْهَا عَاقِبَةً، وَلاَ أَلَذَّ مَغَبَّةً[٢]، وَلِنْ[٣] لِمَنْ غَالَظَكَ[٤]، فَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَلِينَ لَكَ، وَخُذْ عَلَى عَدُوِّكَ بِالْفَضْلِ فَإِنَّهُ أَحْلَى الظَّفَرَيْنِ، وَإِنْ أَرَدْتَ قَطِيعَةَ أَخِيكَ فَاسْتَبْقِ لَهُ مِنْ نَفْسِكَ بَقِيَّةً يَرْجِعُ إِلَيْهَا إِنْ بَدَا لَهُ ذلِكَ يَوْمًا مَا، وَمَنْ ظَنَّ بِكَ خَيْرًا فَصَدِّقْ ظَنَّهُ، وَلاَ تُضِيعَنَّ حَقَّ أَخِيكَ اتِّكَالًا عَلَى مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ، فَإِنَّهُ لَيْسَ لَكَ بِأَخ مَنْ أَضَعْتَ حَقَّه، وَلاَ يكُنْ أَهْلُكَ أَشْقَى الْخَلْقِ بِكَ وَلاَ تَرْغَبَنَّ فِيمَنْ زَهِدَ فِيكَ، وَلاَ يَكُونَنَّ أَخُوكَ أَقْوَى عَلَى قَطِيعَتِكَ مِنْكَ عَلَى صِلَتِهِ، وَلاَ تَكُونَنَّ عَلَى الإِسَاءَةِ أَقْوَى مِنْكَ عَلَى الإِحْسَانِ، وَلاَ يَكْبُرَنَّ عَلَيْكَ ظُلْمُ مَنْ ظَلَمَكَ، فَإِنَّهُ يَسْعَى فِي مَضَرَّتِهِ وَنَفْعِكَ، وَلَيْسَ جَزَاءُ مَنْ سَرَّكَ أَنْ تَسُوءَهُ.

وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ، أَنَّ الرِّزْقَ رِزْقَانِ: رِزْقٌ تَطْلُبُهُ، وَرِزْقٌ يَطْلُبُكَ، فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَأْتِهِ أَتَاكَ، مَا أَقْبَحَ الْخُضُوعَ عِنْدَ الْحَاجَةِ، وَالْجَفَاءَ عِنْدَ الْغِنَى! إِنَّمَا لَكَ مِنْ دُنْيَاكَ، مَا أَصْلَحْتَ بِهِ مَثْوَاكَ[٥]، وَإِنْ جَزِعْتَ عَلَى مَا تَفَلَّتَ[٦] مِنْ يَدَيْكَ، فَاجْزَعْ عَلَى كُلِّ مَا لَمْ يَصِلْ إِلَيْكَ.

اسْتَدِلَّ عَلَى مَا لَمْ يَكُنْ بِمَا قَدْ كَانَ، فَإِنَّ الأُمُورَ أَشْبَاهٌ، وَلاَ تَكُونَنَّ مِمَّنْ لاَ تَنْفَعُهُ الْعِظَةُ إِلاَّ إِذَا بَالَغْتَ فِي إِيلاَمِهِ، فَإِنَّ الْعَاقِلَ يَتَّعِظُ بِالآدَبِ، وَالْبَهَائِمَ لاَ تَتَّعِظُ إِلاَّ بِالضَّرْبِ.

---

(١) الغيظ: الغضب الشديد.

(٢) المَغَبّة ـ بفتحتين ثمّ باء مشدّدة ـ: بمعنى العاقبة.

(٣) لِنْ: أمر من اللين ضدّ الغلظ والخشونة.

(٤) غالظلك: عاملك بغلظ وخشونة.

(٥) مثواك: مُقامك، من ثوى يثوي: أقام يقيم، والمراد ـ هنا ـ منزلتك من الكرامة.

(٦) تفلّت ـ بتشديد اللام ـ أي: تملّص من اليد فلم تحفظه.

اطْرَحْ عَنْكَ وَارِدَاتِ الْهُمُومِ بِعَزَائِمِ الصَّبْرِ وَحُسْنِ الْيَقِينِ، مَنْ تَرَكَ الْقَصْدَ[١] جَارَ[٢]، وَالصَّاحِبُ مُنَاسِبٌ[٣]، وَالصَّدِيقُ مَنْ صَدَقَ غَيْبُهُ[٤]، وَالْهَوَى[٥] شَرِيكُ الْعَمَى، رُبَّ بَعِيدٍ أَقْرَبُ مِنْ قَرِيبٍ، وَقَرِيبٍ أَبْعَدُ مِنْ بَعِيدٍ، وَالْغَرِيبُ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَبِيبٌ، مَنْ تَعَدَّى الْحَقَّ ضَاقَ مَذْهَبُهُ، وَمَنِ اقْتَصَرَ عَلَى قَدْرِهِ كَانَ أَبْقَى لَهُ، وَأَوْثَقُ سَبَبٍ أَخَذْتَ بِهِ سَبَبٌ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللهِ سُبْحَانَهُ، وَمَنْ لَمْ يُبَالِكَ[٦] فَهُوَ عَدُوُّكَ، قَدْ يَكُونُ الْيَأْسُ إِدْرَاكًا، إِذَا كَانَ الطَّمَعُ هَلاَكًا، لَيْسَ كُلُّ عَوْرَةٍ تَظْهَرُ، وَلاَ كُلُّ فُرْصَةٍ تُصَابُ، وَرُبَّمَا أَخْطَأَ الْبَصِيرُ قَصْدَهُ، أَصَابَ الاَعْمَى رُشْدَهُ.

أَخِّرِ الشَّرَّ، فَإِنَّكَ إِذَا شِئْتَ تَعَجَّلْتَهُ[٧]، وَقَطِيعَةُ الْجَاهِلِ تَعْدِلُ صِلَةَ الْعَاقِلِ، مَنْ أَمِنَ الزَّمَانَ خَانَهُ، وَمَنْ أَعْظَمَهُ[٨] أَهَانَهُ، لَيْسَ كُلُّ مَنْ رَمَى أَصَابَ، إِذَا تَغَيَّرَ السُّلْطَانُ تَغَيَّرَ الزَّمَانُ. سَلْ عَنِ الرَّفِيقِ قَبْلَ الطَّرِيقِ، وَعَنِ الْجَارِ قَبْلَ الدَّارِ».

وقال عليه السلام في فضل القرآن:

«وَتَعَلَّمُوا الْقرْآنَ [فَإِنَّهُ أَحْسَنُ الْحَدِيثِ، وَتَفَقَّهُوا فِيهِ] فَإِنَّهُ رَبِيعُ الْقُلُوبِ، وَاسْتَشْفُوا بِنُورِهِ فَإِنَّهُ شِفَاءُ الصُّدُورِ، وَأَحْسِنُوا تِلاَوَتَهُ فَإِنَّهُ أَنْفَعُ الْقَصَصِ.

وَإِنَّ الْعَالِمَ الْعَامِلَ بِغَيْرِ عِلْمِهِ كَالْجَاهِلِ الْحَائِرِ الَّذِي لاَ يَسْتَفِيقُ مِنْ جَهْلِهِ، بَلِ الْحُجَّةُ عَلَيْهِ أَعْظَمُ، وَالْحَسْرَةُ لَهُ أَلْزَمُ، وَهُوَ عِنْدَ اللهِ أَلْوَمُ[٩]».

---

(١) القصد: الاعتدال.

(٢) جار: مال عن الصواب.

(٣) الصاحِب مناسب: أي يراعى فيه ما يراعى في قرابة النسب.

(٤) الغيْب: ضد الحضور، أي من حفظ لك حقك وهو غائب عنك.

(٥) الهوى: شهوة غير منضبطة ولا مملوكة بسلطان الشرع والادب.

(٦) لم يُبَالِكَ أي: لم يهتم بأمرك، باليته وباليت به أي: راعيته واعتنيت به.

(٧) تَعَجّلْتَه: استبقت حدوثه.

(٨) أعظمه: هابَهُ وأكبر من قدره.

(٩) ألوم: أشد لومًا لنفسه.

ومن كلام له وقد قام رجل من أصحابه فقال: نهيتنا عن الحكومة ثمّ أمرتنا بها، فما ندري أيّ الأمرين أَرشد؟ فصفّق عليه السلام إحدى يديه على الأخرى ثمّ قال:

«هذا جَزَاءُ مَنْ تَرَكَ الْعُقْدَةَ![١] أَمَا وَاللهِ لَوْ أَنِّي حِينَ أَمَرْتُكُمْ بِما أَمَرْتُكُمْ بِهِ حَمَلْتُكُمْ عَلَى الْمَكْرُوهِ الَّذِي يَجْعَلُ اللهُ فِيهِ خَيْرًا، فَإِنِ اسْتَقَمْتُمْ هَدَيْتُكُمْ، وَإِنِ اعْوَجَجْتُمْ قَوَّمْتُكُمْ، وَإِنْ أَبَيْتُمْ تَدَارَكْتُكُمْ، لَكَانَتِ الْوُثْقَى، وَلكِنْ بِمَنْ وَإِلَى مَنْ؟ أُرِيدُ أَنْ أُدَاوِيَ بِكُمْ وَأَنْتُمْ دَائِي، كَنَاقِشِ الشَّوْكَةِ بِالشَّوْكَةِ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ ضَلْعَهَا[٢] مَعَهَا!

اللهمَّ قَدْ مَلَّتْ أَطِبَّاءُ هذَا الدَّاءِ الدَّوِيِّ[٣]، وَكَلَّتِ النَّزْعَةُ[٤] بِأَشْطَانِ الرَّكِيِّ[٥]! أَيْنَ الْقَوْمُ الَّذِينَ دُعُوا إِلَى الإِسْلاَمِ فَقَبِلُوهُ؟ وَقَرَأُوا الْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ؟

وَهِيجُوا إِلَى الْجِهَادِ فَوَلَّهُوا اللِّقَاحَ[٦] أَوْلاَدَهَا، وَسَلَبُوا السُّيُوفَ أَغْمَادَهَا، وَأَخَذُوا بِأَطْرَافِ الأَرْضِ زَحْفًا زَحْفًا وَصَفًّا صَفًّا؟! بَعْضٌ هَلَكَ، وَبَعْضٌ نَجَا.

لاَ يُبَشَّرُونَ بِالأَحْيَاءِ[٧]، وَلاَ يُعَزَّوْنَ عَنِ الْمَوْتَى[٨]، مُرْهُ الْعُيُونِ[٩] مِنَ الْبُكَاءِ، خُمْصُ الْبُطُونِ[١٠] مِنَ الصِّيَامِ، ذُبُلُ الشِّفَاهِ[١١] مِنَ الدُّعَاءِ، صُفْرُ الأَلْوَانِ مِنَ

---

(١) يريد «بالعقدة» ما حصل عليه التعاقد.

(٢) الضَلْع - بفتح الضاد وتسكين اللام -: المَيْل. وأصل المثل: «لا تنقش الشوكة بالشوكة، فإن ضَلْعها معها» يُضْرَبُ للرجل يخاصم آخر ويستعين عليه بمن هو من قرابته أو أهل مَشْرَبه. ونَقش الشوكة: إخراجها من العضو تدخل فيه.

(٣) الدّاء الدّوِيّ - بفتح فكسر -: المؤلم الشديد. وقد وُصِف بما هو من لفظه.

(٤) كلّت: ضعفت. والنزعة: جمع نازع.

(٥) الأشْطَان: جمع شَطَن، وهو الحبل. والرّكِيّ: جمع رَكِيّة، وهي البئر.

(٦) اللِّقاح: جمع لَقُوح، وهي الناقة.

(٧) لا يُبَشّرُون بالأحياء: إذا قيل لهم: نجا فلان فبقي حيًّا لا يفرحون، لأنّ أفضل الحياة عندهم الموت في سبيل الحقّ.

(٨) لا يُعَزّوْن عن المَوْتى: لا يحزنون إذا قيل لهم: مات فلان، فإنّ الموت عندهم حياة السعادة الأبديّة.

(٩) مُرْهُ العيون: جمع أمْرَه، وهو على صيغة أفعَل الذي يجمع على فُعْل، كأحمر وحُمر، مأخوذ من «مَرَهَتْ عَيْنُهُ» إذا فسدت أو ابيضّت حَمَاليقُها.

(١٠) خُمْص البطون: ضَوَامِرُها.

(١١) ذَبُلَتْ شفَتُهُ: جَفّت وَيبِستْ لذهاب الرّيق.

السَّهرِ، عَلَى وُجُوهِهِمْ غَبَرَةُ الْخَاشِعِينَ، أُولئِكَ إِخْوَاني الذَّاهِبُونَ، فَحَقَّ لَنَا أَنْ نَظْمَأَ إِلَيْهِمْ وَنَعَضَّ الايْدِيَ عَلَى فِرَاقِهِمْ!

إِنَّ الشَّيْطَانَ يُسَنِّي[١] لَكُمْ طُرُقَهُ، وَيُرِيدُ أَنْ يَحُلَّ دِينَكُمْ عُقْدَةً عُقْدَةً،وَيُعْطِيَكُمْ بِالْجَمَاعَةِ الْفُرْقَةَ، وَبِالْفُرْقَةِ الْفِتْنَةَ، فَاصْدِفُوا[٢] عَنْ نَزَغَاتِهِ[٣] وَنَفَثَاتِهِ، وَاقْبَلُوا النَّصِيحَةَ مِمَّنْ أَهْدَاهَا إِلَيْكُمْ، وَاعْقِلوهَا[٤] عَلَى أَنْفُسِكُمْ.

ومن أقوال الإمام علي عليه السلام التي تعكس معرفته بعظمة وفضل الجهاد في سبيل الله قوله:

«إِنَّ أَكْرَمَ المَوْتِ الْقَتْلُ وَالَّذِي نَفْسُ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ بِيَدِهِ لَأَلْفُ ضَرْبَةٍ بِالسَّيْفِ أَهْوَنُ عَلَيَّ مِنْ مِيتَةٍ عَلَى الْفِرَاشِ فِي غَيْرِ طَاعَةِ اللهِ»[٥].

ويقول: «فَإِنْ أَبَوْا أَعْطَيْتُهُمْ حَدَّ السَّيْفِ وَكَفَى بِهِ شَافِيًا مِنَ الْبَاطِلِ وَنَاصِرًا لِلْحَقِّ وَمِنَ الْعَجَبِ بَعْثُهُمْ إِلَيَّ أَنْ أَبْرُزَ لِلطِّعَانِ وَأَنْ أَصْبِرَ لِلْجِلَادِ هَبِلَتْهُمُ الهَبُولُ لَقَدْ كُنْتُ وَمَا أُهَدَّدُ بِالحَرْبِ وَلَا أُرْهَبُ بِالضَّرْبِ وَإِنِّي لَعَلَى يَقِينٍ مِنْ رَبِّي وَغَيْرِ شُبْهَةٍ مِنْ دِينِي»[٦].

وفي فضل الجهاد يقول:

«أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ الْجِهَادَ بَابٌ مِنْ أَبْوابِ الْجَنَّةِ فَتَحَهُ اللهُ لِخَاصَّةِ أَوْلِيَائِهِ وَهُوَ لِبَاسُ التَّقْوَى وَدِرْعُ اللهِ الحَصِينَةُ وَجُنَّتُهُ الْوَثِيقَةُ فَمَنْ تَرَكَهُ رَغْبَةً عَنْهُ أَلْبَسَهُ اللهُ ثَوْبَ الذُّلِّ وَشَمِلَهُ الْبَلَاءُ وَدُيِّثَ بِالصَّغَارِ وَالْقَمَاءَةِ وَضُرِبَ عَلَى قَلْبِهِ بِالْإِسْهَابِ وَأُدِيلَ الحَقُّ مِنْهُ بِتَضْيِيعِ الْجِهَادِ وَسِيمَ الخَسْفَ وَمُنِعَ النَّصَفَ»[٧].

---

(١) يُسَنّي: يُسَهّل.

(٢) فاصْدِفُوا: فأعْرِضُوا.

(٣) نَزَغاته: وساوسه.

(٤) اعْقِلُوها: احبسوها على أنفسكم لا تتركوها فتضيعَ منكم.

(٥) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ٢، الصفحة ٢، من كلام له عليه السلام قاله لأصحابه في ساحة الحرب.

(٦) المصدر نفسه، الجزء ١، الصفحة ٦٠، الخطبة ٢٢.

(٧) المصدر نفسه، الجزء ١، الصفحة ٦٧، من خطبة له عليه السلام في الحثّ على الجهاد.

ويقول: «إِنَّ أَفْضَلَ مَا تَوَسَّلَ بِهِ الْمُتَوَسِّلُونَ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْإِيمَانُ بِهِ وَبِرَسُولِهِ وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ»(١).

وفي وصيّته الأخيرة يقول لأولاده وشيعته: «اللهَ اللهَ فِي الْجِهَادِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ»(٢).

ومن وصايا الإمام علي عليه السلام في الحروب لجنوده التي تعكس المبدأيّة والقيم العالية نورد بعض تلك النصوص.

فمن وصية له عليه السلام لعسكره قبل لقاء العدوّ بصفين:

«لَا تُقَاتِلُوهُمْ حَتَّى يَبْدَءُوكُمْ، فَإِنَّكُمْ بِحَمْدِ اللهِ عَلَى حُجَّةٍ وَتَرْكُكُمْ إِيَّاهُمْ حَتَّى يَبْدَءُوكُمْ حُجَّةٌ أُخْرَى لَكُمْ عَلَيْهِمْ فَإِذَا كَانَتِ الْهَزِيمَةُ بِإِذْنِ اللهِ فَلَا تَقْتُلُوا مُدْبِرًا وَلَا تُصِيبُوا مُعْوِرًا وَلَا تُجْهِزُوا عَلَى جَرِيحٍ وَلَا تَهِيجُوا النِّسَاءَ بِأَذًى وَإِنْ شَتَمْنَ أَعْرَاضَكُمْ وَسَبَبْنَ أُمَرَاءَكُمْ فَإِنَّهُنَّ ضَعِيفَاتُ الْقُوَى وَالْأَنْفُسِ وَالْعُقُولِ إِنْ كُنَّا لَنُؤْمَرُ بِالْكَفِّ عَنْهُنَّ وَإِنَّهُن لَمُشْرِكَاتٌ وَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيَتَنَاوَلُ الْمَرْأَةَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ بِالْفَهْرِ أَوِ الْهِرَاوَةِ فَيُعَيَّرُ بِهَا وَعَقِبُهُ مِنْ بَعْدِهِ»(٣).

هذا نموذج لما أثِر من تعاليم وآداب وقيم ومبادئ للحرب عند الإمام علي عليه السلام والتي تعكس أيضًا روحيّة **القرآن الكريم** وتعاليمه ومبادئه وقيمه.

وممّا كان يقول عليه السلام مستنكرًا حالة التخلّي عن القيم والمبادئ:

«أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ الْوَفَاءَ تَوْأَمُ الصِّدْقِ وَلَا أَعْلَمُ جُنَّةً أَوْقَى مِنْهُ. وَمَا يَغْدِرُ مَنْ عَلِمَ كَيْفَ الْمَرْجِعُ وَلَقَدْ أَصْبَحْنَا فِي زَمَانٍ قَدِ اتَّخَذَ أَكْثَرُ أَهْلِهِ الْغَدْرَ كَيْسًا وَنَسَبَهُمْ أَهْلُ الْجَهْلِ فِيهِ إِلَى حُسْنِ الْحِيلَةِ. مَا لَهُمْ قَاتَلَهُمُ اللهُ قَدْ يَرَى الْحُوَّلُ

---

(١) المصدر نفسه، الجزء ١، الصفحة ٢١٥، من خطبة له عليه السلام في فرائض الإسلام، رقم ١١٠.

(٢) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ٣، الصفحة ٤٢٢، من وصيّة له عليه السلام بعد ما ضربه ابن ملجم، رقم ٤٧.

(٣) المصدر نفسه، الجزء ٣، الصفحة ١٥، من دعاء له عليه السلام إذا لقي العدوّ، رقم ١٤.

الْقُلَّبُ وَجْهَ الْحِيلَةِ وَدُونَهَا مَانِعٌ مِنْ أَمْرِ اللهِ وَنَهْيِهِ فَيَدَعُهَا رَأْيَ عَيْنٍ بَعْدَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهَا وَيَنْتَهِزُ فُرْصَتَهَا مَنْ لَا حَرِيجَةَ لَهُ فِي الدِّينِ»(١).

وتحدّث عمّن قال في دور حكومته من عبيد الشهوات والمناصب بأنه لا دراية له في شؤون السياسة وأن معاوية خبيرٌ بها وخليقٌ بإدارة دفة الحكم.

فقال عليه السلام: «والله مَا مُعَاوِيَةُ بِأَدْهَى مِنِّي وَلَكِنَّهُ يَغْدِرُ وَيَفْجُرُ. وَلَوْلَا كَرَاهِيَةُ الْغَدْرِ لَكُنْتُ مِنْ أَدْهَى النَّاسِ، وَلَكِنْ كُلُّ غُدَرَةٍ فُجَرَةٌ، وَكُلُّ فُجَرَةٍ كُفَرَةٌ. وَلِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يُعْرَفُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَاللهِ مَا أُسْتَغْفَلُ بِالْمَكِيدَةِ وَلَا أُسْتَغْمَزُ بِالشَّدِيدَةِ»(٢).

وَقَالَ عليه السلام: «أَوْلَى النَّاسِ بِالْعَفْوِ أَقْدَرُهُمْ عَلَى الْعُقُوبَةِ»(٣).

وَقَالَ عليه السلام: «خير المقال ما صدقته الفعال».

وَقَالَ عليه السلام: «أقبح الصدق ثناء المرء على نفسه».

وَقَالَ عليه السلام: «لا تعمل الخير رياء ولا تتركه حياء».

وَقَالَ عليه السلام: «لَمَّا بَلَغَهُ قَتْلُ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ: إِنَّ حُزْنَنَا عَلَيْهِ عَلَى قَدْرِ سُرُورِهِمْ بِهِ، إِلَّا أَنَّهُمْ نَقَصُوا بَغِيضًا وَنَقَصْنَا حَبِيبًا».

وَقَالَ عليه السلام: «مَا ظَفِرَ مَنْ ظَفِرَ الْإِثْمُ بِهِ، وَالْغَالِبُ بِالشَّرِّ مَغْلُوبٌ».

وَقَالَ عليه السلام: «من استثقل الحقّ أن يقال له أو العدل أن يعرض عليه كان العمل بهما أثقل عليه».

وَقَالَ عليه السلام: «أَشَدُّ الذُّنُوبِ مَا اسْتَهَانَ بِهِ صَاحِبُهُ».

---

(١) المصدر نفسه، الجزء ١، الصفحة ٩٢، الخطبة رقم ٤١.

(٢) المصدر نفسه، الجزء ٢، الصفحة ١٨٠، من كلام له عليه السلام في تنزّهه عن الغدر، رقم ٢٠٠.

(٣) المصدر نفسه، الجزء ٤، الصفحة ١٤، من حكمه عليه السلام رقم ٥٢.

وَقالَ عليه السلام: «مَنْ نَظَرَ فِي عَيْبِ نَفْسِهِ اشْتَغَلَ عَنْ عَيْبِ غَيْرِهِ، وَمَنْ رَضِيَ بِرِزْقِ اللهِ لَمْ يَحْزَنْ عَلَى مَا فَاتَهُ، وَمَنْ سَلَّ سَيْفَ الْبَغْيِ قُتِلَ بِهِ».

وَقالَ عليه السلام: «لا تستوحشوا في طريق الهدى لقلّة من يسلكه».

وَقالَ عليه السلام: «عَاتِبْ أَخَاكَ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ، وَارْدُدْ شَرَّهُ بِالْإِنْعَامِ عَلَيْهِ».

وَقالَ عليه السلام: «عليكم بكلمة الحقّ في الرضا والغضب وبالعدل على الصديق والعدوّ».

وَقالَ عليه السلام: «كَفَى أَدَبًا لِنَفْسِكَ تَجَنُّبُكَ مَا كَرِهْتَهُ لِغَيْرِكَ..».

وَقالَ عليه السلام: «لتكن معرفتك بنفسك أوثق عندك من مدح المادحين لك».

وَقالَ عليه السلام: «خَالِطُوا النَّاسَ مُخَالَطَةً إِنْ مِتُّمْ مَعَهَا بَكَوْا عَلَيْكُمْ وَإِنْ عِشْتُمْ حَنُّوا إِلَيْكُمْ».

وَقالَ عليه السلام: «فِي تَقَلُّبِ الْأَحْوَالِ عِلْمُ جَوَاهِرِ الرِّجَالِ».

وَقالَ عليه السلام: «لا تَكُنْ عَبْدَ غَيْرِكَ وَقَدْ جَعَلَكَ اللهُ حُرًّا».

خامسًا- استشهاده عليه السلام

في التاسع عشر من شهر رمضان من عام ٤٠ هجريّة، حدثت مأساة الأمّة، مأساة الدين، مأساة البشريّة، مأساة تفرض علينا أن نحزن لها في هذا العصر وفي كلّ عصر، وكيف لا نحزن والرسول صلى الله عليه وآله وسلم قد قال في حديثٍ إنّ ذلك الذي يقتل الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام هو أشقى الأمّة، جلب الشقاء على هذه الأمّة من ذلك الزمان إلى اليوم.

لقد كان الإمام علي عليه السلام بفضله، بمقامه، بسبقه، بكماله، بعنائه الكبير، وجهاده المستمرّ المرير في سبيل إعلاء كلمة الله، تحت راية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ضمانة بقاء هذه الأمّة.

فكيف لا تكون ذكرى حزينة أن نرى ذلك البطل العظيم، ذلك العَلَم يسقط شهيدًا. هل كان سقوطه ذلك في مواجهة مع أعداء الإسلام فكان السيف الذي قُتِل به من خارج هذه الأمّة؟ إنّه وللأسف الشديد، والذي يدلّ على الشقاء الذي وقعت فيه هذه الأمّة أنّ عليًا عليه السلام يسقط شهيدًا في عاصمة دولته، في باب محرابه، في فِنَاءِ مسجده، وسط هذه الأمّة، وبسيفٍ محسوب على هذه الأمّة، وبمؤامرات من أصبح فيما بعد خليفة يحكم هذه الأمّة، والكلّ تحت عنوان: إسلام ومسلمين[1].

(١) الشهيد القائد السيّد حسين في ذكرى استشهاد الإمام علي عليه السلام.

فلماذا سمّي قاتل عليّ بأشقى أشقياء الأمّة في حين أنّ هناك أشخاصًا آخرين كثر يقتلون؟ لماذا عُدَّ ذلك الشخص أشقى الأمّة؟ لأنّه ارتكب جريمة كبرى بحقّ الأمّة كلّها، فجلب الشقاء عليها كلّها من ذلك الزمان إلى اليوم.

لماذا؟ لأنّه قتل رجلًا عظيمًا؛ ولأنّه لا يغيّر مجرى التاريخ، لا ينهض بالأمم إلّا الرموز من عظمائها.

الإمام علي شخصيّةٌ عظيمة، يُقتل في فترةٍ كانت الأمّة في أمس الحاجة إلى مثله، ليغيّر مجرى التاريخ، بعد فترة من الانحراف كان بالإمكان لو استقرّ له الأمر أن ينشئ الأمّة من جديد، ويعود بها إلى تربية الرسول ﷺ فيتغيّر مسار التاريخ كلّه، تتغيّر وضعيّة هذه الأمّة بكاملها، فجاء هذا الرجل ليقتل ذلك الشخص بأهميّته هذه العظيم، لذا سمّي: أشقى أشقياء الأمّة[1].

يقول السيّد حسين (رضوان الله عليه):

عندما نرى عليًّا عليه السلام نرى فيه المنهجيّة التي سار عليها رسول الله ﷺ، نرى فيه القرآن الناطق كما قال هو عن نفسه.

إذًا فلنستنطق عليًّا فيما يتعلّق بقضايانا، والأحـداث التي مرّ بها، والمواقف التي سار عليها، والتوجيهات التي أطلقها الإمام علي، فيما يتعلّق بتصحيح عقائدنا، وترسيخ إيماننا، وترسيخ القيم والمبادئ الإسلاميّة التي جاء بها كتابنا، ورسولنا ﷺ.

ففي موضوع الشهادة مثلًا، لقد كان الإمام علي على علم عن رسول الله ﷺ يوم أن أخبره بأنّ لحيته سَتُخْضّب من دمّ رأسه.

هذا الخبر لو يأتي لشخص منّا - ربّما - قد يكون مزعجًا، فينظر حوله، إلى أسرته، إلى أولاده، إلى ممتلكاته إلى مظاهر الحياة من حوله فيبدو متأسّفًا ويودّع نفسه حينًا بعد حين وينتظر متى يخضّب دم رأسه لحيته، لكن عليًّا كان

(١) الشهيد القائد السيّد حسين من محاضرة: (وإنّه لذكر لك ولقومك).

يهمّه شيء واحد. كيف أجاب على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم؟. قال: «يا رسول الله أَفِي سلامةٍ من ديني؟ أفي سلامةٍ من ديني يحصل هذا؟» قال: «نعم». قال: «إذًا لا أبالي ما دام ديني سليمًا».

عندما يقول الإمام علي هذه العبارة يعطينا إشارة مهمّة جدًّا، وكأنّه يلحظ من خلال ما يسمع من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّه سيحصل ضلال، وانحراف، وفتن. يهمّ أيّ إنسان حريص على سلامة نفسه أن يبحث عن سلامة دينه، وأن يحرص على ذلك.

ناهيك عمّا إذا كان قد قال له: إنّ الذي سيقتله هو أشقى هذه الأمّة، أي من هذه الأمّة، وهو من يجلب الشقاء على هذه الأمّة، وشبَّهه بعاقر ناقة ثمود الذي جلب الشقاء على تلك الأمّة فجعلها تستحقّ عذابًا شديدًا من الله، استأصل تلك الأمّة بأكملها.

«أفي سلامة من ديني يا رسول الله؟» ما أحوجنا إلى هذه المشاعر!.

تجد الإمام عليًّا تأكّد أيضًا بأنّه فعلًا كان قرينًا للقرآن، ولا يزال قرينًا للقرآن، إنّ هذا هو منطق القرآن نفسه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[١]. أليس هذا توجيه يحثّ كلّ إنسان منّا على أن يكون حريصًا على أن يسلم له دينه؟ وأن يكون كلّ ما يهمّه هو أن يسلم له دينه، على الرغم من كلّ ما يواجهه، حتى وإن كان خبرًا مؤكّدًا على نحو ما جاء لعلي عليه السلام: «ستخضّب هذه من هذا» وأشار إلى لحيته ورأسه؟.

ومن خلال هذا، نعرف موقعنا نحن من القرآن ومن قرين القرآن، عندما نجد الكثير منّا، الغالبيّة العظمى يضحّي بدينه من أجل احتمال أن تسلم له دنياه، احتمال أن تسلم له قدماه ناهيك عن رأسه، أو لاحتمال ألَّا يبيت ليلة

---

(١) سورة **آل عمران**، الآية ١٠٢.

في سجن من السجون، لاحتمال ألَّا يضحي بمبلغ من المال في سبيل إعلاء كلمة ربّه، أليس كثير من الناس على هذا النحو؟!.

كأنّنا نقول للقرآن نفسه عندما يقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾(١): أفي سلامة من دنيانا يا قرآن الله؟!. عندما يقول: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ﴾(٢)، لكن هل في سلامة من دنيانا ورؤوسنا وأقدامنا وأيدينا يا كتاب الله؟!.

إنّ كل إنسان يتولّى عليًّا، يصدّق برسول الله ﷺ وبكتابه يجب أن تكون مشاعره على النحو الذي كان يسيطر على مشاعر علي عليه السلام: «أفي سلامة من ديني يا رسول الله؟». قال: «نعم»: «إذًا لا أبالي».

ولقد كان يقول: «والله لا أبالي أوقعتُ على الموت أو وقع الموتُ عَلَيَّ». إنّ كلّ شيء يهمّه هو أن يكون هناك السلامة لدينه، فلتخضّب دماء رأسه لحيته، وليتقطّع إرْبًا، وليكن ما كان ما دام دينه سالمًا له.

وهذه هي الرؤية الصحيحة، هذه هي السلامة لمن يبحث عن السلامة. الإنسان لا يمكن أن يسلم إذا لم يسلم له دينه، لا في دنياه ولا في آخرته، ما الذي جعلنا نُظلم؟ ما الذي جعلنا نُقهر ونحن ملايين؟ نمتلك الإمكانيّات الكبيرة، نمتلك الجيوش، والثروات الضخمة والهائلة في باطن الأرض وظاهرها، نمتلك رقعة استراتيجيّة مهمّة؟ لأنّ ديننا لم يسلم لنا، فوجدنا أنفسنا لم نسلم من الذلّ، والقهر، والنهب.

أصبحت هذه الأمّة ذليلة، مستضعفة، مقهورة؛ لأنّها لم تفكّر تفكير قرين القرآن، وحينها عندما تنطلق لتبحث عن السلامة لنفسك، وأنت لا تفكّر في أن يسلم لك دينك فلن تسلم نفسك، لن يسلم عِرْضك، لن تسلم كرامتك،

---

(١) سورة **الصفّ**، الآية ١٤.

(٢) سورة **آل عمران**، الآية ١٠٤.

وفي الأخير لن تسلم أنت في الآخرة يوم تلقى الله، لن تسلم سوء الحساب، ونار جهنم.

إنّها الرؤية الحكيمة، ليست رؤية ذلك الذي يفكّر في ممتلكاته البسيطة، ويرى نفسه أغلى من الدين كلّه، وأغلى من نفس الرسول، ونفس علي، والحسن، والحسين، فيصبح مصداقًا للآية ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾(١).

متى يمكن للإنسان أن يفكّر هكذا تفكير له قيمة عند الله؟ متى يمكن أن يُمنح الإنسان هذا النحو من عزّة الله؟ وكم هو الفارق بين أن تكون في الاتجاه الذي يمنحك الله فيه العزّة، والقوّة، والتأييد، وسلامة آخرتك وإن لم تسلم دنياك؟ وواقع شخص يُقَيّض له الله شيطانًا يصبح قرينًا له ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾(٢)، يُسلّط الله عليه شرار عباده، ومن يسومه سوء العذاب في دنياه، وفي يوم القيامة سوء الحساب، وسوء العذاب في نار جهنّم؟ نعوذ بالله من نار جهنّم.

إنّ عليًّا عليه السلام - وإن وجدناه (سَقَطَ) بل نقول صعد إلى ربّه شهيدًا - لا يزال حيًّا كما أنّ هذا القرآن الذي قرنه به الرسول حيٌّ، حيٌّ فيما يعطيه من هدى، من نور، من دروس، من عظة، من عبر، فيما يعطيه من أحرار، ومجاهدين، وصادقين، ومن دروس تجعلهم يذوبون في هذا الدين.

أنت عندما تنظر إلى نفسك، وأنظر أيضًا إلى عليّ عليه السلام فأكون حريصًا على سلامة نفسي، وإن كان ثمن ذلك أن أُلقي بعليّ، وبدين عليّ، وبمنهج عليّ، وبتوجيهات عليّ عرض الحائط، هذا يعتبر من أسوأ الانحطاط الذي يمرّ به الإنسان.

---

(١) سورة **الزخرف**، الآية ٣٦.

(٢) سورة **الزخرف**، الآية ٣٧.

هل يمكن أن أرى نفسي، أو أيّ واحد منّا يرى نفسه أغلى من نفس عليّ عليه السلام؟! ودمي أغلى من دم عليّ عليه السلام؟!. لا يمكن لأحدٍ أن يقول لنفسه هكذا وإن كان واقع الكثير منّا هكذا.

لكنّ عليًّا عليه السلام كان يستقبل ذلك الحدث؛ أن يخضّب دم رأسه لحيته ويسقط شهيدًا، بغير انزعاج من ذلك، كان الذي يزعجه هو ما يرى الأمّة فيه وهي تسير باتجاه ذات الشمال، وهي تبتعد حينًا بعد حين، ومسافات طويلة تبتعد عن كتاب الله، وعن منهج رسوله صلى الله عليه وآله وسلم.[1]

لقد استقبل الإمام علي عليه السلام شهادته استقبال من يعرف كرامة الشهيد، وعظمته، وأنّها أمْنِيَة كان يطلبها. فعندما خرَّ صريعًا بعد تلك الضربة في وسط أمّة مسلمة، وداخل بيت من بيوت الله، قال عليه السلام: «فُزْتُ وربِ الكعبة» لأنّه على يقين من سلامة دينه، وصحّة موقفه ونهجه، على يقين من أنّ الله سبحانه وتعالى قد منح الشهداء، وأعطاهم الكرامة التي تجعل مثله - على الرغم من عباداته الكثيرة - يصرخ بهذه الكلمة العظيمة مقسمًا: «فزت وربّ الكعبة».

ما أحوجنا - أيّها الإخوة - إلى أن نستلهم من عليّ عليه السلام الصبر على الحقّ، الصمود في مواجهة الباطل، استقبال العناء والشدائد بصدور رَحْبَة، بعزائم قويّة، بإرادات لا تُقهر، برؤية واضحة، ببصيرة عالية فنكون ممّن يحمل شعور عليّ حتّى في لحظة الاستشهاد، في لحظة اغتياله يرى نفسه مسرورًا.

لماذا سمّاه فوزًا؟ وهل يمكن للكثير منّا أن يرى نفسه فائزًا أنّه لم يُقْحِم نفسه - كما يقول الكثير - في مشكلة، أنّه لم يدخل في عمل ربّما يؤدّي إلى مشكلة، أنّه يبتعد مسافات عن أن يحصل عليه أبسط ما يحتمل من ضرّ في ماله أو في نفسه، هل يمكن لأحد ممّن يفكر هذا التفكير أن يقول عندما يحتضر، عندما تأتيه ملائكة الموت: «فُزتُ وربّ الكعبة»؟!. لا والله، بل ربّما

---

(١) الشهيد القائد السيّد حسين في ذكرى استشهاد الإمام علي عليه السلام.

يصرخ مُتَأَوِّهًا، وربّما يَبْهَرُه الموت - كما قال الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو يوصي ابنه الحسن ويحذّره من أن يكون على طريقة سيّئة عندما يفاجئه الموت - قال: «فيَبْهَرَك». نعوذ بالله من بَهْرَة الموت.

متى تكون بَهْرَة الموت؟ عندما تكون أنت من لم تحرص على سلامة دينك، من لم تُضَحِّ من أجل دينك، من لا تعتبر السقوط شهيدًا في سبيل الله من أجل سلامة دينك فوزًا، سيبهرك الموت، وسيبهرك الحشر، وستبهرك زبانية جهنّم.. هذا شيء لا شكّ فيه.

في حين أنّ الإمام علي يقول: «فزت وربّ الكعبة»؛ لأنّه سار على منهجيّة يفوز من سار عليها[١]، واستقبل الشهادة بتمّيزه وروحيّته، مطمئنّ القلب، مرتاح البال إلى ماضيه ومستقبله، بما كان عليه ماضيًا سليمًا صحيحًا في مسارٍ صحيح يوصل إلى نتيجة مستقبليّة هي الفوز برضوان الله وجنّته بكلّ ثقة واطمئنان ويقين.

ثم ممّا قاله، وهو على فراش الشهادة في آخر لحظات الحياة الدنيا، «ما فاجأني من الموت واردٌ كرهته ولا طالعٌ أنكرته» فأنا ما تفاجأت بالموت ولا كرهت مجيئه لأنّه كان مطمئنًّا إلى مستقبله عند الله «وما كنت إلّا كقاربٍ ورد، وطالبٍ وجد وما عند الله خيرٌ وأبقى» اطمئنان لضميره وقلبه، إلى مستقبله العظيم عند الله سبحانه وتعالى، فهكذا كان، وهكذا كان متميّزًا متطلّعًا دائمًا إلى ما عند الله لا يأبه بالموت أبدًا، وهو الذي قال: «والله لابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل الرضيع بثدي أمه»، ربّما لا يساوي هذا الأنس أنس الطفل الرضيع بثدي أمه حتّى لكنْ عليّ كان آنس بالموت لأنّه يرى في الموت نقلة إلى ما عند الله وهو دائمًا يتطلّع إلى ما عنده تعالى. هذا قليلٌ ممّا يمكن أن نقوله عن عليّ فهو مدرسة متكاملة نعرف من خلالها الإسلام بكلّ كماله الإسلام وجماله وحقيقة مبادئه وعظم أخلاقه الإيمان بجلاله وجماله.

---

(١) الشهيد القائد السيّد حسين في ذكرى استشهاد الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وقبل أن يغادر الإمام علي عليه السلام هذه الحياة إلى الحياة التي تليق به عند أخيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعند زوجته فاطمة الزهراء عليها السلام وعند إخوانه الذين سبقوه أوصى ولديه الحسن والحسين عليهما السلام بهذه الوصية:

«أُوصِيكُمَا بِتَقْوَى الله، وَأَلَّا تَبْغِيَا الدُّنْيَا وَإِنْ بَغَتْكُمَا، وَلَا تَأْسَفَا عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا زُوِيَ عَنْكُمَا، وَقُولَا بِالحَقِّ، وَاعْمَلَا لِلأجْرِ، وَكُونَا لِلظَّالِمِ خَصْمًا وَلِلْمَظْلُومِ عَوْنًا، أُوصِيكُمَا وَجَمِيعَ وَلَدِي وَأَهْلِي وَمَنْ بَلَغَهُ كِتَابِي بِتَقْوَى الله، وَنَظْمِ أَمْرِكُمْ، وَصَلَاحِ ذَاتِ بَيْنِكُمْ؛ فَإِنِّي سَمِعْتُ جَدَّكُمَا صلى الله عليه وآله وسلم يَقُولُ: صَلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ أَفْضَلُ مِنْ عَامَّةِ الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ، اللهَ اللهَ فِي الْأَيْتَامِ فَلَا تُغِبُّوا أَفْوَاهَهُمْ، وَلَا يَضِيعُوا بِحَضْرَتِكُمْ، وَاللهَ اللهَ فِي جِيرَانِكُمْ فَإِنَّهُمْ وَصِيَّةُ نَبِيِّكُمْ مَا زَالَ يُوصِي بِهِمْ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُمْ، وَاللهَ اللهَ فِي الْقُرْآنِ لَا يَسْبِقُكُمْ بِالْعَمَلِ بِهِ غَيْرُكُمْ، وَاللهَ اللهَ فِي الصَّلَاةِ فَإِنَّهَا عَمُودُ دِينِكُمْ، وَاللهَ اللهَ فِي بَيْتِ رَبِّكُمْ لَا تُخَلُّوهُ مَا بَقِيتُمْ فَإِنَّهُ إِنْ تُرِكَ لَمْ تُنَاظَرُوا، وَاللهَ اللهَ فِي الجِهَادِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ فِي سَبِيلِ الله، وَعَلَيْكُمْ بِالتَّوَاصُلِ وَالتَّبَاذُلِ، وَإِيَّاكُمْ وَالتَّدَابُرَ وَالتَّقَاطُعَ، لَا تَتْرُكُوا الْأَمْرَ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ المُنْكَرِ فَيُوَلَّى عَلَيْكُمْ شِرَارُكُمْ ثُمَّ تَدْعُونَ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ».

ثُمَّ قَالَ: «يَا بَنِي عَبْدِ المُطَّلِبِ، لَا أُلْفِيَنَّكُمْ تَخُوضُونَ دِمَاءَ المُسْلِمِينَ خَوْضًا، تَقُولُونَ قُتِلَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ، أَلَا لَا تَقْتُلُنَّ بِي إِلَّا قَاتِلِي، انْظُرُوا إِذَا أَنَا مِتُّ مِنْ ضَرْبَتِهِ هَذِهِ فَاضْرِبُوهُ ضَرْبَةً بِضَرْبَةٍ وَلَا تُمَثِّلُوا بِالرَّجُلِ؛ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم يَقُولُ: إِيَّاكُمْ وَالمُثْلَةَ وَلَوْ بِالْكَلْبِ الْعَقُورِ»[١].

ودّع الإمام الحسن والده الإمام علي عليه السلام بحزن وألم وممّا قال:

«أيّها الناس لقد فارقكم رجل ما سبقه الأوّلون ولا يدركه الآخرون، لقد كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يعطيه الراية فيقاتل جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره فما يرجع حتّى يفتح الله على يديه».

---

(١) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ٣، الصفحة ٧٨، من وصيّة له عليه السلام للحسن والحسين عليهما السلام لمّا ضربه ابن ملجم (لعنه الله).

يقول السيّد حسين (رضوان الله عليه):

معاوية هو المتّهم بترتيب عمليّة اغتيال الإمام علي عليه السلام اتهمه بهذا أبو الأسود الدؤلي في أبيات يرثّي بها الإمام عليًّا عليه السلام وهو معاصر للحدث.

ومن الأبيات التي قالها أبو الأسود الدؤلي في رثاء الإمام علي عليه السلام:

ألا أبلغ معاوية ابن حرب   فلا قرّت عيون الشامتينا

أفي شهر الصيام فجعتمونا   بخير الناس طرًّا أجميعنا

قتلتم خير من ركب المطايا   وفارسها ومن ركب السفينا

وفي الحقيقة، إنّ أهل العراق كانوا قد قتلوا عليًّا، وهو كان لا يزال حيًّا يوم كانوا يتثاقلون ويتباطؤون عنه، حتّى قال: «اللهم إنّي قد مللتهم وملّوني، وسئمتهم وسئموني، فأبدلني بهم خيرًا لي منهم، وأبدلهم بي شرًّا لهم منّي».

قتلوا قلبه وهو لا يزال ينبض: «قاتلكم الله» كان يقول هكذا: «قاتلكم الله يا أهل العراق لقد ملأتم صدري قيحًا»، ثمّ قتل بالسيف، قتل فعلًا، واستشهد عليه السلام، أليس هذا هو أوّل رجل بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في هذه الأمّة من القائمين بالقسط؟ ممّن هم بمنزلة أنبياء بني إسرائيل؟[١].

فالإمام علي عليه السلام بمنزلته العظيمة في الإسلام بكماله، بفضله، بسبقه يُقتل ويلقى الله شهيدًا في مسجده، في محرابه، في عاصمة دولته بسيف محسوب على أنّه من الأمّة في شهر رمضان المبارك بما تبع استشهاده من تحوّلات في واقع الأمّة. وهو عليه السلام حين استشهد لم يكن مجرّد حاكم يحكم الأمّة الإسلاميّة، شأنه شأن أيّ حاكم يقتل أو يموت فيأتي البديل وانتهى الأمر، بل كان عليه السلام يمثّل امتدادًا للإسلام المحمّدي الأصيل بقرآنه ونهجه ومسار أستاذه ومعلّمه ومربّيه وقدوته وقائده الحبيب المصطفى نبي الله محمّد صلى الله عليه وآله وسلم. كان يمثّل امتدادًا لأخلاق الإسلام لمنهجه ومشروعه الكبير في

---

(١) الشهيد القائد السيّد حسين في ذكرى استشهاد الإمام علي عليه السلام.

بناء الأمّة الإسلاميّة لتكون بمستوى مسؤوليّتها العالميّة الكبرى في بناء الحياة ونشر الحقّ والعدل والخير في العالم.

فاستهدافه لم يكن مجرّد استهداف لشخصه بل استهداف لذلك المشروع كلّه، لإحلال البديل الناقص والمحرّف الذي يتلاءم مع الظالمين والمستبدّين والمجرمين وممارساتهم وما يتركونه من أثر سلبي في الحياة[١]. استهداف للإسلام في مساره الصحيح، في مسار الحقّ والعدل والأصالة والنقاء من القوى التي انقلبت على الإسلام في مفاهيمه في قيمه في مبادئه المهمّة.

وأرادت الإسلام شكلًا يخدمها ولا تخدمه وتطوّعه ولا تتطوّع له، وأرادت الإسلام زيفًا تتغنّى به وتستغلّ بعض شعائره لتثبيت سلطتها وإحكام قبضتها وتركيز هيمنتها وإحكام سيطرتها على الأمّة في كل واقع الأمّة. القوى الانقلابيّة على قيم الإسلام ومبادئه النازعة للاستبداد، الجموحة التي تريد الظلم والهيمنة والاستبداد والتجرّد من قيم الإسلام العظمى وفي مقدّمتها العدل والحقّ والخير ومكارم الأخلاق، وأرادت أن تتحرّر من كلّ تلك المبادئ والقيم التي ترى فيها قيودًا تحدّ من نزعتها ومن هيمنتها وتحدّ ممّا تعتبره مصالح لها.

قامت القوى الانقلابيّة بتخطيط وتنفيذ تلك الجريمة الكبرى التي كانت جريمة بحقّ الإسلام وجريمة بحقّ الأمّة ولم تكن جريمة فقط بحقّ شخص عليّ عليه السلام.

تلك القوى التي كانت ضمن توليفة عجيبة بقيت وما زالت الآن تعاني الأمّة منها؛ توليفة سياسيّة ثقافيّة فكريّة ضالّة منحرفة، قوّة باسم الدين تتحرّك بنزعة فيها الغلوّ والإفراط والتجاوز والغباء، وتتحرّك تحت عنوان الدين تكفيرًا ومحاولة لوصم المؤمنين بأنّهم الكافرون، ثمّ جهة أخرى سياسيّة توظّف تلك القوى التكفيريّة التي لها توجّه تكفيريّ مرتبط بمصالح مادّيّة فتوظّف

---

(١) من محاضرة السيّد عبد الملك في ذكرى استشهاد الإمام علي عليه السلام لعام ١٤٣٣هـ.

تلك القوّة التكفيريّة العمياء الصمّاء التي لا تبصر الحقّ ولا تفهمه، تتحرّك وتحرّك تلك القوى النازعة للسلطة والاستبداد والطامعة بالسيطرة على الأمّة ومقدّراتها والعاشقة للحكم والمنصب، فنفّذت تلك القوى بتوليفتها السياسيّة والثقافيّة الضالّة المنحرفة جريمتها الكبرى بحقّ الأمّة فجلبت الشقاء وارتكبت جريمة كبيرة بقيت لها تداعياتها.

كان الإمام علي عليه السلام يمثّل عقبة كبيرة أمام تلك القوى الانقلابيّة التي تريد أن تسيطر على الأمّة، وأن تحقّق لنفسها الهيمنة والسلطة بدافع النزعة الاستبداديّة والمصلحة الفرديّة ودافع الأطماع وللأسف في مرحلة أصبح واقع الأمّة الإسلاميّة واقعًا كبيرًا؛ أمّة كبيرة تمثّل القوّة الكبرى في الأرض، القوّة التي يهيّىء لها في الواقع العامّ في الظرف ذاك أن تنتصر بدينها، وقيمها وأخلاقها وتعمّمها في ربوع الأرض لتؤسّس لمستقبل جديد في تاريخ البشريّة كلّه وفي بقاع الأرض بأجمعها، لكن للأسف حرف مسار الأمّة وأبعدها عن مسؤوليّتها الكبرى وعن رسالتها المهمّة وعن دورها العظيم المقدّس، الأمّة التي يراد لها أن تكون أمّة الخير وأمّة الحقّ وأمّة العدل وأن تنشر رسالة الله بما في رسالة الله من قيم ومبادئ وأخلاق تصلح واقع البشريّة وتصلح واقع الإنسان وتبني الحياة بناءً صحيحًا سليمًا تتيح للإنسان أن يؤدّي دوره كمستخلف في الأرض بأرقى ما يمكن وبأسمى ما يكون من خلال ارتكازه في انطلاقته الحضاريّة واستخلافه في الأرض على تلك القيم وتلك المبادئ العظيمة.

هذه الأمّة بمسؤوليّتها الكبرى برسالتها العظيمة، عندما استحوذ عليها الأشرار الانقلابيّون، لم يحرفوها فقط عن مسؤوليّتها بما نتج عن ذلك من تداعيات سلبيّة في واقع الأمم والشعوب الأخرى، بل حتّى على مستوى الأمّة نفسها من أن تحتفظ الأمّة ولو على مستوى واقعها الداخلي - وهي الأمّة التي أرادها النبي محمّد أن تخرج من الظلمات إلى النور، فتنشر الحق والخير والعدل ولتنقذ البشريّة وتعتقها من هيمنة الطاغوت - بتلك القيم لتكون هي الأساس في بناء واقعها وحكمه والأساس في ترتيب وضعها والأساس في مسار حياتها.

ولقد كان الإمام علي عليه السلام بما كان عليه من مقام عظيم، ومن إيمان عالٍ هو رجل المسؤوليّة كان هو الكفؤ لأن يقود الأمّة في المسار الذي أراده الله لها وأراده الرسول لها مسار العدل والمثل والمبادئ العظيمة، مسار الحقّ والعدل والخير والمسار المقدّس بكلّ ما يمثّله الإمام علي عليه السلام من ثقل وتأثير وفاعليّة وكفاءة كبيرة للسير بالأمّة في هذا المسار العظيم كانت ترى فيه القوى الانقلابيّة عقبة كبيرة فتحرّكت ضدّ الإمام علي عليه السلام بكلّ ما تستطيع على المستوى الثقافي والفكري، والاستهداف الإعلامي، ثمّ التصفية الجسديّة وحروب إلى غير ذلك.

والإمام علي عليه السلام كما استهدف ليقتل استهدف ليشوَّه وللحطّ من مكانته ومقامه وما نرى عليه الواقع العامّ لدى كثير من الحكومات والدول والقوى عندما نرى كيف تعمد دائمًا إلى تغييب هذا المقام لعليّ عليه السلام؛ هذا كلّه إنما هو أثر من ذلك الاستهداف، استهداف استمرّ باستمراريّة أثر علي عليه السلام وباستمراريّة فاعليّة الدور الذي قام به علي عليه السلام في الحفاظ على الحقّ الذي له حضور ووجود، حتّى وإن حورب، حتّى وإن حوصر، حتّى وإن تكاثر الباطل من حوله. فهو الذي قال له الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إنّه سيقاتل على تأويل القرآن كما قاتل على تنزيله. يقاتل ليحافظ على تلك المفاهيم الناصعة، الصحيحة للقرآن الكريم للإسلام العظيم، لتبقى هي القائمة والحاضرة في واقع الأمّة والمعتمدة في رؤيتها وفكرها وثقافتها وتوجّهها؛ لأنّه عندما تحرف مفاهيم القرآن يحرّف الإسلام في كثير من معالمه، في كثير من مبادئه، في كثير من أسسه؛ فيبقى من الإسلام شكل لا لُبَّ له، ويبقى منه زيف بعيد عن الواقع؛ فيظلم واقع الأمّة التي تنتمي للإسلام؛ فلا نرى عظمة الإسلام في واقعها، ولا أثر الإسلام في حياتها، يصبح الإسلام دينًا لا أثر له في الواقع، لا أثر له في الحياة، فالمنتمون إليه لا يعتزّون به، لماذا؟! لأنه حُرِّفَ.

وحينما يحرّف الإسلام، حينما يذهب من الإسلام أسسه المثلى ذات الأهميّة الكبيرة، حينما تحرّف مفاهيمه؛ يبقى منه شكلًا لا تأثير له في واقع الحياة، لا في إحقاق حقّ، ولا في إبطال باطل، ولا في دفع فساد، ولا في

ترسيخ دعائم الخير والصلاح؛ وهذا ما استهدفت القوى الانقلابيّة عليًّا عليه السلام لأجله، فقد رأت في علي عقبة أمام مساعيها للسيطرة على الأمّة، وفيما يتناسب مع ما تريده هي، بما يهيّئ لها من السيطرة على واقع الأمّة؛ لأن هناك في الإسلام وفي مفاهيم القرآن وفي توجيهات الله سبحانه وتعالى، بل في لبّ الدين الإسلامي ما يراه الطغاة والمجرمون والفاسدون والمستبدّون عقبةً كبيرةً أمامهم.

فإذا كان الإسلام، وهو كذلك، دينًا قائمًا على أساس العدل والقسط، حال كل رسالات الله التي جاء بها كلّ الأنبياء ودعوا إليها وعملوا على إقامتها وإحيائها ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾[1]. ومهمّة إقامة العدل حين يستشعرها كلّ مسلم مسؤوليّة وقاعدة أساسيّة في بنيان إسلامه، يرى أولئك الخارجون على ولاية أمر الأمّة المستبدّون الطامعون خطورة كبيرة وعائقًا أمام هيمنتهم وسيطرتهم وتسلطهم في ذلك، فيسعون لأن يغيّروا مفاهيم الإسلام لدرجة عجيبة، لدرجة أن يقلبوا المفاهيم ويجعلوها مغلوطة مفتراة على الله وعلى رسوله والتي تمثّل مسخًا للأمّة بأنّ طاعة الظالمين الجائرين المستبدّين المفسدين الذين لا يهتدون بهدي ولا يستنّون بسنّة، والرضوخ لهم والصمت عن فسادهم وظلمهم وطغيانهم وإجرامهم عبادة من أعظم العبادات وواجب محتوم على كلّ مسلم. هكذا تُحرَّف وتُقلَب المفاهيم، ولهذا كان وجود الإمام علي عليه السلام يمثّل عقبة كبيرة أمامهم، كلّما تهيّأت له الأمور أكثر لبناء الدولة الإسلاميّة بشكلها الصحيح على الأسس الصحيحية والسليمة ومن ثمّ تربية الأمّة وترسيخ مفاهيم الإسلام الحقّ ومفاهيم القرآن الأصيلة الصحيحة في أبناء الأمّة كانوا يرون في ذلك خطرًا كبيرًا؛ فعملوا

---

(١) سورة **الحديد**، الآية ٢٥.

على إعاقته وإشغاله ومحاربته واستهدافه طوال فترة حكمه، ومن ثمّ عمدوا إلى استهدافه وتصفيته جسديًّا[١].

ومنذ اللحظة الأولى، منذ أن تمكّن بنو أميّة من إزاحة الإمام علي عليه السلام، تلقائيًا مثَّلت هذه الخطوة ضربة كبيرة للمسلمين، لماذا؟ لأنّها عطّلت المشروع الإسلامي في تنفيذه في الأمّة، وفي تطبيقه، وفي التحرّك به في الأمّة من أهمّ موقع، وهو موقع إدارة الشؤون. الإسلام له مشروعه للحياة، الإسلام ليس مجرّد رهبانيّة للصوامع وفي المساجد، برنامج للحياة، الإسلام له مشروعه التربوي للإنسان، له قِيَمه، له أخلاقه، له مبادئه، له تعليماته، له بناؤه ومشروعه البنيوي.

وكان أهمّ موقع لإنزال هذا المشروع وتهديم بنيانه أن يتمّ إزاحة القائم على هذا المشروع، من يستطيع تحريك هذا المشروع في أوساط الأمّة، وإدارة شؤونها. وحينما يُزاح ويضعف موقع الثقل في تحمّل المسؤوليّة يصبح تقديم مشروع الإسلام، ونظامه وبرنامجه ومبادئه من الواقع الخارجي للأمّة، يعني: من الواقع الهامشي، ليس من موقع قرارها، من موقع إدارة شؤونها، وإنّما حالة عرضيّة هنا وهناك فيصبح ضعيف التأثير، وضعيف التنفيذ، ضعيف الحضور، بل وشكلي الحضور، وهذا ما جرى في واقع الأمة؛ لأنّه أصبح هناك تعارض من موقع إدارة شؤون الأمّة، ومن موقع القرار، بحيث تصاغ توجّهات الأمّة عبر برنامج يحضّروه هم لا يمثّل النشاط الجوهري للحفاظ على المشروع الإسلامي، كحالة فكريّة، حالة ثقافيّة، بل حالات فرديّة لا تؤثّر التأثير المطلوب كما سعى له نبي الإسلام، وكما هو برنامج القرآن[٢].

من يقولون: إنّ إحياء ذكرى استشهاد الإمام علي بدعة، يريدون أن تموت الأمّة باسم الدين، وأن تذبح باسم الإسلام، هم من يعملون على تفريغ هذه الأمّة من هويّتها الدينيّة وفصلها عن رموزها الدينيّين والحقيقيّين وإبعادها

---

(١) من محاضرة السيّد عبد الملك في ذكرى استشهاد الإمام علي عليه السلام لعام ١٤٣٤هـ.

(٢) من كلمة للسيّد عبد الملك في ذكرى استشهاد الإمام علي عليه السلام لعام ١٤٣٧هـ.

عن أعلامها العظماء من يشرّفها أن تنتمي إليهم ومن تجد في حياتها كلّ ما تحتاجه من الدروس التي تفيدها في حياتها[١].

هكذا هو الإمام علي عليه السلام كان وسيبقى نورًا في مشرق الشمس قدوة للمستبصرين ونورًا للحائرين وعلمًا يقتدى ويتأسّى به في مدرسة الإسلام الكبرى ويمثّل النموذج الحقيقي والقدوة للرموز الحقيقيّين؛ لأنّنا أيّها الإخوة والأخوات: في هذا العصر نشهد كيف تتحرّك مخابرات العدوّ، المخابرات الأمريكيّة لتصنع رموزًا وهميّين في الساحة الإسلاميّة يبرزون وهم يتمسّكون ببعضٍ من قشور الإسلام وشكله ثمّ يبقون أو يبرزون في الساحة الإسلاميّة ليستقطبوا الكثير الكثير من قاصري الوعي وناقصي الإيمان ليلتفّوا حولهم فيتحرّكون تحت عناوين دينيّة ليضربوا الإسلام من داخله ليثيروا مشاكل في الأمّة الإسلاميّة من داخلها. وعلى مرّ التاريخ الإسلامي، لطالما صُنع الكثير من الرموز الوهميّين الزائفين الذين لا يمثّلون الإسلام بحقيقته وأخلاقه وكانوا أساطين للظالمين والجبابرة والطغاة والاستبداد وكانوا أنصارًا لخطّ الاستبداد والظلم في داخل الأمّة، هذه وسيلة وهذا أسلوب اعتُمد عليه في السابق ويُعتمد عليه في الحاضر وهذا شيء ملموس[٢].

لذلك نحن في هذا العصر ونحن نعاني من الظالمين ومن حالة الزيف فقد أردنا النبي من خلال الإمام علي أن يوصلنا بالقرآن، ويبقى حبّه علامة فارقة يتبيّن بها المؤمن، وبغضه وصمة عار ينكشف بها المنافق، لو لم يكن لنا من عليّ إلّا هذا، فكيف وهو مثل مسار الإسلام في أصالته ومفاهيمه الصحيحة بعيدًا عن الزيف وبعيدًا عن التحريف[٣].

ثمّ يبقى لنا نقطة واحدة نؤكّد عليها كيف كانت الوسيلة التي اعتمدها من تآمروا على علي عليه السلام لقتله؛ هي الأداة التكفيريّة (ابن ملجم)؛ واحد

---

(١) الشهيد القائد السيّد حسين في ذكرى استشهاد الإمام علي عليه السلام.

(٢) من محاضرة السيّد عبد الملك في ذكرى استشهاد الإمام علي عليه السلام لعام ١٤٣٣هـ.

(٣) من محاضرة السيّد عبد الملك في ذكرى استشهاد الإمام علي عليه السلام لعام ١٤٣٤هـ.

من التكفيريّين المغفّلين الجاهلين بحقيقة الإسلام حيث تبقى هذه النوعية من التكفيريّين المغفّلين الجاهلين بحقيقة الإسلام أداة قذرة يُحرّكها الأعداء ويستغلّونها لضرب الخطّ الإسلامي الأصيل من الداخل، وهذا ملموس أيضًا. ألا نرى كيف يتحرّك التكفيريّون داخل الأمّة ليواجهوا أيّ تحرّك يناهض السياسة الأمريكيّة؟ هم لا يرون كفر أمريكا ولا كفر إسرائيل وهذا من عجائبهم، لا تصدر قراراتهم وأحكامهم بالكفر إلّا داخل هذه الأمّة، الكفر الأمريكي، الكفر الإسرائيلي لا يرونه لا يستهدفونه، لا يُصدرون عليه أحكامهم، ثمّ ينقضّون بكلّ وسائلهم بمفخّخاتهم بما إلى ذلك لاستهدافه لأنّهم فقط وفقط أداة، أداة بيد الأعداء، عين الكفر عندهم هو مناهضة السياسة الأمريكيّة والإسرائيليّة وبهذا يتحرّكون لاستهداف القوى التي تواجه الكفر الحقيقي والخطر الحقيقي على الأمّة الإسلاميّة(١).

(١) من محاضرة السيّد عبد الملك في ذكرى استشهاد الإمام علي عليه السلام لعام ١٤٣٣هـ.

سادسًا- الدروس والعبر من حياته عليه السلام

سيرة الإمام علي عليه السلام هي دروس تُدرَّس، هي مسار يقرأ، تحتاج إلى الكثير والكثير، بل إنّها تواكب الناس في كلّ مراحل حياتهم، وفي كلّ مسارات حركتهم، وفي كلّ الظروف والمراحل التي يمرّون بها ويعبرونها، في كلّ زمن، في كلّ ظرف، في كلّ حدث، نجد من عليّ درسًا، ونجد في سيرة عليّ عبرةً، ويلهمنا عليّ - فيما قال، وفي ما عمل - كيف كان عليه، وفيما كان عليه، كيف يجب أن نكون كمؤمنين في مدرسة الإسلام، وفي أخلاقه ومبادئه.

الإمام علي عليه السلام، الذي قال عنه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «أنت منّي بمنزلة هارون من موسى إلّا أنّه لا نبيّ بعدي»، فالإمام علي عليه السلام له هذا الموقع الاستثنائي من رسول الله كما كانت منزلة هارون من موسى باستثناء النبوّة، لكنّه امتداد للرسالة كهادٍ، ومعلّم، ومرشد، وقائد، وقدوة، ويمتدّ هذا الدور في أوساط الأمّة، وفي تاريخها ومستقبلها[١].

وعندما نستذكر ما حصل للإمام علي عليه السلام ولغيره من أئمّة أهل البيت من بعده يجب علينا أن نقف عند بعض تفاصيلها لاستخلاص العبر منها عبر:

(١) من كلمة للسيّد عبد الملك في ذكرى استشهاد الإمام علي عليه السلام لعام ١٤٣٧هـ.

١- قراءة ما جرى لأهل البيت عليهم السلام عبر التاريخ

يقول السيّد حسين (رضوان الله عليه) وهو يتحدّث عن مأساة عاشوراء:

نحن لا نتحدّث عمّا حصل من مآسٍ في التاريخي من الجانب العاطفي فقط، الجانب العاطفي مثير لكن عندما نقتصر في تناولنا لها على هذا الجانب فذلك قد يجعل القضيّة تتجمّد في عصرها، ويجعلنا نحن لا نستطيع أن نستلهم منها الدروس والعبر.

ثمّ يضيف قائلًا: ولذا حاولنا أن يكون إحياؤنا لهذه الذكرى هو فعلًا حديثًا عمّا جرى فيها من مآسٍ كشفت عن وحشيّة أولئك الظالمين، وخشونة طباعهم، وخبث أنفسهم.

ونعرف أيضًا الأسباب التي أدّت لمثل تلك؛ لأنّها أسبابٌ يعيشها الناس في كلّ عصر. نحن نعيش - فيما أعتقد - والأمّة المسلمة تعيش الحالة نفسها، الأسباب نفسها التي هيّأت الظروف لأن يسقط بين أيديها مثل علي والحسن والحسين وزيد ومحمّد بن عبد الله النفس الزكيّة وغيرهم من عظماء أهل البيت، الحالة نفسها واحدة.

سنظلّ دائمًا نئنّ ونتوجّع من الأحداث ولا نهتدي لحلّ، ولا نعرف من الذي وراء ذلك، إذا لم نعد إلى دراسة أسباب الأحداث من أوّلها حتّى نعرف ما إذا كان هناك في واقعنا شيء من هذه الأسباب متوفّر، شيء من هذه الحالة التي أدّت إلى تلك النتائج السيّئة التي تعيشها الأمّة. فإذا ما وجدنا أنفسنا نعيش نفس الشعور، نفس الحالة، فاعرف بأنّك إنّما ستكون مثل أهل العراق، مثل أهل الشام الذين ظلّوا دائمًا يتوجّعون، مثل هذه الأمّة من أوّلها إلى حاضرها، تتوجّع من الأحداث، والكوارث، وتئنّ وتصرخ ولا ترى مخرجًا، ولا تعرف حلًّا[١].

---

(١) كلمة للسيّد حسين (رضوان الله عليه) في ذكرى عاشوراء.

ويقول (رضوان الله عليه):

لا يمكن للأمّة أن تعرف كيف ترسم طريقها، وكيف تسلك المنهج الذي تمثّله في سلوكها كالالتفاف مع الصادقين، والانضواء تحت رايات أعلام الدين، إلّا من خلاله استقراء الأحداث، ومعرفة الأسباب، والخلفيّات.

وهذه قضيّة ليست جديدة، نحن عندما نربط سقوط الإمام علي عليه السلام بحادثة السقيفة على الرغم من قربها فليست قضيّة مستبعدة، فنحن نسمع اليوم من يقولون عن اليهود: إنّ الذي جعل اليهود يتعاملون مع الأمّة بهذه القسوة هو ثقافتهم، تأثّرهم بها؛ تلك الثقافة التي عمرها قرون طويلة، والتي لا تقلّ عن ثلاثة آلاف سنة[١].

٢- خطورة القصور في الإيمان والوعي

يقول السيّد حسين (رضوان الله عليه) في الدرس الأوّل من دعاء مكارم الأخلاق:

« الحالة التي وصل إليها الخوارج بالذات هي حالة يجب أن نستفيد منها في هذه المرحلة ونحن في مواجهة مع اليهود، فما حصل هي حالات يخلقها - أحيانًا - ضعف وعي ممّن ينطلقون للعمل، وإن كانوا تحت راية علي عليه السلام ويحملون اسم جند الله، وأنصار الله، لكنّ وعيهم، وإيمانهم القاصر الناقص أدّى إلى أن يرتكبوا جناية فظيعة على الأمّة.

أولئك (الخوارج)، وهم مجموعة من جند الإمام علي عليه السلام انشقّوا عنه في أيّام (صفّين) بعد أن رفع معاوية وأصحابه المصاحف عندما أحسّوا بالهزيمة وقالوا: بيننا وبينكم كتاب الله، فأولئك المتعبّدون على جهل، الجنود غير الواعين تأثّروا بتلك الدعاية! وهكذا سيحصل في كلّ عصر لأيّ فئة وإن انطلقوا تحت اسم أنّهم جنود لله، وأنصار لله، إذا ما كان إيمانهم ناقصًا،

(١) الشهيد القائد السيّد حسين في ذكرى استشهاد الإمام علي عليه السلام.

سيجنون على العمل الذي انطلقوا فيه، سيجنون على الأمّة التي يتحرّكون في أوساطها، سيجنون على الأجيال من بعدهم، وهم من انطلقوا باسم أنّهم يريدون أن ينصروا الله، وأن يكونوا من جنده لكنّ إيمانهم ناقص، ووعيهم ناقص».

٣- متطلّبات المواجهة مع أمريكا وإسرائيل في هذه المرحلة

يقول السيّد حسين (رضوان الله عليه) في الدرس الأوّل من دعاء مكارم الأخلاق:

«إذا كان ولا بدّ كما هو الحال بالنسبة لواقعنا والأمّة في مواجهة صريحة مع اليهود والنصارى، مع أمريكا وإسرائيل ونحن في زمنٍ بلغ فيه التضليل ذروته في أساليبه الماكرة، في وسائله الخبيثة، في خداعه الشديد، فإنّ المواجهة تتطلّب جندًا يكونون على مستوى عالٍ من الوعي».

٤- دور المتخاذلين في انتصار الظالمين وتمكّنهم في كلّ عصر

يقول السيّد حسين (رضوان الله عليه) في الدرس الأوّل من دعاء مكارم الأخلاق:

«أتظنّون أنّ انتصار الدولة الأمويّة، وتمكّنها لتقهر الآخرين، ثمّ تمكّنها لأن تصنع أمّة أخرى غير الأمّة التي أراد محمّد ﷺ أن يبنيها من ذلك الزمان إلى الآن، فقط هي قوّتهم؟ لا، بل تخاذل من يحملون اسم جند الحقّ، قلّة إيمانهم، وضعفه، وضعف وعيهم. لماذا انتهت معركة صفّين دون هزيمة لمعاوية، وقد كانت مؤشّرات الهزيمة بدأت؟ عندما تخاذل أولئك الجنود من صفّ الإمام عليّ وتحت رايته.

لماذا وقد تحرّك الإمام الحسن عليه السلام ليواصل المسيرة، مسيرة والده الإمام علي عليه السلام فآل الحال إلى أن يقف مقهورًا ويأخذ ما يمكن من الشروط لتأمين مجتمع أهل العراق، عندما تخاذل أصحابه، الإمام الحسين عليه السلام

آلت قضيته إلى أن يقتل في كربلاء بسبب ماذا؟ تخاذل أصحابه، التخاذل الذي يصنعه ضعف الإيمان، وقلّة اليقين، وانعدام الوعي.

وكان الإمام علي عليه السلام يحذِّر، وعندما كان يحذّر كان يوجّه تحذيره إلى جيشه، إلى أصحابه، وليس إلى أولئك في جيش معاوية، يقول لأهل العراق: «والله إنّي لأخشى أن يدال هؤلاء القوم منكم لاجتماعهم على باطلهم وتفرّقكم عن حقّكم». كان جيش معاوية يجتمعون تحت رايته لكنّ أصحاب الإمام علي كانوا يتخاذلون ويتثاقلون، والتفرّق قائم بينهم، لا يتحرّكون إلّا بعد عناء وتعب شديد وتحريض مستمرّ. ما الذي جعلهم على هذا النحو؟ قلّة إيمانهم، ضعف وعيهم».

ويقول أيضًا في ذكرى استشهاد الإمام علي عليه السلام:

إنّ الفساد ينتشر، إنّ الحقّ يضيع، إنّ الباطل يحكم ليس فقط بجهود أهل الباطل وحدهم بل بقعود أهل الحقّ. وأعتقد أنّ هذا نفسه قد يمثّل نسبة سبعين في المئة من النتائج السيّئة. بدليل أنّنا نرى: أنّ الله سبحانه وتعالى لم ينظر حتّى إلينا بمنظار خمسين في المئة وخمسين في المئة من جانب الأشرار فنكون أمامه على صعيد واحد، بل نراه يسلّط أولئك على هؤلاء، ماذا يعني ذلك؟ أنّ التقصير من جانب أهل الحقّ، من جانب هذه الأمّة، من جانب من هم في واقعهم يمثّلون جنود الله أنّ التقصير من جانبهم هو عامل مهمّ، وهو العامل الأكبر في سيادة الباطل، واستحكامه وانتشاره وضياعه.

من يفكّر هذا التفكير هو عليّ في هذه الكلمة عندما قال لأهل العراق: «لاجتماعهم على باطلهم وتفرّقكم عن حقّكم».

لو لم نخرج من هذا الاجتماع إلّا بأن نحمل هذه الرؤية لكان مكسبًا كبيرًا، أن نعرف من عليّ في هذه الليلة ولو هذه الرؤية: أنّنا نمثّل في قعودنا، في سكوتنا، في صمتنا، في إهمالنا، في حالة اللامبالاة التي نعيشها سبعين في

المئة من عوامل سيادة الباطل وضياع الحقّ، من عوامل ظلمنا وقهرنا وإذلالنا لأنفسنا نحن.

٥- خطورة عدم تقدير القادة العظماء

من الدروس المهمّة التي يجب أن نستفيدها هي ضرورة أن يذوب الناس في اتباعهم للقيادة من أعلام الهدى ونعرف كذلك كيف هي حقيقة التولّي لهم والوعي بها وخطورة جهل الناس بهذه المسألة وما يترتّب على الجهل بها من كوارث للأمّة فخير شاهد على ذلك ما ارتكبه الخوارج من جناية على الأمّة إلى اليوم بسبب جهلهم بمسألة الولاية وعدم تقديرهم للإمام علي عليه السلام.

يقول السيّد حسين (رضوان الله عليه) في الدرس الأوّل من دعاء مكارم الأخلاق:

«هكذا يعمل الناس الذين وعيهم قليل، من لا يعرفون الرجال، من لا يقدّرون القادة المهمّين؛ لأنّي أنا آمن جانب عليّ لا أخاف أن يقتلني على التهمة أو الظِنّة كما كان يفعل معاوية، لا أخاف أن يدبّر لي اغتيالًا، لا أخاف أن يصنع لي مشاكل، لا أخاف أن يوجد لي خصومًا يصنعهم من هنا أو من هنا فكانوا يأمنون جانبه.

وفعلًا من الذي سيخاف من الإمام علي أن يمكر به، أو يخدعه، أو يضرّه، أو يؤلّب عليه خصومًا من هنا وهناك.. الناس الذين وعيهم قاصر، إيمانهم ضعيف هم الذين يعيشون حالة كهذه، كلام كثير وتحدٍّ وتحليلات وتثاقل وتثبيط، وهم في ظلّ شخص عظيم كعلي بن أبي طالب عليه السلام؛ لأنّهم يأمنونه.

انظر إلى شخص ذلك القائد العظيم، سترى نفسك آمنًا في ظلّه، إذًا هو الشخص الذي يجب أن أكون وفيًّا معه. إنّ حالة الشعور نحوه بأنّني آمن جانبه يعني أنّه رجل عدل، رجل إيمان، رجل حكمة، فهذا هو الذي يجب أن أفي معه، وأن أقف بجانبه وأن أضحّي تحت رايته بنفسي ومالي، هي الحالة التي

لا يحصل عليها أتباع الطواغيت حتّى أبناؤهم، وأسرهم، وأقرب المقرّبين إليهم لا يحصلون على هذه الحالة؛ لأنّ الطاغوت يعرف أنّ ابنه يخدعه ربّما، يمكر به ويأخذ السلطة، ربّما قائده يخدعه ويمكر به ويأخذ السلطة، ويخطّط له في الوقت الذي ينفّذ مهامه، القائد يخاف، وهو يخاف، المستشار خائف منه، وهو خائف من مستشاره، هكذا، ومن يعرف الدول هكذا يكون حالهم.

في الدول الطاغوتيّة لا يأمن الناس من بعضهم أليس هذا هو ما يحصل؟ حتى في البلاد الإسلاميّة على طولها وعرضها، من هو ذلك المؤمن الذي يقول كلمة حقّ وهو لا يخاف أولئك الذين من المفترض أن يصدعوا بالحقّ، وأن يُعلوا كلمته فوق رأس هذه الأمّة، وأن يرفعوا رايتها؟! لكن هكذا يصنع ضعف الإيمان. فمتى ما جاء لأهل العراق رجل كصدّام والحجاج انقادوا وخضعوا وتجاوبوا وخرجوا بنصف كلمة يصدرها فيتجاوبون سريعًا! «.

٦- معاناة الإمام علي مع أهل العراق وسببها

يقول السيّد حسين (رضوان الله عليه):

«كان الإمام علي عليه السلام يقول لأهل العراق: «قاتلكم الله يا أهل العراق لقد ملأتم صدري قيحًا» وكان يوبّخهم «يا أشباه الرجال ولا رجال» ولا يخرجون، ولا يتحرّكون، إلّا بعد الخُطَب البليغة، والكلمات الجزلة، والكلمات المعاتبة الموبّخة، المتوعّدة بسخط الله، وبسوء العاقبة في الدنيا حتّى يخرجوا، فإذا ما خرجوا خرجوا متثاقلين؛ لأنّهم كانوا يأمنون جانبه.

هل هذا هو السلوك الصحيح لأمّة يقودها مثل علي؟! ثمّ إذا ما قادها مثل الحجّاج ومثل يزيد ومثل صدّام تنقاد ويكفيها نصف كلمة!. ما هذا إلّا ضعف الإيمان، وضعف الوعي، وعدم البصيرة.

في ذلك الوقت الذي كانت تثير تلك الحالة دهشة القليل من أصحاب الإمام علي عليه السلام، الذين كانوا يعرفون عظمة ذلك الرجل، ثمّ يندهشون وهم ينظرون إلى تلك المجاميع الكثيرة الشقاق والنفاق والتثبّط والتراخي والكلمة

المفسدة من أطرف منافق فيهم تحطّمهم وتجعلهم يتقاعدون، كان هناك مجموعة صامدة لكنّها كانت قليلة.

وهل أنّ الإمام عليًّا عليه السلام لم يكن يعمل ليصنع لدى الآخرين بصيرة، بل كانت خُطَبُه خُطَبًا مهمّةً جدًّا، قادرة على أن تحوّل الرجال إلى كتل من الحديد؛ لكنّهم هم الذين كانوا لا يفتحون آذانهم». هذه هي مشكلة الناس في كلّ عصر.

يقول السيّد حسين (رضوان الله عليه):

«هذه هي مشكلة الناس في كلّ زمان، في أيّام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، في أيّام الإمام علي عليه السلام، في كلّ زمان، الذين لا يفتحون آذانهم لا يمكن أن يؤثّر فيهم أيّ شيء، هم الذين يعجزون القرآن، ويعجزون محمّدًا، ويعجزون عليًّا، ويعجزون كلّ أولياء الله، يجعلونهم عاجزين أمامهم، الذين لا يفتحون آذانهم، أو يفتحونها فترة ثمّ يضعون لأنفسهم خطًّا معيّنًا ويرون بأنّهم قد اكتفوا، هؤلاء هم من تكثر جناياتهم على الأمّة، وعلى الدين جيلًا بعد جيل»[١].

٧- التنبّه لأثر حالة اللامبالاة السيّئ

يقول السيّد حسين (رضوان الله عليه):

الجرائم ليست في العادة نتيجة عمل طرف واحد فقط، المجرمون من جهة، المضلّون من جهة يجنون، والمفرِّطون والمقصّرون والمتوانون واللامبالون هم أيضًا يجنون من طرف آخر.

الجريمة مشتركة من أوّل يوم حصل فيه الانحراف عن مسيرة هذه الأمّة وعن هدي القرآن، وهدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكيف يمكن أن يسمع الناس منطق الحقّ ثمّ نراهم في يوم من الأيّام يقفون في وجه الحقّ، في صفّ الباطل، هذا هو الذي حصل بالنسبة لأهل العراق.

---

(١) السيّد حسين (رضوان الله عليه) في الدرس الأوّل من دعاء مكارم الأخلاق.

معاوية أضلّ أهل الشام فكانوا قاعدة لإمارته وخلافته، وقاعدة لخلافة ابنه يزيد، وكانوا جيشًا قويًّا يتحرّكون لتنفيذ أهدافه، وأهل العراق من جانب آخر. ما الذي حصل؟. ألم يعش علي عليه السلام بينهم سنين خلافته ما عدا الأيّام الأولى منها كانت في العراق.. وعلي ببلاغته، بمنطقه، بحجّته، بمعرفته وعلمه الواسع (باب مدينة العلم) هو من كان دائمًا يتحدّث مع أهل العراق، من كان دائمًا يوجّه ويرشد ويعلِّم ويحذِّر وينذر من عواقب الأمور.

فلماذا رأينا أهل العراق يقفون قبل أهل الشام في صفّ يزيد في مواجهة الحسين نفسه؟! إنّه التفريط، ليس فقط التفريط أمام الحدث، بل التفريط يوم نسمع التوجيهات فلا تعطيها أهميّتها. أن تحصل حادثة معيّنة، فتتقاعس، تقاعسك، قعودك، إنّما هو نتيجة لتفريطك الأوّل يوم كنت تسمع توجيهات عليّ، يوم كنت تسمع إنذار عليّ، يوم كنت تسمع الحِكَمَ تتساقط من فم عليّ كالدرر، فتنظر إليها وكأنها بَعَر، لا تهتمّ بها.

هذا هو منبع التفريط؛ يوم يسمع الناس الكلام والتوجيهات ومنطق الحقّ ثمّ لا يهتمّون ولا يبالون، ولا يعطون كلّ قضيّة ما تستحقّه من الأهميّة...

ذلك التفريط هو الذي جعل أهل العراق قبل أهل الشام يصلون إلى كربلاء فيحاصرون الحسين عليه السلام وأهل بيته، وجعلهم قبل أهل الشام يوجّهون النبال إلى صدره، وهم من عاش بينهم عليّ عليه السلام سنين يحدّثهم ويعظهم ويرشدهم؛ لماذا؟ ما الذي أوصلهم إلى هذا الحدّ؟.

هم فرّطوا، وعندما يفرّط الإنسان فيما يسمع ستأتي البدائل المغلوطة، إمّا أن يتلقّاها من أمثاله ممّن يفهمون الأمور فهمًا مغلوطًا، ممّن لا يعرفون عواقب الأمور، أو من جهة نفسه فيحلّل كما يحلو له، ويحاول أن يضع لكلّ قضيّة حدًّا معيّنًا، يظنّ أنّها لا تتجاوزه[١].

---

(١) السيّد حسين (رضوان الله عليه) في دروس من وحي عاشوراء.

٨- كيف تحوّلت الساحة الإسلاميّة إلى ساحة تقتل العظماء

عندما تتحوّل الساحة الإسلاميّة إلى ساحة ليس فقط لا تقبل العظماء وإنما إلى ساحة تقتل العظماء فعلامَ يدل ذلك؟ يدلّ على انحراف عن الخطّ السويّ، عن الصراط المستقيم؛ لأنّ من المعلوم أنّ دعوة رسول الله ﷺ، ورسالته، وتربيته، ومنهجيّته كانت بالشكل الذي تخلق ساحة للعظماء، وأمنًا لهم، تخلق التفافًا تحت راياتهم، لا أن يصير الحال إلى أن نرى أولئك العظماء يتساقطون واحدًا تِلوَ الآخر داخل هذه الساحة. فعليٌّ يسقط شهيدًا، والحسن بعده يسقط شهيدًا، والحسين بعده يسقط شهيدًا، وزيد بعده يسقط شهيدًا وهكذا واحدًا تِلوَ الآخر!.

ما الذي حصل؟! إن لم يكن في هذا ما يدلّ على أنّه وقع انحراف خطير فلا أدري ما هو الشيء الذي يمكن أن يدلّ بعد هذا.

الذي يتأمّل كتاب الله يجده يأمر الأمّة، يأمر المسلمين أن يكونوا مع الصادقين، فلماذا أصبح الصادقون يتساقطون واحدًا تلو الآخر؟! ولماذا أصبحت تلك الأمّة التي خُوطِبَت بأن تكون مع الصادقين تعتدي على هؤلاء، وفي نفس الوقت التفّوا مع الكاذبين!. يسقط عليٌّ شهيدًا وتلتفّ الأمّة بعده - رغبة ورهبة - تحت راية معاوية، وفي صفّه!.

هل كان ذلك وليد تلك اللحظة؟ وليد ذلك الشهر الذي سقط فيه الإمام علي عليه السلام شهيدًا؟. لا، إنّه الانحراف الذي بدأ، والذي يرى البعض بل ربّما الكثير يرون في تلك البداية وكأنّها بداية لا تشكّل أيّة خطورة، لكنّ شاعرًا كـ(الهَبَل) مرهف الحِسّ، عالي الوَعي، راسخ الإيمان، يمتلك قدرة على استقراء الأحداث، وتسلسل تبعاتها، يقول في كلمة صريحة في بيت صريح:

وَكُـلُّ مُصـابٍ نَـالَ آلَ محمّدٍ فليسَ سوى يومِ السَّقِيفَةِ جَالِبُهْ

عندما نرى الإمام عليًّا عليه السلام يسقط شهيدًا لا يكفي أن نحزن، لا يكفي أن نبكي، لا يكفي أن نتألّم، بل لا بدّ أن نأخذ العبرة، أن نتساءل: لماذا نرى الصادقين يسقطون شهداء داخل هذه الأمّة؟! ولماذا رأينا فيما بعد وعلى

امتداد التاريخ الكاذبين الظالمين الطغاة، المحرفين للدين، المنتهكين لحرمات الله هم من يحكمون هذه الأمّة؟! وباسم رسالة هذه الأمّة (الإسلام)! وباسم نبيّ هذه الأمّة (أمير المؤمنين، خليفة رسول ربّ العالمين) وعناوين من هذه؟!.

سنظلّ نحزن نحن وغيرنا، ونظلّ نبكي نحن وغيرنا ما لم تكن نظرتنا إلى الأحداث على هذا النحو، وسنظلّ نشاهد الأحداث المريرة، ونتألّم لحادث بعينه، للفترة التي هو فيها، دون أن نأخذ العبر، والدروس، إنّ هذا يعتبر خللًا كبيرًا[١].

٩- أن نعرف أهميّة الحفاظ على الوضع الداخلي

يقول السيّد عبد الملك بدر الدين الحوثي وهو يتحدّث عن أهميّة الوضع الداخلي:

«قضيّة العدوّ قضيّة محسومة إذا كان الواقع الداخلي سليمًا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾[٢]، فهو الأساس الحاسم المهم جدًّا إذا كان صالحًا و سليمًا وإذا كانت المسؤوليّات الجهادية تُؤَدَّى بالشكل المطلوب فواقعُ العدوِّ واقعٌ منتهٍ.

على مرّ التاريخ، كانت المسيرة الجهاديّة مع كلّ أهل البيت عليهم السلام في الماضي بدءًا من الإمام علي عليه السلام من بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وما حصل من اختلالات وهزائم في واقع أصحابه وجيوشه ومجتمعه، ثمّ ما حصل في فترة الإمام الحسن عليه السلام وما حصل في فترة الإمام زيد عليه السلام كان العامل الأخطر هو الخلل الداخلي.

---

(١) الشهيد القائد السيّد حسين في ذكرى استشهاد الإمام علي عليه السلام.

(٢) سورة **المائدة**، الآية ١٠٥.

ليست قوّة العدوّ وإمكانيّاته هي العامل الحاسم، بل كان العامل الأساسي هو الوضع الداخلي، الاختلال في الواقع الداخلي لدى الأمّة التي تعتبر نفسها الأمّة المؤمنة، المجاهدة، الموالية للثقلين.

هذا الواقع هو العامل الأساسي في الاختلالات داخله نتيجة قلّة الإيمان والقصور في الوعي واللامسؤوليّة والإهمال والتقصير والتهاون الذي أدّى إلى تغلب أهل الباطل وهيمنتهم على مرّ التاريخ بما يترتّب على ذلك من آثار سيّئة في واقع الحياة كلّها».

١٠- التنبّه لخطر التيّار الوهّابي التكفيري

يسعى التيّار الوهابي التكفيري في ظلّ مسعاه إلى إثارة النزاع والصراع بين المسلمين، والاقتتال بينهم تحت العناوين المذهبية وتحت العناوين الطائفيّة، ويحرص في ظلّ هذا المسعى وهذا التوجّه وفي نفس هذه الطريق إلى أن يجعل من محبّة الإمام علي عليه السلام ومن الحديث عنه إشكالية كبيرة جدًّا، بل أن يجعلها جريمة لا تساويها أيّ جريمة في العالم، فأن تكون صهيونيًّا يهوديًّا، إسرائيليًّا. أن تكون من أيّ وادٍ أو مشربٍ في هذه الحياة لا يثيرون الإشكال عن حقيقة توجّهك أو طبيعة انتمائك بقدر ما يثيرونه حول مسألة المحبّة للإمام علي عليه السلام.

فيأتون بالحديث الدائم وكلامهم المعروف: الرافضة المجوس، إلى غير ذلك من التعابير بشكل دائم ومستمرّ وهستيري وجنوني، ثمّ يحاولون أن يخيفوا الآخرين حتّى في الوسط السنّي، مع أنّ محبّة الإمام علي عليه السلام والحديث عن فضائله، والحديث عن مناقبه حفل بها التراث السنّي بقدر ما حفل بها التراث الشيعي، في أهمّ مصادر الحديث في التراث السنّي تجد وأنت متصفّح لها أهمّ النصوص الواردة التي تتحدّث بوديّة وإجلال وتعظيم واحترام للإمام علي عليه السلام، بل وتجد كتبًا في التراث السنّي مفردة عن مناقب الإمام علي عليه السلام وفضائله، ولكنّ التيّار الوهّابي التكفيري حرص على أن يقدّم نفسه على أنّه هو السنّة وأهل السنّة ويعبّر عنهم، ثمّ يأتي بتوجّهات

مناقضة ومختلفة كليًّا في كثير من الأمور عن الإسلام، لا تمتّ بصلة ولا تعبّر بأيّ حال من الأحوال عن حقيقة ما كان عليه التيّار السنّي على مرّ التاريخ، قرون وأجيال متعاقبة.

فحرص هذا التيّار الفتنوي على أن يحيط مسألة الإمام علي عليه السلام ومناقبه وفضائله، ومقامه ودوره الكبير في الأمّة، بإشكاليّة كبيرة، بحساسيّة مفرطة، بعداوة شديدة جدًّا.

١١- بغض الإمام علي شاهد على النفاق

وهذا شاهد واضح أنّهم في حقيقة أمرهم منافقون لأنّ هذه سمة لازمة لمبغض الإمام علي عليه السلام، صفة لازمة نطق بها النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن الله وأعلم بها أمّته أنّه: لا يبغض عليًّا إلّا منافق. هذه صفة لازمة لا يمكن أن تجحدها إلّا وأنت مكذّب للرسول صلى الله عليه وآله وسلم، فلن يتحسّس ويغتاظ ويغضب وينفعل ويستاء ويتعقّد ويعتبر ذلك مشكلة لا أكبر منها عندما تأتي لتتحدّث عن الإمام علي بما قال فيه الرسول ممّا نقلته الأمّة كلّها، لن يفعل ذلك إلّا منافق.

ولهذا، تعتبر من أهمّ السمات والعلامات التي يتميّز بها المنافقون على مرّ التاريخ منذ عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم، بغض الإمام علي عليه السلام، أبو سعيد الخدري أحد الصحابة الكبار قال: ما كنّا نعرف منافقي الأنصار إلّا ببغضهم لعلي بن أبي طالب؛ علامة قريبة واضحة، جليّة، تحدث الفرز السريع.

فإذًا الإشكال والحساسية البالغة والعقد الشديدة والبغضاء وحالة الشحن الطائفي والعداوة المفرطة التي يثيرها التيّار الوهّابي التكفيري تجاه هذا الأمر لا ينبغي أبدًا أن تتأثّر بها الأمّة ولا أن تقبل بها الأمّة ولا أن ترضى بها الأمّة ويجب أن يتصدّى لها الجميع سنّة وشيعة؛ لأنّ عليًّا رمز إسلامي للأمّة كلّها، بفِرَقِها ومذاهبها، وليس رمزًا خاصًّا بمذهب معيّن أو طائفة؛ محبّته سمة إيمانيّة، أينما أنت لا يصحّ لك إيمانك إلّا بمحبّة الإمام علي بن أبي طالب، وإذا كنت مبغضًا له فأنت متّصف بصفة نفاقيّة.

١٢- التنبّه لخطر التيّار التكفيري في التدخّل في صياغة المناهج الثقافيّة والتعليميّة

نلحظ أيضًا أنّ التوجّه الذي عليه النظام السعودي وهو النظام الذي يتبنّى التوجّه التكفيري الوهّابي فأسّس له في أوساط الأمّة ودعمه وموّله ونشره، ومكّن له من خلال دعم إعلامي ومادّي هائل جدًّا وسياسي أيضًا. استغلّ نفوذه السياسي على بعض الحكومات وبعض الأنظمة أن تفتح للتغلغل الوهّابي في الشعوب، كان هذا التيّار غريبًا على شعوبنا كلّها، وغير موجود فيها. هو ظاهرة طرأت في الساحة الإسلاميّة وتغلغلت فيها وانتشرت فيها، بفعل هذا الدعم، بفعل (البترودولار) هذه الأموال الهائلة التي صدّرته إلى العالم الإسلامي، إلى الجزيرة العربيّة (في دول الخليج)، إلى اليمن، إلى مصر، إلى دول المغرب العربي، إلى الشام، لم يكن موجودًا فيها نهائيًّا، واكتسح الساحة وتغلغل في مناطق كثيرة.

تأثّر من تغلغله هذا التيّار السنّي، استهدف الساحة السنّيّة، أتباع المذاهب الأربعة واستهدف الساحة الشيعيّة، واستهدف كلّ فرق الأمّة وكل ساحاتها وتغلغل فيها مدعومًا بشكل كبير ماديًّا ومدعومًا بشكل كبير سياسيًّا، كثير من الحكومات والأنظمة ناصرته، أعطيت له أهمّ الوزارات. كان التيّار الوهّابي التكفيري دائمًا يُسلّم وزارة الأوقاف والإرشاد ووزارة التربية والتعليم حتّى يتمكّن من خلال هاتين الوزارتين إلى أن يتحرّك بشكل رسمي.

إضافة إلى تغلغله في الوسط والنشاط الشعبي، حظي بحماية، ودعم أحيانًا دعم أمني ودعم عسكري، دعم من الحكومات في البلدان تناصره، كان في بعض البلدان يذهب إلى المساجد ومعه فرق عسكريّة أو فرق من الشرطة، فرق تابعة للداخليّة تساعده في عمليّة اقتحام المساجد، والحديث عن هذا الجانب يطول، والمآسي فيه شملت كلّ البلدان العربيّة والإسلاميّة، اليمن، المغرب العربي، مصر، الشام، حديث واسع عن هذه الاقتحامات والسيطرة على المساجد واستحواذ على المنابر، ومن ثمّ السيطرة على المناهج الدراسيّة.

هذا شيء حرص عليه النظام السعودي؛ أن يتحكّم في سياسة المناهج الدراسيّة فيما تتضمّنه من ثقافة من معارف دينيّة وتاريخيّة، عندنا في اليمن في الماضي على مدى عشرات السنين، تحكّمت السياسة السعوديّة والنزعة التكفيريّة الوهابيّة في صياغة المناهج في المدارس والجامعات، حتّى قد تجد رسائل التخرّج الجامعي، في مراحلها المتعدّدة والمتنوّعة وصلت ليس فقط إلى مستوى إثارة حساسيّة كبيرة عن الإمام علي عليه السلام وتقديمه كشخصيّة إشكاليّة، بل إلى حدّ الإساءة الصريحة إليه عليه السلام، والتطاول على مقامه.

فأصبحت السياسة التي يتبنّاها النظام السعودي، السياسة على المستوى الثقافي والتعليمي، تحرص دائمًا إلى إقصاء الإمام علي عليه السلام نهائيًّا من المناهج، وإذا كان ثمّة حديث بسيط جدًّا عنه، يقدّمه أحيانًا كشخصيّة عاديّة ليس لها أيّ اعتبار في التاريخ الإسلامي نهائيًّا.

أمّا الأحاديث التي تضمّنها التراث الإسلامي، وتضمّنتها أهمّ الكتب في الحديث لدى حتّى إخوتنا من أهل السنّة، أهمّ تلك النصوص لا تجد لها أثرًا أبدًا في المناهج الجامعيّة، سواء في السعوديّة أو في اليمن أو عدد من البلدان، وكأنّ النبي لم يتحدّث بها أصلًا، وكأنّه لا وجود لها في التراث الإسلامي نهائيًّا.

تأتي الطامة الكبرى على من يقتصر اعتمادهم في ثقافتهم الدينيّة والتاريخيّة على ما احتوت عليه المناهج الدراسيّة والجامعيّة سواء عندنا في اليمن أو في السعوديّة أو في كلّ البلدان التي خضعت للسياسة السعوديّة في مناهجها التعليميّة، فيمكن للطالب أن يقطع مشواره التعليمي من المرحلة الابتدائيّة والأساسيّة والثانويّة إلى الجامعيّة ثمّ يتخرّج وهو يجهل بمثل هذه النصوص المهمّة التي تدلّ على أنّ للمسألة علاقة بإيمانه، علاقة بثقافته، علاقة بجوانب أساسيّة يحتاج إليها في دينه.

فيتخرّج من الجامعة وهو يجهل مقام الإمام علي عليه السلام، والبعض يصل إلى درجة أن يكون معلّمًا في الجامعة، ولكن لأنّ ثقافته وعلومه اقتصرت على

ما احتوت عليه تلك المناهج التي خضعت لاعتبارات وتأثيرات سياسيّة، فكان مفلسًا ومنعدم الثقافة والمعرفة بمقام الإمام علي عليه السلام الرجل العظيم في الإسلام.

والبعض لا يأتي فيما بعد- مثلًا ما بعد دراسته الجامعيّة، أو ما بعد دراسته في كل المراحل- لينفتح على التراث الإسلامي، أو يطلع الاطلاع الواسع، لا، يقتصر على ما قد عرفه واطلع عليه من خلال تلك المناهج.

ولذلك أنا أقول لكلّ الثقافيّين والمثقّفين، والتربويّين، والمتعلّمين في أبناء أمّتنا حذاري حذاري من الاقتصار على المناهج الجامعيّة والدراسيّة الرسميّة. حذاري من ذلك، هذه كارثة، هذا سيكون مصدرًا لكثير من الآفات، لأنّه من المعلوم قطعًا وبكلّ تأكيد ويقين وثبوت أنّ المناهج الدراسيّة في عالمنا العربي في المستوى الرسمي خضعت بلا شكٍّ للتأثيرات السياسيّة، حكمتها سياسات وتوجّهات معيّنة فقرّرت ما يدرج وقرّرت ما يحذف.

فلذلك يجب التعاطي بحذر مع المناهج الدراسية الرسميّة التي خضعت للسياسات الرسميّة التعاطي معها بحذر والنظرة إليها من هذا المنظار باعتبار شابها فيما تضمّنته أخطاء كبيرة وتزييف كثير وباعتبارها أيضًا ناقصة، لم تتضمّن أشياء مهمّة جدًّا بات اليوم يحذف منها أشياء كثيرة فيما يتعلّق بالتاريخ المعاصر، حُذف من المناهج الدراسيّة ما بعد الألفين وبداية الحملة الأميركيّة في الـ ٢٠٠١ والحملة الأميركيّة التي ركزّت أيضًا على المناهج الدراسيّة فحُذف منها أشياء كثيرة تتعلّق بالخطر الأميركي والإسرائيلي والعربي والاستعماري على عالمنا الإسلامي فهذه كمقدّمة وتنبيه[1].

(١) من ذكرى استشهاد الإمام علي ١٤٣٨هـ.

١٣- العودة إلى النصوص الدينيّة للتمسّك بعلي عليه السلام

لقد نقلت المصادر والنصوص الدينيّة أحاديث ومرويّات عن فضل الإمام علي عليه السلام ومواقفه وعلومه وغير ذلك؛ النصوص الدينيّة التي نقلتها الأمّة ليست من مذهب معيّن أو فئة أو طائفة بل أهمّ مصادر الأمّة في التراث الإسلامي لدى السنّة والشيعة وبموثوقيّة عالية وبنصوص متظافرة وأصبحت مصنّفة بالمتعارف عليها بين العلماء والمحدّثين بالتواتر يعني تواتر الرواة من أبناء الأمّة - وهم أعداد كبيرة من الرواة وأطراف كثيرة من أبناء الأمّة - نقلها وحفظتها الأمّة جيلًا بعد جيل.

نذكر من هذه الأحاديث حديث المنزلة الذي سبق وتحدّثنا عنه في عناوين سابقة؛ هذا النصّ عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من أهمّ النصوص التي نتعرّف من خلالها على موقع الإمام علي عليه السلام في الأمّة، ثمّ ندرك بعد ذلك الجناية التي جنتها علينا السياسة الرسميّة في المناهج التعليميّة حين تتجاهل مثل هذا النصّ بأهميّته ودلالته، وهذا الحديث رواه أبناء الأمّة وعلماؤها ومحدّثوها، ويجمع على صحّته وعلى أنّه حديث ثابت قطعي متواتر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

وفي هذا النصّ، حدّد النبي صلى الله عليه وآله وسلم وحسم مقام الإمام علي عليه السلام في الأمّة وموقعه، ويجب علينا نحن كمسلمين أن ننظر إلى الإمام علي عليه السلام بهذا المنظار إن كنّا نؤمن بالله ورسوله وبما يقوله النبي وبما صحّ لنا جميعًا وثبت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو يقول إنّ منزلة الإمام علي من النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم «بمنزلة هارون من موسى» وكلّنا يعرف منزلة هارون من موسى؛ هو الوزير، المعين، المعاضد، المناصر في المرتبة العالية، «إلّا أنّه لا نبيّ بعدي» المستثنى فقط من هذه المنزلة هو النبوّة لأنّ النبيّ محمّدًا صلى الله عليه وآله وسلم هو خاتم النبيّين.

فالإمام علي عليه السلام في مقامه ومرتبته في الأمّة هو أعلاهم شأنًا ومقامًا ودورًا عظيمًا في الإسلام وفي نصرة نبي الإسلام ومعاضدته، ثمّ في كماله الإيماني وكماله في المواصفات الأخلاقيّة والإيمانيّة وفي المواصفات المتعلّقة

بالمسؤوليّة، لأنّه ما من أحد في أمّة موسى كان في مستوى كماله الإيماني بكلّ ما يندرج ضمن ذلك بمستوى هارون، هذا أمر لا شكّ فيه ولا نقاش.

للأسف، في بعض المناطق والأماكن في بعض البلدان يصبح الإنسان فيها دكتورًا أو معلّمًا في الجامعة، وهو بعد لم يطّلع على مثل هذا النصّ خاصّة في زمن فيه كسل وقصور كبيرَين في الاطلاع على التراث الإسلامي.

هذا نص يفرض علينا كمسلمين كمؤمنين هذا الانتماء الإسلامي ننظر إلى الأمور الدينيّة من هذا المنظار النبوي، من المنظار الذي رآه النبي فيه وتحدّث عنه فننظر إلى الإمام علي عليه السلام بهذه الجلالة وبهذا القدر وبهذه العظمة والأهمية والمقام والمستوى. هذا ما يجب أن يكون الأثر فينا والتفاعل من جانبنا مع نصّ كهذا، ولا تكون مجرّد عبارات تتلفّظ بها ليس لها أيّ أثر في أنفسنا ولا في نظرتنا ولا في ثقافتنا ولا في فهمنا؛ إنّما مجرّد عبارات تقولها ألسنتنا، «أنت منّي بمنزلة هارون من موسى إلّا أنّه لا نبيّ بعدي».

يجب أن ننظر هذه النظرة النبويّة؛ أن نكون متأثّرين بنبيّ الإسلام لا أن نكون متأثّرين بالتيّار الوهّابي التكفيري المشؤوم الضالّ الذي يأتي لينشر حساسيّة بالغة حتّى عن هذا المقام العظيم، من ينظر بالعين الوهّابيّة هي عين عمياء مظلمة لا ترى النور ولا ترى البصيرة، وبالتالي تتطلع دائمًا نظرة سوداويّة إلى رموز الإسلام العظام، إلى كلّ ما هو عظيم ومهمّ وجميل ومفيد في الإسلام[١].

فالرسول صلى الله عليه وآله وسلم حينما حدّد مقام الإمام علي عليه السلام وشبّهه بهذا التشبيه البليغ بمقام هارون من موسى بمنزلة هارون من موسى، وكُلُّنا يُدرك، والجميع يعرف أنّ هارون عليه السلام في منزلته من موسى هو الرقم الثاني في إطار أمّة موسى، يعني لا يفوقه في إيمانه، في كماله الإيماني، في دوره الرسالي إلّا أخوه موسى الذي هو فوق مستواه، وبالنسبة لهارون كان لأخيه موسى الوزير،

(١) استشهاد الإمام علي ١٤٣٨هـ.

والمُعين، والمصدِّق، والمؤيّد، والمساند. يعني كان له دور محوري أساسي رئيسي، ومهمّ جدًّا في إطار الرسالة الإلهيّة أمام العدوّ وفي الداخل نفسه أمام قومه. فالإمام علي عليه السلام تتحدّدُ لنا معالم شخصيّته الإيمانيّة، وكماله الإيماني العظيم، واستيعابه للرسالة الإلهيّة في مستوى إيمانه بها، علاقته بها، تجسيده لمبادئها وقيمها من خلال هذا النصّ المهمّ، إضافةً إلى دوره فيما يتعلّق بالرسالة الإلهيّة والدين الإلهيّ، دوره المحوري، والرئيسي، والأساسي، والمهمّ جدًّا من هذا الموقع بمنزلة هارون من موسى، كوزيرٍ معاضدٍ مساندٍ، يمثِّلُ الامتداد لهذه الرسالة في حمايتها، في تبليغها، في تبيينها، في إقامتها في الحفاظ على مفاهيمها[1].

١٤- التنبّه من النظرة الوهّابيّة التكفيريّة الظلاميّة التشويهيّة

النظرة الوهّابيّة التكفيريّة الظلاميّة هي نظرة تشوّه حتّى نبي الإسلام في مقامه الأعلى والأعظم والأسمى والأكبر، نظرة تسيء إلى النبي نفسه ناهيك عن تلامذته وأتباعه وأعوانه والإمام علي عليه السلام في مقامه كوزير ومناصر وعظيم في هذا الإسلام.

وقد ذُكرت بعض النصوص في ثقافتنا الدينيّة، والتي يجب أن نعلّمها لأبنائنا ويسمع بها الطلّاب، ولا يجوز أن تكون غائبة في المناهج الدراسيّة الرسميّة أو بفعل السياسات التي تحكم البرامج التثقيفيّة في وسائل الإعلام؛ لأنّ وسائل الإعلام كذلك معظمها في العالم الإسلامي تأتي وتتجاهل كلّ هذا.

هذا لا علاقة له حتّى بالسنّة ولا بأهل السنّة ولا بالتراث السنّي؛ لأنّ التراث السنّي كان له إسهام كبير جدًّا في نقل هذه النصوص والمحافظة عليها جيلًا بعد جيل، هذه عقدة وهّابيّة يجب أن تكون منبوذة ومرفوضة لدى الأمّة.

---

(١) من ذكرى استشهاد الإمام علي ١٤٣٤هـ.

من هذه الأحاديث التي تداولتها الأمّة وهو من الأحاديث المشهورة جدًّا حديث «لا يحبّك إلّا مؤمن ولا يبغضك إلّا منافق» وحديث آخر «لا يبغضك مؤمن ولا يحبّك منافق». لاحظوا هذه الأهميّة، من لوازم الإيمان محبّة الإمام علي عليه السلام، فلا يكتمل إيمانك ولا يتحقّق إيمانك إلّا بهذا، أنت في الإسلام في الدين الإسلامي أمامك ارتباطات واضحة، منهج تسير عليه، رموز وقادة وهداة تتأثّر بهم، تقتدي وتتعلّم منهم، تستفيد منهم هم قدّموا لك هذا الدين وحفظوه لك نصًّا وقدّموا فيه القدوة العمليّة وجسّدوه واقعًا في حياتهم فقدّموا أرقى صورة عن هذا الدين في واقع حياتهم.

هؤلاء الرموز تربطك بهم هذه الرابطة، رابطة الاقتداء والتأثّر في تطبيقهم الإسلام؛ قدوة لك أن تستفيد من معالمهم باعتبارهم حلقة الوصل.

نحن مثلًا في هذا الزمان كم بيننا وبين النبي صلى الله عليه وآله وسلم؟ مئات السنين. من نقل لنا الدين عبر الأجيال بعد وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم؟ من الذي نتطلّع إليه كأمّة بعد وفاة النبي ينقل لنا هذا الدين يقدّم أرقى صورة عن كماله في واقعه الدلالة على الحقّ في أيّ مرحلة من مراحل اختلاف الأمّة؟ نتطلّع إلى الإمام علي بن أبي طالب، وإلّا فما فائدة هذه النصوص الذي قالها النبي في علي؟

النبي لم يكن مهرّجًا أو مجرّد رجل يصدر المديح هكذا، يطلق العبارات الفضفاضة للإشادة بالآخرين بغية رفع معنويّاتهم وتشجيعهم، لا، هو نبيّ يقول الحقّ عن الله، وينطق به، وما ينطق عن الهوى لم يكن يخضع فيما يقوله لا لتأثيرات شخصيّة، ولا لعوامل قرابة، ولا لميول لها أيّ صلة بالهوى من قريب ولا من بعيد، ولم يكن يتقوّل على الله حاشاه ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾[1] وحينما يقول ما قاله عن الإمام علي عليه السلام يدرك أهميّة هذا الدور للإمام علي عليه السلام من بعده لأنّه سيرحل، فمن الذي سيرث منه ويحمل منه روح الإسلام، وقيمه، ومعارفه، وحقائقه؟

(١) سورة **النجم**، الآيتان ٢ و٣.

وحينما تحصل حالة الاختلاف بين أوساط الأمّة من الذي تتطلع إليه الأمّة باعتباره الحلقة الأوثق والأرقى والأكمل والأعلم والأعرف وبدرجة الموثوقيّة العليا؟ يتطلع إلى الإمام علي عليه السلام وإلّا ما قيمة هذه النصوص، فعلاقتك بالإمام علي عليه السلام علاقة إيمانيّة كرمز إيماني.

أنت عندما تأتي لتتعرّف إلى الإسلام في ثقافته في معارفه، صلاتك، صيامك، حجّك، زكاتك؛ أهمّ مصدر يوصلك بالنبي من هو؟ باب مدينة علمه. عندما تأتي لترى الاختلاف بين أوساط الأمّة فتبقى متحيّرًا من هو الذي تتطلع إليه كعلامة فارقة؟ الإمام علي الذي حبّه إيمان وبغضه نفاق «لا يحبّك إلّا مؤمن».

فلاحظوا والله إنّها لجريمة كبيرة أن يغيب مثل هذا النصّ في المناهج الدراسيّة، والبعض يصبح دكتورًا في الجامعة لم يتطلع بعد على هذا النصّ؛ لأنّه اقتصر في معارفه واطلاعه وفي ثقافته على المناهج الدراسيّة المحكومة بسياسات من جهلة ليسوا مؤتمنين على الأمّة تحكّموا وساسوا وقرّروا وأخضعوا لاعتبارات ماديّة (فلوس) من السعوديّة وجاء توجيه لوزارة التربية والتعليم أو للمناهج الجامعيّة كيف تكون وظلمت بهذا أجيال من أبناء الأمّة.

١٥- التأكيد على أنّ عليًّا مع القرآن والقرآن مع علي

وحديث آخر «عليٌّ مع القرآن والقرآن مع علي» يؤكّد اقتران الإمام علي عليه السلام بالقرآن في مواقفه، في توجّهاته، في مسار حياته، في معارفه، فيما يقدّمه للإسلام، وعن الإسلام، فهو مقترن بالقرآن مواقفه مواقف القرآن، معارفه معارف القرآن، سياسته سياسة القرآن، منهجه في الحياة قرآني، تَطَلَّعْ إلى الإمام علي عليه السلام من هذا الموقع.

وهكذا نجد هناك الكثير والكثير من النصوص حديث الراية في قصّة خيبر عندما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «لأعطينّ الراية غدًا رجلًا يحبّه الله ورسوله ويحبّ الله ورسوله كرّارًا غير فرار يفتح الله على يديه»، لاحظوا هذا النصّ كيف يتحدّث عن الإمام علي عليه السلام يحبّه الله ورسوله، كيف لا نحبّ هذا

الرجل العظيم الذي حظي بالمحبة المؤكّدة من الله ومن رسوله؟! وكيف لا ننشدّ إلى شخصيّة بهذه العظمة بهذا المستوى بهذا القدر الكبير والمنزلة الرفيعة العالية؟! ولماذا سيحبّه الله ورسوله؛ إلّا لكماله الإيماني؟

هذا النصّ يقطع لنا قطعًا على باطن وسريرة علي وعلى نيّته على سريرته وعلانيّته، رجل إيمانه محقّق يشهد له الله ويشهد له رسوله بكمال إيمانه. هذه المحبّة هي وسام شرف، وهي في نفس الوقت دليل قاطع على كماله الإيماني وعظمته الرفيعة ومنزلته العالية ومرتبته الإيمانيّة السامية عند الله سبحانه وتعالى، ويحبّ الله ورسوله كذلك نفس الشيء شهادة له بمحبّته لله ورسوله بكلّ ما يلحق بها من كمال ومواصفات إيمانيّة، ثمّ نجد كتبًا بأكملها حتّى في التراث السنّي ككتب المناقب وكتب الفضائل لمقام علي عليه السلام في الأمّة مغيّبة عن المناهج. وقد ذكر فيها عن ابن عبّاس رضوان الله عليه قال: «ما من آية فيها ثناء على المؤمنين إلّا وعليٌّ أميرها وشريكها»؛ هو صالح المؤمنين وأكملهم وكلّ ثناء على المؤمنين ينطبق عليه[١].

١٦- الفهم الصحيح لمعنى ولاية الأمر

يقول السيّد حسين (رضوان الله عليه):

«السلطة في الإسلام هي أرقى بكثير ممّا عليه واقع البشر، أرقى بكثير في مهام من يلي أمر الأمّة.. عندما تتأمّل تجد أنّ ولاية من يلي أمر الأمّة هي امتداد لولاية الله الله سبحانه وتعالى لشؤون عباده. فالوليّ يجب أن يكون لديه رحمة، ومعرفة كيف يربّي هذه الأمة، كيف يبنيها، ويطوّر حياتها، وينمّي اقتصادها، كيف يزكّي أنفسها، ويواجه أعداءها، أشياء واسعة جدًّا جدًّا.

هذه الجوانب الهامّة هي الجوانب التي يحتاج إليها الناس، وهذه هي الجوانب التي لا يمكن لأيّ أحد من الناس أن يعملها، ويقوم بها حتّى ولو كان

(١) استشهاد الإمام علي ١٤٣٨هـ.

مخلصًا. أمّا الجانب الآخر الذي يسمّونه السلطة التنفيذيّة فبإمكان أيّ شخص يفوز بانتخابات، أو بانقلاب عسكري، أو عن طريق وراثة، أو بأيّ طريقة كان وصوله إلى الحكم، أن يمارس الحكم، ويجلس ولو أربعين سنة، ولكن هل تجد له أثرًا في تربية الأمّة، رعايتها، تنشئتها، بنائها بناء صحيحًا؟، لا تجد العكس.

فالله سبحانه وتعالى كرّم الإنسان ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾[1] ويجب أن يكون الحكم للناس بالشكل الذي يسمو بهم، يكون متناسبًا مع تكريم الله لهم، وليس بالشكل الذي يحطّهم، ويقهرهم، ويذلّ نفسيّاتهم؛ ولهذا أصبح جانب كبير من المسؤوليّة على الأمّة نفسها، على الناس أنفسهم؛ لأنّ القضيّة هنا إضافة إلى خبرة إداريّة، وخبرة تربويّة، وتوجيهيّة بالنسبة لمن يلي أمرها لا بدّ أن يكون لديها وعي، أن تعرف بأنّه من الأفضل لك أن تعيش في سلطة فيها مثل الإمام علي عليه السلام لا تخاف من أن يظلمك، لا تخاف أنّه بمجرّد وشاية معيّنة إليه يمكن أن يسجنك، أو يقتلك، لا تخاف أنّ جواسيسه وراءك أينما ذهبت، لا تلمس أيّ خوف في نفسك، ولا أيّ شعور بقهر وإذلال ممّن يحكمك، أليس هذا الذي يتناسب مع كرامة الإنسان؟.

هذه هي مسؤوليّة الأمّة الكبيرة، والهدى الذي ينشده جميع أفراد هذه الأمّة وبناء النفسيّة أيضًا مهمّة عالية جدًّا، يصل بالنفس إلى مستوى عالٍ جدًّا، مهمّتها في حركة هذا الدين لإيصاله إلى الأمم الأخرى، ولأجل ذلك تحتاج الأمّة إلى أن تربّى على هذا النوع: تحمل نفوسًا كبيرة، كريمة، عزيزة، أبيّة، لا يكون قد أذلّها، وحطّها القهر، والتسلّط.

لاحظ الآن عندما حكم العرب الكثير من حكّامهم حكموا بسياسة القهر والتسلّط، أنت هنا ضربت الأمّة، لم تعد هذه الأمّة صالحة لأن تدافع عن نفسها، ألفت القهر، والإذلال، وضعفت نفوسها، وانهارت معنويّاتها؛ لهذا يكون هناك أثر سيّء جدًّا للتسلّط على الناس؛ لأنّه يؤدّي إلى قهر أنفسهم

---

(١) سورة **الإسراء**، الآية ٧٠.

فيضعفون في مواجهة العدوّ، ويضعفون عن حمل الرسالة العظيمة التي أوكلت إليهم.

هذه القضيّة هي من أهمّ القضايا، أن نعرف كيف ينظر الإسلام إلى قضيّة السلطة التي يتكالب عليها الناس، ويتسابق عليها الانتهازيّون؟ لا يمكن أن تفهم القضيّة بشكل صحيح إلّا أن تبدأ من عند الله سبحانه وتعالى فتعرف وهو يقول عن نفسه بأنّه الملك. انظر إلى ملكه كيف هو؟، هل هو ملك تسلّط وقهر وجبروت، أو ملك رعاية وتربية؟.

انظر إلى ولاية الله سبحانه وتعالى لأمر عباده، واعرف أنّ ولايته هنا عن طريق رسوله، أو الذين آمنوا، إنّما هي امتداد لولايته، ومن يلي أمر الأمّة يتعامل مع الناس بالشكل الذي يلمسه من خلال مظاهر ملك الله، مظاهر ولاية الله سبحانه وتعالى على عباده، معنى هذا ماذا؟ أنّه إذا لم يعتبرها امتدادًا لولاية الله ومفصولة عن الله، سيترك ذلك آثارًا سيّئة في نفوس الناس، وفي واقع الحياة.

هذا هو مفهوم الولاية في الإسلام، وهذه هي مهام الولاية، ليست فقط سلطة تنفيذيّة، سلطة أوامر ونواهٍ جافّة، تجبّر وتسلّط وقهر، وأشياء من هذه.

أولئك الذين جعلوها جائزة، فمن قفز على كتف، وعلى كاهل هذه الأمّة تجب طاعته، وإن قصم ظهرها، وإن نهب أموالها، وإن داسها، تجب طاعته! هذا ناتج عن قصور في فهم ولاية الأمر ما هي؟ ما هي مهمّات من يلي أمر الأمّة، وصل الحال بهؤلاء إلى أن قالوا في الأخير هي: (رئاسة عامّة) يجيّش جيوشًا، ويعيّن ولاة، ويعزل ولاة، ويقيم حدودًا، ويستلم زكاة، وانتهى الموضوع.

القضيّة أوسع من هذا بكثير، وإذا لم نفهم المسألة على هذا النحو، معنى هذا أنّنا جاهلون فعلًا بالله، وجاهلون بمثل هذه الآية نفسها: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي التأكيد أنّ ولاية رسوله وولاية الذين آمنوا - الذي هو الإمام علي ومن كان كمثل الإمام علي - تعتبر امتدادًا

لولاية الله، هنا ستعرف أهميّة ولاية الأمر في الإسلام بالنسبة للأمّة، وأهميّتها بالنسبة للدين، ولإقامة هذا الدين.

ليست القضيّة هل يجوز أن يكون من هؤلاء، أو هل يجوز أن يكون بشورى، أو يكون بانتخابات، أو أن يقفز بانقلاب عسكري، أو بأيّ طريقة كانت، ليست القضيّة حول هذا، هل يكون واحدًا، أو عشرة، أو عشرين. إنّ الإسلام لديه رؤية - إذا صحّت العبارة - أن يحكم الأمّة كلّها، البشر كلّهم؛ لذلك قدم رؤية أرقى رؤية لحكم العالم كلّه فضلًا عن إقليم من الأقاليم.

إذًا، المسألة تتعلّق بالمهام أوّلًا ومعرفة اللائق بهذا العمل وليست مسألة صراع من سيحكم هل يكون واحدًا أو اثنين، أو أن يكون هناك مؤسّسات، أو تكون الطريقة بهذا الشكل أو ذاك حول ما يسمّى نظام، أو هيكليّة.. وغير ذلك»[١].

١٧- الإضاءة على الروحيّة العالية التي كان يحملها الإمام علي عليه السلام

يقول السيّد حسين (رضوان الله عليه):

«علي عليه السلام الذي كان يأكل ما يتيسَّرُ له، ويَهمُّه أمْرُ الفقراء، وأوصى ولاة أمور المسلمين بأنّ عليهم أن يقيسوا أنفسهم بفقراء الناس، أن تعيش كما يعيش فقراء الناس، تحاول أن ترفع بالفقراء إلى مستواك، أو تعيش بعيشتهم، لا تَلِي أمرَهم ثمّ تعيش في ترَف، في قصور وممتلكات فخمة والناس الفقراء المساكين يعانون من شظف الحياة وصعوبتها لا يتوفّر لهم جزءٌ ممّا يتوفّر لك، قال: «كيلا يَتَبَيَّغَ بالفقير فَقْرُه»[٢]. الفقير يتألّم عندما يرى الكبير (وليّ أمر) الرئيس، المسؤول كيف يعيش حياته ويرى نفسه أين، يرى أولاده في العيد،

---

(١) الدرس الثالث والعشرون من دروس شهر رمضان للسيد حسين بدر الدين الحوثي.

(٢) هَذِهِ العِبَارَةُ مِنْ كَلاَمِ الإِمَامِ عَلِيِّ بْنِ أَبي طَالِب عليه السلام وَتَعْني: حَتَّى لاَ يَغْلِبَ الفَقِيرَ فَقْرُهُ وَيَحْمِلُهُ عَلى الشَّرِّ. **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ٢، الصفحة ١٨٨، من كلام له عليه السلام في البصرة، رقم الخطبة ٢٠٩.

زوجته التي تتّجه إلى أسواق (البَالَة)[١] تشتري ملابس مستعملة، وهو يُرسِل ابنته أو زوجته أو خادم زوجته إلى أرقى معارض عرض الأزياء ليشتري الفساتين والأحذية الفخمة»[٢].

لقد خلّد **القرآن الكريم** حادثتين مهمّتين في الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ وكشف الروحية العالية التي كان يحملها عَلَيْهِ السَّلَامُ التي لا تختلف عن روحيّة الأنبياء في حرصهم على الأمّة واستعدادهم للتضحية من أجلها واستشعارهم الدائم لمعاناتها»:

- الحادثة الأولى: ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾.

يقول السيّد حسين (رضوان الله عليه):

«عندما دخل مسكين استبدت به الحاجة فطاف على الناس فلم يجد من يسدّ خلّته فأشار إليه علي عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو يصلّي في مسجد رسول الله ›صلوات الله عليه وعلى آله‹ ووهبه خاتمًا في يده فنزل القرآن على رسول الله ›صلوات الله عليه وعلى آله‹ مبيّنًا فضل ما أقدم عليه الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ واستغلّ القرآن المناسبة لإرشاد الأمّة إلى أنّ عليًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ مرجعها الفكري والعملي بعد رسول الله ›صلوات الله عليه وعلى آله‹ ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾[٣].

يقول السيد حسين (رضوان الله عليه):

«لاحظوا الإمام عليًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ آتى الزكاة وهو راكع؟ هل هو يتلفت إلى الفقير ويعرف مَن هو، أو الفقير نفسه يعرف مَن هو هذا؟ أليست هذه هي في حدّ ذاتها تُبيِّن لنا: أنّ هذا أحيانًا قد يُقدِّم لك خدمة لأنّه يعرفك وتعرفه

---

(١) أَسْوَاقُ البَالَة: هِيَ التي تَبيعُ الأَشْيَاءَ المُسْتَعْمَلَة.

(٢) سورة **المائدة** - الدرس الثاني.

(٣) سورة **المائدة**، الآية ٥٥.

معرفة فيستحي منك أن تعرفه ثمّ لا يعطيك شيئًا. علي ‹عليه السلام›، وهو أثناء الركوع، وهذه ميزة أكثر مِن لو أعطاه وهو أثناء القيام، لو تعرَّض له الفقير وهو أثناء القيام في الصلاة ربّما لاتجه الفقير إليه لمعرفة ملامحه ربما يكون لديه شيءٌ، أو ربّما رأى الفقير فرأى حالته الرثّة فأشفق عليه، لكن لا. هو في حالة الركوع وعادةً يكون الراكع لا يُبصر إلّا الأرض، سمع بفقير يسأل، هذا الفقير لا يراه وهو لا يراه فيؤشّر بإصبعه إليه ليأخذ خاتمه. هكذا يكون مَن نلحظ فيهم أن تكون نظرتنا إليهم مِن منطلق المعايير الإلهيّة، التكامل الإلهي مِن خلال ما ترسَّخ في نفوسهم مِن قيم الإسلام ومبادئه، هم مَن سيهتمُّون بمن لا يعرفهم ولا يعرفونه»(١).

ويقول أيضًا في الدرس الثالث والعشرين من دروس رمضان:

«يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ﴾(٢) هذه الآية المباركة المشهور فيها أنّها نزلت في الإمام علي عليه السلام عندما تصدّق بخاتمه وهو راكع بعد أن دخل فقير يسأل ولم يعطه أحد أشار إليه بخاتمه ليأخذه.

قضيّة الخاتم تبدو قضية بسيطة، لكن ماذا يدلّ عليه هذا العمل؟ يدلّ على نفسيّة رحيمة تهتمّ بالناس. والآية نفسها تشهد، وتدلّ على أنّها نزلت في قضيّة خاصّة، فلا يمكن أن نفسّر راكعون بمعنى: مصلّون، إذ كيف يقيمون الصلاة وهم مصلّون، ويؤتون الزكاة وهم مصلّون؟ هذا لا يصحّ في التعبير العادي فضلًا عن القرآن الذي أحكمت آياته، ولم يأتِ فيما نعرف كلمة: راكعون بمعنى: خاضعون، يأتي بكلمة: ساجد، ساجدين، أو قانتين، هذا الذي نعرفه من خلال القرآن.

إنّها نزلت في قضيّة خاصّة، في واقعة خاصّة، لشخص خاصّ، في بداية نزولها، ولا تزال، ولنعرف مثلًا أنّه لماذا تأتي مثل هذه الآية في سياق

---

(١) سورة **المائدة** ـ الدرس الثاني.

(٢) سورة **المائدة**، الآية ٥٥.

الحديث عن بني إسرائيل! ثمّ يظهر من خلال الواقع: أنّ الأمّة بحاجة إلى تولّي الله ورسوله، وتولّي المؤمنين وفي المقدّمة الإمام علي من بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

هذه القضيّة لا بدّ منها حتّى تهتدي الأمّة بالقرآن، وحتّى تكون بعيدة جدًّا عن أيّ محاولة قد تكون بها قريبة من تولّي اليهود والنصارى، وحتّى تكون بشكل آخر على مستوى عالٍ، تعتبر حزب الله، وحزب الله كما قال: ﴿هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ كما قال بعد في آخر الآية؛ لأنّ ولاية الإمام علي قضيّة لا بدّ منها في تحقيق الغلبة والنصر.

وهذا هو ما أشار إليه الإمام الهادي عليه السلام فهو يقول إنّ ولاية الإمام علي عليه السلام هي قضيّة واجبة على المسلمين.. قد تكون القضيّة مختصّة بالإمامِ علي أساسًا، ويكون بعده أئمّة متأخّرين قد لا تعرفهم، قد لا تكون مسؤولًا أمام الله بأنّك لماذا لم تعرفهم، وتتولّاهم بالتحديد. الإنسان يتولّى المؤمنين بشكل عامّ، لكنّ الإمام عليًّا هنا يشكّل ضمانة، يشكّل أنموذجًا لمن بعده، كيف يجب أن تكون ولاية الأمّة من بعد رسول الله ‹صلوات الله عليه وعلى آله› إلى نهاية التاريخ» [١].

ويقول في الدرس الثاني من (آيات من سورة **المائدة**):

آية الولاية تبيّن بجلاء في أمير المؤمنين علي عليه السلام صفة هامّة هي العلاقة القويّة بالله سبحانه وتعالى سطّرها لنا في القرآن وقدّمها كصفة مهمّة لا بدّ من توفّرها في مَنْ يلي أمر الأمّة في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الصلاة.. أليست خير الأعمال؟. الصلاة فيما تعطيه من آثارها المهمّة في العلاقة بالله سبحانه وتعالى وفي ميدان العمل في الحياة كلّها، تعتبر فعلًا خير الأعمال لأثرها الكبير، أثرها المهمّ فيما تحتويه من دلالات مهمّة، فيما تعطيه من إشارات مهمّة، فيما تترك من آثار مهمّة.

---

(١) سورة **المائدة** ـ الدرس الثالث والعشرون من دروس شهر رمضان.

الصفة الثانية: ﴿وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ﴾ الزكاة: تعني هنا الصدقة. الزكاة في **القرآن الكريم** تُستعمَل بمعنى الصدقة النافلة، وتستعمَل الصدقة أيضًا بمعنى الزكاة التي أصبحت عَلَمًا على النسبة المحدّدة مِن المال المفروضة المرتبطة بعين المال، وإلاّ فكلّها تسمّى زكاة باعتبار أنّ الصدقة من حيث هي زكاة للنفوس وزكاة للمال.

أدّى الزكاة، أي: تصدّق بماله أثناء ركوعه، وتُقدّمه الآية بما هو أهمّ من أن يُذكر باسمه في مقام ترسيخ النظرة إليه كإنسان كامل نرتبط به، وهذا هو ما افتقده السُّنيّة عندما لم يرتبطوا بعلي عليه السلام لماذا؟ لأنّهم اعتبروا أنّ ذلك الآخر هو أكمل منه، فهم ارتبطوا بمن؟ بأبي بكر بعد أن جعلوه الأفضل، لَمَّا لم ينظروا إلى علي عليه السلام ويلحظوا كماله ويؤمنوا به فلم يفدهم اسم (علي) لماذا؟ لَمَّا فقدوا الارتباط بعلي باعتبار كماله فقدوا ما كان يُعطيهم الارتباط به، ولم يعد اسمه ينفعُهم، بل جعلوه رابعَهم وقدَّموا عليه أبا بكر، وعُمر، وعثمان؛ [لَمَا البادي مِن الخلافة تجي له بأيِّ طريقة][1].

أليس اسم علي معروفًا لدينا ولديهم؟ ما الفارق بيننا وبينهم؟ هو أنّنا نظرنا إلى عليّ كرجل كامل، هو أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأكملهم بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو من ربّاه القرآن ومحمّد صلى الله عليه وآله وسلم، وكان جديرًا بتلقّي تلك التربية المهمّة.

ماذا يوجد في هذا من كمال أيضًا؟ كنت أتصفّح كتابًا للسيّد محمّد حسين فضل الله؛ فجاءت لي فائدة مهمّة في هذا الموضوع قال فيها: أنْ يتصدَّق علي بخاتمه وهو يصلّي تدلّنا على جدارته العظيمة بأن يقود الأمّة؛ لأنّه هو مَن يهتمّ بها، مَن يؤلمه فقيرٌ واحدٌ منها فلا ينصرف وهو في مقام التوجُّه نحو الله سبحانه وتعالى، فلا ينصرف بعيدًا عن ذلك الفقير، بل تهمُّه

---

(١) البادي: هذه العبارة من اللهجة العاميّة، وتعني: أنّ حصول الشيء ليس مطلوبًا على وجه السرعة بل في أي وقت كان.

قضيّتُه، ويُعالج مشكلته، فيتصدّق بخاتمه وهو يصلّي، هذا هو مَن يهمّه أمر الأمّة، هذا مَن هو حريصٌ على الأمّة ورحيمٌ بها وحريصٌ عليها وشفيق، هذا هو الجدير بأن يتزعَّم الأمّة ويقودها.

ما أكثر الذين يقولون: (لَسْنا في واديك، نحن في وادي عبادة، هذا أفضل، هذا أحسن)! أليس عليٌّ عليه السلام ممّن يقيم الصلاة وهو يصلّي؟ لكن وهو يصلي يفهم أن الدِّين أعمالٌ متكاملة وتوجُّهٌ نحو الله سبحانه وتعالى، له علاقته المهمّة في نظرتي الحسنة واهتمامي بالآخرين، ومِن أبرز مَن أهتمُّ بهم ويهمُّني أمرُهم: الضعفاء والمساكين وفقراء الأمّة، يهمُّه أمرُه، ويقلقه وهو داخل الصلاة لأنّه لم يلحظ أنّ أحدًا أعطاه شيئًا؛ فيؤشّر له بخاتمه وهو أثناء ركوعه، فيأتي هذا الفقير ويأخذ الخاتم من يده.

لاحظوا كيف قدَّم لنا علي أنموذج في قيادة الأمّة، وسنّ سُنّة يسير عليها الناس حتّى في أعمالهم الخاصّة، أنت عندما تقول: أريد (معلِّمًا) يعمل كذا أقول لك: فلان، أليس سيجول في تفكيرك صفاتُ كمال أو عدمها، عنده خِبرة، هو جدير بكذا أو لا؟ أليس هذا الذي سيحصل؟ عندما يقال: جاء محافظ هل سيهمُّني اسمه أم يهمُّني أن أتساءل عن كماله؟ سأقول: عسى أن يكون رجلًا جيّدًا، أن يكون باهرًا يهتمّ بالناس، ويعطينا كذا وكذا؛ أليس يحصل هكذا؟

كذلك مدير ناحية، هل يهمّك اسمه أو يهمّك أن تعرف الكمال الذي هو عليه، ما لديه من مقوِّمات تجعله أهلا لأن يَلِيَ أمرنا ويدير منطقتنا؟ الحاكم أيضًا، أنت في شريعة فيُقال لك: فلان وكُلّه، ما الذي سيطلع في نفسك؟ هل هو جدير بهذه المهمّة ولديه خبرة ولديه معرفة، وغير ذلك؟ أليس هذا الذي يحصل؟ عامل يشتغل في مزرعتك، ما الذي سيحصل؟ يهمُّك اسمُه فقط أم يهمُّك أنّه ناصح ويشتغل بجدّ، وماهر في العمل؟ هذه سُنّة من سُنن الحياة إذا فهمناها نتّبعها، ونحن ننظر إلى الكمال في كلّ شخص. حتّى وأنت تبحث لك عن زوجة، أليس كذلك؟ هل يهمُّك اسم الزوجة التي تريد أن تتزوّجها فتقول: أريد أن يكون اسمها (مريم) لا يكون اسمها (عَلْوَة) يكون

اسمها كذا؟ لا. يهمُّك أن تعرف صفاتها: عسى أن تكون جيّدة، ألا يبحث الإنسان عن صفات كمال في الآخر؟

فعندما نرتبط بعلي عَلَيْهِ السَّلَامُ من باب تقديم علي كرجل كامل جدير ويصلح أن نتولّاه وأن يكون باب مدينة علم الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ؛ الباب الذي منه ندخل إلى محمّد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

يقول لك: لماذا لم يذكر (علي) حتّى يكون النصّ صريحًا؟ هذه هي من سلبيّات (أصول الفقه) التي دائمًا نصيح منها، والتي تصرفك عن النظر إلى الأشياء من منظار الهداية. يا أخي **القرآن** كتاب هداية، الدِّين كلّه هداية، أعماله كلّها هداية حتّى محمّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الرسول هو هداية، والقرآن هداية، وعلي هداية، وكلّ شيء في هذا الكون يخاطبك بمنطق الهداية.

لا يريد منّا القرآن أن يرتبط الناس فقط بمجرّد اسم فتأتي إشكاليّات أخرى فينسون الكمال، هو ما ضرَبنا وضرَب أهل السُّنة، وضرَبنا الآن كلّنا، أنّنا لم نعد نلحظ ضرورة أن يكون من يَلي أمرنا رجلًا كاملًا. وعندما ننظر إلى كماله ننظر بالمعيار الدِّيني بالمعيار الإلهي ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ﴾ أليس هذا تقديمًا لهم بمقامات دينيّة دينيّة؟ (تَصدّق) لماذا لم يقل: (والذين آمنوا الذي سيقدِّم لك مشاريع ويعمل لك مشاريع ويعمل لك (إسفلت) ويعمل لك كهرباء ويعمل لك). هل قال هكذا؟

من تتوفّر فيه الصفات الدِّينيّة باعتبار الدِّين هو هدى للناس، من يهمّه أمر فقير، من سيهمّه أمر الأمّة كلّها فيعمل على أن يوفّر لها ويؤثرها على نفسه في جميع شؤون حياتها، على يد مثل هذا يتحقّق بناء الأمّة، تأتي المشاريع، تأتي الخدمات على أرقى ما تكون عليه، والواقع يشهد بهذا[١].

- الحادثة الثانية: ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾

---

(١) سورة **المائدة** ـ الدرس الثاني.

هي حادثة إطعام علي عليه السلام وأهل بيته عليهم السلام للمسكين واليتيم والأسير على مدى ثلاثة أيّام وإيثارهم لهم على أنفسهم واكتفائهم بالماء، وهم في أيّام صوم متتالية تنزّلت آيات الله تعالى مسجّلة أعظم مآثر علي عليه السلام في ضمير الوجود حيث ستبقى تردّدها الآفاق والألسنة وصفحات المجد ما شاء الله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝١٠ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝١١ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾(١)

يقول السيّد حسين (رضوان الله عليه):

لاحظوا حتّى التقليل في العبارة هنا: مسكين واحد أوّل ليلة، يتيم واحد ثاني ليلة، أسير واحد ثالث ليلة، أليسوا هنا ثلاثة أشخاص؟ فقط ثلاثة أشخاص؟! هل يستحقّ لأنّه أعطى ثلاثة أشخاص؟! أي: أعطى كذا، كذا... وهذا أعطى مئات الناس، لكن عطاء مئات الناس - أحيانًا - لا يكون له قيمة، يُصَفّر عليه عند الله سبحانه وتعالى، ولا قيمة حتّى عند الإنسان نفسه الذي بذله؛ لأنّ العطاء إذا لم يكن مِنْ داخل، وتبتغي به وجه الله، وإن كان لفرد واحد، لم يكن له هذه القيمة المعنويّة كأن تعطي مُرَاءاة ولو كانت مليونًا فلن يصنع في نفسك أثرًا أبدًا ولن يزكّي نفسك. القضيّة ليست بقدر العطاء بل هو يكشف عمّا في نفوس الأشخاص فيشدّنا إليهم كأعلام.

أطعم مسكينًا ويتيمًا وأسيرًا، فقط ثلاثة؟! ليس المهمّ العدد، بل أجواء العطاء والنفوس التي انبعث منها، الدوافع نحو العطاء هي التي أردنا أن نكشفها لك، فتعرف مَن هم هؤلاء الذين يعطون على هذا النحو، سيعطون الأمّة كلّها كلّ ما يملكون، أليس هذا هو المهمّ؟(٢).

---

(١) سورة **الإنسان**، الآيات ٨-١٢.

(٢) سورة **المائدة** ـ الدرس الثاني.

خاتمة

وأخيرًا نقول ما قاله الشهيد القائد السيّد حسين (رضوان الله عليه): «إنّ من الفخر لنا أن تكون قدواتنا من أهل البيت بدءًا من عليّ، وليسوا من أولئك الملطّخين بعار المخالفة للرسول ﷺ الملطّخين بالأخطاء والمساوئ، والمواقف السيّئة، فنحن نتعب أنفسنا في الدفاع عنهم وفي تَنْمِيق مظهرهم.

قدواتنا من أهل البيت هم من أولئك المنزّهين المطهّرين الكاملين في أنفسهم، ممّن يشرّفنا أن نقتدي بهم. فأنت لا تخجل إذا ما قلت أنّ وليّك علي بن أبي طالب، عد إلى عليّ فتعرّف إليه تجد أنّه بالشكل الذي يشرّفك، فتفتخر بأنّه إمامك، بأنّك تتولّاه.

ولهذه القضيّة أهميّتها في سموّ النفس وارتقائها حتّى على مستوى القدوات من البشر. ولكن انظر إلى الآخرين كيف يتعبون أنفسهم وهم دائمًا يدافعون عمّن يتولّونهم، يحرّفون معاني القرآن من أجلهم، يحرّفون معاني كلام الرسول ﷺ من أجلهم، يعملون على أن يحوّلوا سيّئاتهم إلى حسنات، يعملون على أن يقدّموهم للأمّة كأعلام. ولكن يكفينا شهادة أنّهم ليسوا ممّن يمكن أن نفخر بهم إذا ما انتمينا إليهم. نأسف لكم أنّنا نجدكم تتعبون أنفسكم وأنتم تغطّون على خطيئاتهم، وعلى قصورهم ونقصهم»[١] .

(١) السيّد حسين (رضوان الله عليه) في الدرس السابع من معرفة الله.

المسألة أساسيّة بالنسبة للدين الإسلامي، والمشروع الديني كلّه، حتّى يمكن إقامته في الواقع والنهوض به في الحياة، له ركائز ومعالم أساسيّة، وهي: المنهج أوّلًا، القادة والرموز ثانيًا، المقدّسات التي تُمثِّل معالم في الأرض ثالثًا[١].

وهذه مسألة واضحة عندما نعود لنتأمَّل في كتاب الله سبحانه وتعالى المنهج الإلهي لم يكن ليقوم، ولا لينتشر ولا ليلقى القابليّة في واقع البشر بدون رموزه، بدون أعلامه الذين قاموا بدورٍ متعدّد من خلال البلاغ والتبيين، والتوضيح وإقامة الحجّة، ومن خلال التجسيد للمبادئ، والقيم والتمثيل العملي لها في واقع الحياة، وإبرازها عمليًّا في الواقع العملي؛ ليرى الناس عظمتها، وجمالها، وجلالها، وجاذبيّتها الكبيرة في الواقع، وإمكانيّة تطبيقها بما يترتَّب على تطبيقها من آثار ونتائج إيجابيّة في واقع الحياة.

ولأهميّة الأمر وباعتباره من ضروريّات المشروع الديني نجد أنّ الله سبحانه وتعالى خاطب نبيّه الكريم وهو في مقام النبوة، يتنَزَّل عليه الوحي، يصل إليه الهدي الإلهي وتعليمات الله سبحانه وتعالى في إطار الوحي الإلهي غضّةً طريَّة.

في مقام الوحي والنبوّة، يقدم الله سبحانه وتعالى له في كتابه الكريم قائمةً من أسماء الأنبياء والرسل فيعدّهم ثمّ يقول عنهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾[٢] يخاطب من؟ يخاطب النبي محمّدًا ﷺ في مقامه، وفي موقعه من النبوّة والوحي، يوحى إليه، على ارتباط مباشر بهدى الله سبحانه وتعالى، وبالوحي الإلهي، ويوجِّهه إلى أن يهتدي وأن يقتدي بأولئك السابقين من الأنبياء والرسل وأن يرتبط بهم كرموز، وهداة، في موقع القدوة.

(١) من محاضرة السيّد عبد الملك في ذكرى استشهاد الإمام علي ١٤٣٤هـ.

(٢) سورة **الأنعام**، الآية ٩٠.

إذ إنّ في إطار المشروع الديني لا بدّ من وجود القدوة وكذلك الأعلام، لا بدّ من الرموز، من الهداة الذين نرتبط بهم في إطار الدين نفسه فنقتدي بهم، ونهتدي، ونتخلّق بأخلاقهم، ونتأثّر بهم، ويمثّل ارتباطنا بهم عاملًا مهمًّا في أن نرتبط بالمشروع الديني ذاته، في أن نتخلّق بأخلاقه، في أن ننطلق من خلال مبادئه، في أن نلتزم بتعليماته، نرى فيهم ومعالم حياتهم في سلوكيّاتهم ومواقفهم وحركتهم في الحياة الشواهد لهذا الدين، في عظمته، في جاذبيّته، في تأثيراته المهمّة.

ولأنّ المسألة أساسيّة نجد أنّ الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم، في سورة **الفاتحة** التي نتلوها في كلّ صلاة فنقول فيها: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾[1] في الوقت الذي نطلب من الله ونتوجّه إليه أن يهدينا إلى صراطه المستقيم نذكر أنّ هذا الصراط له أعلامه، رموزه، هداته الذين نهتدي بهم، وهم لنا القدوة، والقادة، ويُجسّدون معالم هذا الدين، وحقائقه، ومبادئه، وأخلاقه، وبطريقةٍ صحيحة[2].

فهم يمثّلون الضمانة في التطبيق الصحيح، والسليم للدين، والحفاظ على مفاهيمه من التحريف؛ لأنّ الدين الإلهي – وحصل هذا في الرسالات السابقة، بعد الأنبياء السابقين، بعد موسى وعيسى، وغيرهم من الرسل، والأنبياء- يتعرّض في مراحله المختلفة لعمليّة تحريف؛ تحريف لمفاهيمه، وتحريف لقيمه وأخلاقه، ومبادئه، وهذا التحريف كثيرًا ما يُحسَب على الدين نفسه، وباسم يقوم به مجموعة من المضلّين الذين لديهم قدرات فائقة على التضليل والخطاب، ولديهم القدرة على توظيف الخطاب الديني نفسه من خلال تحريف مفاهيمه وقلب مبادئه رأسًا على عقب؛ وخداع الكثير من الناس عبر عوامل متعدّدة تُسهم في تحريف المفاهيم الدينيّة.

---

(١) سورة **الفاتحة**، الآيتان ٦ و٧.

(٢) من محاضرة السيّد عبد الملك في ذكرى استشهاد الإمام علي ١٤٣٤هـ.

عندما ينتصر الدين ويصبح حقيقةً واقعةً ثابتة، ويرى فيه الآخرون أنّه في ظهوره، وثقله وانتصاره، وهيمنته أصبح ثابتًا راسخًا لا يمكن أبدًا التخلُّص منه أو إزالته، وارتباطًا وثيقًا ثابتًا لا يمكن فصل الناس عنه.

يرى الآخرون - وفي المقدّمة - ملوك الجور، والظالمون، والطغاة، والمستكبرون، والمفسدون في الأرض في ذلك حالةً معقَّدة، تعني انتصار الدين، وارتباط الناس الوثيق به فلا يمكن فصلهم عنه، ويرون في نظرتهم إلى الدين أنّ جملةً أساسيةً من مفاهيم الدين التي تمثِّلُ بالنسبة لهم خطرًا وعائقًا كبيرين عليهم في إمكانيّة أن يهيمنوا على الناس بظلمهم وفسادهم وشرّهم وطغيانهم واستكبارهم وفسادهم. وبما أنّ عمليّة فصل الناس عن الدين بالكامل، وإزاحة الدين والرسالة الإلهيّة من واقع الحياة مسألة صعبة غير ممكنة، يعْمِدون إلى توظيف مفاهيم الدين بعد تغييرها وقلبها من خلال علماء السوء، ودائمًا ما تتمّ عمليّة التضليل والتحريف للمفاهيم الدينيّة من خلال علماء سوء هذه من الحقائق الثابتة. وعلماء السوء لديهم قراءة، واطلاع على المفاهيم والمعارف الدينيّة، فيقومون بتحريف المعاني والمفاهيم وتزييفها وقلبها إلى ما يتطابق مع رغبات وأهواء ملوك الجور، وسلاطين الظلم، والحكومات الجائرة حتّى يتهيّأ لها أن تحكم، وتسيطر، وتتغلّب دون أن تحتاج إلى أن تدخل في صدام عنيف مع المجتمعات التي آمنت بالرسالة الإلهيّة، وأصبحت على ارتباط وثيقٍ بها.

فتحصل عمليّة قولبة مثلما نلحظ الآن في واقعنا المعاصر، أليست أمريكا الآن متجهة إلى توليفة جديدة للدين الإسلامي؟ يعني لم يكتفوا بما قد حصل من تحريف لمفاهيم، وقلب لحقائق، وتغييرات كبيرة على مدى قرون طويلة من الزمن لم يكتفِ بهذا الأمريكيون! لا يزال لديهم أشياء جديدة إضافيّة من التعديلات، والتغييرات، والتلاعُبْ بالمفاهيم بما يخدم مصالحهم، بما يبطل فاعليّة قيم الإسلام الحقيقيّة في الناس التي تحيي الناس، والتي تَخلُق في واقع الناس الوعي الكافي، وتُعطِيهم البصيرة النافذة، واللازمة،

وتُحرِّك المجتمع فيكون واقعه ممتنعًا عن هيمنة الظالمين، والمستكبرين، والمفسدين، والطغاة، والجبابرة فتتمّ عمليّة التحريف[١].

فإذا أراد الناس أن يكونوا مرتبطين بالمنهج من دون رموز، من دون أعلام، تكون قابليّة عمليّة التحريف والتضليل أكبر، لأنَّه بهذه الحالة ينجح من يريد إضلال الناس في ذلك بأن يرسلوا من يقرأ على الناس نصوصًا دينيّة (يقَوْلِبهَا) كما يشاء، فيتلاعب بها وينزلها في غير محلّها، في غير مصاديقها، وتتقبَّلها الناسُ منه.. وبعد فترة يستطيعون أن يُحَوِّلُوا من عمليّاتهم التضليليّة والتحريفيّة إلى معتقدات، وأفكار، ومفاهيم، وثقافات يصبح لها جمهورها الواسع المؤمن المقتنع بها، المتحرّك على أساسها، فتُدَرَّس في مدارس، وتُكْتَب لها الكتب، وتُنَزَّل في محاضرات وهكذا. وتصبح ثقافةً سائدة وقد تقوم عليها أجيال، جيل بعد جيل وهكذا لتمتدّ عبر الزمن، ويتديّن الناس بها بضلالها وباطلها ويعتبرونها قربةً يتقرّبون بها إلى الله سبحانه وتعالى.

فالمشروع الديني في أساسه هو دين الله الحكيم، بل وأحكم الحاكمين، والله سبحانه وتعالى جعل دينه في معالمه، في ركائزه، في طبيعة المشروع نفسه على النحو الذي يضمن سلامته، سلامته للأجيال، والبشريّة. فللدين رموزه، ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾[٢] في الوقت نفسه ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾[٣] هؤلاء الرموز والأعلام الذين هم تَرْجُمَانُ الدين، ولسانه، وهم مصاديقه العمليّة في الواقع، يُبيّنون ما فيه على النحو الصحيح، فنستفيد منهم في معرفة المفاهيم الصحيحة للدين في كلامهم وأعمالهم وسلوكيّاتهم ومواقفهم وتصرّفاتهم، فهم يمثّلون المصاديق الحقيقيّة للمفاهيم الدينيّة والخطاب الدينيّ، وضمانة الأمّة والأجيال من الضلال والانحراف، فحينما ترتبط بالمشروع الإلهي، برموزه وأعلامه، ارتباطًا كاملًا غير مجتزئ يتّجه

(١) من محاضرة السيّد عبد الملك في من ذكرى استشهاد الإمام علي ١٤٣٤هـ.

(٢) سورة **الفاتحة**، الآية ٦.

(٣) سورة **الفاتحة**، الآية ٧.

فقط إلى الخطاب الديني أو إلى بعض المفاهيم الدينيّة ومن جاء ضلّل ولعِب وحرَّف، وتقبَّلتْ منه الأمّة، وتأثّر به الناس[١].

كان الأنبياء هم طلائع الرموز الأساسيّون في واقعهم العملي والسلوكي، وحركتهم في الحياة، وقيامهم بالمشروع الديني؛ لأنّ من الوظائف الأساسيّة للرسل والأنبياء ليس فقط التبليغ بالكلام والحديث والبيان، بل إقامة تلك المبادئ، والقيم، والأخلاق؛ إقامة الدين بتفاصيله الأخلاقيّة وغيرها؛ يتحرّكون في إطار مشروع عملي للنهوض بالدين في واقع الناس وفي واقع الحياة؛ الأنبياء والرسل في المقدّمة[٢].

ومن بعد الأنبياء والرسل، امتداد لورثتهم الحقيقيّين الصادقين الذين يمثّلون حلقة الوصل المأمونة من الرموز والأعلام والعظماء والهداة، والتي يمكن الوثوق بها والاطمئنان إليها في أنّها ستقدّم الدين على نحوٍ صحيح، وأنّها هي من يجب أن ترتبط بها الأمّة في ظلّ المشروع الديني من موقعها في القيادة، وهكذا هو الحال مع علي عليه السلام بمنزلة هارون من موسى، واقعه من محمّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم بكماله الإيماني العظيم، ومؤهّلاته العالية، بمعنى أنّه ليس مجرّد وظيفة أو منصب أو وسام شرف أُعْطِيَهُ الإمام علي هكذا، لا، استحقّه عن جدارة بعد أن أعطاه الله المؤهّلات العالية الكبيرة العظيمة الراقية على المستوى الإيماني، والتربوي، والمعرفي، والقيمي، والأخلاقي ليكون بمستوى هذا المقام العظيم، ليكون هو امتداد الهداية، وحلقة الوصل مع محمّد صلى الله عليه وآله وسلم مع رسول الله وخاتم أنبيائه.

عليّ لا يؤدّي هذا الدور كنبيّ، لا؛ لأنّ النبوة خُتِمَت بخاتم الأنبياء وسيّد الأنبياء رسول الله محمّد صلى الله عليه وآله وسلم، ولكنّه يؤدّيه من موقعه في كمال إيمانه كوزير، كوصيّ، من موقعه في كمال الإيمان ليكون هو من يتحرّك بهذه الأمّة وهو يربّي ويعلّم ويرشد ويقدّم مفاهيم هذا الدين ويجسّد مبادئه في الواقع العملي،

---

(١) من محاضرة السيّد عبد الملك في من ذكرى استشهاد الإمام علي ١٤٣٤هـ.

(٢) المصدر نفسه.

وهو يجهد ويجاهد للحفاظ على مفاهيم هذا الدين كي لا تتغيّر بفعل تحريف المحرفين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين(١).

لقد حظي الإمام علي عليه السلام في مسيرة حياته بمسارٍ متميّز يؤهّله لهذا الدور لأنّه مقام مهمّ، كبير، عظيم يحتاج إلى عناية خاصّة وتربية فريدة ومتميّزة وهذا ما كان، لقد شاء الله سبحانه وتعالى أن يكون من يتولّى تربية عليّ منذ طفولته المبكرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبذلك يردّ الجميل لعمّه أبي طالب الذي قام بدور أساسي في كفالة النبي وتربيته بعد وفاة جدّه عبد المطلب. وبتدبيرٍ من الله سبحانه وتعالى تولّى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تربية وتنشئة الإمام عليّ منذ طفولته المبكرة، وكان ذلك قبل النبوّة.

وقد ذكر فيما ذكر علي عليه السلام بقوله: «وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعِي مِنْ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم بِالْقَرَابَةِ الْقَرِيبَةِ، وَالمَنْزِلَةِ الخَصِيصَةِ: وَضَعَنِي فِي حِجْرِهِ وَأَنَا وليدٌ يَضُمُّنِي إِلَى صَدْرِهِ، وَيَكْنُفُنِي فِي فِرَاشِهِ، وَيُمِسُّنِي جَسَدَهُ، وَيُشِمُّنِي عَرْفَهُ(٢)، وَكَانَ يَمْضَغُ الشَّيْءَ ثُمَّ يُلْقِمُنِيه، وَمَا وَجَدَ لِي كَذْبَةً فِي قَوْل، وَلاَ خَطْلَةً(٣) فِي فِعْل» (٤). وهذه نقطة مهمّة جدًّا، بما حظي الإمام علي عليه السلام بعنايةٍ خاصّة من جانب الرسول واهتمامٍ كبير بتربيته وإعداده وتهذيبه(٥).

وكذلك هيّأ الله الإمام علي لأن يكون لديه قابليّة عالية لهذه التربية، ولهذا المستوى من التفاعل الكبير مع هذه العناية من جانب الرسول، وإلّا لما أثمرت تلك الثمرة الكبيرة؛ لأنّه مثلًا قد تحرص على أن تهتمّ بشخص معيّن أو بابنك مثلًا لتربّيه تربية خاصّة، وتبذل لذلك جهودًا كبيرة؛ ولكن ترى النتائج محدودة؛ لأنّ مستوى القابليّة لدى المتلقّي محدودة مثلًا، لكنّ الإمام علي

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) عَرْفه - بالفتح -: رائحته الزكيّة.

(٣) الخَطْلَة: واحدة الخَطَل - كالفرحة واحدة الفرح - والخطل: الخطأ ينشأ عن عدم الرويّة.

(٤) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ٢، الصفحة ١٥٨، الخطبة القاصعة في ذمّ الكبر وتقبيح الاختلاف.

(٥) من محاضرة السيّد عبد الملك في من ذكرى استشهاد الإمام علي ١٤٣٤هـ.

لا، كان مستوى القابليّة كبيرًا لديه، وتفاعله هو، وهو من الله مهيّأ لأن يتفاعل بشكلٍ كبير، فكان كلّ جهدٍ تربويٍ من رسول الله يثمر في الإمام علي ثمرةً عظيمة، يترك فيه أثرًا بليغًا، يحقّق نتائجه فيه؛ استقامة عالية وتفاعل كبير وتأثّر عظيم.

يحكي الإمام علي عليه السلام عن فعل هذا الارتباط القويّ، والمتميّز؛ هذا الاندماج الكبير في حياة النبي، صلى الله عليه وآله وسلم فيقول: «وَلَقَدْ قَرَنَ اللهُ تَعَالَى بِهِ صلى الله عليه وآله وسلم مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيمًا أَعْظَمَ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَتِهِ يَسْلُكُ بِهِ طَرِيقَ الْمَكَارِمِ، وَمَحَاسِنَ أَخْلَاقِ الْعَالَمِ، لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ». حظي الرسول نفسه بتربية عظيمة جدًّا، وعليّ كذلك كان مهيّأً بشكل عظيم جدًّا، لا أحد يساويه من البشر فيما هيّأه الله له من التأثّر والتقبّل، ويواصل الإمام علي عليه السلام بشرح تلك الأجواء التربويّة الرائعة فيقول: «وَلَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ اتِّبَاعَ الْفَصِيلِ[١] أَثَرَ أُمِّهِ، يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْم عَلَمًا[٢] مِنْ أَخْلاقِهِ، وَيَأْمُرُنِي بِالاقْتِدَاءِ بِهِ. يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْم عَلَمًا مِنْ أَخْلاقِهِ، وَيَأْمُرُنِي بِالاقْتِدَاءِ بِهِ. وَلَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ فِي كُلِّ سَنَة بِحِرَاءَ[٣]، فَأَرَاهُ وَلاَ يَرَاهُ غَيْرِي، وَلَمْ يَجْمَعْ بَيْتٌ وَاحِدٌ يَوْمَئِذٍ فِي الإِسْلاَمِ غَيْرَ رَسُولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم وَخَدِيجَةَ وَأَنَا ثَالِثُهُمَا، أَرَى نُورَ الْوَحْيِ وَالرِّسَالَةِ، وَأَشُمُّ رِيحَ النُّبُوَّةِ».

فكان الإمام علي عليه السلام بفعل هذه التربية العظيمة والإعداد العالي والعناية الخاصّة ارتضع الرسالة ارتضاعًا، تعلّم الأخلاق، عاش أجواء الهداية الإلهيّة والاختصاص الوثيق والارتباط القويّ جدًّا بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وواكب الإسلام من يومه الأوّل فكان أوّل المؤمنين برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وتوجّه في بقيّة حياته منطلقًا بانطلاقةٍ متميّزة، ليسهم إسهامًا كبيرًا، عظيمًا، متميّزًا في إقامة الرسالة الإلهيّة، بجهاده المرير، موظِّفًا ما منحه الله من مؤهّلات عالية على المستوى الإيماني وعلى المستوى الفطري بما أعطاه الله من شجاعة

(١) الفَصِيل: ولد الناقة.

(٢) عَلَمًا: أي فضلًا ظاهرًا.

(٣) حِراء بكسر الحاء: جبل على القرب من مكة.

فائقة وقدرات قتاليّة متميّزة ازدادت وعظُمَت بالإيمان نفسه، فكان فارس الإسلام ورجله وبطله الذي تصدّى في كلّ ميادين القتال وفي ساحات الصراع لصناديد الكفر وأبطال الشرك والطغاة والمستكبرين بكلّ ما كانوا يمثّلونه من إمكانات وقدرات وتحدٍّ ضدّ الإسلام وأهله[١].

الإمام علي عليه السلام هو رمز إسلامي وعظيم من عظماء الأمّة الإسلامية، هذا أمر لا شكّ فيه، ولا نقاش، ولا إشكال، فسواء في المدرسة الشيعيّة أو في المدرسة السنّيّة الكلّ يجمع على جلالة قدره وعظيم مقامه، والنصوص المهمّة التي وردت بشأنه عليه السلام، تناقلها الفريقان - كما يقال في التعبير - في التراث الإسلامي، وتناقلتها الأمّة وتوارثتها جيلًا بعد جيل.

فليس الحديث عنه محطّ إشكال، وإن حاول البعض وبالذات في هذا الزمن، كما يحاول التيّار الوهّابي التكفيري أن يجعل الحديث عن الإمام علي عليه السلام محطّ إشكال وجدال وأن يثير حساسيّة بالغة وشديدة في هذا الجانب، وهذا شيء يجب أن تتظافر جهود الأمّة كلّها في التصدّي له لأنّه باطل محض لا مبرّر له أبدًا.

ونختم بما قاله السيّد حسين (رضوان الله عليه) في الدرس الثاني من سورة **المائدة**:

يجب أن نلتفّ حول القرآن وأن نكون صادقين في ولائنا للإمام علي وأن نعرف أهميّة التولّي له عليه السلام وإن كنّا نرى أنّ بيننا وبينه ألف وأربع مئة سنة.

لن نكون من حزب الله الغالبين ما لم نكن على هذا النحو من الولاء لعلي عليه السلام؛ الولاء الصادق، الولاء العملي الذي يجعلنا نستلهم من علي كيف نتحلّى بأخلاق علي، بنظرة علي، باهتمامات علي، وسنرى كيف سنكون في مواقفنا واعتقاداتنا ونظراتنا وتوجّهنا منسجمين مع القرآن. أسأل الله

---

(١) من ذكرى استشهاد الإمام علي ١٤٣٤هـ.

سبحانه وتعالى أن يجعلنا ممّن يتولّى عليًّا عليه السلام تولّيًا صادقًا، وأن يثقّفنا بالقرآن، ويفقّهنا بالقرآن، ويفهّمنا القرآن.

ونورد بعض أبيات كتبها للشاعر ضيف الله الدريب في علي عليه السلام :

عَـــلِـــيٌّ تـــاجُ عِـزَّتِـنـا أَمِـيـرٌ قَـدْ تَـولَّـيْـنَـاهْ
عَـلِـيٌّ دَرْسُـنَـا الـوَاعِـي نَـجَـحْـنَـا يَـوْمَ ذَاكَـرْنَـاهْ
قَـطَـفْـنَـا حُـبَّـهُ مِـنْ جَـنَّـةِ الـفِـرْدَوْسِ وَاخْـتَـرْنَـاهْ
وَخَـطَّ الـلـهُ نَـصْـرًا حَـاسِـمًا فِـي دَرْبِ مَـنْ وَالَاهْ
لِأَنَّ الـمُـصْـطَـفَـى أَرْسَـى وَلَايَـتَـهُ بِـمَـا أَمْـلَاهْ
غَـدِيـرُ الـخُـمِّ شَـاهِـدُنَـا مَـعَـاذَ الـلـهِ أنْ نَـنْـسَـاهْ
فَـمَـا زِلْـنَـا بِـسَـاحَـتِـنَـا نُـنَـفِّـذُ مَـا تَـعَـلَّـمْـنَـاهْ
وَنَـكْـتُـبُ مِـنْ دَمِ الأَحْـرَارِ: أَبْـشِـرْ يَـا وَلِـيَّ الـلـهْ
عَـلِـيٌّ صَـرْخَـةُ الأَحْـرَارِ فِـي الـسَّـاحَـاتِ مَـا أَقْـوَاهْ!
عَـلِـيٌّ ثَـوْرَةٌ كُـبْـرَى عَـلَـى الـطَّـاغُـوتِ وَالأَشْـبَـاهْ
وَإِعْـصَـارٌ لِأَمْـرِيـكَـا وَإِسْـرَائِـيـلَ أَعْـدَدْنَـاهْ
عَـلِـيٌّ رُوحُ ثَـوْرَتِـنَـا وَنَـحْـنُ الـبَـأْسُ فِـي يُـمْـنَـاهْ
عَـلِـيٌّ وَارِثُ الـقُـرْآنِ بَـعْـدَ الـمُـصْـطَـفَـى الأَوَّاهْ
عَـلِـيٌّ نَـبْـعُـنَـا الـصَّـافِـي رَشَـفْـنَـا الـهَـدْيَ مِـنْ عَـلْـيَـاهْ
وَأَيُّ شَـوَائِـبٍ أُخْـرَى رَفَـضْـنَـاهَـا وَبَـايَـعْـنَـاهْ
وَجَـدَّدْنَـاهُ فِـي تَـارِيـخِـنَـا الـحَـالِـي وَأَعْـلَـنَّـاهْ
وَأَجْـرَيْـنَـاهُ فِـي دَمِـنَـا إِبَـاءً نَـقْـتَـفِـي مَـعْـنَـاهْ

نَـصَـرْنَـا الـمُـرْتَـضَـى وَالـنَّـصْـ ـرَ تِـلْـوَ الـنَّـصْـرِ حَـقَّـقْـنَـاهْ
وَلِــمْ نَـهْـزِمْ يَـهُـودَ الـغَـدْ رِ إِلَّا يَـــوْمَ وَالَـيْـنَـاهْ
وَفِـــي ذِكْــرَى وِلَايَــتِــهِ صُـمُـودُ الـقُـدْسِ قَـدْ حَـيَّـاهْ

الفصل الرابع: في رحاب حديث الولاية

توطئة

المشروع الإلهي الكبير له منهج يتضمّن التعليمات الإلهيّة فيما نعمل وفيما نترك وفي تحديد مسؤوليّاتنا في الحياة وفي تبصيرنا بواقع الحياة وما فيها، وفي علاقتنا بالله سبحانه وتعالى، ويمثّل المنهج الإلهي النور والهدى والبصائر التي على ضوئها نبني واقعنا كمؤمنين ونتحرّك في مواقفنا.

وهذا ما قدّمه الله لنا في كتبه ومن خلال أنبيائه والهداة من عباده منهجًا متكاملًا واسعًا بسعة الحياة وأكثر من ذلك. لكنّ هذا المنهج يبقى حبرًا على ورق، يبقى في طيّات الكتب، يبقى تعليمات مجمَّدة إذا لم يكن هناك من يحملها، من يدعو إليها، من يطبّقها في واقعه ويتحرّك على ضوئها ويمثّل القدوة للآخرين؛ وهنا يأتي دور الرموز والأعلام.

وعندما نعود إلى الرسالة الخاتمة إلى مسيرة الإسلام في أمّتنا الإسلاميّة، إلى الرموز والأعلام الذين حملوا الإسلام في قلوبهم وقدّموا صورته الرائعة الحقيقيّة فيما تمثّلوه والتزموا به من أخلاقه وتعاليمه وهم الروّاد والطليعة والقادة والقدوة في مدرسة الإسلام الكبرى مقتفين أثر نبي الله محمّد ﷺ نجد أنّ في مقدّمتهم الإمام عليًا عليه السلام ذلك التلميذ الوفيّ والمتميّز للرسول ﷺ وخرّيج مدرسة الإسلام الكبرى فكان أثر الرسول وأثر القرآن وأثر الإسلام بارزًا في شخصيّته وروحيّته وسلوكيّاته ومواقفه وواقعه بشكلٍ يقدّم شهادةً على عظمة الإسلام وعظمة القرآن وعظمة نبي الإسلام محمّد ﷺ ومنذ بداية مشواره مع الرسول ﷺ وبحكم ملازمته للنبي وارتباطه الوثيق

به وتميّزه ووعيه العالي، كان الإمام عليٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ سبّاقًا إلى الإسلام ليحوز فضيلة السبق ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾[1] سبق إلى الإسلام منذ انبثاق نوره ومن دون أيّ تردّد أو تأخّر أو تلكّؤ، دخل في الإسلام ودخل الإسلام فيه فكان كلَّ قلبه وكلَّ روحه وكلَّ حياته، لقد ذاب في الإسلام وامتزج به فكان خلقه الإسلام، وكانت قضيّته الإسلام، وكانت حياته للإسلام وكان الفدائي الأوّل في الإسلام.

فهو مدرسة متكاملة نعرف من خلالها ونرى من خلالها الإسلام بكلّ كماله وجماله وحقيقة مبادئه، وعظم أخلاقه والإيمان بجلاله وجماله.

هكذا كان الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ وهكذا يبقى نورًا في مشرق الشمس قدوة للمستبصرين ونورًا للحائرين وعَلَمًا يقتدى ويتأسّى به في مدرسة الإسلام الكبرى ويمثّل النموذج الحقيقي والقدوة للرموز الحقيقيّين.

وهذا هو الفصل الرابع والذي خصّصناه للحديث عن حادثة الغدير وأبعادها وقد اعتمدنا على ما جمعناه ممّا ورد عن السيّد حسين بدر الدين الحوثي (رضوان الله عليه) والسيّد عبد الملك بدر الدين الحوثي (رضوان الله عليه).

راجيًا من الله أن يتقبّل هذا العمل بأحسن القبول.

والله الموفّق

يحيى قاسم أبو عَوَّاضَة
شهر ذي الحجة ١٤٣٨هـ

---

(١) سورة **الواقعة**، الآيات ١٠-١٢.

مقدّمة

مناسبة يوم الولاية الذي نقيمه كلّ عام هي مناسبة لها عمقها التاريخي والثقافي والعقائدي والسياسي بالشكل الذي يجعلها أهمّ مناسبة في حياة الأمّة الإسلامية، وهي القضيّة التي تحتاجها الأمّة في كلّ زمان ومكان، وتمثّل الحلّ والمخرج لها في كلّ العصور، والآليّة التي على أساسها يبنى واقع الأمّة الإسلاميّة بناء قرآنيًّا يجعلها أمّة عظيمة قادرة على أداء مسؤوليّتها التي كلّفت بها وجاهزة لمواجهة أعدائها بكلّ أنواعهم وأصنافهم بعيدة عن ظلم الظالمين وهيمنة المستكبرين وطغيان المتسلّطين.

ولو أنّ الأمّة عادت إلى مثل هذا اليوم وما قدّم فيه الرسول ﷺ من بلاغ مبين ومن أسس مهمّة في ولاية أمرها لما ظلمت ولما تمكّن المفسدون والطامعون والظلمة والمستكبرون من الهيمنة عليها وإذلالها، ولكن تهاون الأمّة ببلاغ الرسول في هذا اليوم والحلول التي قدّمها جعلها أمّة تعيش حالة رهيبة من الظلم والاستبداد وبالشكل الذي لم يحصل لأيّ أمّة أخرى حتّى ظهرت في الأخير أمّة عاجزة عن أداء دورها في هداية البشريّة مفارقة لخيريّتها التي تؤهّلها لتكون أمّة جديرة بنشر المعروف في كلّ بقعة من بقاع العالم وقادرة على إزالة المنكر من هذا الوجود.

فالنبي ﷺ كان أعظم قائد عرفته البشريّة على الإطلاق، ولذلك كان مدركًا بأنّه لا بدّ من مواجهة المشركين وغيرهم ممّن لا يريدون خيرًا للبشريّة ولا يريدون أن تتحرّر، ممّن يرون في حريّتها وإنقاذها من الضلال تهديدًا

لمصالحهم الشخصيّة الضيّقة، وهكذا هم الطواغيت في كلّ زمان ومكان يعمدون إلى أن تظلّ الأمّة ضالّة ضائعة غبيّة لتظلّ تحت سيطرتهم وطغيانهم.

وكان لا بدّ للرسول الأكرم ﷺ أن يترك في هذه الأمّة من هو جدير بأن يحافظ عليها، ومفهوم الولاية أعمّ من أن يكون لشخص ما، بل هي امتداد لولاية الله سبحانه وتعالى ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ﴾. ولاية الله سبحانه وتعالى هي ولاية الإله الذي نعبده، ولاية الألوهية كإله لنا، ولاية الربوبيّة كربّ لنا نؤمن به، نعبده، نخضع له، نطيعه، نثق به، نتوكّل عليه، نذعن لأمره، نعتمد عليه، نستهديه، ولاية هداية هو الهادي الذي يهدينا، يأمرنا، يوجّهنا، يبصرنا، يعلّمنا، يقدّم لنا، ويرسم لنا معالم الصراط المستقيم، وطريق الفوز والنجاح والفلاح والعزّة والخير، يدلّنا على كلّ الخير، على المصلحة، على الخلاص، على الحلول لمشاكل حياتنا، يرعانا في كلّ شأننا، ينصرنا في مواجهة أعدائنا.

فولاية الله ولاية شاملة، ولاية ربّ على المربوبين، ولاية الإله على العبيد العابدين له الراجعين إليه، وهي ولاية الملك، ربّ الناس وملك الناس وإله الناس، ولاية الملك الذي له الحقّ بالتصرّف في مملكته في عباده، يأمر وينهى ويشرع ويقنّن ويفرض ويحلّل ويحرّم؛ لأنّ هذا العالم كلّه مملكته، الناس والعباد مخلوقاته، وربٌّ ليس فضوليًّا يريد أن يفرض نفسه على الجميع، وأن يتدخّل في شؤونهم، الجميع عباده وعبيده ومملوكاته ومخلوقاته، والجميع مربوبون له، هو الربّ والإله والملك والمالك والخالق والرازق والمحيي والمميت والمبدئ والمعيد، إلى غير ذلك. وهذا هو جوهر الإسلام، جوهر رسالة الله سبحانه وتعالى إلى العباد.

وولاية الله ولاية رحمة يرحم عباده يتولّاهم برعايته وحتّى توجيهاته وتعليماته تكون من منطلق رحمته بهم فيما فيه الخير لهم والعزّة، ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ يمنحهم الحكمة، يريد لهم الكرامة، ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ يريد لهم الخير، وأن يكونوا أحرارًا.

وكلّ الأنبياء الذين أرسلهم كان من مهامهم الرئيسيّة تحرير الناس من العبوديّة للطواغيت. فالإنسان هو بين حالة من حالتين: إمّا أن يكون عبدا لله أو عبدًا للطواغيت. ثمّ ولاية الله سبحانه وتعالى التي فيها كلّ هذا الارتباط الشامل، ترتبط بربّك الله في كلّ واقع حياتك، في كلّ شأنك، في كلّ أمرك، في كلّ واقعك، في كلّ ظروفك، في مسير حياتك كلّها.

وتأتي ولاية الرسول امتدادًا لولاية الله؛ ولهذا لم يقل: إنّما وليّكم الله ووليّكم رسوله ووليّكم الذين آمنوا، لا، عبارة واحدة ﴿وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ والرسول ﷺ ولايته من موقعه في الرسالة كرسول، وليّ في رسالته: يبلّغ رسالة الله، يربّينا، يعلّمنا، يهذّبنا، ويزكّينا، يقيم علينا حجّة الله سبحانه وتعالى، له علينا حقّ الأمر والنهي؛ لأنّه لا يأمر إلّا بأمر الله، ولا ينهى إلّا بنهي الله، وله علينا أن نعظّمه وندرك فيه عظمة الرسالة، وقيمها ومبدأها التي جسّدها في واقعه، وفي حياته، وكان عظيمًا بها وعظيمًا بمكانته عند الله سبحانه، نجلّه ونحبه وهذا شيء طبيعي لأنّ كلّ تلك القيم التي كانت متجسّدة فيه، ومتمثّلة به، وفيه وفي حياته على أسمى ما يكون في واقع البشر، وطاعته مفروضة ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾[1] لنا هذا الارتباط به معلّمًا، قائدًا، هاديًا، آمرًا، موجّهًا، مربيًا، مزكّيًا، أسوةً، قدوة وأن يتحقّق هذا الارتباط حقيقة.

وبما أنّ منهج الله ممتدّ لا ينقطع فقط عند الرسول ﷺ وانتهت مهمّة الرسالة، مهمّة الدين مهمّة التعليمات الإلهيّة، وأعلنت نهايتها، ليست من المنتجات التي لها تاريخ انتهاء فول أو بزاليا أو ما شاكل ذلك، لا، هذه رسالة ممتدّة إلى قيام الساعة، تأتي بعد ولاية الرسول ﷺ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ﴾. واتفق المفسّرون أنّ المقصود بهذه الأوصاف والمقدّم بهذه المؤهّلات الإيمانيّة هو الإمام علي عليه السلام في حادثة إعطائه وتصدّقه بالخاتم في ركوعه التي

(١) سورة **النساء**، الآية ٨٠.

كان لها دلالة مهمّة ومعبّرة جدًّا على كلّ الخطاب للمؤمنين، وأكيد أنّ هناك طرفًا آخر، المؤمنون مخاطبون بأن يتولّوه بأن يدركوا ولايته أنّها امتداد لولاية الرسول ﷺ وإلّا لو افترضنا أنّ المعنّي بها هؤلاء المؤمنون فمن المخاطب بتولّي هؤلاء المؤمنين؟!

فالتولّي ليس مجرّد انتماء مذهبي بل هو ارتباط عملي وسلوكي: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾، ولا هو كلام يتفوّه به الإنسان وانتهى الأمر. لا، التولي سيرٌ في الطريق، تحرّكٌ في الصراط المستقيم، التزام بالرسالة الإلهيّة في مضامينها ومبادئها وقيمها وأخلاقها هذا هو التولّي. وهنا، ندرك في هذا السياق أيضًا أنّ الإمام عليًّا عليه السلام دوره مهمٌّ في الأمّة لأنّ مرحلة ما بعد الرسول ﷺ مرحلة حسّاسة بكلّ ما تعنيه الكلمة. ففي كثير من تجارب البشريّة، بعد الكثير من الأنبياء والرسل كان يحصل فيها اختلافات وتباينات واضطراب وتعدّد في الاتجاهات والمفاهيم والنقل وغير ذلك.

واختلاف الأمم يحدث عادة عندما يكون هناك فراغ كبير في واقعها ليس فقط بعد الأنبياء حتّى بعد أيّ زعامة رئيسيّة مهمّة جدًّا بنت أمّة، ولكن للدين الإسلامي وللرسالة الإلهيّة خصوصيّة ليست واقعًا عاديًّا وليس هناك مشكلة فلتختلف عليه الأمّة ولتتباين ولتتناقش ولتضطرب، ولتضع جهود الرسول ﷺ التي بذلها بشكل كبير فليفرغ هذا الدين من مضامينه الرئيسيّة مبادئه القيمة، لا.

لذا حرص الرسول ﷺ على ترسيخ ارتباط الأمّة بعلي (علي السلام) بالمرويات المؤكّدة للمسلمين كافّة من قبيل حديث المنزلة الذي أكّد فيه ﷺ على موقعيّة الإمام علي عليه السلام، وأيّ إنسان يسلم من العصبيّة سيدرك أنّه الموقع الأوّل بعد محمّد ﷺ كما خلف هارون موسى عليهما السلام كوزير ووصيّ ومعلم وقائد امتدادًا أصيلًا نقيًا مضمونًا لرسالة الله سبحانه وتعالى، ولتعاليم الإسلام، حاملًا لهذه الرسالة قيمًا وأخلاقًا ومبادئًا وسلوكًا وممارسةً وقيادةً.

أوّلًا - حادثة الغدير وأهميّتها

يقول السيّد حسين (رضوان الله عليه) في خطابه بهذه المناسبة:

في الثامن عشر من ذي الحجّة من السنة العاشرة للهجرة وبعد عودة الرسول ﷺ من حجّة الوداع مع عشرات الآلاف من جموع المسلمين وقف في وادي (خُم) - وهي منطقة بين مكّة والمدينة وهي أقرب ما تكون إلى مكّة - بعد أن نزل عليه قول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[1].

وفي وقت الظهيرة، في وقت حرارة الشمس، وحرارة (الرَّمْضَاء) أعلن رسول الله ﷺ لمن تقدّم أن يعودوا، وانتظر في ذلك المكان حتّى تكامل الجمع، وبعد ذلك رُصَّتْ له أقْتاب الإبل ليصْعَدَ عاليًا فوقها؛ لتراه تلك الأمّة -إن كان ينفعها ذلك -، لتشاهده، وهي تعرفه بشخصه، لترى عليًّا ويد رسول الله رافعة ليده وهي تعرف شخص (علي)، ومن فوق تلك الأقتاب يعلن موضوعًا هامًّا، يعلن قضيّة هامّة هي قضيّة ولاية أمر هذه الأمّة من بعده ﷺ.

(١) سورة **المائدة**، الآية ٦٧.

عندما صعد وبعد أن رفع يد علي عليه السلام خطب خطبة عظيمة قال فيها: «يا أيّها الناس إنّ الله مولاي، وأنا مولى المؤمنين أولى بهم من أنفسهم فمن كنت مولاه فهذا عليٌّ مولاه، اللهم وَالِ من وَالاه، وعادِ من عاداه، وانصر من نصره، واخْذُل من خَذَله».

تسلسل هذا الحديث ينسجم انسجامًا كاملًا مع الترتيبات التي أعلن فيها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ومع لهجة تلك الآية الساخنة.

الموضوع هامّ بالغ الأهميّة، قضيّة خطيرة بالغة الخطورة، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعرف ويقدّر كلّ موضوع حقّ قدْره، ويعطي كلّ قضيّة أهميّتها اللائقة بها. يخاطب الناس: «يا أيّها الناس إنّ الله مولاي» وهذه هي سنّة الأنبياء، وخاصّة مع تلك الأمم التي لا تسمع ولا تَعِي، فقد قال نبي من أنبياء الله من بني إسرائيل عندما سأله قومه أن يبعث لهم مَلِكًا يقاتلون معه وتحت رايته في سبيل الله، ماذا قال؟ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗاۚ﴾[1] وها هنا بنفس الأداء: «إنّ الله مولاي» تساوي: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗاۚ﴾؛ ليقول للأمّة: إنّي وأنا أبلّغ عندما أقول لكم: «فمن كنت مولاه فهذا عليٌّ مولاه» إنّما أبلغ عن الله، ذلك أمر الله، ذلك قضاء الله، ذلك اختيار الله، ذلك فرض الله، وذلك إكمال الله لدينه، وذلك أيضًا مظهرٌ من مظاهر رحمة الله بعباده.

«إن الله مولاي، وأنا مولى المؤمنين أولى بهم من أنفسهم» هكذا يتدرّج النبي محمّد صلى الله عليه وآله وسلم معهم من عند الله إليه صلى الله عليه وآله وسلم، ولاية ممتدّة، متدرِّجة لا ينفصل بعضها عن بعض.

ثمّ يقول: «فمن كنتُ مولاه»؛ إنّ كلّ مسلم - وليس فقط الشيعة - يعتقد ويؤمن بأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو مولاه. ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾[2] إذًا «فمن كنتُ مولاه» أيّ مسلم، أيّ أمّة، أيّ شخص، أيّ حزب،

(١) سورة **البقرة**، من الآية ٢٤٧.

(٢) سورة **الأحزاب**، الآية ٦.

أيّ طائفة، أيّ فئة، أيّ جنس من هؤلاء من هذه البشريّة كلّها يدين بولايتي، يدين أنّي أنا مولى المؤمنين «فهذا عليٌ مولاه» «اللهم وَالِ من وَالاه، وعادِ من عاداه، وانصر من نصره، واخْذُل من خَذَله»[١].

وهكذا قدّمت هذه القضيّة المهمّة للأمّة بهذا الوضوح الذي لم تشهده أيّ قضيّة أخرى بدءًا بلهجة الآية ومرورًا بالترتيبات التي قدّمها النبي ﷺ والتي تبيّن للأمّة عظم هذه المسؤوليّة وخطورة التفريط فيها. ثمّ يختتم الله هذه المراسيم العظيمة بقوله سبحانه وتعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾[٢] [٣].

وعن أهميّة هذه المناسبة يقول السيّد عبد الملك (رضوان الله عليه) في خطاب الولاية لعام ١٤٣٧هـ:

---

(١) السيّد حسين (رضوان الله عليه) في حديث الولاية.

(٢) سورة **المائدة**، الآية ٣.

(٣) قال السيّد مجد الدين المؤيّدي رحمه الله في الجامعة المهمّة: خبر الغدير متواتر، أخرجه محمّد بن جرير الطبري من خمس وسبعين طريقًا، وأفرد له كتابًا سمّاه كتاب الولاية، وذكره ابن عقدة من مئة وخمس طرق، ذكر ذلك ابن حجر في **فتح الباري**.

وقال الذهبي: بهرتني طرقه فقطعت به، ورواه ابن حجر العسقلاني عن سبعة وعشرين صحابيًا، ثمّ قال: غير الروايات المجملة، مثل: اثني عشر، ثلاثة عشر، جمع من الصحابة، ثلاثين رجلًا.

وقال ابن حجر في الصواعق: رواه ثلاثون من الصحابة، وفيه: «اللّهم والِ من والاه، وعادِ من عاداه، واخذل من خذله».. إلى آخره. وعدّه السيوطي في الأحاديث المتواترة.

وقال محمّد بن إبراهيم الوزير: إنّ حديث الغدير يُروى بمئة وثلاث وخمسين طريقًا، وقال المقبلي في الأبحاث: إن كان هذا معلومًا وإلّا فما في الدنيا معلوم. وقال أيضًا في الإتحاف: ومن أشهر ما في الباب خبر غدير خمّ، وقد عزاه السيوطي في الجامع الكبير إلى أحمد بن حنبل، والحاكم، وابن أبي شيبة، والطبراني، وابن ماجة، وابن قانع، والترمذي، والنسائي، والمقدسي، وابن أبي عاصم، والشيرازي، وابن عقدة، وأبي نعيم، وابن حبان، والخطيب؛ ذلك من حديث ابن عبّاس، وبريدة، والبراء بن عازب، وعمر، وحبشي بن جنادة، وأبي الطفيل، وزيد بن أرقم، وجرير، وجندب الأنصاري، وسعد بن أبي وقّاص، وزيد بن ثابت، وحذيفة بن أسيد، وأبي أيّوب، ومالك بن الحويرث، وحبيب بن بديل، وقيس بن ثابت، وعلي بن أبي طالب، وابن عمر، وأبي هريرة، وطلحة، وأنس، وعمرو بن مرّة،... إلى آخره.

نفهم من هذه المناسبة بمضمونها وحدثها التاريخي أنّ يوم الثامن عشر من شهر ذي الحجّة شَهِدَ حدثًا تاريخيًّا إسْلَاميًّا عظيمًا ومهمًّا وأساسيًّا ذلك كان أثناءَ عودة النبي ﷺ من حجّة الوداع، وحجّة الوداع هي كما أسماها النبيُّ ﷺ، ودَّعَ فيها أمّته، وقال في خطبته الشهيرة وهو في الحجّ: «ولعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا». كما قال أيْضًا في خطبته في مناسبة الغدير: «إنّي أوشك أن أدعى فأجيب» فالنبيُّ ﷺ كان يعيشُ في أدائه الرسالي بحركته في الأُمَّـة في خطاباته وَاهتماماته وتوجُّهاته يعيشُ في وجدانه الاستعدادَ للرحيلِ من هذه الحياة، وهو فيما يقدّم للأمّة وفيما يوجّه به وفيما يتخاطبُ به مع الأُمَّـة هو في المراحل النهائيّة لتمامِ الرسالة الإلهيّة في تبليغه ﷺ ونشاطه التبليغي في أوساط الأُمَّـة، وكان يَحسّسُ الأُمَّـة بهذا؛ فأجيب الله وأرحل إلى جواره ويستضيفني إلى رحمته، وما سأقدِّمُهُ لكم وأقولُه هو في غاية الأَهميَّة لما بعد رحيلي من هذه الحياة، لما بعد ارتقائي وعروجي إلى رحمة الله سُبْحَانَه وتَعَالَى، أي أنّ ما كان يقدّمه في المرحلة والمحطّة الأخيرة من محطّاته الرساليّة هو مهمٌّ جدًّا لما بعد ولمستقبل الأُمَّة.

ولذلك الرسول ﷺ وَأثناء عودته من مكّة من الحجّ وفي طريقه إلى المدينة وفي منطقة بالقُرب من (الجحفة) في منطقة في وادي غدير خم، في تلك المنطقة نزل عليه قولُ الله سُبْحَانَه وتَعَالَى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ نص مهمّ جدًّا وساخن يدلّل على أمر في غاية الأَهميَّة لحيويّة الرسالة، وللحفاظ عليها في مستقبلها، ولإعطائها الواقع والدافع العملي والفعّال في الحياة لاستمراريّتها بالشكل الصحيح والنقيّ.

الآية المباركة لا تعني بأيّ حال من الأحوال أنّ النبي ﷺ كان يتردّد في التبليغ نهائيًّا، هو لا يخشى في الله لومة لائم وهو معروف ﷺ بتفانيه في سبيل الله. وَهو أساسًا قد تجاوز مراحل صعبة جدًّا في تبليغ الرسالة وتناول أهمّ القضايا الحسّاسة جدًّا، بلّغ التوحيد وواجه حالة الشرك التي كانت ثقافة باطلة مترسّخة يتعصّب لها المجتمع على أشدّ حال من العصبيّة، وبلَّغ أمور

الإسلَام جملةً وتفصيلًا في كُلّ الاتجاهات، الجوانب العقائديّة، والجوانب العمليّة، كذلك الموقف الإسْلَامي والقرآني من كُلّ حالات الانْحرَاف السائدة في واقع الحياة في الأرض، والموقف من الانْحرَافات السائدة في أوساط الوثنيّين، والانْحرَافات المنتشرة في أوساط اليهود وفي أوساط النصارى وفي أوساط كُلّ حالات الانْحرَاف في الأرض، وقدّم مشروعه الرسالي، مشروع الله سُبْحَانَه وتَعَالَى، دين الله الحقّ الذي يمثّل الصراط المستقيم والتصحيح الفعلي والحقيقي والسويّ لواقع البشريّة، والذي يعالج كُلّ إشكالات البشر.

أَيْضًا على مستوى الصراع، الآية هذه في آخر حياته ما قبل وفاته قد تكون بأقلّ من ثلاثة أشهر في شهر ذي الحجّة أواخر السنه العاشرة للهجرة، وهو توفّي على اختلاف الروايات في السنة الحادية عشرة، إمّا في شهر صفر أَوْ في أوّل ربيع على حسب اختلاف الروايات.

على كُلٍّ في آخر حياته يأتي هذا النصّ، تُرى ما هو هذا الذي له كُلّ هذه الأَهميَّة وأهميّته مرتبطة بحيويّة الرسالة كلّها ومستقبلها وفاعليّتها وأثرها في الناس والحياة؛ لأنّ قوله ﴿وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥ﴾، يعني بأنّ هناك مسألةٌ مهمّةٌ، بلاغُها وتمسُّكُ الأُمَّة بها يعطي حيويّةً لكلّ رسالة الله، يعطي نجاحًا للمشروع الإلهي كلّه، عدم تبليغها أَوْ تبليغها وعدم تفاعل الأُمَّة معها له مردود سلبي يعود عكسيًّا في إضعاف الدور الديني، الأثر النافع والمفيد لرسالة الله في واقع الحياة، الفاعليّة لبقيّة تعاليم الإسْلَام.

أمرٌ كهذا له هذه الأَهميَّة، عليه هذا التأكيد وأحيط بضمانة إلَهيّة لتمكينه من تبليغ هذا الأمر في وسط بات وسط الأُمَّة الإسْلَاميّة الوسطَ الذي سيبلّغ فيه هذا البلاغ وسطًا إسْلَاميًّا والشرك انمحى آنذاك من الجزيرة العربيّة ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ كضمانة لتمكينه من التبليغ وإقامة الحُجَّة لله على عباده.

توقّف النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّم على الفور وعمل على إعادة مَن قد تقدّم من الجموع الغفيرة التي كانت معه في رحلته إلى الحجّ واستقرّ حتّى تلاحَقَ المتأخّرون

واجتمع الكلّ في منطقة غدير خم فرصّت أقتاب الإبل وكان الوقت في الظهيرة أثناءَ الحرارة الشديدة وفي جوّ مشمس وواضح، وجمع الجميع، واستقرّوا في ذلك الجوّ، في كُلّ ما يوحي بأَهميَّة الموقف وأَهميَّة ما سيقدّم للأمّة، إنّه أمر استثنائي فاصل ومهمّ وليس مجرّد أمر عادي وبسيط نهائيًّا تحت حرارة الشمس في الصحراء في مكان مكشوف لا ظلالَ فيه إلّا خمس شجرات (دَوَحَـاتٍ) أزيل ما تحتهنّ ورصّت أقتاب الإبل ليصعدَ من عليها الرسول ﷺ.

وهناك تقدّم النبي ﷺ وَالجموع الغفيرة كلّها تنظر إليه ترى ما هو هذا الذي قد نزل؟ ما هو هذا الأمر المهمّ الذي اقتضى سُرعة الإبلاغ على هذا النحو وإعطاء عمليّة الإبلاغ جوًّا يوحي بالأَهميَّة القصوى لما سيقدّم؟ الكلّ أنصتوا وسكتوا وجلسوا في تلك الحرارة الشديدة، والكلّ ينظر باتجاه الرسول ﷺ الذي صعد على أقتاب الإبل ليراه الجميعُ بوضوح وأصعد معه علي بن أبي طالب عليه السلام فوق أقتاب الإبل وتحدّث بخطبته الشهيرة التاريخيّة المهمّة، وهي كذلك خطبة الوداع في حقيقة الأمر، وقال فيها: «إنّي أوشك أن أدعى فأجيب» يعني سنّة الله معي هي سنّته مع الأنبياء من قبلي، الكلّ رحلوا من هذه الحياة ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾، ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾، ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾، سنّةُ الله معه وسنّته مع من قبله من الأنبياء إلّا أنّ هناك فارقًا كبيرًا جدًّا في مسألة حسَّاسة للغاية، الأنبياء الآخرون السابقون قبله كانت تعقبُهم مراحلُ وفترات يأتي فيها نبي أَوْ رسول آخر وهكذا، أمّا النبي محمّد ﷺ فهو خاتم النبيّين ولا نبيّ بعده، وأمّته آخر الأُمَم والبشريّة من بعده ستعيش الحقبة الأخيرة على الأرض والمرحلة الأخيرة للبشر على الأرض والقيامة والساعة اقتربت.

ولذلك فليس هناك نبيّ آخر سيأتي أَوْ أنّ هناك كتابًا غير القرآن سينزل في مرحلة من المراحل أَوْ أيّ شيء آخر، لا، الرسول ﷺ هو خاتم الرسل والأنبياء والقرآن الكريم خاتم الكتب الإلهيّة والمهيمن عليها، وَلكن هل سيترك

النبي ﷺ ما بعده فراغًا تامًّا خصوصًا والتاريخ البشري في مراحله الأخيرة ولربّما كانت من أهمّ مراحل التاريخ، ولربّما هو خلاصة عن كُلّ مراحل التاريخ بكلّ ما فيه من تطوُّرات مهمّة ومتغيّرات كبيرة وواقع جديد وأمور مهمّة جدًّا وتطوّر كبير في واقع البشريّة وأحداث ساخنة ومتغيّرات كثيرة... إلى آخره.

قَدَّمَ الرسولُ ﷺ في خطابه في ساحة الغدير مسألتين مهمّتين قال: «وإنّي تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبدًا» يعني إنّي حينما ألحق بجوار الله لن أترككم عبثًا مهملين، لن أترككم بدون دليل ومعالم على الحقّ والهدى، لا، أنا تارك في أوساطكم ضمانة لأن تستمرّوا في طريق الهدى والحقّ وأن لا تتيه وتتفرق بكم السبل المعوجّة، وأن لا تتيهوا أو تضلّوا أو تضيِّعوا (كتاب الله)، وحَثّ على كتاب الله ورغّب فيه وسمّاه الثقلَ الأكبرَ «وعترتي أهل بيتي إنّ اللطيف الخبير نبّأني أنّهما لن يفترقا حتّى يردا عليَّ الحوض».

واستمرّ في خطابه وأكّد عليهم الإقرارَ لهم بتبليغ الرسالة وبكمال التبليغ وبإجابة الحُجَّة عليه، ثمّ أعلن إعلانًا مهمًّا جدًّا تاريخيًّا استثنائيًّا، وقال وقد أنصت الجميع، والكلّ مركّز والجوّ كلّه يساعد حتّى على أَهميَّة التركيز وإعطاء المسألة أَهميَّة، «يا أيّها الناس إنّ اللهَ مولاي وأنا مولى المؤمنين وأولى بهم من أنفسهم فمَن كنتُ مولاه فهذا عليٌّ مولاه» أخذ بيد علي عليه السلام ورفعها أمام الجميع حتّى يسمع الجميع ويشاهدوا وفي الروايات أنّه رفع يده ويد علي عليه السلام حتّى بان بياض إبطيهما، «فمن كنت مولاه فهذا عليّ مولاه اللهم والِ من ولاه وعادِ من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله».

فلا خلافَ بين الأُمَّـة في ثبوت مسألة الغدير، وقد كان هذا من أهمّ النصوص والنصّ والموضوع الرئيسي الذي هو فحوى ومضمون البلاغ الذي أكّدت عليه الآية القرآنية المباركة. وهنا، من المهم أن ندرك وأن نعي جيّدًا وبعيدًا عن الجوّ المذهبي والحساسيّات والعصبيّات المذهبيّة أن نأتي إلى الموضوع بكلّ شفافية وبكلّ موضوعيّة من خلال ما أعلنه الرسول وخصوصًا أنّ هذا النص متفق عليه وثابت بين ولا جدالَ فيه. وإن كان هناك جدالٌ

في الدلالات أَوْ الاعتبارات الأُخْرَى هي مسألة أُخْرَى، يعني مسألةً ثانويّةً، لكنّ النصّ كما هو الجوّ من الثابت المقطوع به المتواتر كما في مصطلح أهلِ الحديث والعلماء متلقّى بالقبول بين الأُمَّة مقطوع به وثابت بلا شكّ ولا مرية.

فالمسألة مسألة مهمّة جدًّا وموثّقة ولربّما البعض في الوسط الإسلامي أثّرت عليهم العصبيّات المذهبيّة التي هي داء فظيع بلاء أصاب الأمّة وبشكل رهيب وعمى هي تُعمي الأعين، وتصمّ الآذان عن إدراك الحقّ، وعن فهمه، هي تصنع كثيرًا من الحواجز حتّى أمام الواضحات والبديهيّات.

لقد قدّم النصّ القرآني مع البلاغ النبوي عن الله سبحانه وتعالى مفهومًا وعنوانًا اسمه الولاية ﴿وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ﴾ «إنّ الله مولاي وأنا مولى المؤمنين». وكلّ مسلم يقرأ النصّ القرآني ﴿وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ وهذا النصّ المهمّ يترتّب عليه نصّ آخر قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾[١].

الأمّة فيما تعانيه من تحدّيات وأخطار، الأمّة اليوم التي هي مغلوبة ومقهورة وتعاني من إذلال أعدائها لها وهيمنتهم عليها وتغلّبهم قدَّم لها في هذا النصّ مسارًا محدّدًا من الله، ليس هو قول إمام مذهب، ولا قول فقيه أو عالم، ولا قول منظّر أو مفكّر، ولا قول اجتهادي، هو نصّ صريح من الله.

ويفترض بنصّ كهذا في هذه الأهميّة لأمّة مقهورة معانية مستضعفة تكالبت عليها الأمم الأخرى: الأمريكان والصهاينة والإسرائيليّون وغيرهم، كلّ أولئك الذين تكالبوا على الأمّة فأذلّوها وقهروها وتحكّموا بها، وتدخّلوا في كلّ شؤونها وفرضوا عليها إرادتهم وتوجّهاتهم وسياساتهم، وما يريدونه، أمّة كهذه يفترض أن تكون متطلّعة إلى النصر والعزّة والغلبة؛ لتكون أمّة غالبة متحرّرة.

هو نصّ مهمّ بكلّ ما للكلمة من معنى، مهمّ وفي نفس الوقت جذّاب، الإنسان المستضعف المعاني المقهور يتطلّع إلى نفسه كيف يتحرّر وينتصر،

---

(١) سورة **المائدة**، الآية ٥٦.

كيف يَغلِب، ويعتزّ، نصّ جذّاب ولكن تلحظ مع كلّ هذا أنّ هناك من الكثير في الوسط الإسلامي جفاء تجاه هذا النصّ، وهذا المبدأ، وهذا الموضوع، جفاء ووحشة يستوحشون ويتهرّبون من الجوّ كلّه، ومن العبارة، ومن العنوان.

أصبح عنوان الولاية نتيجة للحساسيّات المذهبيّة عنوانًا ينفر منه الكثير، يستوحشون منه مع أنّ الله هو الذي قال: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ثمّ عندما تأتي إلى هذا النصّ ليس فيه ما يوحش، ليس فيه ما يدعو للتهرّب، ليس فيه ما يقلق، ما ينفر، لكنّ داء العصبيّة أخطر داء بُليت به الأمم. ﴿وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ﴾ هل هذه مشكلة؟ أنتم مؤمنين، يا مسلمين تنتمون إلى الدين الإسلامي تعتبرون القرآن كتاب الله كتابكم، وتعتبرونه حجّة عليكم ونهجكم، تعتبرون رسول الله محمّدًا ﷺ نبيّكم، تعتبرون أنفسكم ملزمين بما جاء به، برسالته، ومعتزّين، ومفتخرين بذلك بحكم هذا الانتماء، بحكم هذا التديّن، بحكم هذه الهويّة، وليّكم هو الذي يتولّى شؤونكم، ورعايتكم، وهدايتكم.

هل تنفتح الأمّة على أن تتأمّل ما معنى ﴿وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ﴾ حتّى تأتي إلى الخطوة المهمّة وهي التفاعل العملي مع مبدأ الولاية الذي يترتّب عليه تغيير واقع الأمّة بكاملها؟ من أمّة مغلوبة إلى غالبة، من أمّة مقهورة إلى قاهرة، أمّة تنتصر على أعدائها ويتغيّر واقعها نحو الأفضل بشكل جذري.

ليس هناك انفتاح على المسألة! الوحشة هي نتيجة العصبيّات المذهبيّة التي صنعت حاجزًا كبيرًا دون الالتفات إلى هذا المفهوم، ولو كان هناك التفات إليه لكان له تأثير كبير في واقع الأمّة.

يقول السيّد عبد الملك (رضوان الله عليه) في خطاب الولاية لعام ١٤٣١هـ:

تدفعنا مناسبة الغدير بثقافتها تجاه مسألة الولاية، وإلى الاتجاه الصحيح: أن نتولّى الله، ثمّ نتولّى رسوله، ثمّ نتولّى الذين آمنوا، هذا هو الاتجاه الصحيح الذي ينسجم مع انتمائنا للإسلام، والقرآن الكريم، وهويّتنا الأساسيّة التي

فيها الخير لنا، والعزّة، والكرامة، والسعادة، هذه الثمرة العظيمة التي تحصل ما الذي يقابلها؟ الذي يقابلها حسب المنطق القرآني هو التولّي لليهود والنصارى، واتخاذهم أولياء، أن يكون ثمنه ذلّة وهوان وضعف وعجز وشتات وفرقة وشقاء ونكد، فهناك مساران وتوجّهان متباينان لا بدّ للإنسان أن يكون في أيّ منهما.

وبالتالي، الأمّة بين خيارين لا ثالث لهما: إمّا أن تكون في هذا الاتجاه الذي تقدّمه ثقافة **القرآن الكريم**؛ ثقافة الغدير، ثقافة الولاية، إمّا أن تكون في هذا الاتجاه تتولّى الله وتؤمن بولايته عليك، وأنّ ولاية رسوله امتداد لولايته، وأنّ ولاية الإمام علي عليه السلام امتداد لولاية الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وأنّ ولاية أولياء الله والهداة لعباده امتداد لولاية الله سبحانه وتعالى وفي إطار ولاية الله سبحانه وتعالى، ولاية قائمة على الرحمة، ولاية تبني أمّة على أساس الحكمة والعزّة والمنعة، أمة تكون بمستوى مسؤوليّتها الكبرى في الأرض كأمّة أُخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، أمّة لها مسؤوليّتها العالميّة في إقامة الحقّ، والعدل، وفي مواجهة الظلم ولتكون بمستوى هذه المسؤوليّة في عزّتها، وقوّتها، وحكمتها، وارتقاء وزكاء نفوس أبنائها، أو سيكون البديل هم اليهود والنصارى والذلّة والخنوع والعبوديّة والهوان كما هو حاصل في هذه المرحلة لأمّة ابتعدت عن التولّي الحقيقي لله ورسوله والذين آمنوا.

مساران متباينان؛ مسلم في كنف ولاية الله ورسوله والذين آمنوا، أو في اجاه أمريكا وإسرائيل وأوليائهما يفرضون وقائعهما ويلزمون الناس فيها لا ما يأمر به الله؛ فيأمر الله بأمر ويوجّه توجيهًا معيّنًا ويكون هناك في المقابل إرادة أمريكيّة مناقضة لهذا التوجيه الإلهي، توجه وأمر أمريكي يعارض هذا التوجيه الإلهي، فهناك يُؤثَر ما تريده أمريكا على ما يريده الله، فيكون المُتبع، المُتقبَّل، السائد، ما يُدفَع إليه الناس، ما يُؤمَرون به، ما يُوجَّه إليهم، ما تُبنَى عليه حياتهم وشؤونهم، وأمورهم السياسيّة والاقتصاديّة والثقافيّة في كلّ أمورهم وشؤونهم ما تريده أمريكا وإسرائيل، وما تقرراه وتأمران به، لا ما أراده الله وأمر به وقرّره.

فهذه المناسبة العظيمة – حادثة الغدير - وما جرى فيها لها قيمتها الكبيرة؛ لأنّها تقدم لنا الرؤية الصحيحة من ثقافة القرآن، وموقف الإسلام تجاه مسألة الولاية، من نتولّى وإلى أين يكون ولاؤنا؟ من يحكمنا، من يتحكّم في شؤوننا؟ قائمة على الرحمة، على الحكمة، على العزّة، على الخير، على السعادة في الدنيا والآخرة، يترتّب عليها أن نكون أمّة غالبة، منتصرة، مؤيّدة، ويكون بذلك فلاحنا وخيرنا؟ أو الاتجاه الآخر الذي يوجد دفع للأمّة فيه بشكل غير مسبوق تجاهه بشكل لا نظير له، تُسخّر من أجله كلّ إمكانيات الشعوب نفسها، ثرواتهم الماديّة، تتجه الحكومات العربيّة بكلّ إمكاناتها وثقلها نحو ما يترتّب عليها من الخسران والندم كما أكّده القرآن الكريم.

وإننا في هذا العصر وفي هذا الزمن والمرحلة نحتاج إلى أن نتفهّم موضوع الولاية أكثر من أيّ وقت آخر، وبالذات في ظلّ الوضع الراهن الذي يتسابق فيه معظم المسلمين - في مقدّمتهم الأنظمة والحكام - يتسابقون في الانضواء تحت ولاية اليهود والنصارى بدلًا من ولاية الله وولاية رسوله وولاية الإمام علي عليه السلام التي هي امتداد لولاية الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

إنّ الأمّة، اليوم، أحوج ما تكون إلى ثقافة صحيحة بكلّ ما تعنيه الكلمة، ثقافة «حديث الغدير والولاية»، لكي تتحرّك بوعي وببصيرة عالية من هذا العمق الإستراتيجي، من هذا الانتماء، من هذا المبدأ، مبدأ الولاية لله سبحانه وتعالى، واثقين من أنّ النتيجة هي ما ذكرها الله في **القرآن الكريم** ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ۝٥٥ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾[١]، وهذا التحرّك من خلال هذا المبدأ يوصل حتمًا ويقينًا إلى هذه النتيجة، إلى أن نكون الأمّة الغالبة في مواجهة هذه الأخطار، أن نخرج من واقعنا كأمّة مستضعفة مستذلّة مقهورة إلى أمّة عزيزة، غالبة، منتصرة بإذن الله الواحد القهّار، وحسب وعده الصادق الذي لا يتغيّر ولا يتبدّل ولا يتخلّف أبدًا.

---

(١) سورة **المائدة**، الآيتان ٥٥ و٥٦.

يقول السيّد حسين (رضوان الله عليه) في (حديث الولاية):

إنّ جهل الأمّة في ماضيها بولاية الأمر، وأهميّتها هو الذي جعلها ضحيّة لسلاطين الجور، وإنّ هذا الجهل الذي امتدّ من ذلك الزمن، وفي هذا الحاضر هو نفسه الذي سيجعلها ضحيّة لأن يملك تعيين ولاية أمرها وتثقيفها بمعاني ولاية الأمر فيها، وتعيين من يَلِي أمرها، هم اليهود الصهاينة من الأمريكيّين والإسرائيليّين.

ثانيًا- توثيق المناسبة

لقد قدّم الرسول ﷺ يوم الغدير بطريقة توثيقيّة للأجيال المتعاقبة، فلم يعلن ﷺ الولاية في مكّة أو في عرفات وإنّما عمل لها اجتماعًا خاصًّا حتّى لا تكون على هامش اجتماع آخر لأنّها أهمّ من الحجّ وتشكّل ضمانة لكلّ الدين ويوم الغدير تمّ فيه حديث الولاية.

اختيار المكان المناسب قبل تفرّق الحجاج أين؟ في مفترق الطرق حتّى تكون آخر حدث قبل تفرّقهم عن رسول الله ﷺ ومتى؟ وقت الظهيرة في شدّة حرارة الشمس. كيف كانت ظروف المكان؟ مكان لا ماء فيها وهي عبارة عن صحراء ليس فيها سوى ثلاث أشجار، حرارة من فوق وحرارة من تحت (يصف هذه الحالة بعض المشاركين بقوله كان أحدنا يضع نصف ردائه تحت قدميه والنصف الآخر فوق رأسه) وليس هناك حاجز يحول بينهم وبين النبي ﷺ حتّى يكون التبيين على أرقى مستوى.

أليست الصحراء واضحة؟ والشمس محرقة؟ النور واضح، لا ضباب ولا أشجار، ولا صخرات، ولا مطبّات، ولا شيء أمامهم، قضيّة واضحة، ثمّ ترصّ له أقتاب الإبل مع أنّ الرسول ﷺ والإمام علي عليه السلام لم يكونا قصيرين لكن ليدلّل لنا أنّ هناك إبلًا وإذا كان هناك إبل يعني أنّ هناك جمعًا كثيرًا. ثمّ يصعد ولا يطلع بمفرده، وهم يعرفونه، ويعرفون صوته، وإنّما يُصعد معه بالإمام علي ويرفع يده حتّى يبين بياض إبطيهما.

حتّى في الأسلوب الذي استخدمه الرسول ﷺ - وربّما لم يستخدم مثله طوال فترة رسالته - بأن يجعل الناس يتجاوبون ويردّدون معه ألم يسألهم في البداية قائلًا:

«أيُّها الناسُ! يوشَكُ أنْ أُدْعى فأُجيبَ، وإنِّي مسؤولٌ وإنّكُم مَسْؤولونَ، فماذا أنتُم قائِلُون؟» قالوا: نَشهدُ أنّكَ قَدْ بَلّغْتَ وجاهَدْتَ، ونَصَحْتَ فجزاكَ اللهُ خيرًا. فقال: «ألَستم تَشْهدونَ أن لا إله إلاّ الله، وأنّ محمّدًا عبدُهُ ورَسولُهُ، وأنّ جنّتَهُ حَقٌّ وأنَّ نارَهُ حَقٌّ، وأنَّ الموتَ حَقٌّ، وأنَّ البَعْثَ حَقٌّ بَعدَ الموتِ، وأنَّ السّاعةَ آتيةٌ لا ريبَ فيها، وأنّ الله يَبعثُ مَنْ في القُبُور؟».

قالوا: نشهد بذلك. قال: اللهمَّ فاشهد.

ثمّ قال: «أيّها الناس ألست أولى بكم من أنفسكم»؟ فأجابوه بأجمعهم: بلى يا رسول الله. فقال لهم: «إنّ الله مولاي وأنا مولى المؤمنين فمن كنت مولاه فهذا عليّ مولاه» وهكذا تجد البيان الواضح والأساليب التي لم تستخدم على الإطلاق أمام أيّ قضيّة أخرى مهما كان حجمها.

ولم يكتفِ الرسول بأن يرسم المسار السياسي لهم في عصرهم وإنّما إلى قيام الساعة فقد أردف قائلًا: «أيُّها الناس، إنِّي فَرَطُكُمْ وإنّكُم وارِدونَ عَلَيَّ الحوضَ، حوضٌ أعرضُ ممّا بينَ بُصْرى إلى صَنعاء، فيه عددُ النجومِ قَدَحانِ مِنْ فِضّة، وإنِّي سائِلُكُم حِينَ تَردونَ عَلَيَّ، عَنِ الثّقلينِ كيفَ تَخلفونِي فيهما، الثّقلِ الأكبرِ: كتابِ الله عزّ وجلّ، سببٌ طرفُهُ بيدِ اللهِ تعالى، وطرفُهُ بأيديكم، فاستمسِكوا بهِ لا تَضلّوا، ولا تُبدّلوا، وعترتي أهلِ بيتي فإنّهُ نبّأنِيَ اللّطيفُ الخبيرُ أنّهما لن يَنقضِيا حتّى يردا عليَّ الحوضَ»[١].

(١) ابن حجر في **الصواعق المحرقة**، نقلًا عن الترمذي والنّسائي وأحمد بن حنبل، وقد نصّ عليه أحمد بن حنبل في مسنده وقال: رواه ثلاثون صحابيًا، كما أخرجه النّسائي بعدّة طرق في **خصائصه**، ورواه ابن ماجة في **صحيحه** في باب فضائل أصحاب الرّسول، الصفحة ١٢، و**مستدرك الصحيحين**، الجزء ٣، الصفحة ١١٦، والمفيد في **الإرشاد**، الصفحة ٩٦ بتعبير آخر، والطبراني عن زيد بن أرقم، والفخر الرازي في تفسيره، الجزء ١٢، الصفحة ٤٨، وأبو نعيم في **حلية الأولياء**، الجزء ٥، الصفحة ٢٦، والخطيب

وهكذا قدّمت هذه القضيّة المهمّة للأمّة بهذا الوضوح الذي لم تشهده أيّ قضيّة أخرى بدءًا بلهجة الآية ومرورًا بالترتيبات التي قدّمها النبي ﷺ والتي تبيّن للأمّة عظم هذه المسؤوليّة وخطورة التفريط فيها. ثمّ يختتم الله هذه المراسيم العظيمة بقوله سبحانه وتعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[١].

قد يقول البعض لماذا وردت الآية الكريمة بين الحديث عن قائمة من المحرّمات ولم ترد بعد آية التبليغ؛ وهنا يقول السيّد حسين (رضوان الله عليه) بعد هذه الآية: (الدرس الحادي والعشرين من دروس شهر رمضان):

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٢]. هذه الآية روي بأنّها نزلت بعد إعلان رسول الله ﷺ ولاية الإمام علي، وكلّها جاءت في نفس السورة هذه، إنّما لماذا لم تأتِ هناك؟ هذا أسلوب ربّما قد مررنا بأمثلة له، عندما تجد هناك قضايا تبدو صغيرة وهي محطّ اهتمام، وهي قضيّة المأكولات، والتي تجدها محطّ اهتمام في هذا الدين، وتشريع دقيق، والتزامات تقوم على هذا التشريع، هدى في هذه القضايا الصغيرة، تعرف أنّ هذا الدين الذي يهدي الناس على هذا النحو الشامل لا يهمل القضايا الصغيرة، فهل يمكن أن يهمل قضيّة كبيرة كهذه؟

البغدادي في **تاريخه**، الجزء ٧، الصفحة٣٧٧ برواية أبي هريرة، والمتّقي الهندي في **كنز العمّال**، الجزء ١، الصفحة ٤٨، ومن شاء المزيد فليراجع **كتاب الغدير** للأميني الجزء ١، ليرى رواية الحديث عن طريق ١١٠ من الصحابة و٨٤ تابعيًا.

(١) سورة **المائدة**، الآية ٢.

(٢) سورة **المائدة**، الآية ٣.

إذًا، موقع الآية هنا فعلًا مؤثّر جدًّا، فماذا يعني هذا؟ أنّ هذا دين الله الشامل، الكامل، الذي لم يغادر صغيرة أن يترك قضيّة كبيرة قد يقوم عليها تقوم عليها حياة الأمّة؟ لا يمكن هذا، ولاية الأمر، من يخلف رسول الله ﷺ، وقيادة الأمّة قضيّة هامّة جدًّا جدًّا، إذا لم تكن على هذا النحو القرآني تموت الأمّة، فكيف يحرّم عليك ميتة ولا يحرم على الأمّة ما قد يميتها؟!.

ولم يكن حديث الغدير وليد لحظة نزول الآية أبدًا، بل كان رسول الله ﷺ طالما أعلن وفي كلّ المناسبات ولاية علي التي هي تتمّة لولايته التي هي ولاية الله. ولم يكتف النبي ﷺ بما ورد من آيات كثيرة في **القرآن الكريم** تقدّم الإمام عليًا عليه السلام وليًّا للأمة من بعده وكذلك ما ورد خلال فترة الرسالة من أقوال وأعمال كثيرة من قبله ﷺ تهدف إلى ربط الأمّة بالإمام علي عليه السلام، وإنّما توّج هذا كلّه بأن بيّن في حادثة الغدير تبيينًا واضحًا وكاملًا مكانة الإمام علي ومسؤوليّة الأمّة تجاهه وبعبارات واضحة وصريحة لا تحتمل غير معنى واحدٍ فقط هو وجوب أن تتولّى الأمّة عليًّا عليه السلام قائدًا وهاديًا ووليًّا لها من بعد نبيّها ﷺ.

ولأنّ الشعر يمثّل ديوان العرب وأنّ أهمّ الأحداث توثّق بالشعر، فقد وثّقت هذه المناسبة بشكل لم توثّق به أيّ مناسبة أخرى أبدًا وتداول الشعراء هذه المناسبة في كلّ القرون حتّى صارت محطّة تاريخيّة مهمّة جدًّا وعلامة فارقة في تاريخ الأمّة فممّن وثّق من الشعراء الذين حضروا هذه المناسبة:

- حسّان بن ثابت الذي ما إنْ تمّت مراسيم التنصيب للإمام علي عليه السلام حتّى قام منشدًا قائلًا:

يناديهِمُ يومَ الغديرِ نَبِيُّهُمْ   بِخُمٍّ وأَسْمِعْ بالرسولِ مُنَادِيا
فقالَ: فَمَنْ مَوْلاكُمُ ونَبِيُّكُمْ؟   فَقَالُوا وَلَمْ يُبْدُوا هناكَ التَّعَامِيا
إِلَـهُـكَ مولانا وأنتَ نبيُّنا   ولم تَلْقَ مِنَّا في الولايةِ عَاصِيا
فقالَ لَهُ: قُمْ يا عَلِيُّ؟ فَإِنَّنِي   رَضِيتُكَ مِنْ بعدي إمامًا وهاديا

فَمَنْ كُنْتُ مولاهُ فَهَذَا وَليُّهُ فكونوا لَهُ أَتْبَاعَ صِدْقٍ مَوَالِيا
هناك دعا اللهمَّ؟ وَالِ وَلِيَّهُ وَكُنْ للذي عَادَى عَلِيًّا مُعَادِيا

وقد أقرّه النبيّ ﷺ على ما فهمه من مغزى كلامه، ومدحه بقوله: «لا تزال يا حسّان مؤيَّدًا بروح القدس ما نصرتنا بلسانك»(١).

ولم يكن حسّان بن ثابت هو من قال شعرًا توثيقًا لهذه الحادثة بل عشرات الشعراء تحدّثوا عبر القرون ووثّقوا بشعرهم ما جرى في مثل هذا اليوم من ولاية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.

- قيس بن سعد، سيّد الخزرج الذي أنشد بين يدي أمير المؤمنين عليه السلام بصفّين:

قُلْتُ لَمَّا بَغَى العَدُوُّ عَلَيْنَا حَسْبُنَا رَبُّنَا وَنِعْمَ الوَكِيلُ
حَسْبُنَا رَبُّنَا الذي فَتَحَ البَصْـ رَةَ بِالأَمْسِ والحديثُ طويلُ

ويقول فيها:

وعليٌّ إِمَامُنَا وَإِمَامٌ لِسِوَانا أَتَى بِهِ التنزيلُ
يَوْمَ قالَ النبيُّ: مَنْ كُنْتُ مَوْلَا هُ فَهَذَا مَوْلَاهُ خَطْبٌ جَلِيلُ
إِنَّمَا قالَهُ النبيُّ عَلَى الأُمَّـ ـةِ حَتْمٌ مَا فِيهِ قَالٌ وقِيلُ(٢)

- عمرو بن العاص

ومن الشعراء الذين حضروا وسمعوا حديث الولاية في يوم الغدير عمرو بن العاص، والذي تحدّث عن هذه المناسبة في قصيدة أرسلها لمعاوية لمّا طلب منه خراج مصر فأرسل إليه قصيدة طويلة سمّيت (بالجلجليّة) منها هذه الأبيات:

---

(١) **كتاب الغدير**، الجزء ٢، الصفحة ٣٤

(٢) **كتاب الغدير**.

وَكَمْ قَدْ سَمِعْنَا مِنَ المُصْطَفَى وَصَايا مُخَصَّصَةً فِي عَلِيّ؟
وفي يَوْمِ "خُمٍّ" رَقَى مِنْبَرًا يُبَلِّغُ والرَّكْبُ لَمْ يَرْحَلِ
وَفِي كَفِّهِ كَفُّهُ مُعْلِنًا ينادي بأمْرِ العزيزِ العلي
ألستُ بكمْ منكمُ في النفوسِ بِأَوْلَى؟ فقالوا: بلى فَافْعَلِ
فَأَنْحَلَهُ إمْرَةَ المؤمنين مِنَ الله مُسْتَخْلفِ المُنْحَلِ
وقالَ: فَمَنْ كُنْتُ مَوْلىً لَهُ فَهَذا لَهُ اليومَ نِعْمَ الوَلِّي
فَوَالِ مُوالِيهِ يا ذا الجَلالِ وَعَادِ مُعَادِي أَخِ المُرْسَلِ
وَلَا تَنْقُضُوا العَهْدَ مِنْ عِتْرَتِي فَقَاطِعُهُمْ بِيَ لَمْ يُوصَلِ
فَبَخْبَخَ شَيْخُكَ لَمَّا رَأَى عُرَا عِقْدِ حَيْدَرَ لَمْ تُحْلَلِ
فَقالَ: وَلِيُّكُمُ فَاحْفَظُوه فَمَدْخَلُهُ فِيكُمُ مَدْخَلِي[1]

- السيّد الحميري

ومن الشعراء الذين تحدّثوا عن حديث الولاية في يوم الغدير الشاعر الحميري في قصيدة ألقاها بحضرة معاوية بن أبي سفيان قال فيها:

بحقِّ محمّدٍ قولوا بحقٍّ فإنَّ الإفكَ مِنْ شِيَمِ اللئامِ
أَبَعْدَ محمّدٍ بِأَبي وأُمِّي رسول الله ذي الشرفِ التهامي
أليس عليٌّ أفضلَ خَلْقِ رَبِّي وأشرفَ عندَ تحصيلِ الأنامِ؟!
ولايتُهُ هي الإيمانُ حَقًّا فَذَرْني مِنْ أباطيلِ الكلامِ
وطاعةُ رَبِّنا فيها وفيها شفاءٌ للقلوبِ مِن السقامِ
عليٌّ إِمَامُنا بأبي وأمي أبو الحسنِ المطَهَّرُ مِنْ حرامِ

---

(١) **كتاب الغدير** للأميني.

إمــامُ هُــدىً أتــاهُ الـلـهُ عِـلْـمًـا بِـهِ عُـرِفَ الـحـلالُ مِـنَ الـحَـرامِ
وَلَــوْ أَنّـي قـتـلـتُ الـنـفـسَ حُـبًّـا لَــهُ مــا كــان فـيـهـا مــن أثــامِ
يَـحِـلُّ الـنـارَ قَــوْمٌ أَبْـغَـضُـوهُ وإنْ صَـلّـوا وصـامـوا ألـفَ عـامِ
وَلَا والــلــهِ لا تَــزْكُــو صَــلَاةٌ بغيـرِ ولايـةِ الـعَـدْلِ الإمـامِ
أمـيـرَ الـمـؤمـنـيـنَ بِـكَ اعـتـمـادي وبِـالـغُـرِّ الـمـيـامـيـنِ اعـتـصـامـي
فـهـذا الـقـولُ لـي ديـنٌ وهـذا إلـى لُـقْـيَـاكَ يـا ربـي كـلامـي
بَـرِئْـت مِـنَ الـذي عـادى عَـلِـيًّـا وَحَــارَبَــهُ مِــنَ أولادِ الـطَّـغَـامِ
تَـنَـاسَـوْا نَـصْـبَـهُ فـي يَـوْمِ "خُـمٍّ" مِـنَ الـبـاري ومِـنْ خَـيْـرَ الأنـامِ
بِـرَغْـمِ الأَنْـفِ مَـنْ يَـشْـنَـأ كـلامـي عَـلِـيٌّ فَـضْـلُـهُ كـالـبـحـرِ طـامـي
وَأَبْــرَأُ مِــنْ أُنَــاسٍ أَخَّــرُوهُ وكـانَ هـو الـمُـقَـدَّمُ بِـالـمَـقَـامِ
عَـلِـيٌّ هَــزَّمَ الأبـطـالَ لَـمَّـا رَأَوْا فِـي كَـفِّـهِ بَـرْقَ الـحُـسَـامِ[١]

- أبو تمام الطائي (١٨٨- ٢٣١ هـ)

من شعراء القرن الثالث حيث قال في قصيدة طويلة قدرها ٧٣ بيتًا منها:

فـعـلـتُـمْ بـأبـنـاءِ الـنـبـيِّ ورهـطِـهِ أفاعيلَ أدناها الخيانةُ والغدرُ
وَمِــنْ قَـبْـلِـهِ أخـلـفْـتُـمْ لـوصـيِّـهِ بـداهـيـةٍ دهـيـاءَ لـيـسَ لـهـا قَـدْرُ
فجئتُمْ بها بكرًا عَوَانًا ولم يكنْ لها قبلها مثل عـوان ولا بكرُ
أخــوه إذا عــدَّ الـفـخـار وصـهـرُهُ فـلا مـثـلـه أخٌ ولا مـثـلـه صـهرُ
وشــدَّ بــه أزر الـنـبـيِّ مـحـمـدٍ كما شدّ من موسى بهارونِهِ الأَزْرُ

(١) **كتاب الغدير**، الجزء ٢، الصفحتان ١٧٧ و١٧٨.

وما زالَ كشَّافًا دياجيرَ غَمْرَةٍ   يمزِّقُها عن وجهِه الفتحُ والنصرُ
هو السيفُ سيفُ الله في كلِّ مشهدٍ   وسيفُ الرسولِ لا ددان ولا دثرُ
فأيّ يدٍ للذمِّ لم يبر زندها   ووجه ضلالٍ ليس فيه له أثرُ
ثوى ولأهل الدين أمنٌ بحدِّهِ   وللواصمين الدين في حده ذعرُ
يُسَد به الثغر المخوف من الردى   ويعتاض من أرض العدو به الثغرُ
بأحدٍ وبدرٍ حين ماجَ برجلِهِ   وفُرْسَانِهِ أُحْدٌ وماجَ بهمْ بَدْرُ
ويومَ حنينٍ والنضير وخيبرٍ   وبالخندق الثاوي بعقوته عمرو
سما للمنايا الحمرِ حَتَّى تَكَشَّفَتْ   وأسيافُهُ حُمْرٌ وأرماحُهُ حُمْرُ
مشاهدُ كانَ اللهُ كاشفَ كَرْبِها   وفارجَهُ والأمرُ ملتبسٌ أمرُ
و«يومَ الغديرِ» استوضحَ الحقّ أهله   بضحياء لا فيها حجابٌ ولا سترُ[1]
أقامَ رسولُ الله يدعوهمُ بها   ليقربهم عرْفٌ ويناَهم نكرُ
يمدُّ بضبعيهِ ويعلمُ[2]: أنَّهُ   وَليٌّ ومولاكمْ فهل لكمُ خبرُ؟!
يروح ويغدو بالبيانِ لمعشرٍ   يروحُ بهمْ غمرٌ ويغدو بهمْ غمرُ
فكان لهم جهرٌ بإثباتِ حَقِّهِ   وكان لهم في بزِّهِمْ حقَّهُ جهرُ
أثمَّ جعلْتُمْ حَظَّهُ حَدَّ مُرْهَفٍ   من البيضِ يومًا حظّ صاحبه القبرُ
بكفّي شقيٍّ وجهتْهُ ذنوبُهُ   إلى مرتعٍ يرعى به الغيُّ والوزرُ[3]

- أبو فراس الحمداني

---

(١) وفي نسخة: بفيحاء.

(٢) من أفعل. ويظهر من الدكتور ملحم شارح ديوان أبي تمام أنه قرأه مجردًا من (علم) لا مزيدًا من (أعلم) كما قرأناه ومختارنا هو الصحيح الذي لا يعدوه الذوق العربي.

(٣) **كتاب الغدير**، الجزء ٢، الصفحة ٣٣٠، والجزء ٧، الصفحة ١٢٧.

ومن الشعراء المعروفين والمشهورين الشاعر الكبير الأمير أبو الفراس الحمداني من شعراء القرن الرابع المولود ٣٢١هـ ـ المتوفى ٣٥٧هـ.

في قصيدة طويلة يمدح فيها أهل البيت ويذم أعداءهم من بني العبّاس قال فيها حول الغدير:

الحقُّ مُهْتَضَمٌ والدينُ مُخْتَرَمُ   وَفَيْءُ آلِ رسولِ الله مُقْتَسَمُ
والناسُ عندَكَ لا ناسٌ فيحفظهمْ   سومُ الرعاةِ ولا شاءٌ ولا نعمُ
إني أبيتُ قليلَ النومِ أرَّقَنِي   قَلْبٌ تصارعَ فيه الهمُّ والهِمَمُ
وعزمةٌ لا ينامُ الليلَ صاحبُها   إلّا على ظَفَرٍ في طيِّهِ كَرَمُ
يُصانُ مُهْري لأمرٍ لا أبوحُ بِهِ   والدرعُ والرمحُ والصمصامةُ الحذمُ(١)
وكل مائرةِ الضبعين مسرحها   رِمْثُ الجزيرةِ والخذرافُ والعنمُ(٢)
وفتيةٌ قلبُهمْ قلبٌ إذا ركبوا   وليسَ رأيهمُ رأيًا إذا عزموا
يا للرجالِ أَمَا لله منتصِرٌ   مِن الطغاةِ؟ أَمَا لله منتقمُ؟!
بنو عليٍّ رعايا في ديارهمُ   والأمرُ تملكه النسوانُ والخدمُ
محلؤون فأصفى شُرْبِهِمْ وَشَلٌ   عندَ الورودِ وأوفى ودِّهمْ لَممُ(٣)
فالأرضُ إلَّا على مُلَّاكِها سَعَةٌ   والمالُ إلَّا على أربابِهِ دِيَمُ
فما السعيدُ بها إلا الذي ظَلَمُوا   وما الشقيُّ بها إلا الذي ظُلِمُوا
للمتقين من الدنيا عواقبُها   وإنْ تعجَّلَ منها الظالمُ الأثِمُ

---

(١) الحذم من السيوف بالحاء المهملة: القاطع.

(٢) مار: تحرّك. الضبع: العضد. كناية عن السمن. الرمث بكسر المهملة: خشب يضم بعضه إلى بعض ويسمّى: الطوف. الخذراف بكسر الخاء: نبات إذا أحس بالصيف ييس. العنم بفتح المهملة. نبات له ثمرة حمراء يشبه به البنان المخضوب.

(٣) حلأه عن الماء: طرده. الوشل: الماء القليل. لمم: أي غب.

أتفخرون عليهمْ لا أبا لَكُمُ | حتى كأنَّ رسولَ الله جدُّكُمُ؟!
وما توازَنَ فيما بينَكُمْ شَرَفٌ | ولا تساوتْ لكمْ في موطنٍ قدمُ
ولا لكم مثلهم في المجد متصلٌ | ولا لجدكمُ معشارُ جدِّهِمُ
ولا لعرقِكُمُ مِنْ عرقِهِمْ شَبَهٌ | ولا نثيلتكم من أُمِّهم أَمَمُ(١)
قام النبيُّ بها (يومَ الغديرِ) لهمْ | واللهُ يشهدُ والأملاكُ والأممُ
حتى إذا أصبحتْ في غيرِ صاحبِها | باتتْ تنازعُها الذؤبان والرخمُ
وصيَّروا أمرَهُمْ شورى كأنَّهُمُ | لا يعرفون ولاةَ الحقِّ أيُّهُمُ
تالله ما جَهِلَ الأقوامُ موضعَها | لكنَّهُمْ ستروا وجهَ الذي عَلِمُوا
ثمّ ادَّعاها بنو العبّاسِ مُلْكَهُمُ | ولا لهمِ قَدَمٌ فيها ولا قِدَمُ
لا يُذْكَرُونَ إذا ما مَعْشَرٌ ذُكِرُوا | ولا يُحَكَّمُ في أمرٍ لهمْ حَكَمُ
ولا رآهمْ أبو بكرٍ وصاحبُهُ | أهلًا لما طَلَبُوا منها وما زَعَمُوا
فهل همُ مدَّعوها غير واجبةٍ؟ | أم هل أئمتهمْ في أخذِها ظلموا؟
أما عليٌّ فأدنى مِنْ قرابتِكمْ | عند الولايةِ إنْ لم تُكْفَرِ النِّعَمُ
أينكرُ الحبْرُ عبدُ الله نعمتَهُ؟ | أبوكُمُ أم عبيدُ الله أمْ قُثَمُ؟!
بئسَ الجزاءُ جزيتمْ في بني حسنٍ | أباهم العَلَمَ الهادي وأُمَّهُمُ
لا بيعةٌ ردعتْكمْ عن دمائِهِمُ | ولا يمينٌ ولا قربى ولا ذممُ
هلَّا صفحتم عن الأسرى بلا سببٍ | للصافحين ببدرٍ عن أسيركمُ؟!

---

(١) نثيلة هي أمّ العبّاس بن عبد المطلب. الأمم: القرب.

هلَّا كففْتُمْ عن الديباجِ سوطَكُمُ[١] وعن بناتِ رسولِ الله شتْمَكُمُ؟[٢]
ما نُزِّهَتْ لرسولِ الله مهجتُهُ عن السياطِ فهلَّا نُزِّهَ الحَرَمُ؟
ما نالَ منهم بنو حربٍ وإنْ عظمتْ تلك الجرائرُ إلا دونَ نيلكمُ
كم غدرةٍ لكمُ في الدينِ واضحةٍ وكمْ دمٍ لرسولِ الله عندكمُ
أنتم له شيعةٌ فيما ترون وفي أظفارِكمْ من بنيهِ الطاهرين دَمُ
هيهات لا قربت قربى ولا رحمٌ يومًا إذا أُقصتِ الأخلاقُ والشيمُ
كانت مودّةُ سلمانٍ له رحمًا ولم يكنْ بين نوحٍ وابنه رحمُ
يا جاهدًا في مساويهمْ يكتِّمُها غَدْرُ الرشيدِ بيحيى كيف يَنْكَتِمُ؟
ليس الرشيدُ كموسى في القياسِ ولا مأمونُكم كالرضا لو أنصفَ الحكَمُ
ذاق الزبيريُّ غِبَّ الحِنْثِ وانكشفتْ عن ابن فاطمةَ الأقوالُ والتهم
باؤوا بقتل الرضا من بعد بيعته وأبصروا بعضَ يومٍ رشدهم وعموا
يا عصبةً شقيتْ من بعد ما سعدتْ ومعشرًا هلكوا من بعد ما سلموا
لبئسما لقيتْ منهم وإن بليتْ بجانب الطفِّ تلك الأعظمُ الرممُ
لا عَنْ أبي مسلمٍ في نصحِهِ صَفَحُوا ولَا الهبيريَّ نَجَّى الحَلْفُ والقَسَمُ
ولا الأمان لأهل الموصل اعتمدوا فيه الوفاء ولا عن غيهم حلموا
أبلغ لديك بني العباس مألكةً لا يدَّعوا ملْكَها مُلَّاكُها العَجَمُ
أيُّ المفاخرِ أمستْ في منازلِكُمْ وغيرُكُمْ آمرٌ فيها ومحتكِمُ؟

---

(١) الديباج هو محمّد بن عبد الله العثماني أخو بني حسن لأمّهم فاطمة بنت الحسين السبط ضربه المنصور مئتين وخمسين سوطًا.

(٢) لعلّه أشار إلى قول منصور لمحمّد الديباج: يا بن اللخناء. فقال محمّد. بأيّ أمّهاتي تعيرني؟ أبفاطمة بنت الحسين؟ أم بفاطمة الزهراء؟ أم برقيّة؟.

أنـى يـزيـدُكُـمُ فـي مفخرٍ عَـلَـمٌ؟ وفي الخلافِ عليكم يخفقُ العَلَمُ
يا باعةَ الخمرِ كُفُّوا عنْ مفاخِركمْ لمعشرٍ بيعُهمْ يـومَ الـهياجِ دَمُ
خلوا الفخارَ لعلَّامين إنْ سُئِلُوا يـومَ السؤالِ وعَـمَّالينَ إنْ عَلِمُوا
لا يغضبون لغيرِ الله إنْ غضبوا ولا يضيعون حكمَ الله إنْ حَكَمُوا
تنشى التلاوةُ في أبياتهم سَحَرًا وفـي بيـوتِكمُ الأوتـارُ والـنغـمُ[1]

ونكتفي بهؤلاء الشعراء كنموذج فقط وإلّا فهناك عشرات الشعراء وثّقوا في شعرهم هذا اليوم وما جرى فيه من تنصيب للإمام علي عليه السلام من قِبَلِ الله ورسوله.

(١) **كتاب الغدير**، الجزء ٣، الصفحة ٣٩٩.

ثالثًا- البعد الثقافي العقائدي لحديث الولاية

قدّم الرسول ﷺ في خطابه في ساحة الغدير مسألتين مهمّتين قال: «وإنّي تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبدًا» يعني أنّي حينما ألحق بجوار الله لن أترككم عبثًا، مهملين، لن بدون دليل ومعالم على الحقّ والهدى. لا، أنا تارك في أوساطكم ضمانة لأن تستمرّوا في طريق الهدى، وفي طريق الحقّ، وألّا تتيه وتتفرّق بكم السبل المعوجّة، وألّا تضلّوا وتضيعوا؛ «كتاب الله» وحثّ عليه، ورغّب فيه وسمّاه الثقل الأكبر، «وعترتي أهل بيتي إنّ اللطيف الخبير نبّأني أنّهما لن يفترقا حتّى يردا عَلَيَّ الحوض».

واستمرّ في خطابه وأكّد عليهم الإقرار لهم بتبليغ الرسالة وبكمال التبليغ وبإجابة الحجّة عليه، ثمّ أعلن إعلانًا مهمًّا جدًّا تاريخيًّا استثنائيًّا وقال - وقد أنصت الجميع، والجوّ كلّه يساعد حتّى على أهميّة التركيز، وإعطاء المسألة أهمية -: «يا أيّها الناس إنّ الله مولاي، وأنا مولى المؤمنين وأولى بهم من أنفسهم، فمن كنت مولاه فهذا عليّ مولاه». أخذ بيد علي عليه السلام ورفعها أمام الجميع حتّى يسمعوا ويشاهدوا، وفي الأخبار، وقد مرّ في الفقرات السابقة تفصيل الحادثة.

وهنا، من المهمّ جدًّا أن ندرك ونعي جيدًا وبعيّدًا عن الجوّ المذهبي والحساسيّات المذهبيّة والعصبيّات ونأتي إلى الموضوع بكلّ شفافيّة وموضوعيّة من خلال ما أعلنه الرسول وخصوصًا أنّ هذا النص متّفق عليه وثابت بين الأمّة ولا خلاف في ثبوت مسألة الغدير ونصّه.

إلى جانب الموضوع من بوابته القرآنيّة والنصّ النبوي والجانب البلاغي الذي أعلنه الرسول عن ربّه بأمره تعالى هناك أيضًا نصّ قرآني يتطابق كلّ التطابق مع هذا الإعلان في سورة أخرى من السور القرآنيّة هي سورة **المائدة** يقول سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾[١]، وهذا النصّ يتطابق مفهومًا ومعنىً مع عنوان الولاية.

وولاية الإمام علي عليه السلام هي امتداد لولاية الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قائدًا من بعده للأمّة ومعلّمًا، ومرشدًا، وزعيمًا يعمل على هداية الأمّة، ويواصل المشوار من بعده صلى الله عليه وآله وسلم في بناء الأمّة، في هدايتها، في إدارة شؤونها، في تطبيق دينها وفقًا لمسؤوليّتها العظيمة ودورها الرائد. وهو عليه السلام الذي لديه الكفاءة اللازمة لمسؤوليّة بهذا الحجم، مسؤوليّة عظيمة أن يخلف النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ويتولّى من بعده الموقع الأوّل في الأمّة، هاديًا ومربّيًا ومعلّمًا وزعيمًا ومرشدًا وبانيًا لهذه الأمّة[٢].

وهو عليه السلام واصل مشوار الهداية والإيمان، والحفاظ على مفاهيم الرسالة الإلهيّة، وكان حافظًا للأمانة التي أولاها له الرسول صلى الله عليه وآله وسلم حين قال له: «ستقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله».

اضطلع عليٌّ عليه السلام بهذه المهمّة الكبيرة، قاتل للحفاظ على مفاهيم الدين ولولا جهده وجهاده بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وفي المراحل العاصفة من تاريخ الأمّة، لكانت جهود المحرّفين لمفاهيم الدين قد حقّقت نجاحًا هائلًا في واقع الأمّة، وحجب نور الرسالة والنبوّة، ولأظلم واقع الأمّة، ولكن شاء الله أن يؤدّي هذا الرجل العظيم هذا الدور الكبير، وواصل رغم ما عاناه من تخاذل الكثير من الناس من المحن، والفتن، والصعوبات، وما قاساه من الشدائد

---

(١) سورة **المائدة**، الآيتان ٥٥ و٥٦.

(٢) خطاب الولاية ١٤٣١هـ للسيّد عبد الملك بدر الدين الحوثي.

في الأمة حتى استشهد في بيت الله كما وُلِد في بيت الله، وحتّى وهو على فراش الشهادة يتحضّر لوداع هذه الحياة ليلتحق بالرفيق الأعلى كان يتوجّه إلى ذرّيته وأولاده إلى الأمّة من حوله، بكلام الهدى، والنصائح والإرشادات العظيمة والمهمّة.

ومن وصاياه المهمّة والعظيمة إلى ولديه الحسن والحسين سبطي رسول الله ﷺ قال لهما: «أوصيكما بتقوى الله وألّا تبغيا الدنيا وإن بغتكما (اجعلا وجهتكما إلى الله) ولا تأسفا على شيءٍ منها زوي عنكما، وقولا بالحقّ، واعملا للأجر، وكونا للظالم خصمًا (الظالم لا مهادنة معه ولا تغاضٍ عنه، خصومة مستمرّة، كونا للظالم خصمًا) وللمظلوم عونًا. أوصيكما وجميع ولدي وأهلي ومن بلغه كتابي بتقوى الله ونظم أمركم، وصلاح ذات بينكم فإنّي سمعت جدّكما ﷺ يقول: صلاح ذات البين أفضل من عامّة الصلاة والصيام. والله الله في الأيتام فلا تُغِبّوا أفواههم (وفّروا لهم طعامهم، احتياجاتهم الأساسيّة) ولا يضيعوا بحضرتكم. والله الله في جيرانكم فإنّهم وصيّة نبيّكم ما زال يوصي بهم حتّى ظننا أنّه سيورّثهم. والله الله في القرآن لا يسبقكم بالعمل به غيركم. والله الله في الصلاة فإنّها عمود دينكم. والله الله في بيت ربّكم لا تُخلوه ما بقيتم فإنّه إن تُرك لم تُناظروا. والله الله في الجهاد بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم في سبيل الله، وعليكم بالتواصل والتباذل، وإياكم والتدابر والتقاطع، لا تتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيُولّى عليكم شراركم ثمّ تدعون فلا يستجاب لكم». ثم لقيَ ربّه شهيدًا.

إنّ حياة الإمام علي عليه السلام وجهاده، ومواقفه، وأعماله كلّها دروس، وعبر، ومصدر من مصادر الهداية، كلّها مصاديق للقرآن، وتجلّيات لهدى الله سبحانه وتعالى. كلّما عدنا إلى سيرته، كلّما تعرّفنا على معالم شخصيّته، كان أمامنا الدروس المهمّة والعظيمة التي نحتاج إليها في هذه المرحلة، في هذا العصر المليء بالفتن، نحتاج إلى أن نستلهم من شخصيّة علي كيف نكون في إسلامنا وتديّننا، كيف يكون التديّن الصادق بقيمه العظيمة، في الإباء، والعزيمة، والجهاد، والصبر، والتضحية، والإحسان، والعلاقة الوثيقة الصادقة

بالله سبحانه وتعالى، في الوعي العالي، في البصيرة النافذة، عطاءٌ واسعٌ من حياة علي نستفيد منها في زمننا وفي مواجهة التحدّيات والأخطار التي نعيشها، من موقعك كفرد، في حياته كفرد، أو كقائد، في أبعاد حياته، وفي معالمه المتنوّعة والمتعدّدة[١].

يقول السيّد حسين رضوان الله عليه في الدرس الثاني من سورة **المائدة** عند قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾[٢] الذين آمنوا هنا هو الإمام علي عليه السلام وبدون ولاية الإمام علي عليه السلام لن تتحقّق هداية، ولن يتحقّق للأمّة ولأيّ جماعة مقام تكون عليها جديرةً بأن تُسمَّى بـ(حزب الله) فتحظى بتأييد الله فتصبح هي حزبه الغالب.

كلمة ﴿ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ جاءت في واجهة الحديث عن مواجهة اليهود والنصارى وهم أعداء الأمّة على امتداد التاريخ، لماذا؟ بالنسبة للإيمان بالله سبحانه وتعالى كلّنا متفقون على الله، أليس كذلك؟ حتّى المشركون كانوا يعترفون بالله ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[٣]، وبالنسبة للرسول صلى الله عليه وآله وسلم نحن جميعًا متّفقون عليه: أنّه هو محمّد بن عبد الله هو رسول الله الذي أنزل الله الكتاب الكريم إليه وهو نبيّنا، أليس كذلك؟ لكنْ لله سبحانه وتعالى منهجُ هدايةٍ يَنْزِلُ بواسطة كتابه ورسوله، لأنّه تعالى هو مَلِكُنا يأتي مِن قِبَله منهجٌ محدّدٌ لهدايتنا.

منهجُ هدايةٍ ممتدّ من عند الله سبحانه وتعالى للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم مرتبط بنا، فمِن تحت النبي صلى الله عليه وآله وسلم ستتشعب الطرق، فيتركّز الكثير أمامك رجالًا ونساءً، وهنا تحصل إشكاليّة، ألم تظهر قنوات كثيرة، وكلٌّ منهم يدّعي أنّ بواسطته يوصلك إلى محمّد، إلى الله سبحانه وتعالى، بواسطته يرشدك إلى هدي

(١) في ذكرى استشهاد الإمام علي عليه السلام ١٤٣٥هـ.

(٢) سورة **المائدة**، الآية ٥٦.

(٣) سورة **الزخرف**، الآية ٨٧.

الله ورسوله؟ ولهذا جاءت الآيات الكريمة نفسها تقول ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ ثمّ تنتهي القضيّة ﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾(١). فعلًا، من يتولَّ الله فسيكون هو الغالب، لكن عن طريق مَن أتولّى الله؟ عن طريق من تكون ولايتي لله هي ولاية حقيقيّة تسير على هديه، لأنّ المسألة ليست فقط مسألة أسماء، بل مسألة هداية.

عندما تذهب إلى الأسواق سترى في السوق نفسه ما يمكن أن يُفيدك في قضايا عمرها ألف وأربعمئة سنة، لكن هل المسألة تعود إلى قضيّة التّنميق وإزالة التراب والتزيين وأن تَعْرِض بضاعتك في مكان مرتفع وبارز؟ في مقام الدِّين، أعلام الدِّين هي قضيّة تأتي من قِبَل الله سبحانه وتعالى، أنّه هو يصطفي من داخل ملائكته رسلًا ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ ليقوم بالمهمّة إلى من؟ إلى البشر، يصطفي من البشر رسلًا ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾(٢). إذًا، فهو الذي يحدّد لنا مَن هم الأعلام الذين نتولّاهم ونسير على هديهم ونتمسّك بهم؛ لأنّ القضيّة دقيقة جدًّا، ومُحكَمَة ومضبوطة، وهدي واحد، تميل يمينًا أو شمالًا تقع في ضلال، وليست القضيّة متروكة لك مثل: عندما تدخل إلى السوق فتسمع هذا يُرَوِّج وهذا يُرَوِّج، وهذا يتلطّف لك، وذلك نقّص لك ريالين فتتجه إليه، أو أظهر بضاعته وجعلها بادية أمامك أكثر.

المسألة تأتي من قبل الله سبحانه وتعالى إلى رسوله ﷺ ليحدّد للناس من هم الأعلام الذين يتمسّكون بهديهم، وسيظلّون بحاجة إلى التمسّك بهم وتولّيهم، وإن كان بينه وبينهم آلاف السنين؛ لأنّ هدي الله للحياة كلّها.

ذلك العَلَم الذي وضعه الله لك هو رسول الله ﷺ أنت بحاجة إليه وإن كان بينك وبينه ثلاثة آلاف سنة، وهي بداية نقطة الافتراق، لأنّه متى ما

---

(١) سورة **المائدة**، الآية ٥٦.

(٢) سورة **الحجّ**، الآية ٧٥.

بدأتَ مِن نقطة افتراق خاطئة فستبقى فَلْتَتُك إلى آخر الحياة وآخر العمر. من هناك، من مفترق الطرق، من علي، وعلي يمثّل طريق هدي، الميل عنه يمينًا أو شمالًا يشكّل خطورة بالغة، هي نفسها التي تراها ماثلة آثارُها أمام أعيننا في هذا العصر، وعندما تعود إلى كتب التاريخ ستراها ماثلة أمامك في كلّ عصر[١].

حين نعرف بأنّ الإمام عليًّا عليه السلام قرين القرآن بشهادة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم له، وأنّ رؤيته لن تحيد عن نظرة **القرآن الكريم** فيما يتعلّق بسنّة الله في الهداية والتي تتمثّل في كتاب وعلم ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾[٢] والتي عزّزها النبي صلى الله عليه وآله وسلم في وصيّته للأمّة لكنّا بألف خير، أمّا لو تصوّرنا غير ذلك لكنّا أوّل من يكذّب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في قوله: «علي مع القرآن والقرآن مع علي» وهذه فعلًا كانت نظرة الإمام علي عليه السلام فممّا ورد عنه حول هذا الموضوع قوله: «لَا يُقَاسُ بِآلِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَحَدٌ وَلَا يُسَوَّى بِهِمْ مَنْ جَرَتْ نِعْمَتُهُمْ عَلَيْهِ أَبَدًا هُمْ أَسَاسُ الدِّينِ وَعِمَادُ الْيَقِينِ، إِلَيْهِمْ يَفِيءُ الْغَالِي، وَبِهِمْ يُلْحَقُ التَّالِي، وَلَهُمْ خَصَائِصُ حَقِّ الْوِلَايَةِ، وَفِيهِمُ الْوَصِيَّةُ وَالْوِرَاثَةُ، الْآنَ إِذْ رَجَعَ الحَقُّ إِلَى أَهْلِهِ وَنُقِلَ إِلَى مُنْتَقَلِهِ»[٣].

«وَإِنَّمَا الْأَئِمَّةُ قُوَّامُ اللهِ عَلَى خَلْقِهِ وَعُرَفَاؤُهُ عَلَى عِبَادِهِ، وَلَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ إِلَّا مَن عَرَفَهُمْ وَعَرَفُوهُ، وَلَا يَدْخُلُ النَّارَ إِلَّا مَنْ أَنْكَرَهُمْ وَأَنْكَرُوهُ. إِنَّ اللهَ تَعَالَى خَصَّكُمْ بِالْإِسْلَامِ وَاسْتَخْلَصَكُمْ لَهُ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ اسْمُ سَلَامَةٍ وَجِمَاعُ كَرَامَةٍ اصْطَفَى اللهُ تَعَالَى مَنْهَجَهُ وَبَيَّنَ حُجَجَهُ مِنْ ظَاهِرِ عِلْمٍ وَبَاطِنِ حُكْمٍ لَا تَفْنَى غَرَائِبُهُ وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، فِيهِ مَرَابِيعُ النِّعَمِ وَمَصَابِيحُ الظُّلَمِ، لَا تُفَتَّحُ الْخَيْرَاتُ إِلَّا

(١) محاضرة آيات من سورة **المائدة** للسيد حسين الدرس الثاني.

(٢) سورة **البقرة**، الآية ٢١٣.

(٣) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ١، الصفحة ٣٠، الخطبة الشقشقيّة.

بِمَفَاتِيحِهِ وَلَا تُكْشَفُ الظُّلُمَاتُ إِلَّا بِمَصَابِيحِهِ. قَدْ أَحْمَى حِمَاهُ وَأَرْعَى مَرْعَاهُ فِيهِ شِفَاءُ الْمُسْتَشْفِي وَكِفَايَةُ الْمُكْتَفِي»(١).

«فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ وَأَنَّى تُؤْفَكُونَ وَالْأَعْلَامُ قَائِمَةٌ، وَالْآيَاتُ وَاضِحَةٌ، وَالْمَنَارُ مَنْصُوبَةٌ، فَأَيْنَ يُتَاهُ بِكُمْ؟ وَكَيْفَ تَعْمَهُونَ؟ وَبَيْنَكُمْ عِتْرَةُ نَبِيِّكُمْ وَهُمْ أَزِمَّةُ الحَقِّ وَأَعْلَامُ الدِّينِ وَأَلْسِنَةُ الصِّدْقِ فَأَنْزِلُوهُمْ بِأَحْسَنِ مَنَازِلِ الْقُرْآنِ وَرِدُوهُمْ وُرُودَ الْهِيمِ الْعِطَاشِ. أَيُّهَا النَّاسُ خُذُوهَا عَنْ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ ﷺ إِنَّهُ يَمُوتُ مَنْ مَاتَ مِنَّا وَلَيْسَ بِمَيِّتٍ وَيَبْلَى مَنْ بَلِيَ مِنَّا وَلَيْسَ بِبَالٍ، فَلَا تَقُولُوا بِمَا لَا تَعْرِفُونَ فَإِنَّ أَكْثَرَ الحَقِّ فِيمَا تُنْكِرُونَ وَاعْذِرُوا مَنْ لَا حُجَّةَ لَكُمْ عَلَيْهِ وَهُوَ أَنَا أَلَمْ أَعْمَلْ فِيكُمْ بِالثَّقَلِ الْأَكْبَرِ وَأَتْرُكْ فِيكُمُ الثَّقَلَ الْأَصْغَرَ قَدْ رَكَزْتُ فِيكُمْ رَايَةَ الْإِيمَانِ وَوَقَفْتُكُمْ عَلَى حُدُودِ الحَلَالِ وَالْحَرَامِ وَأَلْبَسْتُكُمُ الْعَافِيَةَ مِنْ عَدْلِي وَفَرَشْتُكُمُ الْمَعْرُوفَ مِنْ قَوْلِي وَفِعْلِي وَأَرَيْتُكُمْ كَرَائِمَ الْأَخْلَاقِ مِنْ نَفْسِي فَلَا تَسْتَعْمِلُوا الرَّأْيَ فِيمَا لَا يُدْرِكُ قَعْرَهُ الْبَصَرُ وَلَا تَتَغَلْغَلُ إِلَيْهِ الْفِكَرُ»(٢).

ثمّ يشير الإمام عليه السلام إلى أنّ خطّ الأعلام مصاحب لمسيرة الأمّة وأرض الله لا تخلو من حجّة من آل محمّد (صلوات الله عليهم) يحمل الهدى للناس فيقول: «أَلَا إِنَّ مَثَلَ آلِ مُحَمَّدٍ ﷺ كَمَثَلِ نُجُومِ السَّمَاءِ إِذَا خَوَى نَجْمٌ طَلَعَ نَجْمٌ، فَكَأَنَّكُمْ قَدْ تَكَامَلَتْ مِنَ اللهِ فِيكُمُ الصَّنَائِعُ، وَأَتَاكُم مَا كُنْتُمْ تَأْمُلُونَ»(٣).

وكان يقول: «أَيُّهَا النَّاسُ شُقُّوا أَمْوَاجَ الْفِتَنِ بِسُفُنِ النَّجَاةِ، وَعَرِّجُوا عَنْ طَرِيقِ الْمُنَافَرَةِ، وَضَعُوا تِيجَانَ الْمُفَاخَرَةِ. أَفْلَحَ مَنْ نَهَضَ بِجَنَاحٍ أَوِ اسْتَسْلَمَ فَأَرَاحَ هَذَا مَاءٌ آجِنٌ وَلُقْمَةٌ يَغَصُّ بِهَا آكِلُهَا وَمُجْتَنِي الثَّمَرَةِ لِغَيْرِ وَقْتِ إِينَاعِهَا كَالزَّارِعِ بِغَيْرِ أَرْضِهِ»(٤).

---

(١) المصدر نفسه، الجزء ٢، الصفحة ٤٠، من خطبة له عليه السلام في تمجيد الله وفي منزلة الأئمّة.

(٢) المصدر نفسه، الجزء ١، الصفحة ١٥٤، من خطبة له عليه السلام فيها صفات من يحبّه الله.

(٣) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ١، الصفحة ١٩٤، الخطبة ١٠١.

(٤) المصدر نفسه، الصفحة ٤٠، الخطبة ٥.

ويقول: «تَاللهِ لَقَدْ عُلِّمْتُ تَبْلِيغَ الرِّسَالَاتِ وَإِتْمَامَ الْعِدَاتِ وَتَمَامَ الْكَلِمَاتِ وَعِنْدَنَا أَهْلَ الْبَيْتِ أَبْوَابُ الْحُكْمِ وَضِيَاءُ الْأَمْرِ أَلَا وَإِنَّ شَرَائِعَ الدِّينِ وَاحِدَةٌ وَسُبُلَهُ قَاصِدَةٌ مَنْ أَخَذَ بِهَا لَحِقَ وَغَنِمَ وَمَنْ وَقَفَ عَنْهَا ضَلَّ وَنَدِمَ»[١].

ومن أغرب الأشياء على الإطلاق، وكنتيجة لثقافة أصول الفقه التي ضربت جمال اللغة العربيّة أن يأتي من تربّوا على هذه الثقافة ليقولوا - بناء على هذه القواعد – بأنّ دلالة حديث الغدير على ولاية الإمام علي على خلافته دلالة خفيّة، لماذا؟ لأنّ كلمة (مولى تحتمل وتحتمل وتحتمل...) فيتعاملون مع المفردة وحدها متجاهلين ما يحيط بالقضيّة من عوامل وترتيبات حدّدت بجلاء لا لبس فيه المعنى المراد، ويتجاهلون كلّ عمل الرسول ﷺ، وكلّ ذلك الكلام والترتيبات التي تبيّن بجلاء المراد من كلامه، يعني في الأخير أنّنا لم نفهم ماذا يريد؟!.

أليس هذا ممّا يدلّ على الإساءة إلى اللغة العربيّة نفسها، وإلى الرسول؟ يعمل الرسول تلك الترتيبات ثمّ يتكلّم ذلك الكلام ونحن في الأخير نقول: نحن لم نعلم ماذا تريد؟ أليس هذا معناه؟ إذًا، فاللغة هذه - حسب قولهم -هي لغة لا يصحّ التخاطب بها، لغة لا أحد من الناس يستطيع أن يفهم الآخر ماذا يريد!.

هي لغة تعتمد على المقامات، تعتمد على القرائن، تعتمد على السياق، تعتمد على أشياء كثيرة تحيط بالموضوع فتقدّم المعنى كاملًا وافيًا، وفي أجمل وأزهى ثوب.. أليست البلاغة هي تقديم المعنى في ثوب جميل؟ وليس فقط مجرّد معرفة المعنى المراد، بل تستطيع اللغة العربيّة أن تقدّمه في أزهى ثوب وأعمق ما يمكن.

أليس **القرآن الكريم** بحر لا يدرك قعره؟ وهو كتاب عربي في منتهى البلاغة، فهل أصبحت لغته في نظر أصحاب أصول الفقه اللغة التي لا يفهم

---

(١) المصدر نفسه، الصفحة ٢٣٣، الخطبة ١٢٠.

الناس ماذا يريد بعضهم بعضًا عندما يتحدّثون بها! والرسول ﷺ أليس أفصح العرب؟ هل أصبح في يوم الغدير يتحدّث بلغةٍ لا يمكن للآخرين أن يفهموا معناها الصريح والواضح؟ قالوا: دلالة خفيّة، ليست قطعيّة، لماذا؟ لأنّ كلمة مولى تحتمل عدّة معانٍ! هذا افتراء.

هكذا هي أساليب اللغة العربيّة على هذا النحو بيّنة، لغة البيان ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾. وعندما يقولون: ظنيًّا أي لا نستطيع أن نحدّد بعد المعنى المراد بالتحديد حتّى يضيّعوا مسألة الولاية لعلي عليه السلام.

كما أنّه من إيجابيّة اللغة العربيّة أنّ المفردة الواحدة تدلّ على معانٍ متعدّدة ويكون السياق هو الذي يحدّد المعنى، السياق وظروف الخطاب وواقع الأجواء المحيطة بالخطاب هي التي تحدّد حتمًا ما هو المقصود من المفردة، والناس في واقع حياتهم يتعاملون على أساس القطع، ولا يتعاملون مع ما يسمعونه على أساس الظنّ، لأنّ كلّ المفردات الآن حتّى في واقع حياتنا وخطابنا ومعاملاتنا ومشاكلنا وأمورنا كلّها يبني الناس فيها على أنّ مدلول الخطاب قطعي، حالات نادرة التي يبنون فيها على أنّه ظنّي، وإلّا فالشخص منّا يتكلّم وهو مطمئن بأنّ كلامه قد فهم ولن يختلفوا حول المعنى المراد من كلامه، أو أنّ هذا الشخص يذهب إلى البحث في قائمة معاني تلك المفردة ليقول فيما بعد: احتمال أنّ المقصود هذا المعنى، أو ذاك[١].

ويقول في الدرس الثالث من سورة **المائدة**:

تجد كلمة (وليّ) في **القرآن الكريم** استخدمت بشكل كبير في مجال العلاقة فيما بين الله وبين الإنسان وبين عباده بالذات المسلمين لتعبّر عن أنّ مصاديقها متعدّدة، وليست معانيها - كما يقول البعض – متعدّدة. وكلمة (مولى) هي كلمة تحتمل مصاديق مختلفة: في ميدان الهداية هو وليّك يهديك، في ميدان المواجهة هو وليّك ينصرك ويؤيّدك. وهكذا في العلاقات

---

(١) من محاضرة كيف نهتدي بالقرآن للسيّد حسين بدر الدين الحوثي.

العامّة؛ المحافظ مثلًا يتواصل مع الرئيس في كلّ الأمور، في ميدان المواجهة، في ميدان الثقافة وفي ميادين أخرى، على اتصال مستمرّ به، هو وليّه يستمد منه كذا، ويتلقّى منه كذا، ويتحرّك وفق ما يرشده إليه.

فلهذا نفهم كم هي قيّمة كلمة: (وليّ) هو من يتولّى مختلف الشؤون، الشؤون المتعلّقة بك في إطار المهمّة الكبرى المنوطة بك في مختلف مجالات الحياة، هي نفسها ما أعطاه الرسول ﷺ عليًّا عليه السلام يوم الغدير عندما قال: «فمن كنت مولاه فهذا عليٌّ مولاه» ويأتي بعد من لا يفهم فيقول: لماذا لم يقل: (خليفتي)؟ نفهم السلطة، نفهم العلاقة على أضيق نطاق، نفهمها ضيّقة جدًا، نفهمها من خلال ما فهّمنا الخلفاء الجبابرة والسلاطين الجبابرة عن العلاقة بيننا وبينهم، ومن خلال ما فُهِّمنا فعلًا من داخل كتب (عِلم الكلام) وكتب (عِلم أصول الفقه) تجعل علاقتي بالله كعلاقة أيّ واحد منّا بـ(علي عبد الله).

انحططنا بشكل رهيب، أضعنا مسؤوليّتنا، فلم نعد نعرف ما هي العلاقة بيننا وبين الله؛ فنرى كم هي متشعّبة، ثمّ نرى كم هي واسعة، وشؤونها متعدّدة، أو أنّ الرسول ﷺ لم يكن يفهم أو يعرف كلمة (خليفة) وكلمة (سلطان) وكلمة (مَلِك) وما كان يسمع هذه ولا يعرفها؟ هو يعرف، لكنّه يريد أن يقول: أنت أيّها الإنسان خليفة لربّك في هذه الأرض. أنت أيّها المسلم، أنت أيّها العربي المسلم مَنُوطةٌ بك مهمّة كبرى: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾[1] أليس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إطارًا واسعًا جدًا يشمل كلّ مجالات الحياة؟ إذًا المسألة ليست مسألة تسلّط، بل مسألة هداية، الله يصف نفسه بالرحمة التي وسعت كلّ شيء.

الله سبحانه وتعالى هو يهدينا ويرشدنا ولا يصدر إرشاداته بشكل قوانين أو مرسوم ملكي، أو قرار من رئاسة الجمهوريّة: (مادّة اثنين يعمل كذا

(١) سورة **آل عمران**، الآية ١١٠.

من تاريخ صدوره، وينشر في الجريدة الرسميّة)؟ لا، بل يقول: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ حمٓ ١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾(١)، ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾(٢)، ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾(٣)، ﴿يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾(٤)، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾(٥) ؟

(وليّ) يرعاك، يدبّر أمرك، يهمّه أمرك، يحرص عليك، يرحمك، يرفق بك، لا يريد أن تضلّ، لا يريد أن تشقى ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمًا لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾(٦) وهكذا كان رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وهكذا العلاقة مع رسوله، وهكذا العلاقة مع علي بن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ.

إذًا، فولايتنا لعَليٍّ أن ننظر إليه كوليّ أمرنا في مهامنا في الحياة، ونحن نربّي أنفسنا ونرشدها لنزكّيها»(٧).

كما تأتي أهميّة ولاية الأمر في الإسلام أنّها تشكّل ضمانة لاستقامة الدين، وحيويّته، فمتى ما كان الدين قائمًا، وحيًّا تكون الأمّة قائمة وحيّة، ومربوطة بهذا الدين. إذًا، فهي قضيّة هامّة جدًّا، ليست قضيّة بسيطة يمكن التهاون بها، فإذا لم تكن قائمة تستغلّ الكثير من تشريعات الدين استغلالًا سيّئًا بما فيها المساجد، والصلاة، والمنابر، والحجّ، والزكاة، ومنطق القرآن.

وحديث الولاية، وأحاديث أخرى متواترة عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ هو الكفيل بتحصين هذه الأمّة حتّى لا تقبل ولا تخنع لأولئك الذين يريدون أن يفرضوا عليها ولاية أمرهم، وهم اليهود الأمريكيّون والصهاينة.

---

(١) سورة **غافر**، الآية ١،٢.

(٢) سورة **فصلت**، الآية ٢.

(٣) سورة **البقرة**، الآية ١٨٥.

(٤) سورة **المائدة**، الآية ١٦.

(٥) سورة **الأنبياء**، الآية ١٠٧.

(٦) سورة **آل عمران**، الآية ١٠٨.

(٧) السيّد حسين بدر الدين الحوثي في الدرس الثالث من سورة **المائدة**.

ولذلك كانت لهجة الآية واضحة: ﴿وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ﴾ إن لم تبلّغ ما أنزل إليك من ربّك فكأنّك لم تعمل ولم تبلّغ شيئًا، ألا يدلّ هذا على أنّها قضيّة هامّة جدًّا؟ ومعناه أنّ ما بلّغته يفرغ من معناه دون ولاية أمر الأمّة.

كما أنّ إيماننا بولاية الله منسجم مع عدل الله وحكمته ورحمته ولذلك يؤكّد السيّد حسين (رضوان الله عليه) في (أمر الولاية) بأنّ من لا يعلنون ما أعلنه الرسول في هذا اليوم هم من يَصِمُون الله في حكمته، وفي عدله، وفي رحمته، هم من يضيفون النقص إلى الله.

كيف يجوز على الله سبحانه وتعالى، الذي سمّى نفسه بالحكيم، العليم، العدل، الرحمن الرحيم، أن يأتي لينظّم شؤون كلّ أسرة، حتّى المواريث، ثمّ لا ينظّم شأن الأمّة، ويتركها!.

هل يجوز على الله أن يهمل أمر الأمة؟ هذا لا يجوز، لكنّ الآخرين جوّزوه على الله، ولمّا جوّزوا على الله أن يكون قد أهمل شأن الأمّة رأينا عشرات الخلفاء، والرؤساء، والزعماء الذين هم بعيدون عن الإسلام يتقافزون على حكم المسلمين، وعلى أكتافهم المسلمين جيلًا بعد جيل.

ويقول في حديث الولاية:

ولذلك نحن نقول ونعتقد: إنّ الإسلام دين ودولة، ومن الله جاء الإسلام هكذا نظام شامل للحياة كلّها، لا يمكن أن يغفل جانبًا من جوانبها، ولا أن يفسح مجالًا ولا قيد أنملة للضالّين والمضلّين، والظالمين، أن يتحكّموا على رقاب الأمّة.

إنّه دين الله الحكيم، الذي نزلّه الحكيم، على رسوله الحكيم، دين عظيم، من إله عظيم، نزل على رسول عظيم؛ لينشئ أمّة عظيمة، لا مجال فيها لهؤلاء الضعاف، والأقزام الذين وجدناهم هكذا أمام اليهود.

أليس خزيًا علينا نحن المسلمين أن نرى زعماءنا، وهم أكثر من خمسين زعيمًا كلّهم يقفون راكعين مطأطئين رؤوسهم أمام اليهود؟ هل هذا هو الإسلام؟ لا يجوز أن يكون هذا من الإسلام، ولا علاقة لهذا الموقف بالإسلام، ولا شرعيّة لهذه النوعيّة أبدًا في الإسلام[١].

إنّ إيماننا بولاية الله، كما قدّمه الله في **القرآن الكريم**، وكما أعلنه الرسول في مثل هذا اليوم على المسلمين، إيماننا بهذا هو إيمان بكمال الدين، وأنّ الإسلام دين ودولة، وهو نظام كامل للحياة، يشمل كلّ الجوانب الخاصّة بالإنسان سواءً الشؤون السياسيّة، أو الاجتماعيّة، أو الاقتصاديّة، وغير ذلك؛ لأنّ هذا الدين بحقيقته وجوهره هو نظام يسير عليه الإنسان في كلّ أموره.

فنحن - أيّها الإخوة - إيماننا بثقافة الولاية، وإيماننا بمبدأ الولاية هو إيمان بكمال الدين، وأنّ الدين ليس بناقص، ومن يجعلون أمر الدولة في الإسلام قضيّة غائبة لم يحدّد فيها الإسلام منهجًا ولم ترتبط بالله هم يضيفون النقص إليه تعالى، يجعلون في دينه ثلمة ونقصًا خطيرًا جدًّا، يترتّب عليه ضياع شؤون الناس، وألّا يقوم الدين[٢].

ثمّ إنّه لا يمكن أبدًا أن نقول إنّ الإسلام دين شامل ونظام شامل إذا نسبنا إليه أنّه لم ينظّم مسألة الدولة، والخلافة، ولم ينظّم مسألة قيادة الأمّة، لا يمكن أن نقول إنّه نظام شامل للحياة إطلاقًا.

ومن جعلوا المسألة أمرًا موكولًا إلى الناس، إلى اختيارهم ومزاجاتهم وأهوائهم، كيف كانت النتيجة؟ ابتعادًا عن الله، وبالتالي ابتعادًا عن النصر، ابتعادًا عن الغلبة، فسبّبوا نكبات كبيرة للأمّة.

تولّي الله قائمٌ على أساس إيمان، وثقة، ومسؤوليّة، وجهاد، وعمل، وطاعة، وتصديق، وثقةً قويّةً بالله سبحانه وتعالى. وتولّي الرسول اقتداءً

---

(١) حديث الولاية للسيد حسين بدر الدين الحوثي.

(٢) خطاب يوم الولاية ١٤٢٩هـ للسيد عبد الملك بدر الدين الحوثي.

وتمسّكًا به وبنهجه، وسيرًا على هديه، وتولّيًا الإمام علي عليه السلام كرمزٍ للأمّة بعد نبيّها، ووليٍّ لها من عند الله بعد نبيّها صلى الله عليه وآله وسلم هو ما يفيد الأمّة ويضمن لها من الله النصر والتأييد والعزّة وفق هذا الوعد الإلهي الذي لا يتخلّف أبدًا لأنّ الله لا يخلف وعده، ولا يبدّل قوله وهو جلّ شأنه هكذا قال ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾.

يقول السيّد حسين (رضوان الله عليه) في الدرس الأوّل من سورة **المائدة:**

«عندما تلاحظ الآيات من أوّلها من قوله تعالى:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ﴾[1] لاحظ الربط المهمّ بين قضيّة ولاية الإمام علي عليه السلام في مقام وتأهيل الأمّة في مواجهة اليهود والنصارى،وتحصين القلوب أيضًا من أن يصيبها مرضٌ فتصبح ممّن تتولّى اليهود والنصارى، أو ترتدّ بعد إيمانها، فقال: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ﴾[2].

إذًا، فولاية الله ورسوله والإمام علي بن أبي طالب عندما تملأ القلب ستملؤه إيمانًا واعيًا، ستُحصِّن القلب من أن ينفذ إليه أيّ ذرّة من ولاءٍ لليهود والنصارى أو لأوليائهم. ستُحصِّن الإنسان نفسه من أن يصبح مرتدًّا عن دينه، ستحصّنه أيضًا من أن يصبح طائعًا لغير الله.

وبالتالي، فإنّ الولاية مهمّة جدًّا في المقامين؛ في مقام الحفاظ على نفسي بعيدًا عن هذه الخطورة العظيمة، وفي مقام تأهيل نفسي لضرب مصدر ذلك الخطر العظيم.

---

(١) سورة **المائدة**، الآيات ٥١ ـ ٥٥.

(٢) سورة **المائدة**، الآية ٥٢.

نحن شيعة علي عليه السلام هل وجدنا أنفسنا في يوم من الأيّام محرجين أمام آية قرآنيّة؟ أو وجدنا أنفسنا محرجين أمام حديث قاله الرسول صلى الله عليه وآله وسلم؟ لا، لماذا؟ لأنّنا تولّينا من هو منسجم مع القرآن.

فعندما تتولّى عليًا فإنّ ذلك مفتاح لأبواب الهداية بالقرآن، وستجد نفسك لا تصطدم مع آية قرآنيّة، لكنّ الآخرين هم من يتقافزون على الآيات القرآنيّة! هذه، لا؛ لأنّها تمسّ بمقام فلان! وتلك الآية وإن كانت فيها لهجة قاسية يسمّونها عتابًا رقيقًا، وعتابا لطيفًا؛ لأنّها تمسّ بمقام فلان، أو مقام الصحابة الأجلّاء! وهكذا.

ما أسوأ الإنسان عندما يعتقد باسم الإسلام عقيدة تجعله غير منسجم مع القرآن، وتجعله مرتابًا في نفسه أمام القرآن، والقرآن هو الذي يقول الله عنه: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾[1] فأيّ عقيدة تنسجم معه هي العقيدة التي لا ريب فيها[2].

فالإمام علي عليه السلام هو حامل القيم الإيمانيّة التي تؤهّله لقيادة الأمّة، وأن يكون هو حلقة الوصل الأمينة والوثيقة والتامّة للأمّة بنبيّها صلى الله عليه وآله وسلم.

فالأمّة اختلفت بعد نبيّها أشدّ الاختلاف، وأمام تشعُّب الطرق وتعدّد السبل واختلاف المسالك؛ فإنّ الامتداد الأصيل والنقيّ والتامّ للنهج المحمّدي والموصل إليه هو علي عليه السلام كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «عليٌّ مع القرآن والقرآن مع عليّ» وقال صلى الله عليه وآله وسلم أيضًا: «عليٌّ مع الحقّ والحقّ مع عليّ»، وكذلك «يا عمّار إذا سلك الناس واديًا وسلك عليٌّ واديًا فاسلك وادي علي».

ونحن في هذه المسيرة نحن ننطلق من هذا المنطلق، نسلك وادي علي الذي يوصلنا ويربطنا بالنهج المحمّدي إلى الصراط المستقيم، وذلك ما نطمئنّ إليه ونثق به ونحن منه على يقين.

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ٢.

(٢) خطاب أمر الولاية للسيد حسين بدر الدين الحوثي.

ويقول ﷺ: «يا عليّ لا يُحبك إلّا مؤمن، ولا يُبغضُك إلّا منافق». في هذا المسار الإيماني المؤكّد ينطلق فيه الإنسان على بيّنةٍ وبصيرةٍ وهدىً ليصل بك فعلًا إلى المنهج المحمّدي الأصيل.

والإمام علي عليه السلام هو الأكمل والأرقى بكمال إيمانه وقيمه لقيادة الأمّة حاذيًا بها حذو نبيّها، ولديه المؤهّلات اللازمة، إيمان عظيم بالله؛ ولهذا قدّمته الآية المباركة بأوّل صفة من صفاته وهي الصفة الإيمانيّة ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ إيمان عظيم بالله على أرقى درجات الإيمان، يؤهّله لأن يكون في مستوى المسؤوليّة الكبيرة والعظيمة، رحمةٌ عظيمة بالأمّة، ليس متجبرًا ولا طاغيًا ولا مُتعسّفًا ولا ظالمًا، رحمة عظيمة بالأمّة، واستيعاب عظيم لهدى الله ومنهجه، وعلم كبير به؛ فهو الأذن الواعية، وهو باب مدينة علم رسول الله ﷺ.

فتولّينا للإمام علي عليه السلام يمثّل حلقة وصل وامتدادًا لولاية النبي وامتدادًا لمشروعه العظيم، ومجسّدًا لقيم الإسلام وارتباط الأمّة به ارتباط بمسار الهداية الذي يوصلك إلى الرسول ومن الرسول إلى الله، وتأثّر الأمّة به له مردوده التربوي العظيم في عزمها وفي همّتها وفي استشعارها للمسؤوليّة، وفي تفانيها في سبيل الله، وفي مواجهتها للتحدّيات، وفي سائر الأمور التربويّة.

ثمّ هو النموذج الأرقى والأسمى والأكمل الذي يجب أن تتطلّع الأمّة إليه لمعرفة المعايير والمؤهّلات لقيادتها التي يمكن أن تقودها في مسار الولاية الإلهيّة، فولاية أمر الأمّة وموقع قيادتها هو من الأساسيّات في إطار الولاية الإلهيّة التي تحقّق للأمّة ارتباطها بها وفوزها بمكاسبها، هذا هو مبدؤُنا، هذا هو فهمنا لتلك النصوص من كتاب الله ومن بلاغ الرسول ﷺ(١).

---

(١) خطاب يوم الغدير ١٤٣٤هـ للسيد عبد الملك بدر الدين الحوثي.

فهل تعتقد أنّ التولّي قضيّة سهلة؟ خاطب **القرآن الكريم** اليهود الذين كانوا في زمن الرسول ﷺ - وهم من لم يقتلوا الأنبياء السابقين، ولم يعيشوا فترات طويلة حتّى يكونوا ممّن شارك في قتل الأنبياء السابقين - على أنّهم يقتلون الأنبياء بغير حقّ ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[١]، فلماذا أصبح هؤلاء الذين عاشوا في زمن الرسول ﷺ يُخاطَبون بأنّهم قتلوا الأنبياء؟ وكم بين ذلك اليهودي الذي في زمن الرسول ﷺ في زمن تنزّل القرآن، وبين أولئك اليهود السابقين الذين قتلوا الأنبياء قبل مئات السنين؟ ما الذي جعله يُخاطَب بأنّه قَتل؟ لأنّه تولّى أولئك وعدّهم السلف الصالح له، فأصبح حكمه حكمهم؛ فقيل له: أنت قاتل.

وهكذا الذين يهتفون الآن بأنّهم يتولّون السلف الصالح ممّن قتل عليًّا وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام فاطمة نفسها قُتلت كَمَدًا، وقهرًا وهي ترى هذا الدِّين يُعْصَفُ به من أوّل يوم بعد وفاة والدها رسول الله ﷺ لم تَبْكِ على (فَدَك) فدك قضيّة تؤلمها لكن لم تَبْكِ عليها، ولم تمت كَمَدًا عليها، إنّما ماتت كَمَدًا على هذه الأمّة.

إلى أن يقول: رسول الله ﷺ في كلّ حركة من حركاته يعطي مؤشّر هداية للأمّة، عندما يرفع يده ويد علي ماذا يعني؟ رفعة الأمّة. وأنتم يا رعاة الإبل يمكن أن تكونوا أرفع أمّة إذا رفعتم هاتين اليدين، وتكونوا أنتم مَن يرفعُ لواءَ الله، وكلمة الله في الأرض، ومَن تكون لكم السيادة على الأمم. لكنّهم تَخَلَّوْا عنها؛ فأصبحوا ولا حتّى رعاة إبل، لا يحملون ذلك الإباء الذي كان يحمله العربي البدوي، لم يعودوا يحملون تلك الشهامة، فقد كان طبع العربي يأبى أن يخضع لكسرى أو لقيصر، وكان يأبى أن يُظلم أبسط الظلم. هبطوا حتى أصبحوا مَن يُصفقون للظالم، ويُؤيِّدونه، مَن يُعَنِّفون مَن يرفعُ رأسَه بإباءٍ وشرف![٢].

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ٩١.

(٢) آيات من سورة **آل عمران** - الدرس الرابع للسيد حسين.

رابعًا- البعد السياسي لحديث الولاية

قبل أن نذكر البعد السياسي لحديث الأمّة، لا بدّ من إعادة النظر لبعض النقاط المهمّة التي ربّما أوردنا معظمها أو جلّها، ولكن لدلالتها السياسيّة التي نريدنا هنا تفصيلًا نوردها.

أوّلًا، ينزَّه الله الحكيم الذي أراد لعباده الخير عن أن يترك الأمّة دون تحديد لمسارها السياسي من بعد نبيّه ﷺ، فمن غير العقلانيّة أن ما تعب من أجله الرسول محمّد ﷺ يتركه دون تصويب فيذهب هباءً.

يقول السيّد حسين (رضوان الله عليه):

«قبل أن نتحدث عن الأسباب التي جعلت الأمّة تفارق عليًّا نتساءل أوّلًا: هل يمكن لمثل رسول الله ﷺ الذي وصف الله حرصه على أمّته بقوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[١]، ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾[٢] أن يترك هذه الأمّة دون أن يرشدها إلى ما يشكّل لها صمّام أمان؟.

ونحن عندما نعود إلى القرآن نجد في قصّة نبي الله موسى ما يوضح المسألة لنا عندما قال الله: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ

---

(١) سورة **التوبة**، الآية ١٢٨.

(٢) سورة **الكهف**، الآية ٦.

﴿فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾[1] وهي فترة قصيرة، فترة ثلاثين ليلة زائد عشر، أربعين ليلة.

لاحظ كيف هي نظرة الأنبياء إلى أممهم، هو يعرف بأنّه لن يغيب عنهم إلّا ثلاثين ليلة أو أربعين ليلة على الأكثر، يلاحظ من هو أرقى شخص، وأكمل شخص فيهم ليعيّنه بعده، ﴿ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ ومع أنّه قد انتقى أكمل شخص فيهم، وأيضًا يوجّهه بالتوجيهات الهامّة، أن تصلح، وألّا تصغي للمفسدين.

فهل يمكن لمثل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يترك هذه الأمّة عندما يموت ثمّ لا يرشدها إلى من تتبع، وموسى هنا لغياب ثلاثين ليلة، يعيّن بعده من يخلفه؟! لا يمكن من يعرف أنبياء الله أن يقبل هذه القضيّة، فيقول: إنّه ترك الأمّة، ولم يعد حريصًا عليها؛ فالأنبياء - عادة - أناس مهتمّون جدًّا بالبشر، وبأممهم، رحماء جدًّا بهم، يفهمون الأمور جيّدًا وما ستؤول إليه حالهم عندما يتركهم بدون أن يقدّم لهم الحلول وبالذات حول من يلي أمرهم من بعده.

فكيف برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو في أطول رحلة بعيدة عن مركز دولته، ومجتمعه، لم يسر سابقًا إلى تبوك إلّا وقد عيّن الإمام عليًّا بعده، لفترة قصيرة، وفي الأخير يقولون بعد: أنّه مات ولم يوصِ أحدًا، ولم يعيّن أحدًا، ولم يعمل شيئًا، لكنّ أبا بكر لم يمت إلّا وقد أوصى إلى عمر، ألا يعتبر هذا استهانة بالأنبياء، جهلًا كاملًا بالأنبياء لأنّهم أناس يهتمّون جدًّا بالأمّة، ورحماء، ويعرفون الأمور، والمواضيع، والقضايا التي يمكن أن تؤدّي إلى اختلاف فيما بين الناس؟

هم يودّون أن يقدّموا الأنبياء عليهم السلام وكأنّهم كانوا يغادرون الدنيا دون أن يبالوا بأممهم، خاصّة مثل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: رسول العالمين، وآخر رسول

---

(١) سورة **الأعراف**، الآية ١٤٢.

إلى آخر أيّام الدنيا، إنّه رسول للكلّ، وتجده قد عمل في ذلك الزمن ما يبيّن للناس في هذا الزمن ما له علاقة بالناس من بعد ألف وأربعمئة سنة.

وهل من المعقول بأنّ هذا الإسلام العظيم بما يحمله من شموليّة ومنهجيّة تبيانًا وتفصيلًا لكلّ شيء، والذي جاء ليبني أمّة عظيمة يغفل عن أن يتحدّث عن الولاية ومعاييرها، وهي التي تمثّل العمود الفقري للدين الإسلامي؟!.

وهل من المعقول بأنّ أمّة بهذا الحجم، والتي تمتلك هذه المساحة الواسعة والكبيرة وتعرف بأنّ الرسول ﷺ على وشك الرحيل من بينهم وأنّها تحمل مسؤوليّة كبيرة ورسالة عالميّة ثمّ لا يتبادر إلى ذهنها ولا تفكّر في أن تسأل عن الشخص الذي سيلي أمرها بعد نبيّها؟ وما هو المنهج المتّبع في قضيّة ولاية الأمر الذي ستسير عليه؟ وما هي المعايير والمواصفات في من يلي أمرها؟ هل يعقل بأنّ الأمّة لا تفكر في هذا الموضوع ولا تحدث هناك تساؤلات من هذا النوع؟!.

هذا لا يمكن أبدًا، بل هو متنافٍ مع الفطرة البشريّة، ومتنافٍ مع العرب بالذات الذين حكى الله عنهم بأنّهم كانوا كثيري الأسئلة والتساؤلات وفي قضايا هامشيّة فما بالك بمثل هذه القضيّة المهمّة والخطيرة، والتي تمثّل أخطر قضيّة.

ألم يحكِ الله عن العرب أنّهم كانوا كثيري التساؤلات حتّى أمام القضايا البديهيّة: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾[١]، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾[٢]، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾[٣]، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ١٨٩.

(٢) سورة **البقرة**، الآية ٢١٥.

(٣) سورة **البقرة**، الآية ٢١٧.

ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ﴾(١)، ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمۡۖ﴾(٢)، ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ﴾(٣)، ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ﴾(٤)، ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ﴾(٥)، ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِۖ﴾(٦)، ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ﴾(٧)، ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾(٨)، ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَن ذِي ٱلۡقَرۡنَيۡنِۖ﴾(٩)، وغيرها من الأسئلة التي أوردها **القرآن** عن العرب التي لا داعي لها في الأغلب، لكن نفهم من هذا روحيّة التساؤل التي كان يحملها العربي، فمن كانوا بهذه الروحيّة هل يمكن ألّا يتبادر إلى ذهن أحدهم أن يسأل النبي ﷺ عمَّن يلي أمر الأمّة من بعده؟! وهي قضيّة جديرة بالسؤال والتساؤل ولو لعشرات المرّات! لكنّ النبي ﷺ في الواقع لم يترك للعرب هؤلاء مجالًا للتساؤل في هذه القضيّة بل بيّنها لهم على أرقى مستوى خلال فترة الرسالة وتوّج كلّ ذلك بالإعلان الرسمي في يوم الولاية في غدير خمّ.

يقول السيّد عبد الملك (حفظه الله) في مناسبة يوم الولاية [١٤٣٧هـ]:

يوم الثامن عشر من شهر ذي الحجّة شهد حدثًا تاريخيًّا إسلاميًّا عظيمًا ومهمًّا وأساسيًّا ذلك كان أثناء عودة النبي ﷺ من حجّة الوداع. وحجّة الوداع هي كما أسماها النبي ﷺ ودّع فيها أمّته وقال في خطبته الشهيرة وهو في الحجّ «ولعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا».

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ٢١٩.
(٢) سورة **المائدة**، الآية ٤.
(٣) سورة **الأنفال**، الآية ١.
(٤) سورة **الإسراء**، الآية ٨٥.
(٥) سورة **طه**، الآية ١٠٥.
(٦) سورة **البقرة**، الآية ٢٢٢.
(٧) سورة **البقرة**، الآية ٢٢٠.
(٨) سورة **الأعراف**، الآية ١٨٧.
(٩) سورة **الكهف**، الآية ٨٣.

فالنبيّ ﷺ كان في أدائه الرسالي بحركته في الأمّة، في خطاباته واهتماماته وتوجّهاته يعيش في وجدانه الاستعداد للرحيل من هذه الحياة وهو فيما يقدّم للأمّة وفيما يوجّه به ويخاطبهم في المراحل النهائيّة لإتمام الرسالة الإلهيّة في تبليغه ﷺ ونشاطه التبليغي في أوساط الأمّة، وكان يحسّس الأمّة بهذا حينما يقول: «إنّي أوشك أن أدعى فأجيب» فأجيب الله، وأرحل إلى جواره، ويستضيفني إلى رحمته.

ويشعر الأمّة بأنّ ما سيقدّمه لهم وما يقوله هو في غاية الأهميّة لما بعد رحيله من هذه الحياة، وارتقائه وعروجه إلى رحمة الله سبحانه وتعالى، أي أنّ ما كان يقدّمه في المرحلة والمحطّة الأخيرة من محطّاته الرساليّة هو مهمّ جدًّا لما بعد ولمستقبل الأمّة.

ولذلك أنزل الرسول ﷺ أثناء عودته من مكّة من الحجّ، وفي طريقه إلى المدينة، وفي منطقة بالقرب من [الجحفة] في منطقة في وادي غدير خمّ الحجيج وخاطبهم بما قد ذكرنا نصّه سابقًا وبالتفصيل.

يقول السيّد حسين (رضوان الله عليه):

إنّ ما حصل في هذا اليوم التاريخي (يوم الولاية) لم يكن مجرّد إعلان خلافة؛ فكلمة مولى وكلمة وليّ هي أبلغ وأوسع وأشمل من كلمة خليفة، والنبيّ ﷺ أعطى الإمام عليًّا عليه السلام أوسع من لو قال هذا خليفتكم أو هذا خليفتي من بعدي، بل عبّر: «من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه» أشمل بكثير من كلمة هذا هو الخليفة من بعدي. الخليفة من بعدي يشير إلى منصب سياسي فقط، يدير شأن الأمّة إلى أن تنتهي حياته، لا، هنا أعطاه كامل المهمّة التي كان يقوم بها الرسول ﷺ في حياته إلّا النبوّة. أعطى هذه المكانة للإمام علي لأنّ ولايته هي ولاية أمر مرجعيّة دينيّة وقيادة سياسيّة وعلم وقدوة وأسوة وكلّ ما كان للنبي ﷺ في هذا المجال إلّا النبوّة، لم تكن المسألة فقط مجرّد قيادة مثل ولاية عهد، لماذا؟ لأنّ الدولة في نظر الإسلام ليست مجرّد تدبير شأن بل هي أيضًا هداية وقيادة، تربية وقيادة وفق الآية القرآنيّة: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ

﴿يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ﴾[١] هداة في منطقهم، في عملهم، ويعدلون بين الأمّة أي يقيمون العدل يعني دولة إدارة وهداية.

فلهذا نفهم قيمة كلمة: (وليّ)، هو من يتولّى مختلف الشؤون المتعلّقة بك في إطار المهمّة الكبرى المنوطة بك في مختلف مجالات الحياة وأنت تتحرّك. هي نفسها ما أعطاه الرسول ﷺ عليًّا عليه السلام يوم الغدير عندما قال: «فمن كنت مولاه فهذا عليّ مولاه».

يقال: الإمامة رئاسة عامّة، أي إقامة للحدود، والحدود لا تعني بالضرورة نقتُل هذا، ونقطع يد هذا، ونجلد هذا. ولاية الأمر تختلف الأمر وفيها من الأمور العامّة، هي المهام الواسعة في مقام تزكية نفسك، في مقام أداء مسؤوليّاتك في الحياة، هذه هي الأمور (من لم يهتمّ بأمر المسلمين فليس منهم) ماذا يعني هنا كلمة (أمر)؟ هل تعني من لم يهتمّ بأن يأمر المسلمين فإذا لم ينفّذوا ضرَبهم؟ هل هي هكذا؟

بأمر المسلمين تعني بأمورهم التي يجب أن تكون محطّ اهتمامه، أمورهم تلك المتعلّقة بنفوسهم لتزكو، تلك المتعلّقة بحياتهم لتُبنى وتعمر على الصلاح والعزّة، تلك الأمور التي يجب أن تتهيّأ لهذه الأمّة وتجتمع عليها لتكون أمّة عزيزة قويّة، فـ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾[٢]، نفسك هذه ما هي؟ ماذا يُراد لها؟ ألا يُراد لها أن تتعلّم وتزكو، أن تنطلق قائمة بالقسط، أن تكون عضوًا في حزب الله، أن تكون جنديًّا من أنصار الله؟ حسنًا، من الذي سيبنيها على هذا النحو؟ دع النبي يبنيها على هذا النحو، فهو أولى بك من نفسك؛ لأنّك أنت لن تستطيع، لا تملك أيضًا أن تجعل من نفسك هذا الإنسان على هذا النحو ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا

---

(١) سورة **الأعراف**، الآية ١٨١.

(٢) سورة **الأحزاب**، الآية ٦.

مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾[١]، يعلّمهم ويزكّيهم، وقد تكرّرت هذه الآية في موضع آخر ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ﴾[٢] أي يعلّم نفسك، ويزكّيها، ويؤهّلها، ويبني، ويثقّفها، ويُنوِّرُها.

النبي يتولّى هذه المهام ليجعل منك عنصرًا صالحًا في هذه الدنيا؛ بدل ماذا؟ بدل أن تصبح عنصرًا باطلًا، عنصر ضلال، عنصرًا مُخرِّبًا، وخبيثًا، أين مكان الخبيث؟ جهنّم، أليس كذلك؟ في يوم القيامة: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجۡعَلَ ٱلۡخَبِيثَ بَعۡضَهُۥ عَلَىٰ بَعۡضٖ فَيَرۡكُمَهُۥ جَمِيعٗا فَيَجۡعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَۚ﴾[٣] أليس كذلك؟

أنت في هذه الدنيا إذا لم تجعل وليَّك هو الله ورسوله والذين آمنوا، ووليّك بمعنى تسلّم له نفسك، ليعلّمها ويزكّيها، ويُؤهِّلُها لتكون من حزب الله، لتكون من أنصار الله ﴿فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾[٤]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾[٥]، ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾[٦] فتكون ممّن يقومون بالقسط، فيؤدّبونك، ويُربّونك، ويثقّفونك، إذا لم تسلّم نفسك له وتشعر بأنّه أولى بنفسك منك، أو أولى بك من نفسك - التعبير متقارب – وإلّا فستصبح ماذا؟ شيطانًا وضالًّا، وفي الأخير تتحوّل إلى خبيث، ويكون مصيرك جهنّم[٧].

(١) سورة **آل عمران**، الآية ١٦٤.

(٢) سورة **البقرة**، الآية ١٢٩.

(٣) سورة **الأنفال**، الآية ٣٧.

(٤) سورة **المائدة**، الآية ٥٦.

(٥) سورة **الصف**، الآية ١٤.

(٦) سورة **النساء**، الآية ١٣٥.

(٧) السيّد حسين بدر الدين الحوثي في الدرس الثالث من سورة **المائدة**.

والولاء للإمام علي، كما يقول الإمام الهادي، يعتبر ركنًا لا بدّ منه بالنسبة للإنسان المسلم، ولا بّد أن يَدِينَ بالولاء لعليّ كما نَصّ على هذا في مقدّمة (الأحكام) وفي داخل رسائله في (المجموعة الفاخرة).

وقد جعل الرسول ﷺ - قبل ذلك كلّه - حُبَّ عليّ إيمانًا وبغضه نفاقًا، بل جعله قَسِيمَ النار والجنّة كما ورد في الأثر، وعندما استبعد بعض الناس أن يكون عليّ قَسِيمَ النار، فقال أحد العلماء[١]: ألم يقل فيه الرسول ﷺ: «لا يُحبّك إلّا مؤمن ولا يبغضك إلّا منافق»؟ قالوا: بلى. قال: فأين المؤمن؟ قالوا: في الجنّة. قال: فأين المنافق؟ قالوا: في النار. قال: إذًا صحّ أن يكون عليّ قَسِيم النار[٢] يعني من يبغضه إلى النار ومن يحبّه إلى الجنّة. فلنستلهم من الإمام علي عليه السلام الرؤى والتوجيهات الحكيمة في مختلف الميادين والمجالات[٣].

فحينما تختلف الأمّة وتتنوّع اتجاهاتها وأفكارها ونظرتها إلى الدين وتحدث التباينات والاختلافات، يكون علي عليه السلام الامتداد المضمون والأوثق والسليم والأعلى والأرقى والأنقى والحقّ «عليّ مع الحقّ والحقّ مع عليّ». وحينما تختلف الأمّة على القرآن في مفاهيمه ودلالات تفسيره ومضمونه العملي يكون «عليّ مع القرآن والقرآن مع عليّ»، وحينما تختلف على نبيّها في توجّهاته وأفكاره وسيرته وسلوكه يكون «يا عليّ أنت منّي وأنا منك» يعني هو امتدادي الذي يعبّر عنّي، وعن أخلاقي، وسلوكي، وسيرتي، إذا اختلفت الأمّة عنّي.

وهكذا ثبَّت النبيّ ﷺ ببلاغ ربّه وبأمره هذه الرؤية، وهذا الدور المستقبلي للإمام علي عليه السلام رحمة بالأمّة.

(١) هو أحمد بن حنبل.

(٢) رواه بلفظ مقارب السيّد العلّامة علي بن محمّد العجري في **مفتاح السعادة**.

(٣) السيّد حسين بدر الدين الحوثي في ذكرى استشهاد الإمام علي عليه السلام.

والإمام علي عليه السلام في واقعه وسيرته وشخصيّته العظيمة وممارساته، وسياساته، وأخلاقه، وتصرّفاته، وأدائه حتّى في الظروف والتحدّيات والمشاكل الكبيرة تعاطى مع كل ذلك بكلّ حكمة، وراعى فيها مصلحة الأمّة، وركّز على خيرها، وسعى إلى ما فيه منفعة لها، وعانى بشكل رهيب جدًّا، وفعلًا لو نتخيّل أنّ عليًّا لم يكن له هذا الدور، كيف ستعصف بالأمّة الأحداث وتؤثّر بشكل رهيب جدًّا على رسالة الله سبحانه وتعالى.

يقول السيّد حسين (رضوان الله عليه):

نحن متأكّدون والمسلمون جميعًا يعرفون أنّ الإمام عليًّا عليه السلام أُقْصِيَ، وأُزِيْحَ، وأُبْعِدَ عن المقام الذي اختصّه به الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وحلّ محلّه أبو بكر، ثمّ عمر، ثمّ عثمان.

وحين يُقْصَى عليّ على جنب، فبالتأكيد أنّ القرآن أُقصِيَ معه أيضًا؛ لأنّه قرين القرآن ولا يمكن أن تتصوّر أنّ أحدًا من الناس بإمكانه أن يُقصيَ عليًّا جانبًا ويبقى القرآن يعمل، ويبقى القرآن حيًّا، ويبقى هو مطبّقًا للقرآن، ويبقى هو على منهجيّة القرآن، لا يمكن ذلك، لو قلنا ذلك لكنّا مكذّبين بهذه المقارنة المؤكّدة، الصريحة، التي قالها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث المتواتر والمعروف عند الجميع.

لذا، كان طبيعيًّا بعد ذلك الانحراف أن نرى العظماء، وأعلام الدين، والصادقين يسقطون واحدًا تلو الآخر داخل هذه الأمّة، ونرى الكاذبين المنحرفين هم من يَلُون أمر هذه الأمّة، ويتحكّمون في شؤونها، وقدّموا الدين بشكل آخر لا يرضاه الله ولا رسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

يصبح هذا طبيعيًّا، أن ترى معاوية يحكم البلاد الإسلاميّة، بعد أن رأيت أمير المؤمنين قرين القرآن سقط شهيدًا في محرابه؛ لأنّه لولا أبو بكر لما كان

عمر، ولولا عمر لما كان عثمان، ولولا عثمان لما كان معاوية، هذا شيء مؤكّد لا شكّ فيه[١].

وهل برأيكم الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ توقّف عن تذكير الناس؟ لم يتوقّف إطلاقًا بالرغم من إقصائه وإبعاده عن المشهد السياسي طول فترة خلافة أبي بكر، وعُمر، وعثمان، لكن لم يكن يوجَد أنصار، حاول أن يتحرّكوا فلم تحصل استجابة. حصل تأثير لتبقى الفكرة، لتبقى العقيدة، لتبقى الرؤية قائمة في الأمة، مثل ما هو حاصل إلى الآن[٢].

إنّ إقصاء الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ لا يعني لنا شيئًا، يقول السيّد حسين (رضوان الله عليه):

«لن يغيّر إقصاء علي عَلَيْهِ السَّلَامُ من مسيرة عملنا، نظلّ مع منهجيّة علي أينما كان، نحن لا نلتفت إلى الكراسي، إلى العروش، إلى القصور، فمن وجدناه في سُدَّة الحكم قلنا: ذلك أمير المؤمنين، من وجدناه في قصر الخلافة قلنا: ذلك خليفة رسول ربّ العالمين. لا.

أمير المؤمنين، خليفة رسول ربّ العالمين، هو قرين القرآن هو ذلك الرجل، الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ يوم أُقصِي، ويوم عاش سنين طويلة مرارة الألم، وهو يرى هذه الأمة قد نخرها الانحراف وأكل قِيَمها، وعظمة مبادئها، ثمّ في الأخير نراه يسقط شهيدًا في محراب عبادته.

لنقول لأنفسنا مهما طَبّل الآخرون فقالوا عن أولئك: (الصّدّيق، الفاروق، ذي النورين، كاتب الوحي) عناوين من هذه الألقاب الضخمة، لا نغترّ بها أبدًا؛ لأن كلّ هؤلاء قد أقصوا عليًّا، ونحن لا نشكّ جميعًا أنّهم سمعوا جميعًا أنّ الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ نصّب عليًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ من بعده وهو خليفته وهو الوليّ.

---

(١) استشهاد الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(٢) محاضرة الشعار سلاح وموقف للسيّد حسين بدر الدين الحوثي.

أحاديث كثيرة من هذا القبيل سمعوها، وعلموها، وسمعناها نحن من بعدهم، وسمعها أيضًا أشياعهم من بعدهم، أولئك الذين قدّموهم من بعد (السلف الصالح)؛ اللقب الكبير الذي أطلقوه ليشيروا لتمسّكهم بالرسول ﷺ وهو منهم بريء.

لقد رسم الرسول ﷺ القدوة والعَلَم والسلف الصالح لنا في هذه الأحاديث التي يعرفها الناس جميعًا، يعرفها علماء المسلمين، يعرفها المحدّثون، والكثير من المثقّفين، ولربّما يسمعها الكثير أيضًا من عامّة الناس في كلّ زمان ومكان.

ونحن على يقين بأنّ الأمّة لن تنجح، ولن تخرج من أزماتها، ولن تنقذ من الوضعيّة المهينة التي تعيشها إلّا بالعودة إلى أهل البيت «ما إن تمسّكتم به لن تضلّوا» فإذا لم تتمسّكوا ستضلّون، سنن إلهيّة ثابتة. حينئذٍ ليتعبّد المتعبدون، وليدع الداعون، وليتصدّق المتصدّقون، وليتركّع المتركّعون، لن يستجيب لهم إلّا بالعودة إلى ما أرشدهم إليهم.

أوليس المسلمون يحجّون كل عام؟ ويدعون الله هناك على اليهود والنصارى وعلى إسرائيل؟ أوليسوا في المساجد، في شهر رمضان، وفي غيره يدعون من مكبّرات الصوت، على إسرائيل، وأمريكا، واليهود والنصارى؛ لم يمسسهم سوء، وإذا ما مسّهم شيء هناك فلن يكون ما يمسّهم فيه إنقاذ لنا هنا.

إنّ الله قد هدى الناس، وعمل على إنقاذهم، وأرشدهم إلى ما فيه صلاحهم من قبل أن توجد إسرائيل بمئات السنين عندما قال على لسان نبيّه ﷺ: «إنّي تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتم بهما لن تضلّوا من بعدي أبدًا» والضلال هنا الضلال عن الهداية، الضلال في الحياة، الضياع، الجهل، التخلّف، الذلّة، الاستكانة، التفرّق، التمزّق[١].

(١) محاضرة استشهاد الإمام علي عليه السلام للسيّد حسين بدر الدين.

يقول السيّد حسين (رضوان الله عليه):

«لاحظ موقف أمير المؤمنين لتعرف كيف هي المسألة، وما هو موقف الإمام علي من كلّ ما جرى عندما يقول البعض: لماذا لم يتحرّك الإمام علي ويذهب ليقاتلهم ولو ضحّى بنفسه، لو لم يكن إلّا هو وأولاده؟.

لا بدّ أن تلاحظ أنّ هذا المجتمع قدّم له هدى الله على أرقى مستوى، ومن الهدى الذي قدم له على أرقى مستوى أن قال لهم: تمسّكوا بهذا الشخص (علي) وهم يعرفون عليًّا من أوّل يوم في الإسلام، يعرفون عليًّا في معارك الإسلام، يعرفونه في كلّ المواطن، يعرفون مدى اهتمام النبي ﷺ به.

لم يقل: «من كنت مولاه فهذا عليٌّ مولاه» في مجلس معين، أو في زاوية من زوايا المسجد، أو لأربعة أشخاص أو خمسة، بل أعلن الرسول ﷺ ذلك في يوم ظاهر شاهر، والكلّ قد سمع ذلك ووعاه، وكلّ ما في المكان يشهد عليه.

ذلك المجتمع الذي هذا سمع الكلام من النبي ﷺ هل يستطيع أحد أن يفرض عليه موقفًا آخر؟ هل كان لدى أبي بكر وعمر مثلًا، وتلك المجموعة ما يفرضونه أمام هذا البيان؟.

إذًا، موقف الإمام علي هو موقف قرآني، من بعد ما يكون هذا المجتمع سمع كل شيء، وفهم كل شيء، وذكّرهم هو، وذكّرتهم الزهراء هي أيضًا، وذكّرهم العوّام، وذكّرهم آخرون، لم يسمعوا. إذًا، فليجرّبوا بأنفسهم غيره. هذه سنّة إلهيّة داخل الأمم، إذا لم يستجب الناس لهدى الله فليجرّبوا أنفسهم، وسيذوقون العواقب السيّئة نتيجة تقصيرهم ومخالفتهم.

ألم يقم الإمام علي بكلّ ما لديه من وسائل؟ حتّى في الجانب العسكري قال هو: «فطفقت أرتئي بين أن أصول بيدٍ جذَّاء» لم يكن لديه أنصار بالشكل الكافي.. الكثير بسطاء أثّروا عليهم؟ ونحن نقول أكثر من مرة: يجب أن نفهم الأمور على هذا النحو حتى لا نقع في الإحراجات التي وقع فيها الآخرون ما

بين مقدّس للصحابة على الرغم ممّا هم عليه، وما بين من له موقف سلبي تمامًا يعتبر بأنّهم كفروا بما تعنيه الكلمة.

نقول: لا، يوجد، حالة أخرى هي حالة البساطة، حالة اللامبالاة، التي يمكن أن تحصل مع إيمانك بالقضيّة.

كلّ الناس كانوا مؤمنين بأنّ الرسول ﷺ قال هكذا لعلي عليه السلام في (يوم الغدير) ويعرفون ما قال سابقًا، لكن لم يعطوا القضيّة الأهميّة اللائقة بها، كانوا ضحية للآخرين عندما ضلّوا، والتضليل عادة في مواقف معيّنة لا يلامس القضيّة الأساسية لديك فيدفعك إلى أن تكفر بها.

هل قدّموا لهم أن يكفروا بما قاله الرسول ﷺ لعلي؟ لا، قدّموا أسلوبًا آخر (علي قد قتل أناسًا وعليٌّ كذا، وهناك أناس آخرون يمكن نجرّبهم والمقصود واحد ورسول الله همّه واحد، وهؤلاء الناس تعرفونهم كانوا قريبين من رسول الله) وأشياء من هذه تجعلك تتقبّل المسألة التي تعتبر مخالفة، ولا يطلب منك الكفر بما سمعته من النبي، وهذه من أخطر أساليب الضلال.

لم يسمعوا للإمام عليّ ولم يتفهّموا!. فتركهم يجرّبون، جرّبوا أبا بكر، عمر، عثمان، وفي الأخير ذاقوا وبال أمرهم، وأُهينوا، أُهين الأنصار أوّلًا، أولئك الذين اجتمعوا في السقيفة! ألم يكن المفروض لأولئك أن يجتمعوا مع علي؟ لا أن يجتمعوا هناك وحدَهم، ويأتمروا وحدَهم على أساس أنّه ربّما لا تتمّ المسألة لعلي! لأنّ المفترض أن يجلسوا هم معه تتمّ.

ما نفعتهم هذه، ظُلِموا، وأهينوا واجتيحت المدينة اجتياحًا رهيبًا جدًّا قُتِل حوالي سبعمئة شخص أو أكثر منهم، وانتهكت أعراضهم ودُمِّرت بيوتهم، قضيّة رهيبة جدًّا حصلت لهم، أي: هذه القضيّة قائمة في دين الله، هذا هدى الله هل الناس سيقبلونه؟ يجب أن يقبلوه وإلّا فيجب أن يعرفوا بأنّ البديل هو الخزي، والعواقب السيّئة في الدنيا والآخرة. و﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي

ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾[١] إذا كنت تريد أن تستقيم فستذوق أنت العواقب السيّئة للغيّ، وللضلال.

يستطيع الله سبحانه وتعالى في المشيئة أن يوقفهم، أن يجمّد أيديهم؟ وقد قدّم لهم ما كان يجعل أيديهم بنّاءة، وخيّرة، وليست أيدي تتحوّل إلى خلق قتال بعد أنبياء الله بسبب مشاققتهم، وخلافهم وبغيهم، يعني: العبرة في هذا هو أنّنا نحن ننظر، وكلّ الناس ينظرون وهكذا تكون عاقبة من يخالفون هدى الله، وتكون هي في حدّ ذاتها فيها هدى للناس.

﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ﴾[٢] لتبقى القضيّة من واقع الحال، من واقع حياة الأمم شاهدًا، أو قضيّة يهتدون بها، الكثير الذين لا يهتمّون سيفهمون أنّهم سيكونون ضحية للمضلّين الذين هم - عادة – قليلون.

أولئك البسطاء كان يمكن أن يسيروا على ما قال رسول الله ﷺ يوم الغدير، والإمام علي يحكمهم، وليس هناك أيّ مانع، ولن يشاققوا لكنّ بساطتهم منعتهم، ولهذا أجابوا الزهراء: (خشينا الفتنة يا بنت رسول الله)! أي: قد جاء كلام كثير، (وقوفنا مع الإمام علي سيؤدّي إلى اقتتال، وقد وقف مع أبي بكر آل فلان وآل فلان وعليٌّ أنتم تعرفون ربّما الناس الذين يكونون معه قد يكونون قليل، ربّما يجتمعون مع الآخرين ويؤدّي إلى اقتتال وعدوّ من خارج وغير ذلك). بهذه الطريقة جعلوا الأنصار يقولون: خشينا الفتنة. قالت لهم الزهراء: ﴿أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْۗ﴾[٣] هذه هي الفتنة»[٤].

وكلّ ما جرى فيه من العبر والدروس الكثيرة؛ وهدى للناس. فإذا كان أولئك الذين تعاملوا مع كلام رسول الله ﷺ، مع شخصه - وهو الذي

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ٢٥٦.

(٢) سورة **البقرة**، الآية ٢٥٣.

(٣) سورة **التوبة**، الآية ٤٩.

(٤) الدرس الحادي عشر من دروس شهر رمضان للسيد حسين.

كان يحدّثهم، والقرآن يتنزّل عليهم – ببساطة كهذه؛ هم مؤمنون برسول الله، والآيات التي نزلت، لكن ليس هناك تفكّر، أو تركيز، أو التزام حرفي.

كان يجب أن نلحظ كلّ تلك الأمثلة التي ضربها القرآن الكريم من خذلان الناس لأنبيائهم حين يغيبوا لأنها تعطينا وعيًا، وبصيرة، تراهم اختلفوا بعد أنبيائهم نتيجة بساطة هؤلاء، وتعمّد، وعدوانيّة، وبغي فئة معيّنة. إذًا، فيجب أن نحذر فلا نكون بسطاء، ولا نسمح لأولئك المخالفين، والمعاندين أن يكون لهم كلمة تسمع.

لهذا، أستبعد مسألة أنّ الإمام عليًّا كان يقول: (حقّي وتراثي) وأشياء من هذه! لا أعتقد أنّ هذا صحيح، وعبارة قالوها عنه: (والله لأسالمنّ ما سلمت أمور المسلمين، ولم يكن الظلم إلّا عليَّ) غير صحيحة أيضًا، بعيدة جدًّا، فهذه عبارة من لا يعرف ولاية أمر الأمّة وأهميّتها. كيف يمكن لإنسان يعرف أهميّة ولاية أمر الأمّة وعلاقتها بالاستقامة ولا يزال معتقدًا أنّها ستسلم أمور المسلمين! هل سلمت أمور المسلمين من ذلك اليوم إلى اليوم؟! ما سلمت.

إذًا ففي المسألة دروس هامّة، وعبرة للناس، تمثّل في حدّ ذاتها هدى للناس كأمثلة واقعيّة. ويأتي البعض فيقولون: ما دام الإمام علي لم يقاتلهم، إذًا فمعناه: وكأنّه رضي بهم! لا، هذه هي السنّة التي حاول أن يبيّنها لهم. لم ترضوا بما وصّى به الرسول ﷺ، إذًا فانطلقوا وجرّبوا أنفسكم، وانظروا كيف ستكون العواقب.

وهذه القضيّة أساسيّة؛ ألم يكن باستطاعة علي عليه السلام أن يمارس حكم معاوية وطريقته حين استلم الحكم وقبل ذلك؟ أيّ واحد منّا يستطيع أن يحكم الأمّة على طريقة الحكّام هؤلاء، وبكلّ بساطة، تقمع هذا، وتوزّع أموال المسلمين لهذا وذاك! يستطيع الإنسان لكن، لا، المسألة قائمة على أساس أن يكون هناك وعي عند الناس أنفسهم؛ لأنّ القضيّة مرتبطة بهم هم، أن يكونوا واعين أنّهم عندما يستجيبون، ويهتدون بهدي الله سيصل بهم إلى أعلى مستوى، وإذا ما خالفوا سيذوقون هم وبال أمرهم.

يعني: لن تكون القضيّة عاديّة أنّه فقط خالفوا، وعاندوا، وعاشوا حالة اللامبالاة، وعدم الاهتمام، ومشت الأمور طبيعيّة، سيضربون؛ لأنّها لم تقدّم ولاية الأمر في الإسلام، بالشكل الذي يحسّ الإنسان بحالة من الكبت، أو القهر، أو ضعة النفس، مثلما يحصل في ظلّ حكّام الطاغوت.

وهناك مقولة واقعيّة هي: (كيفما تكونوا يولّى عليكم) أنتم كرماء لن تقبلوا إلّا الكرماء، أنتم ليس لديكم اهتمام بالجانب هذا، أي نفوس منحطّة، لا تبالي، سيأتي لكم من نوعكم ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعۡضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضَۢا﴾[1] هذه القضيّة ثابتة، وإلّا فالإمام علي كان يستطيع أن يحكم العالم كلّه بطريقة معاوية ولا أحد يتجرّأ أن يخالفه، ولا أو يخرج عن صفّه؛ لكن كيف؟ بالخوف والظلم والأذى، وهذا ما لم يمكن أن يحصل من الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ.

يعيش الناس نفوسًا منحطّة، والنفوس المنحطّة لن تعود جديرة بأن تنهض بالمسؤوليّة. لاحظ الآن الشعوب العربيّة كيف هو واقعها؟ ألم تُضرب كرامتها من قِبل حكّامها حتّى لم يعد عندهم عزّة نفس، ولا كرامة بأن يكونوا مستعدّين أن يواجهوا العدوّ الآخر مهما كان سوءُه أبدًا؟ نفوس قد روّضت على الإذلال والإهانة، والاحتقار حتّى لم تعد تبالي من يحكمها.

فالتربية الإسلاميّة تجعل الناس في الأمّة تحمل فيها نفوسًا رفيعة، يشعرون بطمأنينة، وبتكريم، لا يخافون على أنفسهم من مجرّد كلمة تقال فيهم، لا يوجد قتل على التهمة، والظنّة، كما يعمل الآخرون؛ لأنّ النفوس الرفيعة هذه تكون هي الجديرة بأن تواجه الأعداء الخارجيّين، وترفض أيّ طغيان يريد أن يتحكّم بهم، ويفرض نفسه عليهم[2].

يقول السيّد حسين (رضوان الله عليه):

عندما كان الإمام علي يتحرّك في مواجهة أعدائه مع من ينضوون تحت لوائه كان يحذّرهم، وينذرهم، ويعطيهم رؤى، ويذكّرهم بأشياء عرفوا من بعد

---

(١) سورة **الأنعام**، الآية ١٢٩.

(٢) السيّد حسين في الدرس الحادي عشر من دروس شهر رمضان.

صحّتها، كان يقول لأهل العراق: «والله إنّي لأخشى أن يُدَال هؤلاء القوم منكم لاجتماعهم على باطلهم وتفرّقكم عن حقّكم» في هذه العبارة تجد رؤية حقيقيّة، واقعيّة، صحيحة لدى الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ في النتائج، في المسبّبات، ما خلفيّاتها؟ ما أسبابها؟.

عندما تجد الناس، وتعيش معهم، وتسأل ذا وذاك وتنظر إلى ما يمكن أن يقوله، وهو يسمع ويرى ما يعمله أعداء الله، ما هو الكلام الذي يقوله أيّ واحد منّا؟ (لعنة الله عليهم، مجرمين، الله يكفينا شرّهم).

كلّما رأوا الباطل يهيمن، والضلال يسود، والفساد ينتشر، والحقّ يضيع يتّجهون إلى محاولة أن يتداركوا أولئك ولو بتولّيهم، والبحث عن السلام من عندهم وبأيّ طريقة ترضيهم، يتصوّرون أنّ المنفذ من هناك فقط، ولا يتّجهون إلى جانب آخر إلى هذه الأمّة لبنائها، يفكّرون هذا التفكير الذي يفكّر فيه الكثير من الناس، أسالم ذلك الجانب وأتفاداه، أعطيه ما يريد من أجل ألّا يسود ما يسود، لا يهيمن، لا يحصل ما يحصل من شرّ.

إنّ الفساد ينتشر، إنّ الحقّ يضيع، إنّ الباطل يحكم ليس فقط بجهود أهل الباطل وحدهم بل بقعود أهل الحقّ. وأعتقد أنّ هذا نفسه قد يمثّل نسبة سبعين في المئة من النتائج السيّئة، لأنّ التقصير من جانب أهل الحقّ، من جانب من هم في واقعهم يمثّلون جنود الله، وهو العامل الأكبر في سيادة الباطل، في استحكام الضلال، في انتشار الباطل، في ضياع الحقّ.

من يفكّر هذا التفكير هو عليّ في هذه الكلمة عندما قال لأهل العراق: «لاجتماعهم على باطلهم وتفرّقكم عن حقّكم».

هذه من أهمّ الأشياء التي لا بدّ أن نفهمها هي هذه الرؤية: أنّنا نمثّل في قعودنا، في سكوتنا، في صمتنا، في إهمالنا، في حالة اللامبالاة التي نعيشها سبعين في المئة من عوامل سيادة الباطل وضياع الحقّ، من عوامل ظلمنا وقهرنا وإذلالنا لأنفسنا نحن.

ولهذا، يُسلّط الله الكافرين على المسلمين متى ما كانوا على هذا النحو: «لتأمرنّ بالمعروف ولتنهنّ عن المنكر أو ليسلطنّ الله عليكم شراركم فيسومونكم سوء العذاب ثمّ يدعو خياركم فلا يُستجاب لهم». لكنّك عندما تتحرّك، عندما تسير على نهج الله، وتثق به سبحانه وتعالى سيقف هو في وجه أولئك الأعداء، والحقّ بطبيعته إذا ما وجد أمّة تحمله فإنّ الباطل زَهُوْقٌ بطبيعته ﴿وَقُلْ جَاءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[١]، بل قال بصريح العبارة: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾[٢].

ويقول عن أهل الكتاب هؤلاء الذين يتسابق الزعماء على استرضائهم وتولّيهم، والدخول في اتفاقيّات أمنيّة من أجلهم، يقول عنهم: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾[٣].

فالأمّة التي تُضيّع كتابها، وما يعطيها الله من عونٍ وإمداد، تضيّع الحقّ الذي هو بطبيعته أقوى من الباطل في منطقه، وفيما يُقدّمه، ويخلقه من روحيّة ومعنويّات تكون جريمتها أكبر.

وسبق أن ذكرنا أنّ الإمام علي عليه السلام حذّر أهل العراق من تَقَاعُسهم، وحالة اللامبالاة فيهم أن يكون لأعداء الإسلام - معاوية وأهل الشام - لهم الدولة فيحكموهم، ويقهروهم، ويذلّوهم، ويضطهدوهم، ويستضعفوهم، ويقتلوا ويشرّدوا ويدمّروا؛ «لاجتماعهم على باطلهم وتفرّقكم عن حقّكم».

يجب أن تكون هكذا فكرة دافعًا لدى الإنسان، ليستشعر مسؤوليّته، يعرف سوء موقفه وهو يقعد، وهو يصمت، وهو يتقاعس، وهو يتخاذل، ويتثبط، سيعرف سوء موقفه.

---

(١) سورة **الإسراء**، الآية ٨١.

(٢) سورة **الفتح**، الآية ٢٢.

(٣) سورة **آل عمران**، الآية ١١١.

إذا لم تكن تنظر إلّا إلى جانب واحد ستقدّم نفسك وكأنّك ترى أنّه ليس من عندك أيّ خلل، بل في الأخير ستكون أنت من يلوم الله لماذا لا يكفّ عنك أولئك، وأنت في الأخير من ستنطلق لتقول لله: (اللهم أنت دمّر أولئك أمّا نحن فلا شأن لنا بهم، اللهم دمّر أولئك، اللهم أهلك أولئك، اللهم فكّ فينا من أولئك) ومتى ما حصل تسليط لك نلوم الله لماذا سلّطهم علينا؟.، لماذا أصبحنا هكذا؟! وهو قال في كتابه الكريم: ﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا﴾[1] لماذا حصل لهم سبيل؟. نحن من جعلنا لله سلطانًا: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنًا مُّبِينًا﴾[2] فيضربكم ويسلّط عليكم.

إنّ منطق **القرآن الكريم** ينسجم مع علي في مقولته هذه، ينسجم مع علي وهو يقدّم لك نماذج من أمثال علي في تاريخ البشريّة، من أنبياء الله ورسله وأوليائه، يقدّم لك نفسيّاتهم، وتفكيرهم ومشاعرهم داخل القرآن، وفي ميادين المواجهة كيف كانوا يفكّرون، حتّى في الدعاء لا تجد أنّهم كانوا ينطلقون فقط ليدعوا على أعدائهم بل كان كلّ همّهم أن يدعوا لأنفسهم؛ لأنّهم يعرفون أنّ القضيّة بالنسبة للعدوّ محسومة، إذا ما صَلُحنا نحن وكنّا بالشكل الذي نصبح جديرين بأن يقف الله معنا؛ فلذا كان دعاؤهم ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[3]، لأنّهم يعرفون أنّه متى ما تخاذل من هم في الأرض جنود الله، إذا ما قعدوا استحقّوا غضب الله، هم من يضيّعون أشياء عظيمة لا يمكن أن يمتلكها العدوّ مهما كان لديه من أسلحة وقدرات ما يمتلكه المؤمنون بالله.

ولاحظوا كمثال على هذا في فلسطين ولبنان، ألم يستطع الإسلام أن يصنع (قنابل بشريّة) فعلًا، و(بأنّ هذا هو السلاح الذي لم يستطع الأعداء أن

---

(١) سورة **النساء**، الآية ١٤١.

(٢) سورة **النساء**، الآية ١٤٤.

(٣) سورة **البقرة**، الآية ٢٥٠.

يصنعوا مثيلًا له، ولا أن يصنعوا ضدًّا له)؛ قنبلة بشريّة تنفجر فتربك جيش إسرائيل وأمنها، وتحطم اقتصادها. وهم الذين كانوا قد أضاعوا الحقّ - خاصّة بالنسبة للفلسطينيّين - وربّما هذا الجيل هو الذي يعاني، ويحمل وزرًا من أوزار الجيل الذي سبقه، الذي ضيّع الفرص الكبيرة في مواجهة اليهود يوم كانوا لا يزالون عصابات داخل فلسطين»[١].

لقد جاء الإسلام بتجربة فريدة، فيما يتعلّق بنظام الحكم، واعتبرها امتدادًا لملك الله على عباده وجسّدها النبي ﷺ حيث تجلّت في آخر حياته في أروع صورها ووضع الخطوط العامّة لهذه المسألة التي أدّت إلى الصراعات والنزاعات التي ولّدتها الاختلافات بين الأشخاص والجماعات والمدارس الفلسفيّة والأديان في هذه المسألة وأدّت إلى حروب كبيرة تركت آثارها الشنيعة على التاريخ الإنساني برمّته.

وقد كانت إحدى التجارب الفذّة الرائدة والرائعة في الحكم الإسلامي تجربة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، وإن لم تتجسّد معالمها كما كان يريد الإمام نتيجة لما كان قد وصل إليه المجتمع من انحطاط وهبوط لم يصل إليه المجتمع من قبل حتّى في أيّام الجاهليّة ولذلك كان يقول عليه السلام: «لو استوت قدماي لغيّرت أشياء»، ولكنّه عمل على تجسيد هذه التجربة ما أمكن في فترة قصيرة وعاصفة من حياته وحياة المسلمين، انتهت باستشهاده لكنّه استطاع في الحدّ الأدنى أن يرسم معالم الحكومة الإسلاميّة من خلال ما أثّر عنه وما اشتملت عليه هذه التجربة، واشتمل **نهج البلاغة** على الكثير من النصوص التي تضمّنت بعض جوانب الفكر السياسي للإمام علي. وهذا الفكر يعكس بعض ملامح هذه التجربة الرائدة في الحكم في الإسلام وأشمل هذه النصوص السياسيّة في **نهج البلاغة** وأجمعها لمسائل السياسة والإدارة هو العهد الذي زوّد به الإمام واليه على مصر مالك بن الحارث الأشتر حين ولّاه عليها.

---

(١) ذكرى استشهاد الإمام علي عليه السلام.

وهو من جلائل وصاياه وأجمعها لقوانين المعاملات المدنيّة والحقوق العامّة والتصرّفات الخاصّة فقد تضمّن هذا العهد أبرز الأمور التي تصل بالأمّة إلى الحكم الرشيد تضمن توجيهات مهمّة في السلوك الشخصي للحاكم وكيف تكون علاقة الحاكم بالرعيّة وكيف يكون وزراؤه ومستشاروه وحاشيته، وحدّد المهام، وحذّر من الظلم لعباد الله وركّز على العدالة الاجتماعيّة والإحسان إلى الرعيّة والعمل على التغيير نحو الأفضل، وحدّد الطبقات والفئات الاجتماعيّة والعلاقة بينها، ومواصفات القائد الناجح وضرورة التزامه الديني والأخلاقي والمهني والتربوي، وكيف تكون العلاقة بين القائد والجند، وكيف تكون شخصيّة القاضي ووضع الضمانات لنزاهة القضاء ووضع الخطوط العريضة في القضاء وحسن الإدارة وكيف يتمّ اختيار الكتاب والوزراء، وقسّم المهام والأعمال. ولم ينس أن يتحدّث عن مزايا التجارة والصناعة والآثار السيّئة للاحتكار، وشدّد على ضرورة الاهتمام بالفقراء والمساكين والبؤساء والمرضى والأيتام والعجزة وغير ذلك من الأصول الأساسيّة للحكم الصالح، والتي على رأسها أن يكون على صلة دائمة بالشعب وبقضاياه ليكون دائمًا على معرفة وافية بالمشاكل التي يعيشها فيبادر إلى وضع الحلول الناجعة لها.

يقول السيّد عبد الملك بدر الدين الحوثي عن العهد لمالك الأشتر:

«هذا العهد وثيقة تاريخيّة مهمّة وعظيمة تقدّم الرؤية الإسلاميّة القرآنيّة عن ولاية الأمر في الإسلام، والمشروع الديني من أساسه هو مشروع دين ودولة.

قدّم الإمام علي عليه السلام في هذا العهد المسؤوليّة في الإسلام بالشكل الذي لا تجعل من يتحرّك بهذه المسؤوليّة فوق الناس أو متسلّطًا عليهم أو هو الكاسب لنفسه وإنّما هي تقدّمه في خدمة الناس، ليس فيها شيء عائد إلى نفسه، أو مصالح نفسيّة وشخصيّة أو مكاسب معيّنة يحصل عليها هو، أو تكون نظرته إلى المسؤوليّة أنّها كما هو سائد الآن في هذا العصر وفي عصور ماضية بالنسبة لمن هم بعيدون عن منهج الله ينظرون إلى المسؤوليّة كمغنم ووسيلة تسلّط، واستعلاء على الآخرين، لا.

من البداية من نفس تحديد هذه المهام، تنظر إلى المسؤوليّة أنّها خدمة للآخرين. أنت تتحرّك في خدمة الآخرين فيما هو مصلحة لهم، فيما هو فائدة لهم، فيما هو نفع لهم، فيما هو إحسان إليهم.

وقد أراد الإمام منّا أن تكون نظرتنا إلى المسؤوليّة هكذا في دين الله هي خدمة وإحسان إلى الآخرين ليس فيها حالة تسلّط أو استعلاء ليست مغنمًا شخصيًّا.

ثمّ عندما يتحرّك الإنسان لأداء هذه المسؤوليّة بعد وضوحها أمامه، إذ هو خادم يتقلّد هذا الشرف الكبير وهو خدمة عباد الله والإحسان إليهم في شؤونهم وأمورهم وفق أسس ومبادئ مهمة جدًا»[١].

وسنورد بعض تلك النصوص مع ما استوحاه السيّد عبد الملك بدر الدين الحوثي (رضوان الله عليه) من هذه النصوص المهمّة.

بدأ الإمام علي عليه السلام حديثه في هذا العهد بقوله:

«بسم الله الرحمن الرحيم.. هذا ما أمر به عبد الله، عليٌّ أمير المؤمنين مالكَ بنَ الحارث الأشتر في عهده إليه حين ولّاه مصر: جباية خراجها، وجهاد عدوّها، واستصلاح أهلها، وعمارة بلادها».

يقول السيّد عبد الملك (رضوان الله عليه):

«هنا قدّم الإمام عليه السلام صورة واضحة عن المهام الأساسيّة للولاية في الإسلام، الشؤون كلّها، شؤون المسؤوليّة في الإسلام بكلّ جوانبها، سواءً الجانب المالي، (جباية خراجها) أو الجانب الجهادي والعسكري، (جهاد عدوّها) أو الجوانب الأخرى التي تشمل جوانب ثقافيّة وتربويّة ودائرة واسعة (واستصلاح أهلها)، عبارة تشمل كلّ ما فيه صلاحهم سواءً في الواقع الديني أو الواقع الدنيوي، (وعمارة بلادها) تشمل الجوانب الخدميّة كلّها».

(١) دروس من عهد الأشتر للسيّد عبد الملك بدر الدين الحوثي.

وممّا ورد في هذا العهد قول الإمام عليه السلام:

«وأشعر قلبك الرحمة للرعيّة والمحبّة لهم واللطف بهم ولا تكوننّ عليهم سبعًا ضاريًا تغتنم أكلهم فإنّهم صنفان إمّا أخ لك في الدين، وإمّا نظير لك في الخلق».

وحول هذا النص يقول السيّد عبد الملك (رضوان الله عليه):

«يقول الإمام علي عليه السلام الناس صنفان: إمّا أخ لك في الدين وتنظر إليه هكذا كأخ على أنّه ماذا؟ أخ تجمعكما أخوّة الدين وأنّ انتماءه معك إلى دين واحد يفرض له حقوقًا عليك في تعاملك، في نظرتك إليه، في اهتمامك به.

أو أنّه إنسان يجمعك به جامع آخر هو الإنسانيّة؛ إنسان له نفس المشاعر، نفس الكرامة.

لديك مع الناس رابطتان: إمّا رابطة الدين، أو رابطة الإنسانيّة، رابطة الدين أنت والآخرين في مقام أخوّة الدين. وهذه الرابطة لها حقوق ويترتّب عليها مسؤوليّات، وكذلك رابطة الإنسانيّة.

لا تنظر إلى الناس نظرة احتقار بما أنّك سترى منهم أخطاء أو تصرّفات ومواقف سيّئة فأنت سريع البادرة، سريع السطوة، سريع الغضب، سريع الانتقام، سريع المؤاخذة. لا. اعرف أنّهم من واقعهم الإنساني يحصل منهم أخطاء، لا تنظر إلى المجتمع كمجتمع معصوم.. ثمّ تكون مواقف الإنسان قائمة على أساس المؤاخذة على الصغيرة والكبيرة والانتقام والمقاصصة في كلّ شيء، لا. «يفرط منهم الزلل وتعرض لهم العلل ويؤتى على أيديهم في العمد والخطأ فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحبّ أن يعطيك الله من عفوه وصفحه».

«يركّز الإسلام في المقام الأوّل على التربية قبل أن يركّز على العقاب، ويتعامل مع المجتمع المسلم في المقام الأوّل على أساس التربية، ومشروع الإسلام مشروع واسع لإصلاح الناس وحتّى كلّ نظمه نظم تكامل، تهيّئ أن يكون هناك واقعٌ صالحٌ.

مثلًا في معالجة حالات السرقة: مشروع الإسلام مشروع واسع مثلًا فيه المشروع الروحي والتربوي، والإيماني، يعزّز عند الإنسان الاستقامة، والخوف من الله، واستشعار المسؤوليّة أمامه تعالى، والمؤاخذة الإلهيّة فيكون زاجرًا للإنسان عن السقوط، تنمية مكارم الأخلاق، والعزّة والكرامة، فيترفّع عن سفاسف الأمور، وعن مساوئ الأخلاق.

أيضًا: هناك جانب آخر النظام المالي في الإسلام يهيّئ للإنسان الحياة الكريمة بحيث لا يسقط في مثل هذا الذنب إلّا نتيجة انحطاط في نفسيّته، وإلّا فالمشروع الإسلامي متكامل يلحظ هذا الجانب، وهكذا بقيّة المجالات.

يأتي مشروع الإسلام مشروعًا تكامليًّا لاستصلاح الناس، لا يلحظ جانبًا ثمّ يهمل بقيّة الجوانب، وبالتالي لا تكون قضيّة العقاب والمؤاخذة هي الوسيلة الوحيدة والأساسيّة وليس هناك وسيلة أخرى أو طريقة ثانية.

فلا تكون النظرة إلى استصلاح الناس هي مسألة القسوة والحساب والعقاب، هذه لا تكون الوسيلة الرئيسيّة التي يركّز الإنسان عليها، والمسألة الأساسيّة المعتمدة في الإسلام.

مشروع الإسلام مشروع واسع جدًّا وفيه جوانب متكاملة لاستصلاح الإنسان، وجانب العقاب هو جانب واحد فقط وله مقاماته، مع ملاحظة الجوانب الأخرى.

المسألة الثانية: يتذكّر الإنسان نفسه، الإنسان وهو في واقع المسؤوليّة أيًّا كان يأتي منه أخطأ، هو بنفسه يأتي منه الخطأ، يأتي منه التقصير، القصور، وهو في حالته النفسيّة يقصّر، يخطئ، وهو محاسب أمام الله يتذكّر مسؤوليّته ماذا يكون أمله في الله؟ وكيف رجاؤه نحو الله؟.

ألا يطلب من الله العفو وأمله بذلك؟ فمثل ما أنت وأنت في مقام الخطأ، ومقام التقصير موجّه آمالك نحو الله أن يعفو عنك، أيضًا يكون عندك أنت توجّه هكذا نحو عباد الله مثل ما ترى حاجتك إلى عفو الله، وإلى مغفرته، وإلى لطفه، وأنت في مقام الأخطاء وفي مقام التقصير، وتشعر بهذه الحاجة وهذا أمل لديك أمل تعيشه دائمًا، تأمل من الله، ترجو الله دائمًا ألّا

يؤاخذك، ولا يعاقبك على ما يأتي منك من أخطاء أو تقصير، فأنت كذلك تجاه الناس قدّم لهم من العفو والصفح مثل أملك في الله، ورجائك أن يعطيك من عفوه وصفحه على أخطائك، وعلى تقصيرك».

وممّا ورد في عهده لمالك الأشتر:

«وَأَنَّ النَّاسَ يَنْظُرُونَ مِنْ أُمُورِكَ فِي مِثْلِ مَا كُنْتَ تَنْظُرُ فِيهِ مِنْ أُمُورِ الْوُلَاةِ قَبْلَكَ، وَيَقُولُونَ فِيكَ مَا كُنْتَ تَقُولُ فِيهِمْ؛ وَإِنَّمَا يُسْتَدَلُّ عَلَى الصَّالِحِينَ بِمَا يُجْرِي الله لَهُمْ عَلَى أَلْسُنِ عِبَادِهِ؛ فَلْيَكُنْ أَحَبَّ الذَّخَائِرِ إِلَيْكَ ذَخِيرَةً الْعَمَلُ الصَّالِحُ؛ فَامْلِكْ هَوَاكَ، وَشُحَّ بِنَفْسِكَ[١] عَمَّا لَا يَحِلُّ لَكَ؛ فَإِنَّ الشُّحَّ بِالنَّفْسِ الْإِنْصَافُ مِنْهَا فِيمَا أَحَبَّتْ أَوْ كَرِهَتْ.

وَأَمَّا بَعْدَ هَذَا، فَلَا تُطَوِّلَنَّ احْتِجَابَكَ عَنْ رَعِيَّتِكَ؛ فَإِنَّ احْتِجَابَ الْوُلَاةِ عَنِ الرَّعِيَّةِ شُعْبَةٌ مِنَ الضِّيقِ، وَقِلَّةُ عِلْمٍ بِالأُمُورِ، وَالاحْتِجَابُ مِنْهُمْ يَقْطَعُ عَنْهُمْ عِلْمَ مَا احْتَجَبُوا دُونَهُ؛ فَيَصْغُرُ عِندَهُمُ الْكَبِيرُ، وَيَعْظُمُ الصَّغِيرُ، وَيَقْبُحُ الْحَسَنُ، وَيَحْسُنُ الْقَبِيحُ، وَيُشَابُ الْحَقُّ بِالْبَاطِلِ! وَإِنَّمَا الْوَالِي بَشَرٌ لَا يَعْرِفُ مَا تَوَارَى عَنْهُ النَّاسُ بِهِ مِنَ الأُمُورِ، وَلَيْسَتْ عَلَى الحَقِّ سِمَاتٌ[٢] تُعْرَفُ بِهَا ضُرُوبُ الصِّدْقِ مِنَ الْكَذِبِ، وَإِنَّمَا أَنْتَ أَحَدُ رَجُلَيْنِ: إِمَّا امْرُؤٌ سَخَتْ نَفْسُكَ بِالْبَذْلِ[٣] فِي الحَقِّ؛ فَفِيمَ احْتِجَابُكَ مِنْ وَاجِبِ حَقٍّ تُعْطِيهِ، أَوْ فِعْلٍ كَرِيمٍ تُسْدِيهِ؟! أَوْ مُبْتَلَىً بِالْمَنعِ؛ فَمَا أَسْرَعَ كَفَّ النَّاسِ عَنْ مَسْأَلَتِكَ إِذَا أَيِسُوا[٤] مِنْ بَذْلِكَ! مَعَ أَنَّ أَكْثَرَ حَاجَاتِ النَّاسِ إِلَيْكَ ما لَا مَؤُونَةَ فِيهِ عَلَيْكَ: مِنْ شَكَاةِ[٥] مَظْلِمَةٍ، أَوْ طَلَبِ إِنْصَافٍ فِي مُعَامَلَةٍ.

---

(١) شُحّ بنَفْسك: ابخل بنفسك عن الوقوع في غير الحلّ، فليس الحرص على النفس إيفاءها كلّ ما تحبّ، بل من الحرص أنْ تُحْمَلَ على ما تكره.

(٢) سمات: جمع سمة - بكسر ففتح -: وهي العلامة.

(٣) البذل: العطاء.

(٤) أيِسُوا: قنطوا ويئسوا.

(٥) شكاة - بالفتح -: شكاية.

ثُمَّ إِنَّ لِلْوَالِي خَاصَّةً وبِطَانَةً: فِيهِمُ اسْتِئْثَارٌ وَتَطَاوُلٌ، وَقِلَّةُ إِنْصَافٍ فِي مُعَامَلَةٍ؛ فَاحْسِمْ[١] مَادَّةَ أُولئِكَ بِقَطْعِ أَسْبَابِ تِلْكَ الأَحْوَالِ، وَلاَ تُقْطِعَنَّ[٢] لأَحَدٍ مِنْ حَاشِيَتِكَ وَحَامَّتِكَ[٣] قَطِيعةً، وَلا يَطْمَعَنَّ مِنْكَ فِي اعْتِقَادِ[٤] عُقْدَةٍ تَضُرُّ بِمَنْ يَلِيهَا مِنَ النَّاسِ فِي شِرْبٍ[٥]، أَوْ عَمَلٍ مُشْتَرَكٍ يَحْمِلُونَ مَؤُونَتَهُ عَلَى غَيْرِهِمْ؛ فَيَكُونَ مَهْنَأُ[٦] ذلِكَ لَهُمْ دُونَكَ، وَعَيْبُهُ عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ.

وَأَلْزِمِ الْحَقَّ مَنْ لَزِمَهُ مِنَ الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ، وَكُنْ فِي ذلِكَ صَابِرًا مُحْتَسِبًا، وَاقِعًا ذلِكَ مِنْ قَرَابَتِكَ وَخَاصَّتِكَ حَيْثُ وَقَعَ، وَابْتَغِ عَاقِبَتَهُ بِمَا يَثْقُلُ عَلَيْكَ مِنْهُ؛ فَإِنَّ مَغَبَّةَ[٧] ذلِكَ مَحْمُودَةٌ.

وَإِنْ ظَنَّتِ الرَّعِيَّةُ بِكَ حَيْفًا[٨] فَأَصْحِرْ[٩] لَهُمْ بِعُذْرِكَ، وَاعْدِلْ[١٠] عَنكَ ظُنُونَهُمْ بِإِصْحَارِكَ؛ فَإِنَّ فِي ذلِكَ رِيَاضَةً[١١] مِنْكَ لِنَفْسِكَ، وَرِفْقًا بِرَعِيَّتِكَ، وَإِعْذَارًا[١٢] تَبْلُغُ فِيهِ حَاجَتَكَ مِنْ تَقْوِيمِهِمْ عَلَى الْحَقِّ.

---

(١) فاحسم: اقطع مادّة شرورهم عن الناس بقطع أسباب تعديهم، وإنّما يكون بالأخذ على أيديهم ومنعهم من التصرّف في شؤون العامّة.

(٢) الإقطاع: المنحة من الأرض، والقطعية: الممنوح منها.

(٣) الحامَّة – كالطامَّة-: الخاصة والقرابة.

(٤) الاعتقاد: الامتلاك، والعقدة - بالضمّ -: الضيعة، واعتقاد الضيعة: اقتناؤها، وإذا اقتنوا ضيعة فربّما أضرّوا بمن يليها، أي يقرب منها من الناس.

(٥) الشِّرْب - بالكسر -: هو النصيب في الماء.

(٦) مهنأ ذلك: منفعته الهنيئة.

(٧) المَغَبَّة - كَمَحَبَّة -: العاقبة.

(٨) حيفًا: ظلمًا.

(٩) أصْحِرْ لهم بعذرك: أي أبرز لهم، وبيّن عذرك فيه، وهو من الإصحار: الظهور، وأصله البروز في الصحراء.

(١٠) عَدَل الشيء عن نفسه: نحّاه عنه.

(١١) رياضة: تعويدًا لنفسك على العدل.

(١٢) الإعذار: تقديمُ العذر أو إبداؤه.

وَإِيَّاكَ وَالإِعْجَابَ بِنَفْسِكَ، وَالثِّقَةَ بِمَا يُعْجِبُكَ مِنْهَا، وَحُبَّ الإِطْرَاءِ[١]؛ فَإِنَّ ذلِكَ مِنْ أَوْثَقِ فُرَصِ الشَّيْطَانِ فِي نَفْسِهِ؛ لِيَمْحَقَ مَا يَكُونُ مِنْ إِحْسَانِ الْمُحْسِنِينَ.

وَإِيَّاكَ وَالْمَنَّ عَلَى رَعِيَّتِكَ بِإِحْسَانِكَ، أَوِ التَّزَيُّدَ[٢] فِيمَا كَانَ مِنْ فِعْلِكَ، أَوْ أَنْ تَعِدَهُمْ فَتُتْبِعَ مَوْعِدَكَ بِخُلْفِكَ؛ فَإِنَّ الْمَنَّ يُبْطِلُ الإِحْسَانَ، وَالتَّزَيُّدَ يَذْهَبُ بِنُورِ الْحَقِّ، وَالْخُلْفَ يُوجِبُ الْمَقْتَ[٣] عِنْدَ اللهِ وَالنَّاسِ؛ قَالَ اللهُ سبحانه: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[٤].

وإِيَّاكَ وَالْعَجَلَةَ بِالأُمُورِ قَبْلَ أَوَانِهَا، أَوِ التَّسَاقُطَ[٥] فِيهَا عِنْدَ إِمْكَانِهَا، أَوِ اللَّجَاجَةَ فِيهَا إِذَا تَنَكَّرَتْ[٦]، أَوِ الْوَهْنَ[٧] عَنْهَا إِذَا اسْتَوْضَحَتْ.

فَضَعْ كُلَّ أَمْرٍ مَوْضِعَهُ، وَأَوْقِعْ كُلَّ أَمْرٍ مَوْقِعَهُ. وَإِيَّاكَ وَالِاسْتِئْثَارَ[٨] بِمَا النَّاسُ فِيهِ أُسْوَةٌ[٩]، وَالتَّغَابِيَ[١٠] عَمَّا تُعْنَى بِهِ مِمَّا قَدْ وَضَحَ لِلْعُيُونِ؛ فَإِنَّهُ مَأْخُوذٌ مِنْكَ لِغَيْرِكَ، وَعَمَّا قَلِيلٍ تَنْكَشِفُ عَنْكَ أَغْطِيَةُ الأُمُورِ، وَيُنْتَصَفُ مِنْكَ لِلْمَظْلُومِ:

---

(١) الإطراء: المبالغة في الثناء.

(٢) التزيّد - كالتقيُّد -: إظهار الزيادة في الأعمال عن الواقع منها في معرض الافتخار.

(٣) المقت: البغض والسخط.

(٤) سورة **الصف**، الآية ٣.

(٥) نهيُهُ عن التساقطِ في الشيءِ الممكنِ عندَ حضورِه: نهيٌّ عن الحرصِ والجشع، قال الشنفرى:
وإنْ مُدَّتِ الأيدي إلى الزادِ لم أكنْ بأعجلِهِمْ إذْ أجشعُ القومِ أَعْجَلُ.

(٦) اللجاجة: الإصرار على النزاع. وتنكرَت: لم يعرف وجه الصواب فيها.

(٧) الوَهْن: الضعف.

(٨) الاستئثار: تخصيص النفس بزيادة.

(٩) الناس فيه أُسوة: أي متساوون.

(١٠) التغابي: التغافل.

امْلِكْ حَمِيَّةَ أَنْفِكَ[١]، وَسَوْرَةَ[٢] حَدِّكَ[٣]، وَسَطْوَةَ يَدِكَ، وَغَرْبَ[٤] لِسَانِكَ، وَاحْتَرِسْ مِنْ كُلِّ ذلِكَ: بِكَفِّ الْبَادِرَةِ[٥]، وَتَأْخِيرِ السَّطْوَةِ، حَتَّى يَسْكُنَ غَضَبُكَ فَتَمْلِكَ الاِخْتِيَارَ؛ وَلَنْ تُحْكِمَ ذلِكَ مِنْ نَفْسِكَ حَتَّى تُكْثِرَ هُمُومَكَ بِذِكْرِ الْمَعَادِ إِلَى رَبِّكَ.

وَالْوَاجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَتَذَكَّرَ مَا مَضَى لِمَنْ تَقَدَّمَكَ: مِنْ حُكُومَةٍ عَادِلَةٍ، أَوْ سُنَّةٍ فَاضِلَةٍ، أَوْ أَثَرٍ عَنْ نَبِيِّنَا ﷺ، أَوْ فَرِيضَةٍ فِي كِتَابِ اللهِ؛ فَتَقْتَدِيَ بِمَا شَاهَدْتَ مِمَّا عَمِلْنَا بِهِ فِيهَا، وَتَجْتَهِدَ لِنَفْسِكَ فِي اتِّبَاعِ مَا عَهِدْتُ إِلَيْكَ فِي عَهْدِي هذَا، وَاسْتَوْثَقْتُ بِهِ مِنَ الْحُجَّةِ لِنَفْسِي عَلَيْكَ؛ لِكَيْلَا تَكُونَ لَكَ عِلَّةٌ عِنْدَ تَسَرُّعِ نَفْسِكَ إِلَى هَوَاهَا فَلَنْ يَعْصِمَ مِنَ السُّوءِ وَلاَ يُوَفِّقَ لِلْخَيْرِ إلاَّ اللهُ تَعَالى».

كما قدّم الإمام علي عليه السلام دروسًا مهمّة لمن يصلون إلى موقع المسؤوليّة عندما آل إليه أمر الخلافة بعد فترة زمنيّة معروفة تقدّر بما يقرب من خمسة وعشرين عامًا أثبت فيها أنّه عليه السلام بمستوى المسؤوليّة، فتعامل من موقعه في الخلافة، لا طامعًا فيها ولا يعتبرها مغنمًا للتسلّط وجمع الثروة.. كلا. يعتبرها مسؤوليّة لإحقاق الحقّ لإقامة العدل، وبناء الأمّة، وهدايتها، لتزكية الأنفس، وبنائها بناءً عظيمًا.

قال عبد الله بن العبّاس: دخلت على أمير المؤمنين عليه السلام بذي قار وهو يخصف نعله، فقال لي: «ما قيمة هذا النعل؟» فقلت: لا قيمة لها. فقال عليه السلام: «والله لهي أحبّ إليّ من إمرتكم إلّا أن أقيم حقًّا أو أدفع باطلًا» لا قيمة للسلطة عند الإمام إلّا إذا كانت وسيلة لخدمة الأمّة، ولرحمة بالناس

(١) يقال: «فلانٌ حَمِيُّ الأَنْفِ»: إذا كان أبيًّا يأنفُ الضَّيْم.

(٢) السَوْرَة - بفتح السين وسكون الواو -: الحِدّة.

(٣) الحَدّة - بالفتح -: البأس.

(٤) الغَرْب - بفتح فسكون -: الحدّ تشبيهًا له بحدّ السيف ونحوه.

(٥) البادرة: ما يبدر من اللسان عند الغضب من سِباب ونحوه.

بعيدًا كلّ البعد عن الظلم، متورّعًا يخشى الله في عباده ورحيمًا بالناس وهو القائل: يتبرّأ من الظلم:

«وَاللهِ لأَنْ أَبِيتَ عَلَى حَسَكِ السَّعْدَانِ[١] مُسَهَّدًا[٢]، أَوْ أُجَرَّ فِي الأَغْلاَلِ مُصَفَّدًا[٣]، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَلْقَى اللهَ وَرَسُولَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ظَالِمًا لِبَعْضِ الْعِبَادِ، وَغَاصِبًا لِشَيْءٍ مِنَ الْحُطَامِ، وَكَيْفَ أَظْلِمُ أَحَدًا لِنَفْس يُسْرِعُ إِلَى الْبِلَى قُفُولُهَا[٤]، وَيَطُولُ فِي الثَّرَى[٥] حُلُولُهَا؟!

وَاللهِ لَقَدْ رَأَيْتُ عَقِيلًا وَقَدْ أَمْلَقَ[٦] حَتَّى اسْتماحَنِي[٧] مِنْ بُرِّكُمْ[٨] صَاعًا، وَرَأَيْتُ صِبْيَانَهُ شُعْثَ[٩] [الشُّعُورِ، غُبْرَ[١٠]] الأَلْوَانِ، مِنْ فَقْرِهِمْ، كَأَنَّمَا سُوِّدَتْ وُجُوهُهُمْ بِالْعِظْلِمِ[١١]، وَعَاوَدَنِي مُؤَكِّدًا، وَكَرَّرَ عَلَيَّ الْقَوْلَ مُرَدِّدًا، فَأَصْغَيْتُ إِلَيْهِ سَمَعِي، فَظَنَّ أَنِّي أَبِيعُهُ دِينِي، وَأَتَّبِعُ قِيَادَهُ[١٢]، مُفَارِقًا طَرِيقِي، فَأَحْمَيْتُ لَهُ حَدِيدَةً، ثُمَّ أَدْنَيْتُهَا مِنْ جِسْمِهِ لِيَعْتَبِرَ بِهَا، فَضَجَّ ضَجِيجَ ذِي دَنَف[١٣] مِنْ أَلَمِهَا، وَكَادَ أَنْ يَحْتَرِقَ مِنْ مِيسَمِهَا[١٤]، فَقُلْتُ لَهُ: ثَكِلَتْكَ الثَّوَاكِلُ[١٥]، يَا عَقِيلُ! أَتَئِنُّ مِنْ

---

(١) كأنه يريد من الحَسَك: الشوك. والسَعْدان: نبت ترعاه الابل له شوك تشبه به حلمة الثدي.

(٢) المُسَهّد: من سهّده إذا أسهره.

(٣) المصفّد: المقيّد.

(٤) قُفولها: رجوعها.

(٥) الثرى: التراب.

(٦) أمْلَقَ: افتقر أشدّ الفقر.

(٧) استماحني: استعطاني.

(٨) البُرّ: القمح

(٩) شُعْث: جمع أشْعث، وهو من الشعر المتلبد بالوسخ.

(١٠) الغُبْر ـ بضم الغين، جمع أغبر ـ: متغير اللون شاحبه.

(١١) العِظْلِم ـ كزِبْرج ـ: سواد يصبغ به، قيل هو النيلج أي النيلة.

(١٢) القِياد: ما يُقادُ به كالزمام.

(١٣) الدَنَف ـ بالتحريك ـ: المرض.

(١٤) المِيسَم ـ بكسر الميم وفتح السين ـ: المكْواة..

(١٥) ثَكِلَ ـ كفرح ـ: أصاب ثُكْلًا ـ بالضم ـ وهو فقدان الحبيب أو خاص بالولد. والثواكل: النساء.

حَدِيدَة أَحْمَاهَا إِنْسَانُهَا لِلَعِبِهِ، وَتَجُرُّنِي إِلَى نَار سَجَرَهَا جَبَّارُهَا لِغَضَبِهِ! أَتَئِنُّ مِنَ الأَذَى وَلاَ أَئِنُّ مِنْ لَظىً[١]؟!

وَأَعْجَبُ مِنْ ذلِكَ طَارِقٌ طَرَقَنَا بِمَلْفُوفَة[٢] فِي وِعَائِهَا، وَمَعْجُونَة شَنِئْتُهَا[٣]، كَأَنَّمَا عُجِنَتْ بِرِيقِ حَيَّة أَوْ قَيْئِهَا، فَقُلْتُ: أَصِلَةٌ[٤]، أَمْ زَكَاةٌ، أَمْ صَدَقَةٌ؟ فَذلِكَ مُحَرَّمٌ عَلَيْنَا أَهْلَ الْبَيْتِ! فَقَالَ: لاَ ذَا وَلاَ ذَاك، وَلكِنَّهَا هَدِيَّةٌ، فَقُلْتُ: هَبِلَتْكَ الْهَبُولُ[٥]! أَعَنْ دِينِ اللهِ أَتَيْتَنِي لِتَخْدَعَنِي؟ أَمُخْتَبِطٌ[٦] [أَنْتَ] أَمْ ذُوجِنَّة[٧]، أَمْ تَهْجُرُ[٨]؟ وَاللهِ لَوْ أُعْطِيتُ الأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ بِمَا تَحْتَ أَفْلاَكِهَا، عَلَى أَنْ أَعْصِيَ اللهَ فِي نَمْلَة أَسْلُبُهَا جِلْبَ[٩] شَعِيرَة مَا فَعَلْتُهُ، وَإِنَّ دُنْيَاكُمْ عِنْدِي لأَهْوَنُ مِنْ وَرَقَة فِي فَمِ جَرَادَة تَقْضَمُهَا[١٠]، مَا لِعَلِيّ وَلِنَعِيم يَفْنَى، وَلَذَّة لاَ تَبْقَى!

نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ سُبَاتِ الْعَقْلِ، وَقُبْحِ الزَّلَلِ[١١]، وَبِهِ نَسْتَعِينُ.

وعندما كان يقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين لم يقاتل لتثبيت سلطان، ولا طمعًا في جاه، ولا طمعًا في مال، وهو القائل: «اللهمَّ إِنَّك تَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنِ الَّذِي كَانَ مِنَّا مُنَافَسَةً فِي سُلْطَان، وَلاَ الِتمَاسَ شِيء مِنْ فُضُولِ

---

(١) لَظَى: اسم جهنم.

(٢) الملفوفة: نوع من الحلواء أهداها الاشعث بن قيس إلى عليّ.

(٣) شَنِئْتها: أي كرهتها.

(٤) الصلة: العطية.

(٥) هَبِلَتْكَ ـ بكسر الباء ـ: ثكلتك والهَبُول ـ بفتح الهاء ـ: المرأة لا يعيش لها ولد.

(٦) أمُخْتَبِطٌ في رأسك: أمختلّ نظام إدراكك؟.

(٧) ذوجِنّة: من أصابه مسّ من الشيطان.

(٨) تهجر: أي تهذي بما لا معنى له في مرض ليس بصرع.

(٩) جلب الشعيرة: قشرتها. وأصل الجِلْب غطاء الرحل فتجوّزَ في إطلاقه على غطاء الحبة.

(١٠) قَضِمَتِ الدابّةُ الشعيرَ ـ من باب عَلِمَ ـ: كسرته بأطراف أسنانها.

(١١) سُبات العقل: نومه. والزَلَل: السقوط في الخطأ.

الْحُطَام، وَلكِنْ لِنَرِدَ الْمَعَالِمَ مِنْ دِينِكَ، وَنُظْهِرَ الإِصْلاَحَ فِي بِلاَدِكَ، فَيَأْمَنَ الْمَظْلُومُونَ مِنْ عِبَادِكَ، وَتُقَامَ الْمُعَطَّلَةُ مِنْ حُدُودِكَ».

وحينما كان ينادي في الأمّة يدعوها لنصره، لتثبيت العدل، لإقامة الحقّ، للتأسيس لمستقبلٍ قائم على العدل والحقّ والخير لهذه الأمّة فيتخاذل عنه الكثير من الناس ولا يستجيبون صمّ بكم عميٌ، كان عليه السلام يدعو الله فيقول: «اللهمَّ أَيُّمَا عَبْد مِنْ عِبَادِكَ سَمِعَ مَقَالَتَنَا الْعَادِلَةَ غَيْرَ الْجَائِرَةِ، وَالْمُصْلِحَةَ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا غَيْرَ الْمُفْسِدَةِ، فَأَبَى بَعْدَ سَمْعِهِ لَهَا إِلاَّ النُّكُوصَ عَنْ نُصْرَتِكَ، وَالإِبْطَاءَ عَنْ إِعْزَازِ دِينِكَ، فَإِنَّا نَسْتَشْهِدُكَ عَلَيْهِ يَا أَكْبَرَ الشَّاهِدِينَ شَهَادَةً، وَنَسْتَشْهِدُ عَلَيْهِ جَمِيعَ مَا اسْكَنْتَهُ أَرْضَكَ وَسَمَاوَاتِكَ، ثُمَّ أَنْتَ بَعْدُ الْمُغْنِي عَنْ نَصْرِهِ، وَالآخِذُ لَهُ بِذَنْبِهِ».

وهكذا كان عليه السلام في مستوى المسؤوليّة واعيًا بها، لا طامعًا بحكم ولا معتبرًا لها مغنمًا، من هنا نفهم أهميّة ولاية الأمر في الإسلام وأنّها يجب أن تكون امتدادًا لولاية الله خاضعةً للمعايير والمؤهّلات التي حدّدها الله، من يلي أمر الأمّة، هذه أمّة مسلمة نحن مسلمون من يلي أمرنا يجب أن تكون عنده رحمة، وحكمة، يجب أن يكون عارفًا كيف يربّي الأمّة، ويبنيها، ويطوّر حياتها، وينمّي اقتصادها، ويزكّي أنفسها، ويواجه أعداءها، وعلى أساس دينها، وعلى أساس منهج ربّها؛ لأنّ لولاية الأمر صلة وثيقة بإقامة الدين ولهذا قال الله لنبيّه محمّد ﴿وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥ﴾.

فمن كتاب له عليه السلام إلى زياد ابن أبيه وهو خليفة عامله عبد الله بن عباس على البصرة وعبد الله عامل أمير المؤمنين عليه السلام يومئذ عليها وعلى كور الأهواز[١] وفارس وكرمان وغيرها:

(١) كُوَر: جمع كُورة وهي الناحية المضافة إلى أعمال بلد من البلدان. والأهواز: تسع كُوَر بين البصرة وفارس.

«وَإِنِّي أُقْسِمُ بِاللهِ قَسَمًا صَادِقًا، لَئِنْ بَلَغَنِي أَنَّكَ خُنْتَ مِنْ فَيْءِ[١] الْمُسْلِمِينَ شَيْئًا صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا، لأَشُدَّنَّ عَلَيْكَ شَدَّةً تَدَعُكَ قَلِيلَ الْوَفْرِ[٢]، ثَقِيلَ الظَّهْرِ[٣]، ضَئِيلَ الأَمْرِ[٤]، وَالسَّلَامُ»[٥].

ومن عهد له عليه السلام إلى محمّد بن أبي بكر (رضي الله عنه) حين قلّده مصر:

«اخْفِضْ لَهُمْ جَنَاحَكَ، وَأَلِنْ لَهُمْ جَانِبَكَ، وَابْسُطْ لَهُمْ وَجْهَكَ، وَآسِ[٦] بَيْنَهُمْ فِي اللَّحْظَةِ وَالنَّظْرَةِ، حَتَّى لاَ يَطْمَعَ الْعُظَمَاءُ فِي حَيْفِكَ لَهُمْ[٧]، وَلاَ يَيْأَسَ الضُّعَفَاءُ مِنْ عَدْلِكَ عَلَيْهِمْ.

وَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يُسَائِلُكُمْ مَعْشَرَ عِبَادِهِ عَنِ الصَّغِيرَةِ مِنْ أَعْمَالِكُمْ وَالْكَبِيرَةِ، وَالظَّاهِرَةِ وَالْمَسْتُورَةِ، فَإِنْ يُعَذِّبْ فَأَنْتُمْ أَظْلَمُ، وَإِنْ يَعْفُ فَهُوَ أَكْرَمُ.

وَاعْلَمُوا عِبَادَ اللهِ، أَنَّ الْمُتَّقِينَ ذَهَبُوا بِعَاجِلِ الدُّنْيَا وَآجِلِ الآخِرَةِ، فَشَارَكُوا أَهْلَ الدُّنْيَا فِي دُنْيَاهُمْ، وَلَمْ يُشَارِكُهم أَهْلُ الدُّنْيَا فِي آخِرَتِهِمْ سَكَنُوا الدُّنْيَا بِأَفْضَلِ مَا سُكِنَتْ، وَأَكَلُوهَا بِأَفْضَلِ مَا أُكِلَتْ، فَحَظُوا مِنَ الدُّنْيَا بِمَا حَظِيَ بِهِ الْمُتْرَفُونَ[٨]، وَأَخَذُوا مِنْهَا مَا أَخَذَهُ الْجَبَابِرَةُ الْمُتَكَبِّرُونَ، ثُمَّ انْقَلَبُوا عَنْهَا بِالزَّادِ الْمُبَلِّغِ، وَالْمَتْجَرِ الرَّابِحِ، أَصَابُوا لَذَّةَ زُهْدِ الدُّنْيَا فِي دُنْيَاهُمْ، وَتَيَقَّنُوا أَنَّهُمْ جِيرَانُ اللهِ غَدًا فِي آخِرَتِهِمْ، لاَ تُرَدُّ لَهُمْ دَعْوَةٌ، وَلاَ يَنْقُصُ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنْ لَذَّةٍ.

فَاحْذَرُوا عِبَادَ اللهِ الْمَوْتَ وَقُرْبَهُ، وَأَعِدُّوا لَهُ عُدَّتَهُ، فَإِنَّهُ يَأْتِي بِأَمْرٍ عَظِيمٍ، وَخَطْبٍ جَلِيلٍ، بِخَيْرٍ لاَ يَكُونُ مَعَهُ شَرٌّ أَبَدًا، أَوْ شَرٍّ لاَ يَكُونُ مَعَهُ خَيْرٌ أَبَدًا، فَمَنْ

---

(١) فيئهم: ما لهم من غنيمة أو خراج.

(٢) الوَفْر: المال.

(٣) ثقيل الظهر: أي مسكين لا تقدر على مؤونة عيالك.

(٤) ضئيل الأمر: الحقير.

(٥) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ١، الجزء ٣٧٧، من كتاب له عليه السلام إلى زياد بن أبيه.

(٦) آسِ: أمر من آسى ـ بمد الهمزة ـ أي سَوّى، يريد: اجعلْ بعضهم أُسوة بعض أي مستوين.

(٧) حَيْفك لهم. أي ظلمك لاجلهم.

(٨) المترفون: المنعمون.

أَقْرَبُ إِلَى الْجَنَّةِ مِنْ عَامِلِهَا! وَمَنْ أَقْرَبُ إِلى النَّارِ مِنْ عَامِلِهَا! وَأَنْتُمْ طُرَدَاءُ الْمَوْتِ، إِنْ أَقَمْتُمْ لَهُ أَخَذَكُمْ، وَإِنْ فَرَرْتُمْ مِنْهُ أَدْرَكَكُمْ، وَهُوَ أَلْزَمُ لَكُمْ مِنْ ظِلِّكُمْ، الْمَوْتُ مَعْقُودٌ بِنَوَاصِيكُمْ[١]، وَالدُّنْيَا تُطْوَى مِنْ خَلْفِكُمْ.

فَاحْذَرُوا نَارًا قَعْرُهَا بَعِيدٌ، وَحَرُّهَا شَدِيدٌ، وَعَذَابُهَا جَدِيدٌ، دَارٌ لَيْسَ فِيها رَحْمَةٌ، وَلاَ تُسْمَعُ فِيهَا دَعْوَةٌ، وَلاَ تُفَرَّجُ فِيهَا كُرْبَةٌ.

وَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ يَشْتَدَّ خَوْفُكُمْ مِنَ اللهِ، وَأَنْ يَحْسُنَ ظَنُّكُمْ بِهِ، فَاجْمَعُوا بيْنَهُمَا، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِنَّمَا يَكُونُ حُسْنُ ظَنِّهِ بِرَبِّهِ عَلَى عَلَى قَدْرِ خَوْفِهِ مِنْ رَبِّهِ، وَإِنَّ أَحْسَنَ النَّاسِ ظَنًّا بِاللهِ أَشَدُّهُمْ خَوْفًا لله.

وَاعْلَمْ . يَا مُحَمَّدُ بْنَ أَبي بَكْر . أَنِّي قَدْ وَلَّيْتُكَ أَعْظَمَ أَجْنَادِي فِي نَفْسِي أَهْلَ مِصْرَ، فَأَنْتَ مَحْقُوقٌ أَنْ تُخَالِفَ عَلَى نَفْسِكَ[٢]، وَأَنْ تُنَافِحَ[٣]عَنْ دِينِكَ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لَكَ إِلاَّ سَاعَةٌ مِنَ الدَّهْرِ، وَلاَ تُسْخِطِ اللهَ بِرِضَى أَحَد مِنْ خَلْقِهِ، فَإِنَّ فِي اللهِ خَلَفًا مِنْ غَيْرِه[٤]، وَلَيْسَ مِنَ اللهِ خَلَفٌ فِي غَيْرِهِ.

صَلِّ الصَّلاَةَ لِوَقْتِهَا الْمُوَقَّتِ لَهَا، وَلاَ تُعَجِّلْ وَقْتَهَا لِفَرَاغ، وَلاَ تُؤَخِّرْهَا عَنْ وَقْتِهَا لاشْتِغَال، وَاعْلَمْ أَنَّ كُلَّ شَيْء مِنْ عَمَلِكَ تَبَعٌ لِصَلاَتِكَ.

ومن هذا العهد: فَإِنَّهُ لاَ سَوَاءَ، إِمَامُ الْهُدَى وَإِمَامُ الرَّدَى، وَوَلِيُّ النَّبِيِّ وَعَدُوُّ النَّبِيِّ، وَلَقَدْ قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنِّي لاَ أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي مُؤْمِنًا وَلاَ مُشْرِكًا، أَمَّا الْمُؤمِنُ فَيَمْنَعُهُ اللهُ بِإِيمَانِهِ، وَأَمَّا الْمُشْرِكُ فَيَقْمَعُهُ[٥] اللهُ بِشِرْكِهِ، لكِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ كُلَّ مُنَافِقِ الْجَنَانِ[٦]، عَالِمِ اللِّسَانِ[٧]، يَقُولُ مَا تَعْرِفُونَ، وَيَفْعَلُ مَا تُنْكِرُونَ»[٨].

---

(١) النَوَاصي ـ جمع ناصية ـ: مُقدّم شعر الرأس.

(٢) تخالف على نفسك: أي تخالف شهوة نفسك.

(٣) المنافحة: المدافعة والمجالدة.

(٤) إنّ في الله خَلَفًا من غيره: أي عِوَضًا.

(٥) يَقْمَعه: يقهره.

(٦) منافق الجَنان: من أسرّ النفاق في قلبه.

(٧) عالم اللسان: من يعرف أحكام الشريعة ويسهل عليه بيانها فيقول حقًا يعرفه المؤمنون ويفعل منكرًا ينكرونه.

(٨) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ١، الصفحة ٣٨٤، ومن كتاب له عليه السلام إلى محمّد بن أبي بكر.

ومن كتاب له عليه السلام إلى عثمان بن حنيف الأنصاري وكان عامله على البصرة وقد بلغه أنّه دعي إلى وليمة قوم من أهلها، فمضى إليهم قوله: «أَمَّا بَعْدُ، يَا بْنَ حُنَيْف، فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رَجُلًا مِنْ فِتْيَةِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ دَعَاكَ إِلى مَأْدُبَة[١]، فَأَسْرَعْتَ إِلَيْهَا، تُسْتَطَابُ لَكَ[٢] الأَلْوَانُ[٣]، وَتُنْقَلُ إِلَيْكَ الْجِفَانُ[٤]، وَمَا ظَنَنْتُ أَنَّكَ تُجِيبُ إِلى طَعَامِ قَوْم، عَائِلُهُمْ[٥] مَجْفُوٌّ[٦]، وَغَنِيُّهُمْ مَدْعُوٌّ. فَانْظُرْ إِلَى مَا تَقْضَمُهُ[٧] مِنْ هذَا الْمَقْضَمِ، فَمَا اشْتَبَهَ عَلَيْكَ عِلْمُهُ فَالْفِظْهُ[٨]، وَمَا أَيْقَنْتَ بِطِيبِ وُجُوهِهِ فَنَلْ مِنْهُ.

أَلاَ وَإِنَّ لِكُلِّ مَأْمُوم إِمَامًا، يَقْتَدِي بِهِ، وَيَسْتَضِيءُ بِنُورِ عِلْمِهِ. أَلاَ وَإِنَّ إِمَامَكُمْ قَدِ اكْتَفَى مِنْ دُنْيَاهُ بِطِمْرَيْهِ[٩]، وَمِنْ طُعْمِهِ[١٠] بِقُرْصَيْهِ[١١]. أَلاَ وَإِنَّكُمْ لاَ تَقْدِرُونَ عَلَى ذلِكَ، وَلكِنْ أَعِينُونِي بِوَرَع وَاجْتِهَاد، [وَعِفَّة وَسَدَاد][١٢].

فَوَاللهِ مَا كَنَزْتُ مِنْ دُنْيَاكُمْ تِبْرًا[١٣]، وَلاَ ادَّخَرْتُ مِنْ غَنَائِمِهَا وَفْرًا[١٤]، وَلاَ أَعْدَدْتُ لِبَالِي ثَوْبِي طِمْرًا[١٥].

---

(١) المأدبة ـ بفتح الدال وضمها ـ: الطعام يصنع لدعوة أو عرس.

(٢) تُستَطاب لك: يطلب لك طيبها.

(٣) الالوان: المراد هنا أصناف الطعام.

(٤) الجِفان ـ بكسر الجيم ـ: جمع جفنة وهي القصعة.

(٥) عائلهم: محتاجهم.

(٦) مجفو: أي مطرود، من الجفاء.

(٧) قَضِمَ ـ كسمع ـ: أكل بطرف أسنانه، والمراد الأكل مطلقًا، والمَقْضَم ـ كمقعد ـ: المأكل.

(٨) ألفظه: أطرحه.

(٩) الطِمْر ـ بالكسر ـ: الثوب الخلق البالي.

(١٠) طُعْمه ـ بضم الطاء ـ: ما يطعمه ويفطر عليه.

(١١) قُرْصَيْه: تثنية قرص، وهو الرغيف.

(١٢) السداد: التصرّف الرشيد، وأصله الثواب والاحتراز من الخطأ.

(١٣) التِبْر ـ بكسر فسكون ـ: فُتات الذهب والفضة قبل أن يصاغ.

(١٤) الوَفْر: المال .

(١٥) الطِمْر: الثوب البالي، وقد سبق قريبًا، والثوب هنا عبارة عن الطمرين، فإنّ مجموع الرداء والإزار يعدّ ثوبًا واحدًا، فبهما يكسى البدن لا بأحدهما.

بَلَى! كَانَتْ فِي أَيْدِينَا فَدَكٌ مِنْ كلِّ مَا أَظَلَّتْهُ السَّماءُ، فَشَحَّتْ عَلَيْهَا نُفُوسُ قَوْم، وَسَخَتْ عَنْهَا نُفُوسُ آخرِينَ، وَنِعْمَ الْحَكَمُ اللهُ.

وَمَا أَصْنَعُ بِفَدَك[١] وَغَيْرِ فَدَك، وَالنَّفْسُ مَظَانُّهَا[٢] فِي غَد جَدَثٌ[٣]، تَنْقَطِعُ فِي ظُلْمَتِهِ آثَارُهَا، وَتَغِيبُ أَخْبَارُهَا، وَحُفْرَةٌ لَوْ زِيدَ فِي فُسْحَتِهَا، وَأَوْسَعَتْ يَدَا حَافِرِهَا، لاَضْغَطَهَا[٤] الْحَجَرُ وَالْمَدَرُ[٥]، وَسَدَّ فُرَجَهَا[٦] التُّرَابُ الْمُتَرَاكِمُ، وَإِنَّمَا هِيَ نَفْسِي أَرُوضُهَا[٧] بِالتَّقْوَى لِتَأْتِيَ آمِنَةً يَوْمَ الْخَوْفِ الاَكْبَرِ، وَتَثْبُتَ عَلَى جَوَانِبِ الْمَزْلَقِ[٨].

وَلَوْ شِئْتُ لاَهْتَدَيْتُ الطَّرِيقَ، إِلَى مُصَفَّى هذَا الْعَسَلِ، وَلُبَابِ هذَا الْقَمْحِ، وَنَسَائِجِ هذَا الْقَزِّ[٩]، وَلكِنْ هَيْهَاتَ أَنْ يَغْلِبَنِي هَوَايَ، وَيَقُودَنِي جَشَعِي[١٠] إِلَى تَخَيُّرِ الأَطْعِمَةِ. وَلَعَلَّ بِالْحِجَازِ أَوِ بِالْيَمَامَةِ مَنْ لاَطَمَعَ لَهُ فِي الْقُرْصِ[١١]، وَلاَ عَهْدَ لَهُ بِالشِّبَعِ. أَوْ أَبِيتَ مِبْطَاناً وَحَوْلِي بُطُونٌ غَرْثَى[١٢] وَأَكْبَادٌ

---

(١) فَدَك ـ بالتحريك ـ: قرية لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكان صالح أهلها على النصف من نخيلها بعد خيبر وإجماع الشيعة على أنّه كان أعطاها فاطمة عليها السلام قبل وفاته، إلّا أنّ أبا بكر سلبها من يدها غصبًا.

(٢) المظانّ: جمع مظنة وهوالمكان الذي يظنّ فيه وجود الشيء.

(٣) جَدَث ـ بالتحريك ـ أي: قبر.

(٤) أضْغَطَها: جعَلها من الضيق بحيث تضغط وتعصر الحال فيها.

(٥) المَدَر ـ جمع مَدَرة مثل قَصَب وقصبة ـ: وهو التراب المتلبد، أو قطع الطين.

(٦) فُرَجها ـ جمع فُرْجَة مثال غُرَف و غُرفة ـ: كلّ منفرج بين شيئين.

(٧) أرُوضُها: أذلّلها.

(٨) المزلق ومثله المزلقة: موضع الزلل، وهو المكان الذي يخشى فيه أن تزل القدمان، والمراد هنا الصراط.

(٩) القزّ: الحرير.

(١٠) الجشع: شدة الحرص.

(١١) القُرْص: الرغيف.

(١٢) بطون غرثى: جائعة.

حَرَّى[١]، أَوْ أَكُونَ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ: وَحَسْبُكَ دَاءً أَنْ تَبِيتَ بِبِطْنَةٍ[٢] .... وَحَوْلَكَ أَكْبَادٌ تَحِنُّ إِلَى الْقِدِّ[٣]

أَأَقْنَعُ مِنْ نَفْسِي بِأَنْ يُقَالَ: أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، وَلاَ أُشَارِكُهُمْ فِي مَكَارِهِ الدَّهْرِ، أَوْ أَكُونَ أُسْوَةً لَهُمْ فِي جُشُوبَةِ[٤] الْعَيْشِ! فَمَا خُلِقْتُ لِيَشْغَلَنِي أَكْلُ الطَّيِّبَاتِ، كَالْبَهِيمَةِ الْمرْبُوطَةِ هَمُّهَا عَلَفُهَا، أَوِ الْمُرْسَلَةِ شُغُلُهَا تَقَمُّمُهَا[٥]، تَكْتَرِشُ[٦] مِنْ أَعْلاَفِهَا[٧]، وَتَلْهُو عَمَّا يُرَادُ بِهَا، أَوْ أُتْرَكَ سُدىً، أَوْ أُهْمَلَ عَابِثًا، أَوْ أَجُرَّ حَبْلَ الضَّلاَلَةِ، أَوْ أَعْتَسِفَ[٨] طَرِيقَ الْمَتَاهَةِ[٩]! وَكَأَنِّي بِقَائِلِكُمْ يَقُولُ: إِذَا كَانَ هذَا قُوتُ ابْنِ أَبِي طَالِب، فَقَدْ قَعَدَ بِهِ الضَّعْفُ عَنْ قِتَالِ الأَقْرَانِ وَمُنَازَلَةِ الشُّجْعَانِ.

أَلاَ وَإِنَّ الشَّجَرَةَ الْبَرِّيَّةَ[١٠] أَصْلَبُ عُودًا، وَالرَّوَائِعَ الْخَضِرَةَ[١١] أَرَقُّ جُلُودًا، وَالنَّابِتَاتِ العِذْيَةَ[١٢] أَقْوَى وَقُودًا[١٣]، وَأَبْطَأُ خُمُودًا، وَأَنَا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ كَالصِّنْوِ مِنَ الصِّنْوِ[١٤]، وَالذِّرَاعِ مِنَ الْعَضُدِ[١٥].

---

(١) أكباد حرّى ـ مؤنث حران ـ أي: عطشان.

(٢) البِطْنَة ـ بكسر الباء ـ: البطر والاشر.

(٣) القِدّ ـ بالكسر ـ: سير من جلد غير مدبوغ.

(٤) الجُشوبة: الخشونة، وتقول: جشب الطعام ـ كنصر وسمع ـ فهو جَشْب، وجَشِب كشهم وبطر، وجشيب ومِجْشاب ومجشوب أي غَلُظَ فهو غليظ.

(٥) تقمّمها: التقاطها للقمامة، أي الكناسة.

(٦) تكترش: تملا كرشها.

(٧) الأعلاف ـ جمع علف ـ: ما يهيأ للدابة لتأكله.

(٨) اعْتَسف: ركب الطريق على غير قصد.

(٩) المَتاهة: موضع الحيرة.

(١٠) الشجرة البريّة: التي تنبت في البر الذي لا ماء فيه.

(١١) الرَوَائِع الخَضِرة: الاشجار والأعشاب الغضة الناعمة التي تنبت في الأرض النديّة.

(١٢) النابتات العِذْية: التي تنبت عذيًا، والعِذْي ـ بسكون الذال ـ: الزرع لايسقيه إلّا ماء المطر.

(١٣) الوَقود: اشتعال النار.

(١٤) الصنوان: النخلتان يجمعهما أصل واحد.

(١٥) الذراع من العضد: شبه الإمام نفسه من الرسول بالذراع الذي أصله العضد، كناية عن شدّة الامتزاج

وَاللهِ لَوْ تَظَاهَرَتِ الْعَرَبُ عَلَى قِتَالِي لَمَا وَلَّيْتُ عَنْهَا، وَلَوْ أَمْكَنَتِ الْفُرَصُ مِنْ رِقَابِهَا لَسَارَعْتُ إِلَيْهَا، سَأَجْهَدُ[١] فِي أَنْ أُطَهِّرَ الأَرْضَ مِنْ هذَا الشَّخْصِ الْمَعْكُوسِ، وَالْجِسْمِ الْمَرْكُوسِ[٢]، حَتَّى تَخْرُجَ الْمدرَةُ[٣] مِنْ بَيْنِ حَبِّ الْحَصِيدِ[٤]»[٥].

وممّا ورد عنه في أهميّة الجهاد: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الجِهَادَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ، فَتَحَهُ اللهُ لِخَاصَّةِ أَوْلِيَائِهِ، وَهُوَ لِباسُ التَّقْوَى، وَدِرْعُ اللهِ الحَصِينَةُ، وَجُنَّتُهُ[٦] الوَثِيقَةُ، فَمَنْ تَرَكَهُ رَغْبَةً عَنْهُ[٧] أَلبَسَهُ اللهُ ثَوْبَ الذُّلِّ، وَشَمِلَهُ البَلاَءُ، وَدُيِّثَ[٨] بِالصَّغَارِ وَالقَمَاءَةِ[٩]، وَضُرِبَ عَلَى قَلْبِهِ بِالاسْهَابِ[١٠]، وَأُدِيلَ الحَقُّ مِنْهُ[١١] بِتَضْيِيعِ الجِهَادِ، وَسِيمَ الخَسْفَ[١٢]، وَمُنِعَ النَّصَفَ[١٣]».

وقال عليه السلام في استنهاض الناس: «أَلاَ وَإِنِّي قَدْ دَعَوْتُكُمْ إِلَى قِتَالِ هؤُلاَءِ القَوْمِ لَيْلًا وَنَهارًا، وَسِرًّا وَإِعْلاَنًا، وَقُلْتُ لَكُمْ: اغْزُوهُمْ قَبْلَ أَنْ يَغْزُوكُمْ، فَوَاللهِ

والقرب بينهما.

(١) جَهَدَ ـ كمنع ـ: جد.

(٢) المركوس: من الركس، وهو ردّ الشيء مقلوبًا وقلب آخره على أو له، والمراد مقلوب الفكر.

(٣) المَدَرَة ـ بالتحريك ـ: قطعة الطين اليابس.

(٤) حبّ الحصيد: حب النبات المحصود كالقمح ونحوه، والمراد بخروج المدرة من حبّ الحصيد: أنه يطهر المؤمنين من المخالفين.

(٥) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ٢، الصفحة ٤١٧، من كتاب له عليه السلام إلى عثمان بن حنيف الأنصاري.

(٦) جُنّتهُ ـ بالضمّ ـ: وقايته، والجُنّة: كل ما استترت به.

(٧) رغبةً عنه: زُهدًا فيه.

(٨) دُيّثَ ـ مبني للمجهول من دَيّثَهُ ـ أي: ذلّلَهُ.

(٩) القَماءة: الصّغار والذل، والفعل منه قَمُؤَ من باب كَرُمَ.

(١٠) الإسهاب: ذهاب العقل أوكثرة الكلام، أي حيل بينه وبين الخير بكثرة الكلام بلا فائدة. وروي: (ضُرب على قلبه بالأسْداد) جمع سد أي الحجب.

(١١) أُدِيل الحقّ منه، أي: صارت الدولة للحق بَدَلَهُ.

(١٢) سيم الخسف أي: أُولي الخسف، وكلّفه، والخسف: الذّل والمشقّة أيضًا.

(١٣) النَّصَف: العدل، ومُنع مجهول، أي حُرِمَ العدلَ: بأن يسلط الله عليه من يغلبه على أمره فيظلمه..

مَا غُزِيَ قَوْمٌ قَطُّ في عُقْرِ دارِهِمْ[١] إلاَّ ذَلُّوا، فَتَواكَلْتُمْ[٢] وَتَخَاذَلتُمْ حَتَّى شُنَّتْ عَلَيْكُمُ الغَارَاتُ[٣]، وَمُلِكَتْ عَلَيْكُمُ الأَوْطَانُ.

وَهذَا أَخُو غَامِد قَدْ وَرَدَتْ خَيْلُهُ الاَنْبَارَ[٤]، وَقَدْ قَتَلَ حَسَّانَ بْنَ حَسَّانَ البَكْرِيَّ، وَأَزَالَ خَيْلَكُمْ عَنْ مَسَالِحِهَا[٥].

وَلَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ كَانَ يَدْخُلُ عَلَى المَرْأَةِ المُسْلِمَةِ، وَالاُْخْرَى المُعَاهَدَةِ[٦]، فَيَنْتَزِعُ حِجْلَهَا[٧] وَقُلْبَهَا[٨] وَقَلاَئِدَهَا، وَرِعَاثَهَا[٩]، ما تَمْتَنِعُ مِنْهُ إلاَّ بالاسْتَرْجَاعِ وَالاِسْتَرْحَامِ[١٠]، ثُمَّ انْصَرَفُوا وَافِرِينَ[١١]، مَا نَالَ رَجُلًا مِنْهُمْ كَلْمٌ[١٢]، وَلاَ أُرِيقَ لَهُمْ دَمٌ، فَلَوْ أَنَّ امْرَأً مُسْلِمًا مَاتَ مِن بَعْدِ هَذا أَسَفًا مَا كَانَ بِهِ مَلُومًا، بَلْ كَانَ بِهِ عِنْدِي جَدِيرًا.

فَيَا عَجَبًا! عَجَبًا. واللهِ. يُمِيتُ القَلْبَ وَيَجْلِبُ الهَمَّ مِن اجْتِماعِ هؤُلاَءِ القَوْمِ عَلَى بَاطِلِهِمْ، وَتَفَرُّقِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ! فَقُبْحًا لَكُمْ وَتَرَحًا[١٣]، حِينَ صِرْتُمْ غَرَضًا[١٤] يُرمَى: يُغَارُ عَلَيْكُمْ وَلاَ تُغِيرُونَ، وَتُغْزَوْنَ وَلاَ تَغْزُونَ، وَيُعْصَى اللهُ وَتَرْضَوْنَ!

---

(١) عُقْر الدار ـ بالضم ـ: وسطها وأصلها.

(٢) تواكلتم: وكَلَ كل منكم الامر إلى صاحبه، أي لم يتولّهُ أحد منكم، بل أحاله كلٌّ على الاخر.

(٣) شُنّت عليكم الغارات: مُزّقت عليكم من كل جانب كما يشن الماء متفرقًا دفعةً بعد دفعة.

(٤) الأنبار: بلدة على شاطىء الفرات الشرقي، ويقابلها على الجانب الاخر «هِيت».

(٥) المسالِحُ: جمع مَسْلَحَة ـ بالفتح ـ: وهي الثغر والمَرْقب حيث يُخشى طروقُ الاعداء.

(٦) المعاهَدَة: الذميّة.

(٧) الحِجْل ـ بالكسر وبالفتح وبكسرين ـ: الخلخال.

(٨) القُلُب ـ بضمتين ـ: جمع قُلْب ـ بالضم فسكون ـ: السوار المُصْمَت.

(٩) الرعاث ـ جمع رَعثة ـ وهو: ضرب من الخرز.

(١٠) الاسترجاع: ترديد الصوت بالبكاء مع القول: إنّا لله وإنا اليه راجعون،والاسترحام: أن تناشده الرحمة.

(١١) وافرين: تامين على كثرتهم لم ينقص عددهم، ويروى (موفورين)..

(١٢) الكَلْم ـ بالفتح ـ: الجرح.

(١٣) تَرَحًا ـ بالتحريك ـ أي: همًّا وحُزْنًا..

(١٤) الغرض: ما ينصب ليرمى بالسهام ونحوها، فقد صاروا بمنزلة الهدف يرميهم الرامون.

فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِالسَّيْرِ إِلَيْهِم فِي أَيَّام الحَرِّ قُلْتُمْ: هذِهِ حَمارَّةُ القَيْظِ[١] أَمْهِلْنَا يُسَبَّخُ عَنَّا الحَرّ[٢]، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِالسَّيْرِ إِلَيْهِمْ فِي الشِّتَاءِ قُلْتُمْ: هذِهِ صَبارَّةُ القُرِّ[٣]، أَمْهِلْنَا يَنْسَلِخْ عَنَّا البَرْدُ، كُلُّ هذا فِرَارًا مِنَ الحَرِّ وَالقُرِّ فَإِذَا كُنْتُمْ مِنَ الحَرِّ وَالقُرِّ تَفِرُّونَ فَأَنْتُمْ وَاللهِ مِنَ السَّيْفِ أَفَرُّ!

يَا أَشْبَاهَ الرِّجَالِ وَلاَ رِجَالَ! حُلُومُ الأَطْفَالِ، وَعُقُولُ رَبّاتِ الحِجَالِ[٤]، لَوَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَرَكُمْ وَلَمْ أَعْرِفْكُمْ مَعْرِفَةً - وَاللهِ - جَرَّتْ نَدَمًا، وَأَعقَبَتْ سَدَمًا[٥].

قَاتَلَكُمُ اللهُ! لَقَدْ مَلأْتُمْ قَلْبِي قَيْحًا[٦]، وَشَحَنْتُمْ[٧] صَدْرِي غَيْظًا، وَجَرَّعْتُمُونِي نُغَبَ[٨] التَّهْمَام[٩] أَنْفَاسًا[١٠]، وَأَفْسَدْتُمْ عَلَيَّ رَأْيِي بِالعِصْيَانِ وَالخذْلاَن، حَتَّى قَالَتْ قُرَيْشٌ: إِنَّ ابْنَ أَبِي طَالِب رَجُلٌ شُجَاعٌ، وَلْكِنْ لاَ عِلْمَ لَهُ بِالحَرْبِ.

للهِ أَبُوهُمْ! وَهَلْ أَحدٌ مِنْهُمْ أَشَدُّ لَهَا مِرَاسًا[١١]، وَأَقْدَمُ فِيهَا مَقَامًا مِنِّي؟! لَقَدْ نَهَضْتُ فِيهَا وَمَا بَلَغْتُ العِشْرِينَ، وها أناذا قَدْ ذَرَّفْتُ عَلَى السِّتِّينَ![١٢] وَلكِنْ لا رَأْيَ لِمَنْ لاَ يُطَاعُ!

---

(١) حَمارّة القيظ ـ بتشديد الراء وربما خففت في ضرورة الشعر ـ: شدة الحر.

(٢) التسبيخ ـ بالخاء المعجمة ـ: التخفيف والتسكين.

(٣) صَبارّة الشتاء ـ بتشديد الراء ـ: شدة برده، والقُر ـ بالضم ـ: البرد، وقيل هو برد الشتاء خاصة.

(٤) حِجال: جمع حَجَلة وهي القبة، وموضع يزين بالستور، وربات الحجال: النساء.

(٥) السّدَم ـ محرّكة ـ: الهم مع أسف أوغيظ، وفعله كفرح.

(٦) القيح: ما في القرحة من الصديد، وفعله كباع.

(٧) شحنتم صدري: ملاتموه.

(٨) النُغب: جمع نُغْبَة كجرعة وجُرَع لفظًا ومعنى.

(٩) التّهْمَام ـ بالفتح ـ: الهم، وكل تَفْعال فهو بالفتح إلاّ التِبيان والتِلقاءفهما بالكسر.

(١٠) أنفاسًا: أي جرعةً بعد جرعة، والمراد أن أنفاسه أمست همًا يتجرّعه.

(١١) مِراسًا: مصدر مارسه ممارسة ومراسًا، أي عالجه وزاوله وعاناه.

(١٢) ذَرّفْتُ على الستين: زدتُ عليها، وروى المبرد «نَيّفت»، وهو بمعناه.

خاتمة

مناسبة يوم الولاية الذي نقيمه كل عام هي مناسبة لها عمقها التاريخي والثقافي بالشكل الذي يجعلها أهمّ مناسبة في حياة الأمّة الإسلاميّة، وهي القضيّة التي تحتاجها الأمّة في كلّ زمان ومكان وتمثّل الحلّ والمخرج لها في كلّ العصور والآليّة التي على أساسها ينى واقع الأمّة الإسلاميّة بناء قرآنيًّا يجعلها أمّة عظيمة قادرة على أداء مسؤوليّتها التي كلّفت بها وجاهزة لمواجهة أعدائها بكل أنواعهم وأصنافهم بعيدة عن ظلم الظالمين وهيمنة المستكبرين وطغيان المتسلّطين.

يقول السيّد حسين (رضوان الله عليه):

«إنّ جهل الأمّة في ماضيها بولاية الأمر، وأهميّة ولاية الأمر هو الذي جعلها ضحيّة لسلاطين الجور، وإنّ الجهل الذي امتدّ من ذلك الزمن، وفي هذا الحاضر هو نفسه الذي سيجعلها ضحية لأن يملك تعيين ولاية أمرها وتثقيفها بمعاني ولاية الأمر فيها، وتعيين من يَلِي أمرها، هم اليهود الصهاينة من الأمريكيّين والإسرائيليّين.

إنّ الأمّة أحوج ما تكون إلى ثقافة صحيحة بكلّ ما تعنيه الكلمة، ثقافة (حديث الغدير)، ثقافة (حديث الولاية) تعطي ثقافة كاملة لهذه الأمّة وتحصنها من الثقافة التي تُقَدَّم إليها لتكون قابلة لأن تُفرض عليها ولاية أمْرٍ يهوديّة»[١].

---

(١) حديث الولاية للسيّد حسين بدر الدين الحوثي.

ويقول السيّد عبد الملك (حفظه الله):

«هكذا أحيى الرسول مناسبة الغدير ونحن نعمل كعمله، رتّب للغدير احتفالًا خاصًا، وأعلن الولاية في حفل خاصّ. نحن نحيي الذكرى سنويًّا، فهو أوّل من سنّ لنا الاحتفال بالغدير كيفما فسّرت الحادثة تفسّر. ونحن الآن عندما نتحدّث عن الغدير نقول بأنّه نفسه يكشف لنا كشيعة بأنّ المسألة بالغة الأهميّة وأنّها كما قال الإمام الهادي عَلَيْهِ السَّلَامُ وكلّ علماء آل الرسول إنّ ولاية الإمام علي فرض على كلّ مسلم.

ولو أنّ الأمّة عادت إلى مثل هذا اليوم وما قدّم فيه الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ من بلاغ مبين ومن أسسٍ مهمّةٍ في ولاية أمر الأمّة لما ظلمت ولما تمكّن المفسدون والطامعون والظلمة والمستكبرون من الهيمنة عليها وإذلالها، ولكنّ تهاون الأمّة ببلاغ الرسول في هذا اليوم والحلول التي قدّمها جعلها أمّة تعيش حالة رهيبة من الظلم والاستبداد وبالشكل الذي لم يحصل لأيّ أمة أخرى حتّى ظهرت في الأخير أمّة عاجزة عن أداء دورها في هداية البشريّة، مفارقة لخيريّتها التي تؤهّلها لتكون أمّة جديرة بنشر المعروف في كلّ بقعة من بقاع العالم وقادرة على إزالة المنكر من هذا الوجود.

فاجتماعنا في هذا اليوم، وإحياؤنا لهذه المناسبة هو تجسيد واقتداء واتباع لاجتماع تاريخي قبل ألف وأربعمئة عام، ليبقى صدى صوت رسول الله صدّاحًا ويبقى بلاغه قائمًا عبر الأجيال، وكلماته النيّرة التي حملت إلى أمّته مضمونًا مهمًّا وقاعدة هامّة وأساسًا هامًّا في الدين يترتب عليه مصير هذه الأمة، وهو موضوع الولاية كما أدّاه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ من فوق أقتاب الإبل والمؤمنون يسمعونه».

ويقول السيّد حسين رضوان الله عليه في خطاب (أمر الولاية) منتقدًا من يخفون عن المسلمين مثل هذا الحدث:

«فنحن عندما نحيي هذه الذكرى؛ لأنّ هناك - وكما قلنا أكثر من مرّة - من يراقب الأحداث منكم، وكلّ من يراقب ما يعمله حتّى من يسمّون

أنفسهم دعاة للإسلام، هل يتحدّثون عن هذه الحادثة؟ ما أكثر الجامعات والمراكز الإسلاميّة! ما أكثر الدعاة بذقونهم الطويلة، وثيابهم القصيرة! ما أكثر من يتحدّثون باسم الإسلام، وخدمة السنّة! هل سمعتموهم مرّة من المرّات يتحدّثون عن يوم الغدير؟! لا.

إنّهم يشهدون أنّ يوم الغدير حادثة لا شكّ فيها، قضيّة متواترة، قضيّة مسلَّمة، لا أحد يشكّ من المسلمين بأنّها حدثت، وفي أنّ الرسول ﷺ قال في ذلك اليوم على مرأى ومسمع من الحجّاج الذين حجّوا معه في تلك السنة: «من كنت مولاه فهذا علي مولاه اللهم والِ من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله».

هل هم دعاة سنّة رسول الله! أليس هذا من السنّة؟ من يتشدّقون دائمًا بأنّهم أنصار للسنّة، ودعاة لهم، نقول لهم: هناك حديثان مهمَّان، يرتبط بهما مصير الأمّة، ومستقبلها، لا تتحدّثون عنهما، وهما من الأحاديث، الصحيحة، المتواترة التي لا شكّ فيها، في مراجعكم الحديثيّة، لا تتحدّثون عنهما! ونحن نراكم تتحدّثون عن أحاديث ضعيفة وباطلة، تتحدّثون عنها كثيرًا.

هل هذا هو أسلوب من يسمّون أنفسهم أهل السنّة؟ أو أنصارًا للسنّة؟ لا، إنّ أنصار السنّة هم من ينصرون رسول الله ﷺ، ويقفون مواقفه، ويعملون على أن يمتدّ بلاغه في الأمّة جيلًا بعد جيل، كما نحن في هذا اليوم بإذن الله وبمشيئة الله نقول إنّنا نبلّغ عن رسول الله ﷺ».

ويقول السيّد عبد الملك (حفظه الله):

«إنّ ثقافة الغدير مثلما نحتاج إليها في هذا العصر في مواجهة ثقافة ولاية اليهود والنصارى وهيمنتهم وتسلّطهم وطغيانهم نحتاج إليها في هذه المرحلة من تاريخ أمّتنا في موضوع ذي أهميّة قصوى. إنّ أمّتنا - أيّها الإخوة المؤمنون - تعيش في هذا العصر حال هزيمة وانكسار وسقوط، فكثير من أقطارنا الإسلاميّة سقطت تحت هيمنة اليهود والنصارى، وأمّتنا تلاقي من الإذلال والقهر والقتل والاضطهاد واحتلال الأرض ونهب الثروة وانتهاك

العرض، ودوس الكرامة، والهيمنة على كلّ شؤونها على مستوى لم يسبق له مثيل.

إذًا، أمّتنا تحتاج إلى مشروع انتصار، بحاجة لكي تعرف ما الذي يخرجها من حالة الذلّ إلى حالة العزّ؟ ما الذي يخرجها من حالة الهزيمة إلى حالة النصر؟ ما الذي يخرجها من حالة الشتات والفرقة والشقاء إلى حالة الوحدة والاجتماع، إلى حالة العزّة والقوّة؟ هذا شيء تحتاج إليه أمّتنا، لكنّ الطريق واضح، وبلاغ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بيّن، وآيات الله ساطعة واضحة بيّنة.

إنّ الله جلّ شأنه رسم طريق العزّ التي إن سارت فيها الأمّة ستكون أمّة منتصرة، قوية، تكسب من ولائها عزمًا من عزيمة علي، وتكسب أيضًا لأن تحمل بنادقها وأسلحتها بأسًا من ذي الفقار.

فالله جلّ شأنه عندما قدّم لنا موضوع الولاية، ربط به النصر، إذًا هو موضوع يرتبط به مصير هذه الأمّة، إنْ نصرًا أو هزيمة، أو عزًّا أو ذلًّا، أو خيبة وشقاءً أو عزًّا وسعادة، مصير هذه الأمّة يرتبط بموضوع الولاية.

الذين يستجيبون لله فيسيرون في طريق الولاية، يؤمنون بولايته، وولاية رسوله، وولاية الإمام علي عليه السلام، ثمّ يبقى موضوع الولاية عبر الأجيال على أساس هذا الامتداد، الذين يسيرون في هذا الطريق هم المنتصرون حين تنهزم الأمّة، هم الغالبون حين تُغلب الأمّة، هم القاهرون حين تُقهر الأمّة»[1].

ويقول:

«مناسبة الغدير بثقافتها تجاه مسألة الولاية تدفعنا بالاتجاه الصحيح الذي ينسجم مع انتمائنا للإسلام وهويّتنا الأساسيّة، إلى ثقافة **القرآن الكريم** بأن نتولّى الله، ورسوله، والذين آمنوا.

---

(١) من خطاب الولاية للسيّد عبد الملك لعام ١٤٢٩هـ.

ونحن عندما نعلن في هذه المناسبة تولّينا لله ورسوله والذين آمنوا وفي مقدّمتهم علي بن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ فهذا ما يوجبه علينا ديننا وما تتوقّف عليه عزّتنا وكرامتنا وقوّتنا ونجاتنا وسعادتنا. هذا هو المسار الذي سيربطنا بالله ورسوله هذا هو المسار الذي اختاره الله لنا وسمّانا عندما نسير عليه حزبه الغالب.

هذه الثمرة العظيمة التي تحصل ما الذي يقابلها؟ الذي يقابلها حسب المنطق القرآني هو التولّي لليهود والنصارى واتخاذهم أولياء، أن يكون ثمنه ذلّة وهوان وضعف وعجز وشتات وفرقة وشقاء ونكد، بدلًا من الربح العظيم في تولّي الله ورسوله، والإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهداة الله وأوليائه ورموز عباده؛ أن يكون الثمن هو القوّة، والنصر، والغلبة، وعزّة الإيمان والقرآن الكريم بدلًا من تكون أمة مستضعفة تكون أمّة قويّة، بدلًا من أن تكون أمّة مستذلّة مهانة، وهذان مساران وتوجّهان متباينان لا بدّ للإنسان أن يكون في أيّ منهما، ولا بدّ للأمّة من اختيار مصيرها[١] .

على العموم تبقى المسؤوليّة على الأمّة؛ فبقدر ما تتفاعل، وتتحرّك، وتستجيب في واقعها العملي مع مبدأ الولاية، وتتولّى الله ورسوله والذين آمنوا بقدر ما ستكسب، وتنتفع، وتحصل على النتيجة التي أكد عليها القرآن كنتيجة حتميّة.

فالتولّي هو سير في خطّ الإسلام، وسيرٌ والتزام صحيح في المبادئ والقيم، والأخلاق، والتعاليم. وعلي عَلَيْهِ السَّلَامُ حينما تعود إلى سيرته يُؤَمِّن لك الارتباط بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ والارتباط بالقرآن الكريم والامتداد السليم والنقيّ والمريح، والقدوة العظيمة جدًّا.

---

(١) من خطاب الولاية ١٤٣٠هـ للسيّد عبد الملك.

الفصل الخامس: في رحاب كربلاء

توطئة

يحمل لنا شهر محرَّم الحرام ذكرى أليمة وفاجعةً كبيرة لا زالت آثارها ونتائجها في أُمّتنا من يوم وقوعها إلى هذا الزمن، هي ذكرى حادثة كربلاء، ذكرى عاشوراء، ذكرى استشهادُ سبط رسول الله الإمام الحسين عليه السلام.

وهذه الذكرى - التي هي في العاشر من المُحرَّم - ليست وحدها ما يربطنا بالإمام الحسين ويذكرنا به. الإمام الحسين هو علمٌ من أعلام الهدى، ومنارٌ للحقّ، وهو لنا القدوة والقائد والأسوة، وهو إمام المسلمين، وسبط رسول الله، وهو الامتداد للرسالة الإلهيّة وللنهج المحمّدي الأصيل.

لقد أمر الله سبحانه وتعالى، وأمر رسوله محمّد صلى الله عليه وآله وسلم الأمّةَ بأن تحبّ أهل بيت رسول الله، وأن تتمسّك وتقتدي بهم، ففي ذلك نجاتها وعزّتها وسيادتها وسلامتها وخيرها من الدنيا إلى الآخرة؛ لأنّهم الامتداد الطبيعي لرسول الله محمّد، وهم قرناء **القرآن الكريم**، إلّا أنّ ما حصل هو العكس؛ البغض لهم وإقصاؤهم ومحاربتهم؛ فكيف كانت النتيجة؟ كانت النتيجة هي: أن عادت الأمّة إلى جاهليّة أسوأ من الجاهليّة الأولى، وكان البديل عن أهل البيت هم بنو أميّة بموروثهم الجاهلي، واستمرّت الأمّة في الانحطاط حتّى وصلت إلى ما وصلت إليه اليوم.

وما حدث بالإمام الحسين وبأهل بيته في كربلاء - وهم أهل بيت رسول الله - كشف الحالة السيّئة التي كانت قد وصلت إليها الأمّة من الانحراف الخطير عن تعاليم الإسلام وقيمه العظيمة، حيث أصبح السائد في الأمّة هو

الموروث الجاهلي الذي مرجعيّته وقادته هم بنو أميّة، وللأسف ما زال هذا الموروث هو السائد في الأمّة إلى اليوم وها هو النظام السعودي يحمل لواءه وبالتأكيد تحت عناوين دينيّة مزيّفة.

وها هو الموروث الجاهلي الأموي يعمل على طمس الإسلام المحمّدي الأصيل الذي لاح فجره وبدا نوره من اليمن من خلال حسين العصر، السيّد حسين بدر الدين الحوثي وأخيه السيّد عبد الملك بدر الدين الحوثي ‹رضوان الله عليهما›، مستعينًا هذه المرّة باليهود والنصارى ليس كمستشارين كما كان يفعل أسلافهم من بني أميّة، وإنّما كقادة لهذا العدوان ومشاركين فيه.

واستفادةً من هذه الذكرى الأليمة والفاجعة الكبرى، ولاستمرارها عبر الأجيال إلى يومنا هذا الذي يعيش فيه شعبنا اليمني خصوصًا، وأمّتنا الإسلاميّة عمومًا، كلّ يوم عاشوراء على أيدي ورثة الموروث الجاهلي الأموي؛ جمعنا هذه المادّة الثقافيّة المتعلّقة بهذه المناسبة، وكما ذكرنا في الفصول السابقة، اعتمادنا في إعداد هذه المادّة بشكل كامل على خطابات ومحاضرات السيّد حسين بدر الدين الحوثي والسيّد عبد الملك بدر الدين الحوثي ‹رضوان الله عليهما› وفيما يتعلّق بالنصّ التاريخي فقد اعتمدنا على عدد من المراجع التاريخيّة.

نسأل الله أن نكون قد وفّقنا لتقديم ما يفيد في معركتنا ضدّ أعداء الله وأعداء البشريّة من اليهود والنصارى وقوى النفاق والعمالة.

والله وليّ الهداية والتوفيق

يحيى قاسم أبو عواضة

بتاريخ ١محرم ١٤٣٩هـ

مقدّمة

ارتبطت أحداث كربلاء بشخص الإمام الحسين عليه السلام ارتباطًا وثيقًا لما كان يمثّله من محوريّة. فهو الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب عليهما السلام أحد السبطين، وأحد سيدي شباب أهل الجنّة، وريحانتي المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، وأحد الخمسة من أصحاب الكساء الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيرًا، وسيّد الشهداء، وأُمّه فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ولد عليه السلام في السنة الرابعة من الهجرة في شهر شعبان، ولمّا ولد جِيء به إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فاستبشر به وسمّاه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم حُسينًا.

عاش عليه السلام طفولته مع جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتربّى في أحضانه وحظي باهتمامه؛ فورث من جدِّه إيمانًا وطهرًا وصلاحًا وزكاءً ونورًا وهدى وحرصًا على هداية أمّة جدِّه، وصلاحها، وعزّتها.

عُرف بالفصاحة والوفاء والكرم والشجاعة من صباه، يعامل الناس معاملة طيّبة، ويبصرهم بشؤون دينهم دون أن يواجههم بتخطئة.

ومن آدابه وآداب أخيه الحسن عليه السلام في ذلك: أنّهما رأيا أعرابيًّا يخّفف الوضوء والصلاة فلم يشاءا أن يواجهاه بغلطه فقالا له: «نحن شابّان وأنت شيخ، ربّما تكون أعلم بأمر الوضوء والصلاة منّا، فنتوضّأ ونصلّي عندك، فإن كان عندنا قصور تعلّمنا»، فتنبّه الشيخ إلى غلطه دون أن يأنف من تنبيههما إليه.

ومرّ يومًا بمساكين يأكلون فدعوه إلى الطعام على عادة العرب، فنزل وأكل معهم ثمّ قال لهم: «قد أجبتكم فأجيبوني» ودعاهم إلى الغداء في بيته.

أخبر جبريل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بما سيصيب الحسين بعده، وأن أمّته ستقتله في كربلاء، فكان يبكي بكاء شديدًا، ويلثم ثغر الحسين عليه السلام ويقبّله ويقول: »حسين منّي وأنا من حسين، أحبّ الله من أحبّ حسينًا، حسين سبط من الأسباط«.

وروى أبو العبّاس الحسني يرفعه إلى ابن عبّاس قال: اشتدّ برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مرضه الذي مات منه، فحضرتُه وقد ضمّ الحسين عليه السلام إلى صدره يسيل من عرفه عليه، وهو يجود بنفسه ويقول: «ما لي وليزيد لا بارك الله في يزيد اللهم العن يزيدًا». ثمّ غشي طويلًا وأفاق. فجعل يقبّل الحسين عليه السلام وعيناه تذرفان ويقول: «أما إنّ لي ولقاتلك مقامًا بين يدي الله»[1].

وبعد أن فارق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الدنيا عاش محنة أبيه وأمه (سلام الله عليهما) بعد إقصائهما وعزلهما وظلمهما ووفاة أمّه المبكر والجرح لمّا يندمل بفراق جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبعدما يقرب من خمس وعشرين سنة من فراقه لجدّه المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، وما حصل من انحراف بعده أوصل غلمان بني أميّة (الشجرة الملعونة في القرآن) إلى التحكّم على رقاب الأمّة وظلمهم؛ تسارع الأمّة إلى أبيه لينقذها ممّا قد وصلت إليه من الضياع والتيه والظلم والجبروت، ولكن بعد أن تغيّرت النفوس وقُدِّمت البدائل المغلوطة ولم يعد من الإسلام إلّا اسمه، ولا من القرآن إلّا رسمه.

فعاش صراع أبيه مع الناكثين والقاسطين والمارقين فكان أحد القادة الأبطال في جيش أبيه أمير المؤمنين علي عليه السلام، تخرّج من مدرسته وتعلّم منه البطولة والشجاعة وفنون القتال ومعالي الأخلاق وكريم الصفات.

---

(١) **المصابيح في السيرة** لأبي العباس الحسني؛ المحلّي، **الحدائق الورديّة في مناقب أئمّة الزيديّة**، الجزء ١.

وبعد استشهاد أبيه عليه السلام، عاش معاناة أخيه الإمام الحسن عليه السلام وما لاقاه من المتخاذلين، والتي انتهت باستشهاده أيضًا.

وعاش تَحَكُّم بني أميّة وسيطرة الموروث الجاهلي بشكل كامل على الأمّة، وما عانته الأمّة التي خذلت أباه عليًّا وأخاه الحسن الذين استشهدا على يد بني أميّة.

إلّا أنّ وصيّة أبيه أمير المؤمنين له ولأخيه - قبيل استشهاده - كانت دائمًا نصب عينيه عندما أوصاهما بقوله: «أُوصِيكُمَا بِتَقْوَى اللهِ، وَأَنْ لاَ تَبْغِيَا الدُّنْيَا وَإِنْ بَغَتْكُمَا، وَلاَ تَأْسَفَا عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا زُوِيَ عَنْكُمَا، وَقُولاَ بِالْحَقِّ، وَاعْمَلاَ لِلْأَجْرِ، وَكُونَا لِلظَّالِمِ خَصْمًا، وَلِلْمَظْلُومِ عَوْنًا». فكان عليه السلام يرقب الوضع ويعمل ما بوسعه لرفع معاناة هذه الأمّة، وفي إصلاح الفساد المستشري في هذه الأمّة، وما وصلت إليه من الهوان والذلّ على يد بني أميّة، وتلافي ما يمكن تلافيه.

أوّلًا- حالة الأمّة قبل الثورة

للأسف الشديد، كانت قد غابت تلك القيم والأخلاق من واقع الأمّة، نتيجة ذلك الاستهداف لها في واقع الأمّة من الحكم الأموي، الظالمين من بني أميّة، وكان البديل عنها هو كارثة، أمر فظيع جدًا؛ تربية الباطل، الغدر، الظلم، الفساد، الأطماع، الكذب، نقض العهود والمواثيق، إلى غيرها.. قائمة طويلة ومفردات كثيرة يمكن أن يحشدها الإنسان ويتحدّث بها ليُعبِّر عن واقع الأمّة فيما وصل إليه في الأعمّ الأغلب، وقد تجلَّى كثيرٌ من ذلك كلّه في الأحداث التي عصفت بالأمّة في عهدهم.

مع هذا، ساء الواقع وتنكّرت الأمّة للغة الحقّ والمسؤوليّة والدين، وأصبحت لغة وكلمة الحقّ غير مسموعة ولا مفهومة ولا مقبولة، ينادى بالحقّ في أوساط الأمّة وتُدعى إليه فلا تجيب، ولا تستجيب، ولا تقبل، ولا تسمع، ولا تصغي، ولا تعي بالرغم من التحرّك الفاعل لأهل بيت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بدءًا بالإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ ومن بعده الإمام الحسن ثمّ الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ الذين كانوا ينادون في أوساطها يدعونها، يعملون ويحرصون على أن يدفعوها في إطار مسؤوليّتها التي هي شرفها وعزّها فلا تستجيب.! لغة الحقّ غير مقبولة، ولم يعد هذا معيارًا لا لموقف، ولا لتوجّه، ولا لعمل، ولا لمسار، ولا لنهج، ولا لمبدأ، لم يعد من المهمّ عند كثيرٍ من أبناء الأمّة أن يكون في موقف الحقّ أو لا.

وها هو الإمام الحسين يشخّص الواقع الذي كانت قد وصلت إليه الأمّة، وهو يرى الواقع المظلم لها، وقد ضيَّعت الحقّ ولم تعد تأبه أو تبالي به،

فقال: «فإنّ الدنيا قد تغيَّرت وتنكّرت، وأدبر معروفها واستمرّت جدًّا، فلم يبق إلّا صبابةٌ كصبابة الإناء، وخسيس عيشٍ كالمرعى الوبيل»، ما أعظم هذا التعبير، وكم ساء واقع الأمّة، وتغيّر إلى المستوى السيّء جدًّا، انعكست آثاره السيّئة في واقع الحياة ظلمًا، معاناة، شقاء، اضطهادًا، قهرًا، ساء واقع الأمّة وأيّما سوء حينما غاب الحقّ بقيمه وموقفه ومبادئه من واقع الحياة، «ألا ترون أنّ الحقّ لا يُعمل به، وأنّ الباطل لا يُتناهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء الله محقًّا، فإنّي لا أرى الموت إلّا سعادة، ولا الحياة مع الظالمين إلّا بَرَمًا».

ومن ناحية أخرى، نجد تربية الباطل التي غَيَّبت الحقّ فلم يعد مقبولًا ولا مسموعًا، ولا مفهومًا، ولا مرغوبًا، ولا مستساغًا في واقع الأمّة التي كان يُفترض بها أن تكون هي أمّة الحق ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾[١]، ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾[٢]، ﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾[٣] كلّ هذه المسألة انتهت من واقع الأمّة إلى حدٍّ كبير، بقي صفوة الأمّة قِلَّة قليلة، ثمّ ما كان هو البديل عنه؟ وماذا كانت المعايير والأسس التي يُنطلق من خلالها وتُبنى عليها المواقف؟.

لقد كان بنو أميّة، كما أخبر عنهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا بلغ بنو أميّة أربعين اتخذوا دين الله دغلًا وعباد الله خولًا ومال الله دولًا».

وجانب من «اتخذوا دين الله دغلًا» هو تحريف المفاهيم الدينيّة بما يخدم سياستهم، أولئك الظالمون الجائرون المفسدون، عمدوا أيضًا كما استهدفوا القيم، استهدفوا المفاهيم مثل شرعنة الطاعة للظالمين وإيجابها، وجعلها من دين الله عبادةً وقُربةً إلى الله، وجعلوها سبيل أجرٍ وثوابٍ وقُربةٍ وزُلفى، وهذا من أعجب العجب، من أعجب ما حصل في تاريخ الأمّة

---

(١) سورة **محمّد**، الآية ٣.

(٢) سورة **العصر**، الآية ٣.

(٣) سورة **يونس**، الآية ٣٥.

الإسلاميّة! ومن أغرب ما حصل أن تشرعن، تصبح شرعيّة وتصبح دينًا، وتصبح عبادة، وتصبح طاعة الظالمين الجائرين قُربة.

عندما نتأمّل في هذا الجانب من التحريف للمفاهيم الدينيّة، من الذي يؤدّي هذا الدور؟ ومن الذي يقوم به ويَعمِد إليه؟ ما هي مهمّته؟ من هو الذي يشتغل هذا الشغل؟ هم علماء السوء والبلاط، والسلاطين الذين كانوا مرتبطين بالظالمين ومناصرين لهم، ينصرونهم عبر تاريخ الأمّة وإلى عصرنا هذا لا يزالون كذلك وسيستمرّون على ذلك؛ لأنّ العلماء صنفين: علماء سوء، وعلماء، صالحين أصحاب حقّ وحقيقة، مُعانين مظلومين مُضطهدين.

أمّا علماء السوء فمهمّتهم التي يمارسونها وهم جنبًا إلى جنب مع الظالمين والمفسدين والجائرين، هي تحريف المفاهيم الدينيّة لتوظيف الدين لمصلحة الطغاة والجائرين، ولتحقيق ذلك يستخدمون أساليب متعدّدة منها: تنزيل النصوص الدينيّة في غير محلّها وعلى غير واقعها وهنا جريمتان: افتراء وكذب في التوصيف، ثمّ جريمة التوظيف للنصّ الديني في غير محلّه.

أوّلًا: يقومون بتوصيف حالة معيَّنة بغير وصفها وبغير واقعها بما يتمكّنون من خلاله أن يطلقوا نصًّا دينيًّا يوظّفونه عليها ليتطابق معها، مثلًا: يأتون إلى قول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ﴾[1]. هذا نصّ من القرآن صحيح، آية قرآنيّة من كتاب الله، لكنّهم يُنزِّلونها على غير محلّها، يأتي - مثلًا - إلى القائمين بالقسط، القائمين بالحقّ، الواقفين في وجه الظلم، المنادين بالعدل والعدالة فيسمّي عالم السوء والبلاط عملهم الذي هو حقّ وما يقومون به في سبيل إحقاق الحقّ وإقامة العدل، حربًا لله ورسوله وإفسادًا في الأرض إلى غير ذلك، ويصيغ بيانًا يوقِّعه مع غيره من أمثاله ويقرؤون الآية القرآنيّة، ويدعون إلى قتلهم والتنكيل بهم وتقطيع أيديهم وأرجلهم، أو ضربهم بالطائرات أو

(١) سورة **المائدة**، الآية ٣٣.

إبادتهم بأيّ سلاح. يُنزل النصّ القرآني في غير محلّه، على غير واقعه، ويكذّب حينما يوصِّف حالة معيَّنة أنّها نفس الحالة التي يتحدّث عنها النصّ الديني في **القرآن الكريم** أو من الرسول ﷺ..

مثال آخر: آيات الجهاد، عندما يُنزِّل آيات الجهاد وهو يقصد التحرّك في خدمة الباطل فيسمّيه جهادًا، ويسمّي القتال تحت الراية الأمريكيّة بعناوين طائفيّة جهادًا، ثمّ يحشد النصوص القرآنيّة التي تتحدّث عن الجهاد ولكن في غير محلّها.

أنت عندما تقاتل لمصلحة الأمريكيّين والإسرائيليّين هذا ليس جهادًا، هذا شرّ، عدوان، ظلم، بغي، لا يسمّى جهادًا أبدًا، وعندما تتحرّك في أوساط الأمّة تحت عناوين طائفيّة تُطلق على أولئك أنّهم رافضة، ثمّ تحشر النصّ القرآني الذي يتحدّث عن الجهاد في غير محلّه.

مثال آخر: عندما كانوا يقولون - سوءًا - عن الإمام الحسين عليه السلام أو غيره من الثوّار الذين ثاروا قيامًا بالحقّ ونصرةً له، وإقامةً للعدل من بعد الإمام الحسين عليه السلام كانوا يقولون (شقّ عصا المسلمين)!. وفي الحقيقة، هو شقّ عصا المجرمين، الظالمين، الجائرين التي بها يضربون الأمّة ويسوقونها إلى جهنّم، إلى الخسران، إلى الشقاء في حياتها في الدنيا وفي الآخرة، أمّا المسلمين فلم يشقّ عصاهم هو يعمل لقوّتهم، لعزّتهم.

مثال آخر: هو التكفير، فعندما يطلق التكفيريّون مسمّى الكفر على مسلمين لأنّهم اختلفوا معهم في المذهب أو في الفكر أو في التوجّه، يوردون كلّ النصوص القرآنيّة التي تتحدّث عن الكافرين وكأنّها تعني أولئك وهي لا تعنيهم، وأنّهم المسلمون حقًّا في الأساس، هذا واحدٌ من أساليب التحريف للمفاهيم الدينيّة من خلال تنزيل النصّ الديني في غير محلِّه على غير واقعه بتوصيف كاذب وافتراء وبهتان.

أسلوب آخر من تحريف المفاهيم من خلال: تقديم مفاهيم باطلة، باطلة من الأساس والافتراء على الله وعلى رسوله لإضفاء شرعيّتها واعتبارها من

الدين، مثلما تقدّم من شرعنة طاعة الظالمين الجائرين واعتبارها من طاعة الله وعبادةً إلى الله وقربة إلى الله، هذا واحد من الأساليب.

«اتخذوا دين الله دَغلًا» فأفسدوا القِيَم، وقوَّضوا الأخلاق، وحرَّفوا المفاهيم، وزيَّفوا الوعي، وقلَّبوا الحقائق، وأضلُّوا كثيرًا وضلُّوا عن سواء السبيل.

«واتخذوا عباد الله خَولًا» استعبدوهم وسخّروهم لخدمتهم ومصالحهم. ومظاهر الاستعباد والسُخرة للأمّة من جانب حُكّام الجور والظالمين متعدّدة وعلى كلّ المستويات:

على المستوى العسكري وفي ميادين القتال؛ يدفعون الكثير من الناس للقتال والقتل في سبيل تقوية أمرهم، واستحكام سلطانهم، وتعزيز هيمنتهم، وسطوةً منهم بالمستضعفين، وظلمًا للمظلومين، وبطشًا بالصالحين، وتنكيلًا بالأحرار، وإذلالًا للناس، وإنفاذًا لأمرهم الباطل فيما ليس لله فيه رضى، ولا للأمّة فيه خيرٌ ولا مصلحة.

وعلى المستوى الثقافي والفكري؛ يدفعون بعلماء البلاط ووعّاظ السلاطين لتحريف المفاهيم وشرعنة الظلم، وتدجين الأمّة باسم الدين، وإبعادها عن النهج القويم.

وعلى المستوى الإعلامي؛ يدفعون البعض ليكونوا أبواقًا لهم، وألسنة سوءٍ كاذبة، فينشرون الشائعات الباطلة والأكاذيب، ويقولون الزور والبهتان، ويزيّفون الواقع والحقائق، ويكتبون بأقلامهم المأجورة كذلك، خدمةً وسُخرةً وشكلًا من أشكال العبوديّة للطغاة.

«واتخذوا مال الله دُولًا» فينهبون خيرات الأمّة وثروات الشعوب، ويستأثرون بالمال العامّ، ويتداولون به في مصالحهم الشخصيّة على سبيل الترف والإسراف، ولشراء الولاءات والمواقف، والذمم، ويتركون الأمّة تعاني ويلات الفقر، ونكد العيش، والمعاناة بكلّ أشكالها.

وهكذا مضى واقع الأمّة الإسلاميّة على امتداد التاريخ منذ استحكام القبضة الأمويّة على سلطان الأمّة وإلى اليوم، إلّا في الحالات النادرة والمحدودة والاستثنائيّة[١].

حتّى استوى في بعض الحالات واقع الأمّة في إسلامها وفي جاهليّتها، وبقي في واقع الناس من الإسلام واقعًا شكليًّا بعيدًا عن الجوهر والمضمون والأساس الفاعل والمؤثّر في حياة الناس، وبذلك فعلًا كانت المأساة كبيرة جدًّا؛ لأنّهم غيَّبوا من الدين ما به صلاح الناس والحياة، وما تتعزّز به مكارم الأخلاق والصفات الحميدة وما يبني واقع الأمّة على ما أراده الله لها كأمّةٍ مستخلفةٍ في الأرض، لها مسؤوليّة كبيرة ويُناط بها مهام عظيمة وجسيمة، ويُراد لها أن يكون لها الريادة والسيادة في الأرض، ووصلت الأمور إلى أن وصلت فعلًا الحالة التي عاشها الإمام الحسين عليه السلام ما قبل الشهادة إلى حالة غربة، وهي غربة تلك القيم والأخلاق في واقع الأمّة.

للقيم والأخلاق، في أيّ أمّة، دورٌ أساسيٌ في دينها، ومعظم الدين هو قيم وأخلاق، وما يتفرّع في واقع الإنسان من العمل على المستوى الفردي أو الجماعي من الأعمال والتصرّفات هي ترجمة لتلك القيم وتفريعات عنها وعن تلك الأخلاق التي تجسّدها وتتفرّع وتعبِّر عنها، وهي نتاجٌ لها، إذ إنّ أعمال الإنسان وتصرّفاته هي نتاج لأخلاقه، فهو يتصرّف بطبيعة أخلاقه، يتّخذ المواقف قوله وفعله وتصرّفاته كلّها.

هذه الأخلاق والقيم عمل بنو أميّة على طمسها وتغييرها حتّى ينسى الناس الدين، وهكذا يُنسى الحسين كما يُنسى قبله محمّد، وعلي، ويُنسى القرآن، وتُتَجاهل كلّ تلك الآيات القرآنيّة، أكثر من خمسمئة آية في **القرآن الكريم** تتحدّث عن الجهاد في سبيل الله، والمئات الأخرى من الآيات القرآنيّة التي لها موقف واضح تجاه الظالمين، والكافرين، والجائرين، وأهل الكتاب، واليهود والنصارى، يتمّ تجاهل ذلك كلّه، لكي تُقدّم صورة أخرى عن الدين،

---

(١) من خطاب السيّد عبد الملك بمناسبة عاشوراء ١٤٣٦ هـ.

والإسلام، ورموزه، عمّن يجب أن ترتبط وتقتدي الأمّة بهم. من أحوج ما تحتاج إليه الأمّة أن تكون على بصيرة بمن ترتبط بهم في موقع القدوة؛ وإلّا فللأسف الشديد يصبح التنصّل عن المسؤوليّة، ورفض الجهاد، والابتعاد عن الحقّ، والموقف القرآني من الظالمين والجائرين والرضوخ لهم، والسكوت والصمت دينًا يتديَّن به البعض! وتتحوّل المساجد إلى سجون للظالمين، يُسجن الناس فيها سجنًا ويُدجَّنُون من خلالها، ويصبح مشروعًا علميًّا، دينيًّا، يتم التوجّه على أساسه في واقع الحياة والحثّ عليه والدعوة إليه، وهذه قضيّة خطيرة.

وكم نحتاج في عصرنا هذا، وهو عصر خطر جدًا، والسكوت فيه جريمة كبيرة، له مخاطر جمّة، والأمّـة على حافّة الهاوية، يتمّ فيه استحكام قبضة الأعداء من اليهود والنصارى عليها إلى مستوى ليس له سابق، أو مثيل فيما مضى، وأمام هذه المخاطر الكبيرة تحتاج الأمّة إلى هذه الروحيّة؛ روحيّة الإمام الحسين وعزيمته[١].

وفي منتصف شهر رجب، سنة ستين للهجرة، غادر معاوية بن أبي سفيان الدنيا بعد حياة حافلة بالظلم والطغيان والفساد والتحريف للدين، وبعد أن أحيا الموروث الجاهلي، وأعاد الأمّة إلى جاهليّة هي أسوأ من الجاهليّة الأولى، ولم يكتفِ بما فعل بالأمّة في حياته، وإنّما ختم حياته بتنصيب ابنه يزيد - السكّير، الخمّير، المستهتر بالدين وبالأمة وبالمقدّسات - على رقاب هذه الأمّة ليواصل مسيرة الظلم والطغيان.

وممّا جاء في عهد تنصيبه: «هذا ما عهد (به) معاوية بن أبي سفيان أمير المؤمنين إلى ابنه يزيد بن معاوية: أنه قد بايعه، وعهد إليه، وجعل الأمر من بعده إليه، وسمّاه أمير المؤمنين، على أن يحفظ هذا الحيّ من قريش، ويبعد قاتل الأحبّة هذا الحيّ من الأنصار، وأن يقدّم بني أميّة وبني عبد شمس على بني هاشم وغيرهم... إلى أن قال: فمن قرئ عليه هذا الكتاب وقبله وبادر إلى طاعة أميره أُكرِم وقرب، ومن تلكأ عليه وامتنع فضرب الرقاب».

---

(١) من خطاب السيّد عبد الملك لمناسبة عاشوراء ١٤٣٢ هـ.

فلمّا خرجوا من عنده أقبل على يزيد وقال: يا بنيّ، إنّي قد وطّأت لك البلاد، وأذللت الرقاب وبُوئت بالأوزار، ولست أخاف عليك من هذه الأمّة إلّا أربعة نفر من قريش: فرخ أبي تراب شبيه أبيه، وقد عرفت عداوته وعداوة آله لنا، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وعبد الرحمن بن أبي بكر.

فأمّا عبد الرحمن بن أبي بكر فمغرم بالنساء، فإن بايعك الناس بايعك، وأمّا ابن عمر فما أظنّ أنّه يقاتلك ولا يصلح لها، فإنّ أباه كان أعرف به، وقد قال: كيف أستخلف رجلًا لم يحسن أن يطلق امرأته.

وأمّا الحسين بن علي، فإنّ أهل العراق لا يدعونه حتّى يخرجوه عليك ويكفيكه الله بمن قتل أباه، وأمّا ابن الزبير فإنّ أمكنتك الفرصة فقطّعه إربًا إربًا، فإنّه يجثم جثوم الأسد ويروغ روغان الثعلب(١).

فلمّا توفّي معاوية، واعتلى يزيد الخلافة، وتسمّى بأمير المؤمنين كتب إلى ولاته بأخذ البيعة له. وكان الوليد بن عتبة بن أبي سفيان واليًا على المدينة فكتب إليه يزيد أن يأخذ البيعة من أهل الحجاز، ومن أبى منهم قتله، وشدّد عليه بأخذ البيعة من الحسين عليه السلام وعبد الله بن الزبير.

دعا الوليد (مروان بن الحكم) واستشاره. فقال: أحضرهم الساعة قبل أن ينتشر موت معاوية فمن أبى البيعة فاضرب عنقه. فقال الوليد: والله لا أفعل. أأقتل الحسين؟

فقال مروان كالمستهزئ به: أصبت.

ودعا الوليد الحسين بن علي وابن الزبير، فقال ابن الزبير للحسين عليه السلام: فيمَ تراه بعث إلينا هذه الساعة؟

---

(١) **المصابيح في السيرة** لأبي العباس الحسني.

قال: إنّي أظنّ أن طاغيتهم قد هلك، فيريد معاجلتنا بالبيعة ليزيد (الخمّير) قبل أن يدعو الناس، فقد رأيت البارحة فيما يرى النائم منبر معاوية منكوسًا وداره تشتعل نيرانًا.

ثمّ عاودهما رسول الوليد، فدخل الحسين عليه السلام منزله فاغتسل وتطهّر وصلّى عدة ركعات، ودعا واستخار الله، ودعا جماعة من أهل بيته ومواليه وأمرهم بحمل السلاح، وقال لهم: إنّ الوليد قد استدعاني في هذا الوقت، ولست آمن أن يكلّفني فيه أمرًا لا أجيبه إليه، وهو غير مأمون، فكونوا معي فإذا دخلت إليه فاجلسوا على الباب، فإن سمعتم صوتي قد علا فادخلوا.

فصار الحسين عليه السلام إلى الوليد بن عتبة فوجد عنده مروان بن الحكم فنعى إليه الوليد معاوية فاسترجع الحسين ثمّ قرأ عليه كتاب يزيد وما أمره فيه من أخذ البيعة منه له.

فقال الحسين عليه السلام: فنصبح ونرى في ذلك، فقال الوليد: انصرف حتّى تأتينا مع الناس.

فقال مروان: والله لئن فارقك الساعة ولم يبايع لا تقدر منه على مثلها أبدًا حتّى يكثر القتلى بينكم وبينه، احبس الرجل ولا يخرج من عندك حتّى يبايع أو تضرب عنقه.

فوثب الحسين عليه السلام عند ذلك وقال: أنت يا ابن الزرقاء تقتلني أم هو؟ كذبت والله وأثمت[١].

ثمّ أقبل على الوليد فقال: أيّها الأمير! إنّا أهل بيت النبوّة، ومعدن الرسالة، ومختلف الملائكة، بنا فتح الله، وبنا ختم، ويزيد رجل فاسق شارب الخمر، قاتل النفس المحرّمة، معلن بالفسق، ومثلي لا يبايع مثله، ولكن نصبح وتصبحون، وننظر وتنظرون، أيّنا أحقّ بالبيعة والخلافة، ثمّ خرج عليه السلام.

---

(١) **المصابيح في السيرة** لأبي العباس الحسني ، **بحوث في الملل والنحل** للسبحاني.

ولحق به مروان فقال: يا أبا عبد الله أطعني وبايع أمير المؤمنين يزيد.

فقال الإمام الحسين عليه السلام: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، ويلك يا مروان، مثلك يأمرني بطاعته، وأنت اللعين ابن اللعين على لسان رسول الله؟!

فرادَّه مروان. فخرج مغضبًا[١].

ثمّ بعد ذلك، وبعد أن اشتدّ الحال، قرّر الإمام الحسين عليه السلام أن يخرج للثورة ولردّ الظلم، ويتّجه صوب مكّة، وأوّل ما فعله هو وداع قبر جدّه المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم.

فلمّا كان بعض الليل، أتى الحسين عليه السلام قبر رسول الله فودّعه وصلّى ما شاء الله وغلبته عيناه، فرأى كأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم احتضنه وقبّل ما بين عينه وقال: يا بنيّ العجل العجل، تأتي إلى جدّك وأبيك وأمّك وأخيك.

فانتبه عليه السلام وأخبر أهل بيته.

ثمّ ودعهم وخرج بمن خرج معه من ولده وإخوته وبني أخيه وبني عمّه نحو مكّة، فقدمها وأقام بها خمسة أشهر أو أربعة[٢].

يصوّر السيّد عبد الملك (حفظه الله) مشهد خروج الحسين عليه السلام من مدينة جدّه المؤلم فيقول:

«مدينة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كانت يومًا ما منطقة عامرة بالإسلام، عامرة بالحقّ، من على منبر المسجد كان يوجّه رسول الله محمّد ذلك النور الإلهي، الوحي الطريّ المُنزل، وبه يعالج قلوبًا مرضى ويشفي نفوسًا ويزكّيها ويطهّر قلوبًا ويقوّم سلوكًا وعملًا، ويبني هذه الأمّة ويصلحها.

ومن ساحة تلك المدينة، كانت تتحرّك ألوية وسرايا الجهاد في سبيل الله تحت قيادة النبيّ من أجل الإسلام، ومن أجل أن يسود العدل، ويقوم

---

(١) **المصابيح في السيرة** لأبي العباس الحسني.

(٢) المصدر نفسه.

الحقّ، ويزول الظلم، وتُطهَّر الأرض من الفساد والجريمة؛ لكن في مرحلة متأخّرة بعد أفاعيل وعمل ومشاريع لهدم هذه الأمّة ولهدم جهود النبي فيها، وجد الإمام الحسين عليه السلام نفسه غريبًا في مدينة جدِّه لا ناصر ولا مجيب، يدعو فلا مجيب له، يضطر لأن يخرج من تلك المدينة خروج موسى من مصر، وخروج رسول الله من مكّة وهو يتلو قول الله تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ﴾[1].

من مدينة جـدِّه، حيث يرقد النبي المصطفى محمّد صلى الله عليه وآله وسلم في ذلك الثرى، وفي تلك التربة وجد ابنه، حفيده، نسخته المصغَّرة، وريثه في الأمة، القائم مقامه وجد نفسه غريبًا لا مجيب ولا ناصر، وقد ساد التخاذل ذلك المجتمع، الرضا والقبول بكلّ شيء؛ القبول بأن يُظلَموا، بالفساد، بالجريمة، مجتمع لا يوجد عنده أيّ ممانعة.

خرج واتجه صوب مكّة، وهناك على أمل اجتماع الناس في الحجّ أن يحاول سبط رسول الله وحفيده ونسخته المصغّرة، استنهاض الناس هناك في مكّة المكرمة أثناء فريضة الحجّ أو توافدهم من أجل تأديتها، أن يُذكِّر الأمّة بمسؤوليّتها، وبالخطورة الكبيرة حينما سلَّمت زمامها وقيادتها وشؤونها ودينها ودنياها لطاغية فاجر فاسق تعرف الأمّة فجوره وفسقه وطغيانه ولا يمكن أن يُقدِّم لهذه الأمّة إلّا ما يتحلَّى به وما يُعرف عنه.

وصل مكّة والتقى بوفود الحجيج من شتّى أقطار العالم الإسلامي وبصوته الحُرّ، صوت الحُريَّة، صوت الحقّ، صوت القرآن، صوت الإسلام، ذكَّر الأمة هناك، المذكِّر هو الحسين معروف بمقامه في هذه الأمّة برؤياه، بكلماته، بمواقفه، نتذكّر الجنّة حينما نعرف أنّه سيّد شباب أهل الجنّة، يقود إلى الجنّة، يسير في اتجاهها، وفي اتجاه رضوان الله، إلى العزّ والمجد، لكن لا مجيب. كان يقول: «إنّي لم أخرج أشرًا ولا بطرًا ولا تكبرًّا ولا ظالمًا ولا مفسدًا إنّما خرجت لطلب الإصلاح في أمّة جـدّي»؛ لأنّ الأمّة فعلًا كانت بحاجة إلى

(١) سورة **القصص**، الآية ٢١.

إصلاح، أمّة فسدت وفقدت كلّ القيم، فقدت الضمير، والمسؤوليّة، والشعور بالعزّ، فقدت الطُّهر، والصلاح.

وعبارة «إنّما خرجت لطلب الإصلاح في أمّة جدّي» تعني أنّه يعرف مسؤوليّته من بعد جدِّه أن يسير على خطاه وفي طريقه لإصلاح أمّته ﷺ، «أريد أن آمر بالمعرف وأنهى عن المنكر».

فلم يكن موقفه ناشئًا عن فراغ أبدًا، ولم يكن منافيًا للحكمة، ولم يكن تهوّرًا، ولم يكن من أجل قضيّة شخصيّة، كان لخروجه هدف عظيم، وهو إصلاح واقع هذه الأمّة؛ الواقع السيّئ الخطير التي كانت تمرّ به، «أريد أن آمر بالمعرف وأنهى عن المنكر» باعتبار هذا مسؤوليّة حتميَّة يفرضها القرآن، يفرضها الله، يفرضها الإيمان نفسه.

فالإمام الحسين عليه السلام يتحرّك على هذا الأساس، الأمّة التي أراد الله لها كما قال سبحانه وتعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ﴾[1] هذا هو البنيان، هذا هو الأساس، هذا هو الصرح الذي أُريد لهذه الأمّة؛ أمّة تأمر بالمعروف، تقيم العدل والحق. ولكي تكون هذه الأمّة على قدر من المسؤوليّة تحتاج إلى أن تكون مهتدية، تكون نفوس أبنائها نفوسًا زاكية، وقلوبهم قلوبًا طاهرة، وسلوكهم سلوكًا مستقيمًا، ساحة داخليّة طاهرة ونظيفة، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتنطلق على أساس الإيمان بالله سبحانه وتعالى.

ولكي تحقّق هذا الهدف، تحتاج الأمّة كذلك إلى من يقودها، ويكون متحكّمًا بها، راعيًا لها، رمزًا من رموز الحقّ، وعلمًا من أعلام الهدى، قرينًا للقرآن، من أولياء الله سبحانه وتعالى؛ لكن للأسف الشديد، المدى الذي كانت قد وصلت إليه الأمّة من الانحراف، كان قد أوصلها إلى مستوى التنكُّر للقرآن ومبادئه، التنكُّر والعداوة للحقّ، حتّى أصبحت مهيَّأة ليكون معظم

---

(١) سورة **آل عمران**، الآية ١١٠.

جماهيرها جاهزين وحاضرين لأن يتحرّكوا بسلاحهم وعتادهم ضدّ من يعمل على هدايتهم، ويسعى لإنقاذهم، ويعمل رأفة بهم وشفقة عليهم؛ ليخرجهم من الظلمات إلى النور، من الضلال إلى الهدى، من مستنقع الظلم والفساد إلى واحة العدل، إلى طريق الحقّ.

هكذا كانت الأمة قد هُيِّئت وانحرفت إلى حدٍّ كبير، وتنكّرت لقرآنها، ولربّها، ولتعاليم دينها، وخنعت وخضعت لطغاتها، وأشرارها، وسُفهائها، وجبابرتها، من ليس لديهم أيّ حرص عليها، ولا شفقة بها، ولا إرادة للخير لها»[١].

«لم يقبل الإمام الحسين أبدًا بالبيعة ليزيد، ولم يقبل أبدًا بالخنوع والسكوت والجمود؛ لأنّه يدرك مدى خطورة ذلك. كان إيمانه، وعزّته، وقيمه، ونفسيّته العظيمة التي تشبّعت بكلّ ما في الإيمان، وبالارتباط الوثيق بالله سبحانه وتعالى، فأبت له أن يسكت، أو أن يخضع، أو أن يستسلم، أو أن يتقبّل هذا الواقع السيّئ، وكانت مسؤوليّته تجاه أمّة جدّه تفرض عليه أيضًا أن يتحرّك في أوساط الأمّة، وأن ينادي بأعلى الصوت وبكلّ قوّة بالموقف الحقّ، وأن يدعو الأمّة إلى التحرّك الصحيح لرفض كلّ ذلك الباطل السيّئ الذي يراد له أن يفرض سوءه وأن يتحكّم بها.

فهو عليه السلام تحرّك عن وعي، عن بصيرة، عن قناعة راسخة، تحرّك بحركة القرآن، بما يمليه عليه القرآن، وبما تمليه عليه هويّته الإيمانيّة، وارتباطه الوثيق، وبما تفرضه عليه المسؤوليّة. تحرّك بكلّ عزّ، وبكلّ إباء، وبكلّ شموخ، وهو يقول: «يزيد فاسق فاجر، شارب الخمر، قاتل النفس المحرّمة، معلن بالفسق والفجور، ومثلي لا يبايع مثله»، ويرى الحالة الجديدة التي قد سادت في واقع وفي أوساط الأمّة، بكلّ ما تمثّله من خطورة رهيبة.

---

(١) من خطاب السيّد عبد الملك بمناسبة عاشوراء ١٤٢٩هـ.

رأى أنّ هناك شكلًا جديدًا للإسلام، ليس هو الإسلام المحمّدي، ولا الإسلام القرآني، هو الإسلام بثوبه الأموي الجديد؛ ثوب النفاق، ثوب الضلال، الذي يريد أن يسود في واقع الأمّة إسلامًا لا يبقى منه إلّا شكليَّات مُجَيَّرة بما يخدم الظالمين، ويفيدهم ويدعم موقفهم، تبقى المساجد والمنابر والمال العام لخدمتهم، وبعض العناوين الدينيّة التي تُفرَّغ من محتواها الحقيقي، ثمّ تُضَمَّن بمحتوى آخر هو باطل، وضلال، وفساد، يبقى العنوان عنوانًا إسلاميًّا، والمضمون مضمونًا أمويًّا نفاقيًّا، كلّه ضلال، وكلّه طغيان، وانحراف بالأمّة.

رأى هذا الواقع المُرّ، هذا الواقع المأساوي الذي عبّر عنه بقوله: «ألا ترون أنّ الحقّ لا يعمل به، وأنّ الباطل لا يُتَنَاهى عنه»، الحق يزاح من واقع الحياة، يبقى الإسلام من دون حقّ، أيّ إسلام هذا الذي أزيح منه الحقّ، الحقّ بكلّ تفاصيله، الحقّ في عقيدة الأمّة، الحقّ في ثقافة الأمّة، الحقّ في سياسة الأمّة، الحقّ في العمل، والحقّ في الموقف، والحقّ في السلوك، الحقّ يزاح من واقع الحياة، يبقى الإسلام حينئذٍ مجرّد عناوين شكليّة مُجَيَّرة لصالح الطغاة، والمستكبرين.

أمّا الباطل فهو الذي سيسود ويحضر تَحتَ غطاء الإسلام بكلّ ما يشمل ويتضمّن؛ حينئذٍ تكون العمليّة عمليّة مسخ لهويّة الأمّة، وعمليّة تفريغ للدين كلّه من محتواه الفاعل والحيوي والمهمّ والبنَّاء والمفيد في واقع الحياة.

وهذا الذي رأينا آثاره السيّئة في واقع الأمّة، على مدى تاريخها، وإلى ما وصلت إليه اليوم، وهو واقع مأساوي ومرير.

والإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ هو الذي قال للأمّة في عصره وفي كلّ عصر فيما قاله رسولها محمّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: »أيّها الناس، إنّ رسول الله قال: من رأى سلطانًا جائرًا، مُستَحلًّا لحرم الله، ناكثًا لعهد الله، مخالفًا لسنّة رسول الله، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان؛ فلم يغيّر عليه بفعلٍ ولا قولٍ كان حقًّا على الله أن يدخله مدخله«، إذًا، فانتماؤنا نحن المسلمين لهذا الإسلام يفرض

علينا - كفرض ديني ومسؤوليّة دينيّة - أن لا نذعن، وأن لا نستكين، وأن لا نخنع لسلاطين الجور، لزعماء الطغيان والظلم والفساد والإجرام.

حينما يكون مَن يحكم الأمّة، ومَن هو في موقع الزعامة والقرار والسلطة سلطانًا جائرًا لا يلتزم بالعدل، يعتمد على الجور في ممارساته وحكمه ومواقفه وإدارته للأمّة، ثمّ هو مستحلّ لما حرّم الله، ليس لديه ضوابط، ولا قيود أبدًا، ولا حرمة لحرم الله، وحرمُ الله هي التي تصون الأمّة، سَفْكُ الدِّماء بغير حقّ هو من حُرَم الله، الأمّة كلّها، الإنسان بكرامته، الإنسان بكرامته وحقّه في الحياة؛ هو من حُرَمِ الله، حُرَمُ الله إذا استُحلّت معناه: أن تُستباح الأمّة، ويُستباح فيها كلّ شيء.

وهذه النماذج هي التي نراها اليوم ماثلة أمامنا، تعتدي على بلدنا، وبلدُنا اليوم يُراد له أن ينسلخ من كلّ هذه المبادئ والقِيَم؛ لأنّها هي التي تمثّل ضمانة لتماسكه ولثباته ولصلابة موقفه»[١].

ف«ما الذي دفع الإمام الحسين عليه السلام - سبط رسول الله محمّد صلى الله عليه وآله وسلم علم الهدى وقرين القرآن - إلى ذلك التحرّك الذي ضحّى فيه بنفسه، وبأسرته وأهل بيته، وبالبقيّة الباقية من أهل الوفاء الذين كانوا أوفياء معه، ما هو ذلك التحدّي؟ ما هي تلك الأخطار؟ ما هي تلك الأحداث؟

إنّنا حينما نعود إلى تاريخ الأمّة نجد أنّ الانحرافات الكبرى في واقع الأمّة، وأنّ المتغيّرات التي عصفت بالأمّة نتج عنها أمر خطير للغاية، وهو وصول شخصٍ مجرم ظالم مستكبرٍ طاغيةٍ مستهتر بالإسلام جملة وتفصيلًا، لا قيمة عنده لشيءٍ في الإسلام، ولا من الإسلام، مستهترٍ حتّى برسول الإسلام وبالقرآن الكريم، وبالأمّة الإسلاميّة جمعاء، يرى في الرعيّة عبيدًا، يرى فيها الأمّة التي يريد أن يركّعها له، وأن يخضعها له، وأن يستعبدها بكلّ ما تعنيه الكلمة. وصول هذا الطاغية نتيجة الانحرافات السابقة إلى موقع القرار، إلى

---

(١) من خطاب السيّد عبد الملك بمناسبة عاشوراء ١٤٣٨هـ.

موقع السلطة، إلى موقع الحكم؛ أميرًا وقائدًا وزعيمًا وسلطانًا على الأمّة؛ كان يمثّل خطورة كبيرة جدًّا في كلّ شيء، ابتداءً في هويّتها الإسلاميّة، ومبادئها، وقِيَمِها، وأخلاقها، إلى حقيقية الإسلام جملة وتفصيلًا.

ولذلك، كانت المسألة مسألة خطيرة جدًّا، يترتّب عليها نتائج كارثيّة في واقع الأمّة، يترتّب عليها هدم حقيقي لكلّ الجهود التي كان قد بذلها وقدّمها رسول الله محمّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، ومن معه من المؤمنين، وذهاب لكلّ تلك التضحيات سدًى، واستئناف للجاهليّة بشكل أبشع وأسوأ ممّا كانت عليه، وبشكل فظيع. فاتخذ الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ ببصيرته العالية، وبعلمه، وفهمه الصحيح، وهو قرين **القرآن الكريم**، قراره وشخَّصَ حقيقة الخطر، ومستواه فتحرّك»[1].

(١) من خطاب السيّد عبد الملك بمناسبة عاشوراء ١٤٣٨هـ.

ثانيًا- أحداث الثورة

«هنا نشير إلى موضوع مهمّ للغاية؛ هو كيف جسَّد الإمام الحسين الإسلام؟ كيف مثَّله؟ وكيف قدَّم الإسلام في مواقفه، في ثباته، في سلوكه، في صبره، في صموده؟، وهذا درس مهمّ لهذه الأمّة نحتاج إليه حاجة ماسّة في هذا العصر المليء بالطغاة والطغيان والمجرمين والظلم والاستبداد.

حينما وصل الإمام الحسين عليه السلام إلى كربلاء وحُوصِر هناك، ووقف بوجهه حتّى أولئك الذين كاتبوه وراسلوه وعاهدوه، فتغيّروا وتغيّرت مواقفهم نتاج تلك التحوّلات التي سمَّيناها (انقلابًا) في المجتمع الإسلامي، ووقفوا جنودًا مجندةً مع من؟ مع ابن زياد ويزيد، مع الفُجور، مع الظلم، مع الطغيان، مع الحقد والضغينة، مع الفساد، مع المنكر، في وجه الحسين وهم يعرفون من هو، ويعرفون دعوته وماذا يريد وماذا يسعى إليه وهو الخير لهذه الأمّة، هو يريد لهذه الأمّة السعادة والعزّة. في تلك الحال، وقف الإمام الحسين عليه السلام بين خيارين: بين أن يصمد على مبدئه وعلى موقفه ويثبت ولو ضحَّى بما ضحَّى وكان حجم المظلوميّة والأسى والألم على مستوى كبير، أو أن يتراجع ويسكت ويتغيّر كما كان الحال غالبيّة الأمة حتّى وجهائها، وعلمائها، وعبَّادها، وكبارها آنذاك» [١].

---

(١) من خطاب السيّد عبد الملك بمناسبة ١٤٢٩هـ

لم يكن الإمـام الحسين عليه السلام شخصًا غريبًا عنهم، ولا كانت دعوته مُستهجنة ولا مُنكرة ولا من خارج الدين ومنبع الهدى الذي تنتمي إليه هذه الأمّة.

كان الحسين عليه السلام رجلًا معروفًا، وهو سبط النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وأن يكون سبط النبي فهو يعني أنّه في الدرجة الثانية، فبعد الأنبياء أوصياؤهم، وبعد الأوصياء الأسباط. هو سبط النبي صلى الله عليه وآله وسلم يعني الشخص الذي وقف النبي يومًا أمام الملأ ليقول للأمّة عنه: «حسين منّي وأنا من حسين، أحبّ الله من أحبّ حسينًا، حسين سبط من الأسباط». وحينما وقف النبي ذلك الموقف ليقول لأمّته هذا الكلام فهو يُقدّم الحسين على أنّه نسخة مصغّرة منه في هذه الأمّة. على أن يكون هو بعد جدّه في مرحلة معيَّنة، في وقت معيَّن، في زمن معيَّن يتولّى هو موقف النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، يقف مقامه صلى الله عليه وآله وسلم. ورث من جدِّه إيمانًا وطهرًا وصلاحًا وزكاءً ونورًا وهدى وحرصًا على هداية أمّة جدِّه، حرصًا على صلاحها وعزّتها.

وعندما أخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم الأمّة عن الحسين عليه السلام وأنّه سيُقتَل بسيوف ظالميها في حالة انقلاب، ذكّر بهذه القضيّة حتّى لا يكون هناك أيّ اشتباه في الحسين ولا في قضيّته ولا في مقامه.

إذًا، مقام الحسين عليه السلام مقام معروف،. الحسين لم يكن مجهولًا ولم تكن قضيّته مشتبهة حتّى أنّ الأمّة لا تعرف هل هو على حقّ أم هو على باطل! لا؛ لكنّ الأمة هي التي كانت قد وصلت إلى حالة خطيرة من الابتعاد عن قيم الإسلام من بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم؛ حيث رُبِّيت تربية ثانية، تربية تختلف عن تربية الإسلام، تختلف عن تربية القرآن، وتربية محمّد صلى الله عليه وآله وسلم. تربية توصل إلى أن يكون الإنسان في ذلك المستوى الدنيء يُجنِّد ويُعبِّد نفسه مع الطغاة المجرمين، مع من يذهبون به إلى نار جهنّم، مع من يدفعون به في مواقف كلّها ظلم، كلّها باطل، كلّها طغيان يكون الإنسان قد وصل إلى حالة يقبل بأن يكون مجرمًا، مفسدًا، رذيلًا، تافهًا، حقيرًا يُدنِّس نفسه، يدفع بنفسه في مواقف إثم، عدوان، باطل. والبعض الآخر يقبل بأن يكون شاهد زور

ومتفرّجًا على الأحداث وكأنّه غير معنيّ بما يحصل، قد ذهبت من نفسه روح المسؤوليّة والشعور بها التي ربّانا عليها الإسلام، وربّانا عليها رسول الإسلام محمّد، وهي نتاج تربية القرآن الكريم.

عندما خرج الإمام الحسين عليه السلام في هذه الأمّة في مرحلة معيَّنة قد قبلت هذه الأمّة بأن يحكمها ويدير شؤونها ويتحكّم في رقابها ويتولّى أمرها وشأنها ودينها ودنياها رجل هو من أسوأ الناس، شيطان من شياطين الإنس، مجرم من أكابر المجرمين، أمّة كان يديرها محمّد، ويوجّهها، ويقودها، فإذا هي تذهب بنفسها لتكون تحت ولاية وقيادة مجرم من أسوأ المجرمين هو يزيد، يزيد القرود، يزيد الخمور، تذهب من الطهر إلى الدنس، إلى الرجس، تبتعد عمَّن أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيرًا، عن سبط رسول الله، عن سيّد شباب أهل الجنّة الذي يقود هذه الأمّة إلى الجنّة، تذهب إلى يزيد وتقبل بيزيد ويتحكّم بشؤونها يزيد، يقودها، يسودها، يتولّى دينها ودنياها، يتحكّم على رقاب أهلها ويستعبدهم.

ف«يزيد لم يكن أيضًا شخصيّة مجهولة. الأمّة تعرف أنّه عنصر ضالّ مفسد مجرم، مشهور بالخمر، ويجعل على أحد الكراسي بجواره على أحدهما قردًا وعلى الآخر سرجون النصراني، وهو سرجون الرومي كان يمثِّل ما يمثّله السفراء الأمريكيّون اليوم في المنطقة العربيّة، كان سفير الروم النصارى عند يزيد ومستشارًا له، يشير عليه بالرأي ويدبِّره ويوجِّهه ويأمره وينهاه. إذًا، كان بجوار يزيد عن يمينه قرد وعن يساره ماذا؟ رجل نصراني يحمل كلّ الحقد والضغينة لهذه الأمّة، لا يريد لهذه الأمّة ولا ذرَّة من الخير، ولا يهمّه أن يكون لها أيّ شيء من الصلاح، أن يتولّى أمّة كان على رأسها محمّد، النبيّ العظيم، الذي أراد للأمّة أن تكون أمّة عظيمة، طاهرة، مقدّسة، رسالتها عظيمة، ساحتها طاهرة ونظيفة، أمّة قويّة عزيزة شريفة طاهرة، رسالتها الإسلام، وموقفها ضدّ المنكر، أن يصل الحال إلى أن يكون من يسودها ويقودها ويتحكّم برقاب أهلها وفي شؤون حياتهم وأمورهم رجل الخمر، كؤوس الخمر كانت نادرًا ما تفارقه حتّى مجالسه العامّة، المُجُون، الفسق، الجريمة.

وإنسان كهذا ماذا يمكن أن يُقدِّم للأمّة؟! هل سيصنع للأمّة مجدًا؟! أو سيسود فيها الخير؟! معه الجريمة، والظلم، معه الطغيان يُفسِد هذه الأمة، يُضلّها، يكسبها من رجسه ويصبغ عليها من فجوره وطغيانه ورذيلته وسوئه وقبحه فيحوِّل هذه الأمّة التي أُريد لها أن تكون أمّة عظيمة، ممجّدة، طاهرة، صالحة تنشر دين الله في الأرض وتقيم الحقّ والعدل والخير وتتّجه إلى طريق الله وإلى الجنَّة، والسعادة، والفلاح، مثل هذه الأمّة عندما يسودها ويقودها ويتحكّم بشؤونها مجرم لن يُقدَّم للأمّة إلّا الجريمة والفساد والظلم والضرر»[١].

نعود إلى النصّ التاريخي لما حدث والذي رواه المؤرّخون ومنهم المؤرّخ أبو مخنف:

بلغ أهل الكوفة نزول الإمام الحسين عليه السلام مكّة وإعلانه الثورة على الظلم، وأنّه لم يبايع يزيد، فوفد إليه وفدٌ منهم، عليهم أبو عبد الله الجدلي، وكتب إليه شبث بن ربعي، وسليمان بن صُرد، والمسيّب بن نجبة، ووجوه أهل الكوفة يدعونه إلى بيعته وخلع يزيد.

فقال لهم: أبعث معكم أخي وابن عمّي فإذا أخذ لي بيعتي وأتاني عنهم بمثل ما كتبوا به إليّ قدمت عليهم.

ودعا مسلم بن عقيل فقال: اشخص إلى الكوفة، فإن رأيت منهم اجتماعًا على ما كتبوا ورأيته أمرًا ترى الخروج معه فاكتب إليّ برأيك.

فخرج حتّى قدم الكوفة، ونزل دار المختار بن أبي عبيد الثقفي، وبايعه من أهلها ثمانية عشر ألفًا سوى أهل البصرة، وحلفوا بأيمان مغلّظة ليجاهدن معه بأموالهم وأنفسهم.

فكتب مسلم بن عقيل إلى الإمام الحسين عليه السلام يستقدمه ويستحثّه.

---

(١) من خطاب السيّد عبد الملك بمناسبة عاشوراء ١٤٢٩ هـ.

ودخل رجل ممّن يهوى يزيدًا يقال له عبد الله بن مسلم الحضرمي على النعمان بن بشير وهو والي الكوفة من قبل النظام الأموي فأخبره بما حصل مع مسلم بن عقيل.

وقال له: إنّك لضعيف.

فقال النعمان: لأن أكون ضعيفًا في طاعة الله خير من أن أكون قويًّا في معصيته.

فكتب بشأنه إلى يزيد، فاستشار (سرجون) النصراني، وكان لا يخالفه الرأي، يشير عليه ويدبِّره ويوجِّهه ويأمره وينهاه.

فقال: ليس لها إلّا عبيد الله بن زياد، وكان عامله على البصرة، وكان يزيد واجدًا عليه وهَّمَ بعزله.

فكتب إليه بولايته على الكوفة مع البصرة، وأمره أن يدسّ إلى مسلم بن عقيل حتّى يأخذه.

فخرج عبيد الله بن زياد حتّى أتى الكوفة فدخلها متلثّمًا، فجعل يمرّ بمجالسهم يسلّم عليهم فيردّون عليه وعليك السلام يا بن رسول الله، وهم يرون أنّه الحسين بن علي عليه السلام(١).

قال أبو مخنّف: إنّ ابن زياد أقبل من البصرة ومعه مسلم بن عمر الباهلي، والمنذر بن عَمرو بن الجارود، وشريك بن الأعور، وحشمه وأهله، حتّى دخلوا الكوفة وعليه عمامة سوداء متلثّمًا، والناس ينتظرون قدوم الحسين عليهم، فأخذ لا يمرّ على جماعةٍ من الناس إلّا سلّموا عليه وقالوا: مرحبًا بك يا ابن رسول الله قدمت خير مقدم، ورأى من الناس من تباشُرهم بالحسين ما ساءه، فأقبل حتّى دخل القصر.

---

(١) **المصابيح في السيرة** لأبي العباس الحسني.

قال: لما نزل ابن زياد القصر نودي في الناس: الصلاة جامعة، فاجتمع إليه الناس فخرج إلينا فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

أمّا بعد، فإنّ أمير المؤمنين [يزيد] ولّاني مِصركم وثَغركم وفيئَكم، وأمرني بإنصافِ مظلومكم وإعطاء محرومكم، وبالإحسان إلى سامعكم ومطيعكم وبالشدّة على مُريبكم، فأنا من مطيعكم كالوالد البرّ الشفيق، وسيفي وسوطي على من ترك أمري وخالف عهدي، فليبق كلّ امرئ على نفسه (الصدق ينبئ عنك لا الوعيد) ثمّ نزل.

سمع مسلم بن عقيل بمجيئ عبيد الله بن زياد ومقالته فأقبل حتّى أتى دار هانئ بن عروة المرادي، فدخل في بابه فأرسل إليه أن أخرج إليّ، فقال: إنّي أتيتك لتجيرني وتُضيفني.

قال له: رحمك الله لقد كلّفتني شرطًا لولا دخولك داري وثقتك بي لأحببت لشأنك أن تنصرف عنّي؛ غير أنّي أخذني من ذلك ذمام، أدخل، فدخل داره.

فأقبلت الشيعة تختلف إليه في دار هانئ بن عروة، وجاء شريك بن الأعور حتّى نزل دار هانئ وكان شيعيًّا.

ودعا ابن زياد مولى له يقال له مِعقل، فقال له: خذ هذه الثلاثة الآلاف الدرهم ثمّ التمس لنا مسلم بن عقيل واطلب شيعته وأعطهم الثلاثة الآلاف الدرهم، وقل لهم: استعينوا بهذه على حرب عدوّكم وأعلمهم بأنّك منهم.

ففعل ذلك وجاء حتّى لقي مسلم بن عوسجة الأسدي في المسجد الأعظم، وسمع الناس يقولون هذا يبايع للحسين بن علي وكان يصلّي، فلمّا قضى صلاته جلس إليه فقال له: يا عبد الله إني امرؤًا من أهل الشام مولى لذي الكلاع أنعم الله عليّ بحبّ أهل البيت وحبّ من أحبّهم، وهذه ثلاثة آلاف درهم معي أردت بها لقاء رجل منهم بلغني أنّه قدم الكوفة يبايع لابن بنت رسول الله، وكنت أحبّ لقاءه لأعرف مكانه، فسمعت نفرًا من المسلمين

يقولون هذا رجلٌ له علمٌ بأمر أهل هذا البيت، وإنّي أتيتك لتقبض منّي هذا المال وتدلّني على صاحبي فأبايعه.

فقال له مسلم بن عوسجة: أحمد الله على لقائك، فقد سرّني ذلك لتنال ما تحبّ ولينصر الله بك أهل بيت نبيّه ﷺ، ولقد ساءني معرفة الناس إيّايَ بهذا الأمر، قبل أن يتمّ مخافة سطوة هذا الطاغية الجبّار فأخذ منه البيعة قبل أن يبرح، وأخذ عليه المواثيق المغلّظة ليُناصِحنّ وليَكتُمنّ فأعطاه من ذلك ما رضي به.

ثمّ قال له: اختلف إليَّ أيّامًا في منزلي، فأنا أطلب لك الإِذن على صاحبي، وأخذ يختلف مع الناس يطلب ذلك إليه حتّى عرف مكان مسلم بن عقيل.

مرض شريك بن الأعور وكان كريمًا على ابن زياد وكان شديد التشيُّع، أرسل إليه عبيد الله إنّي رائحٌ إليك العشيّة فعائِدك.

فقال شريك لمسلم بن عقيل: إنّ هذا الفاجر عائدي العشيّة فإذا جلس فاقتله ثمّ اقعد في القصر وليس أحد يحول بينك وبينه، فإن أنا برئتُ من وجعي من أيّامي هذه سرت إلى البصرة وكفيتُك أمرها.

فلمَّا كان العشيّ، أقبل ابن زياد لعيادة شريك بن الأعور فقال شريك لمسلم: لا يفوتنَّك الرجل إذا جلس، فقام إليه هانئ فقال: إنّي لا أحبُّ أنّي يقتلَ في داري؛ كأنّه استقبح ذلك.

فجاءه عبيد الله بن زياد فدخل وجلس وسأل شريكًا ما الذي تجد؟ ومتى اشتكيت؟ فلمَّا طال سؤاله إيّاه ورأى أن أحدًا لا يخرج خشيَ أن يفوته، فأقبل يقول:

ما الانتظار بسلمَى أن تحيّوها حيُّوا سُليمًا وحيّوا من يُحيِّها

كأس المنية بالتعجيل فاسقوها

لله أبوك اسقنيها وإن كانت فيها نفسي.

قال ذلك مرّتين أو ثلاثًا.

فقال عبيد الله وهو لا يَفطَن: ما شأنه أترونه يهجر؟ فقال له هانئ: نعم أصلحك الله، ما زال هكذا من قبل غياب الشمس إلى ساعتك هذه.

ثمّ قام ابن زياد وانصرف.

فخرج مسلم فقال له شريك: ما منعك من قتله؟

فقال خَصلتان: أمّا إحداهما فكراهية هانئ أن يُقتل في داره، وأمّا الأخرى فحديث حدثنيه الناس عن النبي ﷺ «أنّ الإيمان قيد الفتكَ فلا يفتُك مؤمن»[١].

يعقِّب السّيد حسين ‹رضوان الله عليه› على هذه المسألة وهو يشرح قصّة مسلم بن عقيل بقوله:

لكن روي بأنّ رسول الله ﷺ كلّف شخصين بقتل يهودي. يعني هناك مثلًا نوعيّة من الناس الذي قد صار مثلًا بمستوى المحارب المعلن الذي ليس فيه شكّ أنّه شديد الضرّ؛ أنّه هو نفسه رأس العدوّ مثلما قتل الرسول اليهودي (أرسل اثنين ليقتلاه).

(فقال له شريك: أما والله لو قتلته لقتلت فاسقًا فاجرًا كافرًا ظالمًا) وهنا يقول السيد حسين رضوان الله عليه: ربّما لو قتله لانحلّت المشكلة والإمام الحسين متّجه إلى العراق لأنّه قد وضع له خطّة: قال اقتله، واذهب إلى قصر الإمارة، وأنا عندما تتحسّن حالي سأذهب إلى البصرة وأكفيك البصرة وشأنها، والحسين قد صار متجهًا سيصل الكوفة ومسلم في دار الإمارة فلا يتمكّن يزيد أن يأتي بجيش من الشام إلّا وقد استقام أمرهم.

قال: فأقبل ذلك الرجل يختلف إليهم، فهو أوّل داخلٍ وآخر خارجٍ يسمع أخبارهم، ويعلم أسرارهم وينطلق بها حتّى يُقرّها في أذن ابن زياد.

(١) الفتك يعني: القتل غدرًا وخدعة.

قال المدائني في روايته: فقال ابن زياد يومًا ما يمنع هانئًا[١] منّا؟ فلقيه ابن الأشعث، وأسماء بن خارجة، فقالا له: ما يمنعك من إتيان الأمير وقد ذكّرك، قال: فأتاه، فقال ابن زياد لعنه الله شعرًا:

أريدُ حياته ويريد قتلي عذيركُ من خليلك من مرادِ

يا هانئ أسلّمت على ابن عقيل؟ وفي رواية: اشتملت[٢] قال: ما فعلت؟

فدعا ابن زياد معقل الجاسوس فقال: أتعرف هذا؟ قال: نعم. وأُصدقك ما علمتُ به حتّى رأيته في داري، وأنا أطلب إليه أن يتحوّل.

قال: لا تفارقني حتّى تأتيني به، وأغلظ له وضرب وجهه بالقضيب وحبسه.

وقال عمر بن سعد عن أبي مخنّف قال: حدّثني الحجاج بن علي الهمداني قال: لمّا ضرب عبيد الله هانئًا وحبسه خشي أن يفتك الناس به، فخرج فصعد المنبر ومعه ناس من أشراف الناس وشرطه وحشمه، فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال: أيّها الناس اعتصموا بطاعة الله وطاعة أئمّتكم، ولا تفرّقوا فتختلفوا وتهلكوا وتذلّوا وتخافوا وتُخرجوا، فإنّ أخاك من صدقك وقد أعذر من أنذر.

فذهب لينزل فما نزل حتّى دخلت النظارة المسجد من قبل التمّارين ويقولون قد جاء بن عقيل، فدخل عبيد الله القصر وأغلق بابه.

وعن عبد الله بن حازم البكري قال: أنا والله رسول بن عقيل إلى القصر؛ لأثر هانئ لأنظر ما صار إليه أمره، فدخلت وأخبرته الخبر فأمرني أن أنادي في أصحابي وقد ملئ الدور منهم حواليه، فقال: نادِ (يا منصور أمت)[٣].

---

(١) هانئ هو من وجهاء أهل الكوفة، وكان العادة إذا جاء أمير يستقبل وجهاء الناس.

(٢) يعني سترته في بيتك.

(٣) هذا كان شعار يستخدمونه.

فخرجتُ فناديتُ، وتبادر أهل الكوفة فاجتمعوا إليه، فعقد لعبد الرحمن بن عزيز الكندي على ربيعة، فقال له: سر أمامي وقدّمه في الخيل، وعقد لمسلم بن عوسجة على مذحج وأسد، وقال له: أنزل فأنت على الرجّالة، وعقد لأبي تُمامة الصائبي على تميم وهمدان، وعقد للعبّاس بن جعدة الجدلي على أهل المدينة، ثمّ أقبل نحو القصر.

فلمّا بلغ عبيد الله إقباله تحرَّز في القصر وغلّق الأبواب، وأقبل مسلم بن عقيل حتّى أحاط بالقصر.

فوالله ما لبثنا إلّا قليلًا حتّى امتلئ المسجد من الناس والسوق، وما زالوا يتوثَّبونَ حتّى المساء، فضاق بعبيد الله أمره ودعا بعبد الله بن كثير ابن شهاب الحارثي.

كان ابن زياد يعرف كيف صارت تركيبة المجتمع في الكوفة بعد أن ترسّخت ثقافة الانتماءات القبليّة على حساب الانتماء الديني الذي كان قد رسّخه رسول الله ﷺ ولمعرفته بذلك فقد دعا وجوه أهل الكوفة وأعطاهم الأموال الكثيرة وحبسهم عنده في القصر.

قال أبو مخنّف: فحدّثني سليمان بن أبي راشد عن عبد الله بن حازم البكري قال: أشرف علينا الأشراف وكان أوّل من تكلّم كثير بن شهاب فقال: أيّها الناس الحقوا بأهاليكم ولا تعجّلوا، انتشروا ولا تعرّضوا أنفسكم إلى القتل، فهذه جنود أمير المؤمنين يزيد قد أقبلت، وقد أعطى الأميرُ الله عهدًا لئن أقمتم على حربه ولم تنصرفوا من عشيّتكم هذه أن يحرم قبيلتكم العطاء، ويفرّق مقاتليكم في مغازي الشام، ويأخذ البريء بالسقيم والشاهد بالغائب حتّى لا يبقي فيكم بقيّة من أهل المعصية إلّا أذاقها وبال ما جنت، وتكلّم الأشراف بنحوٍ من كلام كثير فلمّا سمع الناس مقالتهم تفرّقوا.

قال أبو مخنّف: حدّثني المجالد بن سعيد أنّ المرأة كانت تأتي ابنها وأخاها فتقول: انصرف الناس يكفونك.

ويجيئ الرجل إلى ابنه وأخيه فيقول: غدًا يأتيك أهل الشام فما تصنع بالحرب والشرّ، انصرف.

فما زالوا يتفرّقون وينصرفون حتّى أمسى ابن عقيل وما معه إلّا ثلاثون نفسًا، حتّى صلّيت المغرب فخرج متوجّهًا نحو أبواب كندة فما بلغ الأبواب إلّا ومعه منها عشرة.

ثمّ خرج من الباب فإذا ليس معه منهم إنسان.

فمضى متلدّدًا في أزقّة الكوفة لا يدري أين يذهب حتّى خرج إلى دور بني جديلة من كندة فمضى حتّى أتى باب امرأة يقال لها (طوعة) أمّ ولد كانت للأشعث وأعتقها، فتزوّج بها سيف الحضرمي، فولدت له بلالًا وكان بلال قد خرج مع الناس وأمّه قائمةً تنتظر، فسلّم عليها ابن عقيل، فردّت السلام.

فقال لها: اسقيني ماءًا.

فدخلت فأخرجت إليه إناءً فشرب، ثمّ أدخلت الإناء وخرجت وهو جالس في مكانه.

فقالت: ألم تشرب؟

قال: بلى.

قالت: فاذهب إلى أهلك؟ فسكت. فأعادت إليه ثلاثًا فقالت: سبحان الله يا عبد الله قم إلى أهلك عافاك الله، فإنّه لا يصلح لك الجلوس على باب داري ولا أحلّه لك.

ثمّ قام فقال: يا أمة الله، والله ما لي في هذا المصر من أهل فهل لك في معروف وأجرٍ لعلّي أكافئك به بعد اليوم؟.

قالت: يا عبد الله ومن أنت؟.

قال: أنا مسلم بن عقيل كذّبَني هؤلاء القوم وغرّوني وخذلوني.

قالت: أنت مسلم؟.

قال: نعم.

قالت: ادخل.

فأدخلته بيتًا في دارها وفرشت له وعرضت عليه العشاء، وجاء ابنها فرآها تكثر الدخول في البيت، فسألها فقالت: يا بني ألهُ عن هذا؟.

قال: والله لتخبريني، وألحَّ عليها فقالت: يا بني لا تخبر به أحدًا من الناس، وأخذت عليه أيمان فحلف لها، فأخبرته فاضطجع وسكت.

فلمّا طال على ابن زياد ولم يسمع أصوات أصحاب ابن عقيل قال لأصحابه: اشرفوا فانظروا، فأخذوا ينظرون وأدلّوا القناديل وأطنان القصب، تشدّ بالحبال وتدلى وتلهب فيها النار، حتّى فعل ذلك في الأظلّة التي في المسجد كلّها.

فلمّا لم يروا شيئًا أعلموا ابن زياد؛ ففتح باب السدّة، وأمر أن ينادى في الناس برئت الذمّة من رجلٍ صلّى العتمة إلّا في المسجد.

واجتمع الناس في ساعة فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال: أمّا بعد، فإنّ ابن عقيل السفيه الجاهل قد أتى ما قد رأيتم من الخلاف والشقاق، فبرئت ذمّة الله من رجلٍ وُجد في داره، ومن جاء به فله ديّته، اتقوا الله عباد الله والزموا طاعتكم، ولا تجعلوا على أنفسكم سبيلًا.

يا حصين بن تميم ثكلتك أمّك إن ضاع شيء من سكك الكوفة أو خرج هذا الرجل ولم تأتني به، وقد سلّطتك على دور أهل الكوفة، فابعث مراصدة على أفواه السكك، وأصبح غدًا تستبرئ الدور[١] حتّى تأتي بهذا الرجل ثمّ نزل.

فلمّا أصبح، أذّن للناس فدخلوا عليه وأقبل محمّد بن الأشعث فقال: مرحبًا بمن لا يتهمّ ولا يُستغش، وأقعده إلى جنبه. وأصبح بلال فغدا إلى عبد الرحمن بن محمّد بن الأشعث وأخبره بمكان ابن عقيل عند أمّه.

---

(١) يعني فتشها كلها.

فأقبل عبد الرحمن حتّى أتى إلى أبيه وهو جالسٌ فسارّه.

فقال له ابن زياد: ما قال لك؟ قال: أخبرني أنّ ابن عقيل في دارٍ من دورنا.

فنخسه ابن زياد بالقضيب في جنبه ثمّ قال: قم فاءتني به الساعة.

قال أبو مخنّف: فحدّثني قدامة بن سعد عن ابن زائدة الثقفي أنّ ابن زياد بعث مع ابن الأشعث ستين أو سبعين رجلًا كلّهم من قيس، عليهم عمرو بن عبيد الله بن العبّاس السلمي، حتّى أتوا الدار التي فيها ابن عقيل.

فلمَّا سمع وقع حوافر الخيل وأصوات الرجال عرف أنّه قد أُتي.

فخرج إليهم بسيفه فاقتحموا عليه الدار فشدّ عليهم كذلك.

فلمَّا رأوا ذلك، أشرفوا عليه من فوق السطوح وظهروا فوقه فأخذوا يرمونه بالحجارة ويلهبون النيران في أطنان القصب ثمّ يقذفونها عليه من فوق السطوح.

فلمَّا رأى ذلك قال: أكلّ ما أرى من إجلاب لقتل ابن عقيل؟

ثمّ قال: يا نفس اخرجي إلى الموت الذي ليس منه محيص.

فخرج ‹رضوان الله عليه› مصلّتًا سيفه إلى السكّة، فقاتلهم.

فأقبل عليه محمّد بن الأشعث فقال له: يا فتى لك الأمان لا تقتل نفسك.

فأقبل يقاتلهم وهو يقول:

أقسمت لا أُقتلُ إلّا حرّا ... وإن رأيتُ الموتَ شيئًا نكرا

أخافُ أن أُكذبَ أو أُغرا ... أو يُخلطُ الباردُ سخنًا مرّا

ردّ شعاعَ الشمس فاستقرّا ... كلّ امرئٍ يومًا ملاقٍ شرّا

قال له محمّد بن الأشعث: إنّك لا تُكذّب ولا تغرّ، إنّ القوم ليسوا بقاتليك ولا ظالميك.

وقد أثخن بالجراح وعجز عن القتال، فانبهر وأسند ظهره إلى دارٍ بجنب تلك الدار فدنا منه محمّد بن الأشعث فقال له: لك الأمان.

فقال له مسلم: آمنٌ أنا؟.

قال: نعم. أنت آمن.

فقال القوم جميعًا نعم غير عبيد الله بن عبّاس السلمي؛ فإنّه قال لا ناقة لي في هذا ولا جمل وتنحّى.

وقال ابن عقيل: إنّي والله لولا أمانكم ما وضعت يدي في أيديكم، وأُتيَ ببغلة فحمل عليها فاجتمعوا عليه فنزعوا سيفه من عنقه فكأنّه أيس من نفسه فدمعت عينه وعلم أنّ القوم قاتلوه.

وقال: هذا أوّل الغدر.

فقال له محمّد بن الأشعث: أرجو ألّا يكون عليك بأس.

فقال: ما هو إلّا الرجاء!، فأين أمانكم؟ إنّا لله وإنّا إليه راجعون، وبكى.

فقال له عبيد الله بن عبّاس السلمي: إنّ مثلك ومن يطلب مثل الذي طلبت إذا نزل به مثل الذي نزل بك لم يبكِ.

قال: إنّي والله ما أبكي لنفسي ولا لها من القتل أرثي، وإن كنت لم أحبّ لها طرفة عين تلفًا؛ ولكنّي أبكي لأهلي المقبلين إليَّ، أبكي الحسين وآل الحسين.

ثمّ أقبل على ابن الأشعث فقال: إنّي والله أظنّك ستعجز عن أماني، وسأله أن يبعث رسولًا إلى الحسين بن علي يعلمه الخبر، ويسأله الرجوع فقال له الأشعث: والله لأفعلنَّ.

قال أبو مخنّف فحدّثني قدامة بن سعد أنّ مسلم بن عقيل حين انتهى به إلى القصر رأى قلّةً مبرّدةً موضوعةً على الباب.

فقال: أسقوني من هذا الماء؟

فقال له مسلم بن عمر أبو قتيبة بن مسلم الباهلي: أتراها ما أبردها، فوالله لا تذوق منها قطرةً واحدة حتّى تذوق الحميم في نار جهنّم.

فقال له مسلم بن عقيل: ويلك ولأمّك الثُكل، ما أجفاك وأفضّك وأقسى قلبك، أنت يا ابن باهلة أولى بالحميم والخلود في نار جهنّم، ثمّ جلس وتساند إلى الحائط.

قال أبو مخنّف: فحدّثني أبو قدامة بن سعد أنّ عمرو بن حُريْث بعث غلامًا له يدعى سليمان، فأتاه بماء في قلّةٍ فسقاه.

قال: وحدثني مدرك سعيد بن عمارة أنّ عمارة بن عقبة بعث غلامًا يدعى قيسًا، فأتاه بماء في قلّة عليها منديل وقدحٍ معه، فصبّ فيه الماء ثمّ سقاه، فأخذ كلّما شرب امتلأ القدح دمًا فأخذ لا يشرب من كثرة الدم.

فلمّا ملأ القدح المرّة الثالثة ذهب ليشرب فسقطت ثنيتاه في القدح فقال: الحمد لله لو كان لي من الرزق المقسوم لشربته.

قال: ثمّ أُدخل على عبيد الله بن زياد - لعنه الله - فلم يسلّم عليه.

فقال له الحرس: ألا تسلّم على الأمير؟.

فقال: إن كان الأمير يريد قتلي فما سلامي عليه؟ وإن كان لا يريد قتلي فليُكثرنَّ سلامي عليه.

فقال له عبيد الله لعنه الله: لتُقتلنّ.

قال: أكذلك؟

قال: نعم.

قال: دعني إذًا أوصي إلى بعض القوم.

قال: أوصي إلى من أحببت.

فنظر ابن عقيل إلى القوم وهم جلساء ابن زياد وفيهم عمر بن سعد فقال: يا عمر إنّ بيني وبينك قرابة دون هؤلاء، ولي إليك حاجةٌ وقد يجب عليك لقرابتي نجح حاجتي وهي سرٌّ فأبى أن يمكّنه من ذكرها.

فقال له عبيد الله بن زياد: لا تمتنع من أن تنظر في حاجة ابن عمّك فقام معه وجلس حيث ينظر إليهما ابن زياد لعنه الله.

فقال له ابن عقيل: إنّ عليّ بالكوفة دينًا استدنته منذُ قدمتها فاقضه عنّي حتّى يأتيك من غِلّتي في المدينة، وجثّتي فاطلبها من ابن زياد فوارها، وابعث إلى الحسين من يردّه.

فقال عمر لابن زياد: أتدري ما قال؟

قال: أكتم ما قال لك.

قال: أتدري ما قال لي، قال: هات فإنّه لا يخون الأمين ولا يؤتمن الخائن.

قال: كذا.. وكذا.

قال: أمّا مالك فهو لك ولسنا نمنعك منه فاصنع فيه ما أحببت، وأمّا حسين فإنّه إن لم يردنا لم نرده، وإن أرادنا لن نكفّ عنه، وأمّا جثته فإنّا لا نُشفّعك فيها فإنّه ليس لذلك منّا بأهل وقد خالفنا وحرص على هلاكنا.

ثمّ قال ابن زياد لمسلم: قتلني الله إن لم أقتلك قتلةً لم يُقتلها أحدٌ من الناس في الإسلام.

قال: أمّا إنّك أحقّ من أحدث في الإسلام ما ليس فيه، أما إنّك لم تدع سوء القتلة، وقُبح المُثلة، وخبث السيرة، ولؤم الغيلة لمن هو أحقّ به منك.

ثمّ قال ابن زياد: اصعدوا به فوق القصر فاضربوا عنقه ثمّ قال: ادعوا الذي ضربه ابن عقيل على رأسه وعاتقه بالسيف فجاءه، فقال: اصعد وكن أنت الذي تضرب عنقه، وهو بكير بن حُمران الأحمري لعنه الله.

فصعدوا به، وهو يستغفر الله ويصلّي على النبي ﷺ وعلى أنبيائه ورسله وملائكته، وهو يقول: «اللهم احكم بيننا وبين قوم غرّونا وكادونا وخذلونا»، ثمّ أشرفوا به على موضع الحذّائين فضُرب عنقًه ثمّ أتبع رأسه جسده رحمة الله عليه[١].

وأمر بهانئ فشقّ عرقوباه وجعل فيهما حبل، وجرّا إلى الكناسة وصلبا فيها.

فهو حيث يقول عبد الله بن الزَّبير الأسدي:

فإن كنت لا تدرين ما الموت فانظري ... إلى هانئ في السوق وابن عقيل

أصابهما فرخ البغيّ فأصبحا ... أحاديث من يسري بكلّ قبيل

تري جسدًا قد غيّر الموت حاله ... ونضخّ دم قد سال كلّ مسيل

وكان مقتل مسلم يوم الثلاثاء لثمانٍ مضين من ذي الحجّة سنة ستين، ويومئذ خرج الحسين من مكّة نحو العراق[٢].

أمّا في المقلب الآخر، في مكّة المكرّمة، أوضح الإمام الحسين عليه السلام سبط رسول الله ﷺ للحجيج ضرورة التحرّك والثورة في مواجهة الظالمين، وأنّه لم يعد من الممكن السكوت على ظلم وطغيان بني أميّة واستعبادهم للأمّة واستهتارهم بالدين ولكن دون جدوى فتحرّك الإمام الحسين عليه السلام

---

(١) تاريخ أبي مخنف.

(٢) **المصابيح في السيرة** لأبي العباس الحسني.

صوب العراق استجابة لدعوات أهل العراق المتكرّرة، فلعلّ وعسى يجد من ينصره ويقف معه وقبل الحديث عن رحلته الشاقّة إلى العراق.

يقول السيّد عبد الملك (حفظه الله) وهو يتحدّث عن هذا الخروج:

«اتجه من مكّة صوب العراق حيث شيعة أبيه، وحيث وصلت إليه الكثير من الرسل والكتب التي تعلن الاستجابة والتأييد له، وأنّه سيجد في العراق مجتمعًا يقبل بالحقّ وينصره ويقف مع الله ومع الإسلام، مع أولياء الله، مع الخير، مع الصلاح. اتجه صوب العراق وهو في كلّ منزل ينزل به، وأمام كلّ جماعة يجتمع بها يذكّر، يذكّر الأمّة بمسؤوليّتها، وواجباتها، والخطر الكبير الذي أصبحت فيه.

وكان يؤكّد للأمّة حتميّة وضرورة الموقف الذي تحرّك فيه، وأنّه لا يمكن أبدًا أن يكون الموقف تجاه الباطل وتجاه الضلال وتجاه الظلم وتجاه الفساد وتجاه المنكر، أن يكون هو السكوت والتنصّل واللّامبالاة، لا يمكن أبدًا أن يكون الموقف الصحيح هو ذلك.

خرج الإمام الحسين عليه السلام من مكّة بعد أن أبلغ الحجّة على الناس الذين حضروا إلى المشاعر المقدّسة لأداء فريضة الحجّ وأطلعهم على الوضع السيّئ الذي قد وصلت إليه الأمّة في ظلّ طغيان بني أميّة وظلمهم وتضليلهم وتحريفهم وفسادهم، وأعلن استعداده الكامل لقيادة الثورة في وجه الظالمين والعمل على تغيير واقع هذه الأمّة مبيّنًا لهم بأنّ الثورة صارت للأمّة ضرورة»[١].

واتجه عليه السلام صوب العراق بناء على الكتب والرسائل التي وصلت إليه من هناك تدعوه إلى التحرّك والخروج والثورة واستعدادهم للجهاد في سبيل الله معه.

---

(١) من خطاب عاشوراء للسيّد عبد الملك لعام ١٤٢٩هـ.

وممّا عزّز من استعداده للذهاب إلى العراق ما وصله من قبل مسلم بن عقيل مبعوثه إلى الكوفة، والذي أخبره في رسالة بعثها إليه بأنّ الأمور مهيّأة لاستقباله.

توجّه الإمام الحسين عليه السلام من مكّة إلى العراق وكان زهير بن القين البجلي قد حجّ، فلمّا عاد جمعهما الطريق، وكان يساير الحسين من مكّة إلّا أنّه لا ينزل معه، فاستدعاه يومًا الحسين فشقّ عليه ذلك، ثمّ أجابه على كره، فلمّا عاد من عند الحسين نقل ثقله إلى ثقل الحسين ثمّ قال لأصحابه: من أحبّ منكم أن يتبعني وإلّا فإنّه آخر العهد، وسأحدّثكم حديثًا: غزونا بلنجر ففُتِح علينا وأصبنا غنائم ففرحنا، وكان معنا سلمان الفارسي فقال لنا: إذا أدركتم سيّد شباب آل محمّد فكونوا أشدّ فرحًا بقتالكم معهم بما أصبتم اليوم من الغنائم.

فأمّا أنا فأستودعكم الله! ثمّ طلّق زوجته وقال لها: الحقي بأهلك فإنّي لا أحبّ أن يصيبك بسببي إلّا خير. ولزم الحسين عليه السلام.

وخلال مسيره عليه السلام أتاه خبر قتل مسلم بن عقيل بالثعلبيّة فقال له بعض أصحابه: ننشدك إلّا رجعت من مكانك فإنّه ليس لك بالكوفة ناصر ولا شيعة بل نتخوّف عليك أن يكونوا عليك!

ولكنّه أصرّ على مواصلة السير حتّى انتهى إلى منطقة اسمها زبالة، فأتاه خبر مقتل أخيه من الرضاعة عبد الله بن بقطر، وكان سرَّحه إلى مسلم بن عقيل من الطريق وهو لا يعلم بقتله، فأخذته خيل الحصين بن نمير، فسيَّره من القادسيّة إلى ابن زياد.

فقال له بن زياد: اصعد فوق القصر والعن الكذّاب بن الكذّاب ثمّ انزل حتّى أرى فيك رأيي. فصعد فأعلم الناس بقدوم الحسين ولعن ابن زياد وأباه، فألقاه من القصر فتكسّرت عظامه.

فلمّا أتى الحسين عليه السلام خبر قتل أخيه من الرضاعة ومسلم بن عقيل أعلم الناس ذلك وقال: قد خذلنا شيعتنا فتفرّق عنه الناس حتّى بقي في

أصحابه الذين جاؤوا معه من مكّة، وإنّما فعل ذلك لأنّه علم أنّ الأعراب ظنّوا أنّه يأتي بلدًا قد استقامت له طاعة أهله فأراد أن يعلموا على ما يقدمون.

ثمّ سار حتّى نزل بطن العقبة، فلقيه رجلٌ من العرب فقال له: أنشدك الله لما انصرفت فوالله ما تقدم إلّا على الأسنة وحدّ السيوف. إنّ هؤلاء الذين بعثوا إليك لو كانوا كفوك مؤونة القتال ووطؤوا لك الأشياء فقدمت عليهم لكان ذلك رأيًا، فأمّا على هذه الحال التي تذكر فلا أرى أن تفعل. فقال: إنّه لا يخفى عليّ ما ذكرت ولكن الله، عزّ وجلّ، لا يُغلب على أمره. ثمّ ارتحل منها[١].

وسار الحسين بعدها من مدينة شراف، فلمّا انتصف النهار كبَّر رجلٌ من أصحابه، فقال له: ممّ كبّرت؟ قال: رأيت النخل. فقال رجلان من بني أسد: ما بهذه الأرض نخلة قطّ! فقال الحسين: فما هو؟ فقالا: لا نراه إلّا هوادي الخيل. فقال: وأنا أيضًا أراه ذلك. وقال لهما: أما لنا ملجأ نلجأ إليه نجعله في ظهورنا ونستقبل القوم من وجه واحد؟ فقالا: بلى، هذا ذو حسم إلى جنبك تميل إليه عن يسارك، فإن سبقت القوم إليه فهو كما تريد. فمال إليه، فما كان بأسرع من أن طلعت الخيل وعدلوا إليهم، فسبقهم الحسين إلى الجبل فنزل.

وجاء القوم، وهم ألف فارس مع الحرّ بن يزيد التميمي ثمّ اليربوعي، فوقفوا مقابل الحسين وأصحابه في نحر الظهيرة.

فقال الحسين لأصحابه وفتيانه: اسقوا القوم ورشفوا الخيل ترشيفًا. ففعلوا.

وكان مجيء القوم من القادسيّة، أرسلهم الحصين بن نمير التميمي في هذا الألف لملاقاة الحسين.

فلم يزل الحرّ مواقفًا الحسين حتّى حضرت صلاة الظهر، فأمر الحسين مؤذّنه بالآذان، فأذّن، وخرج الحسين إليهم فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال: أيّها

---

(١) **المصابيح في السيرة** لأبي العباس الحسني.

الناس، إنّها معذرة إلى الله وإليكم، إنّي لم آتكم حتّى أتتني كتبكم ورسلكم أن أقدم إلينا فليس لنا إمام لعلّ الله أن يجمعنا بك على الهدى، فإن كنتم على ذلك فقد جئتكم، فإن تعطوني ما أطمئنّ إليه من عهودكم أقدم مصركم، وإن لم تفعلوا أو كنتم بمقدمي كارهين انصرفت عنكم إلى المكان الذي أقبلت منه.

فسكتوا وقالوا للمؤذّن: أقم، فأقام، وقال الحسين للحرّ: أتريد أن تصلّي أنت بأصحابك؟ فقال: بل صلِّ أنت ونصلّي بصلاتك. فصلّى بهم الحسين، ثمّ دخل واجتمع إليه أصحابه وانصرف الحرّ إلى مكانه، ثمّ صلّى بهم الحسين العصر، ثمّ استقبلهم بوجهه فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال: أمّا بعد، أيّها الناس، فإنّكم إن تتقوا الله وتعرّفوا الحقّ لأهله يكن أرضى لله، ونحن أهل البيت أولى بولاية هذا الأمر من هؤلاء المدّعين ما ليس لهم والسائرين فيكم بالجور والعدوان، فإن أنتم كرهتمونا وجهلتم حقّنا وكان رأيكم غير ما أتتني به كتبكم ورسلكم انصرفت عنكم.

فقال الحرّ: إنّا والله ما ندري ما هذه الكتب والرسل التي تذكر!.

فأخرج خرجين مملوأين صحفًا فنثرها بين أيديهم.

فقال الحرّ: فإنّا لسنا من هؤلاء الذين كتبوا إليك، وقد أمرنا أنّا إذا نحن لقيناك ألّا نفارقك حتّى نقدّمك الكوفة على عبيد الله بن زياد.

فقال الحسين: الموت أدنى إليك من ذلك! ثمّ أمر أصحابه فركبوا لينصرفوا فمنعهم الحرّ من ذلك.

فقال له الحسين: ما تريد؟ قال الحرّ: أريد أن أنطلق بك إلى ابن زياد. قال الحسين: إذًا، والله لا أتبعك. قال الحرّ: إذًا، والله لا أدعك. فترادّا الكلام، فقال له الحرّ: إنّي لم أؤمر بقتالك وإنّما أمرت ألّا أفارقك حتّى أقدّمك الكوفة، فإذا أبيت فخذ طريقًا لا تدخلك الكوفة ولا تردّك إلى المدينة حتّى أكتب إلى ابن زياد أو تكتب أنت إلى يزيد أو إلى ابن زياد فلعلّ الله أن يأتي بأمر يرزقني فيه العافية من أن أبتلى بشيء من أمرك.

فتياسر عن طريق العذيب والقادسيّة والحرّ يسايره.

ثمّ إنّ الحسين خطب فيهم فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال: أيّها الناس إنّ رسول الله ﷺ قال: «من رأى سلطانًا جائرًا مستحلًّا لحرم الله، ناكثًا لعهد الله، مخالفًا لسنّة رسول الله يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان فلم يغيّر ما عليه بفعلٍ ولا قول كان حقًّا على الله أن يدخله مدخله». ألا وإنّ هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد، وعطّلوا الحدود، واستأثروا بالفيء وأحلّوا حرام الله وحرّموا حلاله، وأنا أحقّ من غيَّر، وقد أتتني كتبكم ورسلكم ببيعتكم، وأنّكم لا تسلّموني ولا تخذلوني، فإن تممتم على بيعتكم تصيبوا رشدكم، فأنا الحسين بن علي، وابن فاطمة بنت رسول الله ﷺ، نفسي مع أنفسكم، وأهلي مع أهلكم، فلكم فيّ أسوة، وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدي وخلعتم بيعتي فلعمري ما هي لكم بنكر، لقد فعلتموها بأبي وأخي وابن عمّي مسلم بن عقيل، والمغرور من اغترّ بكم، فحظّكم أخطأتم، ونصيبكم ضيّعتم، ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۖ﴾[1]، وسيغني الله عنكم، والسلام.

يقول السيّد العلّامة مجد الدين المؤيّدي رحمه الله في التحف شرح الزلف:

لمّا وافته بيعة أهل الكوفة خرج من مكّة سائرًا إليها لثمانٍ خلون من ذي الحجّة، وروي أنّه لمّا أراد الخروج إلى العراق خطب أصحابه؛ فحمد الله وأثنى عليه، ثمّ قال: «أَيُّهَا النَّاسُ، خُطَّ الْمَوْتُ عَلَى بَنِي آدَمَ كَمخَطِّ الْقِلادَةِ عَلَى جِيدِ الْفَتَاةِ، مَا أَوْلَعَنِي بِالشَّوْقِ إِلَى أَسْلافِي اشْتِيَاق يَعْقُوبَ عليه السلام إِلَى يُوسُفَ وَأَخِيهِ، وَإِنَّ لِي مَصْرَعًا أَنَا لاقِيهِ، كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَوْصَالِي تُقَطِّعُهَا وُحُوشُ الْفَلَوَاتِ غُبَّرًا وَعُفْرًا، قَدْ مَلأَتْ مِنِّي أَكْرَاشَهَا. رِضَى الله رِضَانَا أَهْلَ الْبَيْتِ، نصبر عَلَى بَلائِهِ لِيُوَفِّينَا أُجُورَ الصَّابِرِينَ، لَنْ تَشُذَّ عَنْ رَسُولِ الله حُرْمَتُهُ وَعِتْرَتُهُ،

---

(١) سورة **الفتح**، الآية ١٠.

وَلَنْ تُفَارِقَهُ أَعْضَاؤُهُ، وَهِيَ مَجْمُوعَةٌ لَهُ فِي حَظِيرَةِ القُدْسِ تُقَرُّ بِهِمْ عَيْنُهُ، وَتُنْجَزُ بِهِمْ عِدتَهُ، مَنْ كَانَ فِينَا بَاذِلًا مُهجَتَهُ فَلَيَرْحَلْ فَإِنِّي رَاحِلٌ غَدًا إنْ شَاءَ الله»(١).

إلى قوله: فقام الحسين عليه السلام فيهم فحمد الله وأثنى عليه وصلّى على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ثمّ قال: تبًا لكم أيّتها الجماعة وترحًا، أفحين استصرختمونا ولهين متحيّرين فأصرخناكم موجفين مستعدّين، سللتم علينا سيفًا في رقابنا.. إلى قوله: فهلّا لكم الويلات تجهّمتمونا والسيف لم يشهر والجأش طامن، والرأي لم يستخف، ولكن أسرعتم إلينا كطيرة الذباب، وتداعيتم تداعي الفراش، فقبحًا لكم فإنّما أنتم من طواغيت الأمّة، وشذّاذ الأحزاب، ونبذة الكتاب، ونفثة الشيطان، وعُصبة الآثام، ومحرِّفي الكتاب، ومطفئي السنن، وقتلة أولاد الأنبياء، ومبيدي عترة الأوصياء، وملحقي العهار بالنسب، ومؤذي المؤمنين وصراخ أئمّة المستهزئين، الذين جعلوا القرآن عضين، وأنتم ابن حرب وأشياعه تعتمدون، وإيّانا تحاربون.

إلى قوله: ألا لعنة الله على الناكثين الذين ينقضون الأيمان بعد توكيدها، وقد جعلتم الله عليكم كفيلًا، وأنتم والله هم. ألا إنّ الدعيّ بن الدعيّ قد ركز بين اثنتين: بين السلّة والذلّة وهيهات منّا أخذ الدنيّة، أبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون، وخدود طابت، وحجور طهرت، وأنوف حميّة، ونفوس أبيّة تؤثر مصارع الكرام على مصارع اللئام، ألا قد أعذرت وأنذرت ألا إنّي زاحف بهذه الأسرة على قلّة العتاد وخذلة الأصحاب.

إلى قوله: ألا ثمّ لا تلبثون بعدها إلّا كريثما تركب الفرس حتّى تدور بكم الرحى؛ عهدًا عهده إليَّ أبي فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثمّ كيدوني جميعًا ولا تنظرون، إنّي توكّلت على الله ربّي وربّكم ما من دابة إلّا هو آخذ بناصيتها إنّ ربّي على صراطٍ مستقيم، اللهم احبس عنهم قطر السماء، وابعث عليهم سنين كسنيّ يوسف، وسلّط عليهم غلام ثقيف يسقيهم كأسًا مرّة، فلا يدع فيهم أحدًا إلّا قتله قتلة بقتلة وضربة بضربة، ينتقم لي ولأوليائي وأهل بيتي

(١) أمالي أبي طالب و**التحف شرح الزلف**.

وأشياعي منهم، فإنّهم غرّونا وكذّبونا وخذلونا، وأنت ربّنا عليك توكّلنا وإليك أنبنا وإليك المصير.

وعلى أرض كربلاء حطّ الإمام الحسين عليه السلام رحاله، وضرب أبنيته، وأيقن بالمواجهة العسكريّة، وتعاهد الحسين أصحابه وأصلح عدّته وسيفه.

سمعته أخته زينب تلك العشيّة وهو في خباء له يقول، وعنده جون مولى أبي ذرّ الغفاري يعالج سيفه:

يا دهر أفٍ لك من خليل   كم لك بالإشراق والأصيل

من صاحب أو طالبٍ قتيل   والدهر لا يقنع بالبديل

وإنّما الأمر إلى الجليل   وكلّ حيٍ سالك سبيل

فأعادها مرّتين أو ثلاثًا، فلمّا سمعته لم تملك نفسها أن وثبت تجرّ ثوبها حتّى انتهت إليه ونادت: واثكلاه! ليت الموت أعدمني الحياة، اليوم ماتت فاطمة أمّي وعلي أبي والحسن أخي يا خليفة الماضين وثمال الباقين! فذهب فنظر إليها وقال: يا أخيَّة لا يذهبنَّ حلمك الشيطان. قالت: بأبي أنت وأمي استقتلت! نفسي لنفسك الفداء!

فردّد غصّته وترقرقت عيناه ثمّ قال: لو ترك القطا ليلًا لنام. فبكت حتّى خرّت مغشية عليها.

فقام إليها الحسين فصبّ الماء على وجهها وقال: اتقي الله يا أخيّة وتعزَّي بعزاء الله واعلمي أنّ أهل الأرض يموتون وأهل السماء لا يبقون، وأنّ كل شيء هالكٌ إلّا وجه الله، أبي خير منّي وأمّي خير منّي وأخي خير منّي، ولي ولهم ولكلّ مسلم برسول الله أسوة.

فعزّاها بهذا، وقال لها: يا أخيّة إنّي أقسم عليك لا تشقّي عليّ جيبًا، ولا تخمشي عليّ وجهًا، ولا تدعي عليّ بالويل والثبور إن أنا قُتلت.

ثمّ خرج إلى أصحابه فأمرهم أن يقرّبوا بعض بيوتهم من بعض وأن يدخلوا الأطناب بعضها في بعض ويكونوا بين يدي البيوت فيستقبلون القوم من وجه واحد والبيوت على أيمانهم وعن شمائلهم ومن ورائهم.

فلمّا أمسوا قاموا الليل كلّه يصلّون ويستغفرون ويتضرّعون ويدعون.

ودعا الحسين عليه السلام ربّه كثيرًا وقال: «اللهم أنت ثقتي في كلّ كرب، ورجائي في كلّ شدة، وأنت لي في كلّ أمر نزل بي ثقة وعِدة، كم من همٍّ يضعف فيه الفؤاد وتقلّ فيه الحيلة، ويخذل فيه الصديق ويشمت فيه العدوّ أنزلته بك وشكوته إليك، رغبةً منّي إليك عمّن سواك ففرّجته وكشفته، فأنت وليّ لكلّ نعمة وصاحب كلّ حسنة، ومنتهى كلّ رغبة».

وفي صبيحة يوم عاشوراء، عبأ الحسين عليه السلام أصحابه وصلّىفيبهم صلاة الغداة، وكان معه اثنان وثلاثون فارسًا، وأربعون راجلًا، فجعل زهير بن القين في ميمنة أصحابه، وحبيب بن مظاهر في ميسرتهم، وأعطى رايته العبّاس أخاه، وجعلوا البيوت في ظهورهم، وأمر بحطب وقصب فألقي في مكان منخفض من ورائهم كأنّه ساقية عملوه في ساعة من الليل لئلّا يؤتوا من ورائهم وأضرم نارًا تمنعهم ذلك[١].

وهنا، نعيش في أجواء حديث السيّد عبد الملك (حفظه الله) حيث قال:

«في كربلاء خطب الإمام في الجميع في أصحابه وفي الحُرُّ بن يزيد الرِّيَاحِي وجماعته - من معه من الجند - وبعد أن حمد الله وأثنى عليه قال عليه السلام: «أيّها الناس، إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: من رأى منكم سلطانًا جائرًا مستحِلًّا لحرم الله، ناكثًا لعهد الله، مخالفًا لسنّة رسول الله، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يُغيِّر عليه بفعل ولا قول كان حقًّا على الله أن يُدخِله مُدخَله» مبيّنًا لهم من خلال هذا الكلام ضرورة وحتميّة الموقف

(١) **تاريخ اليعقوبي، والكامل في التاريخ.**

من الظالمين، من ظلمهم، من إجرامهم، من طغيانهم، ووجوب الإنكار والعمل على تغيير ظلمهم، وفسادهم، وإصلاح الواقع حتى لا يكون ساحة متروكة لهم، يعبثون ويظلمون ويفعلون ما يشاؤون ويُريدون ويُفسدون كيفما أرادوا، وأنّ الإنسان في حالة من حالتين:

إمّا أن يكون في جبهة الإيمان وصفّه، في الموقف القرآني الإيماني الذي يسعى للتغيير، الذي يواجه المنكر، والباطل، ويعمل على إزالة الفساد، ومواجهة الظلم.

أو أن يكون موقفه محسوبًا لصالح الظالمين، لصالح ظلمهم، وطغيانهم، وإجرامهم؛ لأنّهم هم من يستفيدون من سكوت الساكتين، وقعود القاعدين، وتخاذل المتخاذلين.

ويواصل الإمام الحسين عليه السلام كلامه من هذا المنطلق ليوضح أنّه ما من خيار أبدًا للإنسان إلّا أن يكون في الموقف الذي ينسجم مع القرآن، والإسلام، والرسول، مع ما يقوله الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، أو أن يكون الخيار الآخر مع الظالمين وشريكًا لهم؛ «ألا وإنّ هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمن وأظهروا الفساد وعطّلوا الحدود واستأثروا بالفيء» نهبوا الأموال العامّة وحقوق المسلمين وأكلوها «وأحلُّوا حرام الله وحرَّموا حلال الله وأنا أحقّ من غَيَّر».

يعرف الإمام الحسين عليه السلام أنّه في موقع المسؤوليّة، ويجب أن يكون في مقدّمة من يسعى لتغيير هذا الواقع، هذا ما يتناسب مع مقامه الإيماني الرفيع «فأنا الحسين بن علي وابن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نفسي مع أنفسكم وأهلي مع أهليكم فلكم فيَّ أسوة». من واقع المسؤوليّة يتحرّك، وفي نفس الوقت حاضر لكلّ ما يلزم من تضحية، وعطاء، وبذل، وجهد، حاضر على أرقى مستوى، هكذا يقول: «نفسي مع أنفسكم، وأهلي مع أهليكم، فلكم فيَّ أسوة»» [١].

(١) من خطاب السيّد عبد الملك بمناسبة عاشوراء ١٤٣٢هـ.

وفي يوم العاشر من شهر محرّم الحرام، وُضع الإمام الحسين عليه السلام بين خيارين؛ أن يستسلم للطواغيت أو أن يقتل، فماذا كان خياره عليه السلام؟ وهنا أيضًا نترك الحديث للسيّد عبد الملك (حفظه الله) حيث قال:

«حينما وصل الإمام الحسين عليه السلام إلى كربلاء وحُوصِر هناك، ووقف بوجهه حتّى أولئك الذين كاتبوه وراسلوه وعاهدوه، فتغيّروا وتغيّرت مواقفهم نتاج تلك التحوّلات التي هي (انقلاب) في المجتمع الإسلامي، وقفوا جنودًا مجنّدة مع من؟ مع ابن زياد ويزيد، مع الفجور، مع الظلم، مع الطغيان، مع الحقد والضغينة، مع الفساد، مع المنكر، ووقفوا بوجه الحسين وهم يعرفون من هو، ويعرفون دعوته، وماذا يريد، وماذا يسعى إليه، وهو الخير لهذه الأمّة، يريد لها السعادة والعزّة. فكان خياره في تلك الحال أن يصمد على مبدئه وموقفه ويثبت ولو ضحَّى بما ضحَّى ولو كان حجم المظلوميّة والأسى والألم على مستوى كبير، أو أن يتراجع أو أن يسكت أو يتغيّر كما كان الحال الأغلب بالنسبة للأمّة حتّى وجهائها، وعلمائها، وعبَّادها، وكبارها آنذاك.

وقف الإمام الحسين أمام أصحابه وهو يُقدِّم لهم التطوّرات الأخيرة ويقول لهم: «ألا وإنّ الدعيّ بن الدعيّ قد ركز بين اثنتين، بين السلّة وبين الذلّة، وهيهات منا الذلّة، يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون وحجور طابت وأرحام طهرت ونفوس أبيَّة وأنوف حميَّة من أن نُؤثِر طاعة اللئام على مصارع الكرام»[١]».

وقبيل المعركة، يستدعي الإمام عليه السلام عمر بن سعد الذي كان موعودًا بولاية الرّي[٢] من قبل ابن زياد فأمره ابن زياد بالمسير لقتال الحسين عليه السلام فقال: (اعفني أيّها الأمير) قال ابن زياد: (قد أعفيتك من ذلك ومن الرّي) فتحرّكت الأهواء والمطامع في نفس عمر بن سعد فقال: أنظرني في أمري أيّها الأمير، وعاد ابن سعد وهو يقول:

---

(١) من خطاب السيّد عبد الملك بمناسبة عاشوراء ١٤٢٩هـ.

(٢) تبعد عن طهران عاصمة إيران حوالي ١٦كم.

ووالله ما أدري وإنّي لواقف أفكّر في أمري على خطرين
أأترك ملك الرّي والرّي منيتي أم ارجع مأثومًا بقتل حسين
وفي قتله العار الذي ليس دونه حجاب وملك الريّ قرّة عيني

وغلبت عليه الدنيا وسار لقتل الحسين عليه السلام، وفي أرض المعركة دعاه الحسين عليه السلام وقال له: «يا عمر أنت تقتلني!؟ تزعم أن يولّيك الدعيّ بن الدعيّ بلاد الريّ وجرجان. والله لا تهنأ بذلك أبدًا عهدًا معهودًا فاصنع ما أنت صانع فإنّك لا تفرح بعدي بدنيا ولا آخرة. وكأنّي برأسك على قصبة قد نصبت بالكوفة يترامونه ويتخذونه غرضًا بينهم»، وعاد عمر بن سعد إلى جيشه مصمّمًا على قتل الحسين عليه السلام[1].

أمّا عن موقف الحُرّ بن يزيد الرِّيَاحِي، فيروى أنّه وقف قبل أن تبدأ المعركة، وقد اصطفَّ جيش عمر بن سعد للقتال أمام الإمام الحسين عليه السلام والفئة القلية المؤمنة الوفيّة الصابرة، وهو يفكِّر ويتأمَّل، يتقدَّم ويتأخَّر، بدا في حالة المتردّد، في موقفه أين يقف، هذا موقف صحيح أن تفكّر أين أنت؟ في أيّ موقف؟ ومع من؟ في أيّ طريق؟ وعلى ماذا تقاتل؟، وقف يفكّر ويتأمّل ويتردّد، فأخذته الرعدة فقال له رجل من قومه يسمّى (المهاجر بن أوس) والله إنّ أمرك لمريب، والله ما رأيت منك في موقف قطّ مثل ما أراه الآن، ولو قيل من أشجع أهل الكوفة لما عَدَوتُك.

فقال له الحرّ: إنّي والله أخيّر نفسي بين الجنّة والنار، ولا أختار على الجنّة شيئًا، ولو قطّعت وحرّقت، ثمّ ضرب فرسه ولحق بالحسين عليه السلام فقال له: جعلني الله فداك يا ابن رسول الله! أنا صاحبك الذي حبستك عن الرجوع وسايرتك في الطريق، وجعجعت بك في هذا المكان، ووالله ما ظننت أنّ القوم يردّون عليك ما عرضت عليهم أبدًا، ولا يبلغون منك هذه المنزلة أبدًا، فقلت في نفسي: لا أبالي أن أطيع القوم في بعض أمرهم ولا يرون أنّي

(١) كتاب **التحف شرح الزلف.**

خرجت من طاعتهم، وأمّا هم فيقبلون بعض ما تدعوهم إليه، ووالله لو ظننت أنّهم لا يقبلونها منك ما ركبتها منك، وإنّي قد جئتك تائبًا ممّا كان منّي إلى ربّي مواسيًا لك بنفسي حتّى أموت بين يديك، أفترى ذلك توبة؟ قال: نعم، يتوب الله عليك ويغفر لك.

وتقدّم الحرّ أمام أصحابه ثمّ قال: أيّها القوم ألا تقبلون من الحسين خصلةً من هذه الخصال التي عرض عليكم فيعافيكم الله من حربه وقتاله؟

فقال عمر: لقد حرصت لو وجدت إلى ذلك سبيلًا.

فقال: يا أهل الكوفة لأمّكم الهبل والعبر! أدعوتموه حتّى إذا أتاكم أسلمتموه وزعمتم أنّكم قاتلوا أنفسكم دونه ثمّ عدوتم عليه لتقتلوه؟ أمسكتم بنفسه وأحطتم به ومنعتموه من التوجّه في بلاد الله العريضة حتّى يأمن ويأمن أهل بيته، فأصبح كالأسير لا يملك لنفسه نفعًا ولا يدفع عنها ضَرًّا، ومنعتموه ومن معه عن ماء الفرات الجاري يشربه اليهودي والنصراني والمجوسي ويتمرّغ فيه خنازير السواد وكلابه وها هو وأهله قد صرعهم العطش! بئسما خلّفتم محمّدًا في ذرّيته! لا سقاكم الله يوم الظمأ إن لم تتوبوا وتنزعوا عمّا أنتم عليه!

فرموه بالنبل، فرجع حتّى وقف أمام الحسين.

استأذن الحرّ من الإمام الحسين عليه السلام في أن يكون أوّل شهيد بن يديه ليكفر عن خطأه قال: لقد كنت أوّل من تصدّى لك فاسمح لي أن أكون أوّل شهيد بين يديك.

تقدّم الحرّ إلى جيش ابن زياد وقاتل قتال الأبطال حتّى استشهد بعد أن أبلى بلاء حسنًا، ووقف الإمام الحسين على جسده بعد استشهاده وقال: «أنت حرّ كما سمّتك أمّك»[1].

---

(١) **الكامل في التاريخ**، و**تاريخ الطبري**.

في بداية المعركة، أطلق عمر بن سعد أوّل سهم وقال: اشهدوا لي عند الأمير أنّي أوّل من رمى. وتبعه جيشه فلم يبق أحد من أصحاب الحسين عليه السلام إلّا وأصابه سهم.

وبعدها، تقدّم أهل بيت الحسين عليه السلام وأصحابه إلى المعركة وانكشفت تلك الجحافل ولم تثبت لجيش الحسين عليه السلام ، ولم تستطع خيل عمر بن سعد التقدّم فتبارزوا فلم يتقدّم أو يتعرّض أحد من جيش عمر بن سعد للقتال إلّا قتل أو هرب.

وصاح (عمر بن الحجّاج) برفاقه أتدرون من تقاتلون؟ تقاتلون فرسان المصر وقومًا مستميتين، لا يبرز إليهم منكم أحدٌ فإنّهم قليل، لو لم ترموهم إلّا بالحجارة لقتلتموهم. وعجزت خيل ابن سعد رغم كثرتها عن مقاومة خيل الحسين عليه السلام فبعث إليه (عمر بن قيس) قائد الخيل يقول: ألا ترى ما تلقى خيلي هذا اليوم من هذه القوّة اليسيرة؟! ابعث إليهم الرجال والرماة، فبعث إليهم بخمسمئة من الرماة وعلى رأسهم (الحصين بن نمير) فرشقوا أصحاب الحسين عليه السلام بالنبل حتّى عقروا الخيل وجرحوا الفرسان والرجال.

ثمّ ركب الحسين دابّته ودعا بمصحف فوضعه وتقدّم إلى الناس ونادى بصوت عال يسمعه كلّ الناس فقال: أيّها الناس اسمعوا قولي ولا تعجلوني حتّى أعظكم بما يجب لكم عليّ وحتّى أعتذر إليكم من مقدمي عليكم، فإن قبلتم عذري وصدقتم قولي وأنصفتموني كنتم بذلك أسعد ولم يكن لكم عليّ سبيل، وإن لم تقبلوا منّي العذر ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾[1]، ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[2].

بذل الحسين عليه السلام كلّ ما في وسعه ليردّ جيش ابن زياد عن غيّه وضلاله، وخرج إليهم ليخطبهم فرجَّ رؤساء القوم بالضجيج حتّى لا يسمع

---

(١) سورة **يونس**، الآية ٧١.

(٢) سورة **الأعراف**، الآية ١٩٦.

الجيش صوته، فصابرهم الحسين عليه السلام حتّى ملّوا من الضجيج فخطب فيهم بعد الحمد والصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقال: أمّا بعد، فانسبوني فانظروا من أنا ثمّ راجعوا أنفسكم فعاتبوها وانظروا هل يصلح ويحلّ لكم قتلي وانتهاك حرمتي، ألست ابن بنت نبيّكم وابن وصيّه وابن عمّه، وأولى المؤمنين بالله والمصدّق لرسوله؟ أوليس حمزة سيّد الشهداء عمّ أبي؟ أوليس جعفر الشهيد الطيّار في الجنّة عمّي؟ أولم يبلغكم قول مستفيض فيكم: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لي ولأخي: «أنتما سيّدا شباب أهل الجنّة»؟ فإن صدّقتموني بما أقول، وهو الحقّ، والله ما تعمّدت كذبًا مذ علمت أنّ الله يمقت عليه أهله، وإن كذبتموني فإنّ فيكم من إن سألتموه عن ذلك أخبركم، سلوا جابر بن عبد الله أو أبا سعيد أو سهل بن سعد أو زيد بن أرقم أو أنسًا يخبروكم أنّهم سمعوه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أما في هذا حاجز يحجزكم عن سفك دمي؟.

فقال شمر: هو يعبد الله على حرف إن كان يدري ما يقول!.

فقال له حبيب بن مظاهر: والله إنّي أراك تعبد الله على سبعين حرفًا، وإنّ الله قد طبع على قلبك فلا تدري ما تقول.

ثمّ قال الحسين: فإن كنتم في شكّ ممّا أقول أوَ تشكّون في أنّي ابن بنت نبيّكم؟ فوالله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبيّ غيري منكم ولا من غيركم، أخبروني أتطلبوني بقتيل منكم قتلته، أو بمال لكم استهلكته، أو بقصاص من جراحة؟ فلم يكلّموه.

فنادى: يا شبث بن ربعي! ويا حجّار بن أبجر! ويا قيس بن الأشعث! ويا زيد بن الحارث! ألم تكتبوا إليّ في القدوم عليكم؟ ألم تكتبوا لي أنّه قد أينعت الثمار واخضرّت الجنان، وإنّما تقدم على جند لك مجنّدة؟[1].

قالوا: لم نفعل.

(١) **التحف شرح الزلف**، و**الكامل في التاريخ**.

فقال: بلى فعلتم. ثمّ قال: أيّها الناس إذ كرهتموني فدعوني أنصرف إلى مأمني من الأرض.

قال: فقال له قيس بن الأشعث: أولا تنزل على حكم ابن عمّك، يعني ابن زياد، فإنّك لن ترى إلّا ما تحبّ.

فقال له الحسين: لا والله ولا أعطيهم بيدي عطاء الذليل، ولا أقرّ إقرار العبد.

عباد الله إنّي عذت بربّي وربّكم أن ترجمون، أعوذ بربّي وربّكم من كلّ متكبّر لا يؤمن بيوم الحساب.

ثمّ أناخ راحلته ونزل عنها.

وكذلك قام بعده بطل من أبطال كربلاء، وهو زهير بن القين، فخرج على فرس له في السلاح فقال: يا أهل الكوفة، نذار لكم من عذاب الله نذار، إنّ حقًّا على المسلم نصيحة المسلم، ونحن حتّى الآن إخوة على دين واحد ما لم يقع بيننا وبينكم السيف. فإذا وقع السيف انقطعت العصمة وكنّا نحن أمّة وأنتم أمّة، إنّ الله قد ابتلانا وإيّاكم بذريّة نبيّه محمّد ﷺ؛ لينظر ما نحن وأنتم عاملون؛ إنّا ندعوكم إلى نصره وخذلان الطاغية بن الطاغية عبيد الله بن زياد، فإنّكم لا تدركون معهما إلّا سوءًا، يسملان أعينكم، ويقطعان أيديكم وأرجلكم، ويمثّلان بكم، ويرفعانكم على جذوع النخل، ويقتلان أماثلكم وقرّاءكم، أمثال حجر بن عدي وأصحابه، وهانئ بن عروة وأشباهه!

قال: فسبّوه وأثنوا على ابن زياد

وقالوا: والله لا نبرح حتّى نقتل صاحبك ومن معه أو نبعث به وبأصحابه إلى الأمير عبيد الله بن زياد سلمًا.

فقال لهم: يا عباد الله، إنّ ولد فاطمة أحقّ بالودّ والنصر من ابن سميّة، فإن كنتم لم تنصروهم فأعيذكم بالله أن تقتلوهم، فلعمري إنّ يزيد ليرضى من طاعتكم من دون قتل الحسين.

فرماه شمرٌ بسهم وقال: اسكت، أسكت الله نأمتك، أبرمتنا بكثرة كلامك!

فقال زهير: يا ابن البوّال على عقبيه! ما إيّاك أخاطب، إنّما أنت بهيمة! والله ما أظنّك تحفظ من كتاب الله آيتين فأبشر بالخزي يوم القيامة والعذاب الأليم.

فقال شمر: إنّ الله قاتلك وصاحبك عن ساعة.

فقال: أفبالموت تخوّفني؟ والله للموت معه أحبّ إليَّ من الخلد معكم!

ثمّ رفع صوته وقال: يا عباد الله لا يغرنّكم من دينكم هذا الجلف الجافي، فوالله لا تنال شفاعة محمّد قومًا أهرقوا دماء ذريّته وأهل بيته وقتلوا من نصرهم وذبّ عن حريمهم. فأمره الحسين فرجع.

أمام هذا الموقف الغريب من قبل مرتزقة يزيد وعشقهم له إلى درجة أنّهم مستعدّون أن يضحّوا بأنفسهم من أجل يزيد وأن يقتلوا من أجله ابن رسول الله ﷺ، نستذكر كلامًا للسيّد حسين (رضوان الله عليه) عندما قال في الدرس الخامس من دروس شهر رمضان، وهو يتحدّث عن بني إسرائيل عندما عبدوا العجل وعشقوه ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ﴾[1] فقال متسائلًا: ما هو العجل هذا؟ يقصد بذلك أنّهم عشقوا الباطل بدل أن يتّجهوا لحبّ الله وحبّ نبيّه موسى عليه السلام.

وهنا يورد السيّد حسين (رضوان الله عليه) كلامه لأنّ هذه الصور ماثلة أمامنا اليوم، أليس هناك من يخرج من بلده وهو يرى أشلاء نساء وأطفال أبناء شعبه يقطعّون ظلمًا وعدوانًا، ويرى الغزاة شذّاذ الآفاق يغزون بلده وبدلًا من أن يقف مع الحقّ ومع الأحرار ومع الشرفاء ومع المظلومين والمعتدى عليهم لمواجهة هؤلاء الغزاة المحتلّين يخرج ليدير ظهره للغزاة، ويقاتل أبناء بلده ويقتل في سبيل الغزاة مع المجرمين الظلمة المعتدين؟!

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ٩٣.

صورة أخرى لهذا المشهد، البعض يعشق العجول التي كانت السبب في إضعاف بلده وجعله بلدًا فقيرًا متسوّلًا تابعًا يعيش تحت الوصاية الأمريكيّة، وتحت هيمنة الأعراب من السعوديّين والإماراتيّين، وتحت رحمة الوهّابيّين التكفيريّين، وهو بلد يمتلك ثروات هائلة وشعبًا عظيمًا ولديه ثقافة عظيمة لا يحتاج إلى ثقافة من قرن الشيطان وهو يمن الإيمان والحكمة؛ فيقف مع هؤلاء العجول، ويسبّح بحمدهم، ويمنحهم الولاء والطاعة، وقد يضحّي في سبيلهم، وهم كانوا وراء هذه المشاكل كلّها!

أليس هؤلاء أسوأ من بني إسرائيل الذين صنعوا لهم عجلًا وعشقوه، وهو عبارة عن صنم لا يدفع بهم إلى التضحية في سبيله، وهم من قالوا: ﴿قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ﴾[1].

هكذا يجب أن نفهم هذه السنّة؛ إذا لم تعشق الحقّ وتقف معه، وتضحّي في سبيله فأنت ستعشق الباطل وتقف معه، وتضحّي في سبيله.

ومن بقي فيهم زكاء الإسلام ونور القرآن وطهارة الإيمان، نهضوا مع الإمام الحسين عليه السلام وصدقوا ووفوا، وضربوا بصمودهم واستبسالهم أروع الأمثلة، وقدّموا لهذه الأمّة دروسًا مهمّة مكتوبة في الوفاء، والصدق؛ كيف يجب أن تكون وفيًّا حينما يغدر الآخرون، ويتراجعون ويتخاذلون، وحينما يتغيّرون، كذلك هناك الكثير من المواقف للرجال، والنساء، والشيوخ، والأطفال، مع الإمام الحسين وفيها دروس مهمّة.

في كربلاء، أقبل الإمام الحسين عليه السلام على أصحابه فقال: «الناس عبيد الدنيا والدين لعق على ألسنتهم، يحوطونه ما درّت معايشهم فإذا محّصوا بالبلاء قلّ الديانون».

ثمّ قال لأصحابه: «أمّا بعد، فقد نزل بنا من الأمر ما ترون، وإنّ الدنيا قد تغيّرت وتنكّرت وأدبر معروفها ولم يبق منها إلّا صبابة كصبابة الإناء وخسيس

---

(١) سورة **طه**، الآية ٩١.

عيش كالمرعى الوبيل، ألا ترون إلى الحقّ لا يعمل به وإلى الباطل لا يتناهى عنه ليرغب المؤمن في لقاء الله محقًّا فإنّي لا أرى الموت إلّا سعادة والحياة مع الظالمين إلّا شقاء وبرمًا».

فقام إليه زهير بن القين العجلي، فقال: قد سمعت مقالتك هديت، ولو كانت الدنيا باقية وكنّا مخلّدين فيها، وكان الخروج منها مواساتك ونصرتك لاخترنا الخروج منها معك على الإقامة فيها، فجزاه الحسين بن علي عليه السلام خيرًا، ثم قال:

سأمضي وما بالموت عار على الفتى إذا ما نوى حقًّا وجاهد مسلما

وواسى الرجال الصالحين بنفسه وفارق مثبورًا وجاهد مجرما

فإن عشت لم أندم وإن مت لم ألم كفى بك داءًا أن تعيش وترغما

ومرّة أخرى، جمع الإمام الحسين أصحابه مساء اليوم العاشر من المحرّم فخطبهم قائلًا: أما بعد، فإنّي لا أعلم أصحابًا أوفى ولا خيرًا من أصحابي ولا أهل بيت أبرّ ولا أوصل من أهل بيتي فجزاكم الله عني جميعًا ألا وإنّي أظنّ أنّ يومنا من هؤلاء الأعداء غدًا.

فقال برير بن خضير: يا ابن رسول الله، لقد منّ الله بك علينا أن نقاتل بين يديك، تقطّع فيك أعضاؤنا ثمّ يكون جدّك شفيعنا يوم القيامة.

وقال نافع بن هلال: سر بنا راشدًا معافًا مشرّقًا إن شئت أو مغرّبًا، فوالله ما أشفقنا من قدر الله ولا كرهنا لقاء ربّنا وإنّا على نيّاتنا وبصائرنا نوالي من والاك ونعادي من عاداك.

فقال مسلم بن عوسجة: أما والله لا أفارقك حتّى أطعن في صدورهم برمحي وأضرب بسيفي ما ثبت قائمه في يدي، ولو لم يكن معي سلاح أقاتلهم به لقذفتهم بالحجارة دونك حتّى أموت معك.

وقال سعد بن عبد الله الحنفي: والله لو علمت أنّي أقتل ثمّ أحيا ثمّ أحرق حيًّا ثم أذرَّى يفعل ذلك بي سبعين مرّة ما فارقتك حتّى ألقى حِمامي دونك فكيف لا أفعل ذلك وإنّما هي قتلة واحدة.

وقال زهير بن القين: والله لوددت أنّي قتلت ثمّ نشرت ثمّ قتلت حتّى أقتل كذا ألف قتلة، وأنّ الله يدفع بذلك القتل عن نفسك.

سطّر أصحاب الحسين عليه السلام نماذج عدّة للبطولة والفداء، إذ قدّم أصحاب الحسين عليه السلام رجالًا ونساء، شبابًا وأطفالًا أنفسهم قرابين في سبيل الله دون خوف أو رهبة من مواجهة الموت وكثرة العدوّ. وهذه نماذج لبعض التضحيات:

جاء حنظلة بن أسعد الشبامي، فوقف بين يدي الحسين وجعل ينادي ﴿يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ٣٠ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ٣١ وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ٣٢ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾[١]. يا قوم لا تقتلوا الحسين فيسحتكم الله بعذاب ﴿وَقَدۡ خَابَ مَنِ ٱفۡتَرَىٰ﴾[٢]، فقال له الحسين: رحمك الله! إنّهم قد استوجبوا العذاب حين ردّوا ما دعوتهم إليه من الحقّ، ونهضوا ليستبيحوك وأصحابك فكيف بهم الآن وقد قتلوا إخوانك الصالحين! فسلّم على الحسين وصلّى عليه وعلى أهل بيته وتقدّم وقاتل حتّى قتل.

وجاء عابس بن أبي شبيب الشاكري وشوذب مولى شاكر إلى الحسين فسلّما عليه وتقدّما فقاتلا فقتل شوذب، وأمّا عابس فطلب البراز فتحاماه الناس لشجاعته، فقال لهم عمر: ارموه بالحجارة، فرموه من كلّ جانب، فلمّا رأى ذلك ألقى درعه ومغفره وحمل على الناس فهزمهم بين يديه، ثمّ رجعوا عليه فقتلوه وادّعى قتله جماعةٌ.

---

(١) سورة **غافر**، الآيات ٣٠ - ٣٣.

(٢) سورة **طه**، الآية ٦١.

وبنفس الموقف البطولي، وقف سيف بن الحارث بن سريع، وأخوه لأمّه مالك بن عبد الله بن سريع وهما يبكيان. فقال الحسين عليه السلام: «ما يبكيكما إنّي لأرجو أن تكونا عن ساعة قريري عين» فقالا: والله ما على أنفسنا نبكي ولكن نبكي عليك، ونراك قد أحيط بك ولا نقدر أن نمنعك. فقال: «جزاكما الله جزاء المتّقين» وقاتلا حتّى قتلا.

وأثناء المعركة، جثا أبو الشعثاء - يزيد بن زياد الكندي - بين يدي الحسين وكان ممّن انضمّ إلى الحسين عليه السلام من جيش ابن زياد وهو من أشهر الرماة. فأرسل مئة سهم في نحور القوم لم يكد يخطأ منها خمسة أسهم وقاتل حتّى قتل.

وكذلك سويد بن أبي المطاع، سمع القوم يتنادون بمصرع الحسين وهو في النزع الأخير. فالتمس سيفه فوجدهم قد سلبوه ولم تقع يده إلّا على خنجر صغير فقام على قدميه يصارع الموت، فتولّاهم الذعر، وانطلق فيهم قتلًا حتّى أفاقوا وتعاونوا على قتله.

وممّن كانوا مع الحسين عليه السلام في كربلاء علي بن الحسين الأكبر. وعلى رأي أكثر المؤرّخين، خرج مع أبيه ولما قرب الحسين من كربلاء خفق خفقة، ثمّ انتبه وهو يقول: «إنّا لله وإنّا إليه راجعون، والحمد لله ربّ العالمين» فقال علي عليه السلام: يا أبتِ جعلت فداك ممّ حمدت واسترجعت؟ قال: «يا بنيّ، إنّي خفقت خفقة فرأيت فارسًا على فرس، فقال: القوم يسيرون والمنايا تسير إليهم فعلمت أنّ أنفسنا نعيت إلينا» فقال: يا أبتِ لا أراك الله سوءًا ألسنا على الحقّ؟ قال: «بلى والذي يرجع إليه العباد قال: إذًا، لا نبالي أوقعنا على الموت أو وقع الموت علينا».

وفي أرض كربلاء، دنا علي بن الحسين من والده وعمره لم يتجاوز الثامنة عشرة واستأذنه في القتال فأرخى الحسين عليه السلام عينيه وقال: (اللهم كن أنت الشهيد عليهم، وقد برز إليهم غلام أشبه الخلق برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتقدّم علي وهو يقول:

أنـا علـي بـن الـحسـين بـن علي نحـن وربّ الـبـيـت أولـى بـالنبي

من شبث ذاك ومـن شمر الدنيّ أضـربكـم بـالسـيف حـتّـى يـلتـوي

ضــرب غــلام هــاشـمي عـلـوي ولا أزال الـيـوم أحـمـي عـن أبـي

تــالــلـه لا يـحـكـم فـيـنـا ابــن الــدعـيّ

وفـي كـلّ مـرة، يعـود إلـى أبيه فـيقـول: يـا أبـتِ العطـش. فـيقـول الحسين عليه السلام: «اصبر حبيبي فإنّك لا تمسي حتّى يسقيك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بكأسه».

وحمل على القوم بشجاعة ضارية، وفي كلّ مرة يقتل أبطالهم ويفرّق صفوفهم وتكرّر ذلك منه عدّة مرّات، وفي إحدى كرّاته تلك، غدر به مرّة بن منقذ العبدي وطعنه برمحه، وتعاورته السيوف من كلّ جانب فنادى: يا أبتاه عليك السلام هذا جدّي يقرئك السلام ويقول: عجّل القدوم إلينا. وفارق الحياة شهيدًا فقال الحسين عليه السلام: «قتل الله قومًا قتلوك يا بنيّ ما أجرأهم على الله وعلى انتهاك حرمة رسول الله، على الدنيا بعدك العفاء»، وكان عليّ أوّل قتيل من بني هاشم.

أمّا عن العبّاس بن علي، فهو رمز من رموز البطولة والفداء والتضحية على أرض كربلاء، وقف كالطود الشامخ وقاتل قتال الأبطال، ونفذ من بين الجموع إلى الفرات واستجلب الماء إلى الخيام.

وقبل نهاية المعركة، كان قمر بني هاشم وحيدًا مع أبي عبد الله، فاستأذن الحسين عليه السلام وودّعه وأقبل على جيش عمر بن سعد يحصدهم ويمرق بين صفوفهم وأجهده العطش ووصل إلى الفرات ورفض أن يشرب قبل أن يحمل للحسين عليه السلام الماء فشدّ عليهم، ولكنّ القوم حالوا بينه وبين وصول الماء إلى الحسين عليه السلام واعتورته السيوف والرماح من كلّ جهة حتّى مزقته. وكان آخر قتيل ودّعه الحسين عليه السلام.

يقول القاسم بن نباته: رأيت رجلًا من بني أبان بن دارم، أسود الوجه، وكنت أعرفه جميلًا شديد البياض فقلت له: ما كدت أعرفك!.

قال: إنّي قتلت شابًّا أمرد مع الحسين بين عينيه أثر السجود، فما نمت ليلة منذ قتلته إلّا أتاني فيأخذ بتلابيبي حتّى يأتي جهنّم فيدفعني فيها فأصبح فما يبقى أحد في الحيّ إلّا سمع صياحي. قال: والمقتول العبّاس بن علي عليه السلام.

كان أطفال كربلاء قد تربّوا على الصدق والطهارة فكتبوا بدمائهم صفحة جليّة في طريق الحقّ والحريّة والكرامة. أحاط القوم بالحسين عليه السلام وأقبل إليه غلام من أهله فأخذته زينب عليها السلام فقال لها الحسين عليه السلام: احبسيه. فأبى الغلام وأقبل يعدو إلى أبي عبد الله ووقف إلى جنبه، وأهوى أبجر بن كعب بالسيف على الحسين عليه السلام.

فصاح الغلام فيه: أتقتل عمّي يا ابن الخبيثة واتقى ضربة السيف بيده فأطنها إلى الجلد وبقيت معلّقة فنادى الغلام: يا أمّاه فأخذه الحسين عليه السلام وضمّه إليه وقال: يا ابن أخي احتسب فيما أصابك الثواب، فإنّ الله ملحقك بآبائك الصالحين برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحمزة وعلي وجعفر والحسن[1].

وبرز القاسم بن الحسن عليه السلام وحمل على القوم فضربه عمر بن سعد بن نفيل الأزدي على رأسه فسقط القاسم على وجهه وصاح: يا عمّاه، فانقضّ الحسين عليه السلام كالصقر وشدّ عليهم، وضرب عمرًا بالسيف فاتقاه بيده فقطعها. وصاح عمر فحملت خيل الكوفة لينقذوه فداسته الخيول حتّى مات، وانجلت الغبرة والحسين عليه السلام واقف على رأس القاسم وهو يضرب برجليه الأرض والحسين عليه السلام يقول: «بعدًا لقوم قتلوك ومن خصمهم يوم القيامة فيك جدّك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثمّ قال: «عزّ والله على عمّك أن تدعوه فلا

(١) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، الجزء ٣، الصفحة ٢٩٢.

يجيبك أو يجيبك ثمّ لا ينفعك صوته. والله هذا يوم كثر واتره وقلّ ناصره»، ثمّ حمله على عاتقه حتّى وضعه بين قتلى أهل بيته عليهم السلام[١].

ويذكر هانئ بن ثبيت الحضرمي صورة أخرى من ذلك الظلم فيقول: كنت ممّن شهد الحسين عليه السلام فإنّي لواقف على خيول إذ خرج غلام من آل الحسين مذعورًا يلتفت يمينًا وشمالًا، فأقبل رجل منّا يركض حتّى دنا منه فمال عن فرسه فضربه فقتله[٢].

وكان للنساء كذلك مواقف مشرّفة مع الحسين عليه السلام، ففي مواقف الأمّ نذكر هذه القصّة. ذهب غلام إلى الحسين عليه السلام استشهد والده في أوّل المعركة، وقف أمامه وقال: (يا أبا عبد الله؛ ائذن لي بالقتال)، قال الإمام عليه السلام: «هذا غلام قُتل أبوه في أوّل المعركة ولعلّ أمّه تكره خروجه»، ومن رحمته بابنها كان حريصًا على أن يعرف موقفها، فقال الغلام: (أمّي هي التي أمرتني، أمّي هي التي أمرتني)، هذا موقف رائع للأمّهات المؤمنات حيث يجب أن يكون موقفهن هو أن يدفعن بأبنائهنّ في ساحات العزّة والجهاد، في ميادين البطولة والشرف، في ميادين الجهاد في سبيل الله ورضاه، وإقامة دينه، هذا موقف مفيد.

وروى الطبري: أنّه لمّا قال عبد الله بن عمير لزوجته أنّه يريد المسير إلى الحسين قالت له: أصبت أصاب الله بك أرشد أموره افعل وأخرجني معك فخرج بها حتّى أتى حسينًا، فأقام معه ثمّ برز ليقاتل، فأخذت امرأته عمودًا ثمّ أقبلت نحو زوجها تقول: فداك أبي وأمّي، قاتل دون الطيّبين ذريّة محمّد فأقبل إليها يردّها نحو النساء، فأخذت تجاذب ثوبه، ثمّ قالت: إنّي لن أدعك حتّى أموت معك فناداها الحسين فقال: «جزيتم من أهل بيت خيرًا، ارجعي رحمك الله إلى النساء فاجلسي معهنّ»، فانصرفت ثمّ قتل زوجها فخرجت تمشي إليه حتّى جلست عند رأسه تمسح التراب عنه وتقول: هنيئًا لك الجنّة.

---

(١) المصدر نفسه، الصفحة ٢٣٩.

(٢) أحمد الهادي، **التاريخ الإسلامي**.

فقال شمر بن ذي الجوشن لغلام يسمّى رستم: اضرب رأسها بالعمود فضرب رأسها بالعمود فقتلها وهي أوّل امرأة قتلت من أصحاب الحسين.

وهنا يقول السيّد عبد الملك (حفظه الله):

مثلما كان موقف أمّ وهب درسًا مهمًّا للنساء في عصرنا هذا وفي كلّ عصر، وهذا هو موقف المرأة المؤمنة التي تدفع زوجها لنصرة الحقّ، كذلك بعض النساء قد يساهمن في إعاقة أزواجهن عن الانطلاق في سبيل الله.

ووقف أصحاب الحسين عليه السلام يتلقّفون الشهادة تلقّفًا، ويقبلون على الموت ويتسابقون إليه، وذهب أصحاب الحسين عليه السلام شهداء، وكان كلّما قتل شهيدٌ حمله الحسين عليه السلام إلى جانب إخوانه، وبقي الحسين عليه السلام في أرض المعركة وحيدًا فريدًا يقاسي العطش والجوع، ونزف الجراح، ومتابعة القتال والطواغيت يحيطون به من كلّ جانب، فقاتل عليه السلام قتال الأبطال يحمل على القوم حتّى يهزمهم ثمّ يعود إلى مكانه واشتدّ عليه العطش وجعل يطلب الماء فقال له شمر: والله لا تردّه أو تردّ النار.

ثمّ ناداه عبيد الله بن حصن: ألا ترى إلى الفرات يا حسين كأنّه بطون الحيّات والله لا تذوقه أو تموت عطشًا. فقال الحسين عليه السلام: «اللهم أمته عطشًا»، فكان الرجل يطلب الماء فيشرب حتّى يخرج من فيه، وهو يقول: اسقوني قتلني العطش حتّى مات.

واجههم الإمام الحسين لوحده، ولكنّه اشتدّ عطش الحسين عليه السلام فدنا من الفرات ليشرب فرماه حصين بن نمير بسهم فوقع في فمه فجعل يتلقّى الدم بيده ورمى به إلى السماء، ثمّ حمد الله وأثنى عليه، ثمّ قال: «اللهم إنّي أشكو إليك ما يصنع بابن بنت نبيّك. اللهم احصهم عددًا واقتلهم بددًا ولا تبقِ منهم أحدًا»[١].

---

(١) أحمد الهادي، **التاريخ الإسلامي**.

ثمّ إنّ شمر بن ذي الجوشن أقبل في نفر نحو عشرة من رجالهم نحو منزل الحسين فحالوا بينه وبين رحله، فقال لهم الحسين: «ويلكم! إن لم يكن لكم دين ولا تخافون يوم المعاد فكونوا أحرارًا في دنياكم، امنعوا رحلي وأهلي من طغاتكم وجهالكم».

حمل القوم على الحسين عليه السلام وتناوشته السهام والرماح والسيوف، وتقدّم شمر بن ذي الجوشن فطعنه برمحه وضربه آخر على كتفه، وسقط الحسين عليه السلام على الأرض، فنزل خولي بن يزيد الأصبحي ليحتزّ رأس الحسين فارتعد فنحَّاه شمر، وهو يقول: «فتّ الله في عضدك» ونزل واحتزّ الرأس الشريف.

وما كاد القوم ينتهون من قتل الحسين حتّى هرعوا إلى حرم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ينازعوهنّ الحليّ وما عليهنّ من الملابس، دون أن تمنعهم مروءتهم، وانقلبوا إلى جثّة الحسين عليه السلام يأخذون ما عليها من كساء مزّقته السيوف والرماح، وأوشك القوم أن يتركوا الجثّة عارية على الأرض لولا سراويل بالية كان قد لبسها الإمام الحسين عليه السلام بالية ممزّقة، وتعمّد ذلك ليتركوها على جسده ولا يسلبوها، لأنّه يعرف دناءتهم وخسّتهم.

ثمّ أوطئوا الخيل جثّته الشريفة وصدره حتّى رضوا صدره وظهره، ثمّ أضرموا النار في الخيام، وساقوا بنات رسول الله سبايا إلى ابن زياد.

ثالثًا- أحداث ما بعد الثورة

انتهت معركة الطفّ باستشهاد الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته وصحبه الأخيار، فتقف زينب أمام المشهد في ساحة كربلاء، ويبدأ دور بطلة كربلاء بنت أمير المؤمنين وسيّد الوصيين زينب عليها السلام التي ضربت أروع الأمثلة لموقف المرأة الواعية، فقد كانت بطلة أثناء الحرب وبعد الحرب.

ولم يصب أحد بمثل ما أصيبت. ومع ذلك، وقفت صامدة تنتظر الموقف بعد المعركة، وشاهدت الرؤوس مرفوعة على الرماح، والجثث ملقاة على الأرض، والنساء حواسر فصاحت زينب عليها السلام: «يا محمّداه! هذا الحسين على العرّاء، وبناتك سبايا، وذريّتك مقتّلة تسفي عليها الصبا».

عاد القتلة المجرمون إلى عبيد الله بن زياد، ورأس الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه على رماحهم اثنان وسبعون رأسًا مع شمر بن ذي الجوشن وقيس بن الأشعث وعمرو بن الحجّاج وعزرة بن قيس فأقبلوا حتّى قدموا بها على عبيد الله بن زياد.

أمّا الجثث الطاهرة، فقد خرج لها جماعة مع الليل من بني أسد على ضوء القمر وصلّوا عليها ودفنوها هناك.

روى أبو العبّاس الحسني في المصابيح عن أبي جعفر الباقر عليه السلام أنّ الحسين لما قتل أخذ رأسه رجل من أهل الشام، فأتى به ابن زياد (لعنه الله) فوضعه بين يديه وجعل يقول:

أوقــر ركــابــي فــضّــة وذهــبًــا   فــقــد قــتــلــت الــمــلــك الــمــحــجــبــا

قــتــلــت خــيــر الــنــاس أمًّــا وأبًــا   وخــيــرهــم إن يــنــســبــون نــســبًــا

فقيل له: قد علمت أنّه خير الناس أمًّا وأبًا فلِمَ قتلته؟ فأمر بقتله غيظًا عليه لقوله ومدحه الحسين عليه السلام.

قال أبو مخنّف: حدّثني سليمان بن أبي راشد عن حميد بن مسلم قال: دعاني عمر بن سعد فسرّحني إلى أهله لأبشّرهم بفتح الله عليه وبعافيته فأقبلت حتّى أتيت أهله فأعلمتهم ذلك.

ثمّ أقبلت حتّى أدخل ووجدت الوفد قد قدموا على ابن زياد فأدخلهم وأذن للناس فدخلت فيمن دخل فإذا رأس الحسين موضوع بين يديه وإذا هو ينكت بقضيب بين ثنيتيه ساعة.

فلمّا رآه زيد بن أرقم يفعل ذلك قال له: اعلِ بهذا القضيب عن هاتين الثنيتين فوالذي لا إله غيره لقد رأيت شفتي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على هاتين الشفتين يقبّلهما، ثمّ انفضخ الشيخ يبكي.

فقال له ابن زياد: أبكى الله عينيك، والله لولا أنّك شيخ قد خرفت وذهب عقلك لضربت عنقك.

قال فنهض فخرج فلمّا خرج سمعت الناس يقولون: والله لقد قال زيد بن أرقم قولًا لو سمعه ابن زياد لقتله.

قال: فقلت: ما قال؟ قالوا: مرّ بنا وهو يقول: ملَّك عبد عبدًا فاتخذهم تلدًا، أنتم يا معشر العرب العبيد بعد اليوم قتلتم ابن فاطمة وأمّرتم ابن مرجانة، فهو يقتل خياركم ويستعبد شراركم فرضيتم بالذلّ فبعدًا لمن رضي بالذلّ.

قال: فلمّا دخل برأس الحسين وصبيانه وأخواته ونسائه على عبيد الله بن زياد لبست زينب ابنة فاطمة أرذل ثيابها وتنكّرت وحفّ بها إماؤها فلمّا دخلت جلست.

فقال عبيد الله ابن زياد: من هذه الجالسة؟ فلم تكلّمه.

فقال ذلك ثلاثًا، كلّ ذلك لا تكلّمه.

فقال بعض إمائها: هذه زينب ابنة فاطمة.

قال: فقال لها عبيد الله: الحمد لله الذي فضحكم وقتلكم وأكذب أحدوثتكم.

فقالت: الحمد لله الذي أكرمنا بمحمّد ﷺ وطهّرنا تطهيرًا لا كما تقول أنت، إنّما يفتضح الفاسق ويكذب الفاجر.

قال: فكيف رأيتِ صنْعَ اللهِ بأهل بيتك؟

قالت: كتب عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم، وسيجمع الله بينك وبينهم فتحاجّون إليه وتخاصمون عنده.

قال: فغضب ابن زياد واستشاط.

قال: فقال له عمرو بن حريث: أصلح الله الأمير إنّما هي امرأة وهل تؤاخذ المرأة بشيء من منطقها إنّها لا تؤاخذ بقول ولا تلام على خطل.

فقال لها ابن زياد: قد أشفى الله نفسي من طاغيتك والعصاة المردة من أهل بيتك.

قال: فبكت ثمّ قالت: لعمري لقد قتلت كهلي، وأبرت أهلي، وقطعت فرعي، واجتثثت أصلي، فإن يشفك هذا فقد اشتفيت.

ولما نظر ابن زياد إلى عليّ بن الحسين قال: ما اسمك؟؛ قال: علي بن الحسين. قال: أولم يقتل الله علي بن الحسين؟ فسكت(١).

فقال: ما لك لا تتكلّم؟

---

(١) علي بن الحسين الأصغر نجا من القتل بأعجوبة إذ كان مريضًا أثناء المعركة ولم يقتله القوم بعد المعركة إذ كان مريضًا وحافظت عليه زينب.

فقال: كان لي أخ يقال له أيضًا (عليٌّ) فقتله الناس.

فقال: إنّ الله قتله. فسكت عليٌّ.

فقال: ما لك لا تتكلّم؟

فقال: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا﴾[١]،﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾[٢] قال: أنت والله منهم.

فأراد قتله فتعلّقت به زينب وقالت: يا ابن زياد حسبك منّا، أما رويت من دمائنا، وهل أبقيت منّا أحدًا! واعتنقته وقالت: أسألك بالله إن قتلته لما قتلتني معه!.

ثمّ نادى: الصلاة جامعة، فاجتمع الناس، فصعد المنبر فخطبهم وقال: الحمد لله الذي أظهر الحقّ وأهله، ونصر أمير المؤمنين يزيد وحزبه، وقتل الكذّاب بن الكذّاب الحسين بن علي وشيعته.

فوثب إليه عبد الله بن عفيف الأزدي، وكان ضريرًا قد ذهبت إحدى عينيه يوم الجمل مع عليّ والأخرى بصفين معه أيضًا، وكان لا يفارق المسجد يصلّي فيه إلى الليل ثمّ ينصرف، فلمّا سمع مقالة ابن زياد قال: يا ابن مرجانة! إنّ الكذّاب بن الكذاب أنت وأبوك والذي ولّاك وأبوه! يا ابن مرجانة أتقتلون أبناء النبيّين وتتكلّمون بكلام الصدّيقين؟ فقال: عليّ به. فأخذوه، فنادى بشعار الأزد: يا مبرور! فوثب إليه فتية من الأزد فانتزعوه، فأرسل إليه من أتاه به فقتله وأمر بصلبه في المسجد، فصلب، رحمه الله[٣].

قال أبو مخنّف: ثمّ إنّ عبيد الله بن زياد نصب رأس الحسين بالكوفة فجعل يدار به في الكوفة. ثمّ دعا زحر بن قيس فسرح معه برأس الحسين ورؤوس أصحابه إلى يزيد بن معاوية وكان مع زحر أبو بردة بن عوف الأزدي

---

(١) سورة **الزمر**، الآية ٤٢.

(٢) سورة **آل عمران**، الآية ١٤٥.

(٣) **الكامل في التاريخ** لابن الأثير.

وطارق بن أبي ظبيان الأزدي فخرجوا حتّى قدموا بها الشام على يزيد بن معاوية.

أقبل زحر بن قيس حتّى دخل على يزيد بن معاوية.

فقال له يزيد: ويلك، ما وراءك؟ وما عندك؟ فقال: أبشر يا أمير المؤمنين بفتح الله ونصره، ورد علينا الحسين بن علي في ثمانية عشر من أهل بيته وستين من شيعته فسرنا إليهم فسألناهم أن يستسلموا وينزلوا على حكم الأمير عبيد الله بن زياد أو القتال فاختاروا القتال على الاستسلام؛ فعدونا عليهم مع شروق الشمس فأحطنا بهم من كلّ ناحية حتّى إذا أخذت السيوف مأخذها من هام القوم يهربون إلى غير وزر، ويلوذون منّا بالآكام والحفر لواذًا كما لاذ الحمائم من صقر، فوالله يا أمير المؤمنين ما كان إلّا جزر جزور أو نومة قائل حتّى أتينا على آخرهم فهاتيك أجسادهم مجرّدة، وثيابهم مرمّلة، وخدودهم معفّرة، تصهرهم الشمس، وتسفى عليهم الريح، زوّارهم العقبان والرخم.

قال: ثمّ إنّ عبيد الله أمر بنساء الحسين وصبيانه فجهّزن، وأمر بعلي بن الحسين فغُلّ بغلّ إلى عنقه، ثمّ سرح بهم مع محفز بن ثعلبة العائذي - عائذة قريش - ومع شمر بن ذي الجوشن، فانطلقا بهم حتّى قدموا على يزيد فلم يكن علي بن الحسين يكلّم أحدًا منهما في الطريق كلمة حتّى بلغوا.

قال أبو مخنّف: حدّثني الصقعب بن زهير عن القاسم بن عبد الرحمن مولى يزيد بن معاوية قال: لما وضعت الرؤوس بين يدي يزيد رأس الحسين وأهل بيته وأصحابه قال يزيد:

يفلقن هامًا من رجال أعزّة ... علينا وهم كانوا أعقّ وأظلما

(قال أبو مخنّف) حدثني أبو جعفر العبسي عن أبي عمارة العبسي قال: فقال: يحيى بن الحكم أخو مروان بن الحكم:

لهامٌ بجنب الطفّ أدنى قرابة ... من ابن زياد العبد ذي الحسب الوغل

سميّة أمسى نسلها عدد الحصى   وليس لآل المصطفى اليوم من نسل

قال: فضرب يزيد بن معاوية في صدر يحيى بن الحكم وقال: اسكت.

قال: ولمّا جلس يزيد بن معاوية دعا أشراف أهل الشام فأجلسهم حوله ثمّ دعا بعلي بن الحسين وصبيان الحسين ونساءه فأدخلوا عليه والناس ينظرون.

فقال يزيد لعليّ: يا عليّ أبوك الذي قطع رحمي، وجهل حقّي، ونازعني سلطاني؛ فصنع الله به ما قد رأيت.

قال: فقال علي: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾.

فقال يزيد لابنه خالد: اردد عليه.

فما درى خالد ما يردّ عليه.

فقال له يزيد قل: ﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ ثمّ سكت عنه.

ثمّ دعا يزيد بقضيب خيزران فجعل ينكت به ثنايا الحسين عليه السلام فأقبل عليه أبو برزة الأسلمي وقال: ويحك يا يزيد أتنكت بقضيبك ثغر الحسين بن فاطمة؟! أشهد لقد رأيت النبي يرشف ثناياه وثنايا أخيه الحسن ويقول: «أنتما سيّدا شباب أهل الجنّة، فقتل الله قاتلكما ولعنه وأعدّ له جهنّم وساءت مصيرا».

قال: فغضب يزيد وأمر بإخراجه فأخرج سحبًا.

قال: فجعل يزيد يتمثل بأبيات ابن الزبعري:

ليت أشياخي ببدر شهدوا   جزع الخزرج من وقع الأسل

لأهلّوا واستهلّوا فرحا   ثمّ قالوا يا يزيد لا شلل

فجزيناهم ببدر مثلها   وأقمنا ميل بدر فاعتدل
لست من عتبة إن لم أنتقم   من بني أحمد ما كان فعل

وهذه الأبيات قال بعضها ابن الزبعري شاعر قريش يوم أحد، وزاد يزيد البعض من أبياتها، فلابن الزبعري الأوّل والثالث، وليزيد الثاني والرابع[١].

فقامت زينب بنت علي بن أبي طالب عليها السلام فقالت: «الحمد لله ربّ العالمين، وصلّى الله على رسوله وآله أجمعين، صدق الله كذلك يقول: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أظننت يا يزيد حيث أخذت علينا أقطار الأرض وآفاق السماء، فأصبحنا نساق كما تساق الأسارى أنّ بنا على الله هوانًا وبك عليه كرامة؟ وأنّ ذلك لعظم خطرك عنده؟ فشمخت بأنفك، ونظرت في عطفك جذلان مسرورًا، حين رأيت الدنيا لك مستوسقة، والأمور متّسقة، وحين صفا لك ملكنا وسلطاننا، مهلًا مهلًا أنسيت قول الله تعالى ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

أمن العدل يا ابن الطلقاء تخديرك حرائرك وإماءك وسوقك بنات رسول الله سبايا قد هتكت ستورهنّ وأبديت وجوههنّ، تحدو بهنّ الأعداء من بلد إلى بلد، ويستشرفهنّ أهل المناهل والمناقل، ويتصفّح وجوههنّ القريب والبعيد، والدنيّ والشريف، ليس معهنّ من رجالهنّ وليّ، ولا من حماتهنّ حميّ؟ وكيف يرتجى مراقبة من لفظ فوه أكباد الأزكياء، ونبت لحمه بدماء الشهداء؟ وكيف يستبطئ في بغضنا أهل البيت من نظر إلينا بالشنف والشنآن، والإحن والأضغان؟ ثمّ تقول غير متأثّم ولا مستعظم:

لأهلّوا واستهلّوا فرحًا ثمّ قالوا يا يزيد لا شلل

(١) نهاية التنويه في إزهاق التمويه.

منتحيًا على ثنايا أبي عبد الله سيّد شباب أهل الجنّة، تنكتها بمخصرتك؟! وكيف لا تقول ذلك؟ وقد نكأت القرحة واستأصلت الشأفة، بإراقتك دماء ذريّة محمّد ﷺ ونجوم الأرض من آل عبد المطلب، وتهتف بأشياخك زعمت أنّك تناديهم! فلتردنّ وشيكًا موردهم، ولتودنّ أنّك شللت وبكمت، ولم يكن قلت ما قلت وفعلت ما فعلت «اللهم خذ بحقّنا، وانتقم من ظالمنا، وأحلل غضبك بمن سفك دماءنا وقتل حماتنا».

فوالله ما فريت إلّا جلدك، ولا حززت إلّا لحمك، ولتردنَّ على رسول الله بما تحمّلت من سفك دماء ذريّته، وانتهكت من حرمته في عترته ولحمته، حيث يجمع الله شملهم ويلمّ شعثهم، ويأخذ بحقّهم ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۢ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ وحسبك بالله حاكمًا، وبمحمّد خصيمًا، وبجبرائيل ظهيرًا، وسيعلم من سوَّل لك ومكّنك من رقاب المسلمين، بئس للظالمين بدلًا، وأيّكم شرّ مكانًا وأضعف جندًا.

ولئن جرَّت عليَّ الدواهي مخاطبتك إنّي لأستصغر قدرك، وأستعظم تقريعك، وأستكبر توبيخك، لكنّ العيون عبرا، والصدور حرّا، ألا فالعجب كلّ العجب لقتل حزب الله النجباء بحزب الشيطان الطلقاء، فهذه الأيدي تنطف من دمائنا والأفواه تتحلَّب من لحومنا، وتلك الجثث الطواهر الزواكي تنتابها العواسل، وتعفوها أمهات الفراعل، ولئن اتخذتنا مغنمًا لتجدنّ وشيكًا مغرمًا، حين لا تجد إلّا ما قدمت، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

فإلى الله المشتكى، وعليه المعوَّل، فكِدْ كيدك واسعَ سعيك، وناصب جهدك، فوالله لا تمحو ذكرنا، ولا تميت وحينا، ولا تدرك أمدنا، ولا ترحض عنك عارها، وهل رأيك إلّا فَنَد، وأيّامك إلّا عدد، وجمعك إلّا بدد، يوم ينادي المنادي ألا لعنة الله على الظالمين، فالحمد لله الذي ختم لأوّلنا بالسعادة ولآخرنا بالشهادة والرحمة.

ونسأل الله أن يكمل لهم الثواب، ويوجب لهم المزيد ويحسن علينا الخلافة، إنّه رحيم ودود، وحسبنا الله ونعم الوكيل».

فقال يزيد: يا صيحة تحمد من صوائح ما أهون الموت على النوائح

وقال صاحب المناقب: بعد ذلك قال علي بن الحسين: يا ابن معاوية وهند وصخر لقد كان جدّي علي بن أبي طالب في يوم بدر وأحد والأحزاب في يده راية رسول الله ﷺ وأبوك وجدّك في أيديهما رايات الكفّار.

ثمّ قال علي بن الحسين: ويلك يا يزيد! إنّك لو تدري ماذا صنعت؟ وما الذي ارتكبت من أبي وأهل بيتي وأخي وعمومتي إذًا لهربت في الجبال، وافترشت الرماد، ودعوت بالويل والثبور، أن يكون رأس أبي الحسين بن فاطمة وعلي منصوبًا على باب مدينتكم وهو وديعة رسول الله فيكم، فابشر بالخزي والندامة غدًا إذا جمع الناس ليوم القيامة.

وقال المفيد: قالت فاطمة بنت الحسين: ولمّا جلسنا بين يدي يزيد قام إليه رجل من أهل الشام أحمر فقال: يا أمير المؤمنين هب لي هذه الجارية؟ يعنيني، وكنت جارية وضيئة فارتعدت وظننت أنّ ذلك جائز لهم؛ فأخذت بثياب عمّتي زينب وكانت تعلم أنّ ذلك لا يكون.

فقالت عمّتي للشامي: كذبت والله ولؤمت ما ذلك لك وله.

فغضب يزيد فقال: كذبت والله إنّ ذلك لي ولو شئت أن أفعله لفعلت.

قالت: كلّا والله ما جعل الله ذلك لك إلّا أن تخرج من ملّتنا وتدين بغير ديننا.

قالت: فغضب يزيد واستطار ثمّ قال: إيّاي تستقبلين بهذا! إنّما خرج من الدين أبوك وأخوك.

فقالت زينب: بدين الله ودين أبي ودين أخي وجدّي اهتديت أنت وأبوك وجدّك إن كنت مسلمًا.

قال: كذبتِ يا عدوّة الله.

قالت له: أنت أمير تشتم ظالمًا وتقهر بسلطانك.

فكأنّه استحيا وسكت.

وعاد الشامي فقال: هب لي هذه الجارية؟ فقال له يزيد: اعزب وهب الله لك حتفًا قاضيًا.

فقال الشامي: من هذه الجارية؟

فقال يزيد: هذه فاطمة بنت الحسين وتلك زينب بنت علي بن أبي طالب.

فقال الشامي: الحسين بن فاطمة وعلي بن أبي طالب؟!

قال: نعم.

فقال الشامي: لعنك الله يا يزيد تقتل عترة نبيّك، وتسبي ذريّته، والله ما توهّمت إلّا أنّهم سبي الروم.

فقال يزيد: والله لألحقنّك بهم، ثمّ أمر به فضربت عنقه.

ثمّ إنّ يزيد (لعنه الله) أمر بمنبر وخطيب ليخبر الناس بمساوئ الحسين وعلي عليهما السلام وما فعلا، فصعد الخطيب المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثمّ أكثر الوقيعة في علي والحسين، وأطنب في تقريظ معاوية ويزيد لعنهما الله فذكّرهما بكلّ جميل.

قال: فصاح به علي بن الحسين: ويلك أيّها الخاطب اشتريت مرضاة المخلوق بسخط الخالق، فتبوّأ مقعدك من النار، ثمّ قال علي بن الحسين عليه السلام: يا يزيد ائذن لي حتّى أصعد هذه الأعواد فأتكلّم بكلمات فيهنّ لله رضا، ولهؤلاء الجلساء أجر وثواب، قال: فأبى يزيد عليه ذلك، فقال الناس: يا أمير المؤمنين ائذن له فليصعد المنبر فلعلّنا نسمع منه شيئًا.

فقال: إنّه إن صعد لم ينزل إلّا بفضيحتي وبفضيحة آل أبي سفيان. فقيل له: يا أمير المؤمنين وما قدر ما يحسن هذا؟ فقال: إنّه من أهل بيت قد زقّوا العلم زقًّا.

قال: فلم يزالوا به حتّى أذن له فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثمّ خطب خطبة أبكى منها العيون، وأوجل منها القلوب، ثمّ قال: أيّها الناس أعطينا ستًّا وفُضِّلنا بسبع: أعطينا العلم، والحلم، والسماحة، والفصاحة، والشجاعة، والمحبّة في قلوب المؤمنين، وفضّلنا بأنّ منّا النبيّ المختار محمّدًا، ومنّا الصدّيق، ومنّا الطيّار، ومنّا أسد الله وأسد رسوله، ومنّا سبطا هذه الأمّة.

من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني أنبأته بحسبي ونسبي، أيّها الناس: أنا ابن مكّة ومنى، أنا ابن زمزم والصفا، أنا ابن من حمل الركن بأطراف الرداء، أنا ابن خير من ائتزر وارتدى، أنا ابن خير من انتعل واحتفى، أنا ابن خير من طاف وسعى، أنا ابن خير من حجّ ولبّى، أنا ابن من حُمل على البراق في الهواء، أنا ابن من أسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى.

إلى أن قال: أنا ابن صالح المؤمنين، ووارث النبيّين، وقامع الملحدين، ويعسوب المسلمين، ونور المجاهدين، وأصبر الصابرين، وأفضل القائمين من آل ياسين رسول رب العالمين، أنا ابن المؤيّد بجبرائيل، المنصور بميكائيل، أنا ابن المحامي عن حرم المسلمين، وقاتل المارقين والناكثين والقاسطين، والمجاهد أعداءه الناصبين، وأفخر من مشى من قريش أجمعين، وأوّل من أجاب واستجاب لله ولرسوله من المؤمنين، وأوّل السابقين، وقاصم المعتدين، ومبيد المشركين، وسهم من مرامي الله على المنافقين، ولسان حكمة العابدين، وناصر دين الله، ووليّ أمر الله، وبستان حكمة الله...

فلم يزل يتحدّث حتّى ضجّ الناس بالبكاء والنحيب، وخشي يزيد (لعنه الله) أن تكون فتنة فأمر المؤذّن فقطع عليه الكلام[١].

وتوجّه موكب الإباء إلى مدينة الرسول ﷺ. وصلت النساء المكلومات إلى مدينة جدّهنّ محمّد ﷺ وعندما كنّ على مشارفها خاطبت [سكينة] مدينة جدّها وقالت:

مدينة جدّنا لا تقبلينا فبالحسرات والأحزان جينا
خرجنا منك بالأهلين جمعًا رجعنا لا رجال ولا بنينا

قالوا: ولما وصلت السبايا المدينة [لم يبقَ أحد حتّى خرج] وجعلوا يضجّون ويبكون.

وخرجت زينب بنت عقيل بن أبي طالب وهي تقول: وآحسيناه!!، وآإخوتاه!! وآأهلاه!!، ثمّ قالت:

ماذا تقولون إن قال النبيّ لكم ماذا فعلتم وأنتم آخر الأمم
بعترتي وبأهلي بعد مفتقد منهم أسارى وقتلى ضرجوا بدم
ما كان هذا جزائي إذ نصحت لكم أن تخلفوني بسوء في ذوي رحمي[٢]

بعد استشهاد الإمام الحسين عليه السلام، ضاعف الأمويّون سياستهم المبنيّة على الكبت والإرهاب. ففي سنة ثلاث وستين، أغار جيش يزيد بقيادة مسلم بن عقبة المري على المدينة واستباحوها لمدّة ثلاثة أيّام وجعل الناس يبايعون يزيدًا على أنّهم عبيد له يحكم في دمائهم وأموالهم وأهليهم ما شاء فمن امتنع من ذلك قتله[٣].

(١) **بحار الأنوار**، الجزء ٤٥، الصفحة ١٣٩.
(٢) مآثر الأبرار في تفصيل مجملات جواهر الأخبار.
(٣) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، الجزء ٣، الصفحة ٣١٥.

قال ابن كثير في تاريخه: ووقعوا على النساء حتّى قيل إنّه حبلت ألف امرأة في تلك الأيّام من غير زوج.

وسئل الزهري كم كان القتلى يوم الحرّة؟ قال: سبعمئة من وجوه الناس من المهاجرين والأنصار ووجوه الموالي، ومن لا أعرف من حرّ وعبد وغيرهم عشرة آلاف.

واستباح الكعبة المشرّفة وضربها بالمنجنيق حتّى أحرقها، واستباح الحرمات، وقتل الناس - حتّى من لجأوا إلى الكعبة قتلهم - وهتك الحرمات. وهذا شيء متوقّع منهم فمن تجرّأ على قتل سبط رسول الله ﷺ وقتل أهل بيته حتّى أطفاله، وسبي حريم رسول الله، هل يمكن أن يرعوا حرمة أحد بعد ذلك، أو يحترموا أيّ مقدّس من المقدّسات بعد أن داسوا بخيولهم صدر الحسين سلام الله عليه؟!

وأهلك الله يزيد بن معاوية في تلك السنة فبويع لابنه معاوية بن يزيد، فصعد المنبر، وقال بعد الحمد والثناء والصلاة على النبيّ ﷺ: أيّها الناس إنّا بلينا بكم وبليتم بنا، فما تحصل كرامتكم لنا بضغنكم علينا. ألا وإنّ جدّي معاوية بن أبي سفيان نازع الأمر من كان أولى به منه في القرابة من رسول الله ﷺ وأحقّ في الإسلام سابق المسلمين، وأوّل المؤمنين، وابن عمّ رسول ربّ العالمين، وأبا بقيّة خاتم النبيّين، فركب منكم ما تعلمون، وركبتم منه ما لا تنكرون، حتّى أتته منيّته، فصار رهينًا بعمله، ثمّ قلّد الأمر أبي وكان غير خليق بالخير، فركب هواه، واستحسن خطاه، وعظم رجاه، فأخلفه الأمل، وقصر عنه الأجل، فقلّت منعته، وانقطعت مدّته، فصار في حفرته رهينًا بذنبه، وأسيرًا بجرمه، والله لأسفنا له أعظم من أسفنا عليه، ثمّ بكى وقال: «إنّ أعظم الأمور علينا علمنا بسوء مصرعه، وقبح منقلبه، وقد قتل عترة الرسول ﷺ وأباح الحرمة، وحرق الكعبة، وما أنا المتقلّد أموركم، ولا المتحمّل بيعتكم، فشأنكم وأمركم، فوالله لئن كانت الدنيا مغنمًا لقد نلنا منها حظّنا، وإن تكن شرًّا

فحسب آل أبي سفيان ما أصابوا منها..»[١] فسمَّه بنو أميّة بعد أربعين يومًا من خلافته وعمره ثلاث وعشرون سنة.

وسلّط الله على قاتلي الحسين المختار بن أبي عبيد الثقفي داعية التوّابين من طالبي ثأر الحسين عليه السلام وكالهم بنفس المكيال، ولم يبقَ أحد شارك في قتل الحسين عليه السلام إلَّا قتل، وانتقم منهم شرّ انتقام فقتل عبيد الله بن زياد وأحرقه، وقتل شمر بن ذي الجوشن وألقيت أشلاؤه للكلاب، وقتل عمر بن سعد ونصبت رأسه، ولم ينجُ الحصين بن نمير ولا خولي بن يزيد. ولم يبقَ أحد اشترك في كربلاء إلّا أخذ جزاءه.

(١) **تاريخ اليعقوبي**، الجزء ١، الصفحة ٢١١.

رابعًا- دلالات الثورة

يقول السيّد عبد الملك (حفظه الله):

الأمّة بخذلانها للحقّ وابتعادها عن أعلام الهدى تدفع ضريبة باهظة وثمنًا كبيرًا لقاء ذلك في الدنيا والآخرة، تخسر الدنيا وتخسر الآخرة فـ«ما ترك الناس شيئًا من أمور دينهم استصلاحًا لدنياهم إلّا فتح الله عليهم ما هو أشدّ منه».

ويقول: «هذه دروس مهمّة يجب أن نستوعبها في هذا العصر، وأن تعطينا هي طاقة كبيرة لأن نواصل التحرّك في سبيل الله، في مسيرة الحقّ والقرآن، ضدّ اليهود والنصارى، في مسيرة الاستجابة لله، الاتباع لما أنزل الله، الموالاة لله وأوليائه والمعاداة لأعداء الله، في مسيرة العزّة، والمجد، والكرامة، والجهاد.

عرفنا كيف خرج الإمام الحسين من مدينة جدِّه مع خذلان الناس هناك لم ينصروا الحقّ، كيف خرج من مكَّة بقلَّة قليلة، بتخاذل الناس هناك، كيف كان موقف الأمّة بعد الحسين؟ وماذا ربحت؟ هل استقرّت حياة الناس؟ لأنّ البعض يرى أنّ المشكلة هي عندما نتحرّك مع الحقّ! وأنّه لو خذلنا الحقّ، لو لم ننصره، لو لم نقف معه، هل سنعيش حياة مستقرّة، ونكون مرتاحين وتكون حياتنا رغدًا؟! هل تمّ ذلك أم ماذا حصل؟ حصلت كلّ الكوارث وكلّ الطغيان، مظالم رهيبة، وعقوبات إلهيّة شديدة.

خرج عليه السلام من المدينة، وهو يتلو قول الله تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾[١]؛ مدينة الرسول، مدينة جدِّه، هاجمها يزيد بعشرة آلاف مقاتل، وفي بعض الروايات خمسة وعشرين ألف مقاتل سلّطهم عليها، أباح الدماء، والأموال، والنساء، أباح العِرْض والأرض والثروة والنفس والدم، أباح لجنده كلّ شيء، أن يقتلوا الناس في المدينة، أن يغتصبوا نساءهم، يهتكوا أعراضهم، ينهبوا ثرواتهم، وحملت ألف امرأة من بنات أهل المدينة ممّن كنَّ عذارى لم يكنَّ قد تزوّجن، حملن من الاغتصاب، وقُتِل في المدينة عشرة آلاف قتيل، بينهم كبار أهل المدينة ووجهاؤها وشرفاؤها الذين خذلوا الحسين، وسكتوا عنه، لم تصلح لهم حياتهم ولم يستقرّ وضعهم. مكَّة دُمِّرت، حتّى الكعبة أُحرِقت، العراق نفسه التهب معارك وحروب وفتن كبيرة، حتّى الشام لم يسلم من ذلك[٢]».

يقول أمير شعراء اليمن الحسن بن علي بن جابر الهبل ‹رضوان الله عليه› المتوفّى سنة ١٠٧٩هـ بصنعاء وهو يتحدّث عن هذه المأساة:

وبـكـرْبَـلا عـــرِّجْ فـــإنَّ بكربلا رِمَمًا مَنعْنَ عيونَنا طعمَ الكَرَى[٣]

حيثُ الذي حزنتْ لمصرعِه السَّما وبكتْ لمقتلِهِ نجيعًا[٤] أحمرا ويقول:

وما أنْسَ لا أنْسَ الشهيدَ بكربلا وهيهاتَ إنّي ما حييتُ لنادبُهْ

سَبَوا بعدَ قَتْلِ ابنِ النبيِّ حريمَهُ وما بَلِيَتْ تحتَ الترابِ ترائبُهْ

وبات يزيدٌ في سرورٍ ولو درى بما قد جرى قامتْ عليه نوادبُهْ

ويقول الصاحب بن عباد:

وتـجـرّدوا لـبـنـيـه ثـمّ بـنـاتـه بعظائم فاسمع حديث المقتل

(١) سورة **القصص**، الآية ٢١.

(٢) من خطاب السيّد عبد الملك بمناسبة عاشوراء ١٤٢٩هـ.

(٣) الكَرَى: النوم.

(٤) النَّجيعُ من الدمّ ما كان يضرب إلى السواد.

منعوا الحسين الماء وهو مجاهد في كربلاء فنح كنوح المعول
منعوه أعذب منهل وكذا غدا يردون في النيران أوخم منهل
أيجز رأس ابن النبيّ وفي الورى حيّ أمام ركابه لم يقتل؟
وبنو السفاح تحكّموا في أهل حيّ على الفلاح بفرصة وتعجّل
نكت الدعيّ بن الدعيّ ضواحكا هي للنبي الخير خير مقبل
تمضي بنو هند سيوف الهند في أوداج أولاد النبي وتعتلي
ناحت ملائكة السماء لقتلهم وبكوا فقد أسقوا كؤوس الذبل
فأرى البكاء على الزمان محلّلًا والضحك بعد الطف غير محلّل
كم قلت للأحزان: دومي هكذا وتنزلي في القلب لا تترحلي

كربلاء فاجعة كبرى، وجريمة مروّعة، وكارثة كبيرة، توحش وبشاعة لم يحصل مثلها في الجاهليّة الجهلاء، وبحقّ من؟ بحقّ أهل بيت محمّد رسول الله ﷺ وعلى أيدٍ محسوبة على هذه الأمة التي كاد أن يقتل نفسه حرصًا على هدايتها، وعمل طوال حياته لما فيه عزّتها وكرامتها وحريّتها واستقامتها.

فما الذي أوصل الأمّة التي قال الله عنها: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾ إلى هذه الحال؟! وأن يكون جزاء رسول الله منها هذا العمل بأهل بيته وبعد أن قال لها بأمر الله سبحانه: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾.

وفي جواب للسيّد حسين ‹رضوان الله عليه› عن تساؤل قال في دروس (من وحي عاشوراء):

«حادثة كربلاء فاجعة كربلاء هل كانت وليدة يومها؟ هل كانت مجرّد صدفة؟ هل كانت فلتة أم أنّها كانت هي نتاج طبيعي لانحراف حدث في مسيرة هذه الأمّة، انحراف في ثقافة هذه الأمّة، انحراف في تقديم الدِّين

الإسلامي لهذه الأمّة من اليوم الأوّل الذي فارق فيه الرسول ﷺ هذه الأمّة للقاء ربّه؟».

«لقد بذل الرسول محمّد ﷺ جهدًا كبيرًا في هذه الأمّة، في تربيتها، في إصلاحها، في تزكيتها، في أن يبنيها أمّة عظيمة، أمّة تدعو إلى الخير، وتأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، أمّة لا تقبل بأن تكون هي في داخلها ساحة للظلم ومسرحًا للجريمة وساحة للطغيان. أمّة مرتبطة بالله وبأوليائه، وفي نفس الوقت أمّة طاهرة نزيهة تحمل رسالة عظيمة، أمّة لا تقبل بالظلم ولا بالظالمين، لا تقبل بالطغاة ولا بالجريمة ولا المجرمين. أمّة ساحتها مقدّسة من الطغيان والطغاة، من الفساد والمفسدين، أمّة محمّد تكون عليها صبغة من قداسة محمّد، من طهارته، من زكائه، وتعيش في واقعها قائمة على هدي الله الذي أرسل محمّدًا، أمّة مقدّسة بارتباطها بالملك القدّوس الله العزيز الحكيم، أمّة عزيزة وكريمة وساحتها كريمة ونفوس أهلها كريمة أيضًا.

«فكيف حصل تغيّر في واقع الأمّة؛ تلك الأمّة التي بذل محمّد رسول الله ﷺ ذلك الجهد الكبير في إصلاحها وتزكية نفوس أهلها، وتطهير القلوب وتقويم السلوك وإصلاح العمل وتسديد القول، كيف تغيّرت إلى أن أصبح أكثر أبنائها، وأغلبهم ذوي نفوس دنيسة، دنيئة تميل إلى حطام الدنيا، تبيع الحق، وتشتري بدلًا منه الباطل، تناصر الظلم وتقف مع المجرمين في وجه المصلحين ووجه الخيّرين، تقف في صفّ الباطل ضدّ الحقّ، كيف حصل هذا التغيّر؟ ما الذي أوصل الأمّة إلى مثل تلك الحالة التي هي انقلاب؟! انقلاب على الرسول، وانقلاب على الإسلام، وقِيَمه، وتغيّر وحالة ارتداد رهيبة، وتقهقر إلى الوراء في خطوات كانت الأمّة قد خطتها في سبيل الحقّ، في صراط العزيز الحميد، في طريق المجد، في طريق الشرف!! كيف حصل ذلك التحوّل والذي استمرّ جيلًا بعد جيل؟!.

فالأمّة منذ ذلك الحين لم تزدد إلّا انحطاطًا، وهوانًا، لم تزدد إلّا ابتعادًا عن دينها، ورسولها، وقيم إسلامها، لم تزدد إلّا ارتماءً في أحضان المجرمين، ووقوفًا في صفّ الطغاة، ومناصرة وانطلاقة في الإثم والعدوان والطغيان

والإجرام. هذه الحالة الخطيرة، والتي يجب أن تستيقظ الأمّة منها؛ لأنّها عندما تستمرّ فهي تتجه بالأمّة بلا شكّ نحو الهاوية في الدنيا حيث السقوط والإذلال الذي نلحظه ويزداد أكثر فأكثر والهوان الذي وقعت الأمّة فيه نتيجة لاتجاهها وسيرها في الطريق الذي يوصلها إلى الخسران والذِّلة والهوان والضياع وإلى شفير جهنّم، إلى غضب الله، وسخطه في الآخرة»[١].

«بعد كلّ ذلك الذي حقّقه الرسول ﷺ - وللأسف الشديد - اعترى هذه الأمّة ما اعترى سابقاتها من الأمم بعد أنبيائها من التحريف لمفاهيم الدين ومن دخولِ مفاهيمَ مغلوطة وظلاميّة بدلًا عن ثقافة **القرآن الكريم**، وصَدَقَ رسولُ الله ﷺ حين قال «لتحذنّ حذو من قبلكم»، بل سعى الكثير من الظلاميّين والمضلّين تحت مؤثّرات الأهواء لرغبات أو مخاوف أو أطماع أو عصبيّات لتحريفِ مفاهيمَ ومعاني النصوصِ القرآنيّة ومعارفِ الإسلام بعد أن عجزوا عن تحريف النصّ القرآني؛ كلُّ ذلك لتضليل الأمّة وخدمة الجائرين والمتسلّطين والظالمين وقد ترك ذلك أثرًا سيّئًا في واقع الأمّة أوصلها إلى ما وصلت إليه من انحدار وهبوطٍ وتخلّفٍ وشتاتٍ وفرقةٍ وتظالمٍ وجهلٍ مركّب، وأميَّةٍ في المفاهيم والرؤى، وانعدام للحكمة، وغياب للرشد»[٢].

وإنّ من دلالات مأساة كربلاء أنّها كشفت مدى ما وصلت إليه الأمّة من انحرافٍ عن منهج الإسلام، ومبادئه ورموزه الحقيقيّين، وعن قِيَم وأخلاق الإسلام فكان هناك فجوة كبيرة جدًّا ما بين الإسلام في منهجه الحقّ، وقِيَمِه المُثلى وأخلاقه العُظمى ورموزه الأبرار، وواقع الأمّة في اتجاهاتها ومواقفها في مسيرة حياتها، في تاريخها ماضيها وحاضرها. أيضًا العدد الكبير من الأحداث والمواقف والوقائع والمحن التي تُجلّي وتكشف واقع الأمّة وما فيه من خلل إلّا أنّ مأساة عاشوراء هي الحدث الأبرز والأكبر وأكثرها كشفًا وإيضاحًا لحقيقة الواقع ومدى ما وصل إليه.

---

(١) من خطاب السيّد عبد الملك بمناسبة عاشوراء ١٤٢٩هـ.

(٢) من خطاب السيّد عبد الملك بمناسبة المولد النبوي ١٤٣٦هـ.

إذًا، يتّضح لنا أنّ مشكلة الأمّة هي في الانحراف الذي شاب انتماءها للإسلام في منهجه، وفي رموزه، وفي أخلاقه، وقِيَمِه، وفي مبادئه، واكتفاءها ببعض الشكليّات وبعض العبادات المحدودة، وبالتالي لم يكن هناك من ثمرة للإسلام في واقعها حينما أصبح شكلًا لا مضمون له، ضاعت الكثير من الأساسيّات وأُبعدت عن المنهج وعن الرموز الحقيقيّين.

وهنا، ندرك أهميّة الانتماء الحقيقي الصادق الواعي إلى الإسلام أنّ ثمرته عبوديّةٌ لله، وسمعٌ وطاعة، وارتباطٌ عمليٌ بمنهج الله، وارتباطٌ عمليٌ صحيحٌ بالقدوة، والتزام بالأخلاق، وتحلٍّ بالقيم وثمرة هذا الانتماء في واقع الحياة عدلٌ، وخيرٌ، ووحدة، ورحمة، وأخوَّة، وعزَّة، وقوَّة، ورعايةٌ وبركةٌ من الله سبحانه وتعالى. لذلك، يجب أن تبدأ عمليّة التصحيح في الذهنيّة لدى الفرد المسلم من هذه النقطة؛ الانتماء الصحيح للإسلام الذي يُثمر أثرًا في الواقع، أثرًا عظيمًا مختلفًا عن الأثر الذي طغى على واقع حياة أُمّتنا.

إنّ الانتماء الصحيح إلى الإسلام هو التزام وميثاق بين الإنسان وربِّه، عندما تحسب نفسك إنسانًا مؤمنًا، وتَدَّعي الإيمان، أنت تقطع عهدًا والتزامًا بينك وبين الله، وأنت تواثق الله ميثاقًا على السمع والطاعة والالتزام التامّ، والسير على نهجه، والتقبّل لأمره، والانتهاء عن نهيه، ولهذا يقول الله سبحانه وتعالى مذكّرًا أهميّة هذا الأمر ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[1] حينما يكون انتماء الإنسان انتماءً شكليًا لا ينبع من إرادةٍ حقيقيّةٍ من داخل قلبه ونفسه، والله سبحانه وتعالى هو عليمٌ بذات الصدور، وأكبر ما يُدلِّل ويكشف واقع الإنسان في مصداقيّته في انتماءه إلى الإسلام ومبادئه، وقيمه، وأخلاقه، وما يكشف مصداقيّة الإنسان هي المواقف والأحداث الكبيرة، والمتغيّرات المتنوّعة، والتحدّيات والأخطار.

---

(١) سورة **المائدة**، الآية ٧.

وعندما نستذكر الحسين عليه السلام فليس ذلك بدافع مذهبي ولا طائفي؛ لأنّ الحسين عليه السلام لا يخصّ مذهبًا ولا طائفة؛ إنّه رمز لكلّ الأمّة، رمز لكلّ البشرية، هو عليه السلام رمز في طريق الحقّ والخير الذي ثمرته السعادة والعزّة ومنتهاه رضوان الله والجنَّة، رمزٌ لكلّ الصالحين الصادقين الذين مآل أمرهم وعاقبتهم الفوز بالجنّة ورضوان الله ولن يأنف أيّ حُرّ ولا طاهر ولا عزيز ولن تأخذه العزَّة بالإثم من أن يحبّ الحسين ويقتدي بالحسين ويأخذ من روحيّة الحسين ويتعلّم في مدرسة الحسين.

ولشباب أمّتنا الذين يتأثّر الكثير منهم برموز وهميّة نقول: هذا هو الحسين سبط رسول الله سيّد شباب أهل الجنّة، الرمز المثالي لكلّ الأمّة وللشباب، وللشباب أيضًا هذا هو الرمز الذي يجب أن تتعرّفوا عليه وعلى سيرته، وأن تحملوا رايته وتقتبسوا من روحيّته.

ونعود إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وهو يُقدِّم لنا الحسين ويُعرِّفنا عليه وعلى مقامه ومكانته ودوره وما يُمثِّله هذا الرجل العظيم للأمّة وللبشريّة جمعاء فيقول صلى الله عليه وآله وسلم: «حسين منّي وأنا من حسين، أحبّ الله من أحبّ حسينًا، حسين سبط من الأسباط».

من هذا النصّ، ندرك المقام العظيم للإمام الحسين عليه السلام وموقعه المهمّ في الإسلام وفي هداية الأمّة، ونرى فيه روحيّة جَدِّه وعزّته ومشروعه جَدِّه، يعني: أنّ الحسين امتدادٌ بعد أخيه وأبيه للنهج المحمّدي الأصيل، امتداد للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم في مقامه العظيم في هداية الأمّة في بنائها وإصلاحها.

«أحبّ الله من أحبّ حسينًا» في طريق الحبّ لله نلتقي بالحسين ونحبّه؛ لأنّه جدير بالمحبّة، وهو وليّ الله وعندما نحبّه يحبّنا الله، ومحبّتنا له لمقامه العظيم كرمز من رموز الهدى هي محبّة لله، ولرسوله صلى الله عليه وآله وسلم، ومحبّتنا له لما يحمله من قِيَم وأخلاق ونور وبصائر، محبّتنا له تعني طهر المشاعر وزكاء النفس وسلامتها من التدّنس بحبّ مجرم أو ترميز طاغية، تعني صلاح

سريرتنا، وتعني إنسانيّتنا، وتعني طهارة قلوبنا القلوب التي تعشق الخير وأهله، وفي المقابل تكره وتمقت الظلم والظالمين والجريمة والمجرمين، تعني استقامتنا في حبّنا وكرهنا وولائنا وعدائنا، تعني النُّبل والشرف والصلاح، تعني عشق الموقف والسير في الطريق، وتعني التضحية والعطاء والثبات.

ولذلك، يجب أن تتعزّز وتترسّخ الثقافة الحسينيّة في الثورة على الظالمين والطغاة، وعدم القبول بهم في موقع السلطة أبدًا مهما كان الثمن؛ لأنّهم لا نفع فيهم ولا فائدة ترجى منهم، وليس للشعوب أيّ مصلحةٍ منهم؛ لأنّهم ليس لديهم أساسًا أيّ تفكير ولا اهتمام كيف يبنوا واقع الأمّة ويحقّقوا لها العدل والرخاء والأمن والاستقرار، وكيف يسخّروا الإمكانيّات والثروة العامّة التي هي ملك الأمّة في خدمتها ومصالحها، هم بعيدون عن ذلك. كلّ تفكيرهم وانشغالهم واهتمامهم كيف يقووا نفوذهم، وينمّوا ثرواتهم، ويُحكموا سيطرتهم وسلطتهم ليتمكّنوا أكثر من ممارسة الظلم، وليكونوا أشدّ اقتدارًا لممارسة الطغيان والاستبداد، وتفكيرهم منصبّ في كيف يشعلون الحروب والفتن والمآسي، كيف يقتلون هذا، ويسجنون ذاك ،كيف ينهبون تلك الثروة، كيف يستحوذون على تلك المصادر لأرزاق الناس ومصالحهم، هذا هو واقع الطغاة والظالمين، لا يمكن أن تراهن الأمّة ولا أن تعتمد عليهم لا لصلاح دين ولا لصلاح دنيا.

والعدل هو ضرورة للحياة لا تستقيم الحياة إلّا به، لا يستقيم واقع الناس حتّى في دنياهم إلّا على أساسه، من دونه لا قيمة للحياة، تكون كلّها ظلم وهوان واضطهاد، لذلك لا حرج من التضحية من أجل إقامة العدل «ليرغب المؤمن في لقاء الله محقًّا».

ولذلك التغيير والعمل على إصلاح الواقع هو مسؤوليةّ وضرورة؛ ضرورة لصلاح حياة الناس، واستقرارها، لأمنهم، لسلامهم، لعزّتهم، للرخاء، للارتقاء في واقع الحياة وفي مستوى المسؤوليّة، هو ضرورة وهو مسؤوليّة علينا كمسلمين، نحن أولى الأُمم بإقامة العدل في واقعنا، لا يجوز ولا يليق ولا

ينبغي أن نكون كمسلمين في واقعنا أكثر الأُمم معاناة من الظلم والاضطهاد، وأسوأ ساحة تقبل بالظالمين فيهيمنون عليها[١].

فالحسين عليه السلام يُمثِّل بحقّ مدرسة إسلاميّة متكاملة، في سلوكه وموقفه وحقيقته، وقيمه، خاصّة ونحن في هذا العصر في مرحلة يحرص فيها أعداء الإسلام على تزييف الإسلام، وعلى صناعة إسلام أمريكي يتوافق مع الرغبات الأمريكيّة، مع الفجرة والفاسقين وعملاء اليهود والنصارى، إسلام من نوع آخر، يختلف عن الإسلام الذي كان عليه محمّد، ومنبعه القرآن وأعلامه أهل البيت عليهم السلام.

لكنّ الإمام الحسين عليه السلام يقدِّم دروسًا مهمة في هذا السياق، يجب أن ننظر إلى الإسلام أنّه دين يربّينا على العزّة والكرامة، وعلى ألّا نقبل أبدًا بالإذلال ولا الهوان، يربّينا على أن نكون في صفّ الحقّ وأهله ضدّ الإثم والعدوان والطغيان، وأن تكون نظرتنا للحياة النظرة الحقيقيّة والصائبة، أن نكون عشّاقًا للحقّ وأنصارًا له، وعاملين على إقامة الحقّ والعدل ليكون منهجًا يسود الحياة.

فالحياة من دون الحقّ، وتعاليم الله، والعدل تصبح حياة مظلمة، جائرة، مأساوية، مهينة، لا قيمة لها أبدًا.

لذلك؛ عندما خاطب الإمام الحسين أصحابه وأنصاره المخلصين، يقول لهم: «ألا وإنّه قد نزل من الأمر ما ترون، وإنّ الدنيا قد تغيَّرت وتنكَّرت وأدبر معروفها، واستمرَّت جدًّا - أي صارت مرّة - فلم يبق منها إلّا صبابة كصبابة الإناء، وخسيس عيش كالمرعى الوبيل، ألا ترون أنّ الحقّ لا يُعمل به، وأنّ الباطل لا يُتناهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء الله محقًّا، فإنّي لا أرى الموت إلّا سعادة، والحياة مع الظالمين إلّا شقاوة وبَرَمًا».

---

(١) من خطاب السيّد عبد الملك بمناسبة عاشوراء ١٤٣٤ هـ.

ومن أكثر ما يُسيء إلى الناس الحرص الشديد على الحياة ولو كانت حياة مهينة ذليلة، حياة يعيش الإنسان فيها شقاء وهوان وذلّة، وبعدها يكون إلى جهنّم، في الشقاء للأبد، شقاء امتداد لشقاء، وهوان أكبر امتداد لهوان أصغر.

والإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ يقدّم لنا هذا الدرس المهمّ بقوله، لأنّ الحقّ هو منهج للعمل، هناك أشياء كثيرة هي حقّ يجب أن نعملها، وعندما نعملها وهي حقّ فإنّ في ذلك صلاح دنيانا، وحياتنا، والخير لنا في الدنيا والآخرة. عندما يصبح الحقّ، وهو من الله، دين الله، تعاليم الله، والأعمال والمواقف ضائعًا، لا يهمّ الناس فيما يعملون أن يعملوا الحقّ، ولا يهمّ الناس في مواقفهم التي يقفونها أن تكون مواقف حقّ، حينما يصبح الحقّ بعيدًا عن واقع العمل، يضحى لا وجود له إلّا في بطون الكتب، أو في طيّات الآيات القرآنيّة؛ لا وجود له في الواقع والحياة، لا يُعمل به، لا يُطبَّق، ماذا يكون البديل عن الحقّ؟ أليس هو الباطل؟ أليس هو الظلم؟ أليس هو الفساد؟ أليس هو الطغيان؟ إنّه هو البديل عن الحقّ!.

وعندما تصبح الحياة هكذا لا وجود لها في الحقّ، أو في واقع العمل، والموجود بديلًا عن الحقّ هو الظلم والفساد هو الطغيان، هو الهوان والخسران في الدنيا والآخرة، هل للحياة قيمة؟ لا.

في مثل هذه الحال، من أهمّ ما يجب أن يحرص عليه الإنسان أن يلقى الله محقًّا، إذا تخلّى الآخرون عن الحقّ، وتنازلوا عنه، وتركوه، وابتعدوا عنه فلتحرص أنت ألّا تفعل ذلك كمؤمن.

«ليرغب المؤمن في لقاء الله محقًّا» أنت ستلقى الله، الناس بطواغيتهم، بمستكبريهم الذين يرهبونهم ويخافونهم أحيانًا أكثر من الله، الكلّ سيلقى الله،ومصير الجميع إلى الله، وأمام الله سيتحمّل الإنسان المسؤوليّة، سيسألك الله، ويحاسبك على الحقّ الذي أضعته وخذلته، الموقف الحقّ الذي لم تقف معه سيحاسبك الله عليه، ويسألك، ويعاقبك عليه، ولا

يفيدك أولئك الطغاة والمجرمون الذين من أجلهم أضعت الحقّ وخوفًا منهم، أو رغبة فيما لديهم من حطام الدنيا الزائل، بعت الحقّ، وضحّيت به، وتركته، لن يفيدونك.

هذا الدرس يهمّ الإنسان المؤمن فقد قدّمه لنا سبط رسول الله، سيّد شباب أهل الجنّة، قولًا وموقفًا، وعملًا بصوته، وبدمائه الزكيّة، وبمظلوميّته الكبيرة، وبأشلائه التي تقطّعت في أرض كربلاء «ليرغب المؤمن في لقاء الله محقًّا» لتكون هذه رغبة لديك، أمنية أن تلقى الله على الحقّ عاملًا به، ناصرًا له، متمسّكًا به؛ لأنّ «الحياة مع الظالمين شقاوة». قد تبيع الحياة، أو قد تبيع الحقّ، وقد تسكت عن قول الحقيقة، قد تخذل الحقّ من أجل ماذا؟ من أجل أن تبقى حيًّا! حيًّا مع من؟! تحت هيمنة من؟! تحت قيادة من؟! الظالمين، والحياة مع الظالمين تكون ليذيقوك سوء العذاب.

أليست الشعوب العربيّة في عصرنا هذا شعوب مقهورة ومظلومة؟ ألا تُظلم يوميًّا؟ تُظلم في اقتصادها! في معيشتها! تُظلم في كّل شيء، بكلّ أنواع الظلم وأشكاله وألوانه، قد تحرص أن تبقى حيًّا وتبيع الحقّ وتسكت عنه وتخذله ولا تنصره؛ حفاظًا على حياة، ولكن حياة شقاوة، حياة بَرَمًا، حياة ممقوتة، وبعدها جهنّم.

لكنّ الموت في سبيل الله، مع الحق، الموت محقًّا هو سعادة، هو رحيل من ساحة الظلم وواقع الاضطهاد والقهر والهوان والمعاناة والمتاعب إلى جنّة الله، إلى رحمة الله، إلى رضوان الله، إلى السعادة عند الله، فكيف يتهرّب الناس من هذا؟! كيف يحرص الناس على الإبقاء في حياة مملوءة بالظلم والمتاعب والمُعاناة والشدائد والهوان والقهر والطغيان، على أن لا يرحلوا إلى حياة سعيدة هنيئة، حياة الشهداء، حياة الأبرار، في رحمة الله، في رضوان الله، في جنّة الله، في سعادة لا نهاية لها، حياة عزيزة عند الله، في ضيافة الله، في دار الله، في رحمة الله.

«فإنّي لا أرى الموت إلّا سعادة والحياة مع الظالمين إلّا برمًا» ووقف الإمام الحسين عليه السلام ذلك الموقف العظيم، بالقلّة القليلة وفي غُربة كبيرة بين أوساط هذه الأمّة، لقي الله محقًّا، مخضَّبًا بدمائه مظلومًا، لقي الله وفيه أكثر من ثلاثين طعنة، وستين ضربة، وهو مشكوك بالسهام، وحينما أسقطته الأمّة على الأرض صريعًا، وهو حفيد رسول الله، وريث رسول الله، سبط رسول الله، فإنّ الأمّة سقطت، وأسقطت نفسها.

عندما أصبحت الأمّة هكذا تُسقِط أخيارها في ميادين القتال، بسيوفها وفيما بعد ببنادقها ومدافعها وصواريخها، فإنّ الأمّة تسقط أكثر فأكثر، للأسف الشديد بدلًا من أن تخطو في خطى نبيّها وعلى دربه، فإنّها خطت خطوات على درب بني إسرائيل الذين لهم تاريخ طويل في قتل أنبيائهم، وقتل الآمرين بالقسط فيهم، قتل أخيارهم، ومناصرة مجرميهم وطغاتهم.

وهذا ما سبّب فعلًا الهوان والذلّة لهذه الأمّة، مثلما ضُرِبت الذلّة والمسكنة على بني إسرائيل فيما سبق، كانت النتيجة نفسها[١].

بهذه الروحيّة الإيمانيّة التي تحمل الإباء والعزّة والاستعداد العالي للتضحية تستطيع الأمّة أن تُواجه جبروت الظالمين وطغيانهم، ولن يركعها شيء من ظلمهم ولا وحشيّتهم ولا فظائع جرائمهم، ستكون الأمّة في صمودها في ثباتها في قوتّها وتمسّكها بالحقّ أقوى من كلّ جبروتهم وفوق كلّ طغيانهم، أكثر صمودًا وأعظم استبسالًا، وأقوى ثباتًا في مواجهة الطاغوت، بهذه الروحيّة تستطيع الأمّة أن تُقيم الحقّ وأن تجعل للإسلام سيادة في واقعها يحكم توجّهها وتبني عليه واقعها.

أمّا من يظن أو يتوهّم أنّ بالإمكان أن يجمع بين حالة الإيمان وروحيّة الخنوع والخضوع والذلّ والاستسلام والعجز واليأس والإحباط وأن تكون هذه طريقة لإقامة حقّ أو لتغيير واقع أو لإصلاح خلل أو لمواجهة طغيان الطغاة

(١) من خطاب السيّد عبد الملك بمناسبة عاشوراء ١٤٢٩ هـ.

فهو واهم، هذه الروحيّة - الخنوع والخضوع - هي التي ركَّعت الأمّة على مدى مراحل كبيرة من تاريخها لمجرمين سيّئين على مستوى فظيع من الدناءة والانحطاط والسوء والشرّ والظلم والطغيان والإجرام، كانت هذه هي النتيجة.

نحن ننطلق في هذه المسيرة – برجالها، بجماهيرها، بنسائها، بأطفالها، برموزها، بأبطالها، بقادتها - على هذا الأساس بالروحيّة التي كان يحملها الحسين عليه السلام مقتبسين من ذلك النور وسائرين في تلك الطريق، طريق الجهاد والاستشهاد. هذه المسيرة التي كانت ولا زالت وستظلّ تُقدِّم قوافل الشهداء من شبابها الأعزّاء ورجالها الأبطال في ميادين الجهاد وساحات الثورة مستمدّة من المبادئ الراسخة لمدرسة الحسين؛ مدرسة الإسلام والقرآن، من روحيّة الأنبياء تقتبس وتأخذ، وبنورهم تستضيئ وتستبصر، ومن عزيمتهم تأخذ وتنطلق وتندفع على ذلك الأساس؛ لأنّ هذا هو الطريق الصحيح والصراط المستقيم؛ لأنّه طريق العزّة والكرامة.

من هذه المدرسة؛ مدرسة الحسين الإيمانيّة بعزّتها، بمنهجها، بثقافتها، بقرآنها، بنبيِّها، بإسلامها ننطلق في هذه المسيرة رجالًا ونساءً، كبارًا وصغارًا، جماهير ومقاتلين في مواجهة الخطر الأمريكي الإسرائيلي، نتحرّك بروحيّة الإيمان ومنهج القرآن بعزّة الأنبياء وبعزّة ورثة الأنبياء مقتبسين من عزّة الله، نتحرّك في مواجهة كلّ المخاطر وفي مواجهة كلّ التحديات في كلّ الميادين.

أيًّا كانت العناوين، أيًّا كانت المؤامرات ومهما كان حجم التحدّيات، عدو يواجهنا من الداخل أو آخر يتآمر علينا من الخارج سنقف واثقين بالنصر، حاضرين للشهادة، معتزّين بعزّة الإيمان، مستبصرين بنور القرآن، معتمدين على الله، متوكّلين عليه، واثقين من تأييده ومن أنّ العاقبة للمتّقين.

ونؤكّد أنّنا بإذن الله سبحانه وتعالى ماضون في هذا الطريق، طريق الحسين، طريق عليّ، طريق محمَّد، طريق الله المستقيم، الصراط المستقيم، نهج **القرآن الكريم**، النهج القويم، متبنّون لنفس المواقف، صادعون بالحقّ بإذن الله، مواجهون للباطل، مواجهون للفساد، نتحرّك في هذه المسيرة

القرآنيّة على ضوء تعاليم الله سبحانه وتعالى؛ لإحقاق الحقّ، وإقامة العدل، للأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، لمواجهة الفساد، والباطل، رضي من رضي، أو لامنا من يلوم.

نحن في هذه المسيرة القرآنيّة بدينها، ونهجها وثقافتها وعزّتها وجهادها وشهدائها الأعزاء نقول ونؤكّد أنّنا لن نقبل مطلقًا في المستقبل أن يعود وضع اليمن إلى ما كان عليه سابقًا من هيمنة للظالمين واستحكام للطاغوت، من عبث بالناس وبحياتهم وبثروتهم وبواقع حياتهم السياسي والثقافي والاقتصادي، سنظلّ في هذه المسيرة - برجالها المقاتلين المجاهدين وبجماهيرها الوفيّة - ماضين قُدُمًا بإصرار وعزيمة إيمانيّة ومسؤوليّة عالية لمواجهة كلّ التحدّيات مهما كان حجمها.

نحن أمّة اختارت لنفسها أن تكون ثقافتها ثقافة القرآن وأن يكون واقعها قائمًا على الحقّ، والعدل، والمعروف، بعيدًا عن المنكر، ومن يأتي من أُمَّة المنكر أمريكا أو أوليائها يسعى لأن يفرض علينا واقعًا آخر لن نقبل له بذلك أبدًا، وسنبقى مع كلّ الأحرار والشُّرفاء من أبناء شعبنا نسعى لأن تتوحَّد الكلمة، وأن يتحرّك الجميع باتجاه مستقبل واعد، خيّر، مستقبل يقوم على أساس العدل لتحقيق العدل لهذا الشعب المظلوم المحروم الذي ظلّ عشرات السنوات يعاني في واقع حياته، تُستباح دماء أبنائه، تُنهب ثروته ويُعذَّب بالفقر وهو شعب له ثروة كبيرة هائلة، يُعذَّب بالقتل، بالفقر، يُشتَّت شملُه، تُغزى ثقافته، ويُنشر فيه الباطل والضلال، ويُفرَّق جَمعُه ويُسام سوء العذاب.

آن لتلك المرحلة أن تولي وإلى غير رجعة إن شاء الله، وسنبقى بإذن الله سائرين في هذا الطريق، في مقدّمة هذا الطريق الأنبياء وخاتمهم محمّد ﷺ بعده أولياء الله رموز هذا الدين وفي مقدِّمتهم الإمام علي، الإمام الحسن، الإمام الحسين، السلسلة الممتدّة من أعلام الهدى عليهم السلام من نورهم نستضيء ومن روحيّتهم نحمل وعلى مواقفهم نتحرّك، أمامنا الغاية المنشودة رضا الله والجنَّة، والهدف الرئيس إقامة الحقّ، والعدل، والظلم،

والفساد، والعمل على إزالة المنكر، والأمر بالمعروف؛ لنحقّق في واقعنا قول الله سبحانه وتعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾[١]»[٢].

لقد شاء الله وأراد أن يكشف واقع عباده، وأن يُجلِّيه من خلال الأحداث والمتغيّرات التي تحمل في طيّاتها عوامل مؤثّرة وكاشفة لواقع الإنسان ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿الٓمٓ ١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[٣]. شاءت إرادة الله سبحانه وتعالى أن يُجلّي واقع عباده ومصداقيّتهم في انتمائهم للإيمان من خلال الأحداث، من خلال المواقف، من خلال المتغيّرات التي فيها تحدّيات وأخطار، لا يمكن أن نغالط الله، ولا يمكن لأحد أن يخادع الله، ولا يمكن للزيف أن يبقى هو مُغطِّيًا على الحقيقة، هذه إرادة الله، لا يمكن أن يكفي الواقع الشكلي القائم على المزاعم والادّعاءات، التَّلبُّس بالإسلام، والإيمان، بينما في الواقع العملي في الواقع الحقيقي للإنسان، في توجّهه الحقيقي من داخل قلبه لديه اتجاه آخر ولديه غشّ ولديه عوامل مؤثّرة تبعده عن نهج الله وعن التسليم لله سبحانه وتعالى.

الابتلاء أيضًا فيما يتعلّق بالمسؤوليّة ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ﴾[٤] حينما تكون الأوضاع مستقرّة ولا تبرز التحدّيات تكثر المزاعم ويكتفي الناس بالشكليّات ليُدلِّلوا منها على ما هم عليه وما يدعونه، لكنّ إرادة الله سبحانه وتعالى أن يكشف الواقع ويُدلِّل على الحقيقة بما يدلّ عليها بصدق ولهذا عندما يقول: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ﴾ حتّى يتضح

---

(١) سورة **آل عمران**، الآية ١١٠.

(٢) من خطاب السيّد عبد الملك بمناسبة عاشوراء ١٤٣٢ هـ.

(٣) سورة **العنكبوت**، الآيات ١-٣.

(٤) سورة **محمّد**، الآية ٣١.

حقيقة ما الإنسان عليه مدى مصداقيّته مع الله، توجّهه إن كان محقًّا أو كان مغشوشًا.

لذلك، ينبغي أن يلتفت الإنسان إلى أهميّة الصدق مع الله والارتباط الوثيق به، لا يبني الإنسان مسيرته الإيمانيّة وتوجّهه الإيماني على الزيف، لا يغشّ ولا يخادع نفسه ويبني واقعه على الزيف من دون ارتباطٍ وثيقٍ بالله سبحانه وتعالى وأخذٍ بأسباب التوفيق تفاديًا للسقوط.

وعوامل السقوط أمام الاختبار الإلهي، أمام الأحداث والمتغيّرات، هي واحدة أمام كلّ حدث في كلّ عصر وفي أيّ زمن، عوامل واحدة، أساسها السلبي الموقف من هدى الله سبحانه وتعالى عندما يكون موقفًا سلبيًّا، عندما لا يرتبط الإنسان بهدى الله الارتباط الوثيق، ارتباط الاهتداء والاستبصار والتمسّك، والاتباع، والاستفادة منه في الواقع التربوي لزكاء النفس وطهارة القلب.

يتفرّع عن هذا العامل الأساسي عوامل متعدّدة منها:

١- التضليل

عندما لا يتحصَّن الإنسان بهدى الله يكون لديه قابليّة كبيرة لأن يتأثّر بما يصدر من الآخرين من تضليل، من أباطيل، من دعايات، فيكون عُرضةً للتأثّر بهم، والسلوك في نهجهم، واتباعهم، والكون في معيّتهم.

٢- حبّ السُلطة

المنصب وحبّ الوصول إليه هو من العوامل التي تساعد على السقوط. والبعض من الناس في مقابل الحصول على منصب معيَّن أو وظيفة معيَّنة حاضر ومستعدّ ولا يمانع أبدًا في أن يتخذ أيّ موقف مهما كان باطلًا، وفي أن يمارس أيّ ممارسة مهما كانت بشعةً وظالمةً لا تتفق مع الإسلام ولا حتّى مع الفطرة الإنسانيّة بأيّ حالٍ من الأحوال، المهمّ هو الوصول إلى ذاك المنصب،

مستعدّ أن يقاتل أيًّا كان، ويقتل أيًّا كان، ويفعل أيّ شيء ممكن في مقابل الوصول عليه أو على وظيفة.

وهذا من أكبر الأخطار وأسوأ العوامل التي انحرفت بالكثير من الناس عن نهج الله وعن دين الله سبحانه وتعالى، وكان هذا بارزًا في مأساة عاشوراء، ومن المواقف السلبيّة، موقف عمر بن سعد بن أبي وقّاص، وواضح أنّ ما جرَّه إلى ذلك المنزلق الخطير والجُرم الكبير في قيادة الجيش الذي يتوجّه لارتكاب الجريمة الكبرى الفظيعة للغاية وهي قتل الإمام الحسين عليه السلام ومن معه من أبنائه وأبناء أخوته وأقاربه وأصحابه الشرفاء والأتقياء الأبرار.

كان عمر بن سعد طامعًا في الحصول على ولاية الرَّيّ، والرَّيّ منطقة معروفة في إِيْرَان، وحُبّه للسلطة وهوسه بها ونزوع نفسه إليها جعلته مستعدًّا لارتكاب أيّ جريمة حتّى جريمة بهذا الحجم والمستوى، قتل سبط رسول الله سيّد شباب أهل الجنَّة، وريث النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، هادي الأمّة، والذي يجب أن تلتفّ حوله الأمّة في عصره لتهتدي به لتسير على نهجه، ليكون هو من يبني واقعها ويصلحُه، الرجل العظيم لم يكن هناك من ممانعة لدى عمر بن سعد أن يرتكب هذا الجُرم بحقّ هذا الرجل العظيم.

فيتخذ الخيار الأحمق والأسوأ مُلك الرَّي ولو كان بعده النار، والخُسران الدائم، ولو تورَّط في سبيل ذلك لارتكاب الجرم الأكبر والأفظع والأقبح لم يكن لديه تردُّد.

هكذا هي تربية الباطل التي تربّي الإنسان على أن يكون عاشقًا للمنصب والسلطة والتسلّط بأيّ ثمن، ولو كان الأمر يستدعي أيّ موقف مهما كان ظلمًا وسوءًا ولو كانت العاقبة جهنّم.

ونجد هذه الأحوال وهذه العوامل هي المؤثّرة ولا زالت في واقع الكثير من الناس من أبناء أمّتنا، الحال امتدّ عبر الأجيال، ونجد اليوم الشواهد الكثيرة على الذين يعملون أيّ شيء مقابل المال، ومقابل الوصول إلى منصب أو الوعد بمنصب أو وظيفة.

على مدى تاريخ أُمّتنا في الماضي وأيضًا في الحاضر، نرى أثر هذه الآفة وضررها الكبير الذي لحق بالأمّة، هذه النوعيّة من الناس في أوساط الأمّة المهووسون بالسلطة، الذين يمكن أن يعملوا أيّ شيء بأمّتهم، أن يرتكبوا أيّ جرم، وأن يقدمُوا على أيّ حماقة، أن يفعلوا أيّ شيء في مقابل الوصول للسلطة، هم كثر. كثر في تاريخ أمّتنا، وفي حاضرها.

والبلاء الشديد الذي ألحقوه بالأمّة، والضرر البالغ من خلال هوسهم ونتيجةً لطمعهم وجشعهم، هو ملحوظ طال كلّ شيء في واقع الأمّة في دينها ودنياها، في أخلاقها، في قيمها، في عزّتها، في كرامتها.

وللأسف الشديد؛ ممّا ساعد هذه النوعيّة داخل أوساط الأمّة هو التفاف الكثير من الناس حولهم. عندما يلتفّ حولهم الكثير من الناس لقصور وعيهم وضعف إيمانهم - وعوامل أخرى سيأتي الحديث عنها - تحلّ الكارثة الحقيقية بالأمّة، وتكون النتائج السلبيّة التي لا حدود لها تطال كلّ شيء في واقع الأمّة أمرًا ملحوظًا.

٣- حبّ المال

من الآفات الكبيرة أيضًا هي حبّ المال، النزعة الماديّة الموجودة عند كثير من الناس، فمقابل الحصول على شيء من المال هو مستعدّ أن يرتكب أيّ جرم، أن يكون في صفّ أيّ مبطلين أو مجرمين أو مضلّين، لا معيار لديه في موقفه لا الحقّ ولا رضا الله سبحانه وتعالى، ولا القيم، ولا الأخلاق ولا المبادئ، المعيار هو المال. عبادة للمال هو كلّ شيء، من يدفع له أكثر ويُقدِّم له المال فسيعمل له أيّ شيء مهما كان جُرمًا وذنبًا ومسيئًا ومخالفًا لنهج الإسلام، ولا ينسجم لا مع قيم ولا مع أخلاق.

هذه الآفة نرى أيضًا ضررها في عصرنا هذا، وربّما يكون المؤثِّر الأكبر لملايين من الناس داخل شعوب أمّتنا في توجّههم، في مواقفهم، في خياراتهم التي يحسمونها في أيّ صفٍّ يكونون، ومع أيّ طرف المؤثّر الأكبر هو المال.. ودوره السلبي معروف في واقع الأمّة.

وللأسف الشديد؛ يمكن للأمّة أن تنال ما منحها الله من البركات والرزق والخير، بعزّة وشرف واستقامة من دون أن تُعَبِّد أنفسها للطواغيت، وبدون أن تسترزق لدى مجرمين ولدى سيّئين.

هذا العامل كان عاملًا مؤثّرًا في أحداث كربلاء، وفي مأساة عاشوراء، فالآلاف من الناس تحرّكوا لقتال الإمام الحسين عليه السلام لهذا السبب مقابل المال، وعندما هُـدِّدُوا بمحو أسمائهم من الديوان - والديوان عبارة عن السجلات الرسميّة التي فيها أسماء من لهم مقرَّرات ومعاشات من المال العامّ - انطلق الكثير منهم ليقف في وجه الإمام الحسين، في وجه سبط رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ضدّ الحق، ضدّ العدل، ضدّ القرآن، في جناية على الإسلام كانوا مستعدّين لفعل أيّ شيء وبشكل فظيع ومن دون أيّ قيم أو مبادئ، تجاوزوا حتّى الواقع الإنساني وحشيّة فظيعة جدًا.

الكثير من أبناء الأمّة الإسلامية، الكثير من المسلمين لم يعد يقيس موقفه على أساسٍ من الحقّ، يعني: هل أنا على حقّ في موقفي أم لا؟ هل أنا على حقّ في اتجاهي أم لا؟ هل أنا على حقّ في عدائي أو ولائي أم لا؟. هذه مسألة لم تعد ذات أهميّة نهائيًّا ولا يحسب لها حساب، أصبح هناك أسسًا أخرى يُعتمد عليها ومن خلالها يُتّخذ الموقف، وعلى أساسها تُبنى المواقف وتُتخذ القرارات، وتُحدّد المسارات، ويتحرّك الكثير من الناس، في مقدّمة هذه الأسس المال، والكثير من أبناء الأمّة كان جاهزًا ومستعدًّا لاتخاذ أيّ موقف يُطلب منه، قتلًا أو سبًّا أو حقدًا أو كُرهًا أو حصارًا، أيّ ممارسة، أيّ عمل مهما كان بشعًا، مهما كان سيّئًا في مقابل الحصول على المال. طمع، هذه تربية الباطل التي تُفسد الإنسان وتُحوِّله إلى إنسان جشع، وطمَّاع لدرجة فظيعة جدًّا، فيصبح جاهزًا لاتخاذ أيّ موقف مهما كان بعيدًا عن القيم والأخلاق والمبادئ وغير ذلك.

في مقابل الحصول على المال مستعدّ أن يقتل الحسين سبط رسول الله، وحتّى لو عاد رسول الله من جديد وكان الأمر يستلزم أن يقتل رسول الله لم يكن يتحرَّج من فعل ذلك، المهمّ هو الحصول على المال. تربية الباطل

التي تورث هذه الحالة الرهيبة من الجشع والطمع والحرص والشحّ الذي يوصل الإنسان إلى مستوى فظيع ومتدنٍ في مقابل موقف **القرآن الكريم** الذي يُربّي الإنسان على التقوى، يُزكّى نفسيّة الإنسان من هذه الحالات المرضيّة ويعوّده على البذل والعطاء والإحسان والجود والكرم وما إلى ذلك.

ونجد كيف أنّ زعماء قبائل الكُوْفَة تغيّر موقفهم حين استدعاهم عُبيد الله بن زياد وأعطاهم الذهب والدنانير، تجاه الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ وتحوّلوا إلى جند مجنَّدة لصالح الباطل.

وقد حذّر **القرآن الكريم** الإنسان من أن يكون هكذا جشعًا، وأن يكون اندفاعه ولهثه وراء المال بأيّ ثمن على حساب دينه وأخلاقه وقيمه؛ بل وحتّى إنسانيّته، وقد قدّم الله سبحانه وتعالى لنا الدرس والعبرة من واقع كل أولئك الذين باعوا أنفسهم وباعوا دينهم وأخلاقهم وباعوا مواقفهم في الدنيا من أجل المال فظلموا وضلّوا، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦٓ﴾[١] إنّ هول العذاب وسوءه وشدّته وفظاعته يوم القيامة لدرجةٍ يتمنّى فيها كلّ ظالم أن لو كان له ما في الأرض كلّها من المال ليفتدي به من عذاب الله، وما أكثر من باع نفسه ومستقبله الأبدي يوم القيامة بثمنٍ تافه ورخيص!. أرخص نفسه وأضاع مستقبله الدائم والعظيم مقابل الشيء التافه الحقير، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[٢] كلّ ما في الأرض من أموال في ظاهرها وباطنها، وخيرات وإمكانات ﴿وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ﴾ ويضاف إليه ضعفه مثله ﴿لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[٣].

---

(١) سورة **يونس**، الآية ٥٤.

(٢) سورة **الزمر**، الآية ٤٧.

(٣) سورة **الزمر**، الآية ٤٧.

وهنا، تتجلّى لنا خسارتهم، ويتّضح لنا مدى سوء عاقبتهم، كلّ شيء لن ينجيه من مشاهد حسرتهم وندامتهم ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ﴾(١)، ولن يفدهم أو ينفعهم ولم يفعل لهم شيئًا ولم يدفع عنهم عذاب الله.

٤- الخوف

من العوامل المؤثرة جدًّا أيضًا الخوف، وهو عامل مؤثّرٌ سلبًا في الكثير من الناس، فالكثير ينقصهم الخوف من الله سبحانه وتعالى الذي من الحقّ والواجب أن نخاف منه فوق كلّ شيء ﴿فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾(٢)، ﴿أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾(٣). هذا العامل عند قاصري الوعي وناقصي الإيمان لم يكن فعّالًا كما ينبغي.

لقد كفى هذه النوعيّة من الناس داخل الكُوْفَة دعاية.. دعاية أخافتهم وجعلهم ينطلقون بالآلاف وهم حريصون على أن يُنفِّذوا مهمّتهم الإجراميّة القذرة بحقّ سبط رسول الله وأُسرته ومن معه من أتباعه الأبرار الأوفياء، وبكلّ جِدّ وحريصين أن لا يقصّروا، أن لا يُتّهموا بالتقصير فيعاقبوا، كفاهم دعاية واحدة.

نشر ابن زياد دعاية في الكُوْفَة أنّ جيش الشام قادم، وأنّكم إن لم تخرجوا لقتال الحسين فإنّ جيش الشام سيهدّم دوركم وسيقتل وسيفعل. فانطلق الكثير منهم وبسرعة حذرين من التقصير، وحريصين على أن يؤدّوا مهمّتهم بالشكل الذي يرضي ابن زياد.

لقد بلغ واقع الحال أنّ ابن زياد كان لديه ثلاثين شرطيًّا، وباقي الناس استفاد منهم، البعض بعامل المال، البعض بعامل الخوف، البعض بالتضليل وزعماؤهم وكبارهم الذين هم توّاقون إلى السلطة وعندهم النزعة التسلطيّة

---

(١) سورة **الحاقة**، الآية ٢٨.

(٢) سورة **آل عمران**، الآية ١٧٥.

(٣) سورة **التوبة**، الآية ١٣.

بالوعود ببعض المناصب والتي لم يصلوا إليها بما فيهم عمر بن سعد، إذ لم يحظ أبدًا بمُلك الرَّي وكان الواقع كما أنذره الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ.

الشيء المؤسف عندما نعرف أنّ مجتمع الكُوْفَة هو المجتمع الذي عاش بينهم الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ، والكثير من أولئك كانوا ضمن جيش الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ، حاربوا معه، ثمّ كانوا في الأخير الجيش الذي يتمكّن ابن زياد ومعه ثلاثين شرطيًا من التأثير عليهم وتحريكهم بأجمعهم في الموقف الإجرامي الفظيع، والجناية الكبيرة على الإسلام وعلى القرآن وعلى الأمّة.

حينما تنمى حالة الخوف في نفوس الناس من الطغاة والظالمين والمجرمين يفقد الناس ثقتهم بربِّهم وثقتهم بأنفسهم فيكونون مهيّئين لأن يندفعوا وبسرعة ومن دون ثمن أو مقابل، إنّما نتيجةً لحالة الخوف التي تُعُدّ عاملًا أساسيًّا لتحديد مواقفهم التي ينطلقون فيها ويتبنّونها.

٥- عامل العصبيّة

«عاملٌ آخر من العوامل المؤثّرة في كثير من الناس هو العصبيّة التي تُبنى عليها التبعيّة العمياء، إمّا عصبيّة قبليّة لقبيلته، أو طائفيّة لمذهبه، [أو حزبيّة لحزبه، أو عنصريّة لعنصره]، وبالتالي يتحرك فورًا في أيّ اتجاه دون أن يتحقّق فيما هو عليه هل هو على الحقّ أو على الباطل؟.. لا. قالوا: هيّا إلى قتال الرافضة. قال: هيّا، وبادر.

العصبيّة كما ورد تفسيرها في الحديث هي: أن تُعين قومك على الظلم، تتحرّك معهم وهم المخطئون الظالمون الجائرون المعتدون. وللعصبيّة تأثيرها في واقع الأمّة بشكل كبير[١]».

(١) من خطاب السيّد عبد الملك بمناسبة عاشوراء ١٤٣٤ هـ.

٦- ارتكاب المعاصي

«يعمد الطواغيت دائمًا إلى إشاعة الفساد بين الناس ونشر الرذيلة لمعرفتهم بأثرها في تدمير قيم الناس وأخلاقهم وبالذات قيم العزّة والرجولة وتحويلهم إلى أمّة ضائعة تائهة مسخوط عليها من قبل الله.

اليوم لم تعانِ البشريّة في كلّ ما قد مضى من تاريخها مثل ما تعاني اليوم من النشاط الهائل لنشر المفاسد الأخلاقيّة؛ قنوات تنشر مشاهد خليعة لنشر المفاسد الأخلاقيّة وتدمير القيم الأخلاقيّة، الجرائم تنشر اليوم في قنوات كثيرة جدًّا يجب الحذر من مشاهدة هكذا قنوات أو أيّ وسائل أخرى في الإنترنت. الإنترنت اليوم فيه الكثير والكثير من الوسائل من المواقع والصفحات المخصّصة التي تنشر المفاسد الأخلاقيّة وتغوي في هذا الجانب، فتدنّس النفوس وتنتشر المفاسد والزنا والجرائم الأخلاقيّة إلى مناطق كثيرة من العالم، إلى أشخاص كثيرين كانوا قبل أن يتورّطوا وأن يصغوا وأن يرتبطوا بوسائل إعلاميّة من هذا النوع كانوا نزيهين، شريفين، طاهرين، محافظين على أنفسهم وأعراضهم وشرفهم من الدنس، ولكن كان الذي جرّهم إلى فساد أخلاقي هو متابعة قنوات فضائيّة نشرت مشاهد مغرية فاسدة مفسدة أو على مواقع الإنترنت.

الشباب اليوم والشابّات يجب أن يكونوا حذرين جدًّا منها، أن يحموا أنفسهم منها من البداية، لا تذهب لتدخل إلى موقع في الإنترنت فتتطلع إليه ويوسوس الشيطان في صدرك فيغويك ويضرب فيك القيمة المعنويّة الأخلاقيّة، وزكاء النفس، وشرفها، وطهارتها، فيغويك ومع هذا نشاط كبير للتواصل والتعارف وبشكل أعمى وبشكل غير منضبط ينشط مثلًا في مواقع التواصل الاجتماعي الكثير من الشياطين الذين همّهم الوحيد وشغلهم الشاغل الإيقاع بالآخرين؛ فهم إمّا شيطان يحاول أن يوقع بالكثير من الفتيات في الفساد الأخلاقي، أو شيطانة توقع الكثير من الشباب في الفساد الأخلاقي فتبدأ بالمراسلة التي فيها المراودة والوسوسة والتزيين للمعصية والإغراء حتّى الإيقاع في المعصية.

هـذه اليـوم واحـدة من أفظع الآفـات المنتشرة والخطيرة جـدًّا على الشباب والشابّات وعلى الرجال والنساء جميعًا، ويجب الحذر منها بشكل كبير والاحتماء منها منذ البداية، فالذي يوسوس في صدور الناس من الجنّة والناس، يمتلك اليوم الوسائل التي تساعده على ذلك بأكثر ممّا قد مضى في تاريخ البشريّة» [١].

ومن أهمّ العبر والدروس التي نستخلصها من عاشوراء هي:

١- الحذر من عوامل السقوط، وضرورة الارتقاء الإيماني

«ولذلك؛ الدرس المهمّ لنا الذي يجب أن نستفيد منه هو الحذر من عوامل السقوط، وأن ندرك ضرورة الارتقاء الإيماني الذي يمنح الإنسان تماسكًا عند المزلّات، ويكون له دفعًا وعونًا للاستمرار والاستقامة والثبات.

كلّ فرد منّا يجب أن يدرك جيّدًا أنّ عليه أن يتعامل بجِدِّية مع هدى الله سبحانه وتعالى، أن يبني واقعه الإيماني وانطلاقته على أساسٍ صحيح لأنّ التهاون في مرحلة ما قبل الاختبار تُمثِّل اختبارًا كبيرًا للإنسان في توجّهه واندفاعه، وفي هذه المرحلة يتعامل الإنسان بلا مبالاة ويُقصِّر في كثيرٍ من واجباته ومسؤوليّاته، ويُهمل تجاه الأشياء المهمّة التي يجب أن يكون مسارعًا فيها ومبادرًا إليها.

الإنسان بهذا يُسبّب لنفسه الهدم والسقوط عندما تأتي الأحداث الكبيرة والتطوّرات الخطيرة وهو لم يحسب حسابها ولم يرتقِ إلى مستواها، وبالتالي يجد نفسه أمامها في موقف لم يكن يتوقّع من نفسه أنّه سينحرف إلى ذلك المستوى من الانحراف أو يسقط إلى ذلك الحدّ من السقوط.

ولربّما الكثير من الجيش الذي تحرّك لقتال الإمام الحسين عليه السلام بما فيهم الآلاف الذين كانوا من جيش الإمام علي نفسه لم يكن يخطر ببالهم

---

(١) من دروس شهر رمضان ١٤٣٨هـ.

أنّهم يومًا من الأيّام سيكونون في ذلك الموقف، ويتحرّكون لقتل سبط رسول الله وهم يعلمون من هو، يعلمون مقامه العظيم في الإسلام، يعلمون أنّه من يجب أن يتبعوه، أن يهتدوا به، أن يحبّوه، أن يقدّروه، أن يدركوا مقامه العظيم كوريث لجدّه المصطفى ﷺ، يعرفون فداحة الجُرم المرتكب بحقّه، ومع ذاك الفساد للنفوس والانحطاط الكبير وضياع القيم والأخلاق والمبادئ، كانت قد أوصلتهم إلى درجة لا يبالون معها بأن يرتكبوا مثل هذا الإجرام، ومثل هذه الحماقة.

يجب على كلّ فرد منّا أن يدرك أهميّة هذا الأمر، نحن في مرحلة خطرة، وأمام تحدّيات كبيرة، وفتن كثيرة كقطع الليل المظلم، والعوامل نفسها التي أدَّت إلى سقوط الآلاف من ذلك المجتمع الذي كان يحكمه علي، ومن ذلك المجتمع حتّى مجتمع المدينة مدينة الرسول ﷺ، وبقيّة المجتمعات الإسلاميّة التي كانت قد وصلت إلى حالة من التدجين، ومن التضليل، ومن ضياع القيم والأخلاق والمبادئ، جعلتها قابلة بأيّ ظلم أو جريمة، بكلّ ما حصل.

المسألة خطرة جدًّا يجب أن يسعى الإنسان إلى بناء واقعه الإيماني، ويكون حريصًا على الارتقاء المستمرّ في وعيه، في إيمانه، حذرًا من التقصير، حذرًا من التفريط، حذرًا من التهاون، يدرك أنّ التهاون نتيجته سلبيّة وكبيرة على الإنسان في مستقبله وأمام أيّ تحدّيات قد يُفاجأ الإنسان بها وهو غير مستعدٍّ لها.

ولندرك أنّ الأسلوب الشيطاني لاستدراج الإنسان قائمٌ على أساس الخطوات، الخطوة تلو الخطوة وبتدرّج حتّى يوصل الإنسان إلى مستوى سيّء نتيجة تهاونه، نتيجة لامبالاته، نتيجة غفلته، ولذلك حذّرنا الله سبحانه وتعالى من اتباع خطوات الشيطان.

خطوات الشيطان تسير بالإنسان في أحد اتجاهين: إمّا اتجاه الإقدام على الآثام والباطل لقاء مال، أو وظيفة، أو مصلحة آنيّة يخسر بسببها مستقبله

الكبير مع الله سبحانه وتعالى في الدنيا والآخرة، أو خطوات أخرى باتجاه التراجع فيستدرجه ليخرجه عمّا هو عليه من حقّ وتوجّهٍ سليم وصادق، ويفسد نفسيّته ليهيّئه للسقوط أكثر فأكثر حتّى يصل إلى الموقف والحال الأخطر»[١].

٢- كيفيّة مراعاة المعايير الصحيحة

أ- الحُرّ بن يزيد الرِّيَاحِي قدَّم درسًا لمن يتمّ التغرير بهم ليتحرّكوا مع الباطل ثمّ يعودون إلى الحقّ:

نلحظ كيف يجب أن تكون الحسابات الصحيحة، الناس ينسون ويتغافلون ويتجاهلون الأشياء المهمّة، عندما تطرأ الكثير من الأحداث والمتغيّرات تكون الدوافع لدى الكثير من الناس سيّئة، ليس لديه أيّ معايير قرآنيّة ولا إيمانيّة، فلا يُحسب حساب المسؤوليّة أمام الله سبحانه وتعالى، ولا يُحسب حساب الموقف للحساب والسؤال يوم القيامة، ولا تُحسب حساب مرضاة الله سبحانه وتعالى، وهكذا يبقى المعيار الذي يحسب الإنسان حساباته عليه هو المصلحة الآنيّة التي هي متاعٌ زائل والخسارة بعده كبيرة.

الحسابات الصحيحة للإنسان المؤمن الذي يراجع موقفه على أسس صحيحة فيحسب الحسابات الكبيرة مثلما كان موقف الحُرّ بن يزيد الرياحي عندما راجع نفسه وقد اتجه بدايةً في صفّ الباطل في جند يزيد في طلائع جيش عمر بن سعد، ووصل في البداية ليكون أوّل من يصل إلى الإمام الحسين عليه السلام..

لكنّ هذا الرجل عندما أعاد حساباته وراجع نفسه على أسس صحيحة سرعان ما غيَّر موقفه واتجه الاتجاه الصحيح قبل أن تبدأ المعركة، بدأ يراجع نفسه، وبدأ يحسب الحسابات التي يبني عليها موقفه، وظهر عليه التردّد تارةً يتقدّم وتارةً يتأخّر، وعندما سأله أحد القريبين منه عن سبب هذه الحيرة، هذا

(١) من خطاب السيّد عبد الملك بمناسبة عاشوراء ١٤٣٤هـ.

التفكير، هذا التردّد قال: إنّي أُخيِّر نفسي بين الجنَّة وبين النار، ووالله لا أختار على الجنَّة شيئًا.

واتجه إلى معسكر الإمام الحسين عليه السلام ليلتحق به معلنًا توبته وإنابته إلى الله، نادمًا على ما كان منه أثناء تحرّكه في صفّ الباطل، وما عمله وهو يتحرّك في البداية عندما ضايق معسكر الإمام الحسين عليه السلام ومنعه من التقدّم إلى الكُوْفَة وأعاقهم عن الوصول إلى هناك، تاب إلى الله وأناب وحرص على أن يأذن له الإمام الحسين عليه السلام أن يكون أوّل من يقاتل الأعداء، مثلما كان أوّل من تحرّك في طليعة الجيش، حرص على أن يُكفِّر عن موقفه هذا، وأذن له الإمام الحسين عليه السلام وقال كلمته المشهورة: «أنت حرٌّ كما سمَّتك أمّك حُرًا».

هذه هي الحريّة الحقيقيّة التي تجعل الإنسان كريمًا عزيزًا يتخذ الموقف الصحيح، لا يُستعبد ويُسَيَّر في صفّ الباطل للظلم والجريمة مقابل شيء من حطام الدنيا، ومصالح الدنيا الآنيّة.

نحن في هذا الزمن أمام المتغيّرات الكبيرة والعوامل المؤثّرة التي - كما قلنا - هي نفسها أحوج ما نكون للاستفادة من هذه الدروس، وأملنا إن شاء الله أن يوفّقنا الله وإيّاكم أن نكون من المهتدين الصادقين الثابتين مع الله سبحانه وتعالى، نتحرّك مع الله بثبات ووعي وصدق[١].

فالحُرّ بن يزيد الرَّيَاحِي هذا الرجل الذي كان في بداية الأمر جنديًّا يتحرّك في صفّ الباطل، انقلب عندما عرض موقفه على أسس صحيحة. هذا الموقف سيستفيد منه أيّ إنسان داخل الجيش اليمني أو غيره من الجيوش العربيّة التي تتحرّك في صفّ اليهود والنصارى ضدّ الحقّ والخير والإيمان، وضدّ أخيار هذه الأمّة.

---

(١) من خطاب السيّد عبد الملك بمناسبة عاشوراء ١٤٣٤ هـ.

كلّ جندي بقي فيه ذرّة من الإيمان، والشرف، وبقي لديه قابليّة للهداية والصلاح، فإنّ موقف الحُرّ بحقٍّ هو موقف مفيد ونموذجي.

هذا الموقف يجب أن يفكّر كلّ إنسان هل هو في الموقف الذي يوصله إلى رضوان الله؟ هل نهايته الجنّة؟ أم أنّك في موقف نهايته النار؟ يجب أن يقيس الإنسان قياساته وحساباته هكذا: في أيّ موقف أنت؟ ومع من؟ وفي أيّ طريق؟ وإلى أين؟.

ب- عمر بن سعد نموذج للمرتزقة المنافقين

الموقف الذي يوصل إلى النار ليس هو فقط الموقف الذي تقف فيه مقاتلًا ضدّ الحقّ؛ ولكن أيضًا الموقف الذي تقف فيه خاذلًا للحقّ، كلاهما يوصل إلى النار، كلاهما ساهم في قيام الطغيان، والظلم، والفساد.

نلحظ موقفًا آخر، موقف إنسان مخذول وخائب، موقف عمر بن سعد الذي خُيِّر بين أن ينطلق في القتال مع الباطل ضدّ الإمام الحسين، على أن ينال رتبة وظيفيّة، ولاية الرَّي، كمحافظ يتولّى منطقة معيَّنة اسمها «الريّ»، وقف لليلة كاملة يفكّر ويردّد شعرًا يقول فيه:

فَوَ اللهِ مَا أَدْرِي وَإِنِّـيْ لَحَائِرٌ   أُفَكِّرُ فِـيْ أَمْـرِي عَلَى طَرَفَيْـنِ؟

أَأَتْرُكُ مُلْكَ الرَّيِّ، وَالرَّيّ مَنِيَّتِيْ؟   أَمْ أرجِـعُ مَأْثُومًا بِقَتْلِ حُسَيْـنِ!؟

وَفِـيْ قَتْلِهِ النَّارُ الَّتِيْ لَيْسَ دُوْنَهَا   حِجَـابٌ وَمُلْـكَ الرَّيِّ قُـرَّةُ عَيْـنِ

كان يعرف أنّه عندما يتحرّك ضدّ الحقّ، ضدّ الإمام الحسين عليه السلام أنّ مصيره النار، فأين يختار النار؛ طريق توصله إلى النار من أجل أن يملك الرَّي، أو يخسر الرَّي ويسلّم من النار؟؛ لكنّه خاب وخسر، واختار قليلًا زائلًا لم يظفر به. لقد تحرّك عمر بن سعد ضدّ الإمام الحسين ليملك الرَّيّ وبعد أن قتل الإمام الحسين لم يظفر بذلك[١].

(١) من خطاب السيّد عبد الملك بمناسبة عاشوراء ١٤٢٩ هـ

٣- قلّة البصيرة والوعي تجعل الأمّة ضحيّة

يقول السيّد حسين ‹رضوان الله عليه› وهو يتحدّث عن أسباب ما حصل لمسلم بن عقيل:

يلاحظ الناس كيف تكون عواقب الأمور، قد مضى في التاريخ أحداث كثيرة مثل هذه، عندما يتجمّع الناس ويكون عندهم ولاء وكارهين ليزيد؛ لكن تلاحظ كيف لأنّهم لم يكن عندهم بصيرة أو فهم، فعندما خرج بعض كبارهم يتحدّثون معهم ويخوّفونهم بجيش أهل الشام (أنّه قادم وسيعملون بكم كذا وكذا) تفرّقوا عن مسلم بن عقيل كلّهم، فكيف كانت عواقبهم؟ لم يسلموا، في الأخير يجمعهم ابن زياد في المسجد ويهدّدهم ومن بعد يسوقهم إلى قتال الحسين عليه السلام! نفس تلك المجاميع التي كانت قد تجمّعت مع مسلم بن عقيل.

لو صدقوا معه وثبتوا تلك الساعة واقتحموا القصر على ابن زياد وقتلوه وانتظروا قدوم الحسين عليه السلام لكان أفضل لهم وللأمّة من بعدهم إلى الآن.

ما الذي يطلب من شعبنا اليوم؟

إنّ من أعظم المخاطر هي خطورة قلّة الوعي والبصيرة أليس البعض اليوم - ونحن في مواجهة غزاة معتدين يحملون وحشيّة الشمر وحقد عبيد الله بن زياد وطغيان واستهتار يزيد - يريد لبلدنا أن يستسلم وأن يستجيب للطغاة المعتدين بدل أن يستجيب لله ويتحرّك في مواجهتهم؟ ماذا يريد هؤلاء؟ يريدون أن يأتي الغزاة المتوحّشون فيستبيحون حرماتنا ويقتلون الناس بلا رحمة ويسوقون من تبقّى منّا ليكونوا وقودًا لحروبهم الظالمة، يريدون أن يعملوا بنا أعظم ممّا عمله يزيد بأهل المدينة ومكّة بعد أن يكون الله قد غضب علينا. لكن هيهات أن يصغي شعبنا الحرّ الأبيّ يمن الإيمان والحكمة لمثل هذه الدعوات التي تصدر من جبناء وعملاء باعوا أنفسهم للشيطان وأوليائه؛ فشعارنا سيبقى هو شعار الإمام الحسين عليه السلام «هيهات منّا الذلّة»

وخيارنا هو خيار الإمام الحسين سبط رسول الله وحفيده من قال فيه: «حسين منّي وأنا من حسين».

٤- ضرورة الدراية في الأمور ومقارنتها في حالة الثبات والاستسلام لأخذ العبرة

يقول السيّد حسين ‹رضوان الله عليه› في دروس من وحي عاشوراء:

ذلك التفريط هو الذي جعل أهل العراق قبل أهل الشام يصلون إلى كربلاء فيحاصرون الحسين عليه السلام وأهل بيته، وجعلهم قبل أهل الشام يوجّهون النبال إلى صدره، وهم من عاش بينهم علي عليه السلام سنين يحدّثهم ويعظهم ويرشدهم، لماذا؟ ما الذي أوصلهم إلى هذا الحدّ؟ هم فرّطوا، وعندما يفرّط الإنسان فيما يسمع ستأتي البدائل المغلوطة، إمّا أن يتلقّاها من أمثاله ممّن يفهمون الأمور فهمًا مغلوطًا، ولا يعرفون عواقب الأمور، أو من جهة نفسه يحلّل على طريقته، ويحاول أن يضع لكلّ قضيّة حدًّا معيّنًا، يظنّ أنّها لا تتجاوزه، ربّما كانوا يتصوّرون أنّ الحسين هو المشكلة، يمكن أن يُصَفَّى الحسين وتبقى الأجواء طبيعيّة.

بعد أن قُتل الحسين عليه السلام هل بقيت الأجواء طبيعيّة؟ هل استقرّ وضع أهل العراق أم بدأ العراق يغلي، أم بدأت النكبات والكوارث تتتابع على أهل العراق جيلًا بعد جيل إلى هذا العصر الذي نحن فيه؟ لم يسلم أهل العراق، لم يسلم لهم دينهم، أو دنياهم، أو حتّى أنفسهم.

ويقول في حديثه عن (مسلم بن عقيل):

المشكلة عندما لا ينظر البعض إلّا إلى نقطة واحدة، ينسى مثلًا بأنّه لو فرضنا القضيّة فيها خوف؛ فإنّ الخوف الأشدّ الذي يجب أن يخاف منه هو أن تستحكم قبضة العدوّ هذا أشدّ لأنّه ستكون أضراره أعمق، يعيش طول حياته حالة إذلال له ومَن بعده، أيضًا غضب الله؛ لأنّ القضيّة ليست سهلة يتصوّر أحدهم بأنّه سيجلس في بيته ويستقرّ وليس له علاقة وبأنّ الباري سيمسح على رأسه ويقول له: ابقَ مكانك ولن يحصل عليك شيء، لا. هو في الأخير

يعرّض نفسه لغضب شديد، قُتل كثير منهم هؤلاء الذين جلسوا، قتلوا وأهينوا ودمّرت بيوتهم من بعد.

ما الذي يعنينا من هذا الدرس؟

هذا الدرس المهمّ نحتاجه اليوم ونحن في مواجهة هذا العدوان الاستعماري الغاشم؛ أن نقارن بين تضحياتنا اليوم ونحن مستجيبون لله ومجاهدون في سبيله في مواجهة غزاة محتلّين وبين ما سيحصل فيما لو تخاذلنا، صحيح أنّنا نضحّي اليوم ولكنّها تضحيات لها ثمرة، من هذه الثمار: أنّ من يقتل منّا في مواجهة هؤلاء المجرمين هو شهيد بكلّ ما تعنيه الكلمة، أيضًا سنحصل على رضوان الله سبحانه وتعالى والعزّة والكرامة والحريّة والاستقلال لبلدنا وأن يسلم من شرّ الاحتلال وفوق هذا كلّه سلامة الدين والخير من الدنيا إلى الآخرة.

وماذا سيحصل لو تخاذلنا وضعفنا واستسلمنا؟ لو تخاذلنا - لا سمح الله - سيحصل سخط الله وغضبه ولن نسلم فإذا كنّا نضحّي اليوم بعشرات الآلاف في سبيل الله ودفاعًا عن عزّتنا وكرامتنا وحريّتنا واستقلالنا فإنّنا في حالة الاستسلام سنقتل بمئات الآلاف في سبيل الشيطان ونعيش - إن عشنا - في خزي وعار وذلّة ويرزح بلدنا تحت الاحتلال ونستعبد ويستعبد أولادنا وأحفادنا ونخسر الدنيا والآخرة.

٥- خطورة الارتباط بأشخاص متلوّنين

يقول السيّد حسين ‹رضوان الله عليه›: لأنّ الناس عندما يرتبطون بأشخاص من النوعيّة الذين يتقلبّون ويتلوّنون بحسب مصالحهم وأهوائهم، وهذه حصلت في كثير من مراحل التاريخ، قد يرتبطون مثلًا بزعيم من زعمائهم أو كبير من كبار العشائر وبمجرّد أن يحصل على مبلغ مالي يتغيّر ويتحوّل ثمّ يخذِّل الناس.

مسلم بن عقيل ألم يكن موجودًا؟ كان المفترض أن يرتبطوا به مباشرة لكن ما الذي حصل عندما لم يرتبطوا به تأثّروا بأشخاص آخرين جاؤوا يخذّلونهم،

وكلّ واحد ذهب من عند مسلم بن عقيل وهم يحاصرون القصر، وفي الأخير ما الذي حصل بعدها؟ بدأ العدّ التنازلي بالنسبة لهم من بعد كيف جمعهم في المسجد وفتّش بيوتهم وفي الأخير يسوقهم إلى قتال الإمام الحسين عليه السلام!.

اليوم ما الذي يريده لنا طواغيت العصر؟ ما الذي يريده لنا الانهزاميّون الجبناء؟ ألا يريدون لنا أن نتخلّى عن صمّام الأمان بالنسبة لنا، أن نستسلم بدلًا من الصمود والثبات، ألم تتبدل مواقفهم مقابل حفنة من الدولارات ووعود كاذبة من الأمريكيين والإماراتيين؟ هل مثل هؤلاء يقتدى بهم ويعول عليهم؟ لا والله هؤلاء هم من سينكبون الأمة التي تركن إليهم وتثق بهم. وهل سيسلم الناس الذين يسيرون خلفهم ويصدقونهم؟ لا، والله لن يسلموا، هم يريدون من أتباعهم أن لا يتحركوا لمواجهة الغزاة لبلدهم وقد قتلت أطفالهم ونسائهم ليتيحوا الفرصة للغزاة والمحتلين أن يدخلوا بلدهم وينتهكوا أعراضهم وينهبوا ثرواتهم ثم لن يسلم أتباعهم سيسوقونهم في الأخير لقتال الأحرار من أبناء بلدهم كما عمل عبيد الله بن زياد بأهل العراق، ألم يدفع بمن تركوا الجهاد مع الإمام الحسين عليه السلام استجابة لكبار عشائرهم إلى مواجهة الإمام الحسين في كربلاء وقتله هو وأهل بيته وأصحابه، ثم ساقهم لإخضاع بقية الأمة؟ فلم يبق أحد ممن تخلف عن الجهاد في سبيل الله إلا وقتل في سبيل يزيد وعبيد الله بن زياد. هذه هي الخسارة التي ليس بعدها خسارة، نعوذ بالله.

٦- فهم واستيعاب ما حولنا

وبحمد الله شعبنا اليمني العظيم تعلّم الكثير من مدرسة الإمام الحسين عليه السلام وقدّم الكثير من الأمثلة العظيمة والمشرّفة من خلال رجاله ونسائه وأطفاله في مواجهة هذا العدوان الغاشم في مقارعة الجاهليّة الأخرى وبرزت المرأة اليمنيّة مثلًا يحتذى به في العالم كلّه في صبرها وصمودها وثباتها وهي تقدّم أباها أو أخاها أو أبنها أو زوجها بل البعض تقدّم كلّ هؤلاء في سبيل الله بكلّ فخر واعتزاز.

خاتمة

يقول السيّد عبد الملك (حفظه الله):

لولا أنَّ الإمام الحسين عليه السلام واجه مسلك الانحراف الذي بلغ ذروته بقبول الكثير من أبناء الأمّة أن يتولّى يزيد بما اشتهر به من الفجور والفساد والخمر والسكر والجهل والاستهتار بالدين وغير ذلك أمر الأمّة، ويحكمها ويتحّكم بها، لولا الإمام الحسين أنّه واجه هذا المسلك لطُمست معالم الإسلام فلا يبقى لها أثر، ولكنّ ثورة الإمام الحسين عليه السلام ضمنت للإسلام استمراريّته، وأنقذت المجتمع الإسلامي من التناسي العامّ والمطلق للقيم والمبادئ، ولذلك فهي ثورة العدل في مواجهة الظلم، وثورة الخير في مواجهة الشرّ، وثورة الحقّ ضدّ الباطل، وثورة الأخلاق والقيم على الطاغوت المفسد في الأرض.

بقي أن نعرف لماذا نحيي ذكرى عاشوراء؟ إنّ إحياءنا لهذه الذكرى هو واحدٌ من تعابير حُبِّنا وولائنا وارتباطنا بسيّد الشهداء الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «حسينٌ منّي وأنا من حسين، أحبّ الله من أحبّ حسينًا، حسينٌ سبطٌ من الأسباط».

وهو أيضًا واحدٌ من تعابير ارتباطنا بالمنهج والرؤية والموقف التي تَحرَّك على أساسها ومن خلالها وبها الإمام الحسين عليه السلام وهي: رؤية القرآن الكريم، ومنهجيّة الإسلام العظيم، ومسلك رسول الله محمّد صلى الله عليه وآله وسلم..

وإحياؤنا لهذه الذكرى هو تخليد لنداءات ومواقف الحسين عليه السلام بكلّ عطاءاتها وآثارها الإيجابيّة العظيمة في أنفسنا وواقعنا وبكلّ ما تُزوّدنا به في عزمنا، واندفاعنا، وتفاعلنا، وإحساسنا بالمظلوميّة، وبِعِظَم مأساة الأمّة التي استهدفت حينما استهدف الحسين بكلّ ما يُمثِّله الحسين في نهجها القويم، وفي عزّها ومجدها، وفي قيمها ومبادئها، ووقع ما وقع من محسوبين عليها، وبتخاذلها، وحدث كلّ ما حدث في كربلاء بكلّ بشاعته وسوئه وفظاعته وقبحه، في الوقت الذي تنتمي للإسلام دين العدل، والقيم، والأخلاق.

هذا الإحساس بالمظلوميّة وبالمأساة، وهذا الشعور يُحيي فينا روح المسؤوليّة والتفاعل حتّى لا نكون كما البعض بلا إحساس، وبلا شعور فلا يتفاعلون مهما كان حجم المأساة، ولا يُدركون مهما كان مستوى الخطر، ولا يَعون ولا يفهمون مهما كان حجم المؤامرات، ولا يتحرّكون مهما كان حجم المسؤوليّة، كما هو حال ميت الأحياء.

وإحياؤنا لهذه الذكرى تعبيرٌ أيضًا عن موقفنا المبدئي الإيماني الديني ضدّ الظلم والظالمين في كلّ زمان ومكان، وتجاه أفظع جريمة في تاريخ الأمّة، وداخل الأمّة على أيدي محسوبين عليها، من يستسيغها يمكن أن يستسيغ ويتقبَّل ويُشرعن أيّ ظلم، وأيّ فسادٍ، وأيّ إجرام، وأن يقدِّسه، فالذين يقدِّسون من مضى من الظّالمين هم اليوم أنصار الظلم وحملة رايته في حاضر الأمّة.

تلك الجريمة التي فتحت أبواب الشرّ كلّها على الأمّة وكانت فاتحة سوء داخلها؛ لأنّه حينما استهدف الحسين سبط رسول الله، وسيّد شباب أهل الجنّة بكلّ ما له من قداسة، وبموقعه العظيم في الإسلام، وبمكانته الكبيرة كرمزٍ للأمّة، وهادٍ في درب جَدِّه المصطفى محمّد صلى الله عليه وآله وسلم، ووريثٍ لجَدِّه خاتم النبيِّين، يُمثِّل قيم الإسلام، ويحمل مبادئه، ويرفع رايته، بعد ذلك لم يبقَ شيءٌ من المقدّسات والحُرمات يتحاشى الطغاة والظالمون المساس به، ولذلك عمدوا بعد قتله عليه السلام إلى استباحة مدينة جَدِّه رسول الله وقتلوا من تبقّى فيها من أبناء المهاجرين والأنصار وبالذات من أبناء المجاهدين في وقعة

بدر ثأرًا للكفر والكافرين، واستباحوا فيها حُرمة الدمّ، وحرمة العِرض، وحرمة المال لثلاثة أيّام متوالية، وأحرقوا الكعبة المشرّفة ودمّروها آنذاك فيما بعد، وهكذا بلغ الحال بهم، وحينها لم يبقَ أيّ قيمة للأمّة لديهم، ولا لدينها، ولا لمقدّساتها، ولا لرموزها، حكموها بمنهجيّة الطغيان.

إنّ شعبنا اليمني اليوم يحيي هذه الذكرى، وهو يعيش في واقعه المظلوميّة التي هي امتدادٌ لمظلوميّة الإمام الحسين عليه السلام، وامتدادٌ للمعاناة التي عانتها الأمّة في كلّ مراحل تاريخها من الطغيان والإجرام اليزيدي.

شعبنا اليمني اليوم مُعتدًا عليه بغير حقّ، ذنبه تمسّكه بمبادئه، وبحريّته وحقّه في الاستقلال، ذنبه قِيَمُه التي أبى إلّا الثبات عليها، والتي أبت له إلّا أن يكون شعبًا حرًّا وكريمًا وعزيزًا.

شعبنا اليمني اليوم يعيش محنة كربلاء، وهو مظلوم، يقتل أبناؤه رجالًا ونساءً وأطفالًا، يُستهدف بكلّ أشكال الاستهداف، بدون قيود ولا حدود ولا ضوابط يلتزم بها المعتدون، أو يراعيها أولئك الطغاة المجرمون. هذه الذكرى في هذا الواقع والظروف التي يعيشها شعبنا، لها أهميّتها البالغة؛ لأنّها ذكرى لواقع يعيشه، يعيش أجواءه، يعيش محنته، وهو أيضًا - بحكم هويّته الإسلاميّة، وانتمائه للإسلام العظيم - شعب حمل وسام الشرف الأعلى حينما قال عنه الرسول محمّد صلى الله عليه وآله وسلم: «الإيمان يمان والحكمة يمانيّة».

هل يمكن لشعب يحمل الإيمان، وينتسب له، ونال هذا الوسام، وسام الشرف الرفيع والعالي إلّا أن يكون على الدوام في مواقفه، في انتمائه، في مبادئه، في قِيَمه، في توجُّهَاته، إلّا في هذا المسار وفي هذا الطريق، متمسّكًا بالإسلام العظيم، الإسلام بمبادئه الحقّة، الإسلام بنقائه وصفائه من كلّ الشوائب، الإسلام العظيم بِقِيَمه المهمّة القرآنيّة، الإسلام المحمّدي الأصيل، الذي كان الإمام الحسين عليه السلام فيه رمزًا عظيمًا من رموزه - ولا يزال - للأمّة إلى يوم القيامة، في كلّ أجيالها، الذي كان الإمام الحسين عليه السلام في مقامه، وفي موقفه، وفي حركته، وفي ثورته، وفي جهاده، وفي استشهاده وتضحيته،

يحمل راية هذا الإسلام، يمثّله بحقّ، يعبّر عن هذا الإسلام بالقول وبالفعل وبالموقف.

وشعبنا اليمني اليوم بحكم هذا الانتماء، وهذه الهوية له ارتباط وثيق، وامتداد أصيل بالإمام الحسين عليه السلام، وريث جدّه المصطفى يحمل راية الإسلام، وقرين القرآن الكريم، من مهامه في هذه الأمّة: أنّه في موقع الهداية، وفي موقع القيادة، وفي الموقع الذي يتحرّك فيه بالأمّة ضمن هويّتها وقيمها ومبادئها الإسلاميّة الحقّة.

وهو يرى في الإمام الحسين عليه السلام الأسوة، والقدوة، وعَلَم الهدى الذي نحتذي به كمسلمين وكمؤمنين، نقتدي ونتأسى به، ونسير في دربه، ونتعاطى في واقع الحياة بمسؤوليّة، ونتفاعل مع الأحداث بالمنطلقات والمبادئ والقيم نفسها التي حملها الإمام الحسين عليه السلام، وتمسَّك بها وتحرّك على أساسها لأنّها ليست إلّا حقيقة الإسلام، وجوهره ونقائه وحقيقته بامتداده الأصيل والصحيح والسليم.

اليوم شعبنا اليمني العظيم يستفيد من هذه الذكرى؛ ليتزوّد منها قوّة الإرادة، وقوّة العزم، وصلابة الموقف، والثبات الدائم المبدئي المستند إلى جوهر الإسلام وقيمه.

شعبنا اليمني - اليوم - يعاني حقيقة، ويعيش الواقع الكربلائي فعلًا، وهذه الحالة يوميّة، ولكن ذلك لا يزيده إلّا ارتباطًا وثيقًا، والتزامًا حقيقيًّا، وقناعة راسخة.

إنّنا في هذا اليوم نستذكر الإمام الحسين عليه السلام بكلّ ما يمثّله في موقعه في الأمّة، أوّلًا: في مقامه العظيم كوليّ لله سبحانه وتعالى، من أولياء الله، من سادة المتّقين، من أعلام الهداية. وفي هذا المقام، هل يمكن إلّا أن ننظر إليه أنّه نِعْمَ الأسوة، ونعم القدوة، وأنّه عَلَم هداية، نتطلّع إلى خطواته ومواقفه؛ لنهتدي بها ونقتبس منها، وكذلك إلى موقعه في المسؤوليّة.

لم يكن الإمـام الحسين عليه السلام مجرّد مؤمن عـادي، حاله حـال سائر المتّقين في مستوى فضلهم ومقامهم، مع عِظَمِه وأهميّته، ولكنّه كان سيّدًا للمّتقين، وريثًا للهدى، معنيًّا بقيادة الأمّة، مؤتمنًا على أمّة جدّه رسول الله، وبالتالي فما كان يتبنّاه من مواقف، وما كان يتحرّك فيه، وما كان يمثّله هو كان في هذا الموقف، في هذا الموقع، وفي هذا المستوى قائدًا للأمةّ، هاديًا لها؛ الأمّة معنيّة أساسًا في دينها وفي مبادئها أن تلتزم بقيادته، أن تهتدي به، أن تحذو حذوه، أن تتحرّك وتلتفّ حوله، هذا هو الإمام الحسين عليه السلام، وهذه هي نظرتنا المبدئيّة تجاهه[١].

نسأل الله أن يثبتنا على نهج الإمام الحسين وأن يرحم شهداءنا ويشفي جرحانا وأن يفرّج عن أسرانا وأن ينصرنا على القوم الظالمين.

وصلّى الله وسلّم على سيّدنا محمّد وعلى آله الطاهرين.

١٠ محرم ١٤٣٩هجريّة

---

(١) من خطاب السيّد عبد الملك بمناسبة عاشوراء ١٤٣٨هـ.

الفصل السادس: في رحاب الإمام الشهيد زيد بن علي عليه السلام

توطئة

في الخامس والعشرين من شهر محرّم في هذا العامّ، يستذكر شعبنا اليمني العزيز من واقع مظلوميّته الكبرى ومعاناته واضطهاده وما يواجهه في تصدّيه لقوى الشرّ والطغيان التي تستهدفه في حياته ووجـوده، وفي أمنه وسلامه وفي استقراره وفي استقلاله وحرّيته واقتصاده، ثورة عظيمة ويومًا مجيدًا، ويستلهم من التاريخ الإسلامي صفحة بيضاء، وحدثًا عظيمًا مهمًّا بقيت آثاره وامتدّت نتائجه على مدى الزمان حتّى اليوم.

رائد تلك الثورة وقائدها هو عظيم من أعلام الأمّة الإسلاميّة، ونجم من نجوم الهداية، هو الإمام الثائر الشهيد زيد بن علي زين العابدين بن سبط رسول الله الإمام الحسين بن فاطمة الزهراء بنت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وابن علي أمير المؤمنين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

وهـذه المادة التي جمعتها عن حياة وسيرة الإمام زيد عَلَيْهِ السَّلَامُ هي في أغلبها من محاضرات السيّد حسين (رضوان الله عليه)، والسيّد عبد الملك (حفظه الله) وذلـك للاستفادة منها في معرفة جزء من حياة هـذا الرجل العظيم.

والله الموفّق

٢٥ محرم ١٤٣٩هـ

مقدّمة

«من المهمّ جدًّا أن نعود لكي نتأمّل في تاريخ أعلامنا وعظمائنا وهداتنا من نجوم العترة وأعلام الأمّة، نتأمّل في تاريخهم كيف كان إحساسهم ورعايتهم للمسؤوليّة، كيف كانوا على مستوى عالٍ من الصبر، والثبات، والبذل، والعطاء، والهِمَّة العالية، وما قدَّموه في سبيل الله سبحانه وتعالى وفي سبيل المستضعفين من عباده، وما واجهوه من طغيان في اتجاه آخر وتخاذلٍ في اتجاه ثانٍ هذا يزيدنا عزمًا إلى عزمنا، وهمّةً إلى همّتنا، وصبرًا إلى صبرنا، واستعدادًا للبذل والعطاء إلى ما هو موجود، فلهذه الذكريات ولهذه المناسبات أهميّتها الكبرى ومردودها المهمّ على المستوى النفسي وعلى المستوى الثقافي والفكري وعلى المستوى العملي.

فما يربطنا بأعلام الهدى هم أنبياء الله أوّلًا، ومن بعد أنبياء الله خطّ الهداية الممتدّ عبر الأجيال لكلّ زمن ولكلّ جيل ولكلّ أمّة وحتّى نهاية التكليف وانقضاء الحياة، ما يربطنا بهم هو الشيء الكثير والمهمّ جدًّا ليست فقط مجرّد ذكريات فرح أو حزن، ليس فقط الحديث عن مولدهم أو الحديث عن استشهاد أيّ منهم، ما يربطنا بهم هو أعظم الروابط بعد ارتباطنا بالله سبحانه وتعالى بل هو جزء من ارتباطنا بالله سبحانه وتعالى، يربطنا بهم الاقتداء والاتباع والاهتداء والتمسّك، هم لنا القدوة والقادة، وهم لنا الرموز، هم لنا النور الذي نستضئ به في ظلمات الجهل والباطل والطغيان، هم صلة مع الله سبحانه وتعالى ومع هديه؛ ولذلك يجب أن نحرص لكي نتعرّف على تاريخهم

المشرق فكلّ واحد منهم يمثّل مدرسة متكاملة نتعلّم منها أبلغ الدروس والعبر، وخصوصًا ونحن في مواجهة مباشرة مع قوى الشرّ والعدوان ونخوض أكبر معركة على مستوى الدنيا كلّها.

فعند كلّ حدث يمكن أن نستفيد منهم من خلال ذكرياتهم؛ ذكريات الهداية، مواقف العزّة والشرف، والأخلاق والسلوكيّات والأقوال والحكم التي نستفيد منها فيما يزيدنا وعيًا ويقينًا، فيما يزيدنا بصيرة، فيما نزداد فيه ثباتًا وعزمًا وقوّة إرادة؛ فالارتباط بهم ارتباط بالدين صلة مع الله سبحانه وتعالى»[١].

---

(١) من كلمة السيّد عبد الملك بدر الدين الحوثي في ذكرى استشهاد الإمام الأعظم زيد بن علي عليه السلام ١٤٣٥هـ

أوّلًا- خلفيّات ثورة زيد بن علي عليه السلام

لقد وصلت الأمّة بعد استشهاد الإمام الحسين عليه السلام إلى ما وصلت إليه بفعل تخاذلها وتخلّيها عن سبط رسول الله، البقيّة الباقية من أصحاب الكساء الخمسة. و«ممّا كشفته واقعة وحادثة كربلاء واستشهاد الإمام الحسين عليه السلام سبط رسول الله ووريثه؛ هذه الفاجعة بكلّ ملابساتها، بالكيفيّة التي وقعت فيها، عن مدى السوء، والانحراف، والتغيّر الكبير الذي كانت الأمّة قد وصلت إليه. كشفت أنّ الأمّة في واقعها ليست على خير، لا تسير في الاتجاه الصحيح، بل إنّ هناك تغيرًّا كبيرًا بمستوى انقلاب كامل على الإسلام، على رسوله، على قرآنه، على قيمه، على مبادئه، على أخلاقه، على مشروعه المتكامل؛ انحراف وتغيّر كبير، وذهاب باتجاه جاهليّة أخرى أسوأ من الجاهليّة الأولى، أسوأ منها كثيرًا كثيرًا»[١].

وبعد تلك الجريمة المنكرة، كيف يمكن أن تتوقّع مصير الأمّة بعد تلك المذبحة التي كان ضحيّتها ما تبقّى من أهل بيت النبوّة، هل تتوقّع أن يتورّعوا عن قتل أحد بعد ذلك أو يتورّعوا عن هتك أيّ حرمة؟ وفعلًا، نجد بأنّ الأمّة منذ ذلك الحين لم تزدد إلّا انحطاطًا وهوانًا وابتعادًا عن دينها وعن رسولها وعن قيم إسلامها. لم تزدد إلّا ارتماءً في أحضان المجرمين ووقوفًا في صفّ الطغاة ومناصرةً وانطلاقةً في الإثم والعدوان والطغيان والإجرام.

(١) المصدر نفسه.

وفي عام [١٢٢هـ]، تتكرّر المأساة نفسها بحفيد الإمام الحسين وهو الإمام زيد بن علي بن الحسين عليه السلام؛ هذا الإمام الذي تحرّك في نفس الطريق والمشروع والهدف والقضيّة والمبدأ. يتحرّك لإقامة رسالة الله، وإحياء دين الله، وهداية عباد الله وإصلاحهم، وإصلاح أمّة جدّه. لقد ورث عن جدّه المسؤوليّة، وقيم هذا الدين، والعزيمة والروحيّة التي يخلقها هذا الدين. وكان عليه السلام يتحرّك على هذا الأساس في مواقفه، في حياته، يجسّد تعاليم الإسلام متأسيًا بجدّه المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، وارثًا عنه مكارم أخلاق الإسلام الحميدة والعظيمة، وعلى مستوى راقٍ وعظيم.

وبالعودة إلى تلك المرحلة التي تفصله بجدّه الإمام الحسين عليه السلام سنحاول أن نقدّم صورة موجزة عن تلك الفترة الزمنيّة الصعبة من بعد كربلاء حتّى قيام الإمام زيد بن علي عليه السلام في عام (١٢٢هـ) لنعرف الحالة التي كانت قد وصلت إليها في زمن الإمام زيد عليه السلام فما حصل في كربلاء أسّس لظلم الأمّة وقهرها على طول التاريخ.

نعرض جزءًا من مسلسل الظلم الذي لحق بالأمّة منذ جريمة كربلاء، وعندما نستعرض ما منيت به الأمّة من حكام جائرين واصلوا مسلسل الظلم والطغيان نجد الآتي:

يزيد بن معاوية الذي تولّى من عام ٦٠هـ استمرّ حكمه الظالم للأمّة لمدّة ٣ سنوات كلّها حافلة بالظلم والقهر لهذه الأمّة التي فرّطت في ابن بنت نبيّها وأسلمته لأعدائه ليقتلوه بدم بارد.

وقد أوجز سعيد بن المسيب تلك الفترة، وتلك السنوات التي كان يسمّيها بالشؤم، فتحدّث عن أكبر الجرائم فقال: في السنة الأولى قتل الحسين بن علي وأهل بيت رسول الله، والثانية استبيح حرم رسول الله وانتهكت حرمة المدينة، والثالثة سفكت الدماء في حرم الله وحرقت الكعبة.

هذه من أبرز الجرائم التي حصلت في زمن يزيد خلال حكمه وإلّا فكلّ حكمه جور وظلم فقد بقي يزيد مدّة ثلاث سنوات تقريبًا يمارس ظلمه وغيّه،

ويسوم الأمّة سوء العذاب فحوّل البشر إلى عبيد، وحوّل أموال المسلمين إلى غنيمة له ولزمرته من أوباش الناس الذين أطلقهم كالكلاب المسعورة تنهش في جسد هذه الأمّة.

بعد هلاك يزيد بن معاوية ملك بعده معاوية بن يزيد بن معاوية بعد أبيه أربعين يومًا، وقيل: بل أربعة أشهر، هذا الرجل كان قد هاله ما فعل أبوه يزيد وجدّه معاوية من جرائم بحقّ هذه الأمّة فخطب في الناس، فقال - بعد حمد الله والثناء عليه -: أيّها الناس، فإنّا بلينا بكم وبليتم بنا فما نجهل كراهتكم لنا وطعنكم علينا، ألا وإنّ جدّي معاوية بن أبي سفيان نازع الأمر من كان أولى به منه في القرابة برسول الله، وأحقّ في الاسلام، سابق المسلمين، وأوّل المؤمنين، وابن عمّ رسول ربّ العالمين، وأبو بقيّة خاتم المرسلين، فركب منكم ما تعلمون، وركبتم منه ما لا تنكرون، حتّى أتته منيّته وصار رهينًا بعمله، ثمّ قَلّد أبي وكان غير خليق للخير، فركب هواه، واستحسن خطأه، وعظم رجاؤه، فأخلفه الأمل، وقصر عنه الأجل، فقلَّت منعته، وانقطعت مدّته، وصار في حفرته رهينًا بذنبه، وأسيرًا بجرمه.

ثمّ بكى، وقال: إنّ أعظم الأمور علينا: علمنا بسوء مصرعه وقبح منقلبه، وقد قتل عترة الرسول، وأباح الحرمة، وحرق الكعبة، وما أنا المتقلّد أموركم، ولا المتحمّل تبعاتكم، فشأنكم أمركم، فوالله لئن كانت الدنيا مغنمًا لقد نلنا منها حظّنا، وإن تكن شرًّا فحسب آل أبي سفيان ما أصابوا منها.

وبهذا البيان أعلن معاوية بن يزيد نهاية الدولة السفيانيّة ليتعرّض بعدها للاغتيال، وتبدأ مرحلة الدولة المروانيّة حيث تولّى بعده مروان بن الحكم ليواصل هو وأولاده سيرة يزيد بن معاوية.

لقد وقعت الأمّة فيما كان قد حذّرها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم منه حينما نبّه الأمّة بخطورة بني أميّة إذا تمكّنوا من الحكم والسلطة قبل أن يصلوا إلى سدّة الحكم؛ ففي وقت مبكر أطلق صيحة تحذيريّة للأمّة ولتكون حجّة عليها يوم القيامة؛ فأخبر عنهم أنّهم إذا تمكّنوا «اتخذوا دين الله دغلًا وعباده خولًا وماله

دولًا». وهذا هو الواقع الذي امتدّ في تاريخ الأمّة جيلًا بعد جيل، وإلى اليوم هذا هو واقع الأمّة؛ فمنذ أن سيطر بنو أميّة على رقاب هذه الأمّة وإلى اليوم كلّ سلاطين الجور والحكومات المستبدّة الجائرة التي حكمت الأمّة تشتغل على هذا النحو وتستهدف الأمّة في تحريف مفاهيمها الدينيّة لضربها في أخلاقها وقيمها ومشروعها، فتحوّل الناس فيها إلى عبيد، إلى خدم ثمّ تستأثر بفيئهم، بمالهم، بثرواتهم، وتفقر الأمّة وتشتري الذمم من ذلك المال الذي هو حقّ لها؛ هذا هو الذي تعاني منه الأمّة وعانت منه كثيرًا.

ومنذ فاجعة كربلاء إلى ثورة الإمام زيد بن علي عليه السلام تسلّط على الأمّة من بعد معاوية بن يزيد ستّة طواغيت هم: مروان بن الحكم، عبد الملك بن مروان، الوليد بن عبد الملك، سليمان بن عبد الملك، يزيد بن عبد الملك، هشام بن عبد الملك، ما عدا فترة حكم عمر بن عبد العزيز، والذي وصل إلى الخلافة بوصّية من سليمان بن عبد الملك، وكانت فترة ولايته من (٩٩ إلى ١٠١هـ) أصلح في هذه الفترة جزءًا من فساد بني أميّة، وخاصّة ما يتعلّق بظلم أهل البيت عليهم السلام وسبّهم من على المنابر، ويكفيه أنّه استبدل لعن الإمام علي وأهل البيت في آخر الخطبة الثانية بقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾[١] إلّا أنّه سرعان ما عاد ظُلمهم بوفاته وعودتهم مرّة أخرى إلى التحكّم على رقاب الأمّة.

وفي حكم الطاغية (هشام بن عبد الملك) كان تحرّك الإمام زيد بن علي عليه السلام وثورته المباركة.

وفي هذه الحقبة الزمنيّة - منذ استشهاد الإمام الحسين عليه السلام في العام (٦١ هـ) إلى تحرّك الإمام زيد عليه السلام عام (١٢٢هـ) - منيت الأمّة بأقسى أنواع الظلم والطغيان... ممّا سبّب انحطاطها أكثر ممّا كانت عليه في زمن الإمام الحسين عليه السلام.

---

(١) سورة **النحل**، الآية ٩٠.

خلال هذه الفترة، تحرّك الأحرار في المجتمع الإسلامي ثائرين على طواغيت بني أميّة إلّا أنّ الآثار السيّئة للتفريط والتقصير والتخاذل كانت تثقل كاهل المجتمع الإسلامي.

فلقد قامت حركات بعد ثورة الإمام الحسين عليه السلام انتقامًا من قتلته، ولكن لم يكتب لها الاستمراريّة مثل: ثورة التوّابين، وثورة المختار بن أبي عبيد.

ومن تلك الثورات أيضًا ثورة الإمام أبو محمَّد الرضا الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليهم السلام: الذي ولد حوالي عام ٤٢ هـ، دعا إلى الله في أيّام عبد الملك بن مروان بعد عام ٦٥ هـ، وجاهد الأمويّين الظالمين، وانضمّ إليه ابن الأشعث ومن معه من التوّابين في الجهاد للطغاة، ثمّ خذله أصحابه، ومات مسمومًا زمن الوليد بن عبد الملك بعد عام ٩٠ هـ، عمره ٤٨ أو ٤٩، ودفن بالبقيع في المدينة المنوّرة في الحجاز.

هذه الثورات قادها أبطال محنّكون في السياسة وتهيّأت لهم الظروف الكثيرة والكبيرة ولكن لماذا لم يكتب لها النجاح؟.

أجاب السيّد حسين (رضوان الله عليه) عن هذا السؤال في (دروس من وحي عاشوراء) بقوله:

هم فرّطوا، وعندما يفرّط الإنسان فيما يسمع ستأتي البدائل المغلوطة، إمّا أن يتلقّاها من أمثاله ممّن يفهمون الأمور فهمًا مغلوطًا، ممّن لا يعرفون عواقب الأمور، أو من جهة نفسه فيحلّلها على هواه، ويحاول أن يضع لكلّ قضيّة حدًّا معيّنًا، يظنّ أنّها لا تتجاوزه. ربّما كانوا يتصوّرون أنّ الحسين هو المشكلة.. يمكن أن يُصفّى وتبقى الأجواء طبيعيّة!.

بعد أن قُتل الحسين عليه السلام هل بقيت الأجواء طبيعيّة؟ هل استقرّ وضع أهل العراق؟ أم بدأ العراق يغلي، والنكبات والكوارث تتتابع على أهل العراق جيلًا بعد جيل إلى هذا العصر الذي نحن فيه، لم يسلم أهل العراق، ولم يسلم لهم دينهم، ولم تسلم لهم دنياهم، ولم تسلم حتّى أنفسهم..

وعندما يكون الإنسان من هذه النوعيّة فقد يصحو في يوم من الأيّام لكن في الوقت الذي لا ينفع. أهل العراق ندموا بعد ما حصل، وتاب الكثير من تفريطهم في الإمام الحسين إذ لم ينصروه وخرجوا ثائرين، وقتلوا مَنْ قتلوا الحسين عليه السلام وثأروا لقتله لكن بعد فوات الأوان، بعد فوات شخصيّة عظيمة كالحسين.

لو كانت تلك التضحية، لو كان ذلك الصمود، لو كان ذلك التفاني، لو كان ذلك الاهتمام، لو كان ذلك الوعي في وقته، يوم كان الحسين متوجّهًا إلى الكوفة لاستطاعوا أن يغيّروا وجه التاريخ بأكمله، وليس فقط وجه العراق، لاستطاعوا أن يعيدوا الأمّة إلى ما كان يريد لها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أن تكون عليه.

قتلوا الآلاف، وقُتل منهم الآلاف لكن بعد فوات الأوان. وأعظم ما تعرّضت له الأمّة، أو من أعظم نكباتها أن تفقد عظماء كالحسين وعلي وزيد والحسن وأمثالهم من أعلام الهدى، خسارة عظيمة.

فكيف كان دور الإمام زين العابدين عليه السلام خلال هذه الفترة؟

ولد الإمام الوصيّ زين العابدين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام عام ٣٨ هـ، وأجمع أهل الإسلام على أنّه أفضل موجود في عصره، وأعبد أهل زمانه، وأعلمهم، وقد عدّه الإمام يحيى بن الحسين عليه السلام من الأوصياء، وهذا مقام جليل، معروف حقّه، له الإمامة والزعامة، وقد نجى من واقعة كربلاء لمرضه، وتوفّي في المدينة المنوّرة عام ٩٤ هـ، ودفن بالبقيع في المدينة المنوّرة في الحجاز، في مشهد أهل البيت عليهم السلام.

يشخّص السّيد حسين (رضوان الله عليه) الوضع بعد الإمام الحسين عليه السلام وبالتحديد في زمن الإمام زين العابدين عليه السلام وكيف كان دوره فيقول في (شرح دعاء مكارم الأخلاق - الدرس الأوّل):

«كان الواقع الذي عاش فيه [زين العابدين] واقعًا مظلمًا. أمّة هُزِمت وقُهِرت، وأُذلّت تحت أقدام يزيد وأشباهه، لكنّه هو من عمل الكثير الكثير

وهو يوجّه، ويعلِّم ويربّي. والإمام زيد هو ابنه، تخرّج من مدرسة أبيه زين العابدين.

إن الحالة التي كان فيها حالة فعلًا شديدة، بالغة الشدّة، النفوس فيها مقهورة ومهزومة والأفواه مكمّمة، لكنّ زين العابدين من أولئك الذين يفهمون بأنّ المجالات دائمًا لا تغلق أمام دين الله فانطلق هو ليعلّم ويربّي، ويصنع الرجال؛ لأنّه يعلم أنّه إن كان زمانه غير مهيّأ لعمل ما فإنّ الزمان يتغيّر فسيصنع رجالًا للمستقبل. وصنع فعلًا وخرج الإمام زيد عليه السلام شاهرًا سيفه في سبيل الله، وترك أمّة ما تزال تسير على نهجه من ذلك اليوم إلى الآن...

وكلّنا يعرف ذلك الظرف القاهر الذي كان يعيشه زين العابدين عليه السلام، لكن ننظر ماذا عمل زين العابدين، بنى زيدًا وبنى الكثير من الرجال الذين انطلقوا فيما بعد في حركة زيديّة جهاديّة جيلًا بعد جيل على امتداد مئات السنين...

وقد يكون في واقعه ليس ممّن رضي لنفسه تلك الحالة التي كان عليها، لكنّ ذلك هو أقصى ما يمكن أن يعمله، لا يستطيع أن يخرج هو فيعلن الدعوة إلى إعلاء كلمة الله ونصر دين الله، ليس لضعفه هو أو لعدم كماله، وإنّما رأى الناس من حوله كلّهم مهزومين، مقهورين، فمن الذي يستطيع أن يحرّكهم؟»[١].

---

(١) من محاضرة للشهيد القائد بعنوان شرح دعاء مكارم الأخلاق الدرس الأوّل.

ثانيًا- ثورة زيد بن علي بن الحسين عليهما السلام

قبل الحديث عن الثورة، نعرّج بعض الشيء عن شخصيّة الإمام زيد بن علي عليه السلام. هو واحدٌ من عظماء نجوم العِترة، وواحدٌ من أعلام الأمّة، رجل عظيم عرفته كل الأمّة وأقرَّت بفضله وعمله، وأقرَّت بمقامه العظيم في دين الله.

وعندما نريد أن نتعرّف عليه، ومن باب الاختصار والإيجاز، نتحدّث عن أُسرته ومنبته فهو من الأُسرة الطاهرة والبقيّة الباقية من آل رسول الله محمّد صلى الله عليه وآله وسلم، الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيرًا، الذين أمرنا الله بمودِّتهم ومحبَّتهم وجعل ذلك هو الأجر على تبليغ الرسالة، المكافأة لنبيّ الله محمّد، والأجر له وتثمين ما قدّمه للأمّة كلّها من هدىً وزكاءً، وإخراجًا لها من الظلمات إلى النور فقال سبحانه وتعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾[1].

هو من نجوم العِترة الطاهرة الذين أمرنا الله بالتمسّك بهم، والاهتداء بهم، والسير في طريقهم، والتمسّك بمنهجهم، واقتفاء أثرهم، وواحد من نجوم تلك العِترة الذين قال عنهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّي تاركٌ فيكم الثقلين ما إن تمسّكتم به لن تضلّوا بعدي أبدًا: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، إنّ اللطيف الخبير نبّأني أنّهما لن يفترقا حتّى يردا عليَّ الحوض».

(١) سورة **الشورى**، الآية ٢٣.

هو واحدٌ من العترة الطاهرة، من نجومها وأعلامها وهداتها الذين قال عنهم الرسول ﷺ: «أهل بيتي فيكم كسفينة نوح من ركبها نجى ومن تخلّف عنها غرق وهوى»، هذا منبته ومنبعه وأسرته.

ثمّ هو الذي كان ابنًا لزين العابدين عليه السلام، سيّد الساجدين الذي تُقِرُّ كلّ الأمّة بعظيم فضله وعظيم مقامه وسناء مكانته، نجل الإمام الحسين عليه السلام، المتبقّي في كربلاء من أُسرته بلطفٍ من الله ورعايته كي لا ينقرض النسل الحسيني.

فزين العابدين عليه السلام بما هو عليه من العلم، والعبادة، والفضل، والتقوى، والمكانة العليّة في دين الله والقرب من الله سبحانه وتعالى، هو الذي ربَّى زيدًا التربية الإيمانيّة، ربَّاه على الإيمان، على التقوى، على العلم، على الفضل.

ثمّ من بعد زين العابدين عليه السلام وبعد وفاته اهتمّ بتربيته أخوه الإمام الباقر عليه السلام.

ولعظمة هذا الإمام العظيم والدور الذي سيحقّقه فقد روي أنّ النبيّ ﷺ نظر ذات يوم إلى زيد بن حارثة فبكى وقال: «المقتول في الله، المصلوب من أمّتي، المظلوم من أهل بيتي سَمِيُّ هذا» وأشار إلى زيد بن حارثة ثمّ قال: «ادنُ منّي يا زيد، زادك اسمك عندي حبًّا، فإنّك سَمِيُّ الحبيب من ولدي».

قبل عام واحد من مولد الإمام زيد، دخل أبو حمزة الثمالي على زين العابدين فقال له عليه السلام:

يا أبا حمزة ألا أخبرك عن رؤيا رأيتها؟

قال: بلى يا ابن رسول الله.

قال: رأيت كأنّ رسول الله أدخلني جنّة، وزوّجني بحوريّة لم أرَ أحسن منها، ثمّ قال لي: يا علي بن الحسين: سمّ المولود زيدًا فيهنيك زيد.

ثمّ يقول أبو حمزة: وإنّها لرؤيا دفعتها عناية الله وحكمته إلى التصديق، فما هي إلّا أيّام قلائل، وإذ بالمختار بن أبي عبيد يبعث إلى الإمام علي بن الحسين بفتاة سنديّة تدعى (جيدا) كان قد اشتراها، فوجدها حوريّة بحقّ دينًا، وخلقًا، وحياءً، وأدبًا، تجدر بأن تكون سكنًا لعلي بن الحسين، فاختصّها السجّاد لنفسه، بعد أن خيّرها بين أبنائه فأبت - في إجلال - إلّا هو، ومنها أنجب ابنه المنتظر (زيد بن علي).

قال أبو حمزة: فحججت عامًا آخر فأتيت علي بن الحسين، فلمّا دخلت عليه وجدته حاملًا لطفل صغير، وهو يقول: يا أبا حمزة هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربّي حقًّا.

تربّى الإمام زيد عليه السلام في حجر الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام الذي اختصّه بتربية جهاديّة وأعدّه للمستقبل ليكون رجل المرحلة حتّى وصل إلى درجة أنّه صار يُشَبَّه بأمير المؤمنين في الفصاحة والبلاغة والبراعة، وكان يعرف في المدينة بـ(حليف القرآن).

ويروى بأنّ الناس كانوا يتابعون كلام الإمام زيد، ويحفظونه كما يحفظ النادر من الشعر، والغريب من الحكم، ولهذا قال هشام في رسالة له إلى يوسف بن عمر: (امنع أهل الكوفة من حضور زيد بن علي، فإنّ له لسانًا أقطع من ظبّة السيف، وأحصد من شبا الأسنة، وأبلغ من السحر والكهانة).

وقال أبو الجارود: قدمت المدينة فجعلت كلّما سألت عن زيد بن علي قيل لي: ذاك حليف القرآن.

«وهكذا نشأ زيد بن علي عليه السلام في تلك الأُسرة الطاهرة المؤمنة التي هي على أرقى درجات الإيمان، تربّى تربية الإيمان، تربية التقوى، تربيةً على الفضل والخير والقيم والأخلاق وتشرَّب فيها مبادئ الحقّ.

ونشأ نشأةً مميّزةً، فكان متميّزًا منذ بداية نشأته، ومتميّزًا في شبابه بتقواه، وبإيمانه وبخشيته من الله، متميّزًا بفهمه الثاقب واستيعابه الكبير، ومتميّزًا أيضًا بارتباطه الوثيق بالقرآن الكريم، فهو في تلك المدرسة: مدرسة

الهدى، مدرسة الحقّ، مدرسة أهل البيت عليهم السلام، وهذا الارتباط الوثيق بالقرآن الكريم رأينا أثره حينما نقرأ التاريخ في شخصيّة الإمام زيد عليه السلام في أخلاقه، في اهتماماته، في مساره العملي.

عُرف الإمام زيد عليه السلام بأنّه عظيم الخشية من الله، فكان حينما يقرأ بعضًا من آيات **القرآن الكريم**، ويتأمّلها أو يسمعها في بعض المقامات يُغمى عليه.

وعُرف أيضًا بهذا الأثر الإيماني في علاقته المتميّزة بالله، في أخلاقه وقيمه، في المسؤوليّة ومواجهة الجائرين، فعلى مستوى الالتزام والتقوى هو القائل عليه السلام: «والله ما كذبت كذبةً منذ عرفت يميني من شمالي، وما انتهكت لله محرّمًا منذ عرفت أنّ الله يعاقب عليه»، هل بعد هذه النشأة من نشأة، على هذا المستوى العالي من الالتزام والتقوى؟»[١].

هو أيضًا القائل: «والله لو علمت أنّ رضاء الله عزّ وجلّ في أن أقدح نارًا بيدي حتّى إذا اضطرمت رميت بنفسي فيها لفعلت» يعني: لو كان ذلك منّي يرضي الله لفعلته، هكذا كان في انشداده إلى الله، في تقواه، في ذوبانه في طاعة الله سبحانه وتعالى.

ثمّ في إطار المسؤوليّة أيضًا من أهمّ ما يُدلِّل على التقوى، ومستوى اهتمامك بالمسؤوليّة، ليس فقط خشوعك في حالة صلاتك، أو تأثُّرك النفسي في مشاعرك وأنت تتلو القرآن؛ بل في المسارات العمليّة؛ والمسارات العمليّة هي من أهمّ الشواهد على التقوى والإيمان، وهكذا كان الإمام زيد عليه السلام سواءً على مستوى الالتزام والتقوى، أو على مستوى القيام بالمسؤوليّة ومواجهة الجائرين»[٢].

---

(١) من كلمة السيّد عبد الملك بدر الدين الحوثي في ذكرى استشهاد الإمام الأعظم زيد بن علي عليهما السلام ١٤٣٥هـ.

(٢) المصدر نفسه.

كان الإمام زيد عليه السلام فيما يحمله من همٍّ وألم وحرصٍ على إنقاذ أمّة جَدِّه لدرجةٍ عبَّر عنها فقال: «والله لوددت أنّ يديَّ ملصقةٌ بالثريا - الثريا مجموعة النجوم البعيدة جدًّا في عنان السماء - ثمّ أقع إلى الأرض أو حيث أقع فأتقطّع قطعةً قطعة وأن يُصلح الله بذلك أمر أمّة محمّد صلى الله عليه وآله وسلم».

هكذا كان يستشعر المسؤوليّة في عظيم رحمته بأمّة جَدِّه، وحنانه وشفقته. إنسان بقيم عظيمة يتحرّق على واقع الناس ليس لا إباليًّا كما هو حال الكثير من الناس حتّى من المحسوبين على الدين ممّن لا يبالي بالناس في أيّ حالٍ كانوا وفي أيّ وادٍ هلكوا وسقطوا.. لا!، حرقة القلب والمشاعر والأسف والألم على الواقع المرير والمهين الذي تعيشه الأمّة، وبهذا الحرص تحرّك في واقع الأمّة ليعمل على استنقاذها ممّا هي فيه، ثمّ من تلك الدوافع دافِع المسؤوليّة، فهو حليف القرآن الكريم ولذلك كان يقول: «والله ما يدعني كتاب الله أن أسكت».

هذا الكتاب الذي هو كتابنا جميعًا كأمّةٍ مسلمة، كمسلمين هذا الكتاب الذي يجب علينا أن نتّبعه، أن نتمسّك به، أن نطيع الله فيما أمرنا فيه الله جلّ شأنه في هذا الكتاب، حمَّلنا مسؤوليّة أن نقيم العدل، أن نواجه الظلم والفساد والطغيان والشرّ.

«والله ما يدعني كتاب الله أن أسكت»، هذا الانتماء الواعي للقرآن الكريم الذي ترتّب عليه الالتزام، والعمل، والتطبيق، والاتباع، والتمسّك، هو الذي غاب من واقع الأمّة وللأسف، وإلّا فالقرآن ليس فقط كتاب زيد بن علي، أو أنّ ما فيه من توجيهات وأوامر حرّكت زيدًا في ميدان الحياة ليُقدِّم نفسه قربانًا لله وليواجه الطاغوت دون خوف، أو تردّد، أو تلكّؤ.. لا!، ليس خاصًّا بزيد، وليست تلك المسؤوليّات خاصّةً بالإمام زيد عليه السلام.

لا، نحن كمسلمين بقدر إيماننا، واهتدائنا بهذا الكتاب، بقدر مصداقيّتنا في انتمائنا لهذا الدين، في ارتباطنا بهذا الكتاب الذي هو منهج الله الحقّ. هذا الكتاب الذي لم يدع زيدًا يسكت، فلماذا اليوم يسكت الكثير والكثير

من الذين يقدِّمون أنفسهم على أنّهم متديّنين، والبعض منهم ربّما يقرأ هذا الكتاب عن ظهر قلب غيبًا يحفظه آيةً آية، ويتلوها في أيّ وقت، لكن كيف هو واقع الأمّة من مدارس لتعليم القرآن، وتحفيظه، ونرى كثيرًا من القائمين عليها الذين يتعاملون باستغلال في كلّ شيء، في مسلكهم ومسارهم في الحياة بعيدين كلّ البُعد عن هذا الكتاب وعن توجيهاته وعن مساره الذي رسمه لنا الله فيه»[١].

لقد كان الإمام زيد، كما أراد له أبوه زين العابدين عليه السلام، منذ النشأة المبكرة يعمل على تحقيق هذه الأهداف، من خلال تدريسه لطلّاب العلم، وعبر مناظراته وحواراته، وخطبه وكتبه، ورسائله.. وهكذا كان ينشر ثورته عبر كلّ وسيلة. وحتّى في ترحاله، كان يحمل ثورته معه، ويلقي بذورها حيث ما مرّ، فهو لما ودّع مدينة جدّه في رحلته الإجباريّة إلى الشام كان قد تحرّك فيها، وأقام الحجّة على أهلها بما يرتاح له ضميره، وهذا ما أثار قلق العرش الأموي، وجعل الطاغية هشام يسارع في طلبه.

وبعد أن طلبه هشام إلى الشام شَعر الإمام زيد عليه السلام بما يضمره هذا الطاغية من الشرّ، ولكن لم يكن أمامه إلّا المسير إلى الشام فتوكّل على الله وودّع أهله وأقاربه ودعا الله بهذا الدعاء:

«اللهُمَّ إنَّك تَعْلَمُ أنّي مُكْرَهٌ مَجْبُورٌ مضطرٌ غيرُ مختارٍ ولا مالك لنفسي، اللَهُمَّ واكفني كَيْدَهُ وألبِسْنِي جُبَّةَ عِزٍّ لكيلا أخشعَ لسلطانِه، ولا أرهب من جنوده، اللَهُمَّ وابسُط لِساني عليه بإعزازِ الحقِّ ونُصْرَتِه، كي أقولَ قولَ الحقِّ ولا تأخُذُني لومةُ لائم، ولا إذلالُ الجبَّارِين، اللَهُمَّ واجْمَعْ قَلْبِي عَلَى هِدَايتِكَ، وأرني من إعزازِكَ إيّاي ما يَصْغُرُ به عندي مُلْكُه، وتَذِلُّ لي نَخْوَتُه، اللَهُمَّ فاطْرَحِ الهيبة في قَلْبِه وذَلِّلْ لي نفسه، واحْبِسْ عَنِّي كَيْدَهُ. ثمّ قال: إنّي خارج عن وطني ودار هجرتي وما أراني إليها راجع».

---

(١) المصدر نفسه.

ثمّ أتى قبرَ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فصلّى إلى جَنْبِه، ثمّ انصرف من صلاته فقال: السَّلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا نبيّ الله، السلام عليك يا خيرة الأنبياء وأشرف الرسل، السلام عليك يا حبيب الله، هذا آخر عهدي بمدينتك، وآخر عهدي بقبرك ومنبرك، أُخْرِجْتُ يا أبَهْ كارهًا، وسِرْتُ في البلاد أسيرًا يا رسول الله، وإنّي سائلك الشفاعة إلى الله عزّ وجل، وأن يُؤَيِّدَنِي بِثِقَةِ اليقين، وعِزِّ التقوى، وأن يختم لي بشهادة تلحقني بآبائي الأكرمين وأهلي الطاهرين.

تذكر الروايات بأنّ الإمام زيدًا عليه السلام استدعي بقوّة الدولة الأمويّة إلى الشام بعد أن مارس الإمام زيد جهاد الكلمة وبدأ بتكوين الأمّة التي تثور ضدّ الطغيان الأموي، وصل الإمام زيد عليه السلام إلى (الرصافة) وحبس هناك حبسًا سياسيًّا لمدّة خمسة أشهر.

تجاهل هشام بن عبد الملك الإمام زيد عليه السلام، لكنّ الإمام فرض نفسه على الناس في السجن وفي خارج السجن، وأصبح محور الحديث في مجالس الشام عمومًا، أعجبوا بعلمه وسماحته، وشجاعته في كلّ ما يطرح، وأقلّ ما يقال إنّه لفت أنظارهم إلى الحقّ، وصحّح الكثير من المفاهيم، وأبان الكثير من الحقائق التي حاول الأمويّون إخفائها زمنًا طويلًا.

وبعد تجاهل من الطاغية هشام كما هي عادة الطواغيت، أمر بإدخال الإمام زيد عليه، إلى هشام بن عبد الملك ثلاث مرّات، وكان كلّ مرة يلقّن هشامًا درسًا قاسيًا ويفضحه أمام الحاضرين في مجلسه عندما كان ينطق بالحقّ في مجلسه، ولا يخشى في الله لومة لائم، ممتثّلًا قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أفضل الجهاد كلمة حقّ في وجه سلطان جائر».

وكان دخوله مرّات مختلفة، وفي كلّ مرّة له موقف جريء منه.

ففي المرّة الأولى، دخل الإمام زيد على هشام بن عبد الملك فتجاهله هشام فانبرى الإمام زيد قائلًا: السلام عليك أيّها الأحول وإنّك لجدير بهذا الاسم.

فاستشاط هشام غضبًا وقال: أنت زيد المؤمّل للخلافة، وما أنت وذاك وأنت ابن أمَةٍ.

قال زيد عليه السلام: «إنّ الأمّهات لا يقعدن بالرجال عن بلوغ الغايات، ولا أعرف أحدًا أحبّ عند الله من نبيّ بعثه وهو ابن أمة وهو إسماعيل بن إبراهيم والنبوّة أعظم عند الله من الخلافة، ثمّ لم يمنع ذلك أن جعله الله تعالى أبًا للعرب وأبًا لخير النبيّين محمّد صلى الله عليه وآله وسلم، فلو كانت الأمّهات تقصر عن بلوغ الغايات لم يبعثه الله نبيًّا وما تقصيرك برجل جدّه رسول الله وأبوه علي بن أبي طالب».

فلمّا خرج زيد قال هشام لجلسائه: ألستم زعمتم أنّ أهل هذا البيت قد انقرضوا. لا، لعمر الله ما انقرض قوم هذا خلفهم.

واستدعاه هشام مرّة ثانية؛ فجاء وفي مجلسه يهودي يسبّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فانتهره زيد عليه السلام وقال: يا كافر أما والله لئن تمكّنت منك لأختطفنّ روحك.

فقال هشام: مه يا زيد لا تؤذي جليسنا.

فخرج زيد عليه السلام وهو يقول: «من استشعر حبّ البقاء استدثر الذلّ إلى الفناء».

وقال: «والله إنّي لأعلم بأنّه ما أحبّ الحياة قطّ أحد إلّا ذلّ».

ودخل عليه مرة ثالثة وقد سمع بأنّ هشام بن عبد الملك قد أعلن على رؤوس الملأ في يوم حجّ وأقسم أن لا يأمره أحد بتقوى الله إلّا ويقطعنّ رأسه، فلمّا دخل عليه الإمام زيد قال له: اتق الله، يا هشام! فقال: أو مثلك يأمرني بتقوى الله؟ فقال: نعم! إنّ الله لم يرفع أحدًا فوق أن يؤمر بتقوى الله ولم يضع أحدًا دون أن يأمر بتقوى الله.

فقال هشام: هذا تحقيق لما رفع إليّ عنك ومن أمرك أن تضع نفسك في غير موضعها وتراها فوق مكانها؟ فترفع على نفسك واعرف قدرك ولا تشاور سلطانك ولا تخالف إمامك.

فقال الإمام زيد: «من وضع نفسه في غير موضعها أثم بربّه، ومن رفع نفسه عن مكانها خسر نفسه، ومن لم يعرف قدره ضلّ عن سبيل ربّه، ومن شاور سلطانه وخالف إمامه هلك. أفتدري يا هشام من ذلك؟ ذلك من عصى ربّه وتكبّر على خالقه وتسمّى باسم ليس له، وأمّا الذي أمرك بتقوى الله فقد أدّى إلى الله النصيحة فيك ودلّك على رشدك».

فوثب هشام من مجلسه وقام قائلًا: أخرجوه من مجلسي ولا يبيتنّ في معسكري.

فخرج زيد وهو يقول: «سأخرج ولن تجدني والله إلّا حيث تكره».

وخرج وهو يقول: والله ما كره قوم قطّ حرّ السيوف إلّا ذلّوا.

هذه المواقف تحمل دلالة واضحة على مدى ثقته بالله، وإجلاله له، وارتباطه به سبحانه وتعالى، واحتقاره للطغاة والمتجبّرين المنحرفين عن منهج الله سبحانه وتعالى. لقد بلغ الحال في مرحلة ذلك الطاغية المجرم، المستبدّ، المستحكم والمتحكّم على الأمّه أن قال: والله لو قال لي أحد: اتقِ الله لضربت عنقه.

فلم يخف ولم يرهب منه ولم يتهرب من تقديم مثل هذا الأمر والنصح: اتق الله يا هشام.

فتبيّن لهشام أنّه - بلسانه وحججه ومناظراته له في مجلسه وإلقاء الدروس والعظات على أهل الشام والمسجونين - بات يشكّل خطرًا عليه؛ لهذا افتعلت بحقّه قضيّة عامل العراق (خالد القسري) وتزويرهم على لسانه أنّه أودع الإمام زيدًا مالًا، كلّ ذلك للجعجعة والتشويش على التحرّك الجهادي الذي كان يمارسه الإمام عليه السلام.

وهكذا انتهت إقامة الإمام في الشام ليرسله هشام بعدها إلى واليه في العراق ليتدبّر أمره، وكتب هشام إلى يوسف بن عمر: إذا قدم عليك زيد بن علي فاجمع بينه وبين خالد بن عبد الله القسري[١]، ولا يقيمنّ قبلك ساعة واحدة، فإنّي رأيته رجلًا حلو اللسان شديد البيان خليقًا بتمويه الكلام، وأهل العراق أسرع شيء إلى مثله.

فلمّا قدم زيد الكوفة دخل إلى يوسف فقال: لم أشخصتني من عند هشام؟ قال: ذكر خالد بن عبد الله القسري أنّ له عندك ستمئة ألف درهم. قال: فأحضر خالدًا! فأحضره وعليه حديد ثقيل، فقال له يوسف: هذا زيد بن علي، فاذكر ما لك عنده! فقال: والله الذي لا إله إلّا هو ما لي عنده قليل ولا كثير، ولا أردتم بإحضاره إلّا ظلمه.

فأقبل يوسف على زيد، وقال له: إنّ أمير المؤمنين أمرني أن أخرجك من الكوفة ساعة قدومك.

قال: فأستريح ثلاثًا، ثمّ أخرج.

قال: ما إلى ذلك سبيل.

قال: فيومي هذا.

قال: ولا ساعة واحدة.

فأخرجه مع رسل من قبله، فتمثّل عند خروجه بهذه الأبيات:

منخرق الخفّين يشكو الوجى   تنكبه أطراف مرو حداد

شرّده الخوف وأزرى به   كذلك من يكره حر الجلاد

قد كان في الموت له راحة   والموت حتم في رقاب العباد

---

(١) خالد بن عبد الله القسري هذا كان أحد عمّال بني أميّة المخلصين، انتهى به الحال إلى أن يكون أحد ضحاياهم بالسجن ثمّ أخيرًا بالقتل.

فلمّا صار رسل يوسف بالعذيب انصرفوا، وانكفأ زيد راجعًا إلى الكوفة. وأقام فيها بضعة عشر شهرًا، وأرسل دعاته إلى الآفاق يدعون الناس إلى بيعته.

وأقبلت الشيعة وغيرهم يختلفون إليه ويبايعون حتّى أحصى ديوانه خمسة عشر ألف رجل من أهل الكوفة خاصّة، سوى أهل المدائن، والبصرة، وواسط والموصل وخراسان، والريّ، وجرجان.

فكان يقول في دعوته: أيّها الناس، إنّي أدعوكم إلى كتاب الله وسنّة نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم، وإلى جهاد الظالمين والدفع عن المستضعفين، وقَسْم الفيء بين أهله، وردّ المظالم، ونصرة أهل البيت على من نصب لهم الحرب، وإلى إحياء السنن وإماتة البدع.

قال أبو حنيفة لمّا أتته رسل الإمام زيد عليه السلام: هو والله صاحب الحقّ، وهو أعلم من نعرف في هذا الزمان، فاقرئاه منّي السلام، وأخبراه أنّ مرضًا يمنعني من الخروج معه، وأرسل بثلاثين ألف درهم لإعانته على الجهاد، وقال: والله لئن شفيت لأخرجنّ معه، وقد كان يقول رحمه الله: ضاهى خروجه خروج رسول الله يوم بدر.

وقال الأعمش: والله لولا ضَرّة بي لخرجت معه.

ودفع جعفر الصادق بولديه للخروج معه وقال: من قتل مع عمّي زيد كمن قتل مع الحسين، ومن قتل مع الحسين كمن قتل مع علي بن أبي طالب، ومن قتل مع عليّ كمن قتل مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

كانت الظروف التي تحرّك فيها الإمام زيد بن علي عليه السلام ظروفًا صعبة للغاية، كانت الدولة الأمويّة في أوج قوّتها مسيطرة على كلّ العالم الإسلامي في ظلّ واقع قائم على الخضوع والخنوع والاستسلام، لا أحد يصدع بالحقّ ولا أحد يتكلّم ولا أحد يعارض. يعمل الولاة الأمويّون تحت قيادة الملك الأموي المستبدّ ما يشاؤون، ويفعلون ما يريدون، والجميع غارق في الصمت، والكلّ يعيشون حالة الاستسلام للأمر الواقع فكلّ ما نقضوه من عرى الإسلام وكل ما طمسوه من معالم الإسلام، وكلّ ما أوغلوا في عباد الله فسادًا؛ الكلّ لا

يعترض ولا يحتجّ ولا ينتقد ولا يجرؤ على أن يكون له موقف، حالة الذلّ وحالة الخضوع والاستسلام هي الحالة المسيطرة على الأمّة كلّها.

كلّ الفئات التي يمكن أن يراهن عليها المجتمع لأن يكون لها موقف إيجابي أو تسعى للتغيير أو تعمل لإصلاح الواقع صامتة جامدة، حتّى طبقة العلماء والمثقفون والعبّاد الكلّ صامتون، ساكتون وحالة رهيبة من الذلّ والخوف والفزع وحالة طاغية من الهيمنة الكبيرة والسيطرة التامّة على واقع الأمّة. قبضة حديديّة على الواقع وهيمنة واستبداد وقمع وإذلال جعل الكلّ في حالة استسلام تامّ وعجز واضح.

لقد كانت الأوضاع في زمنه عليه السلام متردّية إلى أبعد الحدود؛ فالفساد مستشري في كلّ المجالات وقد وصل الحال إلى درجة الإساءة إلى المقدّسات وعلى رأسها **القرآن الكريم** ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمّا لعن الإمام علي وفاطمة والحسن والحسين فقد صارت سنّة يجهر بها من على منابر الجمعة.

وقد شخّص الإمام زيد عليه السلام تلك الحالة المتردّية في دعاء لخَّص فيه ما تعيشه أمّة جده من الظلم والقهر وضياع الحقّ، وتطلُّعه إلى تغيير هذا الواقع بقوله:

«اللهُمَّ وقد شَمَلَنا زَيْغُ الفتنِ، واستولت علينا غَشْوَةُ الحَيْرَةِ، وقَارَعَنَا الذلُّ والصَّغَارُ، وحكم علينا غيرُ المأمونين على دِينِك، وابْتَزَّ أمورَنَا من نَقَّصَ حكمَك وسعى في إتلافِ عبادِك، وعَادَ فَيُّنا دُوْلَـةً، وإمَامَتُنا غَلَبَةً، وعَهْدُنَا مِيراثًا بين الفَسَقَةِ، واشْتُرِيَتِ الملاهي بِسَهْمِ اليتيم والأرْمَلةِ، ورَتَعَ في مال الله من لا يَرْعَى له حُرْمَةً، وحكم في أَبْشَار المؤمنين أهلُ الذِّمة، وتولّى القيامَ به فاسقُ كلِّ مَحَلَّةٍ، فلا ذائدٌ يذودهم عن هَلَكَةٍ، ولا رادعٌ يردعهم عن إرادتهم المَظْلِمَةِ، ولا رَاعٍ ينظرُ إليهم بِعَيْنِ الرَّحمْة، ولا ذو شفقة يشفي ذاتَ الكبدِ الحَرَّاء من مَسْغَبَةٍ، فهم هؤلاء صَرْعَى ضَيْعَةٍ، وأسرى مَسْكَنَةٍ، وحُلَفَاء كآبةٍ وذِلَّةٍ.

اللَهُمَّ وقد اسْتَحْصَدَ زرعُ الباطلِ وبلغ نهايَتَه، واستغلظ عَمُودُهُ وخَرِفَ وليدُه، واستجمع طريدُه، وضَرَبَ بجِرَانِه. اللَهُمَّ فأتح له مِن الحَقِّ يدًا حاصِدَةً تَصْرَعُ بها قائمَهُ، وتُهَشِّمُ سُوْقَهُ، وتَجُتُّ سَنامه، وتَجْدَعُ مُرْغَمَه. اللَهُمَّ ولا تَدَعْ لَهُ دعَامَةً إلّا قَصَمْتَهَا، ولا جُنَّةً إلّا هَتَكْتَهَا، ولا كلمةً مجتمعةً إلّا فرقتَها، ولا سَرِيَّة تعلو إلّا خَفَقْتَها، ولا قائمةَ عَلَمٍ إلّا خَفَضْتَهَا، ولا فائدةً إلّا أبدتها.

اللَهُمَّ وكَوِّر شَمْسَه، وحُطّ نوره، وادْمَغ بالحقّ رأسَه، وفُضّ جُيُوشَهُ، وأذْعِرْ قُلُوبَ أهله.

اللَهُمَّ لا تَدعَنَّ منه بقيّةً إلّا أفنيتَ، ولا نَبْوَةً إلّا سَوَّيْتَ، ولا حَلْقَةً إلّا أكلَلْتَ، ولا حَدًّا إلّا فَلَلْتَ، ولا كراعًا إلّا اجتحتَ، ولا حاملَ عَلَمٍ إلّا نكستَ. اللَهُمَّ وأرنا أنصاره بَعَائِدَ بَعْدَ الإلْفَةِ، وشَتَّى بعد اجتماع الكَلِمَةِ، ومُقْنِعِي الرؤوس بعد الظُّهور على الأمَّة.

اللَهُمَّ وأسْفِرْ عَنْ نَهَارِ العَدْلِ، وأرناهُ سَرْمَدًا لا ليلَ فيهِ، وأهْطِل علينا نَاشِئَتَهُ، وأدِلْه ممّن ناواه.

اللَهُمَّ وأحيي به القلوبَ الميِّتة، واجمع به الأهـواءَ المختلفةَ، وأقمْ به الحدودَ المُعَطَّلة، والأحكامَ المُهْمَلَةَ، واشبع به الخِمَاصَ السَّاغِبَةَ، وأرحْ به الأبدان اللاَّغِبَةَ من ذريّة محمّد نبيّك صلى الله عليه وآله وسلم، وأشياعهم، وأنصارهم، ومحبيهم، وعَجِّل فَرَجَهُم وانْتِيَاشَهُم، بقدرتك ورحمتك يا ربّ العالمين».

ومن مواعظه التي كان يتحدّث فيها عن حالة الأمّة قوله:

وقديمًا اتخذت الجبابرة دين الله دغـلًا، وعـباده خـولًا، وماله دُولًا، فاستحلّوا الخمر بالنبيذ، والمكس بالزكاة، والسحت بالهديّة، يجبونها من سخط الله، وينفقونها في معاصي الله، ووجـدوا على ذلك من خونة أهل العلم والتجّار والـزرّاع والصنّاع والمستأكلين بالدين أعوانًا، فبتلك الأعوان خَطَبَتْ أئمّة الجور على المنابر، وبتلك الأعوان قامت راية الفسق في العشاير، وبتلك الأعـوان أخيف العالم فلا ينطق، ولا يتَّعظ لذلك الجاهل فيسأل،

وبتلك الأعوان مشى المؤمن في طبقاتهم بالتَّقية والكتمان، فهو كاليتيم المفرد يستذلّه من لا يتّقي الله سبحانه».

وفي ظلّ هذا الواقع المتردّي، كان صوت الإمام زيد هو الصوت السابق الأوّل الذي كسر ذلك الواقع، وحطّم تلك القيود التي كبّلت الأمّة وأذلّتها؛ تحرّك بحركة متميّزة بمنهجيّة **القرآن الكريم** والثقة العالية بالله سبحانه وتعالى وهو القائل عليه السلام وقد تحدّث إلى جابر الجعفي - أحد أصحابه - يا جابر: «لا يسعني أن أسكت وقد خولف كتاب الله وتحوكم إلى الجبت والطاغوت لا يسعني أن أسكت».

وكان يقول: والله لو علمت عملًا هو أرضى لله تعالى من هذا الذي وضعت يدي فيه لفعلته ولأتيته، لكنّي والله لا أعلم عملًا هو أرضى من قتال أهل الشام.

وهكذا تحرّك، وهكذا وجّه دعوته إلى الأمّة، يخاطب الناس فيقول: «إنّا ندعوكم أيّها الناس إلى كتاب الله وسنّة نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم» هذا منهجه، هذا المنهج الذي دعا إليه الإمام زيد وقدّمه للأمّة.

أمّا المشروع العملي التطبيقي فهو حتمًا يتفرّع عن هذا المنهج، يواصل فيقول: «وإلى جهاد الظالمين، والدفع عن المستضعفين وقَسْمِ الفيء بين أهله، وردّ المظالم، ونصرة أهل البيت على من نصب لنا الحرب».

ثمّ يستنهض العلماء والأمّة، تلك كانت الخطوط العريضة التي تحرّك على ضوئها عليه السلام ودعا إليها: جهاد الظالمين لدفع ظلمهم، لإيقافهم عند حدِّهم، لا يمكن أن يُوَقَّفَ ظلمهم، وأن يُدفع جبروتهم إلّا بالجهاد ضدَّهم، بالتحرّك الجادّ لإيقافهم عند حدِّهم، والدفع عن المستضعفين حتّى لا يقوا ضحيّةً لطغيان الطغاة وهيمنة المجرمين، وقَسْمِ الفيء بين أهله - المال العامّ - حتّى لا تُحرم الأمّة من ثرواتها العامّة فيترتّبَ على ذلك من المساوئ، فيقول: «فسارعوا عباد الله إلى الحقّ» دعوةً إلى الحقّ، ويفترض بالأمّة

المسلمة أن تستجيب لدعوة كهذه من داعٍ كالإمام زيد، معروف بين أوساط الأمّة بالفضل والعلم، رجل عظيم موثوق ليس مغمورًا ولا مجهولًا.

«فبالحقّ يُكبت عدوّكم وتُمنع حريمكم وتَأمن ساحتكم» يتوفّر لكم الأمن والمنعة على حرماتكم، (وذلك أنّنا ننزع الجائرين عن الجنود) يعني حتّى لا يبقى الجيش تحت سلطة الجائرين الذين يستخدمونه للسطوة على الناس، والظلم لهم، وليجعلوا منه أداة تسلّط وقهر وقمع يهيمنون من خلالها على الأمّة.

«ننزع الجائرين عن الجنود والخزائن والمدائن» الخزائن: الثروة العامّة، لا تبقى بأيديهم؛ لأنّ الخزائن العامّة عندما تبقى بأيدي الجائرين الظالمين يختصّون بها ترفًا في مصالحهم؛ في المعيشة ولتعزيز نفوذهم، ووسيلة يستقوون بها لتعزيز هيمنتهم وسيطرتهم. وأيضًا ننزعهم عن المدائن حتى لا يديرون شؤون الناس بالظلم والشرّ والطغيان. «ونثبّت الأمين المؤتمن» اللائق بالمسؤوليّة، الإنسان الذي ليس مصدر خوف في أن يظلم الأمّة، أو يسرقها أو ينهب ثرواتها، «غير الراشي والمرتشي الناقض للعهد؛ فإن نظهر فهذا عهدنا وإن نُستشهد فقد نصحنا لربّنا وأدّينا الحقّ إليه من أنفسنا» نكون قد قمنا بواجبنا «فالجنّة مثوانا ومنقلبنا، فأي هذا يكره المؤمن وفي أي هذا يرهب المسلم»؟.

لقد تحرّك الإمام زيد بن علي عليه السلام من خلال **القرآن الكريم**، ليواجه بالحقّ الباطل والضلال، والأفكار المنحرفة المضلّلة التي باتت لكثير من طوائف الأمّة فكرًا وعقائد ومبادئ تعتمد عليها وتسير في ظلماتها، بالروحيّة الإيمانيّة الجهاديّة واستشعار المسؤوليّة.

يشير السيّد عبد الملك بدر الدين الحوثي في محاضرة له بمناسبة استشهاد الإمام زيد إلى أنّ الإمام زيد بن علي عليه السلام «كان علمًا لكلّ الأمّة الإسلاميّة، لعامّة المسلمين جميعًا قائدًا وهاديًا لكلّ أمّة جدّه وليس فقط

للطائفة الزيديّة، دعوته كانت عامّة وحركته كانت عامّة، وجَّه نداءه وخطابه إلى الأمّة جميعًا؛ فتحرّك في أوساطها، حمل همّها وسعى لإنقاذها.

فالإمام زيد عليه السلام غضب لله وصدع بالحقّ يوم سكت الساكتون وصمت العاجزون وخضع اليائسون، ويوم استسلم الأذلّون. تحرّك بكلّ شموخ وثبات بعزّة الإيمان على خطى الأنبياء عليهم السلام لا تأخذه في الله لومة لائم لا يبالي بلوم اللائمين ولا بجبروت الظالمين ولا بطغيان الطاغين والمستبدّين»[1].

تحرّك بدافع المسؤوليّة كمؤمن، يدرك أنّ انتماءه لهذا الدين، وتمسّكه بكتاب الله عزّ وجلّ، وأنّ اقتفاءه لأثر نبي الإسلام محمّد يفرض عليه حتمًا أن يتحرّك، أن لا يسكت، أن يصدع بكلمة الحقّ في وجه السلطان الجائر، فـ«من لا يهتمّ بأمور المسلمين فليس منهم».

ثمّ إنّه عليه السلام تحرّك لإحياء مبدأ من أهم مبادئ الإسلام، مبدأ حيويّ في واقع حياة الأمّة، هو مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. هذا المبدأ المهمّ، العظيم في الإسلام والحيويّ الذي يترتّب عليه تصحيح واقع الأمّة من الداخل، وإصلاح واقعها، وتطهير ساحتها الداخليّة من هيمنة المفسدين، والجائرين، والظالمين، والعابثين، والطغاة.

مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو أهمّ مسؤوليّات المؤمنين ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾[2] والله قال في محكم كتابه: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾[3] هذا المبدأ الذي إذا غاب معناه غياب العمل لتصحيح حالة الأمّة من الداخل، وبالتالي لا تقوم لها أبدًا قائمة..

---

(١) من محاضرة للسيّد عبد الملك الحوثي في ذكرى استشهاد الإمام زيد عليه السلام.

(٢) سورة **التوبة**، الآية ٧١.

(٣) سورة **آل عمران**، الآية ١٠٤.

هذه المسؤوليّة المهمّة جدًّا في واقع الأمّة لتصحيح مسارها لكي يبقى للدين قيمته، وللأمّة سلامة دينها وصلاح دنياها، هو يدرك ما قاله جُدِّه، هو نفسه من روى عن جَدِّه صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «لتأمرنَّ بالمعروف ولتنهنَّ عن المنكر أو ليسلطنَّ الله عليكم شراركم ثمّ يدعو خياركم فلا يستجاب لهم»، وهذه هي نتيجة التفريط والتقصير في هذه الفريضة المهمّة. إنّ التخلّي عن هذه المهمّة المقدّسة تؤدّي إلى أن يُسلّط الأشرار من داخل الأمّة عليها، ويتحكّمون ويعبثون بها، بفسادهم وإجرامهم وطغيانهم، فيسوء واقع الحياة، وحينها لا ينفع مجرّد الدعاء من الأخيار بدون القيام بهذه المسؤوليّة.

وقد قال عليه السلام في رسالته الشهيرة، دعوته التي وجّهها إلى علماء الأمّة: «واعلموا أنّ فريضة الله تعالى في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذا أُقيمت له استقامت الفرائض بأسرها هيّنها وشديدها» يعني: هذا المبدأ له كلّ هذه الأهمية، فإذا أُقيم أُقيم الدين كلّه، وإذا عُطِّل عُطِّل معظم الدين وما يتبقّى من الدين إلّا الشكليّات التي لا أثر لها في الواقع، ولا نفع لها في الحياة، «وذلك أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو الدعاء إلى دين الإسلام والإخراج من الظلمة، ورَدُّ المظالم وقسمة الفيء والغنائم على منازلها وأخذ الصدقات ووضعها في مواضعها، وإقامة الحدود» ردعًا للمفسدين والمجرمين واللصوص وما إلى ذلك، «وصلة الأرحام، والوفاء بالعهد، والإحسان، واجتناب المحارم كلّ هذا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر».

طبعًا؛ شُوِّهت هذه الفريضة، قُدِّم لها شكل مختلف للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على أنّها تخصّ هامشًا محدودًا من العبادات والجانب الأخلاقي في جزءٍ منه، يعني مساحة بسيطة وهامش صغير من الأخلاق والعبادات، بشرط أن يكون على رأس المساكين فقط، أمّا أن نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر في الإطار العامّ ضدّ الظالمين الجائرين المفسدين، أو أن يُؤمر حاكم أو رئيس أو زعيم أو مسؤول بمعروف أن يُنهى عن منكر.. لا!. يريدون تعطيل ذلك، وأصبحت مسألة من مسائل التودّد للظالمين وفي ظلّهم، وأسموها هيئة أمر بمعروف ونهي عن منكر في إطار الظالمين.

هكذا يُقدِّم الإمام زيد عليه السلام الأمر بالمعروف في إطار مفهومه العامّ والشامل، بكلّ ما تحتاج إليه الأمّة لكي تهتدي وتتحلَّى به، أن تسلكه، أن تعمل به ممّا فيه صلاح دينها ودنياها، وليس فقط بالحالة الشكليّة التي تُركّز على هامش صغير من العبادات والأخلاق تستهدف الناس العاديّين فقط.

لقد كان الإمام زيد عليه السلام يدرك مشكلة الأمّة الكبيرة، الأمّة التي كان من المفترض أن ينهض علماؤها بمسؤوليّتهم ويكون لهم دورٌ أساسيٌّ إيجابيٌّ في تعريف الأمّة بمسؤوليّتها، وفي هدايتها لسبيل ربِّها، وفي تحريك الأمّة لإقامة الحقّ والعدل في واقعها؛ ولكن يرى أنّ الكثير - وليس الكلّ - الكثير من العلماء أصبحوا علماء سوء، لهم إسهام سلبي وسيّء في تدجين الأمّة للظالمين، فيقول عليه السلام: «يا علماء السوء؛ أنتم أعظم الخلق مصيبة وأشدّهم عقوبة إن كنتم تعقلون» لماذا؟ لأنّ جُرمهم كبير، جُرم علماء السوء جُرم فظيع بقدر ما أسهموا وأضلُّوا، في تدجين الأمّة للظالمين وأضلُّوا الناس وحرّفوا مفاهيم الحقّ هم أعظم الخلق مصيبة وأشدّهم عقوبة.

«ذلك بأنّ الله قد احتجّ عليكم بما استحفظكم؛ إذ جعل الأمور ترد إليكم وتصدر عنكم، الأحكام من قبلكم تلتمس، والسنن من جهتكم تُختبر يقول المتّبعون لكم: أنتم حجّتنا بيننا وبين ربِّنا» لأنّ الكثير من عامّة الناس عندما يكون لهم ارتباطات بعلماء معيَّنين يثقون فيهم، يأمنونهم، يطمئنّون إليهم، يعتبرونهم حجّتهم فيما بينهم وبين الله، أيّ فتوى أيّ تعبئة باسم الدين تؤثّر فيهم.

لقد تحرّك في الأمّة بكلّ هذا المخزون العظيم من القيم والأخلاق مستنهضًا لعلمائها ليقوموا بواجبهم، وليؤدّوا دورهم في استنهاض الأمّة وفي العمل على تغيير واقعها، وقد رأى الأثر السيّء جدًّا الذي تركه علماء السوء، علماء البلاط الذين يقفون إلى جنب سلاطين الجور يعينونهم ويُدجّنون لهم الأمّة ويُجمّدونها لتُذعن لهم فنادى أولئك العلماء في رسالته الشهيرة قائلا: «يا علماء السوء؛ أنتم أعظم الخلق مصيبة وأشدّهم عقوبة إن كنتم تعقلون ذلك بأنّ الله قد احتجّ عليكم بما استحفظكم؛ إذ جعل الأمور ترد إليكم وتصدر

عنكم، الأحكام من قِبَلِكُم تُلتمس والسُّنن من جِهَتِكُم تُختبَر، يقول المتّبعون لكم: أنتم حجّتنا بيننا وبين ربِّنا. فبأيّ منزلة نزلتم من العباد هذه المنزلة؟ فوالذي نفس زيد بن علي بيده؛ لو بيَّنتم للناس ما تعلمون ودعوتموهم إلى الحقّ الذي تعرفون لتضعضع بنيان الجبّارين ولتهدّم أساس الظالمين؛ ولكنّكم اشتريتم بآيات الله ثمنًا قليلًا وأدهنتم في دينه وفارقتم كتابه».

ثم يُوجِّه نداءه إلى الأمّة قائلًا: «عباد الله؛ فأعينونا على من استعبد أُمّتنا وأخرب أماناتنا وعطّل كتابنا».

«بهذه المبادئ، وهذه المنطلقات، بدافع المسؤوليّة، تحرّك الإمام زيد عليه السلام وصولًا إلى خروجه ثائرًا، وكان قد واعد أصحابه والمستجيبين له من المسلمين على أن يكون موعد الثورة في الواحد من شهر صفر، ولكن نتيجة العمل الاستخباراتي الأموي اكتشفت خطّة الإمام زيد عليه السلام أفشى بها البعض، وأدرك بنو أُميَّة أنّ ظهوره قريب وأنّه موجود في الكُوفَة وبالتالي بحثوا عنه وكانوا قريبين من اكتشاف مكانه، فاضطر إلى تعجيل الخروج في الثاني والعشرين من المحرَّم، قبل الموعد المُتفق عليه مع من كان قد استجاب له وواعده بالخروج معه من المسلمين، فخرج في الكوفة، في الثاني والعشرين من المحرَّم ليلة الأربعاء، ونادى بشعاراته المعروفة: (يا منصور أمت) وهذا كان شعار جَدِّه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في غزوة بَدْر، وكان قد وافاه فقط مئتان وثمانية عشر رجلًا، بينما في بعض الأخبار أنّ الذين كانوا قد بايعوه من الكوفة وحدها ما يقارب الخمسة عشر ألف رجل، ووفى منهم فقط مئتان وثمانية عشر رجل إلى صبيحة يوم الأربعاء.

ولاحظ الإمام زيد عليه السلام حالة التخاذل الكبيرة في واقع الأمّة، وقِلَّة المستجيبين، ومحدوديّة الإمكانيّات، وقلَّة الأنصار، وقال لأحد أنصاره الأوفياء (نصر بن خزيمة): «يا نصر؛ أتخاف أهل الكوفة أن يكونوا فعلوها حسينيّة» فيفعلوا معه ما فعلوا مع الحسين من تخاذل قال: (جُعِلتُ فداك أمّا أنا فوالله لأضربنّ بسيفي بين يديك حتّى أموت).

فتحرّك عليه السلام بقلَّة الناصر، بالفئة القليلة من المؤمنين الصادقين، تحرّك ببطولة وفداء كبيرَين للإسلام واستبسال قَلّ نظيره، بتلك القلّة القليلة واجه اثنا عشر ألف مقاتل من الجيش الأموي، وهزمهم من سكّة إلى سكّة، ومن شارع إلى شارع، وتقدَّم ليدخل إلى داخل الكوفة وقتل في اليوم الأوّل من الجيش المعادي أكثر من ألفي قتيل، وتقدَّم وهو يقاتل بتلك الفئة المؤمنة القليلة الصادقة الصابرة الثابتة أشدّ قتال حتّى تمكّن من الوصول إلى مسجد الكُوفة.

في مسجد الكُوفة، كان قد جُمع أهل الكُوفة وحُوصروا فيه وأُغلقت عليهم الأبواب؛ ولكن يبدو أنّ ذلك أعجبهم، لأنّهم كانوا غير راغبين في الجهاد ويبحثون عن الأعذار.

حينما وصل الإمام زيد عليه السلام إلى مسجد الكوفة، قام نصر بن خزيمة أحد مشاهير المجاهدين معه وجعل ينادي المحاصرين في المسجد وهو يفتح لهم الأبواب ويقول لهم: (اخرجوا يا أهل الكُوفة، اخرجوا من الذلّ إلى العزّ، اخرجوا إلى خير الدنيا والآخرة فإنّكم لستم في واحدٍ منهما) يعني: لا أنتم في خير الدينا ولا أنتم في خير الآخرة، اخرجوا، تحرّروا، فُتحت لهم الأبواب فلم يخرجوا، لقد رغبوا في أن يحبسوا أنفسهم، لكن الإمام عليه السلام واصل مشواره الجهادي وكان حينما خفقت الراية على رأسه قال عليه السلام متوجّهًا إلى الله العظيم: «اللّهم لك خرجت، وإيّاك أردت، ورضوانك طلبت، ولعدوّك نصبت، فانتصر لنفسك ولدينك ولكتابك ولنبيّك ولأهل بيت نبيّك ولأوليائك من المؤمنين، اللّهم هذا الجُهد منّي وأنت المُستعان».

ثمّ قال عليه السلام: «الحمد لله الذي أكمل لي ديني، والله ما يسرّني أنّي لقيت جَدّي محمّدًا يوم القيامة ولم آمر في أمّته بمعروف ولمن أَنْهَ عن منكر، والله ما أُبالي إذا أَقمت كتاب الله وسنّة نبيّه أنّه تُؤجَّج لي نارٌ ثمّ قذفت نفسي فيها ثمّ صرت إلى رحمة الله»، هكذا كان زيد، وهكذا هي بصيرة الحقّ، ومبادئ الإسلام، ونور القرآن.

استمرّت المعركة في يوم الأربعاء ثمّ في يوم الخميس بكلّ استبسالٍ وتفانٍ مع قلَّة الناصر، وقلَّة العدّة، وفي آخر نهار الخميس حسب بعض الروايات أصيب الإمام زيد عليه السلام بسهم بجبينه، وفور إصابته قال عليه السلام: «الشهادة الشهادة الحمد لله الذي رزقنيها»(١).

ثم إنّه عليه السلام أوصى بوصيّة أفرغها في دماء ولده الأكبر، إذ جاءه ولده يحيى فأكبّ عليه، وبكى بكاءً مرًّا، ثمّ مسح الدم عن وجه أبيه وقال: أبشر يا ابن رسول الله، ترد على رسول الله، وعليّ وفاطمة وخديجة والحسن والحسين، وهم عنك راضون، فقال الإمام: صدقت يا بنيّ، فأيّ شيء تريد أن تصنع؟ قال يحيى: أجاهدهم إلّا أن لا أجد الناصر، قال: نعم يا بنيّ، جاهدهم، فوالله إنّك لعلى حقّ، وإنّهم لعلى باطل، وإنّ قتلاك في الجنّة، وقتلاهم في النار.

ثمّ إنّ الطبيب انتزع السهم فساعة انتزاعه استشهد عليه السلام في الخامس والعشرين من شهر محرم من سنة ١٢٢هـ.

وهكذا نلمس أثر الإيمان، والقرآن، ومبادئ الإسلام، في مثل هذا الرجل العظيم الذي يُقدِّم لنا أعظم الدروس من الواقع العملي من موقع القدوة والأسوة.

بعد استشهاد الإمام زيد عليه السلام، دُفِنَ جُثمانه الطاهر بشكل سرِّي، ولكن اكتشف الأمر وعرف الأعداء مكان دفنه، واستُخرج الجُثمان الطاهر ثمّ قطعوا رأسه الشريف ليطوفوا به في بُلدان العالم الإسلامي، وتعاملوا معه بكلّ وحشية؛ الوحشية التي تُجسِّد فيها سوء ما عليه المجرمون، الظالمون والمفسدون والطغاة، في ممارساتهم، ومعاملاتهم، وتصرّفاتهم، ووحشيّتهم، وإجرامهم، وانعدام حتّى الأخلاق الإنسانيّة لديهم، صلبوا الجسد الشريف منزوعًا عنه الثياب والملابس، وبقي مصلوبًا لأربع سنوات.

---

(١) من كلمة السيّد عبد الملك بدر الدين الحوثي في ذكرى استشهاد الإمام الأعظم زيد بن علي عليه السلام ١٤٣٥هـ.

وخلال صلبه حصلت الآيات الكثيرة من ضمنها: أنّه خلال صلبه لم يرَ أحد له عورة، فقد استرسل جلد من بطنه من قدامه ومن خلفه حتّى ستر عورته.

بعد ذلك قاموا بإحراقه بالنار، كانوا يغتاظون، كانوا يرون أثر زيد في الأمّة باقيًا مستمرًّا بالرغم من قتله، وقطع رأسه، وإرسال رأسه ليُطاف به في الآفاق، لكنّ أثره كان باقيًا فكان ذلك يغيظهم، أنزلوه بعد أربع سنوات من الصَّلب وقاموا بإحراقه، ثمّ بسحقه، ثمّ ذروا جزءًا منه في نهر الفرات، قالوا لكي لا يبقى من زيد ولا حتّى ذرَّة من جسده، ذرُّوا جزءًا من جسده الشريف بعد إحراقه وسحقه في نهر الفرات، وجزء جعلوه في مهبّ الريح لكي يضيع. فصلوات الله عليه يوم ولد ويوم استشهد ويوم يبعث حيًّا بين يدي الله مع آبائه وأجداده الكرام.

ثالثًا- دروس وعبر

يتساءل البعض لماذا نحيي ذكرى ثورة الإمام زيد بن علي عَلَيْهِ السَّلَامُ، يقول السيد عبد الملك (رضوان الله عليه):

«كانت ثورة الإمامُ زيدٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ وقيامُه وحركتُه امتدادًا لقيام وثورة وحركة جَدِّه الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ، امتدادًا كليًّا، امتدادًا في الجوهر والمضمون، في الروح والهدف، امتدادًا في الموقف، امتدادًا في التوجّه، امتدادًا في طبيعة الظروف والدوافع.

هي امتدادٌ لحركة الإسْلَام في حقيقته ومبادئه وجوهره وقيمه وأَخْلَاقه، امتدادٌ لحركة الإيمان بالاستجابة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ونحن حينما نُحيي هذه الذكرى نحييها لعدّة اعتبارات: كواقعة وحادثةٍ تاريخيّة مهمّة لها تأثيرُها الكبير، امتدّ هذا التأثير في الأُمَّة جيلًا بعد جيل، لها أهميّتها في كُلّ شيء، في مضمونها، في أسبابها، في مستوياتها، في أهدافها، في تأثيرها، فيها من العِبَر والدروس التي نحتاج إليها اليوم، نستفيدُ منها كواقعة تأريخيّة لها صلة بالتأريخ الذي امتدَّ تأثيرُه إلَى الحاضر، فما حاضرُها اليوم بكلّ ما فيه إلّا امتداد لذلك الماضي.

نُحييها باعتبارها ذكرى لعَلَم عظيم من أعلام الهدى، من رموز الإسْلَام، رجلٍ عظيم حمل رايةَ الإسْلَام في الأُمَّة، ورفع صوت الحقّ في زمن السكوت، وتحَـرّك في أوساط الأُمَّـة كُلّ الأُمَّـة؛ بهدف إنقاذها من الضلال والظلمات والظلم والقهر والطغيان. فهو في موقع القدوة، والأسوة، تتطلّع إليه، إلَى

جهاده، إلَى سيرته، إلَى مواقفه، إلَى أقواله، إلَى علومه، إلَى كُلِّ ما قدّمه للأُمَّة، وما قدّمه إنّما قدّمه من خلال ما اهتدى والتزم به وما تحلّى به من مبادئ الإسْلَام وقيمه وأَخْلَاقه وتعاليمه، فهو رمزٌ إسْلَاميٍ نرتبطُ به في الدين قدوةً وعَلَمَ هدى، ورمزًا للأُمَّة فيما قدّمه.

لقد جرى في العُرف الإنساني أن تحتفل الشعوبُ والأمم بذكرى أمجادها وعظمائها، وأن تخلّدَ لعظمائها ذكراهم الذين أسهموا في أُمَمِهم بما قدّموه لها على مستوى الدفاع عنها، والنهضة بها، والإصلاح في واقعها، جرى عُرف البشريّة أن تمجّد عظماءها وتخلّد ذكراهم، وأن تجعل منهم فيما كانوا عليه وفيما قدّموه أن تجعل منهم القدوة التي ينجذب إليها ويقتدي ويتأثّر بها الجميع، ويكون لذلك الارتباط الوجداني والنفسي والثقافي أثَرُه الكبيرُ في حياة الأمم، ونهضتها ونشاطها، في تحمّل الأمم للمسؤوليّة، وفي استعدادها لذلك. قدّم الإمامُ زيدٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ للأُمَّة الكثير الكثير، مَن يقرأ التأريخ والتراث الإسْلَامي يعرف ذلك.

وعلى كُلٍّ، نحن عندما نُحيي هذه الذكرى نحييها من واقع نحن في أمسّ الحاجة فيه إلَى الاستفادة من الإمام زيدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، من الاستفادة من أعلام الهُدَى ومن رموز الإسْلَام، إلَى الاستفادة من حركة التأريخ كلّه، في ما يزيدُنا وعيًا وبصيرة وهمّة وفهمًا للمسؤوليّة ولما علينا أن نقدّم ويزيدنا عزمًا وصبرًا وثباتًا في مواقفنا»[١].

إنّ ثورة الإمام زيد عَلَيْهِ السَّلَامُ هي مدرسة كبرى مليئة بالدروس والعبر؛ فـ«عندما نستذكر هذه الذكريات المريرة والمؤلمة والمحزنة والمؤسفة والموجعة في تاريخنا لا نستذكرها فقط لنتسربل الأحزان ولنعيش المأساة والحزن من جديد فقط، إنّما نعود إليها باعتبارها مدرسة كبرى نأخذ منها

(١) من كلمة السيّد عبد الملك بدر الدين الحوثي في ذكرى استشهاد الإمام الأعظم زيد بن علي عَلَيْهِ السَّلَامُ ١٤٣٥هـ.

الدروس والعِبَر التي نحن في أمسّ الحاجة إليها في عصرنا هذا في مواجهة كلّ التحدّيات والأخطار التي تعيشها أُمّتنا.

لقد كانت ثورة الإمام الشهيد زيد بن علي عليه السلام امتدادًا لثورة جَدِّه الحسين عليه السلام وامتدادًا لحمل المشروع الرسالي الإلهي الذي بلَّغه خاتم الأنبياء محمّد صلى الله عليه وآله وسلم، وهكذا واصل الإمام زيد عليه السلام ذلك المشروع بروحه ومبادئه ومواقفه وأخلاقه وحمل لواءه في الأمّة مناديًا ليبقى للحقّ صوته وامتداده وليبقى للعدل حَمَلتَه وليبقى للنور الإلهي من يعملون على نشره في الأمّة وليبقى طريق ونهج الإصلاح لواقع الأمّة والتصحيح لمسارها قائمًا وممتدًّا عبر الأجيال، لا يوقفه زمن ولا تقف بوجهه تحدّيات أو أخطار؛ لأنّ له حملةً عظماء حملوا روحيّته، ومبادئه، ونورًا في أرواحهم، وحملوه إيمانًا راسخًا في قلوبهم، وحملوا لواءه ورايته بكلّ ما هناك من تحدّيات وأخطار ونكبات كبيرة ومصائب مؤلمة وجارحة، بثباته بصلابته بوهجه وقوّته كانوا يتحرّكون من عصرٍ إلى عصر من جيلٍ إلى جيل من زمن إلى زمن في مواجهة ألف يزيد وألف هشام من مدرستهم تلك»[1].

«ونحن في هذا العصر الذي عمّ فيه الطغيان على أُمّتنا وشَمَلها بلاء الطغاة وظلمهم وإجرامهم وفسادهم؛ العصر الذي تعيش فيه أُمّتنا أكبر التحدّيات والأخطار والأمم الأخرى تتكالب عليها مستهدفةً لها في دينها ومبادئها وأرضها وعرضها وعزّها وشرفها وكلّ مقوّماتها ومقوّمات وجودها؛ نعود إلى تلك المدرسة إلى مدرسة زيد تلميذ جَدِّه الحسين إلى مدرسة عاشوراء إلى المدرسة المحمّدية الكبرى التي أنجبت أولئك العظماء الذين حملوا راية الحقّ والعدل وضحّوا بأنفسهم وبالغالي والنفيس من أجل إنقاذ الأمّة وإصلاح واقعها من أجل استنقاذها من هيمنة الطغاة والمجرمين والمستبدّين...

(١) من كلمة السيّد عبد الملك بدر الدين الحوثي في ذكرى استشهاد الإمام الأعظم زيد بن علي عليه السلام ١٤٣٤هـ.

نعود إلى تلك المدرسة لنكسب من مجدّها وعزّها لنتعلّم كتلامذة في تلك المدرسة الكبرى لدى أولئك الأساتذة العظماء الأجّلاء. نتعلّم منهم العزّ والثبات واليقين والبصيرة والوعي والإخلاص، نتعلّم منهم الثبات في مواجهة التحدّيات، نتعلّم منهم التضحية من أجل المبادئ العظيمة والسامية، نتعلّم منهم كيف نستمرّ في حمل راية الحقّ والعدل، لا نبالي لا بطغيان طغاة ولا بجبروت ظالمين ومستبدّين. نتعلّم منهم كيف نثبت على المبادئ حتّى لو ارتدّ وتراجع عنها الكثير من الناس، كيف نحمل في قلوبنا ومشاعرنا عزّة الإسلام وكرامته والمبادئ الإلهيّة العظيمة التي بها شرف أمّتنا وتمثّل الأصالة الحقيقيّة للانتماء الصادق إلى الإسلام العظيم وإلى قرآنه ونبيِّه.

نعود إلى الإمام زيد عليه السلام من عصرنا وواقعنا وظروفنا ونحن نعيش كلّ التحدّيات ونرى كلّ المساوئ والظلم والطغيان، ونحن نعيش أبشع عدوان عرفه التاريخ يستهدف ديننا، وعزّتنا، وكرامتنا، وحرِّيتنا، ووجودنا»[١].

ومن الدروس والعبر التي نستفيدها من الثورة المباركة هي:

١- التحرّك الجادّ ضدّ الطغاة والمستكبرين وكسر حالة الجمود والإذعان

«لقد تحرّك الإمام زيد عليه السلام رغم سكوت الآخرين؛ شقّ حالة الصمت وحالة الجمود وحالة الإذعان والاستسلام وتحرّك في وسط جمهور الأمّة ليستنهض الأمّة من جديد مذكّرًا لها بكتاب الله سبحانه وتعالى وبالمبادئ العظيمة؛ يتحرّك لتغيير ذلك الواقع الذي ملأه الظالمون بظلمهم والمفسدون بفسادهم وأفسدوا فيه واقع الأمّة على كلّ المسارات وفي كلّ الاتجاهات والمجالات.

الإمام زيد عليه السلام كان في ذلك الواقع المُتردّي وهو يُقَيِّم واقع الأمّة في ظلّ حكومة جائرة ظالمة مستبدّةٍ تقيم أمرها على الطغيان ولا تقيمه لا على أساس من العدل ولا على أساس من الحقّ ولا على أساس من الخير وليس

---

(١) من كلمة السيّد عبد الملك بدر الدين الحوثي في ذكرى استشهاد الإمام الأعظم زيد بن علي عليهما السلام ١٤٣٤هـ.

لديها مشروع لبناء الأمّة ولا لإصلاح واقع الأمّة ولا لإقامة الدين ولا لصلاح الدنيا.

في ذلك الواقع المُتردِّي الذي لم يبقَ فيه لدى تلك الحكومة الجائرة الظالمة، الدولة الأمويّة المستبدّة أي قيم ولا أخلاق ولا انتماء حقيقي للإسلام حتّى رموزه ومقدَّساته لم يبقَ لديها أيّ قيمة لدى تلك الحكومة الجائرة»[١].

٢- الرحمة للأمّة والتضحية من أجل عزّتها وحريّتها وكرامتها

«تحرك الإمام زيد عَلَيْهِ السَّلَامُ في ذلك الواقع المُتردِّي السيّء الذي عمّ فيه الظلم، والذي تعاني فيه الأمّة من انحطاط في قيمها وأخلاقها ومبادئها، وخطورة كبيرة جدًّا على انتمائها السليم والأصيل للإسلام؛ تحرّك يحمل مشروع الإسلام الذي هو قائم على أساس إقامة العدل والحقّ في الحياة، تحرّك يحمل لواء العدل مناديًا في الأمّة غير آبهٍ بخذلان المتخاذلين ولا بصمت الصامتين ولا بخنوع الخانعين والجامدين، تحرّك من واقع المسؤوليّة وهو يحمل في قلبه الرحمة للأمّة، والحرص على استنقاذها ممّا هي فيه، والحرص على إصلاح واقعها.

وليس هناك أبلغ تعبيرًا عن حبّه لأمّة جدّه من قوله: (والله! لوددت أنّ يدي ملصقة بالثريا فأقع إلى الأرض أو حيث أقع فأتقطّع قطعة قطعة وأنّ الله أصلح بي أمر أمّة محمّد».

هذا الحرص وهذه الرحمة بالناس التي منشؤها أثر الإيمان العظيم أثر الانتماء الأصيل للإسلام بأخلاقه ومبادئه حملها الإمام زيد عَلَيْهِ السَّلَامُ»[٢].

---

(١) من كلمة السيّد عبد الملك بدر الدين الحوثي في ذكرى استشهاد الإمام الأعظم زيد بن علي عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ١٤٣٤هـ

(٢) من كلمة السيّد عبد الملك بدر الدين الحوثي في ذكرى استشهاد الإمام الأعظم زيد بن علي عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ١٤٣٤هـ

٣- استشعار المسؤوليّة والتحرّك الجادّ والفاعل

لقد تحرّك الإمام زيد عَلَيْهِ السَّلَامُ مع قلّة الناصر وقلّة العدد والعدّة كما تحرّك جَدُّه الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ مقتبسًا أثره سالكًا في دربه في ظلّ راية الإسلام ونوره. تحرّك عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو ذلك الذي كان يحمل كلّ الألم وكلّ التوجُّع على أمّة جَدِّه حينما يرى ظلم الظالمين وجور الجائرين ويستشعر مسؤوليّته العالية، والكبيرة تجاه ذلك فيقول: «والله! ما يدعني كتاب الله أن أسكت، والله ما يدعني كتاب الله أن تكفّ يدي».

يتحرّك من واقع الشعور بالمسؤوليّة لا ملتمسًا لشيءٍ من حطام الدنيا ولا هادفًا إلى سلطة ولا إلى مغنم مادّي، تحرّك وهو يحمل عزّة الإيمان ويدرك أنّه في ظلّ واقع كذلك الواقع، والذي هو شبيه بواقع أمّتنا اليوم لا يجوز الجمود ولا السكوت ولا الصمت ولا الإذعان ولا الاستسلام؛ لأنّه لا يؤدّي إلّا إلى المزيد من استحكام الظلم وسيطرة الطغاة وتحكمهم بالواقع يهدمون أخلاق الأمّة ويضيعون مبادئها ويعمونها بالفساد والشرّ والطغيان[١].

٤- تعلّم كيفيّة خلع ثوب الذلّ والخوف

«تحرّك عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو يعرف أنّ الثمن هو التضحية، وأنّه لا بدّ من التضحية في ظلّ واقع كذلك، تحرّك وهو يقول: «ما كره قومٌ قطّ حَرَّ السيوف إلّا ذلُّوا».

تحرّك وهو يدرك أنّه من الواجب على الأمّة أن تخلع عنها ثوب الذلّة، وأن تتحرّك دون أن تأبه لجبروت الظالمين وطغيانهم. لقد كان يدرك بأنّ من أهمّ الركائز التي يتحرّك ويتمكّن من خلالها الطغاة والظالمون في استحكام أمرهم وفي السيطرة واستعباد الأمّة هي الجبروت والبطش والطغيان، والترويع والإخافة واستعمال البطش بقسوة كبيرة وفظاعة ووحشية لا نظير لها، يقتلون ويسجنون ويُدمِّرون ويُخرِّبون ويستبيحون الدماء فيسفكونها بغير حقّ ويزهقون

---

(١) من كلمة السيّد عبد الملك بدر الدين الحوثي في ذكرى استشهاد الإمام الأعظم زيد بن علي عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ١٤٣٤هـ.

الأرواح بغير حقّ، ويحاولون بذلك أن يعمّموا حالة الخوف والفزع والجزع في نفوس الناس حتّى لا يرفع أحدٌ له رأسًا ولا ينطق بكلمة حقّ ولا ينادي بحقّ ولا يعارض باطلًا، هكذا كانوا يعملون.

وهذه الحالة تركت أثرها على الكثير من أبناء الأمّة فكانوا مُكبَّلين بقيود الخوف، لا يجرؤون على اتخاذ موقف أو تحمّل مسؤولياتهم في مواجهة الظلم والطغيان والفساد، والقليل القليل من صفوة الأمّة كانوا متحرّرين من قيود الخوف فوقفوا بصدقٍ وثباتٍ وتضحية وفدائيّة لا نظير لها مع الإمام زيد عليه السلام، وقبله مع الإمام الحسين عليه السلام، وبعدهما مع كلّ الأحرار والعظماء الذين ثاروا وتحرّكوا في الأمّة لإصلاح واقعها وتصحيح مسارها.

كان الإمام زيد عليه السلام يُدرك خطورة الخوف وأثره السيّء في تجميد الأمّة وفي تكبيلها وفي فرض حالة الإذلال عليها. كما ينتج عن الخوف والإذعان لحالة الفزع والجزع من بطش الظالمين وجبروتهم هي الذلّة؛ تُفرض على الأمة حالة الذلّ والهوان والاستسلام والعجز، وإذا ذلَّت الأمّة كان لديها القابليّة أن تُذعن لكلّ ما يعمله الطغاة فلا تقف في وجههم ولا ضدّ طغيانهم لو عملوا ما عملوا، ولو فعلوا ما فعلوا هي الحالة الطبيعة لحالة الذلّ.

ولذلك يقول عليه السلام: «من استأثر حبّ البقاء استدثر الذُّلّ إلى الفناء»، من يصبح كلّ تعلّقه بهذه الحياة والبقاء فيها فهو متشبِّث بالحياة، وخوفه من أن يُقتَل نتيجة بطش الظالمين ويفارق هذه الحياة الفانية والزائلة نتيجة جبروتهم؛ يفرض عليه الواقع هذه الحالة من الذُّل، فهو يتلبس بهم ويتدثّر به ويقع رهينته وأسيره لا يقف موقفًا مُشرِّفًا ولا موقف عزَّة إلى أن يفنى»[1].

---

(١) من كلمة السيّد عبد الملك بدر الدين الحوثي في ذكرى استشهاد الإمام الأعظم زيد بن علي عليهما السلام ١٤٣٤هـ

٥- البصيرة والوعي

نادى الإمام زيد عليه السلام في الأمّة: «البصيرة البصيرة»؛ لأنّ أوّل ما تحتاج إليه الأمّة هو الوعي والبصيرة فلا تُضلَّل ولا تُخادَع ولا يُؤثِّر فيها كلّ مساعي المُضلِّين والمجرمين بكلّ وسائلهم وكلّ إمكانيّاتهم للتضليل والخداع.

٦- عظمة أن ترى نفسك مجاهدًا في سبيل الله

حين وقف الإمام زيد عليه السلام في ساحة الجهاد وقد خفقت فوق رأسه الرايات قال عليه السلام: «الحمد لله الذي أكمل لي ديني، لقد كنت أستحيي من جدّي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن أرد عليه يوم القيامة ولم آمر في أمّته بمعروف ولم أنهَ عن منكر».

هذه النظرة القرآنيّة، الصحيحة والسليمة إلى حقيقة الدين، أنّ الدين بدون الوقوف في وجه الظلم يبقى ناقصًا، والإيمان غير مكتمل؛ لأنّ إقامة العدل هدفٌ أساسيٌ لرسالات الله حيث كان من أهمّ أهدافها إنقاذ البشر وتخليصهم من استعباد الطواغيت وإنقاذهم من سطوة الظالمين وطغيان الطغاة وفساد المفسدين.

ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾[١] فكانت إقامة القسط والعدل في واقع الحياة هدفًا أساسيًّا لرسالات الله سبحانه وتعالى، وإذا لم يبقَ هذا الهدف هدفًا للأمّة ومسعىً عمليًّا لها فإنّ دينها ناقص ولن يتمّ لها أبدًا، يُفرض عليها الباطل وتُضرب في أخلاقها وفي مبادئها وفي قيمها وتهون وتذلّ[٢]».

---

(١) سورة **الحديد**، الآية ٢٥.

(٢) من كلمة السيّد عبد الملك بدر الدين الحوثي في ذكرى استشهاد الإمام الأعظم زيد بن علي عليه السلام ١٤٣٥هـ.

٧- العزّة والحريّة والإباء

«سطّر الإمام زيد عليه السلام لكلّ الأجيال المتعاقبة بالقول والفعل بتضحيته والعطاء بدمه وبروحه وبموقفه درسًا عظيمًا ومهمًّا في المجد وفي الإباء وفي العزّة وفي الحريّة؛ درسًا تحتاجه الأمّة لتستفيد منه روحًا وعزمًا وبصيرة في مواجهة التحدّيات والأخطار في مواجهة قوى الشرّ والإجرام والطغيان إلى يوم القيامة.

لقد كانت ثورة الإمام زيد عليه السلام ثورة في وجه الطغيان؛ الطغيان الأموي الظالم الذي شمل الأمّة الإسلاميّة وعانت منه، والذي استحكمت قبضته آنذاك ليستبدّ وينهب ثروات الأمّة ويعمل على إذلالها وقهرها ويستعبدها ويخضعها ويمارس بحقّها كلّ أصناف الظلم.

كانت ثورته عليه السلام امتدادًا فعليًّا في المبدأ والموقف لثورة جدّه الإمام الحسين عليه السلام، وكانت تعتبر أيضًا امتدادًا حقيقيًّا لمنهج الإسلام العظيم في درب جدّه المصطفى محمّد صلى الله عليه وآله وسلم.

وكانت ثورته عليه السلام تعبيرًا حركيًّا وعمليًّا عن حقيقة مبدأ الإسلام العظيم كمشروع عدالة، وكرامة، وحريّة لبني الإنسان وكانت استجابة فعليّة لتوجيهات الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم وعلى لسان رسوله محمّد صلى الله عليه وآله وسلم»[١].

٨- التضحية لتبقى القيم والمبادئ والأخلاق

إنّ الإمام زيدًا عليه السلام عندما تحرّك في وجه الطغيان الأموي المستحكم الظالم للأمّة، المفسد المضلّ إنّما كان يتحرّك طبقًا لتوجيهات الله، وتعاليم الإسلام ومن خلال تلك المبادئ العظيمة والمهمّة التي تجعل للإسلام قيمته في هذه الحياة إذ ليس مجرّد طقوس مفرغة لا أثر لها ولا قيمة لها في الحياة والواقع.

---

(١) من كلمة السيّد عبد الملك بدر الدين الحوثي في ذكرى استشهاد الإمام الأعظم زيد بن علي عليهما السلام ١٤٣٥هـ.

إنّ الإسلام كما هو دين فيه عبادات روحيّة فإنّه يتضمّن المبادئ العظيمة التي تحقّق للإنسان حريّته، وكرامته، وتكفل للإنسان سعادته، والذين يظلمون ويحسبون ظلمهم على الإسلام ويرتكبون أبشع الجرائم ويفسدون في الأرض ويحسبون كلّ ما عملوه على الإسلام هم يسيئون إلى الإسلام ويقدّمون أكبر الإساءة ويشوّهون عظمة الإسلام وقيمه النبيلة.

كما أنّ من يتصوّرون أنّ الإسلام مجرّد عبادات محدودة روحيّة ليس فيه أيّ شيء يمتّ بصلة إلى كرامة الإنسان وحريّته وسعادته وصلاح الحياة هم أيضًا يحملون نظرة مغلوطة إلى الإسلام وينظرون إليه كشيء لا جدوى منه ولا قيمة له ولا أثر لا في الإنسان ولا في الحياة.

أمّا الحقيقة التي عبّر عنها الإسلام في قرآنه، وعبّر عنها الأنبياء على مدى التاريخ كلّه، وعبّر عنها السائرون في درب الأنبياء من المقتدين بهم والناهجين نهجهم والمهتدين بهم؛ فإنّ من أساس رسالات الله سبحانه وتعالى هو إقامة العدل والإصلاح؛ إصلاح الإنسان لنفسه، في تزكيتها، في أن يحمل القيم والأخلاق العظيمة في إصلاح ممارساته في تقديم المشروع الصحيح الذي يحقّق من خلاله العدل والارتقاء وفي دوره في هذه الحياة كإنسان.

٩- الارتباط الوثيق بالله والخشية منه والثقة به والحبّ له وتقواه

نتعلّم من الإمام زيد عليه السلام كيف نكون عظيمي الثقة بالله والخشية منه، حيث عُرف عليه السلام بأنّه كان عظيم الخشية من الله، فكان حينما يقرأ بعضًا من آيات **القرآن الكريم** ويتأمّلها يُغمى عليه، وعرف أيضًا بهذا الأثر الإيماني في علاقته المتميّزة بالله، في أخلاقه وقِيَمِه، في المسؤوليّة ومواجهة الجائرين، فعلى مستوى الالتزام والتقوى هو القائل عليه السلام: «والله ما كذبت كِذْبة منذ عرفت يميني من شمالي، وما انتهكتُ لله محرّمًا منذ عرفت أنّ الله يعاقب عليه». فكان عليه السلام على هذا المستوى العالي من الالتزام والتقوى، هو أيضًا القائل: «والله لو علمتُ أنّ رضى الله عزّ وجلّ في أن أقدح نارًا بيدي حتّى إذا اضطرمت رميتُ بنفسي فيها لفعلتُ»، يعني لو كان ذلك منّي يرضي الله

لفعلته، هكذا كان في انشداده إلى الله، في تقواه وذوبانه وطاعة الله سبحانه وتعالى.

أمّا مواقفه التي تدلُّ على ثقته العالية بالله، فعندما نرى موقفًا واحدًا من مواقفه كم يحمل من دلالات واضحة ومتعدّدة على ثقته بالله وإجلاله له وارتباطه به سبحانه وتعالى واحتقاره للطغاة والمتجبِّرين المنحرفين عن منهج الله سبحانه وتعالى، فله تلك الوقفة في مواجهة هشام بن عبد الملك الحاكم الأموي الجائر الظالم المفسد وغيره.

١٠- الثبات وعدم التراجع

لقد تحرّك الإمام زيد عليه السلام بثبات، وحين رأى تخاذل أهل الكُوفَة من جديد كما تخاذلوا مع جَدِّه الحسين عليه السلام عزم على مواصلة الطريق والثبات فلم يتراجع إلى الوراء قيد أنملة وأصرّ على أن يكمل طريقه حتّى لو لم يكن معه إلّا ابنه يحيى بن زيد عليه السلام.

وخاض ملحمته الكبرى ومعركته الشهيرة في مواجهة المجرمين والطغاة بكلّ وحشيّتهم وجبروتهم وطغيانهم، وأُصيب بالسهم الغادر القاتل في جبهته الشريفة، وفارق الحياة بشعور الشهادة عاشها قبله جَدُّه الإمام علي عليه السلام حينما قال: «فزت ورب الكعبة» مطمئنًا على الطريق الذي هو فيه وإلى مآله وإلى مساره وإلى نتيجته وعاقبته.

وكما كان للظلم والجور والطغيان امتداد في أمّتنا من تاريخها الغابر إلى حاضرها المعاصر، في المقابل كان أيضًا هناك امتدادٌ لصوت الحقّ، وللقائمين بالعدل عبر التاريخ وسيبقى هذا الامتداد إلى قيام الساعة[1].

---

(١) من كلمة السيّد عبد الملك بدر الدين الحوثي في ذكرى استشهاد الإمام الأعظم زيد بن علي عليه السلام ١٤٣٥هـ.

خاتمة

لقد عانت الأُمَّةُ من التسلُّط الأموي الذي استفاد من موقعه في السلطة وكان وصولُه كارثةً كبيرةً على الأُمَّة في كُلّ شيء في دينها ودنياها؛ في حاضرها ومستقبلها، حاضرها آنذاك ومستقبلها الممتدّ عبر التأريخ وعبر الأجيال.

كان التسلُّطُ الأموي يشكِّلُ خطورةً كبيرةً جدًّا على الأُمَّة؛ لأنّه يتناقَضُ في أهدافه، وفي سلوكه، وفي ممارساته، مع كُلّ مبادئ هذه الأُمَّة مع مشروعها الأساس الذي من المفترَضِ أن تُبنى عليه في نظام أمرها، في السلطة، في الحكم، في شأنها الاجتماعي، في شأنها السياسي، في واقعها الأَخْلَاقي، في دورها الحضاري، في كُلِّ ما يتّصل بها، إن هذه الأُمَّة هي أمّة الإسْلَام، هي أمّة محمّد، هي أمّة القرآن.

ومن المفترض وما هو طبيعي في حقّنا أن يُبنى واقعُها سياسيًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا، وأن يحدّدَ دورها حضاريًّا طبقًا لذلك، طبقًا للمبادئ، والتعاليم، والأَخْلَاق، والقيم التي أتى بها هذا الإسْلَام، التي تضمّنها القرآن، التي بلّغها وأقامها وسعى لإحيائها رسول الله محمّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وهي المبادئ العظيمة، السامية، الكريمة، التي أرادها اللهُ لعباده، والتي هي متطابقةٌ مع الفطرة الإنسانيّة، ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾[1].

---

(١) من كلمة السيّد عبد الملك بدر الدين الحوثي في ذكرى استشهاد الإمام الأعظم زيد بن علي عَلَيْهِ السَّلَامُ ١٤٣٥هـ.

للإسْلَام مشروع سموّ، مشروع أَخْلَاق، مشروع كرامة، مشروع عدالة، ولكن لا أبقى الأمويّون في الأُمَّة كرامة، ولا أبقوا لها عزّة، ولا أبقوا لها سموًّا، وكان أداؤهم وممارساتهم الظالمة إنّما هي على النقيض من مبادئ هذا الإسْلَام وجوهره مع استغلالهم لما بقي من شكليّات لم يروا فيها أنّها تؤثّرُ عليهم وإنّما رأوا فيها أنّهم احتووها فصارت ضمن وسائلهم وأدواتهم التي يستغلّونها في التحكّم بالأمّة والسيطرة عليها.

إنّ مظلوميّة أهل البيت عَلَيْهِمْ السَّلَامْ في التأريخ لم تكن أبدًا لشأنٍ يخُصُّهم، ولا لأمرٍ لا يتجاوزهم؛ إنّما كانت مظلوميّة الأُمَّة كلّها، لم يكن لهم ولا لأنصارهم، ولا لمَن تحَرّك معهم في أوساط الأُمَّة، أيُّ شأن خاصّ أَوْ مكاسب أَوْ أطماع شخصيّة، أَوْ نَزَعَات لاعتبارات محدودة، لا، التسلّط الأموي استهدف الأُمَّةَ منذ يومه الأوّل، واستهدفها في المبادئ؛ لأنّه كان يرى أنّه لا يستطيع أن يتحكّمَ بالأمة، أو أن يسيطر عليها، إلّا بعد أن يهدمَ فيها المبادئ والقيمَ والأَخْلاق والوعي وأن يُخرجَهَا من النور الذي أتى به رسولُ الله محمّدٌ، وقدّمه من خلال كتاب الله الكريم، أن يُخرِجَها من ذلك النور إلَى الظلمات المتراكمة ظلمات التضليل وظلمات الإفساد»[١].

لقد قدّم الرسولُ الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمْ إنذارًا مبكرًا بخطورة هذا التسلّط الأموي وبهذا الدور الهدّام لبني أميّة.

«الرسولُ رأى في منامه يومًا ما أنّ بني أميّة ينزون على منبره الشريف نَزْوَ القردة، فأزعجه ذلك جدًّا، وعرَفَ بما عرّفه اللهُ، بما أخبره الله بوحيه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أنّهم سيتمكّنون يومًا من الوصول إلَى التحكّم بمقاليد أمر الأُمَّة، وأنّهم سيصلون يومًا ما إلَى موقع السلطة وموقع القرار في هذه الأُمَّة ومن ثمّ ستكون ممارساتهم، وسياساتهم، وتوجُّهاتهم، وأسلوبهم في الحكم وتصرّفاتهم كلّها خارجةً وشاذّةً عن النهج الإسْلَامي وعن النهج الفطري، عن الفطرة الإنسانيّة؛ لأنّها ستقوم على الظلم والتسلّط والاستهتار واللامبالاة.

(١) المصدر نفسه.

الرسولُ كان أخبَرَ عنهم أنّهم في المرحلة التي يتحكّمون بها، سيكون برنامجهم في الأُمَّة هو البرنامج الشيطاني والبرنامج النفاقي، وقال عنهم وهو يصف الحالة التي إن وصلوا إليها ماذا سيعملون (اتخذوا دينَ الله دَغَلًا، وعبادَه خَوَلًا، ومالَهُ دُوَلًا).

كلماتٌ جامعة، معَبِّرةٌ، مهمّة، تستحقّ التأمّل، والترديد، والتذكار، كلماتٌ من تأمّلها يدرك من خلالها الخطورة الرهيبة القصوى لذلك الدور الهدّام جدًّا، والهدام إلَى أسوأ ما يمكن أن نتصوّر، دينُ الله الذي هو نور يُخرِجُ الناسَ من الظلمات الذي هو بصائر ووعيٌ الذي هو السموّ للإنسان، والسبيلُ لترشيد هذا الإنسان ليكونَ إنسانًا واعيًا، فاهمًا، تصوُّراته ومفاهيمه، وأفكاره نقيّة سليمة، لا تشوبها الخرافة، ولا الأباطيل، ولا الظلام والضلال.

دينُ الله الذي هو زكاءٌ وتطهيرٌ لنفسيّة الإنسان، فتسمو نفسَه، وتزكو ويطهُر قلبه، فيحمل كُلَّ مشاعر الخير، وكلّ الإحساس الإنساني، وكلّ الوجدان الخيري، حتّى يتأصَّلَ في تفكيره وفي وجدانه وفي نفسيّته الخيرُ كُلّ الخير. الدينُ الذي بتعاليمه ومنهجه ونظامه يرمي إلَى إحقاق الحقّ وإقامة العدل في الحياة، والسموّ بهذا الإنسان لاستنقاذه من الضياع في هذه الحياة كالحيوانات والأنعام بلا هدفٍ سام، بلا مشروعٍ عظيم ومقدِّس يليق به وبالكرامة التي كرّمه الله بها، والدور الذي أراده اللهُ له.

استقرئوا بعضًا ممّا حدث في التأريخ على أيديهم، كيف استهتروا بالإسْلَام جُملةً وتفصيلًا، كيف استهانوا في هذا الإسْلَام بكلّ شيء، بالإنسان، ثمّ بالمقدّسات، كانوا يستهترون حتّى بالرسول ورسالته، كان قائلُهم من كرسيّ السلطة وهو يتربَّعُ على موقع المسؤوليّة يستهترُ برسولِ الله ورسالته بشكل عامّ، فيأتي ليقول:

لَعِبَتْ هَاشِمُ بالمُلْكِ فَلَا خَبَرٌ جاء ولا وَحْيٌ نَزَل

هكذا إنكار بالكامل للرسالة الإسْلَاميّة.

يأتي الخطيبُ من وُلاتهم في مكّة ليناديَ في أوساط الحجّاج: أيّها الناس، إنّ خليفتَكم أفضلُ من رسولكم، إنّ خليفةَ الله أفضلُ من رسول الله. ليقولَ لهم بكلّ وقاحة إنّ زعيمه الفاجر، الفاسق، الظالم، الباغي، الجاهل، المتوحّش، المنسلخ من كُلّ القيم والأَخْلَاق أفضلُ من رسول الله محمّد ﷺ.

تذهب جيوشُهم إلَى مكّة المكرمة فتستبيحها وتستبيح قداستها، يستهدفون الكعبة المشرّفة بنفسها، يرمونها بالمنجنيق، يحرقونها مرّة، ويهدمونها تارة أخرى بلا مبالاة.

اليوم ألا يحصل هذا، بل وأكثر وأكبر ما يمكن أن نتخوّفه على مقدّساتنا أن تستهدف الكعبة، سواء من الإسرائيليّين أَوْ من الأمريكيّين باعتبارها من أولى المقدّسات الإسْلَامية، أولئك فعلوا ذلك، لم يرعوا حُرمةَ هذا المقدَّس أبدًا.

يستهدفون المدينة المنوّرة، مدينة رسول الله ﷺ، يستهدفون حَرَمَه الشريف وأبناء المدينة من المهاجرين والأنصار، لا احترام لا للمدينة ولا لمسجد رسول الله ولا لسُكّانها من المهاجرين والأنصار وذراريهم، استهدفوا الجميع، قتلوا الكثير من أصحاب رسول الله ﷺ، حتّى أنّه بعد وقعة الحَرَّة يقول المؤرّخون: لم يبقَ بدريّ بعدها، يعني أنّ كُلَّ الذين كانوا باقين في ذلك الزمن وامتدّت بهم الحياةُ إلَى تلك الواقعة ممّن شهدوا غزوة بدر مع رسولِ الله محمّدٍ ﷺ، الواقعة التي مثّلت ضربةً كبيرةً لأعداء الإسْلَام، أولئك الذين كانوا يحملون نزعةَ الثأر والانتقام ممّا حدث فيها من رسول الله ﷺ ومن أهل بيته، ومن أنصاره، من أصحابه من المهاجرين والأنصار،، الانتقام للمشركين والكافرين المعتدين، وكانوا متوثّبين على الدوام ليومٍ من الأيّام ينتقمون فيه.

هكذا كانوا بهذه النفسيّة، بهذا الحقد، بهذا العداء، واستباحوا المدينة، قتلوا الصحابة وأولادهم وذريّتهم، وفي نفس الوقت استباحوا

الأعراض، اغتصبوا النساء ونهبوا الممتلكات، ذهب الكثير من أبناء المدينة، البعضُ منهم هربوا إلَى قبر رسول الله يلوذون به وكانوا يتوقّعون أنّه سيبقى لدى الجيش الأموي ولو القليلُ من الاحترام لرسول الله ولحُرمة رسول الله ولحرمة مسجده وقبره، فما الذي فعل جنودُ بني أميّة، لحقوا بأُولئك وقتلوهم على قبر رسول الله، قتلوا عددًا كبيرًا على القبر حتّى أغرقوه بالدماء، وكانوا وحشيّين لدرجة عجيبةٍ جدًّا، يروي التأريخ فظائعَ رهيبةً حدثت منهم وعلى أيديهم عندما دخلوا المدينة.

لقد حكى التأريخ أنّ البعضَ منهم كان الطفل الرضيع وهو في صدر أمّه تحضنُه فيأخذه برجليه من صدرها ثمّ يضربُ به عرض الحائط فينثر دماغَه إلَى الأرض بلا مبالاة وبكلّ استهتار، انظروا أيّ وحشيّة هذه، هذا هو النموذج الذي صنعه بنو أميّة محسوبًا على الإسْلَام يحمل كُلّ هذا التوحُّش يتجرَّدُ من الأَخْلَاق، يتجرّد الإنسانُ من إنسانيّته بالكامل، ما بالُك بالإسْلَام الذي ينمّي ما هو مفطورٌ بالإسْلَام من فطرة الله تعالى.

هذه الصنيعةُ التي صنعها بنو أميّة في الأُمَّة امتدّت عبرَ الأجيال وعلى الدوام وفي كُلّ مراحل الأُمَّة، كان هذا النوع موجودًا ومحسوبًا على الإسْلَام، بل يدّعي أنّه هو وحدَه الإسْلَام، والذي يمثّلُه، ثمّ ينبز بقيّة أبناء الأمّة بالكثير من الأنباز والألقاب السيّئة التي يستبيحُ بها دماءَهم وأعراضَهم وحياتهم.

و«التولّي للإمام زيد عليه السلام ليس انتماءً مذهبيًّا ولا كلامًا يتكلّم به الإنسان وانتهى الأمر. لا، التولّي سير في الطريق، تحركٌ في الصراط المستقيم، التزام بالرسالة الإلهيّة في مضامينها ومبادئها وقِيَمها، وأخلاقها، هذا هو التولّي الحقيقي.

ولذلك نحن في منطلقنا في هذه المسيرة ننطلق على هذا الأساس بالروحيّة التي كان يحملها الإمام زيد عليه السلام مقتبسين من ذلك النور وسائرين في تلك الطريق؛ طريق الجهاد والاستشهاد. هذه المسيرة التي كانت ولا زالت وستظلّ تقدّم قوافل الشهداء من شبابها الأعزّاء ورجالها الأبطال في

ميادين الجهاد. تنطلق من هذه المبادئ الراسخة من مدرسة الإمام زيد بن علي من مدرسة الإسلام، من مدرسة القرآن، من روحيّة الأنبياء تقتبس وتأخذ، وبنورهم تستضيئ وتستبصر، ومن عزيمتهم تأخذ وتنطلق وتندفع على ذلك الأساس؛ لأنّ هذا هو الطريق الصحيح، والصراط المستقيم؛ طريق العزّة وطريق الكرامة».

كما نورد بعض ما قيل في رثاء الإمام زيد بن علي عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ومن أبلغ ما ورد في رثاء الإمام زيد بن علي عَلَيْهِ السَّلَامُ قول أمير شعراء اليمن الحسن بن جابر الهبل (رضوان الله عليه):

عُجْ بالكُناسةِ[1] باكيًا لمصارعٍ ... غُرٍّ تذوبُ لها النفوسُ تحسّرا
مهما نسيتُ فلستُ أنسى مَصْرَعًا ... لأبي الحسينِ الدَّهرَ حتى أُقْبَرا
ما زلتُ أسألُ كلَّ غادٍ رائحٍ ... عنْ قبرِهِ لم ألقَ عنهُ مخبِّرا
بأبي وبي بلْ بالخلائِقِ كلِّها ... مَنْ لا له قبرٌ يُزارُ ولا يُرَى
مَنْ لو يُوازَنُ فضلُه يومًا بفَضْـ ... ـلِ الخلقِ كانَ أتَمّ منه وأوفرا
مَنْ قامَ للرَّحمنِ ينصرُ دينَهُ ... ويحوطُهُ مِنْ أن يُضَامَ[2] ويُقْهَرا
مَنْ نابذَ الطاغي اللعينَ وقادَها ... لقتالِهِ شُعْثَ النَّواصي ضُمَّرا
مَنْ باعَ منْ ربِّ البريةِ نفسَهُ ... يا نِعْمَ بائِعُها ونعمَ مَنِ اشترى
مَنْ قامَ شاهرَ سيفِهِ في عُصْبةٍ ... زيديّةٍ يقفو[3] السبيلَ الأنورا
مَنْ لا يسامي كلُّ فضلٍ فَضْلَهُ ... مَنْ لا يُدانَى قَدْرُه أنْ يُقْدَرا

(١) الكُنَاسَةُ: (كُنَاسةُ كُوفانَ): وهي موضعٌ بالكوفةِ التي تقع ناحية الجنوب من كربلاء في العراق، قُتِلَ بها الإمامُ زيدُ بن عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ.
(٢) الضَّيْمُ: الظلمُ أو الإذلالُ ونحوُهما.
(٣) يقفو: يَتَتَبَّعُ الأَثر.

مَنْ جاءَ في الأخبارِ طيبُ ثنائهِ عنْ جدِّهِ خيرِ الأنامِ مُكَرَّرا[١]
من قالَ فيهِ كقولهِ في جدِّه أعني عليًّا خيرَ مَنْ وَطِىءَ الثَّرَى
مِنْ أنَّ محضَ الحقِّ معهُ لم يكُنْ متقدِّمًا عنه ولا متأخِّرا[٢]
هو صفوةُ اللهِ الذي نَعَشَ الْهدَى وحبيبُهُ بالنصِّ مِنْ خيرِ الورى
ومُزَلْزِلُ السَّبعِ الطباقِ إذا دَهَى[٣] ومزعزعُ الشُّمِّ الشوامخِ إنْ قَرا[٤]
كلٌّ يُقَصِّرُ عن مدى ميدانه وهو المُجَلِّي[٥] في الكرامِ بلا مِرَا
باللهِ أَحلِفُ أنّه لأجلُّ مَنْ بعدَ الوصيِّ سِوى شَبيرَ وشَبَّرا
قد فاقَ سادةَ بيتهِ بمكارمٍ غرَّاءَ جَلَّتْ أن تُعَدَّ وتُحْصَرا[٦]
بسماحةٍ نبويةٍ قدْ أخْجَلَتْ بنوالِها حتى الغمامَ الممطِرا
وشجاعةٍ علويَّةٍ قدْ أَخْرَسَتْ ليثَ الشَّرى في غابِهِ أنْ يزأرا
ما زالَ مُذْ عَقَدتْ يداه إزارَهُ لم يَدْرِ كذْبًا في المقالِ ولا افْتِرا
لَـمَّا تكامَلَ فيهِ كلُّ فضيلةٍ وسرَى بأفقِ المجدِ بدرًا نيَّرا

---

(١) جاء في الحديث المرفوع: خيرُ الأولين والآخرين المقتولُ في اللهِ، المصلوبُ في أمتي، المظلومُ من أهلِ بيتي سَمِيُّ هذا، ثم ضمَّ زيدَ بنَ حارثة إليه، ثم قال: يا زيدُ لقد زادك اسمك عندي حبًّا، سمي الحبيب من أهل بيتي.

(٢) ممّا روي في ذلك ما رواه المرشد بالله عليه السلام وغيره عن أنس قال: قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: يُقتل من ولدي رجلٌ يُدْعَى زيدًا بموضع يُعرَفُ بالكُنَاسةِ، يدعو إلى الحق، يتبعه عليه كل مؤمن.

(٣) دهى يَدْهُو دَهاءً: ورجل داهية: بصير بالأمور.

(٤) وقد أُطلِقَ على الإمامِ زيد عليه السلام اسم حليف القرآن، لأنّه خلا به متدبرًا آياته مدة ١٣ عامًا.

(٥) يقال للسابق الأوّل من الخيل المُجَلِّي.

(٦) راجعْ أقوال (أبي حنيفة النعمان) و(الإمام الباقر) و(خالد بن صفوان المنقري) وغيرهم في الإمام زيد عليه السلام في: المحلّي، **الحدائق الورديّة في مناقب أئمّة الزيديّة**، وغيرها.

ورأى الضَّلالَ وقد طغَى طوفانُهُ[١] والحقّ قد ولَّى هُنالك مُدْبِرَا
سلَّ السيوفَ البِيضَ من عزماتِهِ[٢] ليؤيِّدَ الدينَ الحنيفَ ويَنْصُرَا[٣]
وسرَى على نُجب الشهادةِ قاصِدًا دارَ البقا يا قربَ ما حَمِدَ السُّرَى
وغدا وقد عقَدَ اللِّوا مُسْتَغْفِرًا تحتَ اللِّوا ومُهَلِّلًا ومُكَبِّرا
للهِ يحمدُ حينَ أكملَ دينَهُ وأنالَه الفضلَ الجزيلَ الأوفرا[٤]
يُؤْلي أَلِيَّةَ[٥] صادقٍ لو لم يكنْ لي غيرُ يحيى ابْني نصيرًا في الورى[٦]
لم أثنِ عزمي أو يعودَ بيَ الهدى لا أَمْتَ فيه[٧] أو أموتَ فأُعْذَرا
ما سَرَّني أنّي لقيتُ محمَّدًا لم أُحْيِ معروفًا وأنكِرْ منكرا
فأتوا إليهِ بالصَّواهِل شُزَّبًا وبِيَعْمُلاتِ العِيسِ تَنْفخُ في البُرَى[٨]
وبكلِّ أبيضَ باترٍ وبكلِّ أزْ رقَ نافذٍ وبكلِّ لَدْنٍ أسمرا[٩]
فغدَتْ وراحتْ فيهمُ حملاتُهُ وسقاهُمُ كأسَ المنيّةِ أحمرَا

(١) كانت الدولة الأمويّة في عهد هشام بن عبد الملك تتجاوز حدود الله، وتظلم الناس، وتنشر الضلال.

(٢) انطلقت ثورته عليه السلام ضدّ الظلم عام ١٢٢هـ.

(٣) قال الإمام زيد عليه السلام في إحدى خطبه: عبادَ الله لا تقاتلوا عدوّكم على الشكّ فتضلّوا عن سبيل الله، ولكنّ البصيرة ثمّ القتال. انظر: المحلّي، **الحدائق الورديّة في مناقب أئمّة الزيديّة**، الجزء ١، الصفحة ٢٤٩.

(٤) قال في: الهاروني، **الإفادة في تاريخ أئمّة السادة**، الصفحة ٤٧: لما خفقت الرايات فوق رأسه قال: (الحمد لله الذي أكمل ديني، لقد كنت أستحيي من رسول الله ﷺ أن أَرِدَ عليه ولم آمر في أمته بمعروف ولم أنه عن منكر).

(٥) يولي: يحلف، والألية: القسم.

(٦) تفرَّقَ أهلُ الكوفة عنه بعد أن اشتمل ديوانه عليه السلام على بيعة ١٥ ألفًا منهم.

(٧) لا أمت فيه: لا عوج.

(٨) الصواهلُ: الخيلُ، والشزَّبُ: صفةٌ لها وهي الضامرةُ المعدَّةُ للحربِ والقتالِ. واليعملات: هما الجمل والناقة المطبوعان على العمل، والبُرى: جمع برة كل حلقة من سوار في أنف الناقة، والبرى أيضًا: التراب.

(٩) الأبيضُ: السيف. والأزرق: النَّصْلُ، وهو حديدةُ السَّهْمِ والرُّمْحِ والسيفِ ما لم يكنْ له مَقْبِضٌ. واللَّدْنُ: الرمح.

حتّى لقد جَبُنَ المشجِّعُ مِنْهُمْ وانْصَاعَ ليثُهُمُ الهصورُ مُقَهْقِرا
فهناكَ فـوَّقَ[١] كافِرٌ مِنْ بينِهِمْ سهمًا فشقَّ به الجبينَ الأزهـرا
تـركـوه مُـنْـعَـفِـرَ الجبيـنِ وإنّما تركوا به الدِّينَ الحنيفَ مُعَفَّرا[٢]
عَجَبًا لهمْ وهُـمُ الثعالبُ ذلَّـةً كيفَ اغتدى جَزْرًا لهم أسَدُ الشَّرى؟
صلبوهُ ظُلمًا بالعراءِ مجرَّدًا عن بُـرْدِهِ وحمَوْهُ مِنْ أن يُستَرا
حتى إذا تركوه عُرْيَانًا علَى جـذعٍ عـتـوًّا مـنـهـمُ وتـجـبُّـرا
نسجَتْ عليهِ العنكبوتُ خيوطَها ضَنًّا[٣] بِعَوْرتهِ المصونةِ أن تُرى
ولـجِـدِّهِ نسجَتْ قديمًا إنها لَـيَـدٌ يحقُّ لمثلِها أن تُشْكَرا
وَنَـعَـتْـهُ أطيارُ السماءِ بواكيًا لَمَّا رَأَتْ أمرًا فظيعًا مُنْكَرا[٤]
أكذَا حَبِيبُ الله يا أهلَ الشَّقَا وحبيبُ خيرِ الرسْلِ يُنْبَذُ بالعَرَا؟!
يا قُربَ ما اقْتَصيَّتْمُ مِنْ جدِّهِ وذكـرتُـمُ بَـدْرًا عـليـهِ وخـيـبـرا
أمَّا عليكَ أبا الحسينِ فلَمْ يزلْ حُزني جديدَ الثّوبِ حتّى أُقْبَرا
لم يَبْقَ لي بعدَ التجلُّدِ والأسى إلا فـنـائي حـسـرةً وتـفـكُّـرا
يا عُظْمَ ما نالَتهُ مِنكَ مَعَاشِرٌ سُحْقًا لهم بينَ البريَّةِ معشرا
قـادوا إليـكَ الـمُـضْـمَراتِ كأنَّما يغزونَ كِسْرى . وَيْلَهُمْ . أو قيصرا
يا لَوْ دَرَتْ مَنْ ذا له قِيدَتْ لَمَا عَقَدَتْ سنابكُها عليها عِثْيَرا[٥]

---

(١) فَوَّقَ السَّهْمَ: حَرَّكَه.

(٢) كان استشهاد الإمام عليه السلام ليلة الجمعة لخمس بقين من المحرم سنة ١٢٢هـ على أصح الأقوال.

(٣) ضَنًّا: بُخْلًا، والضنين: الشديد البخل.

(٤) راجع عن نعي الأطيار (حُميد الشهيد المحلي) في: المحلّي، **الحدائق الورديّة في مناقب أئمّة الزيديّة**، والمرشد بالله في الأمالي الاثنينية.

(٥) العِثْيَرُ: بكسر فسكون ففتح: التُّرابُ.

حتىّ إذا جرَّعْتَهم كأسَ الرَّدى قتلًا وأفْنَيتَ العديدَ الأكثرا[١]
بعثَ (الرماةُ) إليكَ سهمًا نافذًا مَن راشَهُ شُلَّتْ يداهُ ومَن بَرى[٢]
يا ليتني كنتُ الفِداءَ وإنَّهُ لم يجرِ فيكَ من الأعادي ما جرى
باعوا بقتلِكَ دينَهم تبًّا لَهُمْ يا صفقَةً في دِينهم ما أَخْسَرا
نَصبوك مَصْلوبًا على الجذع الّذي لَوْ كان يدْري مَنْ عليه تَكَسَّرا
واسْتَنزلوكَ وأضرموا نيرانَهُمْ كيْ يُحرِقوا الجسْمَ المصونَ الأَطْهرا[٣]
فَرمَوْكَ في النِّيرانِ بُغْضًا مِنهمُ لِمُحمَّدٍ وكراهةً أن تُقْبَرا
ولكادَ يُخفيك الدُّجى لو لم يَصِرْ بجبينِك الميمونِ صُبحًا مُسْفِرا
ووَشَى بتُرْبتِك التي شَرُفَتْ شذىً لولاهُ ما علمَ العدوُّ ولا درى
طيبٌ سَرَى لكَ زائرًا من طَيْبةٍ ومن الغَرِيِّ يُخَالُ مِسكًا أَذْفرا[٤]
وذروا رمادَكَ في الفراتِ ضلالةً أتُرَى دَرَى ذاري رمادِك ما ذَرا[٥]؟

(١) كان الإمام زيد عليه السلام قد حقّق انتصارات كبيرة على الجيوش الأمويّة، من تلك الانتصارات هزيمته للريّان بن سلمة البلوي صاحب خيل يوسف بن عمر بعثه في نحو من ألفي فارس وثلاثمئة رجّالة لمقاتلة الإمام زيد إلى دار الرزق، فمني بالهزيمة. انظر: المحلّي، **الحدائق الورديّة في مناقب أئمّة الزيديّة**، الجزء ١، الصفحة ٢٥٨، والأمالي الاثنينية، والمقاتل.

(٢) راش السهمَ: ألزقَ عليه الريش، وبَرَى السهمَ: نَحَتَهُ.

(٣) وليّ الخلافة الوليد بن يزيد بعد موت عمه هشام بن عبد الملك، وهو الذي أمر بتحريق الإمام زيد بعد أن مكث مصلوبًا بالكناسة أكثر من سنتين.

(٤) المسك الأذفر: الظاهر الشديد الرائحة.

(٥) كثرت كراماته عليه السلام، قال في: المؤيّدي، **التحف شرح الزلف**، الصفحة ٧٥: ومنها أنها لما كثرت الآيات في حال صلبه أحرقوه وذروه في البحر فاجتمع في ذلك الموضع كهيئة الهلال، قال الديلمي صاحب القواعد: قد رأيناه، ويراه الصديق والعدو بلا منازع. ومن كراماته ما جرى مع محمد بن صفوان الجمحي حين قام على منبر مدينة الرسول الأعظم يلعن الإمام زيدًا وأهل بيته، حيث رماه الله في رأسه بصدع ذهب معه بصره في تلك الساعة. المحلّي، **الحدائق الورديّة في مناقب أئمّة الزيديّة**، الجزء ١، الصفحة ٢٦٢.

هيهاتَ بلْ جَهِلُوا لطيبِ أريجهِ أَرَمَادَ جسمِكَ ما ذَرَوْا أم عَنْبَرا؟
سعدَ الفراتُ بقرْبهِ فَلوِ انَّه ملحٌ أُجاجٌ عادَ عذبًا كوثرا
هذا جزاءُ أبيكَ أحمدَ مِنهمُ إذ قامَ فيهمْ مُنْذِرًا ومُبشِّرا
وجزاءُ نُصْحِكَ حينَ قمتَ بأمرهِ وسريتَ بدرًا في الظلامِ كما سرى
فاسعدْ لدى رضوانَ بالرضوانِ مِنْ ربِّ السماءِ فما أحقَّ وأجدرا
يهنيكَ قدْ جاورتَ جدَّكَ أحمدًا وأنالكَ اللهُ الجزاءَ الأوفرا
أَهْوِنْ بهذي الدارِ في جنبِ التي أصبحتَ فيها للنعيمِ مُخَيَّرا
لو كانَ للدنيا لدى خَلَّاقِهَا قَدْرٌ لَخَوَّلَكَ النصيبَ الأوفرا
بلْ كنتَ عندَ اللهِ جلَّ جلالُهُ مِنْ أنْ يُنِيلَكَهَا أَجَلَّ وأخطرا
يا ليتَ شِعْرِي هلْ أكونُ مجاورًا لكَ أمْ تردُّنيَ الذنوبُ إلى الورا؟
أَأُذَادُ عنكمْ في غدٍ وأنا الذي لي في ودادِكَ ذمةٌ لن تُخْفَرا؟
قل ذا الفتى حَضرَ اللقا معنا وإنْ أبطا بهِ عنَّا الزمانُ وأخَّرا
يا خيرَ مَنْ بقيامهِ ظَهرَ الهُدى في الأرضِ وانهزمَ الضلالُ وقهقرا
عُذْرًا إذا قصُرَتْ لديكَ مدائحي فيحقُّ لي. يا سيدي. أنْ أُعْذَرا
لم أجْرِ في مدحيكَ طِرْفَ عبارةٍ إلا كَبَا مِنْ عَجْزِهِ وتَقَطَّرا[1]
أَتَخالُني لِمَدَى جلالِكَ بالغًا اللهُ أكبرُ ما أجلَّ وأكبرا
ماذا الذي المعصومُ دونَك حازَهُ إذ لم تزلْ مما يشينُ مُطَهَّرا
صلّى عليكَ اللهُ بعدَ محمدٍ ما سارَ ذكرُكَ مُنجِدًا أو مُغْوِرا
والآلِ ما حيَّا الصَّبا زَهْرَ الرُّبَا سَحَرًا وَعَطَّرَ طِيبُ ذِكْرِكَ مِنبَرا

---

(١) الطِّرْفُ - بكسر الطاء: الأصيلُ من الخيلِ، وطِرْفُ عبارةٍ مجاز. وكَبَا: سقط. وتَقَطَّر: رَمَى بنفسه من عُلُوٍّ.

الفصل السابع: في رحاب الإمام يحيى الهادي عليه السلام

توطئة

قد يجد الإنسان صعوبةً في الحديث عن الإمام الهادي عليه السلام، في مثل هذا الفصل المختصر، لما له من تأثير كبير ليس على مستوى الشعب اليمني فحسب وإنّما على مستوى العالم الإسلامي، خاصةً إذ كانت حياته مليئة بالجهاد والتضحية - وهو بعد لم يبلغ الحلم - بالكلمة تارةً وبالسيف والقتال تارةً أخرى؛ حتّى ختم حياته بالشهادة في سبيل الله سائرًا على نهج آبائه الطاهرين.

إنّه شخصيّة جديرة بأن يكتب عنها كلّ من لديه القدرة على ذلك، وخاصّة من اليمنيّين، لما له من أياد بيضاء عليهم، والتي منها إقامة الحقّ والعدل في ربوع اليمن، وإصلاح فاسدهم، وردّ شاردهم، وإصلاح ذات بينهم، ورفع محن البلوى عنهم، بعد أن كانت قد أرهقتهم بليَّة الفرقة وأنهكتهم محنة الشحناء والشتات والتباغض والتنافر، وبعد أن عصفت بهم فتنة القرامطة وزعيمهم (علي بن الفضل) الذي ادَّعى النبوّة، وأحلَّ الحرام، وسفك الدماء، وقطع الأرحام، وحوَّل اليمن إلى أهواء منتشرة وطوائف متشتّتة، ومعتقدات فاسدة؛ فكان الإمام الهادي عليه السلام لليمنيّين القائد والقدوة والمنقذ.

إنَّنا بأمسّ الحاجة لمعرفة مثل هذا الرجل العظيم وسيرته المباركة وما تحقّق على يديه لشعبنا العظيم:

أوّلًا: حتّى لا نكون من الجاحدين لنعم الله علينا وخصوصًا أنَّ هناك من يسعي، من حملة الموروث الأموي الجاهلي، وعلى رأسهم الوهابّيون والنواصب، للمساس بعظمة هذه الشخصيّة والتصغير من قدرها بدافع

العصبيّة أو الجهل أو النصب أو الحسد أو غير ذلـك، والتضليل على العامَّة - مستغلّين جهلهم - بهذه الشخصيّة وما لها من فضل على الإسلام والمسلمين، وخاصّةً على اليمن الميمون.

ثانيًا: ليكون مثل هذا الرجل العظيم القدوة لنا والأسوة في صراعنا مع الباطل والضلال ومواجهتنا للجاهليّة الأخرى.

والله وليُّ الهداية والتوفيق.

يحيى قاسم أحمد أبو عواضة

١صفر ١٤٣٩ هـ - ٢٠١٧/١٠/٢١م

أوّلًا- ولادته ونشأته

الإمـام الـهادي إلـى الحقّ هـو يحيى بـن الحسين بـن القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ولد عَلَيْهِ السَّلَامُ فـي المدينة المنـوَّرة سنة (٢٤٥ هـ) ونشأ وتعلّم وتربّى في أحضان نجوم الهدى، وبدور الدجى، أمثال جدّه (نجم آل محمد) الإمام القاسم بن إبراهيم، وعمّه (وارث علم آل محمّد وعابدهم) محمّد بن القاسم وأبيه (الحافظ الزاهد) الحسين بن القاسم، وبقيّة آبائه وأعمامه عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ونشأ وترعرع وسط تلك البادية التي أكسبته الفصاحة والشجاعة.

وفي ذلك البيت - الذي تمثَّلت فيه أنصع صور الطهر والعبادة والعلم - تعلَّم الإمام الهادي عَلَيْهِ السَّلَامُ ودماء النبوَّة تجري في عروقه؛ وقد منحه الله بسطةً في العلم والجسم، فحاز على مراتب العلم وبرز فيها ولم يدركه أحد، فعرف آباؤه وأعمامه فضله على ما هم عليه من العلم فقدّموه عليهم وبايعوه بالإمامة وعمره خمس وثلاثون سنة.

وممّا ورد في عظيم قدره عليه السلام ما روي بأنّ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أشار إلى اليمن وقال: «يخرج رجل من ولدي في هذه الجهة اسمه يحيى الهادي يحيي الله به الدين»(١).

وعن علي عليه السلام أنّه قال: «يا أيُّها الناس، سلوني قبل أن تفقدوني، أيُّها الناس أنا أحلم الناس صغارًا وأعلمهم كبارًا. أيُّها الناس، إنَّ الله تعالى بنا فتح، وبنا ختم. أيُّها الناس، ما تمرّ فتنة إلّا وأنا أعرف سائقها وناعقها، ثمّ ذكر فتنة بين الثمانين ومئتين، قال: فيخرج رجل من عترتي اسمه اسم نبيّ؛ يملأ الأرض عدلًا كما ملئت جورًا، يميز بين الحقّ والباطل ويؤلّف الله بين قلوب المؤمنين على يديه كما تتألّف قزع الخريف، انتظروه في الأربع والثمانين ومئتين في أوّل سنة واردة وأخرى صادرة»(٢).

---

(١) المؤيّدي، **التحف شرح الزلف**، الصفحة ١٩٣.

(٢) العلوي، **سيرة الهادي إلى الحقّ يحيى بن الحسين** عليه السلام، تحقيق الدكتور سهيل زكّار، الصفحة ٣١. المؤيّدي، **التحف شرح الزلف**، الصفحة ١٩٣.

ثانيًا- صفاته عليه السلام

نذكر بعض من صفات الإمام يحيى عليه السلام منها:

١- قوّته وبأسه وشجاعته

كان عليه السلام موصوفًا منذ أيّام صباه بفضل القوّة والشدَّة والبأس والشجاعة فقد آتاه الله بسطةً في العلم والجسم؛ فقد رُوي أنَّه ضرب رجلًا بنجران بالسيف فأخرجه من بين رجليه فقال رئيسهم: استروا ضربة هذا العلويّ، فوالله لئن رأها الناس لا تناصروا[١].

ومع قوّته تلك، اقترنت الشجاعة العلويّة التي ازدانت بأفضل أنواع الصفح والعفو، فقد كانت شجاعته تشبه شجاعة جدّه علي عليه السلام، فكان صورةً طبق الأصل لشجاعة وبطولة فارس الإسلام وبطل بدر وأحد والخندق وخيبر.

فقد قال لأصحابه يومًا وهو يحثّهم ويوجب عليهم قتال القرامطة: ما يجزعكم من عدوّكم وأنتم ألفا رجل؟!.. فقالوا: إنَّما نحن ألف! فقال عليه السلام: أنتم ألف وأنا أقوم مقام ألف وأكفي كفايتهم.

وله عليه السلام ليلة مع القرامطة تشبه ليلة الهرير لعلي عليه السلام في النهروان مع الخوارج.

---

(١) الإمام عبد الله بن حمرة، **الشافي**، الجزء ١، الصفحة ٣٠٥.

وفي إحدى المعارك مع آل يعفر وهو في قلّة من أصحابه، هجم عليهم حتّى خالطهم بأصحابه وقتل حامل رايتهم وهزمهم؛ فتعجّب الناس من شجاعته تلك، فلمّا بلغ الهادي عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: ويحهم، ما يعجبون من ذلك، ولو كان معي ألفا رجل وخمسمئة فارس مؤمنين صابرين لدوّخت بهم عامّة الأرض[١].

ومن مواقفه الشجاعة؛ كان عَلَيْهِ السَّلَامُ إذا طلع على ظهر فرسه لم تقم له قائمة، وهجم عليه العدوّ بـ(ريدة) فانهزم عنه أجناده فثبت في وجه عدوّه في عدّة يسيرة من أصحابه، ولمّا رأى من انهزم عنه ثباته ونكايته في عدوّه عطفوا وحملوا فقتلهم مقتلةً عظيمةً وقال في ذلك اليوم:

الخيل تشهد لي وكلّ مثقف[٢] بالصبر والإبلاء والإقدام
حقًّا ويشهد ذو الفقار بأنّني أرويت حدَّيه نجيع طغام
نهلًا وعلًا في المواقف كلّها طلبًا لثأر الدين والإسلام
حتّى تذكر ذو الفقار مواقفًا من ذي المعالي السيّد القمقام[٣]
جدّي عليٌّ ذي الفضائل والنهى سيف الإله وكاسر الأصنام
صنو الرسول وخير من وطئ الثرى بعد النَّبي إمام كلّ إمام

٢- سعة علمه

أمّا تقدّمه في العلم فمؤلّفاته تغني عن تقصّيه، ومن أحبّ أن يعرف ذلك فلينظر في كتبه وأجوبته عن المسائل التي كان يُسأل عنها، حتّى حدَّث أبو العبّاس الحسني رَحِمَهُ اللَّهُ عن الفضل بن عبّاس أنّه سمع محمّد بن يحيى

(١) أحمد الهادي، **التاريخ الإسلامي**، الجزء ٢، الصفحة ٥٢.
(٢) المثقف: الرمح المقوّم (بتشديد الواو وفتحه).
(٣) بالفتح والضمّ السيّد والآمر العظيم والبحر. أفادة القاموس.

المرتضى (رضي الله عنه) يقول: «إنَّ يحيى بن الحسين عليه السلام بلغ من العلم مبلغًا يختار عنده ويصنّف وله سبع عشر سنة».

قال أبو بكر بن يعقوب - عالم أهل الرأي[١] وحافظهم -عندما جاء إلى اليمن ورأى الإمام الهادي عليه السلام: «كنت لا أعترف لأحد بمثل حفظي لأصول أصحابنا، وأنا الآن إلى جنبه جدع[٢]، بينما أجاريه في الفقه وأحكي عن أصحابنا أقوالًا إذ يقول: أليس هذا يا أبا بكر قولكم، فأراده؛ فيخرج لي المسألة في كتبنا على ما حكى وادّعى فقد صرت إذا ادّعى شيئًا عنّا أو عن غيرنا لا أطلب معه أثرًا»[٣].

كما قال محمّد أبو زهرة: «والإمام الهادي إلى الحقّ يحيى بن الحسين بن القاسم الرسّي، فهو حفيد الرسّي كما أشرنا من قبل، وقد ولد بالمدينة سنة ٢٤٥هـ وعكف على الفقه يدرسه من كلّ نواحيه وفي كلّ مصادره، وقام هاديًا مرشدًا يدعو إلى الله سبحانه وإلى صراط مستقيم، وكان مرجعًا في الدين من كلّ الطوائف الإسلاميّة والأمصار المختلفة، يسألونه ويستفتونه وهو يرد عليهم برسائل قيّمة أُثِرتْ عنه، يدافع فيها عن القرآن والسنة ويبيّن الحقّ الذي يردُّ زيغ الزائغين»[٤].

ويُروى أنَّه اجتمع عليه يومًا في - صنعاء - سبعة آلاف عالم من الجبريّة، فتقدّم شيخهم يسأل الإمام الهادي عليه السلام ويناظره، فقال: ممّن المعاصي؟ فقال عليه السلام: ومن العاصي؟ فاحتار ولم يعرف إجابة؛ وعاد إلى أصحابه

---

(١) هم الحنفية وسموا بذلك لكثرة اعتمادهم على القياس، في: الهاروني، **الإفادة في تاريخ أئمّة السادة**، الصفحة ١٣١.

(٢) جدع: مأخوذة من الجذع بإبدال الذال دالاً؛ لأن الجذع من الرجال هو الشاب الحدث (بفتح الحاء والداء).

(٣) الهاروني، **الإفادة في تاريخ أئمّة السادة**، الصفحة ١٣.

(٤) محمّد أبو زهرة، **الإمام زيد: حياته وعصره - آراؤه وفقهه**، الصفحة ٥١٥.

فأخبرهم بعجزه عن معرفة الإجابة وقال: ويحكم إن قلتُ: العاصي الله كفرتُ وإن قلتُ: العبد، دخلتُ في مذهبه؛ فرجعوا جميعًا إلى مذهبه عليه السلام[١].

ويقول الشيخ أبو زهرة: «ولم تكن شهرة الإمام الهادي بحكمه العادل فقط بل كانت شهرته بعلمه وفقهه، ومن الحقّ أنّ صورة حكمه تبيّن حكم العالم ينفِّذ آراءه العلميّة في حكمه تنفيذًا دقيقًا»[٢].

ويقول: «وإنَّ رسائله وخطبه وعهوده تجعل القارئ يحسّ بأنَّه يعود بالإسلام إلى عهده الأوّل»[٣].

ويقول الدكتور أحمد محمود صبحي - أستاذ الفلسفة الإسلاميّة بكليّة الآداب جامعة الإسكندريّة - في كتابه **الزيديّة**: «الإمام الهادي عليه السلام أهمّ شخصيّة في المذهب الزيدي لا يفوقه إلّا المؤسّس الإمام زيد، أحاط الهادي إحاطة كاملة بعلوم الدين وأخصَّها... إلى جانب مثابرة على الجهاد دون كلل؛ فكان نموذجًا كاملًا للإمام الزيدي، فلا غرو أن يطبع المنهج الزيدي في اليمن بطابعه وبخاصّة في الفقه، فتعرف الزيدية هناك باسم (الهادويّة). وإذا كان قد جمع بين العلم والجهاد، فقد جمع كذلك بين صفتين تبدوان متعارضتين وهما: رجل الدولة ثمّ الزهد، وما ذاك إلّا لاجتماع النظر والعمل فيه إلى حدّ التطابق، يؤمن ثمّ يفعل ما به يؤمن، فلا يعرف ازدواج النظر والعمل إلى قلبه سبيلًا «والله إنّها لسيرة محمّد أو النَّار».

وقال: «عرف التشيّع أئمّة اقتصروا على العلم دون الجهاد كما عرف أئمّة غلَّبوا الجهاد على العلم، وعرف التشيّع وغير التشيّع رجال دولة يظنّون أنَّ حجابًا يفصل بينهم وبين الرعيّة، لازمٌ من أجل دعوى غرس المهابة لهم في قلوب الناس، ولكنَّنا بصدد إمام يطعم بيده ويؤاكل المساكين معه، أمَّا أن يتَّحد العلم مع الجهاد على نحوٍ فائق، وأن يكون الورع والزهد ومواساة

(١) أحمد الهادي، **التاريخ الإسلامي**، الجزء ٢، الصفحة ٥٤.

(٢) محمّد أبو زهرة، **الإمام زيد: حياته وعصره - آراؤه وفقهه**، الصفحة ٥١٥.

(٣) المصدر نفسه، الصفحة ٥١٣.

المحتاجين من خصال رجل الدولة، فذاك ما لا يكون على مرّ العصور والدهور إلّا في الواحد بعد الواحد، ومنهم الهادي إلى الحقّ يحيى بن الحسين»[١].

لقد كان الإمام الهادي عليه السلام إلى جانب ما يحمله من علم مجاهدًا طوال حياته، واليًا عدلًا، يتابع أحوال رعيّته ومظالمهم معلِّمًا ومرشدًا لأصحابه، يجيب عن مسائلهم وأسئلتهم حتّى وإن كان في حال المعركة، وقد تتلمذ وتخرّج على يديه ما لا يُحصى من العلماء والفضلاء الذين حملوا فكره وعلمه إلى جميع أصقاع الأرض، منهم على سبيل الاختصار: ولداه محمّد وأحمد، وأخوه عبد الله بن الحسين، وعلي بن محمّد العلوي مؤلّف سيرة الإمام عليه السلام ووالده[٢]، ومحمّد بن سليمان الكوفي وأخوه علي، وعلي بن العبّاس الحسني، وغيرهم الكثير.

---

(١) أحمد محمود صبحي، **الزيديّة**، الصفحة ١٨٠.

(٢) كان محمّد بن عبيد الله العلوي من أشد أتباع الهادي عليه السلام وكان واليًا على نجران، واستشهد هناك مع أهله وأسرته في فتنة القرامطة في معركة رهيبة، قال عنها المؤرّخ ابن أبي الرجال: (إنّها تشبه كارثة الطفّ)، ومن يقرأ تفاصيل المذبحة وظروفها يقدر مصداق قول ابن أبي الرجال، ولقد بلغ بالقرامطة الحقد والانتقام ما يجاوز كلّ شيء، فقد وقف شاعرهم وهو يحتزّ رأسه ويرتجز:

شيخ بشيخ وصبي بصبي ... شفيت نفسي وبلغت مأربي
ولا أبالي بعد ذا ماحل بي ... من سخط الله ومن لعن النبي

وقد خرج الإمام الهادي عليه السلام لتأديبهم ومعه حامل رايته الفارس الشجاع علي بن محمّد العلوي، ودارت معركة رهيبة، وعاد علي بن محمد مثخنًا بجراحاته وفي خيوان استشهد متأثّرًا بجراحه. وقد حزن الإمام عليه حزنًا شديدًا ووقف يقول:

قبر بخيوان حوى ماجدًا ... منتخب الآباء عباسي
قبر علي بن أبي جعفر ... من هاشم كالجبل الراسي
من يطعن الطعنة خوارة ... كأنها طعنة جساس

انتهى من **التاريخ الإسلامي** للأستاذ أحمد الهادي.

٣- تواضعه

ومن صفاته عليه السلام أنَّه كان شديدُ التواضع؛ يعود المريض ويكلّم الصغير ويسلِّم على كلّ من مرَّ به. يقول مؤلّف سيرته علي بن محمّد العلوي: «رأيت يحيى بن الحسين ما لا أحصيه، يخرج إلى المسجد ليصلِّي أو لحاجة فيكَلّمه الصبيّ أو المرأة الكبيرة أو الرجل، فرأيته يقف معهم طويلًا والناس قيام حتّى يسألوا حوائجهم فيقضيها لهم»[١]. وكان يدني الأيتام والمساكين من مجلسه ولا يأكل طعامًا حتّى يطعمهم منه، وكان يفتّ الطعام للأيتام ثمّ يأمر بإدخالهم عليه فيأكلون ويأكل معهم[٢].

٤- عبادته

انطلق عليه السلام في عبادته وسلوكه من منطلق فهمه العميق الواسع لمعين العبادة لله، وأنَّ كلّ عمل يأتيه الإنسان في حياته يكون عبادة وجهادًا، إذا قصد به وجه الله، وكان يقول لأصحابه: «اتقوا الله في سرّكم وعلانيّتكم وعاملوا الله تعالى، وإن فعلتم شيئًا فاجعلوه خالصًا، إن أصلحتم سلاحًا فتكون نيّتكم أنَّه لله، وإن علّفتم دابةً تقدّموا النيّة في ذلك أنَّه لله، وإن مشى أحد منكم في جهة من الجهات فقدّموا النيّة في ذلك لله، فإنّما أنتم في جميع ما فعلتم في جميع الأمور في صلاح الإسلام»[٣].

وكان ينصح أصحابه بمجاهدة النفس ومحاسبتها؛ فكان يقول لهم: «وعليكم بتأديب أنفسكم فلو وعظتكم ثلاث سنين ثمّ فارقتكم ساعة لنسيتم ما وعظتكم به إذا لم تناظروا أنفسكم في خلواتكم؛ فعليكم بجهاد أنفسكم في

---

(١) العلوي، **سيرة الهادي إلى الحقّ يحيى بن الحسين** عليه السلام، الصفحة ٥٨.

(٢) المصدر نفسه، الصفحة ٣٨٧.

(٣) المصدر نفسه، الصفحة ١٢٣.

الخلوات، وعليكم بترك الغضب حتّى تذلّوا أنفسكم لله، وإنّما أقول لكم هذا لأنّي أمسيت مؤتمنًا على هذه الأمة أفكّر في صلاحها ومن أين تصلح»[١].

روى الإمام أبو طالب عليه السلام بإسناده عن سليم، وكان يتولّى خدمة الهادي عليه السلام في داره، قال: « كنت أتبعه حين يأخذ النَّاس فرشهم في أكثر لياليه بالمصباح إلى بيت صغير في الدار؛ كان يأوي إليه؛ فإذا دخل صرفني فأنصرف، فهجس بقلبي ليلة أن أحتبس وأتيت إلى باب المسجد أنظر ما يصنع، قال: فسهر عليه السلام الليل أجمع ركوعًا وسجودًا وكنت أسمع وقع دموعه عليه السلام، ونشيجًا في حلقه، فلمّا كان الصبح قمت فسمع حسّي فقال: من هذا؟ فقلت: أنا، فقال: سليم، ما عجَّل بك في غير حينك؟ قلت: ما برحت البارحة جعلت فداك، قال: فرأيته اشتدَّ ذلك عليه وحرَّج عليّ أن لا أحدّث به في حياته أحدًا»[٢].

٥- حبّه للجهاد والتضحية

لقد كانت قضيّته عليه السلام باختصار: رجل باع نفسه لله لم يعد له من مطمع ولا من غاية سوى أن يفي ببيعته في الدنيا، على أمل أن يقبض الثمن في الآخرة، كان كلّ همّه الآخرة والجنّة وما فيها من حياة أبديّة ونعيم مقيم ورضوان من الله أكبر، وعند قراءته لقول اللهِ سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾[٣]، قال معلّقًا على ذلك: «فيا لها تجارة ما أربحها ويا لها من دعوة ما أرفعها، دنيا يسيرة فانية وآخرة كبيرة باقية، وحياة أيّام تزول بحياة أيّام أبدًا لا تحول، والنكد

---

(١) المصدر نفسه، الصفحة ١٢٤.

(٢) الهاروني، **الإفادة في تاريخ أئمّة السادة**، الصفحة ٦٠.

(٣) سورة **التوبة**، الآية ١١١.

والنصب والشدّة والتعب بالراحة والسرور والغبطة له في كلّ الأمور، فاز والله من بادر فاشترى الجنَّة بأيّام حياته، وخاب من تخلّف عن متابعة الله وسوَّف».

وقال عليه السلام بعد أن روى حديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن جبريل عليه السلام أنَّه قال: «إنَّ يوم الجمعة يوم القيامة وفيه تقوم الساعة». قال عليه السلام: «ما زلت منذ رويت هذا الحديث يدخلني في كلّ جمعة وجلٌ وخوف، وما ذلك من سوء ظنّي بربّي، ولكن مخافة من لقائه، ولم أقم بما أمرني بالقيام فيه» يعني الجهاد.

٦- صور من حكمه العادل

سار الإمام الهادي عليه السلام في حكم البلاد اليمنيّة على سنّة العدل، ممّا جعل الأهلين يرون فيه مظهرًا لحكم الإسلام، ولهذا الاطمئنان إلى الحكم العادل سار جند اليمن وراءه طائعين لا كارهين؛ فأخضع أكثر اليمن لحكمه، وعمل على إقامة الحدود وقد كانت معطّلة، ولم يعف منها كبيرًا لكبره بل نفّذها من غير هوادة، ولم يجعل للحيف على نفسه إرادة، فالشريف والوضيع والغنيّ والفقير، أمام الحقّ سواء، وكان يردّد قول الله سبحانه عند تنفيذ الحدود: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾[١].

وكان يقول: «والله ما هو إلّا الحكم بكتاب الله تعالى أو الخروج من الإسلام، والله لو قام حدّ على بني القاسم لأخذته منهم».

وأمر يومًا بإقامة حدّ الشرب على امرأة ثبت عليها الحدّ فقالت له: اعف عنّي بحقّ علي بن أبي طالب، فقال لها: «وحقّ علي بن أبي طالب لو كان الأمر لي ما ضربتك ولكنّه لله تعالى» ثمّ قال: «والله لو وجب الحدّ على أبي لأخذته منه».

(١) سورة **المائدة**، الآية ٤٤.

وقال يومًا وعنده جماعة من الناس:»لو أنّه جدّي القاسم بن إبراهيم ثمّ وجب عليه ضرب العنق ما صلّيت الظهر أو أضرب عنقه».

يقول كاتب سيرته: «وسمعته يومًا يقول:'والله لئن لم يستوِ لي في اليمن أمر لا رجعت إلى أهلي أو أضرب الشرق والغرب حتّى أقيم لله حجته'».

كما ذكر الدكتور عبد الفتّاح شايف نعمان في كتابه **الإمام الهادي**:

«لقد كان سلوك الإمام الهادي في جهاده ومعاركه سلوك العالم الفقيه الذي يخرج إلى الجهاد عبادةً لله وتقرّبًا إليه وطلبًا لرضاه، لذلك فقد كان دقيق الالتزام بأحكام القرآن وسنّة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وكان التزامه هذا هو أبرز ما تميّزت به معاركه سواءً وهو يعبّئ أصحابه لملاقاة الأعداء أو أثناء مباشرة القتل والقتال ثمّ بعد انتهاء المعركة وما يعقب ذلك من التصرّف في الغنائم وأسرى الحرب».

ويردف بعد أن ساق نظريّة الإمام الهادي عليه السلام في الإمامة، والتي يقول فيها:

«وإنّ الله افترض اتخاذ الإمام العادل إمامًا ليؤتمّ به، وسمّي خليفةً ليخلف النبيّ محمّد صلى الله عليه وآله وسلم في أعماله، وأنّه من خالف حكمه حكم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وفارقه فليس بإمام ولا خليفة ولكنّه ظالم مبين».

ثمّ يعلّق الدكتور قائلًا: «تلك كانت صورة الإمامة عند الإمام الهادي في عالم النظريّات؛ أمّا في عالم الواقع فقد كانت صورة شديدة النصاعة وشديدة البريق، فلقد كان الإمام الهادي في ممارسته لسلطته كإمام وكحاكم للمسلمين من تلك النماذج الفذّة في تاريخ المسلمين، وكان تجسيدًا كاملًا لكلّ ما نادى به هو ومن سبقه من الأئمّة الأبرار الذين قدّموا حياتهم الواحد تلو الآخر شهداء في سبيل العودة بدولة الإسلام إلى ما كانت عليه أيّام الرسول صلى الله عليه وآله وسلم».

ومن كلامه عليه السلام: «والله لئن أطعتموني لا فقدتم من رسول الله إلّا شخصه إن شاء الله».

٧- قربه عليه السلام من الناس

ولم يكن الإمام الهادي عليه السلام يحتجب عن الناس في بداية أمره لا ليلًا ولا نهارًا فكان يصلّي بهم الصلوات في المسجد ممّا أطمع أعداءه فيه فدبّروا مؤامرة لاغتياله في السحر وهو في طريقه إلى المسجد إلّا أنّ سهامهم أخطأته فقال بعدها: «اللّهم إنّي أسير فيهم كأحدهم ولا أحتجب عنهم ولا أغيِّبُ شخصي عن محاضرهم ولا أترك صلاةً بهم ولا أكِلَهم إلى غيري، فبدأوا بالمكيدة فيَّ، وأرادوا النفس وإنّي ضارب الحجاب ومتحرّزٌ عنهم حتّى يحكم الله بيني وبينهم».

إلّا أنّ الإمام الهادي عليه السلام لم يتخذ ذلك ذريعة لنصب الحجاب في بابه يحول بين الناس وبين الوصول إليه بل ظلّ شعاره دائمًا: «ليس الإمام منّا من احتجب عن الضعيف في وقت الحاجة الملحّة».

وكان يقول لغلامه الذي يقف على بابه: «أوصل إليَّ كلّ ضعيف ولا تحرقني وتحرق نفسك بالنار، فقد فسحت الأمر من عنقي إليك».

يقول كاتب سيرته: «ورأيته ليلة وقد جاءه رجل ضعيف في السجن يستعدي على قوم فدقّ الباب فقال: ’من هذا يدقّ الباب في هذا الوقت‘؟ فقال له رجل كان على الباب: ’هذا رجل يستعدي‘، فقال: ’أدخله‘، فاستعدى، فوجه معه في ذلك الوقت ثلاثة رجال يحضرون معه خصماءه، ثمّ قال: ’يا أبا جعفر الحمد الله الذي خصّنا بنعمته، وجعلنا رحمة على خلقه، هذا رجل يستعدي إلينا في هذا الوقت، لو كان واحدًا من هؤلاء الظلمة ما دنا إلى بابه في هذا الوقت مستعدّ‘. ثمّ قال: ’ليس الإمام منّا من احتجب عن الضعيف في وقت حاجة ملحّة‘».

ويقول مصنّف سيرته وأحد تلاميذه: «ورأيته يومًا وقد أخذ المصحف ثمّ قال للناس: 'بيني وبينكم هذا آية آية فإن خالفت ما فيه بحرف فلا طاعة لي عليكم بل عليكم أن تقاتلوني أنا'».

قال أبو العبّاس الحسني رحمه الله: «وسمعت علي بن العبّاس يقول: كنّا عنده يومًا وقد حمي النهار وتعالا وهو يخفق برأسه، فقمنا، وقال: 'أدخل وأغفي غفوة'. وخرجت لحاجتي وانصرفت سريعًا، وكان اجتيازي على الموضع الذي يجلس فيه للناس فإذا أنا به في ذلك الموضع، فقلت له في ذلك فقال: 'لم أجسر على أن أنام' وقلت: عسى أن ينتاب الباب مظلوم فيؤاخذني الله بحقّه وولّيت راجعًا كما دخلت'!».

يقول كاتب سيرته: «رأيته ليلة وقد صلّى في المسجد ثمّ انصرف، فلمّا قرب من منزله صاحت امرأة: 'يا بن رسول الله إنّي مظلومة'، فوقف يسمع كلامها، ودنت منه وكانت عجوزًا، فأومأ إليها بعض غلمانه يعدونها، فقال له يحيى بن الحسين: 'ذرها سبحان الله ما أنت إلّا جبّار'! ثمّ صاح بأبي جعفر محمّد بن سليمان فقال له: 'انظر في أمر هذه المرأة فأنصفها من خصمها'، فمضى معها أبو جعفر، فصار الهادي إلى الحقّ إلى داره ونحن معه، ثمّ جلس فصاح بغلام كان يجلس على الباب فقال له: 'ألم أقل لك أوصل إليّ كلّ ضعيف ويحك أنتم مسلمون؟! أوصل إليّ كل ضعيف لا يصل إلّا بكم'، ثمّ قال: 'اللّهم إنّك تعلم لولا ما أخاف من فساد الإسلام ما صلّى بهم غيري، ولا كنت أكون نهاري إلّا معهم أدور في أسواقهم، وأصل بنفسي أمورهم ولكنّي أخاف أكثر عليهم فأقلّ في أعينهم، وإذا كنت كذلك عندهم استخفّوا بالحقّ، فإذا فعلوا ذلك استأنفت ما كنت قد أصلحته لأنّ أكثر الناس في هذا العصر لا يعقلون'».

٨- من صور التسامح التي عُرف بها

من ذلك أنّه عندما بلغه تمرّد أهل صنعاء على عامله بها، ونهبهم كلّ ما عندهم من الأمتعة والدواب - وكان في شبام - دعا من كان في سجنه من آل

يعفر وآل طريف، فأطلقهم ومنَّ عليهم، وكان ممّا قاله لهم: «وهبت لكم نفوسكم فاتقوا الله في سرّكم وعلانيّتكم».

وأراد الرحيل إلى صعدة فلحقه أهل شبام وأرادوا قتله فهزمهم وأمن مكرهم، واستقرّ الإمام عليه السلام في ريدة وفيها وفد عليه أخوه عبد الله بن الحسين من الحجاز ومعه ثمانون رجلًا من المضريّين؛ وعلم الإمام الهادي عليه السلام بأنّ آل يعفر جمعوا قوّاتهم وفرسانهم واحتلّوا صنعاء فتوجّه إلى صنعاء ومعه أبو العتاهية وأنصار الإمام عليه السلام، والمهاجرون من الطبريّين والمضريّين فهزمهم عليه السلام ودخل صنعاء، وعفا عنهم، وقال لهم في خطبة الجمعة: «أيّها الناس ما نقمتم عليّ إلّا ما حكى الله في كتابه عن قوم لوط في قولهم: ﴿أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ﴾[1] ولكنّني أقول لكم كما قال عمّي يوسف عليه السلام ﴿قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[2]».

ثمّ بقي عليه السلام في صنعاء سنةً كاملة يعلّمهم ويرشدهم ويدرأ عنهم الأخطار، ثمّ احتاج جيشه للمال، ولم يجد ما ينفق عليه، فاستقرض من أعيان صنعاء فلم يقرضوه، فخرج عليه السلام مع أصحابه إلى صعدة، وقال لهم: «والله لتمنّونني، وليضربنّكم الله بلباس من الجوع، والخوف، ولتباعنّ نساؤكم بالدينار والدينارين والثلاثة جزاء من الله على فعلكم وصنعكم، وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون».

فلم تمضِ إلّا فترة حتّى دخل عليّ بن الفضل صنعاء - وكان قد اتخذ من مدينة المذيخرة عاصمة لملكه - وفعل الأفاعيل في صنعاء، فادّعى النبوّة، وأحلّ نكاح البنات والأمّهات والأولاد، وارتكب جميع المحرّمات، وارتقى جامع صنعاء وخطب فيهم خطبته الشنيعة التي هدّم فيها أركان الدين، ولقي أهل صنعاء منه الكثير فلم يجدوا إلّا الإمام الهادي عليه السلام ليغيثهم على القرامطة.

---

(١) سورة **النمل**، الآية ٥٦.

(٢) سورة **يوسف**، الآية ٩٢.

فضرب عليه السلام أروع صور الصفح والتسامح معهم وهبّ لنجدتهم وإنقاذهم، فتوجّه لجهاد القرامطة وأخرجهم من صنعاء وكان له معهم أكثر من نيّف وسبعين وقعة انتصر فيها عليهم.

٩- كراهته عليه السلام للظلم والظالمين

وبقدر حرصه على إقامة العدل فقد كان يكره الظلم والظالمين ولا يجيز التعامل معهم بأيّ حال ومن تصريحاته القويّة: «لا تحلّ مكاتبة الظالمين ولا تحلّ مؤانستهم بكتاب ولا غيره للمؤمنين لأنّ في المكاتبة لهم تطمينًا وتحنّنًا إليهم وما تدعو المودّة بينهم، وقد قال الله سبحانه: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾[١] إلى آخر السورة... ولا يركن إليه بمكاتبته في شيء من أمره، فإنّ الله يقول: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾[٢]».

قال يحيى بن الحسين (رضي الله عنه): 'من أخاف ظالمًا جائرًا غاشمًا في دنياه أمنه الله يوم الروع في آخرته' ثمّ قال: «والذي نفس يحيى بن الحسين بيده ما يسّرني أنّي أمّنت الظالمين وأمّنوني ليلة واحدة، وأنّ لي ما طلعت عليه الشمس، لأنّ ذلك لو كان ركونًا إليهم وموالاةً لهم وقد حرّم الله ذلك على المؤمنين»، وقال: «وبلغنا عن بعض السلف أنّه قال: 'من بات منهم خائفًا وباتوا منه خائفين وجبت له الجنّة'».

وقال عليه السلام: «من أعان ظالمًا ولو بخطّ حرف أو برفع دواة ووضعها، ولم يكن اضطرته على ذلك مخافة على نفسه، لقي الله يوم القيامة وهو معرضٌ عنه غضبانٌ عليه، ومن غضب الله عليه فالنار مأواه والجحيم مثواه، بل أقول إنّه لا يجوز معاونة ظالم ولا معاضدته ولا منفعته ولا خدمته كائنًا من كان، من

(١) سورة **المجادلة**، الآية ٢٢.

(٢) سورة **هود**، الآية ١١٣.

آل رسول الله أو من غيرهم، كلّ ظالم ملعون وكلّ معين لظالم ملعون، وفي ذلك ما بلغنا عن رسول الله ﷺ أنّه قال: 'من جبا درهمًا لإمام جائر كبّه الله في النار على منخريه'، وفي ذلك ما يقال: 'إنّ المعين للظالم كالمعين لفرعون على موسى... إلخ'».

١٠- في ميدان الجهاد

لعلّ المتتبّع لسيرة الإمام الهادي عليه السلام يلاحظ مدى محاولة الإمام الهادي عليه السلام اقتفاء أثر الرسول ﷺ في جميع أموره حتّى في مسمّيات الجيش فقد كان جيشه مكوّنًا من المهاجرين والأنصار، وكان لا يقاتل قومًا إلّا بعد دعوتهم وإقامة الحجّة عليهم وإرسال رسله إليهم بأن يدخلوا فيما دخل فيه المسلمون، وأن يحقنوا الدماء، ويعلنوا توبتهم، ويرجعوا إلى الحقّ إذا كانوا من ناقضي العهد، فإن أبوا قاتلهم حتّى يحكم الله بينه وبينهم.

كان كثير الصفح والعفو مهما تكرّر نكث الناكثين وغدرهم، يمنع أصحابه أن يتّبعوا مدبرًا، أو يقضوا على جريح، أو يقتلوا وليدًا أو امرأةً أو شيخًا لا يطيق القتال، أو يقطعوا شجرًا، أو يمثّلوا بآدميّ أو بهيمة.

ولقد كانت تلك القوّة والشجاعة تنعكس سماحة وعدلًا على الأعداء، ممّا جعلهم يتوافدون عليه للبيعة في كلّ جهة ينزل فيها.

يقول عبد الفتاح شايف في كتابه **الإمام الهادي واليًا وفقيهًا ومجاهدًا**: «ولقد قضى الإمام الهادي عليه السلام عمره كلّه لتلك الغاية النبيلة التي أعلنها في مبدأ أمره، عاش حياته كلّها جهادًا ورضًا، لم يدخّر لنفسه فيها درهمًا ولا دينارًا، ولم يسعَ لملك ولا سلطان، وما تناقضت أفعاله مع أقواله يومًا من الأيّام، وإنّما ظلّت حياته كلّها نسقًا واحدًا ونفحًا صادقًا منذ أن خرج لإعلاء كلمة الحقّ حتّى لقي الله».

١١- حفاظه على الهيبة

يقول مؤلّف سيرته: «ورأيته وقد قطع قباءًا ملحمًا، فقال: «والله لو كنت بين مؤمنين ما لبست مثل هذا ولا هذا من لباسي، وما أشتهي أن ألبس إلّا الغليظ من الثياب، ولو لبسته لاستُخِفّ موضعي؛ فقد ميّزت أمورهم فرأيتهم لا يطيعون إلّا من كان عليه مثل هذا الثوب، ولكأنّ على جلدي من لباسه الشوك»[١].

ويقول عليه السلام: «والله لقد ركبت أعود مريضًا بقميص وإزار؛ فلمّا ظهرت من المنزل استغفرت الله تعالى إذ ركبت بقميص وإزار، لأنّي فكّرت فقلت: لو رآني أحد من هؤلاء الجبابرة أو من النَّاس ممّن لا عقل له ولا تمييز وأنا كذلك؛ لنظر إليّ بعين القلّة والمهانة، وهذا فساد في الإسلام، فاستغفرت الله تعالى من ذلك؛ لأنَّ الهيبة صلاح الإسلام، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ﴾[٢] فأخيفوا أعداء الله بما أمكنكم واجعلوا لله ذلك خالصًا»[٣].

---

(١) العلوي، **سيرة الهادي إلى الحقّ يحيى بن الحسين** عليه السلام، الصفحة ٥٦.

(٢) سورة **الأنفال**، الآية ٦٠.

(٣) العلوي، **سيرة الهادي إلى الحقّ يحيى بن الحسين** عليه السلام، الصفحة ١٢٤.

ثالثًا- جهاد الإمام يحيى عليه السلام

عند بزوغ فجر الإسلام كان اليمنيّون سبّاقين لنصرة الإسلام ورسوله، فاحتضنوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في دار هجرته، وآووه ونصروه، وأسلم أهل اليمن جميعًا في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دون ضغط أو إكراه.

فحين أرسل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الإمام علي عليه السلام إلى أهل اليمن أسلمت همدان في يوم واحد، فبعث إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يخبره؛ فلمّا قرأ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الكتاب خرَّ ساجدًا، ثمّ رفع رأسه وقال: «السلام على همدان» ثلاثًا.

وأقبلت طلائع الوفود على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم معلنين إسلامهم، ففرح بذلك وقال: «أتاكم أهل اليمن وهم ألين قلوبًا، وأرقّ أفئدة، الإيمان يمان، والحكمة يمانيّة».

ولقد كان لأهل اليمن دورهم المميّز في الفتوحات الإسلاميّة، وكانوا أيضًا قادة وجنود الإمام علي عليه السلام في قتاله الناكثين، والقاسطين، والمارقين؛ وقد أنشد عليه السلام قصيدة طويلة معبّرًا عن ذلك قال في آخرها:

فلو كنت بوّابًا على باب جنَّة لقلت لهمدان ادخلوا بسلام

وبسبب الارتباط الوثيق بين اليمنيّين والرسول وأهل بيته صلى الله عليه وآله وسلم، ودور اليمنيّين البارز في نصرة الإسلام ووقوفهم مع الإمام علي عليه السلام باعتباره الامتداد الحقيقي لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، عاقبهم بنو أميّة حملة الموروث الجاهلي، ومن تلك العقوبات أنَّ معاوية أرسل إلى اليمن جيشًا بقيادة (بسر

بن أرطأة) ومساندة من الموالين للدولة الأمويّة، فعاث في الأرض فسادًا وقتل النساء والأطفال والشيوخ.

وكان من ضمن قتلاه طفلا عبيد الله بن عبّاس (قثم وعبد الرحمن) اللذين ذبحهما بيده وهما على مصحفهما يتعلّمان القرآن، وكان عبيد الله بن عبّاس قد تركهما عند أمّ سعيد البرزخيّة، وبلغ عليًا عليه السلام خبره فقال: «اللّهم اسلبه دينه وعقله» ووجّه إليه جارية بن قدامة السعدي، ومعه وهب بن مسعود في أربعة آلاف فارس، فهرب بسر بعد أن قتل الآلاف من محبّي أهل البيت عليهم السلام وعند وصوله إلى الشام أصيب بالجنون وساءت خاتمته وكان يأكل الأذى؛ فيمنعه أهله، فيقول لهم: «أنتم تمنعوني وقثم وعبد الرحمن يطعماني إيّاه».

ثمّ حلّ باليمن مأساة أخرى أيَّام عبد الملك بن مروان إذ كان أخو الحجَّاج (محمّد بن يوسف الثقفي) واليًا على اليمن، وكان مشهورًا بالظلم والقسوة، فقتل الكثير من أهل صنعاء؛ ثمّ تنازع الولاة في العصر العبَّاسي على اليمن، ومنهم محمّد بن زياد استخلفه المأمون لمّا رأى تكاثر محبّي أهل البيت في اليمن[1].

وعملوا على تفريق اليمن إلى قبائل متناحرة متنافرة فيما بينها، فكثر الصراع والحروب والفتن بين القبائل اليمنيّة حتّى ضاق بهم الحال، فشدُّوا الرحال إلى المدينة يطلبون من أهل البيت عليهم السلام الذين تشرَّبت قلوبهم بحبّهم أن ينقذوهم من هذه الحالة وخصوصًا أنّهم قد سمعوا بصيت الإمام الهادي عليه السلام وعلمه وشجاعته.

كان عليه السلام قد بايعه أعمامه وآباؤه بالإمامة لمّا رأوا من علمه وورعه وتقواه وخشيته من الله سبحانه وتعالى وتواضعه وكرمه وأخلاقه، وتوجَّهوا جميعًا إلى طبرستان، ثمّ عادوا إلى الرسّ فجاءه وفد من علماء اليمن وقبائلهم

---

(١) أحمد الهادي، **التاريخ الإسلامي**.

يطلبونه الخروج وألزموه أمام خالق السموات والأرض القيام بأمر الله سبحانه وتعالى.

وكان ذلك في عهد الدولة العبَّاسية سنة ٢٨٠ هجريّة أيّام المعتضد العبَّاسي، وكان عمره عليه السلام حين ظهوره ٣٥ سنة؛ فاستجاب عليه السلام لذلك استجابةً لأمر الله سبحانه وقد قال عليه السلام: «والله الذي لا إله إلّا هو وحقّ محمّد ما طلبت هذا الأمر، وما خرجت اختيارًا وما خرجت إلّا اضطرارًا لقيام الحجّة عليّ، ولوددت أنَّه كان لي سعةً في الجلوس، وكيف لي بأن يسعني الجلوس عن هذا الأمر الذي أنا فيه مزموم بزمام، أنا والله إذا جنَّني الليل أفكّر فيما عملت وما كان منّي في يومي؛ فأناظر نفسي في ذلك فأردّد على نفسي وأقول: فعلت كذا، وكان كذا أصلح، ولو لم أكن في هذا الأمر لم يمنعني ترك الفكر في هذا الأمر حتّى ناظرت نفسي فيه طويلًا فما وجدت إلّا الخروج أو الكفر بما أنزل الله على محمّد صلى الله عليه وآله وسلم»؛ وقال عليه السلام: «والله لولا كرامة الله ما نظرت في هذا الأمر»[١].

وهكذا خرج عليه السلام معهم لإحياء كتاب الله والعمل بسنّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وإماتة البدعة والضلالة، فوصل صعدة سنة ٢٨٠ هـ ثمّ رحل إلى قرية الشرفة ناحية بني حشيش بالقرب من صنعاء، ولبث مدّة يسيرة؛ فظهر منهم الخلاف لبعض الأوامر الشرعيّة فقال: «هل هي إلّا سيرة محمّد صلى الله عليه وآله وسلم أو النَّار. والله لا أكون كالفتيلة تضيئ غيرها وتحرق نفسها»، ثمّ عاد إلى الحجاز.

وقيل: إنّ سبب غضبه ورحيله أنّ بعض الأمراء هناك، من أولاد ملوك اليمن، من عشائر أبي العتاهية[٢] شرب الخمر فأمر بإحضاره ليقيم عليه الحدّ، فامتنع عليه فقال عليه السلام: «لا أكون كالفتيلة تضيئ غيرها وتحرق نفسها»[٣].

---

(١) العلوي، **سيرة الهادي إلى الحقّ يحيى بن الحسين** عليه السلام، الصفحة ٥٢.

(٢) أبو العتاهية الهمداني أحد ملوك اليمن في القرن الثالث عرف بالتدين ورجاحة العقل وهو الذي استقدم الإمام الهادي عليه السلام من الرس إلى اليمن وبايعه هو وعشائره وكانت له مواقف عظيمة بين يديه.

(٣) مقدمة التحرير ، الآية ٢٧.

يقول الشيخ أبو زهرة: «ولكن عاد إلى الحجاز بعد أن تعلَّقت به القلوب ووجد الراشدون من أهل اليمن أنَّه الإمام الذي يستطيع أن يجمع شمل اليمنيّين وأن يحارب بهم البدع التي كانت منتشرة ومذهب القرامطة الذي كان يساورهم»[١].

وبعد خروج الإمام الهادي عليه السلام من اليمن؛ عمّهم بعد رحيله البلاء وشملتهم الفتن، وانقطع الغيث ويبس الزرع[٢]، وساءت حالتهم، ولمّا اشتدَّ بهم ذلك عرفوا أنّه لن يجمع شملهم، ولن يميت الباطل، ويعيد الحقّ إلّا الإمام الهادي عليه السلام، فذهب وفد منهم يحملون إليه كتبًا من مختلف قبائلهم يخبرونه فيها بتوبتهم، ويسألونه الخروج إلى بلدهم ويعطون له بيعتهم وأنَّهم قد ندموا على ما كان من تفريطهم في أمره حين تركوه يخرج من عندهم[٣].

ومرّةً أخرى، يتوجّه عليه السلام إلى اليمن ويودّعه أكابر أهل بيته عليهم السلام فيهم عالم آل محمّد؛ محمّد بن القاسم عليه السلام وكان ممّا قاله: «يا أبا الحسين لو حملتني ركبتاي لجاهدت معك. يا بنيّ، أشركنا الله في كلّ ما أنت فيه، وفي كلّ مشهد تشهده، وفي كلّ موقف تقفه».

وصل الإمام ورفاقه مدينة صعدة في اليوم السادس من صفر سنة ٢٨٤ هجريّة، وضرب خيامه على مقربة منها، فخرج إليه أهل صعدة من قبيلتي سعد والربيعة من خولان الذين كانت بينهم فتنة عظيمة أتت على الكثير من رجالهم وأموالهم، فابتدأ الإمام الهادي عليه السلام فخطب فيهم خطبةً بليغةً ذكَّرهم فيها بالله ووعظهم، يقول أحد الحاضرين: «فرأيت الناس وبهم رجَّة وهم يبكون ممّا سمعوا من كلامه ومواعظه»[٤].

---

(١) محمّد أبو زهرة، **الإمام زيد: حياته وعصره - آراؤه وفقهه**، الصفحة ٥١١.

(٢) العلوي، **سيرة الهادي إلى الحقّ يحيى بن الحسين** عليه السلام، الصفحة ٦٥.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) العلوي، **سيرة الهادي إلى الحقّ يحيى بن الحسين** عليه السلام، الصفحة ٤١.

ثمّ أمر بمصحفٍ فاستحلف بعضهم لبعض بترك الفتنة والعداوة، كما استحلفهم لنفسه على أن يطيعوه ويناصروه، ويقوموا بأمر الله معه، فبايعوه في موضعه ذاك واختلط الفريقان، وارتفعت أصواتهم بالتكبير ودخلوا بأجمعهم صعدة أخوة متحابّين كأن لم يكن بينهم شيء[١].

وجعل من صعدة عاصمةً لدولته، وخلال فترة وجيزة تمكّن الإمام الهادي عليه السلام أن يكتسح اليمن من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب ووزّع رجاله في طول البلاد وعرضها ينشرون الدعوة ويقيمون حكم الله، وكان يتوجّه إلى الله سبحانه بهذا الدعاء: «اللّهم ألهمنا الصبر وأعظم لنا الأجر وتقبّل منّا عملنا، واجعله خالصًا لك لا يشوبه عمل لغيرك يا أرحم الراحمين». ثمّ يقول: «حسبنا الله ونعم الوكيل لا حول ولا قوة إلّا بالله العليّ العظيم»[٢].

وعندما وقف عليه السلام يدعو إلى بيعته عاهدهم على الآتي:

أيّها الناس إنّي اشترط لكم أربعًا على نفسي:

١- الحكم بكتاب الله وسنَّة نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم.

٢- والأثرة لكم على نفسي فيما جعله الله بيني وبينكم، أؤثركم ولا أتفضّل عليكم.

٣- وأقدّمكم عند العطاء قبلي.

٤- وأتقدّم أمامكم عند لقاء عدوّي وعدوّكم بنفسي.

وأشترط لنفسي عليكم اثنتين:

١- النصيحة لله سبحانه ولي في السرّ والعلن.

---

(١) المصدر نفسه، الصفحة ٣٢.

(٢) المصدر نفسه، الصفحة ١٧٤.

٢- والطاعة لأمري في كلّ حالاتكم ما أطعت الله فيكم، فإن خالفت طاعة الله عزّ وجلّ فلا طاعة لي عليكم، وإن ملت وعدلت عن كتاب الله فلا حجّة لي عليكم .

يقول الشيخ أبو زهرة بعد أن أورد نصّ البيعة: «ومن هذا البيان الذي قدَّم بيعته ومن عدَّة بيانات أخرى على هذا المنهاج، يتبيّن أنّ أعظم مقاصده إقامة حكم إسلامي، وجمع كلمة المسلمين على كتاب الله تعالى وسنّة نبيّه ﷺ». وقد كان يسعى جهده لجمع شمل المسلمين وإصلاح أمورهم فيما بينهم ويروى في ذلك أنّه كان يقول: «لوددت أنَّ الله أصلح هذه الأمّة وإنّي جعت يومًا وشبعت يومًا». وبهذا يتبيّن أنَّه ما كان يطلب الملك ولكن كان يطلب إصلاح أمر المسلمين وإحياء الشريعة وفرض سلطانها.

وبعد أن استقرّ في صعدة اتَّجه إلى أمرين:

أحدهما: جمع اليمن وما جاورها على حكم واحد، والقضاء على التفرقة، وقد جاهد في ذلك جهادًا شديدًا وحارب المبتدعين وأهل الأهـواء حتّى استقرّ أكثرها لحكمه.

والأمر الثاني: توزيع العدالة الحقيقيّة بين ربوع اليمن ليسود الاطمئنان والاستقرار، فلا يطمئنّ الناس إلّا إلى حكم عادل، وقد عمل على نشر العدالة لكلّ شعبها وعلى رأسها العدالة الاجتماعيّة[١].

ولقد قضى الإمام الهادي عليه السلام عمره لتلك الغاية النبيلة التي أعلنها في مبدأ أمره، عاش حياته كلّها جهادًا ونصبًا، لم يدّخر لنفسه فيها درهمًا ولا دينارًا، ولم يسع لملك ولا سلطان، وما تناقضت أفعاله مع أقواله يومًا من الأيّام، وإنّما ظلَّت حياته كلّها نسقًا واحدًا، ونغمًا صادقًا منذ أن خرج لإعلاء

---

(١) محمّد أبو زهرة، **الإمام زيد: حياته وعصره - آراؤه وفقهه**، الصفحتان ٥١١ و٥١٢.

كلمة الحقّ حتّى لقي الله[١]، وكان يقول عليه السلام: «والله لوددت أنَّ الله أصلح الإسلام بي وأنَّ يدي معلّقة بالثريا ثمّ أهوي إلى الأرض فلا أصل إلّا قطعًا»[٢].

لقد عمل الإمام الهادي عليه السلام منذ لحظة وصوله على إنهاء النزاع الدائم بين القبائل اليمنيّة وركّز جهوده على إنهاء حالة التوتّر القائمة في البلاد والتمزّق الاجتماعي والسياسي، فأوقف النزاع القائم بين الأكيليّين والفاطميّين، وأصلح بين القبائل المتقاتلة في نجران وهمدان وغيرها من القبائل، وكان نجاح الهادي في الإصلاح بين القبائل يزيد من شعبيّته ورصيده السياسي وحقَّق تقدُّمًا لافتًا في صعدة ونجران وما حولهما.

وقد شجّعه هذا على المضيّ قدمًا في مشروعه السياسي وضمّ المناطق الأخرى التي لم تكن تبدي مقاومة تُذكر أو يفتحها فتحًا سياسيًّا؛ فدخل شبام عاصمة اليعفريين بدون قتال، ومنها تحرّك إلى صنعاء التي سلَّمت له راضية، ولم يكن يقيم الهادي في أيّ منطقة يدخلها إلّا ريثما يرتّب أوضاعها ويعالج ما يحتاج منها لمعالجة شرعيّة وقانونيّة؛ ولذلك لم يتأخّر في صنعاء ليتحرّك جنوبًا إلى ذمار التي بايعت الهادي. وفي غضون أربعة أعوام، حقّق الهادي إنجازًا سياسيًّا يُعدّ قياسيًّا بلحاظ ظروف اليمن الاجتماعيّة والاقتصاديّة وأصبحت دولته تضمّ الجزء الأكبر من اليمن وتمتدّ من نجران شمالًا إلى عدن جنوبًا كما جاء في بعض الروايات[٣].

وبعد أن نشر الإمام الهادي عليه السلام دعوته من صعدة عاصمة دولته وفدت عليه القبائل من كلّ جهة، فأرسل عمّاله إلى تلك المناطق لإقامة تعاليم الإسلام في كلّ منطقة ودخل صنعاء واستقبله واليها من قبل الدولة العبَّاسية آنذاك واسمه أبو العتاهية (عبد الله بن بشر) ظهرت حركات التمرّد والخروج عليه عليه السلام من اليعفريّين المدعَّمين بولاء وقوّة الدولة العبَّاسية،

---

(١) العلوي، **سيرة الهادي إلى الحقّ يحيى بن الحسين** عليه السلام، الصفحة ١٢٩.

(٢) المصدر نفسه، الصفحة ١٣٠.

(٣) من بحث للأستاذ عبد الملك العجري.

وتبعهم على ذلك بعض القبائل في نجران وغيرها؛ ثمّ كانت حركة القرامطة، ودعوتهم الشاذّة، بقيادة عليّ بن الفضل القرمطي الذي ادَّعى النبوّة، وأحلَّ نكاح البنات والأخوات وشرب الخمور، وكان يبيح لجنوده نهب الأموال وسبي النساء وفعل كلّ محرم، لذلك تبعته جماهير غفيرة من الراغبين في النهب والفجور حتّى فكَّر في التوجّه إلى الكعبة وهدمها.

ووصل جماعة من أهالي صنعاء يستنهضونه الخروج معهم لقتال القرامطة وكان قد وصله خبر عليّ بن الفضل وعزمه على هدم الكعبة فجمع الهادي أصحابه وقال لهم: «قد لزمنا الفرض في قتال هذا الرجل».

وقد تردّد أصحابه في بادئ الأمر لما كانوا يسمعونه عن كثرة جيوش القرامطة وقلّة عددهم إلّا أنَّ الإمام الهادي عليه السلام شجّعهم وأثارهم، وكان يردّد قول الله سبحانه ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[١].

وكان أصحابه من المقاتلة آنذاك ألف فقال لهم الهادي عليه السلام: «تفزعون وأنتم ألفا رجل»، فقالوا: إنّما نحن ألف رجل، فقال: «أنتم ألف وأنا أقوم مقام ألف وأكفي كفايتهم».

ثمّ انتخب منهم ثلاثمئة رجل وسلَّحهم بسلاح الباقين وبيَّت جيش القرامطة فهزمهم شرّ هزيمة وقتل منهم مقتلةً عظيمةً وغنم منهم جيشًا كثيرًا[٢].

فحرّر صنعاء منهم وبقي في صراع معهم نحو من خمس سنين مجاهدًا في سبيل الله لإرساء قيم الحقّ والعدالة وقد نصره الله عليهم في جميع المعارك الحربيّة التي خاضها رغم قلّة أصحابه في أكثر المواطن وبذل حياته في سبيل تحقيق تلك الغاية[٣].

---

(١) سورة **الحجّ**، الآية ٤٠.

(٢) الهاروني، **الإفادة في تاريخ أئمّة السادة**، الصفحة ١٣٧.

(٣) محمّد أبو زهرة، **الإمام زيد: حياته وعصره - آراؤه وفقهه**، الصفحة ٥١٤.

هكذا كان عليه السلام يتعامل مع السلطة وينظر إليها على أساس أنّها تكليف ومسؤوليّة وخدمةً للناس، ومن الصور التي تدلّ على ذلك:

١- الاهتمام بالفقراء وتفقّد أحوال الناس

فكان عليه السلام يطعم الفقراء والمساكين ويأمر بإدخال الأيتام والمساكين عليه، فيفتّ لهم الطعام بيده ويأكل معهم، وقد أمر صاحب بيت المال أن يُطعم الطوّافين عليه من الفقراء والمساكين في الصباح والمساء، وأمر لهم بكسوة من بيت المال شتاء وصيفًا.

وكان يخرج إلى المسجد فيدور في الأسواق والطرقات، فإن وجد جدارًا مائلًا أمر بإصلاحه أو طريقًا فاسدًا أمر بتنظيفه وتعبيده، وإن وجد زقاقًا مظلمًا أمر أهله أن يضيئوا فيه بالليل للمارّة والسالكين إلى المسجد، ولمّا بلغه أنّ نساء البوادي يدخلن الأسواق مكشّفات الوجوه، أمرهنّ بالحجاب واتخاذ البراقع، كما كان يراقب البائعين في السوق ويدخل يده في الطعام للتأكّد من عدم غشّه ويراقب الأسعار وينهى البائعين عن ظلم الناس وغشّهم[١].

قال عليه السلام لأحد أتباعه وقد أرسله إلى متمرّدين على دولته: اذهب إليهم وذكّرهم بأيّام الله ونعمه عليهم، ولا يكونوا بابًا للفتنة وظلم الضعفاء[٢].

حدّث أبو الحسن الهمداني المعروف بالحروري، وكان رجلًا فقيهًا على مذهب الشافعي، تاجر جمع بين الفقه والتجارة، قال: قصدت اليمن في بعض الأوقات وحملت ما أتّجر فيه إلى هناك ابتغاءً لرؤية يحيى بن الحسين لمّا كان يتّصل بي من آثاره، فلمّا حصلت بصعدة حرسها الله، قلت لمن لقيته من أهلها: كيف أصل إليه ومتى أصل، وبمن أتوسّل في هذا الباب؟ فقيل لي: الأمر أهون ممّا تقدر، تراه الساعة إذا دخل الجامع للصلاة بالناس فإنّه يصلّي بالناس الصلوات كلّها، فانتظرته حتّى خرج للصلاة فصلّى بالناس وصلّيت

---

(١) العلوي، **سيرة الهادي إلى الحقّ يحيى بن الحسين** عليه السلام، الصفحتان ١٢٦ و٢٨٦.

(٢) المصدر نفسه، الصفحة ٦.

خلفه، فلمّا فرغ من صلاته تأمّلته فإذا هو قد مشى في المسجد إلى قوم أعِلاَّءَ في ناحية منه فعادهم وتفقّد أحوالهم بنفسه، ثمّ مشى في السوق وأنا أتبعه، فغيّر شيئًا أنكرَه ووعظ قومًا وزجرهم عن بعض المنكرات، ثمّ عاد إلى مجلسه الذي كان يجلس فيه من داره للناس فنفذت إليه وسلّمت، فرحّب بي وأجلسني وسألني عن حالي ومقدمي، فعرَّفته أنّي تاجر وأنّي وردت ذلك المكان تبرّكًا بالنظر إليه وعرف أنّي من أهل العلم فأنس بي وكان يكرمني إذا دخلت إليه إلى أن قيل لي يوم من الأيّام: إنَّ غدًا يوم المظالم وإنّه يقعد فيه للنظر بين الناس فحضرت غداة هذا اليوم فشاهدت هيبةً عظيمةً، ورأيت الأمراء والقادة والرجالة وقوفًا بين يديه على مراتبهم، وهو ينظر في القصص ويسمع الظلامات ويفصل الأمور فكأنّي شاهدت رجلًا غير الذي أعرفه فبهرتني هيبته.

فادّعى رجل على رجل حقًّا فأنكره المدّعَى عليه وسأله البيّنة فأتى بها فحلَّف الشهود فتعجّبت من ذلك فلمّا تفرّق الناس دنوت منه فقلت: أيّها الإمام رأيتك حلَّفت الشهود! فقال: هذا رأيي أنا أرى تحليف الشهود احتياطًا عند بعض التهمة ما تنكر في هذا؟ هو قول طاووس من التابعين وقد قال الله تعالى: ﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا﴾، قال: فاستفدت في تلك الحال منه مذهبه وقوله وقول من قال به من التابعين والدلالة عليه ولم أكن عرفت شيئًا قبل ذلك[١].

قال: ثمّ أنفذ إليّ يومًا من الأيّام يقول: «إن كان في مالك لله حقّ زكاة فأخرجه إلينا»، فقلت: سمعًا وطاعة، من لي غيرك أخرج زكاتي إليه، فحسبت ما عليّ فإذا عليّ من الزكاة عشرة دنانير، فأنفذتها إليه. فلمّا كان ذات يوم بعث إليّ واستدعاني فإذا هو يوم العطاء، والمال يوزن ويخرج إلى الناس، فقال: إنّي أحضرتك لتشهد إخراج زكاتك إلى المستحقّين، فقمت وقلت: الله الله أيّها الإمام كأنّي أرتاب فيك بشيء أو أشكّ في فعلك.

---

(١) الهاروني، **الإفادة في تاريخ أئمّة السادة**، الصفحة ١٤٣.

فتبسّم وقال: ما ذهبت إلى حيث ظننت ولكن أردت أن تشهد إخراج زكاتك[١].

٢- التفقّد للسجون

يقول كاتب سيرته: «كان عليه السلام يزور السجون ويستمع إلى ظلامات المساجين، ويراقب نظافته ويأمر من كان يعرف القراءة من المساجين أن يعلّم من لا يعرف ذلك ويسأل كلّ مسجون عن سبب سجنه، وينظر فيه».

(١) أحمد الهادي، **التاريخ الإسلامي**.

رابعًا- كلامه وأقوال العلماء فيه

مقتطفات من كلامه عليه السلام

قال عليه السلام:

- النعمة لا تتمّ لمن رزقها إلّا بشكر مولاها، ومن أغفل شكر الإحسان فقد استدعى لنفسه الحرمان، ومن أراد أن لا تفارقه نعم الله فلا يفارق شكر الله.
- حصن الرأي التأنّي، وآفته العجلة، إلّا عند بيان الفرصة.
- من أراد أن ينظر ما له عند الله فلينظر ما لله عنده، ثمّ ليعلم أنّ له عند الله مثل ما لله عنده، قال الله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[1].
- من فكّر في عواقب فعله نجا من موبقات عمله.
- من خضع لله فقد لبس ثوب الإيمان، ومن لبس ثوب الإيمان فقد تتوّج بتاج العزّة من الرحمن، فالله سبحانه يقول: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

---

(١) سورة **الأنعام**، الآية ١٦٠.

- من نظر إلى نفسه بغير ما هو فيه، فقد أمكن الناس من الطعن عليه.
- دواء الخوف من عذاب الله العمل بطاعة الله، والترك لمعاصيه، وحسن الأوبة إليه عزّ وجلّ.
- من رغب في الله اتصل به، وانقطع على الحقيقة إليه، ومن لم يهتد إلى أفضل العبادة وأسناها فليقصد لمخالفة النفس في هواها.
- من اشتدّت رغبته في الدنيا طلب لنفسه التأويلات وتقحّم بلا شكّ في المهلكات وكان عند الله من أهل الخطيئات، وصاحب الدنيا الراغب فيها كالحسود لا يستريح قلبه من الغمّ أبدًا، ولا يخلو فكره من الهمّ أصلًا ولو أعطي منها كلّ العطاء[١].

من شعره عليه السلام:

صعب الزمان عليّ فاستصعبت إذ   صعب الزمان وليس مثلي يخضع
للدهر لو خضع الأنام بأسرهم   إنّ الكريم مصمّم لا يجزع
إنّي لهذا الدهر قرن قاهر   لا أستقيد له ولا أتضعضع
رام الزمان تضعضعي فمنعته   ذاك المرام وخاذلي يتوضع
صبر الزمان عليّ إذ صابرته   حتّى بدت فيه الملالة تسطع
والصبر منّي ثابت متجدّد   ما إن خشعت وما لمثلي يخشع
والله ربّي والنبي فوالدي   والله يحفظني وعنّي يدفع[٢]

وقال عليه السلام:

نفى النوم عن عينيَّ همٌّ مضاجع   وخطب جليل فهو للنوم مانع

(١) مقدمة كتاب **الإمام الهادي** الصفحة ٤٥.

(٢) المحلّي، **الحدائق الورديّة في مناقب أئمّة الزيديّة**، الجزء ٢، الصفحتان ٢٥ و٢٦.

وأرقــنــي ألاّ صـديـق ولا أخ يشاركني في ما تحن الأضالع
أفكر في الدنيا وتافه شأنها كما طال فكري والعيون هواجع
سبتهم بحسن الذوق من شهواتها فكل لها إلفٌ محب مطاوع
يوفر ما قد نال من فضلاتها ويدخر للوراث ما هو جامع
ويبخل عن تقديم خير لنفسه ويجزع عن إخراجه ويدافع
ويمنعه التسويف عن باب رشده ويعجل فيما ضره ويسارع

تلك كانت صورة موجزة من سيرته رحمه الله، فقد عاش حياته كلّها شديد الوفاء لشعاره الذي أعلن «والله ما هي إلّا سيرة محمّد أو النار» حتّى لقي الله وليس في بيته درهم ولا دينار.

ولقد قبضه الله إليه بعد جهاد مرير مع أعداء الله وفي رجله أثر جراحه انبعثت منها الرائحة التي خصّ الله بها الشهداء ولا تزال تلك الرائحة الزكيّة يفوح عبيرها إلى وقتنا الحاضر إكرامًا منه سبحانه وتعالى لذلك الإمام المجاهد الصابر وكانت وفاته عليه السلام في العشرين من ذي الحجّة سنة ٢٩٨ للهجرة بعد عمر حافل بالجهاد والدعوة إلى الله حيث لم يترك ناحية من نواحي الجهاد إلّا وسار فيها.

ومشهده عليه السلام في جانب المسجد الجامع بصعدة، وهو من أشهر المعالم الدينيّة في اليمن، وقبره بجواره مشهور مزار.

بلدي وأرض أحبتي يا حادي غرست محبتها بجوف فؤادي
فاقت محاسنها البلاد وزاد من أفضالها قبر الإمام الهادي

من أقوال العلماء واعترافاتهم بمكانته وثنائهم عليه

١- الإمام الناصر الأطروش عليه السلام لمّا جاء نعيه إلى الإمام الناصر الأطروش بكاه وقال: «اليوم انهدّ ركن الإسلام»[١].

٢- وقال عنه الشيخ يحيى بن أبي بكر العامري (ت ٨٩٢هـ): «كان مجيئه إلى اليمن وقد عمّ بها مذهب القرامطة والباطنيّة فجاهدهم جهادًا شديدًا وجرى له معهم نيّف وثمانون موقعة لم ينهزم في شيء منها، وكان له علم واسع وشجاعة خارقة وقد أقام على الجهاد ثماني عشرة سنة». وقال عنه: «الإمام الفاضل الكامل الصالح المصلح يعرف بالهادي إلى الحقّ كان خروجه إلى اليمن وظهور شوكته بها بعد أن استدعاه واليها (أبو العتاهية) وبايعه هو وأهل مملكته، ومن مصنّفاته كتاب الأحكام جمع فيه فأوعى، وصنّف في الشرائع والأديان وعظمت فضائله، ومات بصعدة بعد أن مهّد البلاد وقوم أودها»[٢].

٣- وقال عنه الحاكم الجشمي: «وكان عليه السلام أي الهادي جامعًا لشروط الإمامة، ويُضرب به المثل في الشجاعة، وابتلى بحرب القرامطة، وكان له معهم ثلاث وسبعون واقعة»[٣].

٤- وقال عنه المحلّي في **الحدائق الورديّة**: «قد نشأ على العلم والعبادة حتّى صار بمنزلة الطبع، ونال من العلم ما لم نعلم أنّ أحدًا من المشهورين أدركه في وقت إدراكه، وكان بالورع والزهد والعبادة إلى حدّ تقصر العبارة دونه والفهم عن الإحاطة به وظهور ذلك يكفي عن تكلّف بيانه، وكان صوّامًا قوّامًا يصوم أكثر أيّامه ويحيي أكثر لياليه، وكان إذا التقت الأبطال وتداعت نزال الفتية يدور القطب عليه رحى القتال»[٤].

---

(١) المحلّي، **الحدائق الورديّة في مناقب أئمّة الزيديّة**، الجزء ٢، الصفحة ١٦.

(٢) **الإمام الهادي**، الصفحة ٩٣.

(٣) الإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى، **البحر الزخار**، الجزء ١ ، الصفحة ٢٨٨.

(٤) المحلّي، **الحدائق الورديّة في مناقب أئمّة الزيديّة**، الجزء ٢، الصفحات ١٤ ، ١٦ ، ١٧ و١٨.

٥- وقال عنه السيّد أحمد زيني دحلان - مفتي الشافعيّة بمكّة المكرّمة في عصره - (ت ١٣٠٤ هـ): «الإمام الهادي إلى الحقّ يحيى بن الحسين بويع له في اليمن وكان إمامًا عالمًا وله تصانيف في الفقه وخطب له بمكّة سبع سنين، وتوفّي باليمن سنة ٢٩٨ وأكثر أئمّة الزيديّة الذين جاءوا بعده فملكوا اليمن من ذريّته».

٦- وذكر الحافظ بن حجر: «أنّ بالبلاد اليمنيّة طائفة من ذريّة الحسن بن علي بن أبي طالب لم تزل مملكة تلك البلاد معهم في أواخر المئة الثالثة وكبيرهم يقال له: الإمام ولا يتولّى الإمامة منهم إلّا من يكون متحرّيًا للعدل»[١].

٧- وقال عنه القاضي عبد الله بن عبد الكريم الجرافي: «ولقد كان الإمام الهادي مشهورًا بالقوّة والشجاعة والورع والفقه ويعتمد فقهاء الزيديّة باليمن على مؤلّفاته العظيمة التي منها الأحكام والمنتخب والفنون، ولقد فرّع العلماء على نصوصه الكثيرة كثيرًا من مسائل الفقه وخرجوا منها التخاريج المبنيّة على القواعد الفقهيّة، ولقد انتشرت أقواله وفتاويه في اليمن انتشارًا عظيمًا وبايعه جماهير أهل الجبال، واجتهادات هذا الإمام مستمدّة من الكتاب والسنّة وكثيرًا ما كان يربطها بالدليل ومذهبه بريء من البدع الرديئة والمعتقدات الفاسدة»[٢].

٨- وقال عنه الإمام محمّد أبو زهرة: «عكف على الفقه يدرسه من كلّ نواحيه وفي كلّ مصادره، وقام هاديًا مرشدًا يدعو إلى الله سبحانه وإلى صراط مستقيم، وكان مرجعًا في الدين من كلّ الطوائف الإسلاميّة والأمصار المختلفة يسألونه ويستفتونه وهو يردّ عليهم برسائل قيّمة أثرت عنه يدافع فيها عن القرآن والسنّة، ويبيّن الحقّ الذي يردّ زيغ الزائغين... وذهب إلى اليمن سنة ٢٨٠ هـ فوجد فيها أرضًا خصبة لآرائه، فبذر فيها ذلك البذر الطيّب النقيّ من الآراء الفقهيّة العميقة، ومن العقيدة الدينيّة القويمة الخالصة من كلّ

---

(١) **الإمام الهادي**، الصفحة ٩٤.

(٢) المقتطف من تاريخ اليمن.

وهم ومن كلّ زيغ. إنّ أعظم مقاصده إقامة حكم إسلامي وجمع المسلمين على كتاب الله تعالى وسنّة نبيّه ﷺ وقد كان يسعى جهده لجمع شمل المسلمين وإصلاح أمورهم فيما بينهم». إلى أن يقول «ولم تكن شهرة الإمام الهادي بحكمه العادل فقط، بل كانت شهرته بعلمه وفقهه وفي الحقّ أنّ صورة حكمه تبيّن حكم العالم ينفذ آراءه العلميّة في حكمه تنفيذًا دقيقًا. وقد ترك الهادي كتبًا في الفقه والحديث، منها كتاب الأحكام سلك فيه مسلك الإمام مالك في الموطأ يذكر الأحاديث والآثار ويذكر تخريجه لها واجتهاده حولها ويربط أكثر المسائل بالأدلّة التي تقوم عليها»[١].

٩- قال عنه الإمام المؤيّد بالله عليه السلام: «كنّا نهاب نصوص يحيى كما نهاب نصوص القرآن» يعني في التأمّل فيها والاستخراج منها[٢].

١٠-وقال عنه الأديب العلّامة الشهير أحمد بن محمد المطاع في كتابه **تاريخ اليمن الإسلامي**، تحقيق عبد الله محمّد الحبشي عند ذكره لسنة ٢٩٨هـ: «فيها مات الإمام الهادي بصعدة يوم الأحد لعشر بقين في ذي الحجّة من السنة المذكورة، ودفن يوم الإثنين قبل الزوال بمسجده المشهور بصعدة، ومولده بالمدينة المنوّرة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام سنة ٢٤٥ هـ. وهو بلا شكّ أكبر مصلح ارتفع اسمه في أفق التاريخ اليمني، ونال من الاحترام والحبّ في قلوب اليمنيّين مكانة لم يتبوّأها أحد بحيث أصبحت آثاره وأعماله وصفاته العالية قبلة الأبصار ومهوى الأفئدة، وقد مرّ بك آثاره العلميّة فإنّه بمكانة عليا من العلم والفضل والورع، ومكارم الأخلاق والحلم والتواضع كثير الصفح والتجاوز عن سيّئات الناس وهفواتهم إلى أن يقول: وكان شجاعًا مقدامًا ثابت الجأش ماضي العزيمة.

يباشر في الحرب المنايا ولا يرى لمن لم يباشرها من الموت مهربا

---

(١) محمّد أبو زهرة، **الإمام زيد: حياته وعصره - آراؤه وفقهه**، الصفحتان ٥١٥ و٥٠٩.

(٢) الإمام يحيى بن الحسين، **الأحكام**، الجزء ٢، الصفحة ١٤.

١١- وقال عنه الإمام المنصور بالله: «وقول يحيى بن الحسين ينقض بقوله لا بقول غيره إذ لا سلطان للغير عليه ولا سبيل إليه»[١].

١٢- وقال عنه عبد الله عبد الوهاب الشماحي في كتابه **اليمن الإنسان والحضارة**: «كان مثلًا لصفات القائد والقدوة الحسنة لأتباعه مترفّعًا عن الأهواء وسفاسف الأمور وعن المتع، شجاعًا فى المعارك والأهوال وفي تطبيق ما يؤمن به ويدعوا إليه معتدلًا حتّى مع أعاديه»[٢].

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) من بحث للأستاذ عبد الملك العجري.

خاتمة

وفي الجملة، كان الإمام الهادي عليه السلام شخصيّة قياديّة من الدرجة الأولى ومن الرجال العظماء الذين يتركون أثرهم على التاريخ، وهو بما توافر له من السمات الهامّة المكوّنة للشخصيّة القياديّة والعوامل والمؤثّرات الأسريّة والثقافيّة التي تعاورت على بناء شخصيّته كان لا بدّ أن يكون قائدًا لأنّه خلق ليكون كذلك، لأنّ القيادة طاقة يمتلك الهادي مخزونًا ضخمًا منها، وقدرة أن يصرفها، وقد تساعده الظروف وقد لا تساعده وفي هذا تتفاوت خطوط عظماء التاريخ .

وصلّى الله على محمّد وعلى آله الطاهرين.